الكِفايـة

في التَّفسيرِ بالمأثورِ والدِّرايـة

تأليف الفقير إلى رحمة ربه
عبدالله خضر حمد
باحث عراقي

الجزء الثاتي
سورة البقرة الآية [١-٦٠]

منشور إلكترونياً
١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م

حقوق النسخ والطبع والنشر مسموح بها لكل مسلم

ملاحظة:

إلى الذين يرغبون بطبع التفسير من دور النشر والجهات الخيرية، يرجى مراسلة المؤلف -لطفا وتكرما- على البريد الالكتروني الآتي، وذلك لإرسال التفسير بأحدث نسخة إن شاء الله، وفقنا الله تعالى وإيَّاكم لما يرضيه برحمته، آمين.

abdulla.khdhir@gmail.com

{بسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة «البقرة»

سورة «**البقرة**»: هي السورة الثانية من حيث الترتيب في المصحف الشريف، وعدد آياتها مائتان وست وثمانون آية، وعدد كلماتها ستَّة آلاف كلمة، ومائة وإحدى وعشرون كلمة، وحروفها خمس وعشرون ألفاً وخَمْسمائة حرف، وبها أطول آية في القرآن وهي آية «الدين» رقم (٢٨٢)، مجموع فواصل (نهايات) آياتها (ق م ل ن د ب ر) ويجمعها (قم لندّبر)، وعلى اللاّم آية واحدة: {أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ} [البقرة : ١٠٨]، وعلى القاف آية واحدة: {وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ} [البقرة : ٢٠٠]، آخر الآية المائتين(١).

- **اسماء السورة:**

أولا:- أسماؤها التوقيفية:

١- سورة «البقرة»:

سميت "سورة البقرة" بهذا الاسم، بسبب ما ورد فيها من قصة موسى عليه السلام مع قومه، بشأن القتيل الذي لم يعرف قاتله، فأمر الله موسى أن يأمر قومه أن يذبحوا بقرة أياً كانت، ويبين ذلك القرآن الكريم في قوله تعالي: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ} [البقرة: ٦٧]، ولكنهم كعادتهم في صد الحق شدّدوا في طلب أوصافها فشدّد الله عليهم وهذه القصة مما انفردت بها هذه السورة.

ومن السنة جاءت التسمية في أحاديث منها:

- حديث أبي مسعود البدر(٢) رضي الله عنه قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم" الآيتان من آخر سورة البقرة من قرأهما في ليلة كفتاه"(٣).

- وعنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنْ الْبَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ"(٤).

- وعن أبي أمامة(٥) تعالى قال: " سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ(٦) أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ(٧) تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ "(٨).

---

(١) انظر: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (المتوفى: ٨١٧هـ)، المحقق: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة:ص١٣٣/١-١٣٤.

(٢)قال عنه الذهبي في سير أعلام النبلاء "ولم يشهد بدرا على الصحيح، وإنما نزل ماء ببدر، فشهر بذلك. وكان ممن شهد بيعة العقبة، وكان شابا من أقران جابر في السن. روى أحاديث كثيرة. وهو معدود في علماء الصحابة. نزل الكوفة. واسمه: عقبة بن عمرو بن ثعلبة بن أسيرة بن عسيرة الأنصاري. وقيل: يسيرة بن عسيرة - بضمهما - بن عطية بن خدارة بن عوف بن الحارث بن الخزرج.

(٣)البخاري رقم/٣٧٠٧- باب شهود الملائكة بدر، ومسلم رقم/ ١٣٤٠- بَاب فَضْلِ الْفَاتِحَةِ وَخَوَاتِيمِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ.

(٤)مسلم رقم(١٣٠٠): بَاب اسْتِحْبَابِ صَلَاةِ النَّافِلَةِ فِي بَيْتِهِ وَجَوَازِهَا فِي الْمَسْجِدِ.

(٥)أبو أمامة الباهلي صاحب رسول الله -صلى الله عليه وسلم - ونزيل حمص. روى: علما كثيرا. وحدث عن: عمر، ومعاذ، وأبي عبيدة. روى عنه: خالد بن معدان، والقاسم أبو عبد الرحمن، وسالم بن أبي الجعد، وشرحبيل بن مسلم، وسليمان بن حبيب المحاربي، ومحمد بن زياد الألهاني، وسليم بن عامر، وأبو غالب حزور، ورجاء بن حيوة، وآخرون. وروي: أنه بايع تحت الشجرة.-سير أعلام النبلاء للذهبي مختصرا.(٣/٣٥٩) .

(٦)قال أهل اللغة: الغمامة والغياية، كل شيء أظل الإنسان فوق رأسه من سحابة وغبرة وغيرهما. قال العلماء: المراد أن ثوابهما يأتي كغمامتين.

(٧)قال النووي في شرح مسلم " ومعناهما واحد، وهما قطيعان وجماعتان، يقال في الواحد: فرق وحزق وحزيقة أي جماعة" .

(٨)أخرجه مسلم برقم/ ١٣٣٧- بَاب فَضْلِ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ وَسُورَةِ الْبَقَرَةِ.

- روي في الصحيح عن ابن مسعود أنه قال: " هذا مقام الذي أنزلت عليه سورة البقرة"[1].

٢- سورة الزهراء:

كما واشتهرت تسمية السورة مع آل عمران بالزهراوين، والزهراوان أي: المضيئتان، واحدتها زهراء[2]، ووجه تسميتهما بذلك لنورها وهدايتهما وعظيم أجرهما[3].

وقد وردت تسميتها بذلك في حديث النبي صلى الله عليه وسلم، فيما رواه أبو أمامة الباهلي، إذ قال: "سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ ..الحديث "[4].

وذكر القرطبي في وجه التسمية ثلاثة أقوال[5]:

أحدها: إنهما النيرتان، مأخوذ من الزّهْر والزُّهْرة ؛ فإما لهدايتهما قارئهما بما يزهر له من أنوارهما، أي من معانيهما.

الثاني: وإما لما يترتب على قراءتهما من النور التام يوم القيامة.

الثالث: سميتا بذلك لأنهما اشتركتا فيما تضمنه اسم الله الأعظم[6] ؛ كما ذكره أبو داود وغيره عن أسماء بنت يزيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين {وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} والتي في آل عمران {اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} "[1][2].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: (١٧٤٨): ٨٧/٩، والحديث بتمامه(عَنْ ابْنِ مَسْعُود أَنَّهُ رَمَى الجَمْرَة مِنْ بَطْنِ الوَادِي فَجَعَلَ البَيْت عَنْ يَسَاره وَمِنًى عَنْ يَمِينه ثُمَّ قَالَ هَذَا مَقَام الَّذِي أُنْزِلَتْ عَلَيْهِ سُورَة البَقَرَة).

(٢) انظر: اللسان، مادة(ز هـ ر): ٣٣٢/٤.

(٣) انظر: شرح النووي لمسلم: ٨٩/٦.

(٤)أخرجه مسلم برقم/ ١٣٣٧- بَاب فَضْلِ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ وَسُورَةِ الْبَقَرَةِ.

(٥) أنظر: تفسير القرطبي: ٣/٤.

(٦) ورد في خصوص " اسم الله الأعظم " عدة أحاديث ، أشهرها:

١- عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (اسْمُ اللَّهِ الأَعْظَمُ فِي سُوَرٍ مِنَ القُرآن ثَلاثٍ : فِي " البَقَرَةِ " وَ " آلِ عِمرَانَ " وَ " طَهَ). رواه ابن ماجه (٣٨٥٦) وحسَّنه الألباني في " صحيح ابن ماجه".

٢- عَنْ أَنَسٍ أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسًا وَرَجُلٌ يُصَلِّي ثُمَّ دَعَا " اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الحَمْدُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ المَنَّانُ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَا ذَا الجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ " ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (لَقَدْ دَعَا اللَّهَ بِاسْمِهِ العَظِيمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى. (رواه الترمذي (٣٥٤٤) وأبو داود (١٤٩٥) والنسائي (١٣٠٠) وابن ماجه (٣٨٥٨) ، وصححه الألباني في " صحيح أبي داود ").

٣- عن بُرَيْدَةَ بن الحُصَيْب أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ " اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ " ، فَقَالَ : (لَقَدْ سَأَلْتَ اللَّهَ بِالِاسْمِ الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ. (رواه الترمذي (٣٤٧٥) وأبو داود (١٤٩٣) وابن ماجه (٣٨٥٧) ، وصححه الألباني في " صحيح أبي داود. " قال الحافظ ابن حجر – رحمه الله: - وهو أرجح من حيث السند من جميع ما ورد في ذلك. (فتح الباري : ١١ / ٢٢٥).

٤- عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ : (وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ) ، وَفَاتِحَةِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ (الم . اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ. (رواه الترمذي (٣٤٧٨) وأبو داود (١٤٩٦) وابن ماجه (٣٨٥٥).

والحديث ضعيف ، فيه عبيد الله بن أبي زياد وشهر بن حوشب ، وكلاهما ضعيف.

ثانياً: قد اختلف أهل العلم في " اسم الله الأعظم " من حيث وجوده على أقوال:

القول الأول: إنكار وجوده أصلاً ! لاعتقادهم بعدم تفضيل اسم من أسماء الله تعالى على آخر ، وقد تأول هؤلاء الأحاديث الواردة السابقة فحملوها على وجوه:

الوجه الأول : من قال بأن معنى " الأعظم " هو " العظيم " وأنه لا تفاضل بين أسماء الله تعالى.

قال الحافظ ابن حجر – رحمه الله: - وقد أنكره قوم كأبي جعفر الطبري وأبي الحسن الأشعري وجماعة بعدهما كأبي حاتم بن حبان والقاضي أبي بكر الباقلاني فقالوا : لا يجوز تفضيل بعض الأسماء على بعض ، ونسب ذلك بعضُهم لمالك ؛ لكراهيته أن تعاد سورة أو تردد دون غيرها من السور لئلا يُظن أن بعض القرآن أفضل من بعض فيؤذن ذلك باعتقاد نقصان المفضول عن الأفضل ، وحملوا ما ورد من ذلك على أن المراد بالأعظم : العظيم ، وأن أسماء الله كلها عظيمة ، وعبارة أبي جعفر الطبري : " اختلفت الآثار في تعيين الاسم الأعظم والذي عندي : أن الأقوال كلها صحيحة إذ لم يرد في خبر منها أنه الاسم الأعظم ، ولا شيء أعظم منه " ، فكأنه يقول : كل اسم من أسمائه تعالى يجوز وصفه بكونه أعظم ، فيرجع إلى معنى عظيم كما تقدم.

الوجه الثاني : أن المراد بالأحاديث السابقة بيان مزيد ثواب من دعا بذلك الاسم.
قال الحافظ ابن حجر – رحمه الله: - وقال ابن حبان : الأعظمية الواردة في الأخبار : إنما يراد بها مزيد ثواب الداعي بذلك ، كما أطلق ذلك في القرآن ، والمراد به : مزيد ثواب القارئ.
الوجه الثالث : أن المراد بالاسم الأعظم حالة يكون عليها الداعي ، وهي تشمل كل من دعا الله تعالى بأي اسم من أسمائه ، إن كان على تلك الحال.
قال الحافظ ابن حجر – رحمه الله: - وقيل : المراد بالاسم الأعظم : كل اسم من أسماء الله تعالى دعا العبد به مستغرقاً بحيث لا يكون في فكره حالتئذ غير الله تعالى ، فإن من تأتَّى له ذلك : استجيب له ، ونقل معنى هذا عن جعفر الصادق ، وعن الجنيد، وعن غيرهما.
القول الثاني: قول من قال بأن الله تعالى قد استأثر بعلم تحديد اسمه الأعظم ، وأنه لم يُطلع عليه أحداً من خلقه ، قال الحافظ ابن حجر – رحمه الله: - وقال آخرون : استأثر الله تعالى بعلم الاسم الأعظم ولم يطلع عليه أحداً من خلقه. انظر: " فتح الباري " ، للحافظ ابن حجر (١١ / ٢٢٤).
القول الثالث: قول من أثبت وجود اسم الله الأعظم وعيَّنه ، وقد اختلف هؤلاء المعينون في الاسم الأعظم على أربعة عشر قولاً ! وقد ساقها الحافظ ابن حجر رحمه الله في كتابه " فتح الباري " (١١ / ٢٢٤ ، ٢٢٥) وهي:
١. هو ! ٢. الله ٣. الله الرحمن الرحيم ٤. الرحمن الرحيم الحي القيوم ٥. الحي القيوم ٦. الحنان المنان بديع السماوات والأرض ذو الجلال والاكرام الحي القيوم ٧. بديع السماوات والأرض ذو الجلال والاكرام ٨. ذو الجلال والإكرام ٩. الله لا إله إلا هو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ١٠. رب رب ١١. دعوة ذي النون في بطن الحوت " لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين " ١٢. هو الله الله الذي لا إله إلا هو رب العرش العظيم ١٣. هو مخفي في الأسماء الحسنى ١٤. كلمة التوحيد " لا إله إلا الله" .
قال الشيخ الألباني رحمه الله: واعلم أن العلماء اختلفوا في تعيين اسم الله الأعظم على أربعة عشر قولاً ، ساقها الحافظ في " الفتح " ، وذكر لكل قول دليله ، وأكثرها أدلتها من الأحاديث ، وبعضها مجرد رأي لا يلتفت إليه ، مثل القول الثاني عشر ؛ فإن دليله : أن فلاناً سأل الله أن يعلّمه الاسم الأعظم ، فرأى في النوم ؛ هو الله ، الله ، الله ، الذي لا إله إلا هو رب العرش العظيم !!.
وتلك الأحاديث منها الصحيح ، ولكنه ليس صريح الدلالة ، ومنها الموقوف كهذا ، ومنها الصريح الدلالة ؛ وهو قسمان:
قسم صحيح صريح ، وهو حديث بريدة : (الله لا إله إلا هو الأحد الصمد الذي لم يلد ...) إلخ ، وقال الحافظ : " وهو أرجح من حيث السند من جميع ما ورد في ذلك " ، وهو كما قال رحمه الله ، وأقره الشوكاني في " تحفة الذاكرين " (ص ٥٢) ، وهو مخرج في " صحيح أبي داود "(١٣٤١).
والقسم الآخر : صريح غير صحيح ، بعضه مما صرح الحافظ بضعفه ؛ كحديث القول الثالث عن عائشة في ابن ماجه (٣٨٥٩) ، وهو في " ضعيف ابن ماجه " رقم (٨٤١) ، وبعضه مما سكت عنه فلم يحسن ! كحديث القول الثامن من حديث معاذ بن جبل في الترمذي ، وهو مخرج في " الضعيفة " برقم (٤٥٢٠).
وهناك أحاديث أخرى صريحة لم يتعرض الحافظ لذكرها ، ولكنها واهية ، وهي مخرجة هناك برقم (٢٧٧٢ و ٢٧٧٣ و ٢٧٧٥. (سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة " (١٣ / ٢٧٩).
ثالثاً: لعل الأقرب من تلك الأقوال أن الاسم الأعظم هو " الله " ؛ فهو الاسم الجامع لله تعالى الذي يدل على جميع أسمائه وصفاته تعالى ، وهو اسم لم يُطلق على أحد غير الله تعالى ، وعلى هذا أكثر أهل العلم.
١- قال ابن القيم – رحمه الله: - اسم " الله " دالٌّ على جميع الأسماء الحسنى والصفات العليا بالدلالات الثلاث. ... (مدارج السالكين : ١ / ٣٢). والدلالات الثلاث هي : المطابقة والتضمن واللزوم.
٢- وقال ابن أمير حاج الحنفي – رحمه الله: - عن محمد بن الحسن قال : سمعتُ أبا حنيفة رحمه الله يقول : اسم الله الأعظم هو " الله " , وبه قال الطحاوي وكثير من العلماء , وأكثر العارفين. " التقرير والتحبير " (١ / ٥)
٣- وقال أبو البقاء الفتوحي الحنبلي – رحمه الله: - فائدتان:
الأولى : أن اسم " الله " علم للذات , ومختص به , فيعم جميع أسمائه الحسنى.
الثانية : أنه اسم الله الأعظم عند أكثر أهل العلم الذي هو متصف بجميع المحامد. (شرح الكوكب المنير: ٤)
٤- وقال الشربيني الشافعي – رحمه الله: - وعند المحققين أنه اسم الله الأعظم ، وقد ذكر في القرآن العزيز في ألفين وثلثمائة وستين موضعاً. "مغني المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج " (١ / ٨٨ ، ٨٩).
٥- وقال الشيخ عمر الأشقر – رحمه الله: - والذي يظهر من المقارنة بين النصوص التي ورد فيها اسم الله الأعظم أنّه : (الله) ، فهذا الاسم هو الاسم الوحيد الذي يوجد في جميع النصوص التي قال الرسول صلى الله عليه وسلم إنّ اسم الله الأعظم ورد فيها.
ومما يُرجِّح أن (الله) هو الاسم الأعظم أنه تكرر في القرآن الكريم (٢٦٩٧) سبعاً وتسعين وستمائة وألفين - حسب إحصاء المعجم المفهرس - وورد بلفظ (اللهم) خمس مرات ، في حين أنّ اسماً آخر مما يختص بالله تعالى وهو (الرحمن) لم يرد ذكره إلا سبعاً وخمسين مرة ، ويرجحه أيضاً : ما تضمنه هذا الاسم من المعاني العظيمة الكثيرة ". العقيدة في الله " (ص ٢١٣).

ثانيا:-أسماؤها الاجتهادية:

ولهذه السورة عدة تسميات اجتهادية:

١-سنام القرآن:

سنام كل شيء أعلاه، والجمع :«أسنة»[٣].وردت تسميتها بـ«سنام القرآن»، لدى بعض العلماء كالألوسي[٤] والسيوطي[٥]، ولعل وجه التسمية تعود إلى كون سورة البقرة أطول سور القرآن، ومن أوله، وهي تشمل على العديد من المقاصد والأحكام الشرعية والمواعظ والعبر والله أعلم، وهو بذلك وصف تشريفي للسورة.

واستدلوا بما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحاديث منها:

-عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن لكل شيء سناماً وإن سنام القرآن البقرة وإن من قرأها في بيته ليلة لم يدخله الشيطان ثلاث ليال ومن قرأها في بيته نهاراً لم يدخله الشيطان ثلاثة أيام"[٦].

-عن معقل بن يسار رضي الله عنه قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " البقرة سنام القرآن وذروته، نزل مع كل آية منها ثمانون ملكاً، واستخرجت " ٱللَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ " [آل عمران:٢] من تحت العرش فوصلت بها - أو فوصلت بسورة البقرة - ويس قلب القرآن لا يقرؤها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غفر له، واقرؤوها على موتاكم "[٧].

-روى الترمذي من حديث حكيم بن جبير وفيه ضعف عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لكل شيءٍ سنام وإن سنام القرآن سورة البقرة وفيها آية هي سيدة آي القرآن آية الكرسي"[٨].

-عنْ عبدِاللَّهِ بن مسعود:" أَنَّهُ قالَ: إنَّ لكلّ شيءٍ سَناماً، وإنَّ سنامَ القرآن سورةُ البقرةِ، وإنَّ لكلّ شيءٍ لُباباً، وإنَّ لبابَ القرآنَ المفصَّلُ"[٩].

قال ابن منظور: " سنام كل شيء أعلاه؛ وفي شعر حسَّان[١٠]:

وإِن سَنامَ الـمَجْدِ من آلِ هاشِمٍ ... بَنُو بِنتِ مَخْزومٍ ووالدُك العَبْدُ

أَي : أَعلى الـمجد، وقوله أَنشده ابن الأَعرابي: "قَضى القُضاة أَنها سَنامُها " فسَّره فقال معناه خِيارُها لأَن السَّنام خِيارُ ما في البعير سَنَّم الشيءَ رَفَعَه "[١١].

٢- ذروة القرآن:

وتعود هذه التسمية لحديث معقل بن يسار سبق ذكره: " البقرة سنام القرآن وذروته.. " [١٢].

٣- فسطاط القرآن:

الفسطاس- بالضم والكسر- المدينة التي فيها مجتمع الناس، وكل مدينة فسطاس[١]، وسميت هذه السورة بفسطاس القرآن، وذلك لعظمها وبهائها، ولإحاطتها بأحكام ومواعظ كثيرة لم تذكر في غيرها[٢]، ولهذا قيل بأن " ابن عمر تعلم سورة البقرة في أربع سنين"[٣].

ويأتي في الدرجة الثانية من القوة في كونه اسم الله الأعظم " الحي القيوم " ، وهو قول طائفة من العلماء ، ومنهم النووي ، ورجحه الشيخ العثيمين رحمه الله. والله أعلم

(١) تفسير القرطبي: ٤/٣.

(٢)رواه الترمذي (٣٤٧٨) وأبو داود (١٤٩٦) وابن ماجه (٣٨٥٥)

(٣) اللسان: مادة (س ن م): ٣٠٦/١٢).

(٤) ينظر تفسيره: ٩٨/١.

(٥) انظر: الإتقان في علوم القرآن: ١٧١/١، والبصائر: ١٣٤/١.

(٦)رواه ابن حبان في صحيحه (١٨٨/١).

(٧)رواه النسائي في اليوم والليلة ص:٢٠١.

(٨)سنن الترمذي الحديث رقم (٢٨٧٨).

(٩) رواه الدارمي رقم الحديث (٣٣٧٢).

(١٠)ديوانه ط بيروت: ٨٩، ولسان العرب: ٣٠٦/١٢.

(١١) لسان العرب(٣٠٦/١٢) النهاية في غريب الحديث لابن الاثير(٤٠٩/٢).

(١٢) رواه النسائي في اليوم والليلة ص:٢٠١.

وقد ذكر هذا الاسم جماعة من المفسرين مثل: ابن عطية[٤] والقرطبي[٥]، والثعالبي[٦]، والألوسي[٧]، كما ذكره الكرماني[٨] في العجائب، والسيوطي في الإتقان. واستدلوا في قولهم على:

-ما رواه الديلمي عن أبي سعيد الخدري مرفوعا : " السورة التي تذ كر فيها البقرة فسطاط القرآن فتعلموها؛ فإن تعلمها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة"[٩].

-وما روى الدارمي عَنْ خالدِ بن معدانَ قالَ:"سورةُ البقرةِ تعليمُهَا بركةٌ وتركُهَا حسرةٌ، وَلاَ يستطيعُهَا البَطَلَةُ وهِيَ فُسطاطُ القرآن"[١٠].

و(الفُسْطاط) بالضم والكسر: "المدينة التي فيها مُجْتَمَع الناس. وكل مدينة فُسْطاط، وقال الزمخشري: هو ضَرْب من الابنْيَة في السَّفر دون السُّرادِق وبه سُمِّيت المدينه. ويقال لمِصْروالبَصْرة: الفُسْطاط " [١١].

٤- سيدة سور القرآن:

روي عن علي مرفوعا: " سيدُ البشر آدمُ وسيد العربِ محمدٌ ولا فخرٌ وسيدُ الفُرس سلمانُ وسيدُ الرومِ صُهيبٌ وسيدُ الحبشةِ بلالٌ وسيد الجبال الطورُ وسيدُ الأيام يومُ الجمعة وسيدُ القرآن سورةُ البقرة وسيدُ البقرةِ آيةُ الكرسي "[١٢].

---

(١) انظر: النهاية: ٤٤٥/٣. وفي الفائق: "الفسطاس ضرب من الأبنية في السفر دون السرادق".(١١٦/٣).

(٢) انظر: المحرر الوجيز: ٨١/١، تفسير القرطبي: ١٥٢/١، الإتقان: ١٧١/١.

(٣)قاله ابن سعد في الطبقات، طبعة دار صادر: ١٦٤/٤. وهنا تجب الاشارة إلى أمرين:

١- أن الخبر المشهور أن عمر تعلم البقرة في اثنتي عشرة سنة: وهذا الخبر مشهور جداً وتتداوله الألسنة والأقلام والصحيح أنه لا يثبت؛فقد روى البيهقي في الشعب(١٣١/٤ ط.وزاة الأوقاف القطرية :(٨٠٥)، وأخبرنا أبو الحسين بن الفضل القطان، حدثنا أبو علي محمد بن أحمد بن الحسن الصواف، حدثنا بشر بن موسى حدثنا أبو بلال الأشعري، حدثنا مالك بن أنس، عن نافع، عن ابن عمر قال:(تعلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه البقرة في اثنتي عشرة سنة، فلما ختمها نحر جزوراً). أقول: إسناده ضعيف بسبب أبي بلال الأشعري فقد نص على ضعفه الدارقطني في سننه (حديث رقم٨٤٦ ط.دار الفكر)، وقد سقطت في نسخة المكتبة الشاملة الموافقة للمطبوع كلمة حدثنا بين بشر بن موسى الأسدي وأبي بلال الأشعري- والتصحيح من المطبوع- فلينتبه لهذا.فعليه الأثر لا يثبت.

٢- أثر تعلم عبد الله بن عمر البقرة في ثماني سنين قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مقدمة التفسير(ص٣١ تحقيق عدنان زرزور):"وأقام ابن عمر على حفظ البقرة عدة سنين قيل ثمان سنين ذكره مالك". أقول: الخبر الذي فيه أن ابن عمر رضي الله عنه حفظها في ثمان سنين جاء بلاغاً في موطأ مالك؛فعن مالك(٤٨٨تحقيق خليل مأمون) أنه بلغه أن عبد الله بن عمر مكث على سورة البقرة ثماني سنين يتعلمها، وهذا لا يثبت من وجه مسند-بحسب بحثي وتصدير ابن تيمية له بقيل يُشعر أنه لا يثبت عنده-وقد أشار السيوطي في تنوير الحوالك(١٦٢/١) إلى خبر موصول عند ابن سعد في الطبقات حيث قال ابن سعد في الطبقات(١٦٤/٤ ط دار صادر):أخبرنا أخبرنا عبد الله بن جعفر قال: حدثنا أبو المليح، عن ميمون أن ابن عمر تعلم سورة البقرة في أربع سنين. أقول:وهذا إسناد صحيح ولا يضر الكلام عن اختلاط عبد الله بن جعفر الرقي فقد نص ابن حبان أنه كان يسيراً.والله أعلم.

والعلة في أنه حفظها في أربع سنين ليس لبطء حفظ فهو أحد الحفاظ المكثرين من حديث المطصفى صلى الله عليه وسلم لكن كما قال الباجي فيما نقل عنه السيوطي في التنوير:" ليس ذلك لبطء حفظه معاذ الله بل لأنه كان يتعلم فرائضها وأحكامها وما يتعلق بها" ولهذا أشار شيخ الإسلام ابن تيمية في المقدمة فبعدما قال ما نقلته عنه أولاً قال(ص٣١-٣٢): " وذلك أن الله تعالى قال:(كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته)وقال:(أفلا يتدبرون القرآن) وقال: (أفلم يدبروا القول)وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن"اهـ كلامه رحمه الله، فهو يشير رحمه الله أن هذه المدة التي قضاها ابن عمر في حفظ القرآن كان يحفظ ألفاظها ويتعلم أحكامها ويعمل بما فيها لا كما يفعل كثير من الجهلة اليوم الذين يتعاملون مع مسألة حفظ القرأن وكأنه لعبة من الألعاب من ينتهي قبل الثاني في أسرع وقت ممكن !!! فيخرج هذا الجاهل حافظاً للألفاظ فقط فلا علم ولا عمل فلم يزد إلا أن أقام حججاً عليه بعدد الآيات التي حفظها والله المستعان.

(٤) انظر: تفسيره: ٨١/١.

(٥) انظر: تفسيره: ١٥٢/١.

(٦) انظر: تفسيره الجواهر الحسان: ٢٨/١.

(٧) انظر تفسيره: ٩٨/١.

(٨) انظر غرائب التفسير وعجائب التأويل:١٠٧/١.:

(٩)في مسند الفردوس ص:٥٥.

(١٠) سنن الدارمي رقم الحديث (٣٣٧١).

(١١)النهاية في غريب الحديث لابن الأثير(٤٤٥/٣)لسان العرب (٣٧٢/٧).

(١٢)مفاتيح الغيب للرازي (٥٦/٢).

٥- كرسي القرآن:

تفرد بهذا الاسم الفيروزآبادي[١]، وعلل في تسميتها بهذا الاسم لاشتمالها على آية الكرسي وهي أعظم آيات القرآن، دون أن يذكر مستنده في ذلك.

نستنتج مما سبق بأن الأسماء التوفيقية للسورة هي (البقرة والزهراء)، أما بقية الأسماء فهي اجتهادية ومستنبطة من الأحاديث التي وردت فيها.

مكية السورة ومدنيتها:

اتفق أهل العلم على أنها مدنية[٢]، وأنها أول سورة أنزلت بها[٣]، قالت عائشة[٤]-رضي الله تعالى عنها-: "ما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده صلى الله عليه وسلم"[٥]، ولم يدخل عليها إلا بالمدينة[٦].

ويجدر القول بأن سورة البقرة قد استمر نزولها في العهد المدني، لذا لا يتصور إمكانية حصر أسباب نزولها في سبب واحد لتعدد الأسباب في نزول الآيات، وسوف نذكر أسباب النزول إن وجدت في سياق تفسير الآيات ومرجعيتنا في ذلك، والله المستعان.

مناسبة السورة لما قبلها:

ومن وجوه المناسبة بين هذه السورة وبين سورة «الفاتحة» التي قبلها:

١- أن «الفاتحة» مشتملة على بيان وصوف الربوبية أولا، وأحكام العبودية ثانيا، وطلب الهداية في الدنيا والآخرة لسبيل الفالحين وصراط المهتدين ثالثا. وكذلك سورة «البقرة» مشتملة على بيان معرفة الرب؛ وأدب المعاملة معه سبحانه؛ والأمر بتوحيده والتحذير من الكفر به، وتشتمل على العبادات وتفصيلها وما يتعلق بها، وعلى بيان ما يحتاج العبد إليه في الدنيا والآخرة لهدايته الصراط المستقيم الذي يطلبه المؤمنون في آخر سورة الفاتحة، وفي أول البقرة يومئ السياق القرآني الحكيم إلى ذلك في قوله تعالى: {ذلك الكتاب لا ريب فيه هُدىً لِلمُتَّقِينَ} [البقرة: ٢].

---

(١) انظر: البصائر: ١٣٤/١.

(٢) ذكر الاتفاق على مدنيتها: الماوردي في النكت والعيون: ٦٣/١، والعز بن عبد السلام في تفسير القرآن: ٩٣/١، وابن كثير في تفسير القرآن العظيم: ٤٩/١ و٥٠، وحكاه السيوطي في الإتقان: ١٤/١-١٥ عن أبي الحسن بن الحصار في كتابه الناسخ والمنسوخ، كما ذكر الاتفاق على مدنيتها القاسمي في محاسن التأويل: ٣١/٢، وابن عاشور في التحرير والتنوير: ٢٠١/١. والقول بمدنيتها قول ابن عباس وزيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير والحسن ومجاهد وعكرمة وجابر بن زيد وقتادة ومقاتل. انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٥٠/١، زاد المسير لابن الجوزي: ١٩/١-٢٠، الدر المنثور للسيوطي: ٤٦/١ والإتقان له: ١٢/١-١٥. وقد قال بذلك أيضاً: ابن عطية في المحرر الوجيز: ٩٣/١، والزركشي في البرهان في علوم القرآن: ١٩٤/١، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ١٥٢/١، والألوسي في روح المعاني: ٩٨/١. واستثنى الماوردي في النكت والعيون: ٦٣/١، والعز في تفسير القرآن: ٩٣/١ وقوم كما ذكر ذلك ابن الجوزي في زاد المسير: ٢٠/١ قوله-عز وجل-: {وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ} [البقرة:٢٨١]، قالوا: فإنها أنزلت يوم النحر بمنى في حجة الوداع. وليست بمستثناة على التعريف المختار، وهو: أن المكي ما نزل قبل الهجرة وإن كان بالمدينة، والمدني ما نزل بعد الهجرة وإن كان بمكة، نبه على ذلك الزركشي في البرهان في علوم القرآن: ١٨٧/١، وانظر: الإتقان للسيوطي: ١١/١-١٢. وإنما يدل ذلك على أن سورة البقرة لم تنزل جملة واحدة بل في مدد شتى كما ذكر ذلك ابن عطية في المحرر الوجيز: ٩٣/١ والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ١٥٢/١. كما ذكر السيوطي في الإتقان: ١٩/١ أنه اُستثني منها آيتان: {فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا} [البقرة:١٠٩]، {لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ} [البقرة: ٢٧٢] وهذا خلاف ما ذكره ابن كثير في تفسيره: ٤٩/١ من أن سورة البقرة جميعها مدنية بلا خلاف. وعلى القول بعدم مدنية هاتين الآيتين فإن ذلك لا يخرج السورة عن كونها مدنية، انظر: روح المعاني للألوسي: ٩٨/١. وقد ذكر الصابوني في تعليقه على معاني القرآن للنحاس: ٧٣/١ أن القول بمدنيتها قول الجمهور، ولم يأت على ذكر مخالف.

(٣) حكى الاتفاق على ذلك ابن عاشور في التحرير والتنوير: ٢٠١/١ وهو قول ابن عباس وعكرمة. انظر: زاد المسير لابن الجوزي: ١٩/١، والدر المنثور للسيوطي: ٤٦/١، وقال به ابن كثير في تفسيره: ٤٩/١، والزركشي في البرهان: ١٩٤/١.

(٤) هي: أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق القرشية التيمية، أم عبد الله، تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة وبنى بها في المدينة، وكانت أحب أزواجه إليه، ولم يتزوج بكراً غيرها، أعلم نساء الأمة وأفقههن على الإطلاق، توفيت عام: ٥٧ أو ٥٨هـ. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي: ١٣٥/٢، البداية والنهاية لابن كثير: ٩١/٨، الإصابة لابن حجر: ٣٤٨/٤.

(٥) البخاري-فتح-: ٦٥٥/٨ رقم: ٤٩٩٣.

(٦) ذكر ابن حجر في الفتح: ٦٥٧/٨ والسيوطي في الإتقان: ١٦/١ الاتفاق على ذلك، وكان بناء النبي صلى الله عليه وسلم بعائشة بعد بدر في شوال من السنة الثانية من الهجرة، وقيل: في السنة الأولى. انظر: المصادر المذكورة في الهامش رقم: (١).

٢- لما افتتح سبحانه «الفاتحة» بالأمر الظاهر المحكم الذي يلتبس {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الفاتحة : ٢]؛ وكان وراء كل ظاهرٍ في عالم الشهادة غيب وباطنٌ يجب على المتقين الإيمان به. افتتح الله تعالى سورة «البقرة» بما بطن سره وخفي أمره إلا على من شاء الله تعالى فقال سبحانه: {الم} [البقرة : ١]، وهى الحروف المقطعة التي يجب الايمان بحكمتها وتفويض معانيها للرب العلى إيمانا بالغيب الذي امتحن الله تعالى المتقين به ومدحهم على الإيمان به وبأمثاله من الغيب.. ولهذا قال الشعبي: " لكل كتاب سر، وسر القرآن: حروف التهجي في فواتح السور "(١)، وقال أيضا: "سر الله تعالى فلا تطلبوه"(٢).

يقول ابن عاشور:" وإذ قد كان نزول هذه السورة في أول عهد بإقامة الجامعة الإسلامية واستقلال أهل الإسلام بمدينتهم كان من أول أغراض هذه السورة تصفية الجامعة الإسلامية من أن تختلط بعناصر مفسدة لما أقام الله لها من الصلاح سعيا لتكوين المدينة الفاضلة النقية من شوائب الدجل والدخل"(٣)، ولعل هذا يدلك دلالة صريحة على اهمية ومكانة سورة البقرة ما يجعلها السورة الثانية بعد الفاتحة.

أغراض السورة ومقاصدها:

تتكوّن سورة البقرة بوحدتها الكاملة من مقدمة ثم أربعة مقاصد رئيسية تعقبها خاتمة، وفيها مقاصد الإسلام الكلية، ودلالات على أنّ القرآن الكريم كتاب هداية، وعلى لزوم الإيمان بالغيب. فأما مقدمتها فقد اعتنت بالتعريف بالقرآن الكريم وبيان ما فيه من هدىً وفلاحٍ للناس، وتأكيد أنّ ذلك بيّن واضح، لا يُنكره إلا من لا قلب له أو أن في قلبه مرض، وأما مقاصدها ففي ما يأتي بيانها:

١- دعوة الناس جميعاً لدين الإسلام، وترك ما كانوا عليه من أديان وعقائد أخرى، وإرشادهم إلى أنّ دين الإسلام هو الدين الحق الوحيد المقبول عند الله تعالى.
٢- الحديث حول أهل الكتاب ودعوتهم إلى التزام الحق الذي يدعو إليه القرآن الكريم واتّباعه، وترك أهوائهم وباطلهم واتباع دين الإسلام.
٣- التفصيل في الكلام والشرح عن شرائع دين الإسلام.
٤- الحديث حول الدافع والوازع الديني الذي يدفع الإنسان للالتزام بشرع الله عز وجل، وينهاه عن تركه أو إهماله ومخالفته.

وقد خُتمت سورة البقرة بخاتمة تبيّن حقيقة الذين استجابوا واتبعوا هذه الدعوة الشاملة وهي دعوة الإسلام والتزموا بما فيها من مقاصد وتشريعات، وتوضّح ما يُرجى لهم في الدنيا وفي الآخرة.

وقد ورد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه" مكث على سورة البقرة، ثماني سنين يتعلمها"(٤).

فظلّ الإمام ابن عمر ثماني سنين يتعلم ويحفظ سورة البقرة، ويسعى جاهداً لتحقيق ما فيها من أحكام وفرائض، وفي هذا دليل على أهمية مقاصد هذه السورة، وعظمة ما اشتملت عليه من أحكام في العبادات والمعاملات والعقيدة كذلك(٥).

وقد ثبت عن ابن عمر رضي الله عنه بإسناد صحيح متصل أنه مكث أربع سنين في تعلّم سورة البقرة، فقد روي ابن سعد عن عبد الله بن جعفر حدثنا أبو المليح عن ميمون " أن ابن عمر تعلّم سورة البقرة في أربع سنين"(٦).

---

(١)ذكره السمعاني في تفسيره:١٦٣/٢، ونسبه إلى الشعبي، ونسبه البقاعي إلى أبي بكر الصديق، ولفظه:" لكل كتاب سر وسر القرآن هذه الحروف، ولا يعلم ما هي إلا واضعها سبحانه"، انظر: نظم الدرر :٢٧٤/٢٠، وكذا الآلوسي نسبه إلى الصديق، انظر: روح المعاني:١٠٣/١.وانظر: تفسير الطبري:٢٠٩/١، ولم ينسبه. وذكره القرطبي :١٥٤/ ١، في تفسير سورة البقرة، عن أبي بكر وعلي-رضي الله عنها-،وفي هذا النسب ضعف، وذكره من أقوال عامر الشعبي وسفيان الثوري وجماعة من المحدثين فهو قول موقوف على هؤلاء العلماء إن صح عنهم.

(٢) انظر: تفسير الألوسي ١/ ١٠٣.

(٣)التحرير والتنوير:١/ ٢٠٢..

(٤) موطأ الإمام مالك(٦٩٥):ص٢٨٧/٢. تحقيق: الأعظمي.

(٥) انظر: مقاصد سورة البقرة، إسلام ويب.[بتصرف]

(٦)الطبقات الكبرى:(٤ / ١٦٤).

وهل التعلم في الأثرين هو الحفظ أم الفقه والفهم ؟ الأمر محتمل ، وقد كان هدي الصحابة ، وهممهم منصرفة إلى التفقه والفهم.

قال أبو عبد الرحمن السلمي - أحد أكابر التابعين - :" حدثنا الذين كانوا يُقرئوننا القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل ، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً"[١].

روى الطبري بسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : "كان الرجلُ منَّا إذا تعلمَ عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرفَ معانيهن والعمل بهن"[٢].

وهذا يدلُّ على أن الصحابة - رضي الله عنهم - نقلوا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنهم كانوا يتعلمون منه التفسير مع التلاوة[٣] ؛ فبين لأصحابه معاني القرآن كما بين لهم ألفاظه {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ} [النحل : ٤٤]، فنقل معاني القرآن عنه صلى الله عليه وسلم كنقل ألفاظه سواء ،بدليل قوله – تعالى: {وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} [النور : ٥٤]، وهذا يتضمن بلاغ المعنى ، وأنه في أعلى درجات البيان[٤].

قال الزرقاني – رحمه الله - : " ليس ذلك لبطء حفظه - معاذ الله - بل لأنه كان يتعلم فرائضها وأحكامها وما يتعلق بها ، فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم كراهة الإسراع في حفظ القرآن دون التفقه فيه ، ولعل ابن عمر خلط مع ذلك من العلم أبواباً غيرها ، وإنما ذلك مخافة أن يتأوله على غير تأويله"[٥].

الناسخ والمنسوخ:

ذكروا فيها ثلاثين آية منسوخة[٦]:

- أولها قوله تعالى: {وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} [البقرة : ٣]، اختلف أهل العلم في ذلك فقال طائفة وهم الأكثرون هي الزكاة المفروضة وقال مقاتل ابن حيان وجماعة هذا ما فضل عن الزكاة نسخته الزكاة المفروضة وقال أبو جعفر يزيد بن القعقاع نسخت الزكاة المفروضة كل صدقة في القرآن ونسخ صيام شهر رمضان كل صيام في القرآن ونسخ ذبيحة الأضحى كل ذبح.
- الآية الثانية قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا} [البقرة : ٦٢]، والناس في ذلك قائلان فقالت طائفة منهم مجاهد والضحاك ابن مزاحم هي محكمة وقدرونها ويقرؤونها بالمحذوف المقدر فيكون التقدير على قولهما: إن الذين آمنوا ومن آمن من الذين هادوا والنصارى، وقال الأكثرون هي منسوخة وناسخة عندهم : {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ} [آل عمران : ٨٥].
- الآية الثالثة: قوله تعالى: {وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا} [البقرة : ٨٣]، و{حسنا} فيها قولان:

قال عطاء بن أبي رباح وأبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب: هي محكمة، واختلفا بعد ما أجمعا على إحكامها، فقال محمد بن علي رضي الله عنه {وَقُولُوا لِلنَّاسِ}، أي: قولوا لهم إن محمدا رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

وقال عطاء بن أبي رباح: "وقولوا للناس ما تحبون أن يقال لكم"[٧].

وقال ابن جريج: "قلت لعطاء: إن مجلسك هذا قد يحضره البر والفاجر أفتأمرني أن أغلظ على الفاجر، فقال: لا، ألم تسمع إلى قول الله تعالى: {وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا}"[٨].

وقال جماعة هي منسوخة وناسخها عندهم قوله تعالى: {فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} [التوبة : ٥] الآية.

---

(١)الإتقان ، ٣٨٩/٢ ، التفسير الكبير ، ١٣٢/٢ .
(٢) تفسير الطبري(٨١):ص٨٠/١.
(٣)التفسيرالكبير ، ١٣٢/٢ .
(٤) الصواعق المرسلة ، ٤٤٠. .
(٥)شرح الزرقاني على موطأ الامام مالك: ٢٧/٢.
(٦) انظر: الناسخ والمنسوخ، هبة الله بن سلامة: ٣١-٥٩.
(٧) انظر: الناسخ والمنسوخ، هبة الله بن سلامة: ٣٢.
(٨) انظر: الناسخ والمنسوخ، هبة الله بن سلامة: ٣٣.

- الآية الرابعة: قوله تعالى: {فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا } [البقرة : ١٠٩]، نسخ ما فيها من العفو والصفح بقوله تعالى: {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ} [التوبة : ٢٩] إلى قوله: {وَهُمْ صَاغِرُونَ} [التوبة : ٢٩]، وباقي الآية محكم.
- الآية الخامسة: قوله تعالى: {وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ} [البقرة : ١١٥]، هذا محكم والمنسوخ منها قوله تعالى: {فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ} [البقرة : ١١٥]، وذلك أن طائفة أرسلهم النبي -صلى الله عليه وسلم- في سفر فعميت عليهم القبلة فصلوا إلى غير جهتها فلما تبينوا ذلك رجعوا إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فأخبروه فنزلت هذه الآية: {وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ} [البقرة : ١١٥].

وقال قتادة والضحاك وجماعة: "لما قدم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- المدينة صلى نحو بيت المقدس سبعة عشر شهرا ثم حول الى الكعبة"[١].

قال هبة الله:" وهذا قول الأكثرين من أهل التاريخ منهم معقل بن يسار والبراء بن عازب وقال قتادة ثمانية عشر شهرا وفيها رواية أخرى عن ابراهيم الحربي قال فيها ثلاثة عشر شهرا وقال آخرون قالت اليهود بعد تحويل القبلة لا يخلو محمد من أمرين إما أن يكون كان على حق فقد رجع عنه وإما أن يكون على باطل فما كان ينبغي له أن يقيم عليه فأنزل الله تعالى: {وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ}، الآية، ثم نسخت بقوله: {وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ} [البقرة : ١٤٤]"[٢].
- الآية السادسة: قوله تعالى: {وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ} [البقرة : ١٣٩]، نسخ هذا بآية السيف على قول الجماعة.
- الآية السابعة: قوله تعالى: {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ الله} [البقرة : ١٥٨]: هذا محكم، والمنسوخ قوله: {فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا} [البقرة : ١٥٨]، ومعناها: أن لا يطوف بهما، وكان على الصفا صنم يقال له إساف وعلى المروة صنم يقال له نائلة وكانا رجلا وأمرأة في الجاهلية فدخلا الكعبة فزنيا الكعبة فيها فمسخهما الله تعالى صنمين فوضعت المشركون الصنم الذي كان رجلا على الصفا والصنم الذي كان امرأة على المروة وعبدوهما من دون الله تعالى فلما أسلمت الأنصار تحرجوا أن يسعوا بينهما فأنزل الله تعالى: {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّه} [البقرة : ١٥٨]، الآية، ثم نسخ الله تعالى ذلك بقوله: {وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ} [البقرة : ١٣٠]، الآية.
- الآية الثامنة: قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى} [البقرة : ١٥٩]، إلى قوله: {وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ} [البقرة : ١٥٩]، نسخها الله تعالى عمن أسلم بالاستثناء وهو قوله تعالى {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا} [البقرة : ١٦٠].

وقال أبو هريرة:" لولا هذه الآية ما حدثتكم بشيء"[٣].

قال هبة الله:" ويقال من ورع العالم أن يتكلم ومن ورع الجاهل أن يسكت"[٤].
- الآية التاسعة: قوله تعالى: {إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ} [البقرة : ١٧٣] الآية، نسخ الله تعالى بالسنة بعض الميتة والدم بقوله عليه السلام: "أحلت لنا ميتتان ودمان السمك والجراد والكبد والطحال"[٥]، ثم

---

(١) انظر: الناسخ والمنسوخ، هبة الله بن سلامة:٣٤ .
(٢) الناسخ والمنسوخ:٣٤-٣٥.
(٣) انظر: الناسخ والمنسوخ، هبة الله بن سلامة: ٣٧.
(٤) الناسخ والمنسوخ: ٣٨.

(٥)أخرجه أحمد (٢/ ٩٧) أو رقم (٥٧٢٣) - شاكر- وابن ماجة (٣٢١٨، ٣٣١٤) والبيهقي في «السنن» (١/ ٢٥٤) وعبد بن حميد في «المنتخب من المسند» (٨٢٠) والبغوي في «شرح السنة» (١١/ ٢٤٤) والشافعي في «مسنده: (ص ٢٤٠ - العلمية) والدارقطني (٢/ ٢٧١) وابن عدي في «الكامل» (٤/ ١٥٨٢). من طريق: عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن ابن عمر مرفوعا.

وإسناده ضعيف؛ لأجل عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وهو ضعيف جدا.

قال: {وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّه} [البقرة : ١٧٣]، ثم رخص للمضطر وللجائع غير الباغي والعادي بقوله تعالى {فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ} [البقرة : ١٧٣].

- الآية العاشرة: قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِ} [البقرة : ١٧٨] الآية، وذلك أن حيين اقتتلا قبل الإسلام بقليل وكان لأحدهما على الآخر طول فلم يقتص أحدهما من صاحبه حتى جاء الإسلام فقال الأكثرون لا نرضى أن يقتل بالعبد منا إلا الحر منهم وبالمرأة منا إلا الرجل منهم فسوى الله تعالى بينهما في القصاص ونزل: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى} [البقرة : ١٧٨] إلى ههنا موضع النسخ وباقي الآية محكم وأجمع المفسرون على نسخ ما فيها من المنسوخ واختلفوا في ناسخها قال العراقيون وجماعة ناسخها الآية التي في المائدة وهي قوله تعالى: {وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْس} [المائدة : ٤٥] الآية. فإن قيل هذا كتب على بني إسرائيل كيف يلزمنا حكمه فالجواب على ذلك أن آخر الآية ألزمنا ذلك وهو قوله تعالى: {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُون} [المائدة : ٤٥].

وقال الحجازيون وجماعة: إن ناسخها الآية التي في بني إسرائيل وهي قوله تعالى: {وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْل} [الإسراء : ٣٣]، وقتل المسلم بالكافر إسراف وكذلك قتل الحر بالعبد لا يجوز عند جماعة من الناس.

وقال العراقيون: يجوز واحتجوا بحديث ابن البيلماني أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قتل مسلما بكافر معاهد وقال أنا أحق من وفي بعهده.

- الآية الحادية عشرة: قوله تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِين} [البقرة : ١٨٠]، نسخت بالكتاب والسنة فالكتاب قوله تعالى: {يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُم} [النساء : ١١] الآية، والسنة قوله عليه السلام: "ألا لا وصية لوارث"[1].

وتابعه أخوه عبد الله عند الدارقطني (٢/ ٢٧٢) وابن عدي في «الكامل» (٤/ ١٥٠٣) والبيهقي (١/ ٢٥٤) وكذا أخوه أسامة.

قال البيهقي: «أولاد زيد كلهم ضعفاء، جرحهم يحيى بن معين، وكان أحمد بن حنبل وعلي بن المديني يوثقان عبد الله بن زيد، إلا أن الصحيح من هذا الحديث الأول».

قلت: يريد الموقوف على ابن عمر، فقد أخرجه (١/ ٢٥٤) من طريق: ابن وهب، عن سليمان بن بلال، عن زيد بن أسلم، عن ابن عمر موقوفا.

وأخرجه الخطيب البغدادي في «تاريخه» (١٣/ ٢٤٥) من طريق: يحيى بن حسان، عن مسور بن الصلت، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري مرفوعا، بنحو منه.

وإسناده ضعيف جدا لأجل مسور بن الصلت؛ فهو متروك كما قال النسائي وغيره.

خلاصة القول أن الحديث لم يصحّ مرفوعا، ولكنه صحّ موقوفا والموقوف هنا له حكم المرفوع، لأن قول الصحابي: «أحلّ لنا كذا» أو «حرم علينا كذا». هو من نوع المرفوع كما هو مقرر في الأصول.

والحديث صحّحه موقوفا؛ أبو حاتم الرازي والدارقطني والبيهقي والنووي وابن حجر وأحمد شاكر والألباني وغيرهم.

انظر «المجموع» (٩/ ٢٥) و «التلخيص الحبير» (١/ ٣٦) و «فتح الباري» (٩/ ٥٣٦) و «كشف الخفاء» (١/ ٦٠ - ٦١/ ١٤٨) و «نصب الراية» (٤/ ٢٠٢) وتعليق العلامة أحمد شاكر على «المسند» (٨/ ١٠٢ - ١٠٥/ ٥٧٢٣) فقد أسهب في الكلام على الحديث و «الصحيحة» (١١١٨).

(١)أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٧) وأبو داود (٢٨٧٠) و (٣٥٦٥) والترمذي (٢١٢٠) وابن ماجة (٢٧١٣) وغيرهم، من حديث أبي أمامة الباهلي. وهو حديث صحيح، وفي الباب عن غيره من الصحابة تخريجها في

وقال جماعة الآية كلها محكمة ذهب الى ذلك الحسن البصري وطاووس وقتادة والعلاء بن زيد ومسلم بن يسار[1].

- الآية الثانية عشرة: قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة : ١٨٣]، اختلف الناس في الإشارة إلى من هي فقال بعضهم الإشارة الى الأمم الخالية وهو قول الأكثرين، وذلك أن الله تعالى ما أرسل نبيا إلا فرض عليه وعلى أمته صيام شهر رمضان فكفرت به الأمم كلها وآمنت به أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) فيكون التنزيل على هذا الوجه مدحا لهذه الأمة، وقال بعضهم الاشارة الى النصارى وذلك أنهم كانوا إذا أفطروا وأكلوا وشربوا جامعوا النساء ما لم يناموا وكان المسلمين كذلك وزيادة عليهم كانوا إذا أفطروا وأكلوا وشربوا جامعوا النساء ما لم يناموا ويصلوا العشاء الآخرة فعمد أربعون رجلا من المهاجرين والأنصار فجامعوا نساءهم بعد النوم منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه وذلك أنه رواد امرأته عن نفسها فقالت إني كنت قد نمت وكان أي الزوجين إذا نام حرم على الآخر فلم يلتفت الى قولها فجامعها فجاءت الأنصار فأقرت على أنفسها عند رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بفعالها وأقر عمر على نفسه بفعله فقال له النبي (صلى الله عليه وسلم) لقد كنت يا عمر جديرا أن لا تفعل فقام يبكي وكان النبي (صلى الله عليه وسلم) يمشي بالمدينة فرأى شيخا كبيرا من الأنصار يقال له صرمة بن قيس يكنى أبا قيس من بني النجار وهو يهادي بين رجلين ورجلاه تخطان الأرض خطا فقال له النبي (صلى الله عليه وسلم) ما لي أراك يا أبا قيس طليحا قال الشيخ هبة الله والطليح الضعيف فقال يا رسول أني دخلت على امرأتي البارحة فقالت علي رسلك أبا قيس حتى أسخن لك طعاما قد صنعته لك فمضت لإسخانه فحملتني عيناي فنمت فجائتني بالطعام فقالت الخيبة الخيبة حرم والله عليك الطعام والشراب فأصبحت طاويا وعملت في أرضي فغشي علي من الضعف فرق له النبي (صلى الله عليه وسلم) حتى دمعت عيناه وكان قصة صرمة قبل قصة عمر والأنصار فبدأ الله بقصة عمر والأنصار لأن الجناح في الوطء أعظم منه في الأكل والشرب فنزل: {أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ} [البقرة : ١٨٧]، إلى قوله: {فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ} [البقرة : ١٨٧] في شأن عمر والأنصار، ونزل في قصة صرمة قوله تعالى: {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا} [البقرة : ١٨٧]، إلى قوله: {ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ} [البقرة : ١٨٧]، فصارت هذه الآية ناسخة لقوله تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ} [البقرة : ١٨٣] الآية[2].
- الآية الثالثة عشرة: قوله تعالى: {وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ} [البقرة : ١٨٤]، وهذه الآية نصفها منسوخ ونصفها محكم وقد قرأت "يطوقونه"، فمن قرأ {يطيقونه} أراد يطيقون صيامه ومن قرأ يطوقونه يعني يكلفونه وكان الرجل في بدء الإسلام مخيرا إن شاء صام وإن شاء أفطر وأطعم مكان يومه مسكينا حتى قال الله تعالى فمن تطوع خيرا وأطعم مسكينا بمكان يومه كان أفضل والإطعام مد من طعام على قول أهل الحجاز وعلى قول أهل العراق نصف صاع حتى أنزل الله تعالى الآية التي تليها وهي قوله تعالى: {فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ} [البقرة : ١٨٥]، وهذا الظاهر يحتاج إلى كشف، ومعناه -والله أعلم- من شهد منكم الشهر حاضرا عاقلا بالغا صحيحا فليصمه فصار هذا ناسخا لقوله تعالى {وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ}
- الآية الرابعة عشرة: قوله تعالى: {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا} [البقرة : ١٩٠]، أي: فتقاتلوا من لا يقاتلكم كان هذا في الابتداء ثم نسخ الله تعالى ذلك بقوله تعالى: {فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ} [البقرة : ١٩٤]، وبقوله: {وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً} [التوبة : ٣٦]، أي: جميعا، وبقوله: {فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ} [التوبة : ٥] الآية.

«نصب الراية» (٤/ ٤٠٣).

(١) انظر: الناسخ والمنسوخ، هبة الله بن سلامة: ٤٠.

(٢) انظر: الناسخ والمنسوخ، هبة الله بن سلامة: ٤٢-٤٣.

- الآية الخامسة عشرة: قوله تعالى : {وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ} [البقرة : ١٩١]، صارت هذه الآية منسوخة بآية السيف.
- الآية السادسة عشرة قوله تعالى: {فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [البقرة : ١٩٢]، هذا من الأخبار التي معناها الآمر وتقديره: فاعفوا عنهم واصفحوا لهم صار ذلك العفو والصفح منسوخا بآية سيف.
- الآية السابعة عشرة: قوله تعالى: {وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ } [البقرة : ١٩٦]، نزلت في كعب بن عجرة الأنصاري وذلك أنه قال لما نزلنا مع النبي -صلى الله عليه وسلم- الحديبية مر بي النبي -صلى الله عليه وسلم- وأنا أطبخ قدرا لي والقمل يتهافت على وجهي فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "يا كعب بن عجرة لعلك يؤذيك هوام رأسك"، فقلت نعم يا رسول الله فقال: "ادع بحلاق فاحلق رأسك"[(١)]، ونزلت: {فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ} [البقرة : ١٩٦]، وفي الكلام محذوف تقديره: فحلق فعليه ما في قوله تعالى: {فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ} [البقرة : ١٩٦].
- الآية الثامنة عشرة: قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ} [البقرة : ٢١٥] الآية، كان هذا قبل أن يفرض الله الزكاة فلما فرضت الزكاة نسخ الله بها كل صدقة في القرآن فقال الله تعالى إنما الصدقات للفقراء والمساكين الآية قال أبو جعفر يزيد بن القعقاع نسخت الزكاة كل صدقة في القرآن ونسخ شهر رمضان كل صيام ونسخ ذباحة الأضحى كل ذبح فصارت هذه ناسخة لما قبلها.
- الآية التاسعة عشرة: قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ} [البقرة : ٢١٧]، وذلك أنهم كانوا يمتنعون عن القتال في الجاهلية في الأشهر الحرم حتى خرج عبد الله ابن جحش وأمره النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يخرج الى بطن نخله يلقي بها عمرو الحضرمي فقاتله فقتله فعير المشركون المسلمين بقتل هذا الرجل لعمرو بن الحضرمي وكان قد قتل في آخر يوم من جمادى الآخرة وكان ذلك في ابتداء رجب، فأنزل الله تعالى هذه الآية يعظم الله شأن الشهر الحرام والقتل فيه ثم صارت منسوخه بقوله : {فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} [التوبة : ٥]، يعني: في الحل والحرام.
- الآية العشرون: قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ} [البقرة : ٢١٩]، فالخمر: كل ما خامر العقل وغطاه والميسر القمار كله وذلك أن الله تعالى حرم الخمر في اوطان خمسة فأولهن قوله تعالى: {وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا} [النحل : ٦٧]، فمعناها: وتتركون رزقا حسنا وهو تعيير من الله تعالى لهم فظاهرها تعدد النعم وليس كذلك فلما نزلت هذه الآية امتنع عن شربها قوم وبقي آخرون حتى قدم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- المدينة فخرج حمزة بن عبد المطلب وقد شرب الخمر فلقيه رجل من الأنصار وبيده ناضح له والأنصاري يتمثل ببيتين لكعب بن مالك في مدح قومه وهما:

جمعنا مع الإيواء نصرا وهجرة ... فلم ير حي مثلنا في المعاشر
فأحياؤنا من خير أحياء من مضى ... وأماوتنا في خير أهل المقابر

فقال له حمزة: أولئك المهاجرون، فقال له الأنصاري: بل نحن الأنصار فتنازعا فجرد حمزه سيفه وعدا على الأنصار فلم يمكن الأنصاري أن يقوم له فترك ناضحه وهرب فظفر حمزة بالناضح وجعل يقطعه فجاء الأنصاري الى النبي -صلى الله عليه وسلم- مستعديا فأخبره بخبر حمزه وفعاله بالناضح فغرم النبي -صلى الله عليه وسلم- له ناضحا، فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله أما ترى الى ما نلقي من أمر الخمر إنها مذهبة للعقل متلفة للمال، فأنزل الله تعالى بالمدينة : {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ} [البقرة : ٢١٩] ،وقد قريء: "كثير"، والمعنيان متقاربان، {وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ} [البقرة : ٢١٩]، وعلى هذا معارضة لقائل يقول أين المنفعة منها وقد قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن الله تعالى: "لم يجعل شفاء أمتي فيما حرم عليها". فالجواب على ذلك أنهم كانوا يبتاعونها في الشام بالثمن اليسير ويبيعونها في الحجاز بالثمن الثمين وكانت المنافع فيها من الأرباح وكذلك قال الله تعالى { قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ}، فانتهى عن شربها قوم وبقي آخرون، حتى دعا محمد ابن

---

(١) انظر: الناسخ والمنسوخ، هبة الله بن سلامة: ٤٦.

عبد الرحمن بن عوف الزهري قوما فأطعمهم وسقاهم حتى سكروا فلما حضر وقت الصلاة صلوا المغرب فقدموا رجلا منهم يصلي بهم وكان أكثرهم قرآنا يقال له ابن أبي جعونه حليف الأنصار فقرأ فاتحة الكتاب وقل يا أيها الكافرون فمن أجل سكره خلط فقال في موضع: {لَا أَعْبُدُ} [الكافرون : ٢]، "أعبد"، وفي موضع {أعبد} "لا أعبد"، فبلغ ذلك رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فشق عليه فأنزل الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ} [النساء : ٤٣]الآية، فكان الرجل منهم يشرب الخمر بعد العشاء الأخيرة ثم يرقد ويقوم عند صلاة الفجر وقد صحا ثم كان يشربها إن شاء بعد صلاة الفجر فيصحوا منها عند صلاة الظهر فإذا كان وقت الظهر لم يشربها البتة حتى يصلي العشاء الأخيرة حتى دعا سعد بن أبي وقاص الزهري وقد عمل وليمة على رأس جزور فدعا أناسا من المهاجرين والأنصار فأكلوا وشربوا وسكروا وافتخروا فعمد رجل والأنصار فأخذ أحد لحيي الجزور فضرب به أنف سعد ففزره وجاء سعد مستعديا إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فأنزل الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [المائدة : ٩٠]، وهذه الآية تدل على تحريم الخمر في القرآن لأن الله تعالى ذكره مع المحرمات واختلف المفسرون في موضع التحريم أهو ههنا أم غيره فقال الأكثرون ههنا وقال آخرون التحريم عند قوله تعالى: {فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ} [المائدة : ٩١]، فقالوا: أنتهينا يا رسول الله، والمعنى: انتهوا كما قال في "الفرقان" {أَتَصْبِرُونَ } [الفرقان : ٢٠]، والمعنى اتقوا اصبروا وفي "الشعراء" {قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ} [الشعراء : ١١]، والمعنى: اتقوا وأكد تحريها بقوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ} [الأعراف : ٣٣]، والإثم: الخمر، فهذا تحريم الخمر وانتقاله في مواطنه.

- الآية الحادية والعشرون: قوله تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ} [البقرة : ٢١٩]، ومعنى العفو : الفضل من المال، وذلك أن الله تعالى فرض عليهم قبل الزكاة إذا كان للإنسان مال أن يمسك منه ألف درهم أو قيمتها من الذهب ويتصدق بما بقي وقال آخرون فرض عليهم أن يمسكوا ثلث أموالهم ويتصدقوا بما بقى وإن كان من أهل زراعة الأرض وعمارتها أمرهم أن يمسكوا ما يقيتهم حولا ويتصدقوا بما بقي وإن كان ممن يلي عمله بيديه أمسك ما يقوته يومه ويتصدق بما بقى فشق ذلك عليهم حتى أنزل الله تعالى الزكاة ففرض في المال الذهب والفضة إذا حال عليه الحول ربع عشرة إذا بلغ من الذهب عشرين دينارا أو من الورق مائتي درهم فيكون من كل عشرين دينارا نصف دينار ومن كل مائتي درهم خمسة دراهم فأسقط عنهم الفضل في ذلك فصارت آية الزكاة وهي قوله تعالى: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا} [التوبة : ١٠٣]، فبينت السنة أعيان الزكاة من الذهب والفضة والنخل والزرع والماشية فصارت هذه الآية ناسخة لما قبلها.
- الآية الثانية والعشرون: قوله تعالى : {وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ} [البقرة : ٢٢١]، هذا عام في جميع انواع الكفر فنسخ الله تعالى بعض أحكامها من اليهوديات والنصرانيات بالآية التي في سورة المائدة وهي قوله تعالى: {الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ} [المائدة : ٥] الى والطعام الذبائح فقط وهو عموم الآية، لأن الشرك يعم الكتابيات والوثنيات لأن المفسرين أجمعوا على نسخ الآية التي في سورة البقرة المذكورة وعلى إحكام الآية التي في المائدة غير عبد الله بن عمر فإنه يقول الآية التي في سورة البقرة محكمة والآية التي في سورة المائدة منسوخة وما تابعه على هذا القول أحد فإن كانت المرأة الكتابية عاهرة لم يجز نكاحها وإن كانت عفيفة جاز.
- الآية الثالثة والعشرون: قوله تعالى: {وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ} [البقرة : ٢٢٨] الآية، أجمع الناس على إحكام أولها وآخرها إلا كلمات في وسطها وذلك أن الله تعالى جعل عدة المطلقة ثلاثة قروء إذا كانت ممن تحيض وإن كانت أيسة فثلاثة أشهر وإن كانت ممن لم تحض فمثل ذلك والحوامل وضع حملهن فجيع ذلك محكم وهو أي المنسوخ من الآية قوله تعالى: {وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ} [البقرة : ٢٢٨]، وذلك أن الرجل كان يطلق المرأة وهي حامل وكان يخير في مراجعها ما لم تضع نزلت في رجل من غفار أو من أشجع يعرف بإسماعيل بن عبد الله جنى على امرأته فطلقها وهي حامل ثم لم يطل حكمها كما طال في حكم المنسوخ فكان أحق برجعتها ما لم

تضع يقال أنه لم تضع امرأته حتى نسخت وناسخها الآية التي تلتها وبعض الثالثة وهي قوله تعالى: {الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ} [البقرة : ٢٢٩]، فإن قال قائل فأين الثالثة قيل هي قوله تعالى: {فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ} [البقرة : ٢٢٩]، يروى ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال أخرون: بل نسخها الله تعالى بالآية التي تليها وهي قوله تعالى: {فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ} [البقرة : ٢٣٠].

- الآية الرابعة والعشرون: قوله تعالى: {وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا } [البقرة : ٢٢٩]، ثم استثنى بقوله تعالى: {إِلَّا أَنْ يَخَافَا} [البقرة : ٢٢٩]، يعني: يعلما {أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ} [البقرة : ٢٢٩]، وهو أن تقول المرأة تعني بعلها: والله لا أطأ لك فراشا ولا اغتسل لك جنابة ولا أطيع لك أمرا، وإذا قالت ذلك فقد أحل الله له الفدية ولا يحل له أن يأخذ أكثر مما ساق إليها من المهر فصارت الآية ناسخة لحكمها بالاستثناء.
- الآية الخامسة والعشرون: قوله تعالى: {وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ} [البقرة : ٢٣٣]، ثم نسخ الله الحولين بقوله: {فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا} [البقرة : ٢٣٣]، فصارت هذه الآية ناسخة للحولين الكاملين بالاتفاق.
- الآية السادسة والعشرون: قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ} [البقرة : ٢٤٠]- كان رجل إذا مات عن أمرأته أنفق عليها من ماله حولا كاملا وهي في عدته ما لم تخرج فإن خرجت انقضت العدة ولا شيء لها وكانوا إذا أقاموا بعد الميت حولا عمدت المرأة فأخذت بعرة فألقتها في وجه كلب تخرج بذلك من عدتها عندهم فنسخ الله تعالى ذلك بالآية التي قبلها في النظم وهي قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا} [البقرة : ٢٣٤]، فصارت الأربعة أشهر والعشر ناسخة للحول وليس في كتاب الله تعالى آية ناسخة في سورة إلا والمنسوخ قبلها إلا هذه الآية وآية أخرى في سورة الأحزاب وهي قوله تعالى: {لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ} [الأحزاب : ٥٢]، نسختها الآية التي قبلها وهي قوله: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ} [الأحزاب : ٥٠] الآية هذه الناسخة، والمنسوخة: {لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ} [الأحزاب : ٥٢]، ونسخ النفقة بالربع والثمن، فقال: {وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُم} [البقرة : ٢٣٤]، الى قوله: {وَعَشْرًا } [البقرة : ٢٣٤]، جميعها محكم غير أولها.
- الآية السابعة والعشرون: قوله تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ} [البقرة : ٢٥٦] الآية، نسخها الله تعالى بآية السيف وذلك أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لما أجلى اليهود إلى أذرعات من الشام كان لهم في أولاد الأنصار رضاع فقال أولاد الأنصار نخرج مع أمهاتنا أين خرجن فمنعهم آباؤهم فنزلت هذه الآية: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ}، ثم صار ذلك منسوخا نسختها آية السيف.
- الآية الثامنة والعشرون: قوله تعالى: {وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ} [البقرة : ٢٨٢]، فأمر الله بالشهادة وقد كان جماعة من التابعين يرون أن يشهدوا في كل بيع وابتياع منهم الشعبي وإبراهيم النخعي كانوا يقولون إنا نرى أن نشهد ولو على جرزة بقل ويروي حزمة ثم نسخت الشهادة بقوله تعالى: {فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ} [البقرة : ٢٨٣].
- الآية التاسعة والعشرون: قوله تعالى: {لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} [البقرة : ٢٨٤] هذا محكم، والمنسوخ قوله: {وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ ال} [البقرة : ٢٨٤] الآية، اختلف المفسرون في معناها فروي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: إن الله تعالى يخبر الخلق يوم القيامة بما عملوا في الدنيا سرا وجهرا فيغفر للمؤمن ما أسر ويعاقب الكافر على ما أسر، وقال ابن مسعود: هي عموم في سائر أهل القبلة". وقال المحققون: لما نزلت هذه الآية شق نزولها عليهم وقالوا إنه يجول الأمر في نفوسنا لو سقطنا من السماء إلى الأرض لكان ذلك أهون علينا وقال

المسلمون يا رسول الله لا نطيق فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-:" لا تقولوا كما قالت اليهود سمعنا وعصينا ولكن قولوا سمعنا واطعنا"(١). فنزلت: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} [البقرة : ٢٨٦] الآية.

- الآية الثلاثون: قوله تعالى: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} [البقرة : ٢٨٦] ، علم الله تعالى أن الوسع لا يطاق فخفف الوسع بقوله تعالى: {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} [البقرة : ١٨٥]، وقد قيل إن الله تعالى نسخ بآخر آية الدين أولها وقد روى عن النبي -صلى الله عليه وسلم- حجة لمن ذهب الى نسخ قوله: {أَوْ تُخْفُوهُ} [البقرة : ٢٨٤]، وهو قول النبي -صلى الله عليه وسلم- "إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم يكلم به أو يعمل وعن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه"(٢)، فهذا ما ورد في منسوخ سورة البقرة -والله تعالى أعلم-.

فضائل السورة:

ولسورة البقرة فضائل كثيرة وردت في القرآن والسنة الصحيحة منها:

١- أن فيها أعظم آية في القرآن وهي آية الكرسي قال تعالي:{ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ } [البقرة: ٢٥٥].

وعن أبي بن كعب(٣)قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟ ". قال: قلت الله ورسوله أعلم قال: "يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟". قال: قلت {الله لا إله إلا هو الحي القيوم}، قال فضرب في صدري وقال: " والله ليهنك العلم أبا المنذر"(٤).

٢- وهي حافظة وكافية من شياطين الأنس والجن ودليل ذلك:

- حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال "وكلني رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة رمضان فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام فأخذته فقلت لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقص الحديث فقال

---

(١)أخرجه مسلم (١٢٥) وأحمد (٢/ ٤١٢) وأبو عوانة في «مسنده» (١/ ٧٥ - ٧٦/ ٢٢٢) وابن حبان (١/ ٢٥٠ - ٢٥١/ ١٣٩) والواحدي في «أسباب النزول» (ص ٩٤) وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٥٧٣/ ٣٠٦٠). من طرق؛ عن العلاء بن عبد الرحمن به.

(٢) الحديث:" إن الله تجاوز عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه".

حديث أبى ذر: أخرجه ابن ماجه (٦٥٩/١، رقم ٢٠٤٣) قال الحافظ فى التلخيص (٢٨٢/١) : فيه شهر بن حوشب، وفى الإسناد انقطاع. وقال البوصيرى (١٢٥/٢) : هذا إسناد ضعيف لاتفاقهم على ضعف أبى بكر الهذلى.

حديث ابن عباس: أخرجه الطبرانى (١٣٣/١١، رقم ١١٢٧٤) ، والدارقطنى فى الأفراد كما فى أطراف ابن طاهر (٢٢٠/٣ رقم ٣٤٧٩) ، والحاكم (٢١٦/٢، رقم ٢٨٠١) وقال: صحيح على شرط الشيخين. والبيهقى (٦٠/١٠، رقم ١٩٧٩٨) . وأخرجه أيضا: الطبرانى فى الصغير (٥٢/٢، رقم ٧٦٥).

وروي:" إن الله تجاوز لأمتى عما توسوس به صدورهم ما لم تعمل أو تتكلم به وما استكرهوا عليه".

أخرجه ابن ماجه (٦٥٩/١، رقم ٢٠٤٤) ، والبيهقى (٦١/١٠، رقم ١٩٧٩٩) .

(٣)أبي بن كعب بن قيس بن عبيد، من بني النجار، من الخزرج، أبو المنذر: صح أبي أنصاري.
كان قبل الإسلام حبرا من أحبار اليهود، مطلعا على الكتب القديمة، يكتب ويقرأ - على قلة العارفين بالكتابة في عصره - ولما أسلم كان من كتاب الوحي. وشهد بدرا واحدا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يفتي على عهده. وشهد مع عمر بن الخطاب وقعة الجابية، وكتب كتاب الصلح لأهل بيت المقدس. وأمره عثمان بجمع القرآن، فاشترك في جمعه. وله في الصحيحين وغيرهما ١٦٤ حديثا. وكان نحيفا قصيرا أبيض الرأس واللحية. مات بالمدينة - الأعلام للزركلي بتصرف يسير.

(٤)أخرجه مسلم برقم(١٣٤٣) بَاب فَضْلِ سُورَةِ الْكَهْفِ وَآيَةِ الْكُرْسِيِّ، وصححها الألباني في الصحيحة برقم (٣٤١٠).

إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي لن يزال معك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح وقال النبي صلى الله عليه وسلم صدقك وهو كذوب ذاك شيطان[١].

- وحديث أبي مسعود -رضي الله عنه- قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه"[٢].

٣- سورة البقرة وآياتها تطرد الشياطين من البيوت عند سماعها لأن وقعها عليهم شديداً ودليل ذلك:
حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنْ الْبَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ"[٣].

٤- أنها تشفع للعبد يوم لا ينفع مال ولا بنون، إذ ثبت في السنة الصحيحة أنها تشفع للمسلم يوم القيامة لمن قرأها لبركتها ودليل ذلك:

- حديث أبي أمامة[٤] تعالى قال: " سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ[٥] أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ[٦] تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ "[٧].

٥- المواظبة علي قراءة أية الكرسي بعد الصلوات سبباً لدخول الجنة، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "من قرأ آية الكرسي دبر كل صلاة مكتوبة، لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت"[٨].

وتجدر الإشارة بأن هناك عدة أحاديث منتشرة علي ألسنة العامة وهي ضعيفة لا تصح، وأذكر منها هنا علي سبيل المثال لا الحصر ما يأتي:

- حديث "آيتان هما قرآن، وهما يشفعان، و هما مما يحبهما الله، الآيتان في آخر سورة البقرة"[٩].

- وحديث "من قرأ سورة البقرة، توج بتاج في الجنة [١٠]".

- وحديث "إن لكل شيء سناما، وإن سنام القرآن، سورة البقرة، من قرأها في بيته ليلا لم يدخله الشيطان ثلاث ليال، و من قرأها في بيته نهارا لم يدخله الشيطان ثلاثة أيام"[١١].

---

(١)أخرجه البخاري برقم/ ١٠٢- باب إذا وكل رجلا فترك الوكيل شيئا فأجازه الموكل.

(٢)البخاري رقم/٣٧٠٧- باب شهود الملائكة بدر، ومسلم رقم/ ١٣٤٠- بَاب فَضْلِ الْفَاتِحَةِ وَخَوَاتِيمِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ.

(٣)مسلم رقم(١٣٠٠)- بَاب اسْتِحْبَابِ صَلَاةِ النَّافِلَةِ فِي بَيْتِهِ وَجَوَازِهَا فِي الْمَسْجِدِ.

(٤)أبو أمامة الباهلي صاحب رسول الله -صلى الله عليه وسلم - ونزيل حمص. روى: علما كثيرا. وحدث عن: عمر، ومعاذ، وأبي عبيدة. روى عنه: خالد بن معدان، والقاسم أبو عبد الرحمن، وسالم بن أبي الجعد، وشرحبيل بن مسلم، وسليمان بن حبيب المحاربي، ومحمد بن زياد الألهاني، وسليم بن عامر، وأبو غالب حزور، ورجاء بن حيوة، وآخرون. وروي: أنه بايع تحت الشجرة.-سير أعلام النبلاء للذهبي مختصرا.(٣/٣٥٩) .

(٥)قال أهل اللغة: الغمامة والغياية، كل شيء أظل الإنسان فوق رأسه من سحابة وغبرة وغيرهما. قال العلماء: المراد أن ثوابهما يأتي كغمامتين.

(٦)قال النووي في شرح مسلم " ومعناهما واحد، وهما قطيعان وجماعتان، يقال في الواحد: فرق وحزق وحزيقة أي جماعة" .

(٧)أخرجه مسلم برقم/ ١٣٣٧- بَاب فَضْلِ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ وَسُورَةِ الْبَقَرَةِ.

(٨)انظر حديث رقم: ٦٤٦٤ في صحيح الجامع للألباني- رحمه الله.

(٩))ضعيف جدا) انظر حديث رقم ١٨ :في ضعيف الجامع للألباني- رحمه الله.

(١٠)انظر حديث رقم: ١٠٦٩ في ضعيف الجامع للألباني- رحمه الله.

(١١)أنظر: السلسلة الضعيفة و الموضوعة " (٥٢٤/٣)، أخرجه ابن حبان في صحيحه (٧٨٠) (ج ٣ / ص ٥٩)، والطبراني في الكبير (٥٨٦٤) (ج ٦ / ص ١٦٣) وأبو يعلى في مسنده (٧٥٥٤) (ج ١٣ / ص ٤٦٥)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (ج٢ / ص ٨٧): حسن لغيره.
وهذا الحديث أيضاً فيه ضعف في الإسناد، ولكن الجملة الأولى: ((إن لكل شيء سناماً، وإن سنام القرآن البقرة)) ورد فيه أيضاً روايات أخرى ضعيفة عن ابن مسعود وعن ثلاثة من الصحابة أو أربعة، وكلها لا يخلو من ضعف، ولكن بعض أهل العلم يري أن هذه الجملة تتقوى بغيرها من الروايات، وهذه الروايات الضعيفة يقوي بعضها بعضاً، فيرون أن هذه الجملة: ((إن لكل شيء سناماً وإن سنام القرآن البقرة)) ترتقي إلى مرتبة الحسن.

هذا ما تيسر من التمهيد للسورة، وسوف نبدأ في تفسير آياتها بالتفصيل والتحليل، والله نسأل أن يوفقنا جميعا لما يحبه ويرضاه وأن يجنبنا فتنة القول والعمل. وأن يجعل أعمالنا وأقوالنا ونوايانا خالصة لوجهه الكريم.

القرآن
{الم (١) } [البقرة : ١]

التفسير:
الله أعلم بمراده، والأسلم فيها السكوت عن التعرض لمعناها دون سند شرعي، واليقين بأن الله أنزلها لحكمة قد لا نعلمها.
سبب النزول:

عن مجاهد، قال:" أربع آيات من أول هذه السورة نزلت في المؤمنين، وآيتان بعدها نزلتا في الكافرين، وثلاث عشرة بعدها نزلت في المنافقين[١].

وهذه الحروف التي في بداية السور، فيها إشارة إلى إعجاز القرآن الكريم، فقد تَحَدَّى اللهُ به المشركين، فعجزوا عن مُعارَضَتِه، مع أنه مُرَكَّب من هذه الحروف التي تتكون منها لُغَتُهُم، فدَلَّ عَجْزُ العرب عن الإتيان بمثله - مع أنهم أفصَحُ الناس - على أنّ القرآنَ وَحْيٌ من عند الله.
ولقد ذهب المفسرون مذاهب شتى في تفسير الأحرف المقطعة في السور الفواتح ولم يجزموا بوجه من الوجوه، إذا لم يصح في تفسيرها شيء عن رسول الله (ﷺ) .
وتجدر الإشارة بأن هناك محل متفق عليه بين أهل العلم في هذه الحروف، وهو أن أهل الإسلام أجمعوا على أن لهذه الحروف معنى، وأنها ذُكِرت لحكمة. يقرر هذا ويوضحه ثلاثة أمور[٢]:
الأمر الأول: - أن الله أمرنا بتدبر كتابه وتفهمه دون استثناء، فدخلت الحروف المقطعة في هذا، قال الله - تعالى -: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} [النساء: ٨٢]، وقال - تعالى -: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} [محمد: ٢٤]، وقال تعالى:{كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ} [ص: ٢٩]، وقال تعالى:{أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ} [المؤمنون: ٦٨][٣].
الأمر الثاني: أن الله تعالى قد تحدى عباده من الإنس والجن بأن يأتوا بسورة من مثل هذا القرآن، وأقصر سورة ثلاث آيات، وقراء الكوفة يعدون الحروف المقطعة آية في كل سورة، و: {حم (١) عسق} [الشورى: ١، ٢] آيتان[٤].
فلو أتوا بآيتين مكونتين من حروف مقطعة، ثم أتوا بآية من كلام آخر لأدوا ما تحداهم الله به، فلو لم يكن لها معنى لقالوا: كيف يتحدانا بكلام لا نفهمه؟[٥].

---

(١) رواه الواحدي في "أسباب النزول": ٢٤-٢٥.

والأربع آيات التي نزلت في المؤمنين هي من أول السورة حتى قوله تعالى: {وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [البقرة : ٥]، في قراءة من لم يعتبر "الم" آية.

والآيتان بعدها في الكافرين، والثلاثة عشر آية التي بعدها حتى قوله تعالى {إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [البقرة : ٢٠]، نزلت في المنافقين.

(٢) انظر: تفسير الحروف المقطعة في أوائل السور، د. محمد حسن أبو النجا(بحث منشور في شبكة الآلوكة).
(٣) انظر مفاتيح الغيب ـ أو التفسير الكبير ـ لفخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي ٢/٢٥٠ ، ط دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ، الأولى ١٤٢١هـ .
(٤) انظر البيان في عد آي القرآن لأبي عمرو عثمان بن سعد الأموي الداني ص ٥٩ ، ط مركز المخطوطات ـ الكويت ـ ، الأولى ١٤١٤هـ ١٩٩٤م ، بتحقيق/غانم قدري الحمد .
(٥) انظر مفاتيح الغيب ٢/٢٥١ .

الأمر الثالث:أن الله تعالى حكيم، وهذا كلامه، فهو كلام حكيم، نزل من حكيم: { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [فصلت: ٤١، ٤٢]، فإذا كان قائل هذا القرآن حكيماً حميداً، كيف يوجد في كلامه ما لا معنى له، ولم يُذْكَر لحكمة ؟،: {كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} [هود: ١].

قال العلامة السعدي: " وأما الحروف المقطعة في أوائل السور فالأسلم فيها السكوت عن التعرض لمعناها من غير مستند شرعي، مع الجزم بأن الله ـ تعالى ـ لم ينزلها عبثاً، بل لحكمة لا نعلمها"[١].

وبعد هذا الاتفاق حدث اختلاف في شيء آخر، وهو: هل هذه الحروف المقطعة ـ التي لها معنى ونزلت لحكمة ـ هل يُدْرَك معناها من جميع الوجوه، ونقف على الحكمة منها؟

وينحصر الاختلاف بين أهل العلم في اتجاهين اثنين: -

الاتجاه الأول: أن تلك الحروف هي من من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله، فنؤمن بها، ونقرأها كما جاءت، وممن قال ذلك: الشعبي[٢]، وسفيان الثوري[٣]، ومن المفسرين كل من: أبو حيان[٤] والآلوسي[٥]، وقاله زكريا الأنصاري في كتابيه فتح الرحمن[٦].

يرى أصحاب هذا الإتجاه بأن هذه الحروف لها معنى ونزلت لحكمة، غير أننا لا ندرك هذا المعنى ولا تلك الحكمة، وإنما يقال: هذه الحروف من حروف المعجم، ذكرها الله في أوائل بعض سور كتابه، واختص الله بعلم المراد منها[٧].

رُوِي عن أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه أنه قال: "في كل كتاب سر، وسر الله في القرآن أوائل السور"[٨].

وعن علي بن أبي طالب تعالى أنه قال: "إن لكل كتاب صفوة، وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي"[٩].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لعبدالرحمن بن ناصر السعدي ص ٤٠ ، ط مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م .

(٢) عزاه إليه القرطبي، الجامع لأحكام القرآن(١٥٤/١)، والشعبي هو عامر بن شراحيل الهمداني الكوفي من شعب همدان مولده في أثناء خلافة عمر كان إماماً حافظاً فقيهاً روى عن أبي هريرة وابن عباس وعائشة وعبد الله بن عمر وغيرهم. أنظر الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، تذكرة الحفاظ، (ط١ / ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨م) (١ :٦٣).

(٣)عزاه إليه ابن كثير في تفسير القرآن (١ :٣٦ (وسفيان هو أبو عبد الله سفيان ابن سعيد بن مسروق بن حبيب الثوري الكوفي، كان إماما في علم الحديث وغيره من العلوم، ومولده في سنة سبع وتسعين للهجرة توفي بالبصرة سنة ١٦١هـ، أنظر ابن خلكان، أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ٨مج، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر – بيروت، لم تذكر الطبعة وسنة الطبع (٢ :٣٨٦ - ٣٨٩).

(٤) انظر: البحر المحيط في التفسير، محمد بن يوسف أبو حيان، ١١ مج، دار الفكر، بيروت – لبنان (١٤١٢ هـ - ١٩٩٢م (لم تذكر رقم الطبعة (١ :٦٠).

(٥) انظر: روح المعاني، الآلوسي: ١٠٠/١.

(٦) انظر: فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، أبو يحيى زكريا الأنصاري، ١ مج، تحقيق محمد علي الصابوني، عالم الكتب، بيروت (ط ١ / ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥م) (ص ١٩

(٧) انظر جامع البيان في تفسير القرآن للإمام أبي جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري ٦٨/١، ط دار الفكر ـ بيروت ـ ١٤٠٥هـ ، وتفسير السمعاني للإمام أبي المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني ١٦٣/٢، ط دار الوطن ـ الرياض ـ ، الأولى ١٤١٨هـ ١٩٩٧م ، بتحقيق/ياسر بن إبراهيم ، وغنيم بن عباس بن غنيم . و معالم التنزيل للحسين بن مسعود بن محمد البغوي ٤٤/١، ط دار المعرفة ـ بيروت ـ ، الثانية ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م ، بتحقيق/خالد عبدالرحمن العك ، والجامع لأحكام القرآن للإمام أبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ١٥٤/١، ط دار الشعب ـ القاهرة ـ والبحر المحيط في التفسير للإمام أثير الدين أبي حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي ١٥٧/١ ، ط دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ، الأولى ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م ، بتحقيق الشيخ/عادل أحمد عبدالموجود ، والشيخ/علي محمد معوض .

(٨) لم أجد هذا الأثر عن أبي بكر مسنداً ، ولكن ذكره أبوالفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد ابن الجوزي في زاد المسير في علم التفسير ٢٠/١، ط المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ ، الثانية ١٤٠٤هـ ، والرازي في مفاتيح الغيب ٢٤٩/٢ ، وأبوحيان في البحر المحيط ١٥٧/١ ، وأبوالسعود محمد بن محمد العمادي في إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الحكيم ٢١/١ ، ط دار إحياء التراث ـ بيروت ـ .

(٩) انظر مفاتيح الغيب ٢٤٩/٢ ، والجامع لأحكام القرآن ١٥٤/١ ، وإرشاد العقل السليم ٢١/١.

وقد اعترض بعض العلماء على هذا الإتجاه وساقوا الأدلة على أنه: لا يجوز أن يرد في كتاب الله تعالى ما لا يكون مفهوماً للخلق، ومنهم الرازي، واحتج عليه بالآيات والأخبار والمعقول.

أما الآيات:

أحدها: قوله تعالى: {أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ القُرآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقفالها}[محمد: ٢٤]، أمرهم بالتدبر في القرآن، ولو كان غير مفهوم فكيف يأمرهم بالتدبر فيه .

ثانيها: قوله تعالى: {بِلِسانٍ عَرَبِيٍ مُبين}[الشعراء: ٩٥]، يدل على أنه نازل بلغة العرب، وإذا كان الأمر كذلك وجب أن يكون مفهوماً.

وأما الأخبار: فقوله عليه السلام: "إني تارك فيكم أمرين لن تضلوا إن تبعتموهما كتاب الله وأهل بيتي عترتي"[١] فكيف يمكن التمسك به وهو غير معلوم!

وأما المعقول، فمن وجوه :

أحدها: أنه لو ورد شيء لا سبيل إلى العلم به لكانت المخاطبة به تجري مجرى مخاطبة العربي باللغة الزنجية، ولما لم يجز ذاك فكذا هذا .

ثانيها: أن المقصود من الكلام الإفهام، فلو لم يكن مفهوماً لكانت المخاطبة به عبثاً وسفها، وأنه لا يليق بالحكيم.

وثالثها: أن التحدي وقع بالقرآن، وما لا يكون معلوماً لا يجوز وقوع التحدي به[٢].

وفي صدد رده على الإتجاه السابق يقول الرازي: إن "الأفعال التي كلفنا بها قسمان: منها ما نعرف وجه الحكمة فيها على الجملة بعقولنا: كالصلاة والزكاة والصوم ؛ فإن الصلاة تواضع محض وتضرع للخالق، والزكاة سعي في دفع حاجة الفقير، والصوم سعي في كسر الشهوة.

ومنها ما لا نعرف وجه الحكمة فيه: كأفعال الحج، فإننا لا نعرف بعقولنا وجه الحكمة في رمي الجمرات، والسعي بين الصفا والمروة، والاضطباع[٣].

ثم اتفق المحققون على أنه كما يحسن من الله تعالى أن يأمر عباده بالنوع الأول فكذا يحسن الأمر منه بالنوع الثاني، لأن الطاعة في النوع الأول لا تدل على كمال الانقياد لاحتمال أن المأمور إنما أتى به لما عرف بعقله من وجه المصلحة فيه، أما الطاعة في النوع الثاني فإنه يدل على كمال الانقياد ونهاية التسليم، لأنه لما لم يعرف فيه وجه مصلحة البتة لم يكن إتيانه به إلا لمحض الانقياد والتسليم.

فإذا كان الأمر كذلك في الأفعال فلم لا يجوز - أيضاً- أن يكون الأمر كذلك في الأقوال؟ وهو أن يأمرنا الله - تعالى -تارة أن نتكلم بما نقف على معناه، وتارة بما لا نقف على معناه، ويكون المقصود من ذلك ظهور الانقياد والتسليم من المأمور للآمر.

بل فيه فائدة أخرى، وهي أن الإنسان إذا وقف على المعنى وأحاط به سقط وقعه عن القلب، وإذا لم يقف على المقصود مع قطعه بأن المتكلم بذلك أحكم الحاكمين فإنه يبقى قلبه متلفتاً إليه أبداً، ومتفكراً فيه أبداً، ولباب التكليف إشغال السر بذكر الله تعالى والتفكر في كلامه، فلا يبعد أن يعلم الله - تعالى - أن في بقاء العبد ملتفت الذهن مشتغل الخاطر بذلك أبداً مصلحة عظيمة له، فيتعبده بذلك تحصيلاً لهذه المصلحة[٤]".

---

(١)رواه الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين أنظر الحاكم محمد بن عبد الله أبو عبد الله النيسابوري في المستدرك على الصحيحين، ٤ مج، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت (ط١ / ١٤١١هـ- ١٩٩٠م (حديث رقم ٤٥٧٧) ٣ :١١٨ (وسأشير إليه فيما بعد: الحاكم، المستدرك ورواه الترمذي، سنن الترمذي، كتاب المناقب باب (٣١ (مناقب أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم حديث رقم (٣٨١١) (٥ :٤٣٣) وقال هذا حديث غريب حسنُ من هذا الوجه. وصححه الألباني أنظر الألباني صحيح الجامع الصغير حديث رقم (٢٧٤٨) (١ :٥٣٣).

(٢)أنظر: الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، محمد الرازي فخر الدين، تفسير ، ١٧مج، دار الفكر، بيروت – لبنان (١٤١٥ هـ – ١٩٩٥م) (د.ط) (٢ /٥).

(٣) الاضطباع في اللغة : افتعال من الضبع , وهو وسط العضد , وقيل : الإبط (للمجاورة) . ومعنى الاضطباع المأمور به شرعاً : أن يُدْخَل الرجل رداءه الذي يلبسه تحت منكبه الأيمن فيلقيه على عاتقه الأيسر وتبقى كتفه اليمنى مكشوفة , ويطلق عليه التأبط والتوشح .انظر لسان العرب لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري ١٥٨/١ ، ط دار صادر - بيروت - ، الأولى ، والموسوعة الفقهية لوزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالكويت ، ١٠٩/٥ .

(٤) مفاتيح الغيب ٢٥١/٢ و٢٥٢ ، وانظر روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لمحمود بن عبدالله الحسيني الآلوسي ٩٩/١ ، ط دار إحياء التراث - بيروت - .

ثم أوضح ذلك في موضع آخر قائلاً: " وقد ذكرنا الحكمة فيه، وهي أن العبد إذا أتى بما أُمِر به من غير أن يعلم ما فيه من الفائدة لا يكون إلا آتياً بمحض العبادة، بخلاف ما لو علم الفائدة فربما يأتي به للفائدة وإن لم يؤمن، كما لو قال السيد لعبده: انقل هذه الحجارة من ههنا، ولم يعلمه بما في النقل، فنقلها ؛ ولو قال: انقلها فإن تحتها كنزاً هو لك ينقلها وإن لم يؤمن.

إذا عُلِم هذا فكذلك في العبادات اللسانية الذكرية وجب أن يكون منها ما لا يفهم معناه حتى إذا تكلم به العبد علم منه أنه لا يقصد غير الانقياد لأمر المعبود الآمر الناهي، فإذا قال: {حم} [غافر: ١]، {يس} [يس: ١]، {الم} [البقرة: ١]، {طس} [النمل: ١]. علم أنه لم يذكر ذلك لمعنى يفهمه أو لا يفهمه فهو يتلفظ به إقامة لما أُمِر به"(١).

ومن ثم يُعْلَم أن في إيراد هذه الفواتح التي استأثر الله بعلمها امتحاناً واختباراً من الله لعباده، وقصاً لجناح العقل، وكبحاً لجماح غروره، ورداً لدعواه استكناه كل شئ: " فهذا يوضح أن حروفاً من القرآن سُتِرَت معانيها عن جميع العالم اختباراً من الله ـ عز وجل ـ، وامتحاناً، فمن آمن بها أُثِيب وسعد، ومن كفر وشك أثم وبعد(٢)".

يقول الزرقاني" :يقولون بهذا الرأي أنها من الأسرار التي استأثر الله بعلمها ولم يطلع عليها أحداً من خلقه وذلك لحكمة من حكمه تعالى السامية، وهي ابتلاؤه سبحانه وتمحيصه لعباده حتى يميز الخبيث من الطيب، وصادق الإيمان من المنافق، بعد أن أقام لهم أعلام بيانه، ودلائل هدايته، وشواهد رحمته في غير تلك الفواتح من كتابه بين آيات وسور كثيرة، لا تعتبر تلك الفواتح في جانبها إلا قطرة من بحر أو غيضاً من فيض "(٣).

ويقول مكي بن أبي طالب: "وهذا يوضح أن حروفاً من القرآن سترت معانيها عن جميع العالم اختباراً من الله عز وجل وامتحاناً فمن آمن بها أثيب وسعد، ومن كفر وشك أثم وبعد"(٤).

وممن ذهب هذا مذهب الإتجاه الأول الشوكاني حيث نصر هذا المذهب بشدة، وجعل هذه الأحرف متشابه المتشابه، وغلظ القول على من قال فيها برأيه فقال: "إن من تكلم في بيان معاني هذه الحروف جازماً بأن ذلك هو ما أراده الله عز وجل، فقد غلط أقبح الغلط، وركب في فهمه ودعواه أعظم الشطط .. ثم قال: فقد ثبت النهي عن طلب فهم المتشابه ومحاولة الوقوف على علمه مع كونه ألفاظاً عربية وتراكيب مفهومة، وقد جعل الله تتبع ذلك صنيع الذين في قلوبهم زيغ، فكيف بما نحن بصدده، فإنه ينبغي أن يقال فيه انه متشابه المتشابه على فرض أن للفهم إليه سبيلاً ولكلام العرب فيه مدخلاً فكيف وهو خارج عن ذلك على كل تقدير"(٥).

الاتجاه الثاني: أن هذه الحروف لها معنى ولها حكمة، وتلك الحكمة وهذا المعنى ندركهما عن طريق الاستنباط والاجتهاد، فتكلموا في معاني هذه الحروف واستنبطوا لها وجوهاً من التأويل.

وقد تعددت أقوال المفسرين في تفسير هذه الحروف المفتتح بها أوائل السور حتى وصل بها الحافظ ابن حجر - رحمه الله - إلى ثلاثين قولاً(٦).

وفيما يأتي نذكر أشهر تلك الأقوال مشفوعة بتوجيهها، والتدليل عليها:

القول الأول: أنها لبيان أعجاز القرآن وأن الخلق عاجزون عن معارضته مع أنه مركب من هذه الحروف التي يتخاطبون بها ويؤلفون منها كلامهم.

فهم يرون بأنها حروف وردت بأسمائها مسرودة على نمط التعديد كالإيقاظ وقرع العصا لمن تُحدِّى بالقرآن، وتنبيهاً على أن هذا المتلو عليهم - وقد عجزوا عنه عن آخرهم - كلام منظوم من عين ما ينظمون

---

(١) مفاتيح الغيب ٢٥٢/٢٦ و٢٥٣ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٥٤/١ .
(٣) مناهل العرفان: ٢٢٧/١.
(٤) العمدة في غريب القرآن، أبو محمد بن أبي طالب القيسي مكي: ١ مج، تحقيق الدكتور يوسف عبد الرحمن المرعشيلي، مؤسسة الرسالة، بيروت (ط٢ / ١٤٠٤ هـ – ١٩٨٤م)، (ص ٦٩)
(٥) فتح القدير، الشوكاني: ٤٨/١-٤٩.
(٦) انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري للحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ٥٥٤/٨ ، ط دار المعرفة ـ بيروت ـ ، بتحقيق/محب الدين الخطيب .

منه كلامهم، ليؤديهم النظر إلى أن يستيقنوا أنه لم تتساقط مقدرتهم دونه ولم يظهر عجزهم عن أن يأتوا بمثله - وهم أرباب الفصاحة وأمراء البيان - إلا لأنه ليس من كلام البشر، وأنه كلام خالق القوى والقُدَر[١].

وممن قال بذلك: الباقلاني[٢] والزمخشري[٣] والرازي[٤] وابن كثير[٥] وسيد قطب[٦].

وقد رد بعضهم أمثال الشيخ محمد شلتوت هذا القول ولم يعد الفواتح من باب التحدي أو الإعجاز فقال: "إن القول بأنه للتنبيه على أن هذا القرآن من مادة الكلام الذي ألفوه وقد عجزوا مع ذلك عنه قول يعتمد على قضيتين يقصدهما القائلون به من الواقع التاريخي لموقف العرب من القرآن، ومن طبيعة هذه الحروف :

إحداهما: أن هذه من حروف التهجي المعروفة عند العرب التي يتركب منها كلامهم، وأن القرآن مؤلف منها.

والأخرى: انهم مع ذلك قد عجزوا عن الإتيان بمثله.

وما كان للعرب أن يجهلوا أو يغفلوا عن أن القرآن الذي يتلوه عليهم محمد صلى الله عليه وسلم هو من هذه الحروف، أما عجزهم عن الإتيان بمثله فهو أمر يعرفونه من أنفسهم، ويعرفه التاريخ عنهم وقد سجله القرآن عليهم بالعبارة الواضحة البينة، فليس الأمر في القضيتين بمحتاج إلى استخدام رمز كهذا الرمز البعيد الذي لا يستند إلى نقل صحيح ولا فهم واضح"[٧].

وقيل أن هذا القول من القوة والخلافة بالقبول بمنزل ولا محذور فيه، وذلك من عدة وجوه منها[٨]:

الوجه الأول: استقراء القرآن الكريم يدل على أن هذه الحروف المقطعة ذُكِرَت للإشارة إلى إعجاز القرآن، وأنه من كلام الرحمن، وليس من كلام أحد من بني الإنسان.

فقد ذهب بعض العلماء إلى أن المقصود من هذه الأحرف بيان نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وذلك من ناحية انه ينطق بأسامي الحروف مع أنه أمي لم يقرأ ولم يكتب، والمعروف أن النطق بأسامي الحروف من شأن القارئ وحده، لا سبيل للأمي إلى معرفتها ولا النطق بها، فإتيانه بها وترديده لها دليل مادي أمامهم على أنه لا يأتي بهذا القرآن من تلقاء نفسه، إنما يتلقاه من لدن حكيم عليم.

فالسور التي افتتحت بتلك الحروف المقطعة تسع وعشرون سورة، ذُكِر الانتصار للقرآن في خمس وعشرين منها، ففي سورة البقرة - مثلاً - يقول الله - تعالى -: {الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ} [البقرة: ١، ٢]، فذلك الكتاب الذي ليس فيه ريب، وفيه هدى للمتقين مؤلف من الألف واللام والميم ؛ وفي سورة يونس يقول تعالى: {الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ} [يونس: ١]، وفي سورة طه يقول - تعالى -: {طه (١) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى} [طه: ١، ٢]، وفي سورة الشعراء يقول تعالى: {طسم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ} [الشعراء: ١، ٢]، وفي سورة ص يقول - تعالى -: {ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ } [ص: ١، ٢]، وفي سورة: ق يقول - تعالى -: {ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ} [ق: ١].

وكون هذه الأحرف ذُكِرَت في السور المكية - إلا سورتي البقرة وآل عمران - مما يقرر أن المراد الإشارة إلى إعجاز القرآن، لأن المشركين كانوا يكثرون اللغط حول القرآن، فذُكِرَت هذه الأحرف في بداية

---

(١) انظر الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري ٦٩/١ ، ط دار لإحياء التراث ـ بيروت ـ ، بتحقيق/عبدالرزاق المهدي ، والبحر المحيط ١٥٧/١ ، وتفسير القرآن العظيم للإمام أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير ٣٩/١ ، ط دار الغد العربي ـ القاهرة ـ ، الأولى ١٤١١هـ ١٩٩١ م ، بتحقيق الدكتور/سعد عبد المقصود ظلام ، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل لعبدالله بن عمر بن محمد بن علي البيضاوي ٨٦/١ ، ط دار الفكر ـ بيروت ـ وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للعلامة محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي ٦/٣ ، ط دار الفكر ـ بيروت ـ ، ١٤١٥هـ ، وانظر الإتقان في علوم القرآن لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي ٢٦/٣ ، ط دار الفكر ـ بيروت ـ ، الأولى ١٤١٦هـ ١٩٩٦م ، بتحقيق/سعيد المندوب .

(٢)، إعجاز القرآن، أبوبكر محمد بن الطيب الباقلاني: ١ مج، تحقيق الشيخ عماد الدين احمد حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت – لبنان، (ط ٤ (لم تذكر سنة الطبع (ص ٦٨ - ٦٩)

(٣) انظر: الكشاف: ٩٥/١-٩٧.

(٤) انظر: التفسير الكبير: ٨/٢.

(٥) انظر: تفسير ابن كثير: ٣٧/١-٣٨.

(٦) انظر: في ظلال القرآن، ٦ مج، دار الشروق (ط٩ / ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠م) (١ :٣٨) .

(٧) تفسير القرآن الكريم، شلتوت: ٥٦.

(٨) انظر: تفسير الحروف المقطعة في أوائل السور، د. محمد حسن أبو النجا(بحث منشور في شبكة الآلوكة).

السور للصراخ عليهم بعجزهم عن أن يأتوا بمثله، مع أنه لم يأت إلا من تلك الحروف التي تتكون منها لغتهم التي ملكوا ناصيتها[١].

وقد ذهب بعضهم إلى رد هذا القول، لأن الأمي لا يصعب عليه أن يأتي بمثل هذه الحروف، إذ لا دلالة بها على تعلم الأمي، وانتقاله من الأمية إلى العلم، قال ابن عاشور: "وهذا بين البطلان لأن الأمي لا يتعسر عليه النطق بالحروف"[٢].

الوجه الثاني: واقع هذه الأحرف يقرر هذه القضية، فهي قد ذُكِرَت على خمس صور، فجاءت على حرف واحد مثل: (ص) و (ق)، وجاءت على حرفين مثل: (طس) و (حم)، وجاءت على ثلاثة أحرف مثل: (الم)، وجاءت على أربعة أحرف مثل: (المص)، ثم هي قد جاءت على خمسة أحرف مثل: (كهيعص).

وكذلك كلام العرب لا يخرج عن هذه الأحوال الخمسة، فهو إما حرف أو اسم أو فعل.

فالحرف يأتي على حرفين مثل: (مِنْ)، أو ثلاثة مثل: (على).

والاسم إما ثلاثة أحرف مثل: (حسن) وإما أربعة مثل: (حسين) وإما خمسة مثل: (حسناء)، وما عدى هذا فهو مزيد ليس بأصلي.

وأفعال العرب إما ثلاثة أحرف مثل: (كتب) وإما أربعة مثل: (أكرم)، وما عدى هذا فهو مزيد ليس بأصلي.

فما خرجت الحروف المقطعة في جميع صورها عن استعمالات العرب، وكأن الله يقول: هذه الأحرف كُرِّرت على حسب استعمالاتكم في لغتكم، فإن قلتم: هذه الأحرف قد سبقنا محمد إليها فاستعمل حروفنا ؛ قلنا لكم: قد استعملنا نصفها في أوائل السور وتركنا لكم النصف الآخر فافتروا منها قرآناً كما افترى محمد بزعمكم ـ حاشاه ـ[٣].

القول الثاني: أنها أسماء لله تعالى. إذ ذهب بعض العلماء أن هذه الحروف المقطعة التي في أوائل السور أسماء لله تعالى، وَمِمَّنْ قَالَ بِهَذَا : ابن عباس[٤] وابن مسعود[٥] وسالم بن عبدالله[٦]، والشعبي[٧]، وروي نحوه عن اسماعيل بن عبدالرحمن السدي الكبير ونحوه عن عكرمة[٨].

قال عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: فواتح السور أسماء من أسماء الله[٩].

وعن ابن عباس وابن مسعود في قوله:" (ألم)، و(المص)، و(الر)، و(المر)، و(كهيعص)، و(طه)، و(طسم)، و(طس)، و(يس)، و(ص)، و(حم)، و(ق)، و(ن)، قال: هو قسم أقسمه الله، وهو من أسماء الله"[١٠].

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣٩/١ ، وأضواء البيان للشنقيطي ٦/٣ و ٧ .

(٢) التحرير والتنوير: ٢١٥/١.

(٣) انظر: الكشاف ٧٢/١ ، ومفاتيح الغيب ٢٥٧/٢ وأنوار التنزيل ٨٦/١ .

(٤)عزاه إليه القرطبي في الجامع لأحكام القرآن : ١ /١٥٥ (والطبري في جامع البيان (١ :٦٧).

(٥)عزاه إليه النسفي في تفسير النسفي (١ :٣٩)، وابن مسعود هو عبد الله بن مسعود بن غافل كان إسلامه قديما في أول الإسلام مات بالمدينة سنة ٣٢ هـ ودفن بالبقيع، أنظر ابن عبد البر، أبا عمر يوسف بن عبد الله بن محمد، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ٤ مج، تحقيق الشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان (ط١ / ١٤١٥ هـ١٩٩٥ – م) (٣ / ١١٠ ـ ١١٦) .

(٦)عزاه إليه ابن كثير في تفسير القرآن العظيم (١ :٣٦ (وسالم هو سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب القرشي العدوي أحد فقهاء المدينة السبعة ومن سادات التابعين وعلمائهم وثقاتهم توفي في المدينة سنة ١٠٦هـ أنظر: تاريخ الأعلام، الزركلي: ٧١/٣.

(٧) عزاه إليه الطبري في جامع البيان: ٦٧/١.

(٨) انظر المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لعبدالحق بن غالب بن عطية الأندلسي ٣/٤ ، ط دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ، الأولى ١٤١٣هـ ١٩٩٣م ، بتحقيق/عبدالسلام عبدالشافي محمد ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٧٣/١١ ، وفتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني ٤٢٤/٢ ، ط دار الفكر ـ بيروت ـ .

(٩) ذكره السيوطي في الدر المنثور في التفسير بالمأثور ٣٣٩/٤ ، ط دار الفكر ـ بيروت ـ ١٩٩٣م ، وعزاه لابن مردويه ، وانظر فتح القدير للشوكاني ٤٢٤/٢ .

(١٠) أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير ٦٧/١ ، وعبدالرحمن بن محمد بن إدريس بن أبي حاتم الرازي في تفسير القرآن العظيم ٣٢/١ ، ط المكتبة العصرية ـ صيدا ـ ، بتحقيق/أسعد محمد الطيب ، وانظر الدر المنثور ٥٤/١ .

وعن فاطمة ابنة علي بن أبي طالب، قالت: "كان علي يقول في دعائه: يا كهيعص اغفر لي"(١).

وهذا يدل على أن علياً -رضي الله عنه-تعالى كان يميل إلى هذا القول، ويبعد أن يكون ذلك إلا بتوقيف من النبي - صلى الله عليه وسلم-.

وعن أشهب(٢) قال: "سالت مالك بن انس: أينبغي لأحد أن يتسمى بـ(يس) ؟ فقال: ما أراه ينبغي لقوله: {يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ} [يس: ١، ٢]، يقول هذا اسمي تسميت به"(٣).

وقد نقل القرطبي - بعد إيراد هذا الأثر - تعقيب أبي بكر بن العربي عليه حيث قال: "هذا كلام بديع، وذلك أن العبد يجوز له أن يتسمى باسم الرب إذا كان فيه معنى منه كقوله: عالم، وقادر، ومريد، ومتكلم، وإنما منع مالك من التسمية بـ(يس) لأنه أسم من أسماء الله لا يُدْرَى معناه، فربما كان معناه ينفرد به الرب، فلا يجوز أن يُقْدِم عليه العبد، فإن قيل: فقد قال الله تعالى : {سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ} [الصافات : ١٣٠] (٤)، قلنا: ذلك مكتوب بهجاء فتجوز التسمية به، وهذا الذي ليس بمتهجي هو الذي تكلم مالك عليه، لما فيه من الإشكال، والله أعلم"(٥).

ويفهم من كلام الآلوسي أنه يميل إلى هذا القول، فقد قال: "وعندي فيما نحن فيه لطائف، وسبحان من لا تتناهى أسرار كلامه، فقد أشار - سبحانه - بمفتتح الفاتحة حيث أتى به واضحاً إلى اسمه الظاهر، وبمبدأ سورة البقرة إلى اسمه الباطن فهو الأول والآخر والظاهر والباطن"(٦).

وهذا قول فيه نظر، وذلك لأن أسماء الله توقيفية لا تؤخذ إلا بنص من الكتاب العزيز أو الرواية الصحيحة عن المعصوم عليه السلام وما سبق ذكره لا يعتمد عليه في إثبات أسماء الله تعالى.

وقد قال محيي الدين شيخ زاده مبيناً بطلان هذا القول "أن أسماء الله تعالى لا تخلو من أن تدل على تعظيم أو تنزيه أو على ما يرجع إليهما والفواتح ليست كذلك"(٧).

القول الثالث: أنها فواتح لأسماء الله تعالى:

ويري البعض أن هذه الحروف المقطعة في أوائل السور فواتح لأسماء الله - تبارك وتعالى -، فكل حرف منها هو فاتحة لاسم محذوف من أسماء الله، جاء ذلك الحرف ليدل على ذلك الاسم المحذوف، فالألف من قوله تعالى: {الم} مثلاً ابتداء اسمه الله، واللام ابتداء اسمه لطيف، والميم ابتداء اسمه مجيد(٨).

عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله عز وجل: "{كهيعص} قال: كاف من كريم، وها من هاد، ويا من حكيم، وعين من عليم، وصاد من صادق"(٩).

وفي رواية أخرى عن بن عباس رضي الله عنهما في قوله عز وجل:"{كهيعص} قال: كاف هاد أمين عزيز صادق"(١).

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري ٣٤/١٦ ،وانظر تفسير ابن عطية ٣/٤ ، وابن الجوزي ٢٠٥/٥ ، والقرطبي ٧٣/١١ ، وفتح الباري ٤٢٧/٨ .

(٢) هو أشهب بن عبد العزيز ابن داود بن إبراهيم ، الإمام العلامة مفتي مصر أبو عمرو القيسي العامري المصري الفقيه ، يقال : اسمه مسكين ، وأشهب لقب له ، مولده سنة أربعين ومائة ، ويكفيه قول الشافعي فيه : ما أخرجت مصر أفقه من أشهب . قال أبو عمر بن عبد البر : كان فقيهاً حسن الرأي والنظر . انظرالكاشف للإمام محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي ٢٥٤/١ ، ط دار القبلة للثقافة ـ جدة ـ ، الأولى ، بتحقيق / محمد عوامة .

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٣١٨٨/١٠ ، وانظر الدر المنثور ٤٢/٧ ، وتفسير القرطبي ٤/١٥ ، والإتقان ٢٥/٣ .

(٤) وهي على قراءة نافع وابن عامر ، وهما من القراء السبعة . انظر إبراز المعاني من حرز الأماني في القراءات السبع لأبي شامة عبدالرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم الدمشقي٦٦٦/٢ ، ط مكتبة مصطفى الحلبي ـ القاهرة ـ ، بتحقيق/إبراهيم عطوة عوض ، وإتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر لشهاب الدين أحمد بن محمد بن عبدالغني الدمياطي ٤٧٥/١ ، ط دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ، الأولى ١٤١٩هـ ١٩٩٨م ، بتحقيق/أنس مهرة .

(٥) الجامع لأحكام القرآن ٤/١٥ .

(٦) روح المعاني ١٠٠/١ .

(٧)حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي، محمد بن مصلح الدين مصطفى القَوجَوي، ، ٨ مج، تحقيق محمد عبد القادر شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان (ط١ / ١٤١٩ هـ – ١٩٩٩م) (١ :١٤٢).

(٨) انظر تنوير المقباس من تفسير ابن عباس جمعه مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى ص ٣ ، ط دار الكتب العلمية ـ لبنان ـ .

(٩) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤٠٣/٢ وقال :هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

ويدخل في هذا القول ما روي عن عبد الله بن عباس أيضاً وكذلك عبد الله بن مسعود أن هذه الأحرف هي اسم الله الأعظم[٢].

ويقرر ذلك ابن عطية بأنه إذا أمكن تأليفه منها، إلا أنا لا نعرف تأليفه منها[٣].

أو أن هذه الحروف أبعاض أسماء لله - تعالى -، بعضها يُعْلم كيفية تركيبه منها، وبعضها لا يُعْلم، فعن ابن عباس أنه قال: "(الر) و (حم) و (ن): الرحمن مُفَرَّقة"[٤].

كما نقل الفخر الرازي وأبو حيان عن سعيد بن جبير تعالى أنه قال: قوله (آلر، حم، ن) مجموعها هو اسم الرحمن، ولكنا لا نقدر على كيفية تركيبها في البواقي[٥].

أو هي حروف يدل بعضها على أسماء الذات، وبعضها على أسماء الصفات والأفعال، على نحو ما رُوِي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في تفسير: (الم) من قوله: أنا الله أعلم، وقوله في: (الر): أنا الله أرى، وفي: (المص): أن الله أفصل[٦].

أو هي حروف يدل بعضها على أسماء الله - تعالى - وبعضها على أسماء غيره سبحانه، فعن ابن عباس في قوله تعالى: " (الم) يقول: ألف الله، لام جبريل، ميم محمد"[٧]، أي: أنزل الله هذا الكتاب الذي لا ريب فيه على لسان جبريل إلى محمد - صلى الله عليه وسلم-[٨].

وهذا القول له وجه، لأن العرب قد تُطْلِقُ الحَرْفَ الواحد من الكلمة،وَتُريدُ به جميع الكلمة، كقول الراجز[٩]:

قلنا لها قفي فقالت: قاف لا تحسبي أنا نسينا الإيجاف.

فقوله: "قاف"، أي: وقفتُ[١٠]، فدلت بإظهار القاف من «وقفت» على مرادها من تمام الكلمة التي هي «وقفت». فصرفوا قوله: (الم) وما أشبه ذلك إلى نحو هذا المعنى.

وكقول القائل[١١]:

بالخير خيرات وإن شراً فا ولا أريد الشر إلا أن تا

يعني: وإن شراً فشر، ولا أريد الشرّ إلا أن تشاء، وبذلك اكتفى بالتاء والفاء عن بقية الكلمتين جميعاً عن سائر حروفهما[١٢].

وقد ورد في السنة ما يشير إلى هذا، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم-: من أعان على قتل مؤمن بشطر كلمة لقي الله - عز وجل - مكتوب بين - عينيه: آيس من رحمة الله[١٣].

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤٠٣/٢ وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه . وانظر تفسير البغوي ٤٤/١ .

(٢) انظر تفسير الطبري ٦٧/١ ، وابن أبي حاتم ٣٢/١ والدر المنثور ٥٤/١ ، وانظر الإتقان ٢٤/٣ حيث حكم على الأثر بأنه صحيح .

(٣) انظر المحرر الوجيز ٨٢/١ .

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٣٢/١ ، وانظر الإتقان للسيوطي ٢١/٣ .

(٥) انظر مفاتيح الغيب ٢٥٢/٢ ، والبحر المحيط ١٥٦/١ .

(٦) انظر تفسير ابن جرير الطبري ٦٧/١ و٦٨ وابن أبي حاتم ٣٢/١ ، والرازي ٢٥٣/٢ ، والبحر المحيط ١٥٧/١.

(٧) انظر تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ص ٣ .

(٨) انظر زاد المسير ٢٢/١ ، ومفاتيح الغيب ٢٥٣/٢ ، والبحر المحيط ١٥٧/١ ، وإرشاد العقل السليم ٢١/١ .

(٩) البيت غير منسوب لأحد في لسان ٣٥٩/٩ ، وتهذيب اللغة لمحمد بن أحمد الأزهري ٦٧٩/١٥ ، ط دار المعارف - بيروت - ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م ، بتحقيق الدكتور/رياض زكي فاسم ، وانظر المعجم المفصل في شواهد اللغة العربية ، إعداد الدكتور/إميل بديع يعقوب ٢١٥/٤، ط دار الكتب العلمية - بيروت - ، الأولى ١٤١٧هـ ١٩٩٦م .

(١٠) انظر معالم التنزيل للبغوي ٤٤/١ ، والمحرر الوجيز ٨٢/١ و٨٣ .

(١١) البيت نسبه ابن منظور في لسان العرب ٢٨٨/١٥ إلى حكيم بن مَعْيَة التميمي ، ونسبه بن عطية في المحرر الوجيز ٨٣/١ والقرطبي في الجامع ١٥٥/١ إلى زهير بن أبي سلمى ، وهو غير منسوب في شرح شواهد الشافية لعبدالقادر البغدادي ص ٢٦٢ ، ط مطبعة حجازي - القاهرة - .

(١٢) انظر جامع البيان ٧٠/١ ، والمحرر الوجيز ٨٣/١ ، والجامع لأحكام القرآن ١٥٥/١ ، والبحر المحيط ١٥٨/١ .

(١٣) أخرجه ابن ماجه في سننه ٨٧٤/٢ ، كتاب : الديات ، باب : التغليظ في قتل مسلم ظلماً ، برقم (٣٦٢٠) ، والربيع بن حبيب بن عمر الأزدي في مسنده ص ٢٩٢ ، وأبو يعلى في مسنده ٣٠٦/١٠ ، والبيهقي في السنن الكبرى ٢٢/٨ ، وهو حديث حسن بجموع طرقه .

وعن بن عمر قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: من أعان على دم امرئ مسلم بشطر كلمة كتب بين عينيه يوم القيامة: آيس من رحمة الله[1].

وعن بن عباس قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم-: "من شرك في دم حرام بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه: آيس من رحمة الله"[2].

قال سفيان بن عيينة: "هو أن يقول: أق، يعني: لا يتم كلمة (اقتل)"[3].

فإن ثبت أن العرب كانت تأتي في كلامها بحرف وتريد به معنى كان في هذا القول قوة ووجاهة[4].

القول الرابع: أن هذه الأحرف أسماء للسور التي جاءت فيها[5].

وذهب بعضهم إلى أن فاتحة كل سورة اسم للسورة التي افتتحت بها، وذلك أن الأسماء وضعت للتمييز، فكذا هذه الحروف وضعت لتمييز هذه السور عن غيرها.

من الذين قالوا بذلك: الزمخشري[6]، والرازي[7] واختاره سيبويه[8].

فعن أُبَي بن كعب أنه قال -لماسُئِل عن هذه الحروف-: "إنما هي أسماء السور"[9].

وقد نسب الزمخشري والبيضاوي هذا الوجه إلى أكثر العلماء[10]، كما عزاه الفخر الرازي إلى أكثر المتكلمين والمحققين[11].

وإن أشكل ذلك على أحد فقال: كيف يكون ذلك كذلك وقد افتتحت سور كثيرة بـ{الم}{حم} والمقصود رفع الاشتباه، لأن الأسماء إنما تكون أمارات إذا كانت مميزة بين الأشخاص، فأما إذا كانت غير مميزة فليست أمارات ؟.

فالجواب: أن بعض الأسماء ـ وإن كانت مشتركة ـ إلا أنها تميز ببعض النعوت الأخرى، فيقول المخبر عن نفسه: قرأت {الم} البقرة، أو قرأت {الم} آل عمران ؛ كما لو أراد الخبر عن رجلين اسم كل واحد منهما عمرو غير أن أحدهما عراقي والآخر مصري لزمه أن يقول: لقيت عمراً العراقي، أو عمراً المصري[12].

وقد استدل القائلون بهذا القول بأدلة منها:

أولاً: ما ورد في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة {الم * تنزيل، و {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ} [الإنسان: ١][13].

ثانياً: أن ذلك أمر فاش في العرب الذين نزل القرآن بلغتهم وعلى لسانهم، فقد سَمَّت العرب بهذه الحروف أشياء وأشخاص، فسموا بلام والد حارثة بن لام الطائي، وكقولهم للنحاس: صاد، وللنقد عين، وللسحاب غين، وقالوا: جبل قاف، وسموا الحوت نوناً[14].

ويعضد ذلك كون هذه الحروف واقعة في أوائل السور، فتكون هذه الحروف قد جعلت أسماءً بالعلامة على تلك السورة وسميت بها كما تقول الكراسة (ب) والرزمة (ج) [1].

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٣٤٦/٤ ، وأبو نعيم الأصبهاني في تاريخ أصبهان ١٨٨/١ .

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٧٩/١١ .

(٣) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣٨/١ .

(٤) انظر تفسير الطبري ٧٠/١ ، والسمعاني ٤١/١ ، والبغوي ٤٤/١ ، وابن عطية ٨٢/١ ، وابن الجوزي ٢١/١ ، والقرطبي ١٥٥/١ .

(٥) انظر جامع البيان ٦٧/١ ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣٧/١ ، وإرشاد العقل السليم ٢١/١ .

(٦) انظر: الكشاف: ٨٣/١.

(٧) التفسير الكبير: ٧/٢.

(٨) انظر: الكتاب، أبو بشر عمر بن عثمان سيبويه، مؤسسة الأعلمي، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٦٧: ٣٤/٢-٣٥.

(٩) أخرجه الطبري في تفسيره ٦٧/١ .

(١٠) انظر الكشاف ٧٢/١ ، وأنوار التنزيل ٨٦/١ و٨٧ .

(١١) انظر مفاتيح الغيب ٢٥٢/٢ و ٢٥٤ .

(١٢) انظر جامع البيان ٧٠/١ ، وروح المعاني ٩٨/١ .

(١٣) أخرجه البخاري في صحيحه ٣٠٣/١ ، كتاب : الجمعة ، باب : ما يقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة ، برقم (٨٥١) ، ومسلم في صحيحه ٥٩٩/٢ ، كتاب : الجمعة ، باب : ما يقرأ في يوم الجمعة ، برقم (٨٨٠) ، وابن ماجة في سننه ٢٦٩/١ ، كتاب : إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب : القراءة في صلاة الفجر يوم الجمعة ، برقم (٨٢٣) .

(١٤) انظر مفاتيح الغيب ٢٥٣/٢ ، وروح المعاني ٩٨/١ .

ولقد اعترض بعضهم على هذا القول، وقالوا: إن هذه الألفاظ ليست أسماءً للسور وساقوا أدلة على ذلك وإليك أدلتهم :

أولاً: لو كانت هذه الألفاظ أسماءً للسور لوجب أن يعلم ذلك بالتواتر، لأن هذه الأسماء ليست على قوانين أسماء العرب، والأمور العجيبة تتوافر الدواعي على نقلها لا سيما فيما لا يتعلق بإخفائه رغبة أو رهبة، ولو توفرت الدواعي على نقلها لصار ذلك معلوماً بالتواتر، وارتفع الخلاف فيه فلما لم يكن الأمر كذلك علمنا أنها ليست من أسماء السور [٢].

ثانياً: ويرده اتحاد هذه الحروف في عدة سور مثل (الم) و (الر) و(حم) والمقصود ممن الاسم إزالة الاشتباه، والاشتباه حاصل .

ثالثاً: ويرده اشتهار السور بأسماء أخرى غير هذه الحروف، كسورة البقرة وسورة ال عمران وسورة الأعراف وسورة مريم وما إليها، ولو كانت أسماءً لاشتهرت بها.

قلت: أن هذه الحروف لا تعد أسماءً للسور وذلك لأن أسماء السور توفيقية[٣]، ولا يجوز أن يطلق اسم على مسمى من غير أن يعرف المسمى به، وأما ما ورد في الحديث الشريف فإن جاز عدها اسماً للسورة فتكون أسماءً للسور التي نصت الروايات عليها دون غيرها.

القول الخامس: أن هذه الفواتح أسماء للقرآن الكريم[٤]

قال ابن كثير: " ولعل هذا يرجع إلى معنى قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنه اسم، من أسماء السور، فإن كل سورة يُطْلَق عليها اسم القرآن، فإنه يبعد أن يكون: {المص} اسماً للقرآن كله، لأن المتبادر إلى فهم سامع من يقول: قرأت {المص} إنما ذلك عبارة عن سورة الأعراف، لا لمجموع القرآن، والله أعلم"[٥].

وحمل ابن جرير الطبري هذا القول على ظاهره فقال: "هي أسماء لكل القرآن، لا للسورة التي هي قطعة من القرآن، فـ{ {الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ} [البقرة: ١، ٢] على معنى القسم، كأنه قال: والقرآن هذا الكتاب لا ريب فيه"[٦].

القول السادس: أنها نزلت ليستغربها المشركون فيسمعون القرآن. قال به الفخر الرازي أيضا[٧]، والزرقاني[٨].

إذ ذهب بعض العلماء إلى أن الحروف المقطعة نزلت لاستدراج نفوس المشركين ليستغربوها فيفتحوا لها أسماعهم فيسمعوا القرآن بعدها فتجب عليهم الحجة، أي: أنها حروف لا معنى لها في الوضع، قُدِّمت على الكلام المقصود لحكمة تفريغ البال، ولفت الانتباه، وجذب الأذهان للإصغاء والسماع، ليحصل التدبر والفهم والاتعاظ بما بعد ذلك[٩].

وهذا التنبيه يكون للنبي - صلى الله عليه وسلم-، وللمؤمنين، وللمشركين:

أما للنبي - صلى الله عليه وسلم-: "فكان من الجائز أن يكون الله قد علم في بعض الأوقات كونه - صلى الله عليه وسلم- في عالم البشر مشغولاً، فأمر جبريل بأن يقول عند نزوله: (الم) و(الر) و(حم)، ليسمع النبي صوت جبريل فيقبل عليه ويصغي إليه.

وإنما لم تُسْتَعْمَل الكلمات المشهورة في التنبيه كـ(ألا) و(أما) لأنها من الألفاظ التي يتعارفها الناس في كلامهم، والقرآن كلام لا يشبه الكلام، فناسب أن يُؤْتَى فيه بألفاظ تنبيه لم تُعْهَد لتكون أبلغ في قرع سمعه[١٠]".

وهي تنبيه للمؤمنين أيضاً لئلا يستمعوا هذا القرآن وهم في غفلة ولهو.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير: ٢١٠/١.
(٢) انظر: التحرير والتنوير: ٢١٠/١.
(٣) انظر: الإتقان: ٧٥/١.
(٤) انظر جامع البيان ٦٩/١ ، والبحر المحيط ١٥٦/١ .
(٥) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣٧/١ .
(٦) جامع البيان ٦٩/١ .
(٧) انظر: التفسير الكبير: ٨/٢.
(٨) انظر: مناهل العرفان: ٢٣٠/١.
(٩) انظر جامع البيان ٦٩/١ ، والمحرر الوجيز ٨٢/١ ، والبحر المحيط ١٥٧/١ .
(١٠) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢٧/٣ .

أما المشركون فقد حكى الله تعالى تنفير بعضهم لبعض عن القرآن في قوله: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ} [فصلت: ٢٦]، فكان إذا تكلم رسول الله - صلى الله عليه وسلم- في أول هذه السورة بهذه الألفاظ ما فهموا منها شيئاً، والإنسان حريص على ما مُنِع، فكانوا يصغون إلى القرآن ويتفكرون ويتدبرون في مقاطعه ومطالعه رجاء أنه ربما جاء كلام يفسر ذلك المبهم ويوضح ذلك المشكل، فصار ذلك وسيلة إلى أن يصيروا مستمعين للقرآن ومتدبرين في مطالعه ومقاطعه، فأنزل الله هذا النظم البديع ليعجبوا منه ويكون تعجبهم منه سبباً لاستماعهم، واستماعهم له سبباً لاستماع ما بعده، فترق القلوب وتلين الأفئدة، ويؤكد هذا أن هذه الحروف ما جاءت إلا في أوائل السور(١).

قال الفخر الرازي: "إن الحكيم إذا خاطب من يكون محل الغفلة أو من يكون مشغول البال يقدم على الكلام المقصود شيئاً غيره ليلتفت المخاطب بسببه إليه، ويقبل بقلبه عليه، ثم يشرع في المقصود، فقد يكون ذلك المقدم كلاماً له معنى مفهوم كقول القائل اسمع، وقد يكون ذلك المقدم على المقصود صوتاً غير مفهوم كمن يصفر خلف إنسان ليلتفت إليه وقد يكون ذلك الصوت بغير الفم كما يصفق الإنسان بيديه ليقبل السامع عليه، ثم إن موقع الغفلة كلما كان أتم والكلام المقصود كان أهم كان المقدم على المقصود اكثر، فاختار الحكيم أن يقدم على الكلام المقصود حروفاً هي كالمنبهات، ثم إن تلك الحروف إذا لم تكن بحيث يفهم معناها تكون أتم في إفادة المقصود الذي هو التنبيه من تقديم الحروف التي لها معنى لأن تقديم الحروف إذا كان لإقبال السامع على المتكلم إسماع ما بعد ذلك، فإذا كان ذلك المقدم كلاماً منظوماً وقولاً مفهوماً فإذا سمعه السامع ربما يظن أنه كل المقصود ولا كلام له بعد ذلك فيقطع الإلتفات عنه، أما إذا سمع منه صوتاً بلا معنى يقبل عليه ولا يقطع نظره عنه ما لم يسمع غيره لجزمه بأن ما سمعه ليس هو المقصود، فإذن تقديم الحروف التي لا معنى لها في الوضع على الكلام المقصود فيه حكمة بالغة"(٢).

إذا ثبت هذا فنقول: ذلك المُقَدَّم على المقصود قد يكون كلاماً له معنى مفهوم كقول القائل: اسمع، واجعل بالك إلي، وكن لي. وقد يكون شيئاً هو في معنى الكلام المفهوم كقول القائل: أزيد، ويا زيد، وألا يا زيد. وقد يكون ذلك المقدم على المقصود صوتاً غير مفهوم كمن يصفر خلف إنسان ليلتفت إليه. وقد يكون ذلك الصوت بغير الفم كما يصفق الإنسان بيديه ليقبل السامع عليه، ثم إن موقع الغفلة كلما كان أتم والكلام المقصود كان أهم كان المقدم على المقصود أكثر، ولهذا ينادي القريب بالهمزة فيقال: أزيد. والبعيد بـ(يا) فيقال: يا زيد. والغافل يُنَبَّه أولاً فيقال: ألا يا زيد.

إذا ثبت هذا فنقول: إن النبي - صلى الله عليه وسلم- وإن كان يقظان الجَنَان(٣) لكنه إنسان يشغله شأن عن شأن، فكان يحسن من الحكيم أن يقدم على الكلام المقصود حروفاً هي كالمنبهات، ثم إن تلك الحروف إذا لم تكن بحيث يُفْهَم معناها تكون أتم في إفادة المقصود الذي هو التنبيه من تقديم الحروف التي لها معنى، لأن تقديم الحروف إذا كان لإقبال السامع على المتكلم لسماع ما بعد ذلك، فإذا كان ذلك المُقَدَّم كلاماً منظوماً وقولاً مفهوماً فإذا سمعه السامع ربما يظن أنه كل المقصود ولا كلام له بعد ذلك فيقطع الالتفات عنه، أما إذا سمع منه صوتاً بلا معنى يقبل عليه ولا يقطع نظره عنه ما لم يسمع غيره لجزمه بأن ما سمعه ليس هو المقصود.

فإذن تقديم الحروف التي لا معنى لها في الوضع على الكلام المقصود فيه حكمة بالغة"(٤).

وهذا القول -والله أعلم- ضعيف لا تسنده حجة ولا يقويه برهان، فلو كان المقصود من هذه الحروف تنبيه الغافل لكان من الأولى أن تفتتح بها كل سور القرآن إذ لا داعي لتخصيص بعضها دون بعض، ثم إن العرب لم يكونوا بحاجة لمن يوقظهم من غفلتهم، ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم أتاهم بكتاب قوض عبادتهم، وسفه أحلامهم، وكفى بذلك إثارة لأسماعهم لأن ينصتوا إلى ما جاءهم به مخالفهم، زد على ذلك أن أسلوب القرآن ونظمه فيه من جذب أسماعهم واستمالتهم ما يكفي، كيف لا وهم كانوا يستمعون للقرآن خلسة وقد كان يؤثر عليهم رغم كفرهم.

---

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢٧/٣ ، وانظر معاني القرآن لأحمد بن محمد بن إسماعيل المرادي النحاس ٧٦/١ ، ط جامعة أم القرى ـ مكة المكرمة ـ ، الأولى ١٤٠٩هـ ، بتحقيق/محمد علي الصابوني ، ومفاتيح الغيب ٢٥٤/٢ ، وفتح القدير للشوكاني ٢٩/١ .

(٢) التفسير الكبير: ٢٧/١٣.

(٣) الجَنَان : القلب . انظر لسان العرب ٩٣/١٣ .

(٤) مفاتيح الغيب ٢٧/٢٥ .

وقال ابن كثير مبيناً بطلان هذا القول: "وهو ضعيف، لأنه لو كان كذلك لكان ذلك في جميع السور، لا يكون في بعضها، بل غالبها ليس كذلك، ولو كان كذلك ـ أيضاً ـ لانبغى الابتداء بها في أوائل الكلام معهم، سواء كان افتتاح سورة أو غير ذلك، ثم إن هذين ـ يعني سورة البقرة وآل عمران ـ مدنيتان ليستا خطاباً للمشركين، فانتقض ما ذكروه بهذه الوجوه"(١)(٢).

القول السابع: ـ هذه الحروف أسماء، مسمياتها الحروف المبسوطة التي رُكِّبَت منها الكلمات، فقولك: (ضاد) اسم سُمِّي به الحرف (ضه) من كلمة (ضرب) إذا تهجيته، وكذلك (راء) و(باء) أسمان لقولك: (ره) و(به)(٣).

قال الخليل يوماً وسأل أصحابه: كيف تقولون إذا أردتم أن تلفظوا بالكاف التي في (لك) والباء التي في (ضرب) ؟ فقيل: نقول: باء، كاف. فقال: إنما جئتم بالاسم ولم تلفظوا بالحرف، وقال: أقول: (كه) (به)(٤).

فإن قيل: وما الفائدة التي تترتب على ذلك ؟

فالجواب: أن في ذلك فائدة عظيمة: " فالتكلم بهذه الحروف ـ وإن كان معتاداً لكل أحد إلا أن كونها مسماة بهذه الأسماء لا يعرفه إلا من اشتغل بالتعلم والاستفادة، فلما أخبر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم- عنها من غير سبق تعلم واستفادة كان ذلك إخباراً عن الغيب، فلهذا السبب قَدَّم الله ـ تعالى ـ ذكرها ليكون أول ما يُسْمَع من هذه السورة معجزة دالة على صدقه ـ صلى الله عليه وسلم-(٥)".

ويدخل في هذا القول ما رُوِي عن عكرمة أن هذه الحروف قسم(٦).

أي أن الله تعالى أقسم بالحروف المعجمة لشرفها وفضلها، ولأنها مباني كتبه المنزلة بالألسنة المختلفة، ومباني أسماء الله الحسنى وصفاته العليا، وأصول كلام الأمم، بها يتعارفون ويذكرون الله ويوحدونه.

ثم إنه تعالى اقتصر على ذكر البعض وإن كان المراد هو الكل كما تقول: قرأت {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الفاتحة: ٢] .وتريد السورة كلها، فكأنه ـ تعالى ـ قال: أقسم بهذه الحروف، إن هذا الكتاب هو ذلك الكتاب المثبت في اللوح المحفوظ(٧).

القول الثامن: أن هذه الحروف أمارة قد كان الله تعالى جعلها لأهل الكتاب أنه سينزل على محمد ـ صلى الله عليه وسلم- كتاباً في أول سور منه حروف مقطعة(٨).

قلت: وكل هذه الأقوال فيها وجه من الوجاهة والقبول ـ على تفاوت في ذلك ـ، وليس فيها محذور أو محظور يتعارض مع النقل الصريح أو العقل الصحيح، فلو قُبِلَت كلها لم يزد بعضها بعضاً إلا قوة ورجاحة.

قال ابن جرير الطبري: "ولكل قول من الأقوال التي قالها الذين وصفنا قولهم في ذلك وجه معروف"(٩).

ثم قال ـرحمه الله-: "والصواب من القول عندي في تأويل مفاتح السور التي هي حروف المعجم أن الله ـ جل ثناؤه ـ جعلها حروفاً مقطعة ولم يصل بعضها ببعض فيجعلها كسائر الكلام المتصل الحروف لأنه ـ عز

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣٨/١ و٣٩ .

(٢) كما وأن وجوه هذا التضعيف فيها نظر:

أما قوله: ينبغي ذكرها في جميع السور، فليس بلازم لأن هذه الأحرف لا يقتصر معناها ولا الحكمة منها على ما ذُكِر في هذا القول فقط، بل هو معنى من معانيها إلى جانب معان أخر.

وأما قوله: ينبغي الابتداء بها في أوائل الكلام معهم، سواء كان افتتاح سورة أو غير ذلك، فليس بلازم ـ أيضاً ـ لأن التنبيه قد حصل في أول السورة وحصل المقصود. هذا فضلاً عن أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم- كان إذا خاطبهم بالقرآن كانوا يعرضون، أما إذا خاطبهم هو فليس الأمر كذلك.

واعتراضه المتعلق بذكرها في البقرة وآل عمران المدنيتين فالجواب أن هذا التنبيه ليس للمشركين فقط، بل هو لهم ولغيرهم كما سبق تقريره آنفاً.

(٣) انظر الكشاف ٦٣/١ ، وأنوار التنزيل للبيضاوي ٨٥/١ .

(٤) انظر الكشاف ٦٤/١ .

(٥) مفاتيح الغيب ٢٥٤/٢ ، وانظر أنوار التنزيل ٨٥/١ ، وإرشاد العقل السليم ٢٢/١ .

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٣٣/١ ، والنحاس في معاني القرآن ٧٥/١ .

(٧) انظر تفسير السمعاني ٤١/١ ، والبغوي ٤٤/١ ، والرازي ٢/ ٢٥٤ ، وأبي حيان ١٥٦/١ ، وأبي السعود ٢١/١.

(٨) انظر المحرر الوجيز ٨٢/١ ، والبحر المحيط ١٥٧/١ ، والإتقان ٢٨/٣ .

(٩) جامع البيان ٦٩/١ .

ذكره ـ أراد بلفظه الدلالة بكل حرف منه على معان كثيرة لا على معنى واحد،.. والصواب في تأويل ذلك عندي أن كل حرف منه يحوي ما قاله سائر المفسرين.

فإن قال لنا قائل: وكيف يجوز أن يكون حرف واحد شاملاً الدلالة على معان كثيرة مختلفة؟

قيل: كما جاز أن تكون كلمة واحدة تشتمل على معان كثيرة مختلفة، كقولهم للجماعة من الناس: أمة، وللحين من الزمان: أمة، وللرجل المتعبد المطيع لله: أمة، وللدين والملة أمة.

وكقولهم للجزاء والقصاص: دِيْن، وللسلطان والطاعة: دين، وللتذلل: دين، وللحساب: دين ؛ في أشباه لذلك كثيرة يطول الكتاب بإحصائها مما يكون من الكلام بلفظ واحد وهو مشتمل على معان كثيرة.

وكذلك قول الله ـ جل ثناؤه ـ: (الم) و(المر) و(المص) وما أشبه ذلك من حروف المعجم التي هي فواتح أوائل السور، كل حرف منها دال على معان شتى شامل جميعها، من أسماء الله ـ عز وجل ـ وصفاته مما قاله المفسرون من الأقوال التي ذكرناها عنهم، وهن مع ذلك فواتح السور كما قاله من قال ذلك.

وليس كون ذلك من حروف أسماء الله ـ جل ثناؤه ـ وصفاته بمانعها أن تكون للسور فواتح، لأن الله ـ جل ثناؤه ـ قد افتتح كثيراً من سور القرآن بالحمد لنفسه والثناء عليها وكثيراً منها بتمجيدها وتعظيمها، فغير مستحيل أن يبتدئ بعض ذلك بالقسم بها.

فالتي ابتدئ أوائلها بحروف المعجم أحد معاني أوائلها أنهن فواتح ما افتتح بهن من سور القرآن، وهن مما أقسم بهن، لأن أحد معانيهن أنهن من حروف أسماء الله ـ تعالى ذكره ـ وصفاته ـ على ما قدمنا البيان عنها ـ.

فذلك يحوي معاني جميع ما وصفنا مما بينا من وجوهه، لأن الله ـ جل ثناؤه ـ لو أراد بذلك أو بشيء منه الدلالة على معنى واحد مما يحتمله ذلك دون سائر المعاني غيره لأبان ذلك لهم رسول الله إبانة غير مشكلة، إذ كان ـ جل ثناؤه ـ إنما أنزل كتابه على رسوله ليبين لهم ما اختلفوا فيه.

وفي تركه إبانة ذلك أنه مراد به من وجوه تأويله البعض دون البعض أوضح الدليل على أنه مراد به جميع وجوهه التي هو لها محتمل، إذ لم يكن مستحيلاً في العقل وجه منها أن يكون من تأويله ومعناه، كما كان غير مستحيل اجتماع المعاني الكثيرة للكلمة الواحدة باللفظ الواحد في كلام واحد"[١].

وإن كانت هذه الأقوال مقبولة إلا أن ثمة أقوالاً أخرى هزيلة مردودة وجب ذكر بعضها للتنبيه عليها.

القول التاسع: ما رُوِي عن الربيع بن أنس أنه قال: "هذه الأحرف من التسعة والعشرين حرفاً دارت فيها الألسن كلها، ليس منها حرف إلا وهو مفتاح اسم من أسمائه، وليس منها حرف إلا وهو في آلائه وبلائه، وليس منها حرف إلا وهو مدة قوم وآجالهم"[٢].

وهذا يشبه ما ذكره القرطبي عن محمد بن علي الحكيم الترمذي أنه قال: إن الله تعالى أودع جميع ما في تلك السورة من الأحكام والقصص في الحروف التي ذكرها في أول السورة، ولا يعرف ذلك إلا نبي أو ولي، ثم بين ذلك في جميع السورة ليفقه الناس[٣].

وهذا قول مردود، وتحميل لكلام الله ما لا يحتمل، إذ فيه ادعاء أن بعض آيات القرآن الكريم حكم الله ألا يعلمها إلا نبي أو ولي، فإن كان النبي - صلى الله عليه وسلم- قد مات فقد بقي الأولياء الذين هم المؤمنون، فكل مؤمن ولي لله، وأعلى المؤمنين منزلة وأقربهم إلى الله تعالى هم العلماء، وما قاله العلماء بعيد كل البعد عن هذا القول، وهذا القول بعيد كل البعد عما قاله العلماء.

ثم أي فائدة في أن تكون هذه الأحرف دالة على مدة قوم وآجالهم، ومدد الأقوام وآجالهم غيب لم يطلع الله أحداً من خلقه عليه: {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [لقمان: ٣٤].

وعن بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي - صلى الله عليه وسلم- قال: "مفاتيح الغيب خمس، لا يعلمها إلا الله، لا يعلم ما تغيض الأرحام[١] إلا الله، ولا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله[٢].

---

(١) جامع البيان ٧٢/١و٧٣ ، وانظر معاني القرآن للنحاس ٧٦/١

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير ٦٨/١ وابن أبي حاتم ٣٣/١ .

(٣) انظر تفسير القرطبي ١٥٦/١

فإذا كانت كل نفس لا تدري مكان أجلها فهي ـ من باب أولى ـ لا تدري زمان أجلها ولا أجل غيرها.
القول العاشر: أنها أقسام أقسم الله بها:
قال بعض العلماء: إن الله أقسم بهذه الحروف لإظهار شرفها وفضلها، ممن قال ذلك ابن عباس[٣]، وعكرمة[٤] والأخفش[٥] والزركشي[٦].
قال الزركشي: "أن الله أقسم بهذه الحروف بأن هذا الكتاب الذي يقرؤه محمد هو الكتاب المنزل لا شك فيه، وذلك يدل على جلالة قدر هذه الحروف إذ كانت مادة البيان وما في كتب الله المنزلة باللغات المختلفة وهي أصول كلام الأمم بها يتعارفون، وقد أقسم الله تعالى بـ (الفجر)، و (الطور) فكذلك شأن هذه الحروف في القسم بها "[٧].
ومما استدل به بعضهم على هذا القول ما أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس رضي الله عنهما انه قال في قوله تعالى: (كهيعص) و (طه) و (طسم) و(يس) و(ص) و(حم عسق) و(ق) ونحو ذلك قسم أقسمه الله تعالى وهي من أسماء الله عز وجل[٨].
وهذ القول فيه نظر: إذ أن صيغة القسم معروفة وتأتي معتمدة على كلمات وحروف تفيد القسم نحو: اقسم أو الواو في (والله) أو التاء وهكذا، أما أن تعد هذه الحروف قسماً فهذا ما لم يعهده العرب، ولم يجر على ألسنتهم، ويدل على بطلان هذا القول أيضاً أنه لا يوجد ما يعضده ويشهد لصحته في القرآن أو السنة الصحيحة، وما نقل عن ابن عباس فهو ضعيف[٩]، قال القرطبي مبيناً فساد هذا القول: "لا يصح أن يكون قسماً لأن القسم معقود على حروف مثل: إن وقد ولقد وما، ولم يوجد ها هنا حرف من هذه الحروف فلا يجوز أن يكون يميناً"[١٠].
القول الحادي عشر: أنها جاءت للدلالة على انقطاع كلام واستئناف كلام آخر :
ذهب بعض العلماء إلى أن هذه الحروف تدل على انقطاع كلام واستئناف كلام آخر، ومعنى ذلك أنه افتتح بها ليعلم أن السورة التي قبلها قد انقضت وأنه قد أخذ في أخرى، فجعل هذا علامة انقطاع ما بينهما.

---

(١) ما تغيض الأرحام . معناه : ما نقص الحمل فيه عن تسعة أشهر ، وما زاد على التسعة . وقيل : ما نقص عن أن يتم حتى يموت ، وما زاد حتى يتم الحمل . انظر لسان العرب ٢٠١/٧ ، والمفردات في غريب القرآن لأبي القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني ص ٣٦٨ ، ط دار المعرفة ـ بيروت ـ ، بتحقيق/محمد سيد كيلاني .
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ١٧٩٣/٤ ، كتاب : التفسير ، باب : {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ} [لقمان: ٣٤] ، برقم (٤٥٠٠) ، والنسائي في السنن الكبرى ٣٧٠/٦ ، كتاب : التفسير ، باب : قوله ـ تعالى ـ : {مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى} [الرعد: ٨] سورة الرعد (٧) ، برقم (١١٢٥٨) ، وأحمد في المسند ٢٤/٢ .
(٣) انظر: عزاه إليه النسفي في تفسيره (١ :٣٩ (وابن عباس هو عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم، ولد قبل الهجرة بثلاث سنوات توفي سنة ٦٨هـ، أنظر ابن حجر، شهاب الدين أبو الفضل احمد بن علي، الإصابة في تمييز الصحابة، ٧ مج، مكتبة الكليات بالأزهر (ط١ / ١٣٩٦ هـ – ١٩٧٦م) (٥ :١٣٠ - ١٤٠).
(٤) انظر: عزاه إليه السيوطي في الدر المنثور (١ :٥٤ (وهو عكرمة بن أبي جهل عمرو بن هشام المخزومي القرشي من صناديد قريش في الجاهلية والإسلام أسلم بعد فتح مكة وحسن إسلامه فشهد الوقائع واستشهد في اليرموك سنة ١٣ هـ وعمره ٦٢ سنة، أنظر الزركلي، الأعلام (٤ :٢٤٤).
(٥) انظر: لأخفش الأوسط، أبو الحسن سعيد بن مسعدة المجاشعي معاني القرآن، ٢ جزء، تحقيق الدكتور فائز مسعد دار البشير، ط٣ / ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م) (١ :٢٠).
(٦) انظر: البرهان: ١٧٣/١.
(٧) انظر: البرهان: ١٧٣/١.
(٨) انظر: البحر المحيط: ٥٨/١.
(٩)أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات:٢٣٠/١ ، والأثر إسناده ضعيف فهو من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وذكر ابن حجر أن علي بن أبي طلحة أرسل عن ابن عباس ولم يره أنظر ابن حجر، شهاب الدين أحمد بن علي، تقريب التهذيب: ٣٤١.
(١٠) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٥٦/١.

من الذين قالوا بذلك: مجاهد(١) وأبو عبيدة(٢) والأخفش(٣).
وهذا الكلام ليس بشيء، فلا تُعد هذه الحروف دالة على انقطاع كلام واستئناف كلام آخر، فإن هذه الحروف لم تعهد مزيدة لهذه الدلالة، فقد صح الفصل بغيرها، ثم إن هذا غير مضطرد في جميع السور، فلماذا ذكرت هذه الحروف في سور ولم تذكر في أخرى .قال ابن كثير مبيناً بطلان هذا القول: "وهذا ضعيف لأن الفصل حاصل بدونها فيما لم تذكر فيه، وفيما ذكرت فيه البسملة تلاوة وكتابة"(٤).
القول الثاني عشر: أن هذه الحروف جاءت للدلالة على مدة بقاء هذه الأمة، وذلك بحساب الجمل ـ بضم الجيم وفتح الميم المشددة ـ ويُعْرَف بحساب (أبي جاد)(٥).
وقد ورد في ذلك حديث ضعيف، وهو مع ذلك أدل على بطلان هذا المسلك من التمسك به على صحته، وهو عن عبدالله بن عباس عن جابر بن عبد الله أنه قال: "مر أبو ياسر بن أخطب برسول الله وهو يتلو فاتحة سورة البقرة: {الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ} [البقرة: ١، ٢]، فأتى أخاه حُيَيّ بن أخطب في رجال من يهود، فقال: تعلمون والله لقد سمعت محمداً يتلو فيما أنزل الله ـ عز وجل ـ عليه: {الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ} [البقرة: ١، ٢]. فقالوا: أنت سمعته ؟ قال: نعم.
فمشى حيي بن أخطب في أولئك النفر من يهود إلى رسول الله، فقالوا: يا محمد، ألم يُذْكَر لنا أنك تتلو فيما أنزل عليك: {الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ} [البقرة: ١، ٢] ؟ فقال رسول الله: بلى. فقالوا: أجاءك بهذا جبريل من عند الله ؟ قال: نعم. قالوا: لقد بعث الله ـ جل ثناؤه ـ قبلك أنبياء ما نعلمه بين لنبي منهم ما مدة ملكه وما أجل أمته غيرك. فقال حيي بن أخطب ـ وأقبل على من كان معه فقال لهم ـ: الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، فهذه إحدى وسبعون سنة. قال: فقال لهم: أتدخلون في دين نبي إنما مدة ملكه وأجل أمته إحدى وسبعون سنة ؟! قال: ثم أقبل على رسول الله فقال: يا محمد، هل مع هذا غيره ؟ قال: نعم. قال: ماذا ؟ قال: {المص} قال: هذه أثقل وأطول، الألف واحدة، وللام ثلاثون، والميم أربعون، والصاد تسعون، فهذه مائة وإحدى وستون سنة، هل مع هذا يا محمد غيره ؟ قال: نعم، قال: ماذا ؟ قال: {الر}، قال: هذه أثقل وأطول، الألف واحدة،واللام ثلاثون، والراء مائتان، فهذه إحدى وثلاثون ومائتا سنة، فقال: هل مع هذا غيره يا محمد ؟ قال: نعم {الر}، قال: فهذه أثقل وأطول، الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، والراء مائتان، فهذه إحدى وسبعون ومائتا سنة.
ثم قال: لقد لُبِّس علينا أمرك يا محمد حتى ما ندري أقليلاً أُعْطِيت أم كثيراً. ثم قاموا عنه، فقال أبو ياسر لأخيه حيي بن أخطب ولمن معه من الأحبار: ما يدريكم لعله قد جُمِع هذا كله لمحمد، إحدى وسبعون، وإحدى وستون ومائة، ومائتان وإحدى وثلاثون، ومائتان وإحدى وسبعون، فذلك سبعمائة سنة وأربع وثلاثون. فقالوا: لقد تشابه علينا أمره"(٦).

---

(١)عزاه إليه الطبري في جامع البيان (١ :٦٧) وهو مجاهد بن جبير أبو الحجاج المكي مولى بني مخزوم تابعي مفسر من أهل مكة، شيخ القراء والمفسرين، أخذ التفسير عن ابن عباس ولد سنة ٢١ هـ وتوفي سنة ١٠٤ هـ أنظر الزركلي، الأعلام: (٥: ٢٧٨).
(٢) انظر: مجاز القرآن ، أبو عبيدة، معمر بن مثنى التيمي، ، ٢ مج، مؤسسة الرسالة، بيروت (ط١٤٠١/٢ هـ-١٩٨١م) :٢٨١/١.
(٣) انظر: معاني القرآن: ٢١/١.
(٤) تفسير ابن كثير: ٣٧/١.
(٥) انظر تفسير الطبري ٦٨/١ ، والرازي ٢٥٣/٢ ، والتسهيل لعلوم التنزيل لمحمد بن أحمد بن محمد بن جُزَيّ الغرناطي الكلبي ٣٥/١ ، ط دار الكتاب العربي ـ لبنان ـ ، الرابعة ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م ، والبحر المحيط ١٥٦/١ ، والإتقان ٢٦/٣ .
(٦) هذا حديث باطل أخرجه البخاري في التاريخ الكبير٢٠٨/٢ ، وأبو عمرو الداني في كتاب البيان في عد آي القرآن ص ٣٣٠ ، وابن جرير الطبري في تفسيره ٧١/١ و٧٢ ، كلهم من طريق محمد بن السائب الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس عن جابر.....
و محمد بن السائب الكلبي متروك ومتهم بالكذب ، كما في كتاب الكامل في ضعفاء الرجال لابن عدي ١١٤/٦ ، والضعفاء والمتروكين للنسائي ص ٩١ ، والتقريب لابن حجر ص ٤٧٩ .
وأبو صالح هو باذام مولى أم هانئ ، وهو ضعيف جداً ، ويُرْسِل ، كما في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٦٣١/٢ ، و التاريخ الكبير للبخاري ١٤٤/٢ ، والتقريب ص ١١٠ . قال سفيان : قال لي الكلبي : قال لي أبو صالح : كل ما حدثتك به كذب . انظر سنن البيهقي الكبرى ١٢٣/٨ ، والكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي ص ١١٧ .

قلت: وهذا القول مردود مرذول، والحديث الدال عليه باطل ولا يصح الاحتجاج به، وكون هذه الحروف تدل على أجل هذه الأمة ومدتها، أو على معرفة الحوادث يحتاج إلى توقيف من النبي - صلى الله عليه وسلم- أن حرف كذا يدل على حادثة كذا وكذا، أو أن حادثة كذا يدل عليها الحرف كذا.

ومن العجيب أن أبا جعفر الطبري ضرب عن هذا القول صفحاً أول الأمر فقال:"وقال بعضهم: هي حروف من حساب الجُمَّل، كرهنا ذكر الذي حُكِي ذلك عنه، إذ كان الذي رواه ممن لا يُعتمد على روايته ونقله"(١).

ثم هو بعد عدة صفحات ألمح إلى أن هذا القول مُعْتَبَر، ثم ذكر هذا الحديث السابق(٢)، وهذا تناقض واضح.

قال ابن كثير: "وأما من زعم أنها دالة على معرفة المُدَد، وأنه يستخرج من ذلك أوقات الحوادث والفتن والملاحم، فقد ادعى ما ليس له، وطار في غير مطاره، وقد ورد في ذلك حديث ضعيف، وهو مع ذلك أدل على بطلان هذا المسلك من التمسك به على صحته"(٣).

وأما الأخذ بحساب الجمل أو(أبي جاد) فهو أمر لا يتعلق به فائدة لجاهلي ولا إسلامي، ولا يصح أن يكون مقصداً من مقاصد الرب - سبحانه - الذي أنزل كتابه للإرشاد إلى شرائعه والهداية به، وهو أقرب ما يكون إلى السحر والتنجيم.

قال الحافظ ابن حجر بعد ذكر هذا القول:"الحمل على ذلك من هذه الحيثية باطل، وقد ثبت عن ابن عباس الزجر عن عد (أبي جاد)، والإشارة إلى أن ذلك من جملة السحر، وليس ذلك ببعيد، فإنه لا أصل له في الشريعة"(٤).

وابن حجر يشير إلى حديث ابن عباس قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم-: رب مُعلِّم حروف أبي جاد، دارس في النجوم ليس له عند الله خَلاق(٥) يوم القيامة(٦).

أما سبب اختصاص كل سورة بالحروف التي افتتحت بها، فمرد ذلك أن هذه السور إنما جاء في أول كل سورة منها الحروف التي كثر تردادها فيما تركب من كلماتها.

ويوضح ذلك أننا إذا قارنا بين سورة من هذه السور التي افتتحت بهذه الحروف وبين سورة أخرى تماثلها أو تقاربها في الطول وعدد الكلمات لوجدنا أن الحروف المفتتح بها تلك السورة أكثر عدداً في كلماتها من السورة الأخرى.

قال الزركشي في البرهان: "ومن ذلك السور المفتتحة بالحروف المقطعة ووجه اختصاص كل واحدة بما بُدِئت به حتى لم تكن لترد {الم} في موضع {الر}، أو {حم} في موضع {طس}، وكذا وقع في كل سورة منها ما كثر ترداده فيما يتركب من كلمها، ويوضحه أنك إذا ناظرت سورة منها بما يماثلها في عدد كلماتها وحروفها وجدت الحروف المفتتح بها تلك السورة إفراداً وتركيباً أكثر عدداً في كلماتها منها في نظيرتها ومماثلتها في عدد كلمها وحروفها، وقد اطرد هذا في أكثرها، فحق لكل سورة منها ألا يناسبها غير الوارد فيها، فلو وضع موضع {ق} من سورة {ن} لم يمكن، لعدم التناسب الواجب مراعاته في كلام الله - تعالى-"(٧).

وللحديث طريق أخرى في تاريخ البخاري الكبير ٢٠٨/٢ من طريق زياد بن عبد الله البكائي ، وهو متروك الحديث كما في تهذيب الكمال ٤٨٥/٩ ، ولسان الميزان ٥٠٥/٧ .

(١) جامع البيان ٦٨/١ .

(٢) انظر جامع البيان ٧١/١ و ٧٢ .

(٣) تفسير ابن كثير ٣٩/١ .

(٤) فتح الباري ٣٥١/١١ .

(٥) الخَلاق : الحظ والنصيب . انظر لسان العرب ٩٢/١٠ ، والنهاية في غريب الأثر لأبي السعدات المبارك بن محمد بن الأثير الجزري ٧٠/٢ ، ط دار الفكر - بيروت - ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م ، بتحقيق/طاهر أحمد الزاوي ، ومحمود محمد الطناحي .

(٦) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٤١/١١ ، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٣٣١/٣ إلى ابن مردويه . وهو موقوف على ابن عباس في مصنف ابن أبي شيبة ٢٤٠/٥ ، والموقوف أصح إلا أن له حكم الرفع ، والله أعلم .

(٧) البرهان في علوم القرآن لبدر الدين محمد بن بهادر بن عبدالله الزركشي ١٦٩/١ ، ط دار المعرفة - بيروت - ١٣٩١هـ ، بتحقيق/محمد أبوالفضل إبراهيم ، وانظر الإتقان ٣٣٤/٢ .

فحروف الافتتاح ظاهرة التكرار في سورها أو على الأقل في الآيات التالية مباشرة لتلك الحروف، وذلك لإحداث الجرس الصوتي الجميل والمشاركة في نقل المعنى ورسم الصورة.

ولقد كثرت الألف واللام والميم في الفواتح دون غيرهن من الحروف لكثرتهن في الكلام[(١)].

وسورة الأعراف زيد فيها الصاد على {الم} لما فيها من شرح القصص: قصة آدم فمن بعده من الأنبياء، ولما فيها من ذكر: {كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ} [الأعراف: ٢][(٢)].

وزيد في سورة الرعد (راء) فصارت {المر} لأجل قوله: {اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ } [الرعد: ٢]، ولأجل ذكر الرعد والبرق وغيرها من الكلمات التي تردد فيها حرف الراء بكثرة[(٣)].

هذا فضلاً عما ورد فيها من الجمل المجتمع في تراكيبها الألف واللام والميم والراء في مثل قوله: {وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ} [الرعد: ٢]، وقوله: {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ} [يونس: ٣]، وقوله: {اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ} [الرعد: ٨]، وقوله: {وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ} [الرعد: ٣٠]، وقوله: {فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا} [الرعد: ٤٢].

قال السيوطي: "وقد تكرر في سورة يونس من الكلم الواقع فيها الراء مائتا كلمة أو أكثر، فلهذا افتتحت بـ: {الم}[(٤)]".

وقد"اشتملت سورة (ص) على خصومات متعددة، فأولها خصومة النبي - صلى الله عليه وسلم- مع الكفار وقولهم: {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ} [ص: ٥]، ثم اختصام الخصمين عند داود، ثم تخاصم أهل النار، ثم اختصام الملأ الأعلى، ثم تخاصم إبليس في شأن آدم، ثم في شأن بنيه وإغوائهم[(٥)]".

وتجدر الإشارة بأن تكرار حرف الصاد في سورة (ص) يفوق كثيراً معدل تكراره في السور الأخر المجاورة لها، سواء كانت في طولها أم أطول منها قليلاً، فقد تكرر حرف الصاد في سورة (ص) تسعاً وعشرين مرة ـ بما فيها حرف الافتتاح ـ، وتكرر في سورة الزمر التي تليها مباشرة اثنين وعشرين مرة، فإذا علمت أن سورة (ص) في المصحف خمس صفحات، في حين أن سورة الزمر ثمان صفحات، وإذا حسبنا الفارق بين تكرار الحرف في السورتين فوجدناه يزيد في سورة (ص) سبع مرات عن سورة الزمر، وإذا وضعنا هذا كله في الاعتبار قلنا: إن تكرار حرف الصاد في سورة (ص) يقارب ضعف تكراره في سورة الزمر، وهذا على وجه التقريب[(٦)].

وإذا تأملنا سورة (ق) فسنجد حرف القاف مكرراً في أكثر آياتها مرة أو مرتين في كلمة قد تكون أهم كلمة في الآية.

قال الزركشي: "سورة (ق) بُدِئت به لما تكرر فيها من الكلمات بلفظ القاف، من ذكر القرآن، والخلق، وتكرير القول ومراجعته مراراً، والقرب من ابن آدم، وتلقي الملكين، وقول العتيد الرقيب، والسائق والإلقاء في جهنم، والتقدم بالوعد، وذكر المتقين، والقلب والقرون والتنقيب في البلاد، وتشقق الأرض، وحقوق الوعيد، وغير ذلك"[(٧)].

---

(١) هكذا قال الزركشي في البرهان ١٦٨/١ ، وقال ـ أيضاً ـ :"واعلم أن الأسماء المتهجاة في أول السور ثمانية وسبعون حرفاً : فالكاف والنون كل واحد في مكان واحد ، والعين والياء والهاء والقاف كل واحد في مكانين ، والصاد في ثلاثة ، والطاء في أربعة ، والسين في خمسة ، والراء في ستة ، والحاء في سبعة ، والألف واللام في ثلاثة عشر ، والميم في سبعة عشر":اهـ البرهان ١٦٧/١ .

(٢) انظر الإتقان ٣٣٥/٣ .

(٣) انظر الإتقان ٣٣٥/٣ .

(٤) الإتقان ٣٣٤/٣ .

(٥) الإتقان ٣٣٤/٣ .

(٦) تفسير الحروف المقطعة، د. محمد حسن أبو النجا(مصدر سابق).

(٧) البرهان للزركشي ١٦٩/١ ، وانظر الإتقان ٣٣٤/٣ .

وقد اطرد هذا في السور المفتتحة بحروف التهجي، فحق لكل سورة منها ألا يناسبها غير الحروف المفتتحة بها، فلو وقع: {الم} في موضع {كهيعص} مثلاً، أو {طس} في موضع {حم} أو غير ذلك لم يصح لانعدام المناسبة التي يجب مراعاتها في كتاب الله - تعالى -[١].

وخلاصة القول أن عدم ورود النقل بأن لها معاني لا يدل على انتفاء ثبوت المعاني لها في نفس الأمر. فإن عدم الدليل في أذهاننا لا يلزم منه عدم المدلول في نفس الأمر، وهذا غاية في الوضوح؛ وأقرب دليل يذكر هو ما دل على أن كل ما في القرآن له معاني بالقطع واليقين، والحروف المقطعة من القرآن، فلها معاني قطعا ويقينا، والنقل يفتقر إليه في توضيح الغامضات، أما توضيح الجليات فلا يشترط في ذلك نقل، ومن الجليات أن جميع ما في القرآن له معاني في نفس الأمر.

ثم القول بأن للحروف المقطعة حكمة وسر، وبعد ذلك ننفي المعاني عنها كليا، ففيه من التناقض ما لا يخفى، إذ الحكمة والسر لا يكونان إلا في ضمن المعاني، فإثبات الحكمة والسر للحروف المقطعة هو عين إثبات المعاني لها، وجهلنا بالحكمة والسر هو جهل بالمعاني، والعكس صحيح.

فيمكن القول بأن الحروف المقطعة لها معاني خاصة، سميت أسرارا وحكما أو غير ذلك، ومن رحمة الله تعالى بنا أنه لم يكلفنا بإدراكها، بل نؤمن بتنزيلها وكونها كلام الله تعالى، ونفوض له سبحانه العلم بحقيقة ما أراد من معانيها، دون أن نزيغ بها إلى معاني باطلة كما وقع لبعض الإشراقيين والفلاسفة الإسلاميين، ودون أن نسلبها معانيها في نفس الأمر بحيث يلزم من ذلك ثبوت كلام لله تعالى لا مدلول له في نفس الأمر، تعالى كلام ربنا عن ذلك.

وهذا مرجع كلام الصحب الكرام رضوان الله تعالى عليهم[٢].

ولاشك بأن هذه الحروف للإعجاز، وإننا عندما نقول بذلك لا يعني أننا نقتصر على هذا القول، فقد يكون لنزولها حكم أخرى -كما أشرت اليه سابقا -وقد ذكر الذين ردوا هذا القول كالشيخ محمد شلتوت أن العرب قد عرفوا عجزهم عن الإتيان بمثله وسجله القرآن عليهم فليسوا بحاجة إلى مثل هذه الحروف .نقول: حقاً انهم قد عرفوا عجزهم عن ذلك ولكن ما المانع من تكرار تسجيل ذلك عليهم مرة تلو المرة حتى يستدعي ذلك انتباههم، وحتى يذكرهم بعجزهم وضعفهم، ثم إنك تجد من مدلولات هذا التكرار استمرارية التحدي، ألم تر أن الله تحداهم أن يأتوا بمثل القرآن، وتحداهم أن يأتوا بعشر سور، وتحداهم أن يأتوا بسورة من مثله، وكل ذلك لإظهار عجزهم مع انهم يعلمون من أنفسهم ذلك العجز .وهنا ضربٌ آخر لتبكيتهم وإظهار عجزهم، وهو أن يذكر هذه الحروف احتجاجاً عليهم، فإن فيها تنبيه على أن القرآن ليس إلا من هذه الحروف، فهم قادرون عليها، فكان واجب عليهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن، فعجزهم دال على أنه من عند الله. والله أعلم، وله الحمد في الأولى والآخرة.

جدول توزيع الحروف المقطعة في أوائل سور القرآن الكريم:

١	حروف ذات الحرف الواحد والتي لم تتكرر	(ن)، (ق)، (ص).
٢	حروف ذات الحرفين والتي لم تتكرر	(طس)، (يس)، (طه).
٣	حروف ذات الحرفين والتي تكررت ٧ مرات	(حم).
٤	حروف ذات الثلاثة أحرف والتي تكررت مرتان فقط	(طسم)
٥	حروف ذات الثلاثة أحرف والتي تكررت ٦ مرات	(الم).
٦	حروف ذات الثلاثة أحرف والتي تكررت ٥ مرات	(الر).
٧	حروف ذات أربعة أحرف ولم تتكرر	(المر)، (المص).

(١) تفسير الحروف المقطعة، د. محمد حسن أبو النجا(مصدر سابق).
(٢) يقول الطبري: "هي حروف يشتمل كل حرف منها على معاني شتى مختلفة"(انظر: تفسيره: ١/ ٢٠٩).

٨	حروف ذات الخمسة أحرف ولم تتكرر	(كهيعص)، (حمعسق)
	الحروف بعد حذف المكرر منها (أربعة عشر حرفًا فقط)، وهي نصف عدد الحروف الأبجدية.	(ا ل م ص ر ك هـ ي ع ط س ح ق ن)

القرآن
{ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢) } [البقرة : ٢]
التفسير:
ذلك القرآن هو الكتاب العظيم الذي لا شَكَّ أنه من عند الله، فلا يصح أن يرتاب فيه أحد لوضوحه، ينتفع به المتقون بالعلم النافع والعمل الصالح وهم الذين يخافون الله، ويتبعون أحكامه.

قوله تعالى: {ذَلِكَ الْكِتَابُ}[البقرة : ٢]، أي: "هذا الكتاب"(١)، وهو القرآن العظيم، قاله مجاهد(٢)، وعكرمة(٣)، والسدي(٤)، وابن جريج(٥)، وهذا قول عامة المفسرين(٦).

قال السعدي:" أي: هذا الكتاب العظيم الذي هو الكتاب على الحقيقة، المشتمل على ما لم تشتمل عليه كتب المتقدمين والمتأخرين من العلم العظيم، والحق المبين"(٧).

و"الكتاب" من أسماء القرآن الأربعة: "القرآن والكتاب،والذكر، والفرقان"(٨)، وهذا هو التحقيق-وإن بقى اسم خامس ألا وهو التنـزيل- لأن "كل من ذكر هذا العدد الكثير قد خلط بينما هو اسم وما هو صفة .وهذا العدد إنما هو من قبيل الأوصاف التي لا ينبغي نظمها في سلك الأسماء كمن يعد كلا من(قُرْآنٌ كَرِيمٌ)، (قُرْآنٌ مَّجِيدٌ)، (ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ) أسماء دون تفرقة بين ما هو موصوف، وما هو منها وصف، في نحو قوله تعالى: {إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ} [الواقعة : ٧٧] ، {بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ}[البروج:٢١]، {وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ}[الأنبياء:٥٠]"(٩).

وتجدر الإشارة بأن أصل (الكتاب) في اللغة هو: الجمع و الضم، وسمي بذلك كما يقول الإمام الزركشي –رحمه الله-:" لأنه يجمع أنواعا من القصص والآيات والأحكام والأخبار على أوجه مخصوصة"(١٠).

ويقول الإمام السيوطي – رحمه الله -:"فأما تسميته كتابا فلجمعه أنواع العلوم والقصص والأخبار على أبلغ وجه والكتاب لغة الجمع"(١١).

وفي وجه تسمية القرآن بالـ(القرآن والكتاب)، يقول أحد الباحثين: " وفي تسميته بهذين الاسمين إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه في موضعين لا في موضع واحد، يعني أنه يجب حفظه في الصدور و السطور جميعا، أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى، فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم المجمع عليه من الأصحاب المنقول إلينا جيلا بعد جيل، على هيئته التي وضع عليها أول مرة، ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما هو عند الحفاظ بالإسناد الصحيح المتواتر.. وبهذا بقي القرآن محفوظا في حرز حريز، إنجازا لوعد الله الذي تكفل بحفظه حيث يقول {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [الحجر : ٩]"(١٢).

---

(١) تفسير الطبري: ٢٢٥/١.
(٢) أنظر: تفسير الطبري(٢٤٧):ص٢٢٥/١.
(٣)أنظر: تفسير الطبري(٢٤٨):ص٢٢٥/١.
(٤)أنظر: تفسير الطبري(٢٤٩):ص٢٢٥/١.
(٥)أنظر: تفسير الطبري(٢٥٠):ص٢٢٥/١.
(٦)تفسير الطبري:٢٢٥/١، وتفسير ابن كثير: ٧٠/١، والدر المنثور: ٢٤/١، والشوكاني: ٢١/١.
(٧) تفسير السعدي: ٤٠/١.
(٨) ذكر العلماء أسماء كثيرة للقرآن الكريم وصّلها البعض إلى نيّف وتسعين اسماً . ثم إن كلاً من الإمام الزركشي والإمام السيوطي ذكرا خمسة وخمسين اسما؛ بل إن الإمام الفيروزبادي ذكر مائة اسم، وهذا تساهل منهم -رحمهم الله تعالى وقد فصلنا القول فيه في مقدمة التفسير.(للاستزادة في هذا الموضوع يمكن الرجوع إلى: البرهان في علوم القرآن ٢٧٣/١ الإتقان في علوم القرآن ١٤٣/١ ،بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ٨٨/١-٩٦).
(٩) انظر: منة المنان في علوم القرآن، إبراهيم خليفة : ١/ ٣٤.
(١٠)البرهان في علوم القرآن :٢٧٦/١.
(١١)الإتقان في علوم القرآن:١٤٣/١.
(١٢)النبأ العظيم، د. محمد دراز :١٢.

كما ودلت على هذه التسمية نصوص الكتاب كقوله تعالى:
- {الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢)} [البقرة : ١ - ٢].
- {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (١)} [الكهف : ١].
- {اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧)} [الشورى : ١٧].
- {هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ}[آل عمران:٧][(١)].

قال الطاهر بن عاشور-رحمه الله-: " وفي هذه التسمية -أي بالكتاب - معجزة للرسول صلى الله عليه وسلم بأن ما أوحي إليه سيكتب في المصاحف" [(٢)]، كما وأن أسلوب القرآن في استخدام كلمة (الكتاب)، تحددها السياق الذي وردت فيه الكلمة[(٣)].

والخطاب في قوله تعالى: {ذلك}، لكل مخاطب يصح أن يوجه إليه الخطاب؛ والمعنى: ذلك أيها الإنسان المخاطب[(٤)]، وقد اختلف في ذلك (الغائب) على عدة أقوال[(٥)]:

أحدها : يعني التوراة والإنجيل ، ليكون إخباراً عن ماضٍ .

ومن ثم اختلفوا في المخاطب به على قولين[(٦)] :

القول الأول: أن المخاطب به النبي-صلى الله عليه وسلم-، أي ذلك الكتاب الذي ذكرته في

---

(١)يراد بكلمة الكتاب في المرة الأولى (القرآن الكريم)، لأنه الكتاب الذي أنزله الله على رسوله محمد -عليه السلام-.
(٢)التحرير والتنوير :٧٣/١.
(٣) نذكر منها على سبيل المثال:
- الكتاب أي (التوراة):
ومن ذلك قوله تعالى: "وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ" (البقرة:٥٣).
- الكتاب أي (أسفار العهدين القديم والجديد)
ومن ذلك قوله تعالى:" إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ" (آل عمران:١٩).
فقوله: "الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ" معناه الذين أوتوا الأسفار الدينية من يهود ونصارى.
ومنه قوله تعالى لأهل الكتاب: "أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ"(البقرة:٤٤).
فالكتاب هنا مراد به الأسفار الدينية التي يؤمنون بها، وهي أسفار العهد القديم المتكون من ٣٩ كتابا، وأسفار العهد الجديد المتكون من ٢٧ كتابا.
- الكتاب أي الوحي المنزل على الأنبياء من ذرية نوح وإبراهيم-عليهما السلام-:
وذلك في قوله تعالى: "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ" (الحديد:٢٦).
- الكتاب أي كتب (أهل الكتاب):
قال تعالى: "وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ" (المائدة:٤٨).
ولا يخفى بأن ما قبْل القرآن من الكتاب هو كتب أهل الكتاب، من كتب قديمة يؤمن بها اليهود، وكتب جديدة يؤمن بها المسيحيون مع إيمانهم بالكتب القديمة. قال ابن عاشور (ت ١٩٧٣م): "والكتاب الأول القرآن، فتعريفه للعهد. والكتاب الثاني جنس يشمل الكتب المتقدمة، فتعريفه للجنس"(التحرير والتنوير: ٢٢١/٦.)، فهيمنة القرآن على الكتاب معناها أنه مهيمن على الكتب الدينية السابقة.
- الكتاب أي (العدة)
ووردت كلمة (الكتاب) في القرآن مرادا بها العِدَّة، وهو استخدام مجازي بإطلاق الكتاب وإرادة العِدَّة المذكورة فيه، وذلك في قوله تعالى: "وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ" (البقرة:٢٣٥).
فبلوغ الكتاب أجله معناه بلوغ العِدَّة المكتوبةِ أجلَها. وعدة المتوفى عنها زوجها هي أربعة أشهر وعشرة أيام.
الكتاب أي(مجموع الواجبات)
قد وردت كلمة (الكتاب) بمعنى مجموع ما كتبه الله على عباده من الواجبات والمحرمات، وهو استخدام مجازي بإطلاق الكتاب وإرادة المكتوب فيه، ومن ذلك قوله تعالى: "هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ" (الجمعة:٢).
(٤) أنظر: تفسير ابن عثيمين:٢٥/١.
(٥) أنظر:النكت والعيون: ٦٧/١، والمحرر الوجيز: ٨٣/١، وتفسير القرطبي: ١٥٦/١ وما بعدها بتصرف بسيط.
(٦) أنظر: النكت والعيون: ٦٧/١.

التوراة والإنجيل ، هو الذي أنزلته عليك يا محمد .
والقول الثاني : أن المخاطب به اليهود والنصارى ، وتقديره : أن ذلك الذي وعدتكم به هو هذا الكتاب ، الذي أنزلته على محمد عليه وعلى آله السلام .
والثاني : يعني به ما نزل من القرآن قبل هذا بمكة والمدينة ، وهذا قول الأصم .
والثالث : يعني هذا الكتاب، قاله الحسن[١] وابن عباس[٢]، مجاهد[٣]، وعكرمة[٤]، والسدي[٥]، وابن جريج[٦]، وهكذا فسره سعيد بن جبير، ومقاتل بن حيان، وزيد بن أسلم[٧].

وأصحّ الأقوال هو تفسير(ذلك الكتاب) بـ(هذا الكتاب)، وهو قول الطبري وعامة المفسرين، "لأن ذلك أظهرُ معاني قولهم الذي قالوه في (ذلك)، وقد وَجَّه معنى (ذلك) بعضُهم، إلى نظير معنى بيت خُفاف بن نُدبة السُّلميّ [٨]:

فَإن تَكُ خَيْلي قد أُصِيبَ صَمِيمُها   فَعَمْدًا على عَيْنٍ تَيَمَّمْتُ مَالِكَا
أقولُ له، والرُّمحُ يأطِرُ مَتْنَهُ :   تأمَّل خُفَافًا، إنني أنا ذلِكَا[٩]

كأنه أراد : تأملني أنا ذلك. فزعم أنّ " ذلك الكتاب " بمعنى " هذا "، نظيرُه، أظهر خفافٌ من اسمه على وجه الخبر عن الغائب، وهو مخبر عن نفسه. فكذلك أظهر (ذلك) بمعنى الخبر عن الغائب، والمعنى فيه الإشارة إلى الحاضر المشاهَد"[١٠].

وفي البخاريّ: "وقال معمر ذلك الكتاب: هذا القرآن"[١١]، قد ورد(هذا) بمعنى (ذلك) في الحديث الشريف، قال عليه السلام في حديث أُمِّ حَرَام: "ناس من أمتي عرضوا علي غزاة في سبيل الله يركبون ثبج البحر"[١٢].

قوله تعالى:{ لَا رَيْبَ فِيهِ} [البقرة :٢]، أي: "لاشكّ فيه، ولا ارتياب به"[١٣].
قال أبو الدرداء: "الريب- يعني الشك- من الكفر"[١٤].
قال الثعلبي: أي" لا شكّ فيه، إنّه من عند الله"[١٥].
قال ابن كثير: أي: " لا شك فيه أنه نزل من عند الله ، كما قال تعالى في السجدة : { الم * تَنزيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ } [السجدة : ١ ، ٢]"[١].

---

(١) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٤):ص١/٣٤.
(٢) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم:١/٣٤.
(٣) أنظر: تفسير الطبري(٢٤٧):ص١/٢٢٥.
(٤)أنظر: تفسير الطبري(٢٤٨):ص١/٢٢٥، وابن أبي حاتم(٥٣):ص١/٣٣.
(٥)أنظر: تفسير الطبري(٢٤٩):ص١/٢٢٥.
(٦)أنظر: تفسير الطبري(٢٥٠):ص١/٢٢٥.
(٧) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم١/٣٣.
(٨)الأغاني ٢ : ٣٢٩/ ١٣ : ١٣٤ ، ١٦/١٣٥ : ١٣٤ ، والخزانة ٢ : ٤٧٠ ، وغيرهما ، ويأتي في الطبري ١ : ٣١٤ ، ٤٣٧ . يقول الشعر في مقتل ابن عمه معاوية بن عمرو أخى الخنساء . ومالك ، هو مالك بن حِمَار الشمخي الفزاري . والخيل هنا : هم فرسان الغارة ، وكان معاوية وخفاف غزوَا بني مرة وفزارة . والصميم : الخالص المحض من كل شيء . وأراد معاوية ومقتله يومئذ . ويقال : " فعلت هذا الأمر عمد عين ، وعمدًا على عين " ، إذا تعمدته مواجهة بجد ويقين . وتيمم : قصد وأمَّ .
(٩)" أقول له " ، يعني لمالك بن حِمَار . وأطر الشيء يأطره أطرًا : هو أن تقبض على أحد طرفي الشيء ثم تعوجه وتعطفه وتثنيه . وأراد أن حر الطعنة جعله يتثنى من ألمها ، ثم ينحني ليهوى صريعًا إذ أصاب الرمح مقتله . وأرى أن الإشارة في هذا البيت إلى معنى غائب ، كأنه قال : " أنا ذلك الذي سمعت به وببأسه " . وهذا المعنى يخرج البيت عن أن يكون شاهدًا على ما أراد الطبري .(تفسير الطبري: ١/٢٢٧).
(١٠) تفسير الطبري: ١/٢٢٧.
(١١) فتح الباري، كتاب التوحيد: ١٣/٥٠٣.
(١٢): أخرجه مسلم في "صحيحه"، كتاب الإمارة، باب فضل الغزو في البحر، ٦/ ٤٩، حديث رقم: (٥٠٤٣)، بلفظه مطولاً.
(١٣) المحرر الوجيز: ١/٨٣.
(١٤) أخرجه ابن أبي حاتم(٥٥):ص١/٣٤. قال ابن أبي حاتم:" ولا أعلم في هذا الحرف[أي الريب]، اختلافا بين المفسرين، منهم: ابن عباس، وسعيد بن جبير، وأبو مالك، ونافع مولى ابن عمر، وعطاء بن أبي رباح، وأبو العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، ومقاتل بن حيان، والسدي، وإسماعيل بن أبي خالد".[تفسير ابن أبي حاتم:١/٣٤].
(١٥) تفسير الثعلبي: ١/١٤٢.

قال البغوي:أي: " لا شك فيه أنه من عند الله عز وجل وأنه الحق والصدق"[٢].

قال ابن عطية:" والمعنى: أنه في ذاته لا ريب فيه وإن وقع ريب للكفار"[٣].

قال القاسمي: أي" لا شك أنه [أي: القرآن] من عند الله تعالى"[٤].

وقال الزمخشري: "الريبة: قلق النفس واضطرابها"[٥].

قال السعدي: "ونفي الريب عنه، يستلزم ضده، إذ ضد الريب والشك اليقين، فهذا الكتاب مشتمل على علم اليقين المزيل للشك والريب، وهذه قاعدة مفيدة، أن النفي المقصود به المدح، لا بد أن يكون متضمنا لضده، وهو الكمال، لأن النفي عدم، والعدم المحض، لا مدح فيه"[٦].

قال ابن عثيمين:" و"الريب" هو الشك؛ ولكن ليس مطلق الشك؛ بل الشك المصحوب بقلق لقوة الداعي الموجب للشك؛ أو لأن النفس لا تطمئن لهذا الشك؛ فهي قلقة منه. بخلاف مطلق الشك.؛ ولهذا من فسّر الريب بالشك فهذا تفسير تقريبي؛ لأن بينهما فرقاً"[٧].

وقرأ ابن كثير قوله تعالى:{فيه}[البقرة:٢]، "بالإشباع في الوصل، وكذلك كل (هاء) كناية قبلها ساكن يشبعها وصلا ما لم يلقها ساكن ثم إن كان الساكن قبل الهاء ياء يشبعها بالكسرة (ياء) وإن كان غير (ياء) يشبعها بالضم (واوا)، ووافقه حفص في قوله "فيه مهانا"}[الفرقان: ٦٩]، فيشبعه"[٨].

قال ابن كثير: "ومن القراء من يقف على قوله : {لا رَيْبَ }، ويبتدئ بقوله :{ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ }، والوقف على قوله تعالى:{ لا رَيْبَ فِيهِ }، أولى للآية التي ذكرنا، ولأنه يصير قوله:{هُدًى } صفة للقرآن ، وذلك أبلغ من كون : { فِيهِ هُدًى }"[٩].

وقد ذكر أهل العلم في قوله تعالى: {لَا رَيْبَ فِيهِ}[البقرة : ٢] ثلاثة أوجه:

أحدها: أن(الريب)، هو الشك، وهو قول ابن عباس[١٠]، فـ(الريب)، مصدر من (راب)، وهو أن تتوهم في الشيء أمراً ما ، ثم ينكشف عما توهمت فيه ، و«الأرابة»: أن تتوهمه، فينكشف بخلاف ما توهمت ، ولهذا قيل : " القرآن فيه أرابة وليس فيه ريب"[١١]، ومن ذلك قول ساعدة بن جُؤَيَّة الهذليّ [١٢]:

فقالوا : تَرَكْنَا الحَيَّ قد حَصِرُوا به   فلا رَيْبَ أنْ قد كان ثَمَّ لَحِيمُ

ومنه قول عبد الله بن الزِّبَعْرَى[١٣] :

لَيْسَ في الْحَقِّ يَا أُمَيْمَةُ رَيْبٌ   إِنَّمَا الرَّيْبُ مَا يَقُولُ الْجَهُولُ

فالقرآن لا شك ولا ريب أنه موحى من عند الله، كما قال تعالى: {تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [السجدة : ٢]، فهذا الكتاب "مشتمل على علم اليقين المزيل للشك والريب أن النفي المقصود به المدح، لا بد أن يكون متضمنا لضده، وهو الكمال، لأن النفي عدم، والعدم المحض، لا مدح فيه"[١٤]، وأن التنويه بهذا الكمال يستوجب حمد الله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا} [الكهف : ١].

---

(١) تفسير ابن كثير: ١٦٢/١.
(٢) تفسير البغوي: ٥٩/١.
(٣) المحرر الوجيز: ٨٣/١.
(٤) تفسير القاسمي: ٢٤٢/١.
(٥) الكشاف: ٣٤/١.
(٦) تفسير السعدي: ٤٠/١.
(٧) تفسير ابن عثيمين:٢٦/١.
(٨) تفسير البغوي: ٥٩/١.
(٩) تفسير ابن كثير: ١٦٢/١.
(١٠) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم:٣٤/١.
(١١) تفسير الرابغ الأصفهاني: ١١٥/١.
(١٢)ديوان الهذليين ١ : ٢٣٢ ، واللسان (حصر)، ويروى : " حَصَرُوا " و " حَصِرُوا " والفتحُ أكثر ، والكسر جائز. يعني بقوله " حصروا به " : أطافوا به. ويعني بقوله " لا ريب " . لا شك فيه. وبقوله " أن قد كان ثَمَّ لَحِيم " ، يعني قتيلا يقال : قد لُحِم ، إذا قُتل.
(١٣) من شواهد تفسير القرطبي: ١٥٩/١، والدر المصون: ٨٥/١، والبحر المحيط: ١٣٣/١، والنكت والعيون: ٦٧/١.
(١٤) تفسير السعدي: ٤١/١.

قال ابن الأثير: "الريب هو بمعنى الشك.. يقال: رابني الشيء وأرابني، بمعنى: شككني، وقيل: أرابني في كذا، أي: شككني وأوهمني الريبة فيه، ومنه الحديث: «دَعْ مَا يُرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يُرِيبُكَ»[١]، أي: دع ما تشك فيه إلى ما لا تشك فيه"[٢]، ومنه: ريب الزمان ، وهو ما يقلق النفوس ويشخص بالقلوب من نوائبه"[٣].

وتجدر الإشارة بأن شيخ الاسلام ابن تيمية قد فرّق بين الشك والريب، بأن الريب يكون في علم القلب، وفي عمل القلب، بخلاف الشك، لايكون إلا في العلم[٤].

والثاني: أن (الريب): التهمة، ومنه قول جميل[٥] :

بُثَيْنَةُ قالتْ : يا جَمِيلُ أَرَبْتَنِيُ فَقُلْتُ : كِلَانَا يَا بُثَيْنَ مُرِيب

والثالث: أن (الريب): هو الحاجة، قال ابن فارس: "يقال: إن الريب الحاجة. وهذا ليس ببعيد؛ لأن طالب الحاجة شاك، على ما به من خوف الفوت"[٦]، ومنه قول كعب بن مالك[٧]:

قَضَيْنَا مِنْ تِهَامَةَ كُلَّ رَيْبٍ وخيبَر ثمَّ أَجْمَمْنَا السّيُوفا

أي: انتهينا من الحاجات بالسيوف، ففتحنا نجد بالإسلام وفتحنا تهامة[٨].

واختلف أهل العلم في الفرق بين (راب) و(أراب)، على قولين:

أحدهما : أن الكلمتين مختلفتين في المعنى، قال: سيبويه: "(أراب) الرجل أي: صار صاحب ريبة. كما قالوا: ألام، أي: استحق أن يلام، وأما (رابني) فمعناه: جعل في ريبة، كما تقول: قطعت النخل، أي: أوصلت إليه القطع، واستعملته فيه"[٩].

وقال أبو زيد[١٠]: "قد رابني من فلان أمر رأيته منه رَيْبًا، إذا كنت مستيقنا منه بالريبة، فإذا أسأت به الظن ولم تستيقن بالريبة منه قلت: قد أرابني من فلان أمر هو فيه، إذا ظننته من غير أن تستيقنه"[١١].

والثاني: وقال آخرون[١٢] بأن: (راب) و (أراب) بمعنى واحد، وأنشدوا قول خالد بن زهير الهذلي[١٣]:

---

(١)ابن حنبل في مسنده ج ١/ ص ٢٠٠ حديث رقم: ١٧٢٧، رواه الترمذي والنسائي وابن حبان في صحيحه وقال الترمذي حديث حسن صحيح وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم(١٧٣٧).

(٢) النهاية في غريب الحديث: والأثر: ٢٨٦/٢، وانظر اللسان: (ريب).

(٣) الكشاف: ٣٤/١.

(٤) أنظر: مجموع الفتاوى: ٢٨١/٧.

(٥) ديوانه: ١٧، بتحقيق: فوزي عطوي، دار صعب، بيروت، ط٢، ١٩٨٠.

(٦) معجم مقاييس اللغة: (ريب):٣٨٥/٢.

(٧) أنظر: سيرة ابن هشام:٤٧٩/٢، وأسد الغابة: ١٨٨/٤، وروايته فيه:

قضينا من تهامة كل وتر ... وخيبر ثمَّ أغمدنا السيوفا

وأجممنا: أرحنا.

(٨) وقد ورد لفظ(الريب) باشتقاقاته في سبعة وثلاثين موضعا في القرآن الكريم، على ثلاثة أوجه:

أحدها: الشك: في قوله تعالى: {ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ} [البقرة : ٢].

والثاني: الحوادث: ومنه قوله تعالى: {أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ} [الطور : ٣٠].

والثالث: الحسرة: قال تعالى: {لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [التوبة : ١١٠].

(٩) الكتاب: ٦٠/٤.

(١٠)هو سعيد بن أوس بن ثابت الأنصاري، صاحب النحو واللغة، توفي سنة خمس عشرة ومائتين. انظر "طبقات النحويين واللغويين" ص١٥٦، "تاريخ بغداد" ٩/ ٧٧، "إنباه الرواة" ٢/ ٣٠.

(١١)ذكره أبو علي في "الحجة" ١/ ١٧٩، ونحوه عند الأزهري قال: هذا قول أبي زيد (راب) ١٥/ ٢٥٢، ولم أجده في "نوادر أبي زيد".

(١٢)انظر: "تهذيب اللغة" (راب) ٢/ ١٣٠٦ - ١٣٠٧، "الصحاح" (ريب) ١/ ١٤١، "اللسان" (ريب) ٣/ ١٧٨٨ - ١٧٨٩.

(١٣)انظر: شرح أشعار الهذليين:١/ ٢٠٧، الحجة لأبي على: ١/ ١٨٠، وتهذيب اللغة (أتى) ١/ ١١٦ - ١١٧، "المخصص" ١٢/ ٣٠٣، ١٤/ ٢٤، ٢٨، والصحاح: ١/ ١٤١، واللسان: (ريب) ٣/ ١٧٨٨ - ١٧٨٩، والخزانة: ٥/ ٨٤، وشرح أشعار الهذليين، للسكري ١/ ٢٠٧، والخزانة، للبغدادي ٥/ ٧٦ - ٨٦.

وخالد بن زهير الهذلي أحد شعراء الهذليين المشهورين عشق امرأة كان يأتيها أبو ذؤيب الهذلي خاله، وجرت بينهما أشعار في ذلك منها، "بيت الشاهد" وقتل خالد بسبب تلك المرأة في قصة طويلة، وفي البيت يخاطب أبا ذؤيب، والأبيات في أشعار الهذليين وتمامه:

يا قوم ما بال أبي ذؤيب ... كنت إذا أتوته من غيب

يشم عطفي ويمس ثوبي ... كأنني قد ربته بريب

كأنّني أربته بريب

قال الواحدي: " والحذاق على الفرق بينهما"[١].

وقال الأزهري: "والقول في (راب وأراب) قول أبي زيد حسن"[٢].

واختلف في قوله تعالى:{ لَا رَيْبَ فِيهِ} [البقرة : ٢]، على ثلاثة أقوال:

أحدهما: أنها جملة خبرية تفيد النفي، والمعنى: "ليس فيه ريب أبداً"[٣]،

والثاني: وقيل: أن الخبر هنا بمعنى النهي. أي "لا ترتابوا فيه"[٤]، ومن ذلك قوله تعالى: {فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ} [البقرة : ١٩٧]، أي: "لا ترفثوا ولا تفسقوا"[٥].

والذي أوجب أن يفسروا النفي بمعنى النهي قالوا: لأنه قد حصل فيه ريب من الكفار، والمنافقين؛ قال تعالى: {فهم في ريبهم يترددون} [التوبة: ٤٥] ؛ فلا يستقيم النفي حينئذ؛ وتكون هذه القرينة الواقعية من ارتياب بعض الناس في القرآن قرينةً موجبة لصرف الخبر إلى النهي[٦].

والثالث: وقيل: أنه مخصوص والمعنى :لا ريب فيه عند المؤمنين[٧]. قال ابن عطية: "وهذا ضعيف"[٨].

والقول الأول أبلغ، ويدل عليه الظاهر[٩]. والله أعلم.

قال الراغب:" إن قيل : كيف نفى الريب عنه ، وقد علم تشكك كثير من الناس فيه ؟ قيل: في ذلك أجوبة :

الأول : إن ذلك نفي على معنى النهي نحو قوله : {فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ} ، بدلالة قوله : {فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} وقوله : {فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ}

فإن قيل : الشك لا يقصده الإنسان ، فكيف ينهى عنه ؟ قيل : اللفظ لذلك ، والمعنى حث على التدبر والتفكر النافيين للشك.

والثاني : أنه يقال : رابني كذا ، إذا تحققت منه الريبة ، وأرابني : أوهمني الريبة.

انظر الهذليين ١/ ١٦٥. ورواية اللسان:(ريب):

يا قوم ما لي وأبا ذؤيب ... كنت إذا أتيته من غيب

يشم عطفي ويبزّ ثوبي ... كأنني أربته بريب

وأتوته: لغة في أتيته.

(١) التفسير البسيط: ٣٨/٢.

(٢) التهذيب: ١٣٠٦/٢.

(٣) تفسير ابن عثيمين: ٢٧/١.

(٤) تفسير ابن كثير: ١٦٢/١.

(٥) تفسير البغوي: ٥٩/١.

(٦) أنظر: تفسير ابن عثيمين: ٢٧/١.

(٧) انظر: المحرر الوجيز:٨٣/١.

(٨) المحرر الوجيز: ٨٣/١.

(٩) قال الشيخ ابن عثيمين: "فإن قال قائل: ما وجه رجحانه؟

فالجواب: أن هذا ينبني على قاعدة هامة في فهم وتفسير القرآن: وهي أنه يجب علينا إجراء القرآن على ظاهره، وأن لا نصرفه عن الظاهر إلا بدليل، مثل قوله تعالى: {والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء} [البقرة: ٢٢٨] ، فهذه الآية ظاهرها خبر؛ لكن المراد بها الأمر؛ لأنه قد لا تتربص المطلقة؛ فما دمت تريد تفسير القرآن الكريم فيجب عليك أن تجريه على ظاهره إلا ما دلّ الدليل على خلافه؛ وذلك؛ لأن المفسر للقرآن شاهد على الله بأنه أراد به كذا، وكذا؛ وأنت لو فسّرت كلام بشر على خلاف ظاهره للامَكَ هذا المتكلم، وقال: "لماذا تحمل كلامي على خلاف ظاهره! ليس لك إلا الظاهر"؛ مع أنك لو فسرت كلام هذا الرجل على خلاف ظاهره لكان أهون لوماً مما لو فسرت كلام الله؛ لأن المتكلم . غير الله . ربما يخفى عليه المعنى، أو يعييه التعبير، أو يعبر بشيء ظاهره خلاف ما يريده، فتفسره أنت على ما تظن أنه يريده؛ أما كلام الله عزّ وجلّ فهو صادر عن علم، وبأبلغ كلام، وأفصحه؛ ولا يمكن أن يخفى على الله عزّ وجلّ ما يتضمنه كلامه؛ فيجب عليك أن تفسره بظاهره..

فقوله تعالى: { لا ريب فيه }: ظاهرها أنها جملة خبرية تفيد النفي؛ والمعنى: ليس فيه ريب أبداً؛ وقيل: إن الخبر هنا بمعنى النهي؛ فمعنى: { لا ريب فيه }: لا ترتابوا فيه؛ والذي أوجب أن يفسروا النفي بمعنى النهي قالوا: لأنه قد حصل فيه ريب من الكفار، والمنافقين؛ قال تعالى: {فهم في ريبهم يترددون} [التوبة: ٤٥] ؛ فلا يستقيم النفي حينئذ؛ وتكون هذه القرينة الواقعية من ارتياب بعض الناس في القرآن قرينةً موجبة لصرف الخبر إلى النهي؛ ولكننا نقول: إن الله تعالى يتحدث عن القرآن من حيث هو قرآن . لا باعتبار من يتلى عليهم القرآن .؛ والقرآن من حيث هو قرآن لا ريب فيه".[تفسير ابن عثيمين:٢٧/١].

قال الشاعر [١]:

أَخُوكَ الَّذِي إِنْ رِبْتَهُ قَالَ إِنَّمَا أَرَبْتَ وَإِنْ عَاتَبْتَهُ لَانَ جَانِبُهُ

فالقرآن لا ريب فيه ، وإن كان فيه ارتياب من بعض الكفار.

والثالث: أنه يقال : هذا لا ريب فيه ، والقصد إلى أنه حق ، تنبيهاً أن الريب يرتفع عن عند التدبير والتأمل.

والرابع : أنه لا ريب في كونه مؤلفاً من حروف التهجي وقد عجزتم عن معارضته.

والخامس: لا ريب فيه للمتقين ، ويكون خبر {لا ريب فيه} قوله تعالى :{للمتقين} و{هدى}، نصب على الحال أو خبر ابتداء مضمر في موضع الحال"[٢].

قوله تعالى:{هُدًى لِلْمُتَّقِينَ}[البقرة:٢]، " أي هادٍ للمؤمنين المتقين"[٣].

قال البغوي: " أي رشد وبيان لأهل التقوى"[٤].

قال القاسمي:" أي: هاد لهم ودالّ على الدين القويم المفضي إلى سعادتي الدارين"[٥].

قال الواحدي: " ومعنى الهدى: البيان، لأنه قد قوبل به الضلال في قوله عز وجل {وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ} [البقرة: ١٩٨]، أي: من قبل هداه"[٦].

وقال ابن عطية:"و{هُدىً}، معناه رشاد وبيان"[٧].

وقال الآلوسي:" وخص المتقين بالذكر تشريفاً لهم"[٨].

وقال ابن كثير: " وخصّت الهداية للمتّقين، كما قال : { قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ } [فصلت : ٤٤]. { وَنُنزلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلا خَسَارًا } [الإسراء : ٨٢] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على اختصاص المؤمنين بالنفع بالقرآن ؛ لأنه هو في نفسه هدى ، ولكن لا يناله إلا الأبرار ، كما قال : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ } [يونس : ٥٧]"[٩].

وقال الشنقيطي:" قوله تعالى{ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ}،صرح في هذه الآية بأن هذا القرءان {هُدًى لِلْمُتَّقِينَ }، ويفهم من مفهوم الآية أعني مفهوم المخالفة المعروف بدليل الخطاب أن غير المتقين ليس هذا القرءان هدى لهم وصرح بهذا المفهوم في آيات أخر كقوله : {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى} [فصلت : ٤٤]، وقوله : {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا} [الإسراء : ٨٢] ، وقوله : {وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ

---

(١)أي إن فعلت مَعَه مَا يُوجب شكه فِي مودتك رَاجع نَفسه. وَقَالَ: إِنَّمَا قربني من الشَّك وَلم أشك فِيهِ. أي التمس لك العذر.

(٢) تفسير الراغب الأصفهاني: ٧٦/١.

(٣) صفوة التفاسير: ٢٦/١.

(٤) تفسير البغوي: ٦٠/١.

(٥) محاسن التأويل: ٢٤٣/١.

(٦) التفسير البسيط: ٤٧/٢، وانظر: الحجة للقراء السبعة: ١/ ١٨٦، وانظر: تفسير الطبري" ١/ ٩٨، ومعاني القرآن للزجاج ١/ ٣٣، وتفسير أبي الليث:١/ ٩٠.

ولـ(الهدى) معنايان:

- الهدى العام(هداية بيان): وهو هدى الدلالة والدعوة والإرشاد، قال قال الله تعالى: "ولكل قوم هاد" [الرعد: ٧]. وقال: "وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم" [الشورى: ٥٢].فأثبت لهم الهدى الذي معناه بيان الطريق المستقيم، ومنه قوله تعالى: (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ) أي بيّنا لهم الطريق على لسان صالح.

- الهدى الخاص(هداية التوفيق): ومعناه التأييد والتوفيق الإلهي لهداية العبد إلى مرضاه، قال تعالى: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} [القصص : ٥٦]، وقوله تعالى:{مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [الأعراف : ١٧٨]، وقال "أولئك على هدى من ربهم" [البقرة: ٥] وقوله: "ويهدي من يشاء" [فاطر: ٨].

يتضح من المعنيين أن(هداية الدعوة والبيان) عامة للمؤمن والكافر، ويصح إسنادها إلى الله وغير الله، أما (هداية التوفيق) فهي خاصة فلا تسند إلا لله تعالى لأنها ليست من مقدور غير الله بل هي من مقدورات القادر سبحانه وتعالى .

(٧) المحرر الوجيز:٨٤/١.

(٨) روح المعاني: ٢٣/١.

(٩) تفسير ابن كثير: ١٦٣/١.

يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥)} [التوبة : ١٢٤ - ١٢٥]، وقوله تعالى : { وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا} [المائدة : ٦٤] الآيتين[١]، ومعلوم أن المراد بالهدى في هذه الآية الهدى الخاص الذي هو التفضل بالتوفيق إلى دين الحق لا الهدى العام الذي هو إيضاح الحق"[٢].

وقال السعدي:" والهدى: ما تحصل به الهداية من الضلالة والشبه، وما به الهداية إلى سلوك الطرق النافعة، وقال {هُدًى} وحذف المعمول، فلم يقل هدى للمصلحة الفلانية، ولا للشيء الفلاني، لإرادة العموم، وأنه هدى لجميع مصالح الدارين، فهو مرشد للعباد في المسائل الأصولية والفروعية، ومبين للحق من الباطل، والصحيح من الضعيف، ومبين لهم كيف يسلكون الطرق النافعة لهم، في دنياهم وأخراهم، وقال في موضع آخر: {هُدًى لِلنَّاسِ} فعمم، وفي هذا الموضع وغيره {هُدًى لِلْمُتَّقِينَ} لأنه في نفسه هدى لجميع الخلق. فالأشقياء لم يرفعوا به رأسا، ولم يقبلوا هدى الله، فقامت عليهم به الحجة، ولم ينتفعوا به لشقائهم، وأما المتقون الذين أتوا بالسبب الأكبر، لحصول الهداية، وهو التقوى التي حقيقتها: اتخاذ ما يقي سخط الله وعذابه، بامتثال أوامره، واجتناب النواهي، فاهتدوا به، وانتفعوا غاية الانتفاع. قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا} فالمتقون هم المنتفعون بالآيات القرآنية، والآيات الكونية"[٣].

قال الناصر في الانتصاف: الهدى يطلق في القرآن على معنيين:

أحدهما: الإرشاد وإيضاح سبيل الحق، ومنه قوله تعالى: وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى [فصلت: ١٧] . وعلى هذا يكون الهدى للضالّ باعتبار أنه رشد إلى الحق، سواء حصل له الاهتداء أو لا.

والآخر: خلق الله تعالى الاهتداء في قلب العبد، ومنه أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ [الأنعام: ٩٠]، فإذا ثبت وروده على المعنيين فهو في هذه الآية يحتمل أن يراد به المعنيان جميعا"[٤].

وعلى القول الأول، فتخصيص الهدى بالمتقين للتنويه بمدحهم حتى يتبيّن أنهم هم الذين اهتدوا وانتفعوا به، كما قال تعالى: إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشاها [النازعات: ٤٥]، وقال إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ [يس: ١١]، وقد كان، صلى الله عليه وآله وسلّم، منذرا لكل الناس، فذكر هؤلاء لأجل أنهم هم الذين انتفعوا بإنذاره. وهذه الآية نظير آية: قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفاءٌ، وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى، أُولئِكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ [فصلت: ٤٤] ، وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً [الإسراء: ٨٢] . وكقوله عالى: يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفاءٌ لِما فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ [يونس: ٥٧]، إلى غير ذلك، مما دلّ على أن النفع به لا يناله إلا الإبرار. والمراد بالمتقين- هنا- من نعتهم الله تعالى بقوله[٥].

واختلف أهل التفسير في معنى قوله تعالى {هُدًى لِلْمُتَّقِينَ} [البقرة : ٢]، على وجوه:

أحدها: معناه: الهدى من الضلالة. قاله الشعبي[٦].

والثاني: نور للمتقين. قاله السدي[٧]، وابن مسعود[٨].

والثالث: تبيانا للمتقين. قاله سعيد بن جبير[٩].

كما وتعددت أقوال أهل التفسير في معنى قوله تعالى: {لِلْمُتَّقِينَ} [البقرة : ٢]، وذكروا وجوها:

أحدها: المتقون: " قوم اتقوا الشرك وعبادة الأوثان، وأخلصوا لله العبادة فيمرون إلى الجنة". قاله معاذ بن جبل[١٠]، وري عن ابن عباس[١] مثل ذلك.

---

(١) الآيتين: ٦٤-٦٥ من سورة المائدة.
(٢) أضواء البيان:١٠/١.
(٣) تفسير السعدي: ٤٠/١.
(٤) الإنتصاف: ٣٥/١.
(٥) أنظر محاسن التأويل: ٢٤٣/١-٢٤٤.
(٦) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٧):ص٣٤/١، وتفسير الطبري(٢٥٩):ص٢٢٩/١-٢٣٠.
(٧)أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٨):ص٣٤/١.
(٨)تفسير الطبري(٢٦٠):ص٢٣٠/١.
(٩)أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٩):ص٣٤/١.
(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم(٦١):ص٣٥/١.

الثاني: التقوى ترك ما لا بأس فيه حذرا لما به البأس. رواه عطية بن السعدي عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-(٢).
والثالث: المتقون: " أي الذين يحذرون من الله عقوبته في ترك ما يعرفون من الهدى ويرجون رحمته بالتصديق بما جاء منه". قاله ابن عباس(٣).
الرابع: المتقون: "هم المؤمنون". قاله السدي(٤)، وابن مسعود(٥)، وروي عن قتادة(٦) مثل ذلك.
والخامس: هم الذين يجتنبون الكبائر. حكي ذلك عن الكلبي(٧).
والسادس: هم الذين "اتَّقَوْا ما حُرِّم عليهم ، وأدَّوا ما افتُرِض عليهم". قاله الحسن(٨).
والسابع: وقيل معناه: هدى للمتقين والكافرين، فاكتفى بأحد الفريقين من الآخر، كقوله: {سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ} [النحل:] وقوله: {لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ} [آل عمران: ١١٣] أراد وأخرى غير قائمة. وقال أبو ذؤيب (٩):

عصاني إليها القلب إني لأمره فَمَا أدْرى أرُشْدٌ طِلابُهَا

وأراد: أم غيّ(١٠).
والدليل على هذا: أنه قال في موضع آخر: {هُدًى لِّلنَّاسِ}[آل عمران:٤](١١)، فجعله هدى للناس عاما، على أنه ليس في الإخبار أنه {هُدًى لِلْمُتَّقِينَ} ما يدل على أنه ليس هدى لغيرهم(١٢).

والراجح أن المراد عموم التقوى، فالمتقون هم "الذين يتقون الله تعالى بامتثال أوامره واجتناب معاصيه، كان ذلك وقاية بينهم وبين عذاب الله"(١٣)، قال الطبري: "وأولى التأويلات بقول الله جل ثناؤه{هدى للمتقين}، تأويلُ من وصَف القومَ بأنهم الذين اتَّقَوُا اللهَ تبارك وتعالى في ركوب ما نهاهم عن ركوبه ، فتجنبوا معاصِيَه ، واتَّقوْه فيما أمرهم به من فرائضِه ، فأطاعوه بأدائها"(١٤).

قال ابن عاشور:" في بيان كون القرآن هدى وكيفية صفة المتقي معان ثلاثة:
الأول: أن القرآن هدى في زمن الحال لأن الوصف بالمصدر عوض عن الوصف باسم الفاعل وزمن الحال هو الأصل في اسم الفاعل والمراد حال النطق. والمتقون هم المتقون في الحال أيضا لأن اسم الفاعل حقيقة في الحال كما قلنا، أي أن جميع من نزه نفسه وأعدها لقبول الكمال يهديه هذا الكتاب، أو يزيده هدى كقوله تعالى: والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم [محمد: ١٧] .

---

(١) أنظر: تفسير الطبري(٢٦٦):ص٢٣٣/١.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٦٠):ص٣٥/١. والترمذي، كتاب صفة القيامة ٤/ ٥٤٧، رقم (٢٤٥١)، وقال: هذا حديث حسن غريب.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٦٢):ص٣٥/١، وأخرجه الطبري في تفسيره(٢٦٢):ص٢٣٢/١.
(٤)أخرجه ابن أبي حاتم(٦٣):ص٣٥/١.
(٥) أنظر: تفسير ال\بري(٢٦٣):ص٢٣٣/١.
(٦)أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٦٤):ص٣٥/١، والطبري (٢٦٥):ص٢٣٣/١. ولفظه:" الذين يؤمنون بالغيب".
(٧) أنظر: تفسير الطبري(٢٦٤):ص٢٣٣/١.
(٨) أنظر: تفسير الطبري(٢٦١):ص٢٣٢/١.
(٩)ورد البيت عند الفراء في "معاني القرآن" ١/ ٢٣٠، وابن قتيبة في "المشكل" ص ٢١٥، والسكري في "شرح أشعار الهذليين" ١/ ٤٣، وابن هشام في "مغني اللبيب" ١/ ١٤، ٤٣، ٢/ ٦٢٨، والبغدادي في "خزانة الأدب" ١١/ ٢٥١.
وهو خويلد بن خالد الهذلي، شاعر مجيد مخضرم، أدرك الإسلام وقدم المدينة عند وفاة النبي - صلى الله عليه وسلم - وأسلم، توفي في غزوة افريقية مع ابن الزبير، انظر ترجمته في "الشعر والشعراء" ص ٤٣٥، "الاستيعاب" ٤/ ٦٥، "معجم الأدباء" ٣/ ٣٠٦، "الخزانة" ١/ ٤٢٢.
قول: إن قلبه عصاه فلا يقبل منه، فيذهب إليها قلبه سفها، فأنا اتبع ما يأمرني به، فما أدرى أرشد أم غي.
(١٠) القول لأبن الأنباري، أنظر: مغني اللبيب: ١٤/١، ٤٣، ٦٢٨/٢، ونقله عنه الواحدي في التفسير البسيط: ٥٤/٢-٥٥، و ذكره ابن الجوزي في "زاد المسير" ولم ينسبه لابن الأنباري ١/ ٢٤.
(١١)كما ورد هذا في ذكر الكتاب الذي أنزل على موسى: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ} [الأنعام: ٩١].
(١٢) انظر: التفسير البسيط: ٥٥/٢.
(١٣) المحرر الوجي: ٨٤/١.
(١٤) تفسير الطبري: ٢٣٣/١-٢٣٤.

الثاني: أنه هدى في الماضي أي حصل به هدى أي بما نزل من الكتاب، فيكون المراد من المتقين من كانت التقوى شعارهم أي أن الهدى ظهر أثره فيهم فاتقوا وعليه فيكون مدحا للكتاب بمشاهدة هديه وثناء على المؤمنين الذين اهتدوا به وإطلاق المتقين على المتصفين بالتقوى فيما مضى، وإن كان غير الغالب في الوصف باسم الفاعل إطلاق يعتمد على قرينة سياق الثناء على الكتاب.

الثالث: أنه هدى في المستقبل للذين سيتقون في المستقبل وتعين عليه هنا قرينة الوصف بالمصدر في هدى لأن المصدر لا يدل على زمان معين.

حصل من وصف الكتاب بالمصدر من وفرة المعاني ما لا يحصل، لو وصف باسم الفاعل فقيل هاد للمتقين، فهذا ثناء على القرآن وتنويه به وتخلص للثناء على المؤمنين الذين انتفعوا بهديه، فالقرآن لم يزل ولن يزال هدى للمتقين، فإن جميع أنواع هدايته نفعت المتقين في سائر مراتب التقوى، وفي سائر أزمانه وأزمانهم على حسب حرصهم ومبالغ علمهم واختلاف مطالبهم، فمن منتفع بهديه في الدين، ومن منتفع في السياسة وتدبير أمور الأمة، ومن منتفع به في الأخلاق والفضائل، ومن منتفع به في التشريع والتفقه في الدين، وكل أولئك من المتقين وانتفاعهم به على حسب مبالغ تقواهم. وقد جعل أئمة الأصول الاجتهاد في الفقه من التقوى، فاستدلوا على وجوب الاجتهاد بقوله تعالى: فاتقوا الله ما استطعتم [التغابن: ١٦] فإن قصر بأحد سعيه عن كمال الانتفاع به، فإنما ذلك لنقص فيه لا في الهداية، ولا يزال أهل العلم والصلاح يتسابقون في التحصيل على أوفر ما يستطيعون من الاهتداء بالقرآن"(١).

و(الهُدَى) في اللغة: "الرشاد والدلالة(٢).

و(التقوى) لغة: قلة الكلام(٣)، وهو مأخوذ من: اتقاء المكروه بما تجعله حاجزا بينك وبينه(٤)، كما قال النابغة(٥) :

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه فتناولته واتقتنا باليد

وقال آخر(٦) :

فألقت قناعا دونه الشمس واتقت بأحسن موصولين كف ومعصم

ومنه قول خفاف بن ندبة(٧):

جَلَاهَا الصَّيْقَلُونَ فَأَخْلَصوهَا خِفَافاً كُلُّهَا يَتَّقِي بِأَثْرِ

أي: كلها يستقبلك بفرنده(١).

---

(١) التحرير والتنوير: ٢٢٦/١-٢٢٧.

(٢) مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ، القاموس المحيط ، طبعة دار الجبل ، الجزء الرابع ، مادة (الهدى) فصل الهاء باب الياء .

(٣) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس: مادة(وقى)، والأصل في التقوى : وَقْوَى على وزن فعلى فقلبت الواو تاء من وقيته أقيه أي منعته ، ورجل تقي أي خائف ، أصله وقي ، وكذلك تقاة كانت في الأصل وقاة ، كما قالوا : تجاه وتراث ، والأصل وجاه ووراث.(تفسير القرطبي: ١٦٢/١.

(٤) انظر: تفسير القرطبي: ١٦١/١.

(٥)ديوان النابغة الذبياني: ٣٨. النابغة الذبيانى: هو زياد بن معاوية، ويكى أبا أمامة، وهو من الطبقة الأولى المقدمين. وإنما لقب النابغة لنبوغه فى الشعر بعد أن كبر. وكان يضرب له قبة من أدم بسوق عكاظ فتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها. وكان مقدما عند النعمان، ومن ندمائه. وانظر فى ترجمته إلى: طبقات الشعراء لابن سلام ٤٥- ٥٠، والشعر والشعراء ١٠٨-١٢٨، والأغانى ٩- ١٥٦، وديوانه.

والنصيف: الخمار. وقال أبو سعيد: النصيف ثوب تتجلل به المرأة فوق ثيابها كلها. (لسان "نصف"، و العنم: شجر لين الأغصان لطيفها، الواحدة عنمة. (ابن فارس: معجم مقاييس اللغة: "عن".

والبيت ضمن قصيدة يصف زوجة النعمان فيها، مطلعها:

أمن آل مية رائح أو مغتد * عجلان ذا زاد وغير مزود

(٦) البيت لأبي حية النميري، واسمه الهيثم بن الربيع، أنظر البيت في: شرح أدب الكاتب: ٩٤/١، وزهر الآداب وثمر الألباب: ٢٦٣/١، وشرح ديوان الحماسة: ٤١٩/١، و أضواء البيان: ١٧٨/٣.

(٧)ورد البيت في (إصلاح المنطق) ص ٢٣، "تهذيب اللغة" (تقى) ١/ ٤٤٤، "الصحاح" (وقى) ٦/ ٢٥٢٧، "معجم مقاييس اللغة" (أثر) ١/ ٥٦، "الخصائص" ٢/ ٢٨٦، "اللسان" (أثر) ١/ ٢٦، (وقى) ٨/ ٤٩٠٢.

والصيقلون: جمع صيقل وهو شحاذ السيوف، وجلاؤها، يقول: جلوا تلك السيوف حتى إذا انظر الناظر إليها اتصل شعاعها بعينه فلم يتمكن من النظر إليها، فكلها يستقبلك بفرنده، و (يتقى) مخفف (يتقى) وهذا مكان الشاهد من البيت.

ومنه قول أوس بن حجر(٢):

تَقَاكَ بِكَعْب وَاحِدٍ وَتَلَذُّهُ   يَدَاكَ إِذَا مَا هُزَّ بالكَفِّ يَعْسِلُ

أي اتقاك، ومعناه: جعل بينك وبينه كعبا واحدا، يصف رمحا، يقول :كأنه كعب واحد، إذا هزته اهتز كله (٣).

ومنه قول البراء: " كنا والله إذا احمر البأس نتقي به، يعني النبي صلى الله عليه وسلم"(٤).

قال الواحدي: " الاتقاء في اللغة: الحجز بين الشيئين، يقال: اتقاه بترسه، أي: جعل الترس حاجزا بينه وبينه، واتقاه بحقه، إذا وفاه، فجعل الإعطاء وقاية بينه وبين خصمه عن نيله إياه بيده أو لسانه، ومنه (التقية في الدين) بجعل ما يظهره حاجزا بينه وبين ما يخشاه من المكروه"(٥).

وسأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه أبيا عن التقوى، فقال : "هل أخذت طريقا ذا شوك ؟ قال : نعم : قال فما عملت فيه ؟ قال : تشمرت وحذرت، قال : فذاك التقوى"(٦).

وأخذ هذا المعنى ابن المعتز فنظمه(٧) :

خل الذنوب صغيرها   وكبيرها ذاك التقى
واصنع كماش فوق أر   ض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة   إن الجبال من الحصى

و(التقوى) في اصطلاح الشرع هو: "اتخاذ وقاية من عذاب الله بفعل أوامره، واجتناب نواهيه"(٨)، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم: "التقي مُلْجَم والمتقي فوق المؤمن والطائع"(٩).

قال الراغب: الوقاية: هي حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره، وهي بهذا المعنى مصدر مثل الوِقاء، وعلى ذلك قوله عز وجل : " ووقاهم عذاب السعير"، والتقوى: جعل النفس في وقاية مما يخاف، هذا تحقيقه، ثم يسمى الخوف تارة تقوى، والتقوى خوفاً، حسب تسمية مقتضى الشيء بمقتضيه، والمقتضي للشيء بمقتضاه"(١٠).

وقيل: التقوى في الطاعة، يراد بها الإخلاص، وفي المعصية يراد به الترك والحذر، وقيل : هي الإحتراز بطاعة الله عن عقوبته، وصيانة النفس عما تستحق به العقوبة من فعل أو ترك. وقيل: هي المحافظة على آداب الشريعة ومجانبة كل ما يبعد المرء عن الله تعالى، وقيل: ترك حظوظ النفس ومباينة الهوى(١١) .

وقال المباركفوري -رحمه الله-: "المتقي: من يترك ما لا بأس به خوفًا مما فيه بأس"(١٢).

وقد يرد لفظ التقوى في القرآن الكريم على أوجه، منها:

---

(١) أنظر: إصلاح المنطق:٤، والتهذيب:(تقى) ١/ ٤٤٤، وتفسير البسيط للواحدي: ٥٢/٢.

(٢)ورد البيت في "إصلاح المنطق" ص ٢٤، "الخصائص" ٢/ ٢٨٦، "الصحاح" (عسل) ٥/ ١٧٦٥، (وقى) ٥/ ٢٥٢٧، "المحكم" ١/ ١٧٠، "اللسان" (عسل) ٥/ ٢٩٤٦، (وقى) ١٥/ ٤٠٣، (أساس البلاغة) (كعب) ٢/ ٣١٢، "الحجة" لأبي علي٣/ ٢٨. والشاعر يصف رمحاً يقول: اتقاك برمح تلذه يداك: أي لا يثقلهما، إذا هز بالكف يعسل أي. يضطرب ويهتز.

(٣) أنظر: التفسير البسيط للواحدي: ٥٢/٢.

(٤)صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة حنين، ٣/ ١٤٠١، برقم ١٧٧٦. وقوله:"إذا احمر البأس": كناية عن شدة الحرب، واستعير ذلك؛ لحمرة الدماء الحاصلة فيها في العادة. انظر: شرح النووي ١٢/ ٣٦٤.

(٥) التفسير البسيط: ٤٨/٢، وانظر: "تهذيب اللغة" (تقي)، (وقى) ١/ ٤٤، "الصحاح" (وقى) ٦/ ٢٥٢٧، "اللسان" (وقى) ٨/ ٤٩٠٢، (لباب التفاسير) للكرماني ١/ ١١١، (رسالة دكتوراه).

(٦) تفسير الثعلبي: ١٤٢/١، وتفسير القرطبي: ١٦٢/١.

(٧) ديوان عبدالله بن المعتو، تحقيق: د, عمر فاروق، دار الأرقم، يروت، لنان: ص٣٤.

يقول: لاتتقر صغيرا، لأن كل كبير يكون صغيرا، وقوله: إن الجبال من الحصى دليل صحة هذا المنطق، وهو منطق المعتزلة في عصره وفي هذا يقول الجاحظ"اعلم أن الجبل ليس أدل على الله من الحصاة..وأن صغير- مايشتمل عليه عالمنا- ودقيقه، كعظميمه وجليله و لم تفترق الأمور في حقائقها و إنّما افترق المفكّرون فيها"(كتاب الحيوان: ٢٥٤/١)

(٨) تفسير ابن عثيمين:٢٨/١.

(٩) الفوائد: ٦٥-٦٦.

(١٠) مفردات الراغب بتصرف (ص : ٨٨١) .

(١١) التعريفات للجرجاني (ج١/ص٩٠) .

(١٢) تحفة الأحوذي: ٢٠١/٦.

١- الخوف والخشية، كما في قوله تعالى :{يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم}[الحج :١].
٢- ومنها: العبادة، كما في قوله تعالى :{ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لاإله إلا أنا فاتقون}[النحل:٢].
٣- ومنها : ترك المعصية،كما في قوله تعالى : {وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون}[البقرة:١٨٩]، أي لا تعصوه .
٤- ومنها: التوحيد، كما في قوله تعالى : {أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى}[الحجرات:٣]، أي للتوحيد.
٥- ومنها: الإخلاص،كما في قوله سبحانه : {ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب} [الحج :٣٢].
وعند ابن القيم، للتقوى ثلاثة مراتب[١]:
إحداها : حميّة القلب والجوارح عن الآثام والمحرمات.
والثانية : حميّتها عن المكروهات.
والثالثة: الحمية عن الفضول وما لا يعني.
قال ابن القيم: "فالأولى تعطي العبد حياته، والثانية تفيده صحته وقوته، والثالثة تكسبه سروره وفرحه وبهجته"[٢].
ولا شك بأن التقوى من أوجب الواجبات وقد دل على ذلك نصوص كثيرة من القرآن الكريم والسنة الصحيحة وكلام السلف الصالح، قال القرطبي: "الأمر بالتقوى كان عاما لجميع الأمم"[٣].
قال ابن تيمية -رحمه الله-: "والتقوى واجبة على الخلق، وقد أمر الله بها ووصى بها في غير موضع، وذم من لا يتقي الله، ومن استغنى عن تقواه توعده"[٤].
كما أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أمر بالتقوى، فعن أبي ذر-رضي الله عنه- قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم:"اتَّقِ اللهَ حيثُ كنتَ "[٥]، فاجتمع الكتاب والسنة على إيجاب التقوى والأمر بها.
وذكر أبو إسحاق، بأن قوله تعالى{هُدًى}، موضعه النصب من وجهين[٦]:
أحدهما: أن يكون منصوبا على الحال من قولك: القرآن ذلك الكتاب هدى، فيكون حالا من الكتاب، كأنك قلت: هاديا؛ لأن (هدى) جاء بعد تمام الكلام، والعامل فيه يكون معنى الإشارة في ذلك.
والثاني: أن يكون منصوبا على الحال من (الهاء) في قوله: {لَا رَيْبَ فِيهِ} كأنك قلت: لا شك فيه هاديا، والعامل فيه معنى ريب.
وقوله تعالى : { هُدًى لِلْمُتَّقِينَ } "يدغم الغنة عند (اللام) و(الراء) أبو جعفر وابن كثير وحمزة والكسائي ، زاد حمزة والكسائي عند (الياء)، وزاد حمزة عند (الواو)، والآخرون لا يدغمونها ويخفي أبو جعفر (النون) والتنوين عند (الخاء) و(الغين)"[٧].
الفوائد:
١. من فوائد الآية: بيان علوّ القرآن؛ لقوله تعالى: { ذلك }؛ فالإشارة بالبعد تفيد علوّ مرتبته؛ وإذا كان القرآن عالي المكانة والمنزلة، فلا بد أن يعود ذلك على المتمسك به بالعلوّ والرفعة؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول: {ليظهره على الدين كله} [التوبة: ٣٣] ؛ وكذلك ما وُصِف به القرآن من الكرم، والمدح، والعظمة فهو وصف أيضاً لمن تمسك به.
٢. ومنها: رفعة القرآن من جهة أنه قرآن مكتوب معتنٍ به؛ لقوله تعالى: { ذلك الكتاب }؛ وقد بيّنّا أنه مكتوب في ثلاثة مواضع: اللوح المحفوظ، والصحف التي بأيدي الملائكة، والمصاحف التي بأيدي الناس.

---

(١) أنظر: الفوائد:٤٥.
(٢) الفوائد: ٤٥.
(٣) تفسير القرطبي: ٣٨٩/٥.
(٤) شرح العمدة: ٦٢٧/٣.
(٥) رواه الترمذي:(١٩٨٧)، وقال: حسن صحيح.
(٦) أنظر: معاني القرآن : ١/ ٧٠، وإعراب القرآن، للنحاس ١/ ١٨٠، وإملاء ما من به الرحمن، للعكبري١/ ١٦،ومشكل إعراب القرآن،المكي :١/ ١٧.
(٧) تفسير البغوي: ٥٩/١-٦٠.

٣. ومن فوائد الآية: أن هذا القرآن نزل من عند الله يقيناً؛ لقوله تعالى: (لا ريب فيه)
٤. ومنها: أن المهتدي بهذا القرآن هم المتقون؛ فكل من كان أتقى لله كان أقوى اهتداءً بالقرآن الكريم؛ لأنه عُلّق الهدى بوصف؛ والحكم إذا عُلق بوصف كانت قوة الحكم بحسب ذلك الوصف المعلّق عليه؛ لأن الوصف عبارة عن علة؛ وكلما قويت العلة قوي المعلول.
٥. ومن فوائد الآية: فضيلة التقوى، وأنها من أسباب الاهتداء بالقرآن، والاهتداء بالقرآن يشمل الهداية العلمية، والهداية العملية؛ أي هداية الإرشاد، والتوفيق.
فإن قيل: ما الجمع بين قوله تعالى: { هدًى للمتقين }، وقوله تعالى: {شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدًى للناس وبينات من الهدى والفرقان}؟ (البقرة: ١٨٥).
فالجواب: أن الهدى نوعان: عام، وخاص؛ أما العام فهو الشامل لجميع الناس وهو هداية العلم، والإرشاد؛ ومثاله قوله تعالى عن القرآن: {هدًى للناس وبيّنات من الهدى والفرقان} [البقرة: ١٨٥] ، وقوله تعالى عن ثمود: {وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى} [فصلت: ١٧] ؛ وأما الخاص فهو هداية التوفيق : أي أن يوفق الله المرء للعمل بما علم؛ مثاله: قوله تعالى { هدًى للمتقين }، وقوله تعالى: {قل هو للذين آمنوا هدًى وشفاء} [فصلت: ٤٤] .

القرآن
قوله تعالى: {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣)}[البقرة :٣]
التفسير:
وهم الذين يُصَدِّقون بالغيب الذي لا تدركه حواسُّهم ولا عقولهم وحدها؛ لأنه لا يُعْرف إلا بوحي الله إلى رسله، مثل الإيمان بالملائكة، والجنة، والنار، وغير ذلك مما أخبر الله به أو أخبر به رسوله، وهم مع تصديقهم بالغيب يحافظون على أداء الصلاة في مواقيتها أداءً صحيحًا وَفْق ما شرع الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم، ومما أعطيناهم من المال يخرجون صدقة أموالهم الواجبة والمستحبة.
واختلف المفسرون ، فِيمَنْ نزلت هاتان الآيتان فيه ، على ثلاثة أقوال[١]:
أحدها : أنها نزلت في مؤمني العرب دون غيرهم ، لأنه قال بعد هذا {وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ}، يعني به أَهْلَ الكتاب ، وهذا قول ابن عباس[٢]، وروي عن ابن مسعود[٣]، مثل ذلك.
والثاني : أنها مع الآيتين اللتين من بعد أربع آيات نزلت في مؤمني أهل الكتاب خاصة، لأنه ذكرهم في بعضها.
والثالث : أن الآيات الأربع من أول السورة ، نزلت في جميع المؤمنين ، وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال :"نزلت أربع آيات من سورة البقرة في نعت المؤمنين ، وآيتان في نعت الكافرين ، وثلاث عَشْرَةَ في المُنافقين"[٤]. وروي عن الربيع[٥] مثل ذلك.
قوله تعالى:{الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ}[البقرة: ٣]، "أي يقرون بما غاب عنهم مما أخبر الله به عن نفسه، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وغير ذلك مما أخبر الله به من أمور الغيب"[٦].
وروي " عن أبي العالية في قوله: {الذين يؤمنون بالغيب}، قال: يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وجنته وناره ولقائه. ويؤمنون بالحياة بعد الموت، وبالبعث. فهذا غيب كله"[٧].
وقال السدي: " أما الذين يؤمنون بالغيب فهم المؤمنون من العرب، أما الغيب: فما غاب عن العباد من أمر الجنة وأمر النار وما ذكر في القرآن، لم يكن تصديقهم بذلك من قبل أصل كتاب أو علم كان عندهم"[١].

---

(١) أنظر: أسباب النزول للواحدي: ٢١، والعجاب في بيان الأسباب: ٢٢٨/١، والنكت والعيون: ٧٠/١.
(٢) أنظر: تفسير الطبري(٢٧٧):ص٢٣٨/١.
(٣)أنظر: تفسير الطبري(٢٧٣):ص٢٣٦/١
(٤) أخرجه الطبري(٢٧٨)، و(٢٧٩)، و(٢٨٠)،:ص٢٣٨/١-٢٣٩. وانظر: أسباب النزول للواحدي: ٢١، والعجاب في بيان الأسباب: ٢٢٨/١، والخبر إسناده منقطع لعدم سماع ابن أبي نجيح من مجاهد.[أنظر: تهذيب التهذيب: ٥٤/٦].
(٥) أنظر: تفسير الطبري(٢٨١):ص٢٤٠/١.
(٦) تفسير ابن عثيمين:٣٠/١.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(٦٧)، و(٦٥):ص٣٦/١.

وقوله تعالى:{الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ}[البقرة:٣]، فيه ثلاثة أوجه :
أحدها : يصدقون بالغيب ، وهذا قول ابن عباس[٢] ، وعبدالله[٣].
والثاني : يخشون بالغيب ، وهذا قول الربيع بن أنس[٤] .
والثالث: وقيل: الإيمان: العمل. قاله الزهري[٥].
وقد ذكر أهل العلم في الأصل (الإيمان)، ثلاثة أقوال[٦]:
أحدها : أن أصله التصديق ، ومنه قوله تعالى:{وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا}[يوسف: ١٧]، يعني: "وما أنت بمصدِّق لنا في قولنا"[٧].
قال الأزهري: اتفق العلماء[٨] من اللغويين وغيرهم أن الإيمان معناه: التصديق، وقال تعالى: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا} [يوسف: ١٧]"[٩].
ثم قال: وإنما قلت: إن المؤمن معناه: المصدق، لأن الإيمان مآخوذ من الأمانة، والله يتولى علم السرائر ونية العقد، وجعل تصديقه أمانة ائتمن كل من أسلم على تلك الأمانة، فمن صدق بقلبه فقد أدى الأمانة، ومن كان قلبه على خلاف ما يظهره بلسانه فقد خان، والله حسيبه، وإنما قيل للمصدق: مؤمن، وقد آمن؛ لأنه دخل في أداء الأمانة التي ائتمنه الله عليها[١٠].
وأنشد ابن الأنباري على أن (آمن) معناه: صدّق [١١] قول الشاعر[١٢]:
وَمِنْ قَبْلُ آمنَّا وَقَدْ كَانَ قَوْمُنَا يُصلُّون للأَوْثَانِ قَبْلُ مُحَمَّدَا
معناه: من قبل آمنا محمدا، [أي صدقنا محمدا] فمحمدا منصوب بمعنى التصديق [١٣].
والثاني : أن أصله: (الأمان)، فالمؤمن يؤمن نفسه من عذاب الله ، والله المؤمِنُ لأوليائه من عقابه .
قال أبو علي الفارسي: "ويجوز من حيث قياس اللغة، أن يكون (آمن) [صار ذا أمن] ، مثل: أجدب، وأعاه، أي: صار ذا عاهة في ماله، فكذلك (آمن) صار ذا (أمن) في نفسه وماله بإظهار الشهادتين، كقولهم: أسلم، أي: صار ذا سلم، وخرج عن أن يكون حربا مستحل المال والدم"[١٤].
والثالث : أن أصله (الطمأنينة)، فقيل للمصدق بالخبر مؤمن ، لأنه مطمئن.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم(٦٨):ص٣٦/١.
(٢) أنظر: تفسير الطبري(٢٦٧)، و(٢٦٨):ص٢٣٤/١-٢٣٥.
(٣)أنظر: تفسير الطبري(٢٧١):ص٢٣٥/١.
(٤) أنظر: تفسير الطبري(٢٦٩):ص٢٣٥/١.
(٥)أنظر: تفسير الطبري(٢٧٠):ص٢٣٥/١
(٦) أنظر: النكت والعيون: ٦٨/١-٦٩.
(٧) تفسير الطبري: ٢٣٥/١.
(٨)وقد اعترض بعض العلماء على دعوى الإجماع على أن الإيمان معناه في اللغة التصديق. قال ابن أبي العز في "شرح العقيدة الطحاوية": (وقد اعترض على استدلالهم بأن الإيمان في اللغة عبارة عن التصديق، بمنع الترادف بين التصديق والإيمان، وهب أنه يصح في موضع فلم قلتم إنه يوجب الترادف مطلقا؟) "شرح الطحاوية" ص ٣٢١. وقال ابن تيمية في معرض رده على من ادعى إجماع أهل اللغة على أن الإيمان معناه التصديق، قال: (... قوله إجماع أهل اللغة قاطبة على أن الإيمان قبل نزول القرآن هو التصديق، فيقال له: من نقل هذا الإجماع ومن أين يعلم هذا الإجماع؟ وفي أي كتاب ذكر هذا الإجماع؟ ...) ثم ذكر وجوها كثيرة في رد هذِه الدعوى. انظر كتاب الإيمان ضمن "مجموع الفتاوى" ٧/ ١٢٣ - ١٣٠. وعلى فرض أن معنى الإيمان في اللغة (التصديق) فإن الشارع استعمله في معنى اصطلاحي خاص، كما استعمل الصلاة والزكاة في معان شرعية خاصة زائدة على المعنى اللغوي. انظر. "مجموع الفتاوى" ٧/ ٢٩٨.
(٩)تهذيب اللغة: (أمن): ١/ ٢١٠.
(١٠)انظر: التهذيب (أمن): ١/ ٢١١.
(١١) تهذيب اللغة:(أمن): ١/ ٢١١، وانظر: الزاهر:١/ ٢٠٣.
(١٢)البيت أنشده ابن الأنباري في "الزاهر" بدون عزو ١/ ٢٠٣، وكذلك الأزهري في "التهذيب"، (أمن) ١/ ٢١٢، "اللسان" (أمن) ١/ ١٤٢.
(١٣)انظر كلام ابن الأنباري في "الزاهر" ١/ ٢٠٢، ٢٠٣.
(١٤)"الحجة" لأبي علي ١/ ٢٢٠، وانظر بقية كلام أبي علي ص ٢٢٦ حيث أفاد أن الإيمان بمعنى التصديق ليس على إطلاقه في كل موضع.

قال الواحدي: "وأصله[أي الإيمان] في اللغة: الطمأنينة إلى الشيء، من قولهم: أمن يأمن أمنا، إذا اطمأن وزال الخوف عنه، وآمنت فلانا، إذا جعلته يطمئن وتسكن نفسه. وآمن بالله ورسوله إذا صدقهما واثقا بذلك مطمئنا إليه"[١].

وقال البغوي:" وحقيقة الإيمان التصديق بالقلب. وهو في الشريعة : الاعتقاد بالقلب والإقرار باللسان والعمل بالأركان ، فسمي الإقرار والعمل إيمانا ؛ لوجه من المناسبة ، لأنه من شرائعه، والإسلام : هو الخضوع والانقياد ، فكل إيمان إسلام وليس كل إسلام إيمانا ، إذا لم يكن معه تصديق ، قال الله تعالى "قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا"(١٤ - الحجرات) وذلك لأن الرجل قد يكون مستسلما في الظاهر غير مصدق في الباطن. وقد يكون مصدقا في الباطن غير منقاد في الظاهر"[٢].

وفي (الإيمان) ثلاثة أقاويل[٣] :

أحدها : أنّ الإيمان اجتناب الكبائر .

والثاني : أن كل خصلة من الفرائض إيمان .

والثالث : أن كل طاعةٍ إيمان .

وذكر أهل التفسير في معنى {الغيب}[البقرة:٣]، ثلاثة أقوال :

أحدها : ما جاء من عند الله ، وهو قول ابن عباس[٤] ، وروي نحوه عن عطاء[٥]، واسماعيل بن أبي خالد[٦].

والثاني : أنه القرآن ، وهو قول زر بن حبيش[٧].

والثالث : الإيمان بالجنة والنار والبعث والنشور . قاله قتادة[٨]، والربيع[٩]، وأبي العالية[١٠]، والسدي[١١]، وروي عن زيد بن أسلم[١٢]، وإبراهيم بن جعفر بن محمود بن سلمة الأنصاري[١٣]، مثل ذلك.

قال ابن عطية:" وهذه الأقوال لا تتعارض، بل يقع الغيب على جميعها"[١٤].

قوله تعالى: {وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ} [البقرة : ٣]، " أي يؤدونها على الوجه الأكمل بشروطها وأركانها، وخشوعها وآدابها"[١٥].

قال البغوي:" أي: يديمونها ويحافظون عليها في مواقيتها بحدودها ، وأركانها وهيئاتها"[١٦].

عن الضحاك، قوله: "{الذين يقيمون الصلاة}: يعني: الصلاة المفروضة"[١٧].

وذكر أهل التفسير في قوله تعالى:{وَيُقِيمُون الصَّلاَةَ}[البقرة:٣]، قولان[١٨] :

أحدهما : يؤدونها بفروضها. قاله ابن عباس[١٩].

عن ابن عباس: {ويقيمون الصلاة }، قال : "الذين يقيمون الصلاةَ بفرُوضها"[٢٠].

---

(١) التفسير البسيط: ٥٩/٢.
(٢) تفسير البغوي: ٦٠/١-٦١.
(٣) أنظر: النكت والعيون: ٦٩/١.
(٤) أنظر: تفسير الطبري(٢٧٢):ص٢٣٦/١.
(٥) أخرجه ابن أبي(٧٠):ص٣٦/١. ولفظه:"من آمن بالله، فقد آمن بالغيب".
(٦) أنظر تفسير ابن أبي حاتم(٧١):ص٣٦/١. ولفظه:"{يؤمنون بالغيب}: بغيب الإسلام".
(٧)أنظر: تفسير الطبري(٢٧٤):ص٢٣٦/١، وابن أبي حاتم(٦٩):ص٣٦/١.
(٨)أنظر: تفسير الطبري(٢٧٥):ص٢٣٦/١.
(٩)أنظر: تفسير الطبري(٢٧٦):ص٢٣٦/١-٢٣٧.
(١٠) أنظر:تفسير ابن أبي حاتم(٦٧):ص٣٦/١.
(١١) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٦٨):ص٣٦/١.
(١٢) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٧٢):ص٣٦/١. ولفظه:"{الذين يؤمنون بالغيب}، قال: بالقدر".
(١٣) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٧٣):ص٣٧/١.
(١٤) المحرر الوجيز: ٨٤/١.
(١٥) صفوة التفاسير: ٢٦/١.
(١٦) تفسير البغوي: ٦٢/١.
(١٧) تفسير الطبري(٢٨٤):ص٢٤٢/١.
(١٨) أنظر: النكت والعيون: ٦٩/١.
(١٩) أنظر: تفسير الطبري(٢٨٢):ص٢٤١/١.
(٢٠) أخرجه الطبري(٢٨٢):ص٢٤١/١، وابن أبي حاتم(٧٤):ص٣٧/١.

والثاني : أنه إتمام الركوع والسجود والتلاوة والخشوع فيها ، قاله قتادة[١]، ومقاتل بن حيان[٢]، وحكي عن ابن عباس مثل ذلك[٣].

وقد اختلف في أصل (الصلاة)، على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها :الدُّعاءُ ، كما قال الأعشى[٤]:

لَهَا حَارِسٌ لا يَبْرَحُ الدَّهْرَ بَيْتَهَا وَإِنْ ذُبِحَتْ صَلَّى عَلَيْهَا وَزَمْزَمَا

يعني بذلك : دعا لها ، وكقول الأعشى أيضًا[٥]:

وَقَابَلَهَا الرِّيحَ فِي دَنِّهَا وصَلَّى عَلَى دَنِّهَا وَارْتَسَمْ

قال الطبري: " وأرى أن الصلاة المفروضة سُمِّيت " صلاة " ، لأنّ المصلّي متعرِّض لاستنجاح طَلِبتَه من ثواب الله بعمله ، مع ما يسأل ربَّه من حاجاته ، تعرُّضَ الداعي بدعائه ربَّه استنجاحَ حاجاته وسؤلَهُ"[٦].

الثاني: أنها من الرحمة. قاله أبو عبيدة[٧]، واحتجّ بقول الأعشى[٨]:

تقولُ بنتي وقد قَرّبْتُ مُرْتَحِلًا يا رَبِّ جَنِّبْ أَبِي الأوصابَ والوجعا

عليكِ مِثْلُ الذي صلَّيتِ فاغتمضي نومًا فإنّ لجنب المرء مضطجَعا

قال: عليك مثل دعائك، أي: ينالك من الخير مثل الذي أردت لي. فأبو عبيدة يجعل صليت بمعنى: ترحمت[٩].

والقولان: الأول والثاني: قريبان من البعض، " لأن المترحم على الإنسان داعٍ له، والداعي للإنسان مترحّم عليه"[١٠].

والثالث: أنها : مأخوذة من :الصّلا، وهو عرق في وسط الظهر، ويفترق عند العجب فيكتنفه، ومنه أخذ المصلي في سبق الخيل، لأنه يأتي مع صلوي السابق، فاشتقت الصلاة منه، إما لأنها جاءت ثانية للإيمان فشبهت بالمصلّي من الخيل، وإما لأن الراكع والساجد صلواه"[١١].

قال ابن عطية:" والقول إنها من الدعاء أحسن[١٢].

واختُلف لِمَ سُمِّي فعل «الصلاة» على هذا الوجه إقامةً لها، على قولين[١٣] :

أحدهما : من تقويم الشيء من قولهم قام بالأمر إذا أحكمه وحافظ عليه .

قال الطبري: وإقامة الصلاة: أداؤها بحدودها وفروضها والواجب فيها على ما فُرِضَتْ عليه، كما يقال : أقام القومُ سُوقَهم ، إذا لم يُعَطِّلوها من البَيع والشراء فيها[١٤]، وكما قال الشاعر[١٥] :

أَقَمْنَا لأَهْلِ الْعِرَاقَيْنِ سُوقَ الـ ـضِّرَاب فَخَامُوا وَوَلَّوْا جَمِيعَا

والثاني : أنه فعل الصلاة سُمِّي إقامة لها ، لما فيها من القيام فلذلك قيل : قد قامت الصلاة.

قوله تعالى:{ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} [البقرة : ٣]،" أي: مما أعطيناهم من المال يخرجون"[١].

---

(١) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٧٥):ص٣٧/١.

(٢) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٧٦):ص٣٧/١.

(٣) أنظر: تفسير الطبري(٢٨٣):ص٢٤١/١-٢٤٢.

(٤)ديوانه : ٢٠٠ ، يذكر الخمر في دنها . وزمزم العلج من الفرس : إذا تكلف الكلام عند الأكل وهو مطبق فمه بصوت خفي لا يكاد يفهم . وفعلهم ذلك هو الزمزمة . " ذبحت " أي بزلت وأزيل ختمها . وعندئذ يدعو مخافة أن تكون فاسدة ، فيخسر .

(٥)ديوان الأعشى : ٢٩ . وقوله " وقابلها الريح " أي جعلها قبالة مهب الريح ، وذلك عند بزلها وإزالة ختمها . ويروى : " فأقبلها الريح " وهو مثله . وارتسم الرجل : كبر ودعا وتعوذ ، مخافة أن يجدها قد فسدت ، فتبور تجارته .

(٦) تفسير الطبري: ٢٤٣/١.

(٧) انظر: مجاز القرآن: ٦١-٦٢.

(٨)ديوانه: ١٠٦، وانظر: الخزانة: ١/ ٣٥٩، ومراتب النحويين: ١٩٤.

(٩) انظر: التفسير البسيط: ٤٣١/٣.

(١٠) التفسير البسيط: ٤٣١/٣.

(١١) المحرر الوجيز: ٨٥/١.

(١٢) المحرر الوجيز: ٨٥/١.

(١٣) أنظر: النكت والعيون: ٦٩/١.

(١٤) أنظر: تفسير الطبري: ٣٤١/١.

(١٥) البيت من شواهد الطبري:٢٤١/١، ولم أتعرف على قائله.

قال الصابوني: "أي ومن الذي أعطيناهم من الأموال ينفقون ويتصدقون في وجوه البر والإحسان"[٢].

قال ابن عطية:" والرزق عند أهل السنة، ما صح الانتفاع به حلالا كان أو حراما، بخلاف قول المعتزلة إن الحرام ليس برزق"[٣].

وقال البغوي: " والرزق اسم لكل ما ينتفع به حتى الولد والعبد وأصله في اللغة الحظ والنصيب"[٤].

وفي قوله :{وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ}[البقرة:٣]، ثلاثة تأويلات :

أحدها : إيتاء الزكاة احتساباً لها ، وهذا قول ابن عباس[٥].

والثاني : نفقة الرجل على أهلِهِ ، وهذا قول ابن مسعود[٦] ، والسدي[٧].

والثالث : التطوع بالنفقة فيما قرب من الله تعالى ، وهذا قول الضحاك[٨]، وري عن قتادة[٩] مثل ذلك.

الثالث: وقيل : إنه الحقوق الواجبة العارضة في الأموال ما عدا الزكاة[١٠].

والراجح أن الآية تعمّ الجميع، "وهذه الأقوال تمثيل لا خلاف"[١١]، فالله تعالى "لم يخصُصْ مدْحَهم ووصفَهم بنوع من النفقات المحمود عليها صاحبُها دونَ نوعٍ بخبر ولا غيره - أنهم موصوفون بجميع معاني النفقات المحمودِ عليها صاحبُها من طيِّب ما رزقهم رَبُّهم من أموالهم وأملاكهم ، وذلك الحلالُ منه الذي لم يَشُبْهُ حرامٌ"[١٢].

ورجح هذا القول ابن جرير الطبري[١٣] وابن عطية[١٤]، والقرطبي[١٥] والسعدي[١٦].

وفي اعراب قوله تعالى{مِن}[البقرة:٣]، هنا وجهان[١٧]:

أحدهما: أن تكون للبيان.

والثاني: أن تكون للتبعيض: وذلك لينبههم أنه لم يرد منهم إلا جزءاً يسيراً من أموالهم، غير ضار لهم ولا مثقل، بل ينتفعون هم بإنفاقه، وينتفع به إخوانهم[١٨].

---

(١) تفسير ابن عثيمين: ٣٠/١.

(٢)صفوة التفاسير: ٢٦/١.

(٣) المحرر الوجيز: ٨٥/١. وفي الموضوع نفسه قال ابن عاشور:" والرزق شرعا عند أهل السنة كالرزق لغة إذ الأصل عدم النقل إلا لدليل، فيصدق اسم الرزق على الحلال والحرام لأن صفة الحل والحرمة غير ملتفت إليها هنا فبيان الحلال من الحرام له مواقع أخرى ولا يقبل الله إلا طيبا وذلك يختلف باختلاف أحوال التشريع مثل الخمر والتجارة فيها قبل تحريمها، بل المقصود أنهم ينفقون مما في أيديهم.

وخالفت المعتزلة في ذلك في جملة فروع مسألة خلق المفاسد والشرور وتقديرهما، ومسألة الرزق من المسائل التي جرت فيها المناظرة بين الأشاعرة والمعتزلة كمسألة الآجال، ومسألة السعر، وتمسك المعتزلة في مسألة الرزق بأدلة لا تنتج المطلوب".[التحرير والتنوير: ٢٣٥/١].

(٤) تفسير البغوي: ٦٣/١.

(٥) أنظر: تفسير الطبري(٢٨٥)، و(٢٨٦):ص٢٤٣/١، وابن أبي حاتم(٧٧):ص٣٧/١.

(٦)أنظر: تفسير الطبري(٢٨٨):ص٢٤٣/١.

(٧) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٧٨):ص٣٨/١.

(٨)أنظر: تفسير الطبري(٢٨٧):ص٢٤٣/١.

(٩)أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٧٩):ص٣٨/١.

(١٠)لأن الله تعالى لما قرنه بالصلاة كان فرضا ، ولما عدل عن لفظها كان فرضا سواها ، (انظر: تفسير القرطبي: ١٧٩/١)..

(١١) المحرر الوجيز: ٨٥/١.

(١٢) تفسير الطبري: ٢٤٤/١.

(١٣) انظر: تفسير الطبري: ٢٤٣/١.

(١٤) أنظر: المحرر الوجيز: ٨٥/١.

(١٥) انظر: تفسير القرطبي: ١٧٩/١.

(١٦) انظر: تفسير السعدي: ٤٠/١.

(١٧) أنظر: تفسير ابن عثيمين:٣٠/١.

(١٨)وقوله تعالى {وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ينفقون} فيه إشارة إلى أن هذه الأموال التي بين أيديكم، ليست حاصلة بقوتكم وملككم، وإنما هي رزق الله الذي أنعم به عليكم، فكما أنعم عليكم وفضلكم على كثير من عباده فاشكروه بإخراج بعض ما أنعم الله به عليكم وواسوا إخوانكم المعدمين .

وكثيراً ما يجمع تعالى بين الصلاة والإنفاق من الأموال في القرآن الكريم، وذلك لأن "الصّلاة حقّ اللّه وعبادته، وهي مشتملة على توحيده والثّناء عليه، وتمجيده والابتهال إليه، ودعائه والتّوكّل عليه؛ والإنفاق هو الإحسان إلى المخلوقين بالنّفع المتعدّي إليهم، وأولى النّاس بذلك القرابات والأهلون والمماليك، ثمّ الأجانب، فكلٌّ من النّفقات الواجبة والزّكاة المفروضة داخلٌ في قوله تعالى:{وممّا رزقناهم ينفقون} ولهذا ثبت في الصّحيحين عن ابن عمر: أنّ رسول اللّه صلّى الله عليه وسلم قال: "بني الإسلام على خمسٍ: شهادة أن لا إله إلّا اللّه، وإقام الصّلاة، وإيتاء الزّكاة، وصوم رمضان، وحجّ البيت"[١]،والأحاديث في هذا كثيرةٌ"[٢].

و(الرزق) لغة: قال ابن منظور: رزَق: الرازق والرزَّاق: في صِفة الله -تعالى- لأنه يَرزُق الخَلق أجمَعين، وهو الذي خلق الأرزاق، وأعطى الخلائق أرزاقها وأوصَلها إليهم، وفَعَّال مِن أبنيَة المبالَغة، والرِّزْق: مَعروف، والأرزاق نوعان: ظاهِرة للأبدان؛ كالأقوات، وباطِنة للقلوب والنفوس؛ كالمَعارف والعُلوم؛ قال الله -تعالى:{وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا } [هود: ٦][٣].

وقال الراغِب: "الرِّزْق يُقال للعَطاء الجاري تارةً، دُنيويًّا كان أم أُخرويًّا، وللنصيب تارةً، ولِما يَصِل إلى الجوف ويُتغذى به تارةً، يقال: أعطى السلطانُ رِزقَ الجند، ورُزِقتُ عِلمًا"[٤].

وجاء في" المعجم الوسيط:"(الرزْق) بالفتح مصدر، وبالكسر اسم الشيء المرزوق، وهو كل ما يُنتفَع به، ويجوز أن يوضَع كل منهما مَوضِع الآخَر، وما يُنتفَع به مما يؤكَل ويُلبَس، وما يصل إلى الجوف ويُتغذَّى به، وفي التنزيل العزيز:{فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ } [الكهف: ١٩]، والمطرُ؛ لأنه سبب الرزق، والعطاءُ أو العطاء الجاري؛ يُقال :كم رِزقك في الشهر؟ :كم راتبك؟"[٥].

---

(١)عَن ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم:"بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ".

حديث صحيح :أخرجه البُخاريُّ في «صحيحه» (٨، ٤٥١٥)، وفي «التاريخ الكبير» (٤/ ٢١٣)، (٨/ ٣١٩، ٣٢٢)، ومُسلِمٌ (١٦)، وفي «التمييز» (٤)، والنَّسائِيُّ (٨/ ١٠٧، ١٠٨)، والتِّرمِذِيُّ (٢٦٠٩)، وأحمد (٢/ ٢٦، ٩٢، ٩٣، ١٢٠)، والحميدي (٧٠٣، ٧٠٤)، وعبد ابن حميد (٨٢٤)، وأبو عبيد القاسم بن سلام في «الإيمان» (٢) بتحقيقي، وفي «الناسخ والمنسوخ» (٣٧٩)، وأبو الحسن الطوسي في «الأربعين» (١٤)، والعدني في «الإيمان» (١٨) بتحقيقي، والمروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٤١١-٤١٧)، وابن خزيمة (٣٠٨، ٣٠٩،١٨٨٠، ١٨٨١، ٢٥٠٥)، وأبو يعلى (٥٧٨٨)، والخلال في «السنة» (١٣٨٢، ١٣٨٣، ١١٨٤)، وابن حبان (١٥٨، ١٤٤٦)، والدولابي في «الكنى» (١/ ٨٠)، وابن عدي في «الكامل» (٢/ ٢٤٣)، (٤/ ١٠٠)، والآجري في «الشريعة (٢٠١-٢٠٣)، وفي «الأربعين» (١٦)، وأبو بكر الشافعي في «الغيلانيات» (٤٦٠)، والطَّبرانيُّ في «الكبير» (١٣٢٠٣، ١٣٥١٨)، وفي «الأوسط» (٢٩٣٠، ٦٢٦٤، ٦٥٣٣)، وأبو الشيخ في «طبقات المحدثين» (٨٤٩)، والدارقطني في «الأفراد» - كما في «الأطراف» - (١٩١١، ٢٨٨٢، ٢٩٨٦)، وفي «المؤتلف والمختلف» (٢/ ٩٤٢)، (٣/ ١١٧٦)، وفي «العلل»=(١٣/ ١٣٠)، وابن المقرئ في «معجمه» (٥٧٧)، وأبو محمد الجوهري في «حديث أبي الفضل الزهري» (٥٥٤)، وابن منده في «الإيمان» (٤٠-٤٣)، (١٤٨-١٥٠)، وفي «التوحيد» (١٦٥)، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (١٤٩٠)، وابن عبد البر في «التمهيد» (١٦/ ١٦٠)، وأبو نعيم في «المستخرج» (٩٨-١٠٢)، وفي «الحلية» (٣/ ٦٢)، وفي «أخبار أصبهان» (١/ ١٨٢، ١٨٣)، والسهمي في «تاريخ جرجان» (٧٣٥، ٨٧٢)، والبَيهَقِيُّ في «الاعتقاد» (ص ٢٨٧، ٢٨٨)، وفي «السنن الكبرى» (١/ ٣٥٨)، (٤/ ٨١، ١٩٩)، وفي «الصغير» (٢٤٩)، وفي «الشعب» (٢٠، ٢١، ٣٢٩١، ٣٥٦٧)، وفي «فضائل الأوقات» (٣١)، والخطيب في «الكفاية» (٥٣٣-٥٣٥)، وفي «الأسماء المبهمة» (ص ٣٣٦، ٣٣٧)، والبغوي في «شرح السنة» (٦)، وفي «تفسيره» (١/ ٥١٢)، وابن بطة في «الإبانة» (٤٢٢، ٤٢٣)، والشجري في «أماليه» (١٣٠، ١٣٨)، والرافعي في «التدوين» (٢/ ٢٣٧)، وابن عساكر في «تاريخه» (٧/ ١٦١)، (١٥/ ٢١٤)، (٤٣/ ٨٦)، (٥٤/ ٥٣، ٥٤)، (٦١/ ٦٥)، (٦٣/ ٢٢٨٩)، (٦٨/ ٢٣٤)، وفي «معجمه» (١٢/ ٤٢٣، ٩٩٤)، وبيبي في «جزئها» (٧٦)، والطحاوي في «أحكام القرآن» (١٥٩٨)، والنسوي في «الأربعين» (٤٠)، وغيرُهُم. من طرق عن ابن عمر به.

وانظر «العلل» للدَّارَقُطنيِّ (١٣/ ١٢٩، ١٣٠، ٢١١، ٢١٢، ١٨٥، ٢٢١)، و«العلل» لابن أبي حاتم (١٩٦١)، و«إرواء الغليل» (٣/ ٢٤٩)، والله أعلم.

(٢)تفسير ابن كثير: ١٦٤/١-١٦٩.

(٣) لسان العرب: ١١٥/١٠.

(٤) المفردات في غريب القرآن، الأصفهاني: ٣٥١/١.

(٥)المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، دار الدعوة: (١: ٣٤٢).

وقال ابن فارس": فالرِّزق: عطاء الله - جل ثناؤه - ويُقال: رزقه الله رزقًا، والاسم: الرِّزْق. [والرِّزق] بلغة أزد شَنُوءة: الشُكر، مِن قوله - جل ثناؤه:{وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ } [الواقعة: ٨٢]، وفعلتُ ذلك لمَّا رزقتَني؛ أي: لمَّا شَكرتَني"(١).

نستنتج من المعنى اللغوي بأن معاني الرزق تدور ما بين العطاء وما يُنتفَع به مما يؤكَل.

والرزق اصطلاحا: لرزق :اسم لِما يَسوقه الله إلى الحيوان فيأكله، فيكون متناولاً للحلال والحرام، وعند المعتزلة: عبارة عن مملوك يأكله المالِك، فعلى هذا لا يكون الحَرام رزقًا.

والرِّزق الحسَن: هو ما يصل إلى صاحبه بلا كدٍّ في طلبه، وقيل: ما وُجد غير مُرتقب، ولا محتسَب، ولا مُكتسَب(٢)، و الرِّزق: مُتناوِل للحلال والحرام؛ لأنه اسم لِما يَسوقه الله -تعالى- إلى الحيوان في أكله، أي: يَتناوله، فيشمل المأكولات والمشروبات(٣).

ونلاحِظ ارتباط المعنى اللغوي والاصطلاحي للرِّزق؛ بحيث إنه في اللغة يكون بمعنى العطاء، وكذلك في الاصطِلاح هو الوصول، وكلاهما اسم لِما يَسوقه الله - تعالى.

ويكمن الفهم الخاطئ في قصر مفهوم الرزق على المعنى المادي المتمثل بالمال أو غيره، بينما الحقيقة التي تشير إليها النصوص الشرعية من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، تؤكد شمول معنى الرزق في الإسلام الأمور المادية والمعنوية.

لقد ذكر لفظ «الرزق» في القرآن الكريم (١٢٣) مرة، وكما جاء بمعنى الرزق المادي من مال وطعام ومطر، جاء بمعنى معنوي في أكثر من موضع، كمعنى الثواب في قوله تعالى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} [آل عمران:١٦٩]، أي: يثابون على ما قدموا من أعمال وتضحيات.

كما فسر الشيخ السعدي مفهوم الرزق الوارد في قوله تعالى: {زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} (البقرة : ٢١٢)، برزق القلوب من العلم والإيمان وغير ذلك من الأمور المعنوية فقال في تفسير الآية:"فالرزق الدنيوي يحصل للمؤمن والكافر، وأما رزق القلوب من العلم والإيمان ومحبة الله وخشيته ورجائه، ونحو ذلك: فلا يعطيها إلا من يحب"(٤).

وفي السنة النبوية ما يشير إلى أن مفهوم الرزق في الإسلام واسع ولا يقتصر على الأمور المادية فحسب،فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مَسْعود قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ "" إنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ إلَيْهِ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٍّ أَمْ سَعِيدٍ؛ فَوَاَللَّهِ الَّذِي لَا إلَهَ غَيْرُهُ إنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا. وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا ." "(٥).

قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين - رحمه الله - معلقا على كلمة: «رزقه» في الحديث: "الرزق هنا: ما ينتفع به الإنسان وهو نوعان: رزق يقوم به البدن، ورزق يقوم به الدين، والرزق الذي يقوم به البدن: هو الأكل والشرب واللباس والمسكن والمركوب وما أشبه ذلك، والرزق الذي يقوم به الدين: هو العلم، والإيمان، وكلاهما مراد بهذا الحديث" (٦).

وقال ابن عاشور:" والرزق ما يناله الإنسان من موجودات هذا العالم التي يسد بها ضروراته وحاجاته وينال بها ملائمه، فيطلق على كل ما يحصل به سد الحاجة في الحياة من الأطعمة والأنعام والحيوان والشجر المثمر والثياب وما يقتنى به ذلك من النقدين، قال تعالى: {وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى

---

(١) مقاييس اللغة: ٣٨٨/٢.
(٢) التعريفات،الباقلاني: ١١٠/١.
(٣)القاضي عبدالنبي بن عبدالرسول الأحمد نكري ،دستور العلماء: (٢: ٩٦).
(٤)تفسير السعدي :٩٥/١.
(٥)رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (رقم:٣٢٠٨)، وَمُسْلِمٌ (رقم:٢٦٤٣)
(٦)شرح الأربعين النووية ص ١٠١ - ١٠٢.

والمساكين فارزقوهم منه} [النساء: ٨]، أي مما تركه الميت- وقال: {الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر وفرحوا بالحياة الدنيا} [الرعد: ٢٦] وقال في قصة قارون: وآتيناه من الكنوز- إلى قوله- يكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر [القصص: ٧٦- ٨٢] مرادا بالرزق كنوز قارون وقال: ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض [الشورى: ٢٧] وأشهر استعماله بحسب ما رأيت من كلام العرب وموارد القرآن أنه ما يحصل من ذلك للإنسان، وأما إطلاقه على ما يتناوله الحيوان من المرعى والماء فهو على المجاز، كما في قوله تعالى: وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها [هود: ٦] وقوله: وجد عندها رزقا [آل عمران: ٣٧] وقوله: لا يأتيكما طعام ترزقانه [يوسف: ٣٧] "(١).

إن المتبادر إلى ذهن كثير من المسلمين اليوم حين يسمعون عن توسعة الله تعالى على فلان أو غيره في الرزق، هو المعنى المادي فحسب، حيث لا يشكون لحظة أن المقصود هو كثرة المال والأمور المادية المشابهة، ولا يخطر ببال أحدهم غير هذا المعنى، إلا من رحم الله ممن آتاه الله علما وفهما وفقها في الدين، والحقيقة أنه قد يكون المقصود بهذه العبارة – بالإضافة لكثرة الرزق المادي - أمور أخرى معنوية هي أهم من المال والمتاع المادي، فقد يكون المقصود الإيمان الصحيح السليم من البدع والمنكرات والشبهات، والذي هو في الحقيقة سبيل النجاة يوم القيامة، أو العلم الذي يبصر الإنسان بحقائق الأشياء، ويرشده إلى ما فيه صلاحه في الدنيا وفلاحه في الآخرة، أو الزوجة الصالحة أو الولد الصالح.. أو غير ذلك من الأمور المعنوية.

وإن من أهم آثار قصر مفهوم الرزق على الأمور المادية - والمال بشكل خاص - هو غفلة كثير من المسلمين عن ما رزقهم الله تعالى من أرزاق معنوية ظنوا بسبب فهمهم الخاطئ أنها لا تدخل في مفهوم الرزق، فظنوا أن الله حرمهم الرزق ومنحه لآخرين، بينما الحقيقة أن ما منّ الله به عليهم من رزق في الإيمان والعلم وغير ذلك مما هو باقٍ، يفوق بأضعاف مضاعفة ما رزق غيرهم من مال ومتاع مادي زائل، وبالمقابل فإن إدراك المسلمين للمفهوم الإسلامي الشامل للرزق له نتائجه وآثاره الإيجابية، حيث يسود الرضى عن الله تعالى، وتلهج الألسنة والأفئدة بشكره على نعمه الظاهرة والباطنة، ورزقه الواسع في جميع المجالات المادية والمعنوية(٢).

---

(١) التحرير والتنوير: ١/٢٣٤-٢٣٥.

(٢)إن الحديث عن الرزق حديث ذو أهمية بالغة، ولاسيما في هذا الوقت الذي ضعف فيه إيمان كثير من الناس بربهم، وأن الرزق بيده، وأنه المتكفل بالأرزاق؛ ما جعل اعتمادهم وللأسف على خلق مثلهم، يرجونهم أو يخشونهم على أرزاقهم، وإن الإيمان بهذا الاسم سيحل الكثير من المشاكل كالقلق والخوف من المستقبل، والجرأة على أكل الحرام،والحسد، واستحلال الربا وتبرير الرشوة، وجرائم القتل والسرقة من أجل المال التي سببها عدم أو ضعف الإيمان باسم الله الرزاق.

ومعالجة قضية القلق على الرزق تكمن في الآتي:

أولا: رزق جميع الكائنات على الله:

فالله سبحانه تكفل للخلق بالرزق مهما كانوا وأينما كانوا، مسلمين وكافرين، إنسًا وجنا، طيرًا وحيوانا، وهو سبحانه كما يقول البلغاء يرزق النملة السمراء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء.

قال تعالى: (وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ) هود ٦.

وقال تعالى: (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ) الذاريات ٢٢، ٢٣.

فالرزق ليس على فلان أو علان إنما هي أسباب هيأها الله في الكون لييسر على العباد معايشهم، فما يتحصله الناس من وظائف أو مهن ؛ إنما هي أسباب لنيل رزق الله، بل إن ذكاء الإنسان لن يزيد في رزقه شيئا وقلة ذكائه لن تنقص من رزقه شيئا.

ثانيا: التوكل على الله في طلب الرزق:

إذا أيقنا أن الرزق بيد الله وحده فعلينا الأخذ بالأسباب قال تعالى: (هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور)(الملك:١٥)، ويقول النبي صلى الله عليه وسلم: "لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا"(٢)، وللأسف فما أكثر الذين تغيرت قلوبهم فأصبحوا يتوكلون ويؤملون في دنياهم وأرزاقهم على خلق مثلهم، ونسوا الخلاق الرزاق مدبر الأمور ومصرّف الدهور سبحانه، وهذا عمر-رضي الله عنه-لما رأى أناساً يسألون الناس في الحج قال: من أنتم ؟ قالوا: نحن المتوكلون، قال: كذبتم، المتوكل من ألقى حبة في الأرض، ثم توكل على الله.

والحديث السابق ليس معناه أن الإنسان يقعد عن العمل والتسبب والاكتساب، ثم ينتظر من الله -تبارك وتعالى- أن يرزقه، فإن هذا ليس هو المراد، بل كما قال الإمام البيهقي -رحمه الله-: هو أن الإنسان يبذل السبب، فهذه الطيور لا تبقى في أوكارها

الفوائد:

١. من فوائد الآية: أن من أوصاف المتقين الإيمان بالغيب؛ لأن الإيمان بالمُشاهَد المحسوس ليس بإيمان؛ لأن المحسوس لا يمكن إنكاره.

٢. ومنها: أن من أوصاف المتقين إقامة الصلاة؛ وهو عام لفرضها، ونفلها.

ويتفرع على ذلك: الترغيب في إقامة الصلاة؛ لأنها من صفات المتقين؛ وإقامتها أن يأتي بها مستقيمة على الوجه المطلوب في خشوعها، وقيامها، وقعودها، وركوعها، وسجودها، وغير ذلك.

٣. ومن فوائد الآيات: أن من أوصاف المتقين الإنفاق مما رزقهم الله؛ وهذا يشمل الإنفاق الواجب كالزكاة، وإنفاقَ التطوع كالصدقات، والإنفاقَ في سبل الخير.

٤. ومنها: أن صدقة الغاصب باطلة؛ لقوله تعالى: { ومما رزقناهم }؛ لأن الغاصب لا يملك المال الذي تصدق به، فلا تقبل صدقته.

٥. ومنها: أن الإنفاق غير الزكاة لا يتقدر بشيء معين؛ لإطلاق الآية، سواء قلنا: إن "مِن" للتبعيض؛ أو للبيان.

ويتفرع على هذا جواز إنفاق جميع المال في طرق الخير، كما فعل أبو بكر رضي الله عنه حين تصدق بجميع ماله ؛ لكن هذا مشروط بما إذا لم يترتب عليه ترك واجب من الإنفاق على الأهل، ونحوهم؛ فإن ترتب عليه ذلك فالواجب مقدم على التطوع.

٦. ومن فوائد الآية: ذم البخل؛ ووجهه أن الله مدح المنفقين؛ فإذا لم يكن إنفاق فلا مدح؛ والبخل خلق ذميم حذر الله سبحانه وتعالى منه في عدة آيات.

تنـــبيه:

لم يذكر الله مصرف الإنفاق أين يكون؛ لكنه تعالى ذكر في آيات أخرى أن الإنفاق الممدوح ما كان في سبيل الله من غير إسراف، ولا تقتير، كما قال تعالى في وصف عباد الرحمن: {والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً} [الفرقان: ٦٧] .

القرآن

{وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤)} [البقرة :٤].

التفسير:

ومن صفات هؤلاء المتقين أنهم يؤمنون بجميع الكتب المنزلة، فيؤمنون بالكتاب الذي أنزل إليك وهو القرآن، ويؤمنون إيماناً مجملاً بما جاءت به الرسل من قبلك بالكتب السابقة، كالتوراة والإنجيل والزبور

تنتظر رزق الله -تبارك وتعالى- فتمتلئ بطونها منه، وإنما هي تخرج في الصباح وتتسبب وتتكسب، ثم بعد ذلك ترجع إلى أوكارها في آخر النهار إذا كان الظلام.[أنظر: شعب الإيمان: ١١٣٥].

فالإنسان الذي يتوكل على الله حق التوكل هو الإنسان الذي يرتبط قلبه بالله -عز وجل-، ويعلم أنه لا يكون في هذا الكون تحريكة أو تسكينة إلا بمشيئته وإرادته، وأن الاكتساب والغنى والتحصيل لا يكون بسبب ذكاء الإنسان، وما عنده من طاقة ومهارة وحرفة وصنعة، وما أشبه ذلك، كما قال قارون: {إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي} [القصص: ٧٨]، فهذا لا شك أنه انحراف في التصور والفهم والاعتقاد، وإنما يعتقد الإنسان أن الله -عز وجل- هو مسبب الأسباب، وأن أزمّة الأمور في يده، وأن ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، والله قد أجرى سنته بأن يتوكل الإنسان، وأن يتسبب والله -تبارك وتعالى- يقدر لمن شاء ما شاء.

فالمقصود هو أن الإنسان يتوكل على الله، ويربط قلبه بالله، لكن يعلم أن ذلك ليس بمهارته ولا بذكائه، ثم لا يتهافت على الدنيا، فيتوجه قلبه إليها ويتعلق بها، ويركن إلى هذا الحطام الزائل، وإنما يعلم أن الأمور بيد الله -جل جلاله-، وأن ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وهذا يريح قلبه كثيراً، فلا يتأسف على ما فاته منها، وما خسر من حطامها، أو ما لم يحصله من هذا المتاع الزائل، فإن الله -تبارك وتعالى- هو الذي يرزق عباده وفق علمه، وحكمته وبصره التام النافذ، والإنسان لا يدري أين الخير له، فما عليه إلا أن يبذل السبب والله -عز وجل- يرزق من شاء ما شاء.

وها نحن نرى الناس، منهم مَن بعملٍ بسيط يحصّل أموالا طائلة بلحظات، ومنهم من يجلس طول العمر يشتغل ولا يحصل شيئاً يذكر، يتقلب بالفقر ظهراً لبطن، مع أنه مفتول العضلات، ولربما كان كامل الذكاء، وعنده من القُدَر والمهارات، ويقوم بدراسات، ومع ذلك هو من خسارة إلى خسارة، ومن خيبة إلى خيبة، فالله -عز وجل- هو الذي يرزق.

وصحف إبراهيم وموسى وغيرها..، لا يفرّقون بين كتب الله ولا بين رسله، و"بدأ بالقرآن مع أنه آخرها زمناً، لأنه مهيمن على الكتب السابقة ناسخ لها"[١] .

اختلف العلماء في الموصوفين هنا، هل هم الموصوفون بما تقدم من قوله تعالى {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} [البقرة : ٣] على قولين :

أحدهما: أن الموصوفين أولاً مؤمنوا العرب، والموصوفون ثانياً بقوله {والذين يؤمنون بما أنزل إليك ..}، لمؤمني أهل الكتاب[٢]، ورجح هذا القول ابن جرير الطبري رحمه الله[٣].

والثاني: وقيل:أن هؤلاء هم الموصوفون قبل هذه الآية، وهم مؤمنوا العرب ومؤمنوا أهل الكتاب، ورجح هذا ابن كثير[٤] .

ويدل لصحة هذا القول أن الله أمر بذلك فقال سبحانه {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا} [النساء : ١٣٦]، وقال تعالى {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [العنكبوت : ٤٦][٥].

قوله تعالى:{ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ}[البقرة:٤]،" أي يصدقونه بكل ما جئت به عن الله تعالى"[٦].

قال ابن عباس:" أي: يصدقونك بما جئت من الله"[٧].

قوله تعالى:{ وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ}، [البقرة:٤]، "أي وبما جاءت به الرسل من قبلك، لا يفرّقون بين كتب الله ولا بين رسله"[١].

---

(١) تفسير ابن عثيمين: ٤١/١.

(٢) وفيها فضل للكتابي الذي آمن بنبيه ثم آمن بمحمد ﷺ، ففي الصحيحين عَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: ""ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الكتاب آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَأَدْرَكَ النَّبِيَّ فَآمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ وَصَدَّقَهُ، فَلَهُ أَجْرَانِ، وَعَبْدٌ مَمْلُوكٌ أَدَّى حَقَّ الله تَعَالَى وَحَقَّ سَيِّدِهِ، فَلَهُ أَجْرَانِ، وَرَجُلٌ كَانَتْ لَهُ أَمَةٌ فَغَذَاهَا فَأَحْسَنَ غِذَاءَهَا. ثُمَّ أَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ أَدَبَهَا. ثُمَّ أَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا، فَلَهُ أَجْرَانِ"، ثُمَّ قَالَ الشَّعْبِيُّ لِلْخُرَاسَانِيِّ: خُذْ هذا الحَدِيثَ بِغَيْرِ شَيْءٍ. فَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يَرْحَلُ فِيمَا دُونَ هذَا إِلَى المَدِينَةِ".(أخرجه مسلم حديث (١٥٤)، وأخرجه البخاري في " كتاب العلم" " باب تعليم الرجل أمته وأهله" حديث (٩٧)، وأخرجه الترمذي في " كتاب النكاح" " باب ما جاء في الفضل في ذلك " حديث (١١١٦)، وأخرجه النسائي " كتاب النكاح" " باب عتق الرجل جاريته ثم يتزوجها " حديث (٣٣٤٤) وابن ماجه: كتاب النكاح " " باب الرجل يعشق أمته ثم يتزوجها" حديث(١٩٥٦).

ومن من فوائد الحديث:

الفائدة الأولى :الحديث دليل على فضل من آمن من أهل الكتاب بنبيه ثم آمن بنبينا صلى الله عليه وسلم فإن له أجرين، وذهب بعض أهل العلم ومنهم الكرماني إلى أن هذا الفضل خاص بمن آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم في زمن بعثته أما من آمن من أهل الكتاب بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم فلا يدخل في الفضل؛ لأن نبيهم بعد البعثة هو محمد صلى الله عليه وسلم، والقول الثاني أنه يدخل لعدم المخصص واختاره ابن حجر رحمه الله .(انظر الفتح :١/ ١٩١).

والحكمة من المضاعفة: أن الأجر الأول ترتب على إيمانه بنبيه قبل النسخ، والأجر الثاني لإيمانه بمحمد صلى الله عليه وسلم.

قال النووي رحمه الله:" فيه فضيلة من آمن من أهل الكتاب بنبينا صلى الله عليه وسلم، وأن له أجرين، لإيمانه بنبيه قبل النسخ، والثاني لإيمانه بنبينا صلى الله عليه وسلم" .(شرح النووي لصحيح مسلم :٢/ ٣٦٥).

وظاهر الحديث أن من انتسب لأهل الكتاب ولم يكن انتماؤه للحق الذي جاء به نبيه وإنما على عقيدة محرمة فإنه لا يدخل في فضل الأجرين، وإن زعم أنه من أهل الكتاب، لقوله صلى الله عليه وسلم " رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الكتاب آمَنَ بِنَبِيِّهِ " ومن لم يكن على ما جاء به نبيه فإنه لم يؤمن به.

قال القرطبي رحمه الله:" وأما من اعتقد الإلهية لغير الله تعالى كما تعتقده النصارى اليوم، أو مَن لم يكن على حق في ذلك الشرع الذي ينتمي إليه، فإذا أسلم جبَّ الإسلام ما كان عليه من الفساد والغلط، ولم يكن له حق يؤجر عليه إلا الإسلام خاصة والله أعلم". (المفهم :١/ ٣٦٩).

(٣) انظر تفسيره: ٢٤٤/١-٢٤٥، ذكرا خبرا عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، " والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون " : هؤلاء المؤمنون من أهل الكتاب.(تفسير الطبري: ٢٤٥/١).

(٤) انظر تفسيره: ١٧٠/١.

(٥) انظر تفسير ابن كثير: ١٧١/١.

(٦) صفوة التفاسير: ١٢٦/١.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(٨٠):ص٣٨/١.

قال ابن عباس:أي يصدقونك بما"جاء به من قبلك من المرسلين، لا يفرقون بينهم ولا يجحدون بما جاءوهم به من ربهم"[٢].
وقال قتادة:" فآمنوا بالفرقان وبالكتب التي قد خلت قبله من التوراة والزبور والإنجيل"[٣].
قوله تعالى:{وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ }[البقرة:٤]، "أي وبالبعث والنشر هم عالمون"[٤].
قال الثعلبي: أي:"يعلمون ويتيقنون أنها كائنة"[٥].
قال الصابوني:" أي ويعتقدون اعتقاداً جازماً لا يلابسه شك أو ارتياب بالدار الآخرة التي تتلو الدنيا، بما فيها من بعثٍ وجزاءٍ، وجنةٍ، ونار، وحساب، وميزان"[٦].
قال ابن عباس:" أي بالبعث والقيامة والجنة والنار والحساب والميزان"[٧].
وقال أهل العلم :" ودخل (هُمْ) تأكيدا، يسمّيه الكوفيون عمادا والبصريون فصلا"[٨].
وذكروا في تفسير قوله تعالى{وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ}، وجهين[٩]:
أحدهما: يعني الدار الآخرة .
والثاني: يعني النشأة الآخرة.
قال الماوردي: وقوله :{يُوقِنُونَ}، أي يعلمون ، فسمي العلم يقيناً لوقوعه عن دليل صار به يقيناً"[١٠].
و(اليقين): هو العِلم وإزاحة الشكِّ، وتحقيق الأمر[١١]. وربما عبروا باليقين عن الظن، ومنه قول علمائنا في اليمين اللغو: هو أن يحلف بالله على أمر يوقنه ثم يتبين له أنه خلاف ذلك فلا شي عليه، قال الشاعر[١٢]:
تحسب هواس وأيقن أنني بها مفتد من واحد لا أغامره
يقول: تشمم الأسد ناقتي، يظن أنني مفتد بها منه، وأستحمي نفسي فأتركها له ولا أقتحم المهالك بمقاتلته[١٣].
وعرفه الأصفهاني بقوله: "هو سكون الفهم مع ثبات الحكم"[١٤].
وقال ابن الجوزي: "اليقين ما حصلت به الثقة وثلج به الصدر وهو أبلغ علم مكتسب"[١٥].
قال الجرجاني في تعريف اليقين: هو" طُمأنينة القَلب، على حقيقة الشيءِ وتحقيق التصديق بالغَيْب، بإزالة كلِّ شكٍّ ورَيْب"[١٦].
وفي اليقين لابن أبي الدُّنيا من طِريق العلاء بن عُتْبة: أنَّ النبي صلَّى الله عليه وسلَّم قال: "اللهمَّ إني أسألك إيمانًا تباشِر به قلْبي، ويَقِينًا حتى أعلمَ أنه لا يمنعني رزقًا قسمتَه لي، ورضًا من المعيشة بما قسمتَ لي"[١٧].

---

(١) صفوة التفاسير: ١/١٢٦.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٨٠):ص١/٣٨.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٨١):ص١/٣٨.
(٤) تفسير القرطبي: ١/١٨٠.
(٥) تفسير الثعلبي:١/١٤٩.
(٦) صفوة التفاسير: ١/١٢٦.
(٧)أخرجه ابن أبي حاتم(٨٢):ص١/٣٨.
(٨) تفسير الثعلبي:١/١٤٩.
(٩) أنظر: النكت والعيون: ١/٧٠-٧١.
(١٠) النكت والعيون: ١/٧١.
(١١) أنظر: لسان العرب، وتاج العروس: (يقن).
(١٢) أنظر: شرح الرضي على الكافية: ١/٣٣٢، وتفسير القرطبي:١/١٨٠، قال البغدادي نقلا عن الجرمي أنها لابي سدرة الاعرابي وهو شاعر اسلامي معاصر لجرير والفرزدق
وهواس من أسماء الاسد، ومعناه أن هذا الاسد حسب أو أيقن أنني أتركه يفترس الناقة وأفتدي نفسي بها وأني لا أغامره ولا أقاتله.
فاجبته داعيا عليه وقلت له انها ناقة انسان سيقربك ما تخشاه أي الموت.
(١٣) أنظر: تفسير القرطبي: ١/١٨٠.
(١٤)مفردات القرآن: ١/ ١٦٣٢.
(١٥)زاد المسير: ١/ ٢٧.
(١٦)التعريفات، باب الياء (اليقين) ١/ ٨٥.
(١٧)ابن أبي الدنيا، اليقين ص: ٢٥.

وقد وردتْ مادة(يَقِنَ) في القرآن الكريم في عِشرين آية باشتقاقات مختلِفة، موزَّعة على أرْبعَ عشرةَ سورة[1].

قال ابن عثيمين:" وإنما نص على الإيقان بالآخرة مع دخوله في الإيمان بالغيب لأهميته؛ لأن الإيمان بها يحمل على فعل المأمور، وترك المحظور؛ و "الإيقان" هو الإيمان الذي لا يتطرق إليه شك"[2].

وقوله تعالى:{اليوم الآخر}، هو يوم القيامة، و"الآخرة اسم لما يكون بعد الموت، وخصه بالذكر بعد العموم، لأن الإيمان باليوم الآخر أحد أركان الإيمان، ولأنه أعظم باعث على الرغبة والرهبة والعمل، واليقين : هو العلم التام الذي ليس فيه أدنى شك، والموجب للعمل"[3].

وفي تسميتها بـ(اليوم الآخر)، أقوال:

أحدها: لأنه اليوم الذي لا يوم بعده[4]، قال الطبري: قال أبو جعفر: أمّا الآخرة، فإنّها صفةٌ للدّار، كما قال جلّ ثناؤه} :وإنّ الدّار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون{وإنّما وصفت بذلك لمصيرها آخرةً لأولى كانت قبلها كما تقول للرّجل: أنعمت عليك مرّةً بعد أخرى فلم تشكر لي الأولى ولا الآخرة. وإنّما صارت الآخرة آخرةً للأولى، لتقدّم الأولى أمامها، فكذلك الدّار الآخرة سمّيت آخرةً لتقدّم الدّار الأولى أمامها، فصارت التّالية لها آخرةً. وقد يجوز أن تكون سمّيت آخرةً لتأخّرها عن الخلق، كما سمّيت الدّنيا دنيا لدنوّها من الخلق"[5].

والثاني: وقيل لتأخرها من الناس، قَالَ النحّاسُ (ت: ٣٣٨هـ) :"ثم قال تعالى:{وبالآخرة هم يوقنون} سميت "آخرة" لأنها بعد "أولى"، وقيل: لتأخرها من الناس، وجمعها (أواخر)"[6].

والثالث: وقيل لأنها بعد الدنيا، قالَ ابن كثير(ت: ٧٧٤ هـ) : "وإنّما سمّيت الآخرة لأنّها بعد الدّنيا"[7].

الفوائد:

١- من فوائد الآية: أن من أوصاف المتقين الإيمان بما أنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم وما أنزل من قبله.

٢- ومنها: أن من أوصاف المتقين الإيقان بالآخرة على ما سبق بيانه في التفسير.

٣- ومنها: أهمية الإيمان بالآخرة؛ لأن الإيمان بها هو الذي يبعث على العمل؛ ولهذا يقرن الله تعالى دائماً الإيمان به عزّ وجلّ، وباليوم الآخر؛ أما من لم يؤمن بالآخرة فليس لديه باعث على العمل؛ إنما يعمل لدنياه فقط: يعتدي ما دام يرى أن ذلك مصلحة في دنياه: يسرق مثلاً؛ يتمتع بشهوته؛ يكذب؛ يغش..؛ لأنه لا يؤمن بالآخرة؛ فالإيمان بالآخرة حقيقة هو الباعث على العمل.

٤- قال أهل العلم: و"اليقين ينتظم منه أمران: علم القلب وعمل القلب، فإن العبد قد يعلم علما جازما بأمر ومع هذا فيكون في قلبه حركة واختلاج من العمل الذي يقتضيه ذلك العلم كعلم العبد أن الله رب كل شيء ومليكه ولا خالق غيره، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن فهذا قد تصحبه الطمأنينة إلى الله والتوكل عليه وقد لا يصحبه العمل بذلك، إما لغفلة القلب عن هذا العلم والغفلة هي ضد العلم التام وإن لم يكن ضدا لأصل العلم، وأما للخواطر التي تسنح في القلب من الالتفات إلى الأسباب وإما لغير ذلك"[8].

وهذا اليقين يحصل بثلاثة أشياء كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-:

أحدها: تدبر القرآن الكريم.

---

(١) أنظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد صدقي العطار، (حرف الياء).
وعند التأمُّل في هذه الآيات نجد أنَّ مفهوم (اليقين) يختلِف معناه باختلاف مَظانّه داخلَ النسق القرآني، فجاء اللفظ بمعنى:
اولا: لعِلم الجازم الذي لا يَقبل التشكيك؛ قال تعالى :{إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ}]الواقعة: ٩٥]، وقال أيضًا :{وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ}]الحاقة: ٥١].
ثانيا: اليقين :الموت؛ قال سبحانه :{وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ}]الحجر: ٩٩].

(٢) تفسير ابن عثيمين:٣١/١.

(٣) تفسير السعدي: ٣٧/١.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ٢٤٥/١.

(٥) انظر: المصدر نفسه والصحيفة نفسها.

(٦) معاني القرآن: ٨٥/١.

(٧) تفسير ابن كثير: ١٧٠/١-١٧١.

(٨)مجموع الفتاوى: ٣/ ٣٢٩.

والثاني: تدبر الآيات التي يحدثها الله في الأنفس والآفاق التي تبين أنه حق.
والثالث العمل بموجب العلم قال تعالى: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [فصلت: ٥٣][١].

القرآن
{أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [البقرة : ٥]
التفسير:
أولئك المتقون وهم "المتصفون بما تقدم من الإيمان بالغيب وإقام الصلاة والإنفاق من الذي رزقهم الله والإيمان بما أنزل إلى الرسول ومن قبله من الرسل والإيقان بالدار الآخرة وهو مستلزم الاستعداد لها من الأعمال الصالحة وترك المحرمات

قوله تعالى: { أُولَئِكَ }[البقرة:٥]،أي:"المشار إليه ما تقدم ممن اتصفوا بالصفات الخمس؛ وأشار إليهم بصيغة البعد لعلوّ مرتبتهم"[٢].

قال الثعلبي:" {أُولَئِكَ}: أهل هذه الصفة، و(أولاء): اسم مبني على الكسر، ولا واحد له من لفظه، والكاف خطاب"[٣].

قوله تعالى:{عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ}[البقرة:٤]، أي: على" نور وبيان وبصيرة من الله تعالى"[٤].

قال ابن عباس: " أي على نور من ربهم ، واستقامة على ما جاءهم"[٥].

وقال سعيد بن جبير:أي: " على بينة من ربهم"[٦].

وعن قتادة:" {أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون}، قال: قوم استحقوا الهدى والفلاح بحق، فأحقه الله لهم، وهذا نعت أهل الإيمان"[٧].

قال الطبري: أي" أنهم على نور من ربهم وبرهان واستقامة وسداد ، بتسديد الله إياهم ، وتوفيقه لهم"[٨].

وقال الثعلبي: أي: على: رشد وبيان وصواب"[٩].

قال ابن عثيمين: " أي على علم، وتوفيق من خالقهم المدبر لأمورهم"[١٠].

وقوله تعالى:{ مِن رَّبِّهِمْ }أي:"أوتوه من عنده"[١١].

قال الزمخشري: " والنون في : {من ربهم} أدغمت بغنة وبغير غنة. فالكسائى ، وحمزة ، ويزيد، وورش في رواية والهاشمي عن ابن كثير لم يغنوها. وقد أغنها الباقون إلا أبا عمرو، فقد روى عنه فيها روايتان"[١٢].

قال النسفي: " ويجعل اختصاصهم بالهدى والفلاح تعريضاً بأهل الكتاب الذين لا يؤمنون بنبوة رسول الله صلى الله عليه وسلّم وهم ظانون أنهم على الهدى وطامعون أنهم ينالون الفلاح عند الله، ومعنى الاستعلاء في " على هدى " مثل لتمكنهم من الهدى واستقرارهم عليه وتمسكهم به بحيث شبهت حالهم بحال من اعتلى الشيء وركبه نحوه " هو على الحق وعلى الباطل وقد صرحوا بذلك في قولهم : جعل الغواية مركباً ، وامتطى الجهل ، واقتعد غارب الهوى"[١٣].

---

(١) أنظر: مجموع الفتاوى: ٣٣١/٣.
(٢) تفسير ابن عثيمين:٣١/١.
(٣) تفسير الثعلبي: ١٤٩/١.
(٤) صفوة التفاسير: ١٧١/١.
(٥) أخرجه الطبري(٢٩٣):ص٢٤٩/١-٢٥٠، وابن أبي حاتم(٨٤):ص٣٩/١.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(٨٥):ص٣٩/١.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(٩٠):ص٤٠/١.
(٨) تفسير الطبري: ٢٤٩/١.
(٩) تفسير الثعلبي: ١٤٩/١.
(١٠) تفسير ابن عثيمين: ٣١/١.
(١١) تفسير النسفي: ٣٨/١.
(١٢) تفسير الكشاف: ٤٥/١.
(١٣) تفسير النسفي: ٣٨/١.

وقوله تعالى: "{على} للاستعلاء؛ وتفيد علوهم على هذا الهدى، وسيرهم عليه، كأنهم يسيرون على طريق واضح بيّن؛ فليس عندهم شك؛ تجدهم يُقبلون على الأعمال الصالحة وكأن سراجاً أمامهم يهتدون به: تجدهم مثلاً ينظرون في أسرار شريعة الله، وحِكَمها، فيعلمون منها ما يخفى على كثير من الناس؛ وتجدهم أيضاً عندما ينظرون إلى القضاء والقدر كأنما يشاهدون الأمر في مصلحتهم حتى وإن أصيبوا بما يضرهم أو يسوءهم، يرون أن ذلك من مصلحتهم؛ لأن الله قد أنار لهم الطريق؛ فهم على هدًى من ربهم وكأن الهدى مركب ينجون به من الهلاك، أو سفينة ينجون بها من الغرق؛ فهم متمكنون غاية التمكن من الهدى؛ لأنهم عليه، والربوبية هنا خاصة متضمنة للتربية الخاصة التي فيها سعادة الدنيا، والآخرة"[١].

قوله تعالى:{وأولئك هُمُ المفلحون}[البقرة:٤]، "أي وأولئك هم الفائزون بالدرجات العالية في جنات النعيم"[٢].

قال ابن عباس:" أي: الذين أدْركوا ما طلبوا ، ونجَوْا من شرّ ما منه هَرَبُوا"[٣].

قال ابن كثير: " أي : في الدنيا والآخرة"[٤].

قال الثعلبي:" وهم الناجون الفائزون فازوا بالجنّة ونجوا من النار"[٥].

قال البغوي: أي: فهم الناجون والفائزون، فازوا بالجنة ونجوا من النار، ويكون الفلاح بمعنى البقاء أي باقون في النعيم المقيم[٦].

قال الطبري:" أي: أولئك هم المنجحون المدركون ما طلبوا عند الله تعالى ذكره بأعمالهم وإيمانهم بالله وكتبه ورسله ، من الفوز بالثواب ، والخلود في الجنان ، والنجاة مما أعد الله تبارك وتعالى لأعدائه من العقاب"[٧].

قال الزمخشري:" وفي تكرير {أولئك} تنبيه على أنهم كما ثبتت لهم الأثرة بالهدى ، فهي ثابتة لهم بالفلاح فجعلت كل واحدة من الأثرتين في تمييزهم بالمثابة التي لو انفردت كفت مميزة على حيالها"[٨].

وقال ابن عثيمين:" وأعيد اسم الإشارة تأكيداً لما يفيده اسم الإشارة الأول من علوّ المرتبة، والعناية التامة بهم كأنهم حضروا بين يدي المتكلم؛ وفيه الفصل بين الغاية، والوسيلة؛ فالغاية: الفلاح؛ ووسيلته: ما سبق، و «الفلاح» هو الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب؛ فهي كلمة جامعة لانتفاء جميع الشرور، وحصول جميع الخير"[٩].

والفلاح هو الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب، وحصر الفلاح فيهم؛ لأنه لا سبيل إلى الفلاح إلا بسلوك سبيلهم، وما عدا تلك السبل، فهي سبل الشقاء والهلاك والخسار التي تفضي بسالكها إلى الهلاك[١٠].

وأصل الفلاح: القطع والشق ومنه سمي الزراع فلاحا لأنه يشق الأرض، وقيل لأهل الجنة مفلحون لفوزهم ببقاء الأبد، وفلاح الدهر: بقاؤه، يقال: لا أفعل ذلك فلاح الدهر [١١].

واختلف في تفسير (الفلاح) في قوله تعالى:{ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[البقرة:٥]، على ثلاثة أقوال[١٢]:

أحدها: أن (الفلاح): هو الظفر بالبغية وإدراك الأمل، ومنه قول لبيد[١٣]:

اعْقِلِي, إنْ كُنْتِ لَمَّا تَعْقِلِي   وَلَقَدْ أَفْلَحَ مَنْ كَانَ عَقَلْ

يعني ظَفِر بحاجته وأصابَ خيرًا.

---

(١) تفسير ابن عثيمين:٣١/١.

(٢) صفوة التفاسير: ٢٦/١.

(٣) أخرجه الطبري (٢٩٤):ص ٢٥٠/١، وابن أبي حاتم(٨٨):ص٣٩/١.

(٤) صفوة التفاسير: ١٧١/١.

(٥) تفسير الثعلبي: ١٤٩/١.

(٦) تفسير البغوي: ٦٣/١.

(٧) تفسير الطبري: ٢٥٠/١.

(٨) الكشاف: ٤٥/١.

(٩) تفسير الطبري: ٣٢/١.

(١٠) تفسير السعدي: ٤٠/١.

(١١) انظر: لسان العرب:: مادة (ف ل ح).

(١٢) أنظر: تفسير الطبري: ٢٥٠/١، والمحرر الوجي: ٨٦/١.

(١٣)ديوانه ٢ : ١٢ ، والخطاب في البيت لصاحبته.

ومنه قول الراجز(١):

عَـدِمتُ أُمًّا ولَـدتْ رِياحَـا   جَاءَتْ بِهِ مُفَرْكَحًا فِرْكَاحَا
تَحْسِـبُ أنْ قدْ ولَـدَتْ نَجَاحَـا!   أشْـهَدُ لا يَزِيدُهَـا فَلاحَا

يعني: "خيرًا وقربًا من حاجتها. والفلاحُ مصدر من قولك: أفلح فلان يُفلح إفلاحًا وفلاحًا وفَلَحًا"(٢)، قال الزمخشري: " والمفلح : الفائز بالبغية كأنه الذي انفتحت له وجوه الظفر ولم تستغلق عليه. والمفلج - بالجيم - مثله. ومنه قولهم المطلقة : استفلحى بأمرك بالحاء والجيم"(٣).

والثاني: وقيل: الفلاح: هو البقاء، وقد ورد ذلك في كلام العرب أشعار، ومن ذلك قول لبيد(٤):

نَحُلُّ بِلادًا ، كُلُّهَا حُلَّ قَبْلَنَا   وَنَرْجُو الفَلاحَ بَعْدَ عَادٍ وَحِمْيَرِ

يريد البقاء ، ومنه أيضًا قول عَبيد(٥) :

أَفْلِحَ بِمَا شِئْتَ ، فَقَدْ يُدْرَكُ بِالضَّـ   ـعْفِ ، وَقَدْ يُخْدَعُ الأَرِيبُ

يريد:عش وابقَ بما شئت ، وكذلك قول نابغة بني ذبيان(٦) :

وَكُلُّ فَتًى سَتَشْعَبُهُ شَعُوبٌ   وَإِنْ أَثْرَى ، وَإِنْ لاقَى فَلاحًا

أي نجاحًا بحاجته وبَقاءً(٧).

ومنه قول الأضبط(٨):

لكلّ همّ من الهموم سعه   والصّبح والمسى لا فلاح معه

قال ابن عطية: "والبقاء يعمه إدراك الأمل والظفر بالبغية، إذ هو رأس ذلك وملاكه، وحكى الخليل (الفلاح)(٩) على المعنيين"(١٠).

الثالث: وقيل: المفلح: هو المقطوع له بالخير(١١)، لأن الفلح في كلامهم القطع(١٢)، وكذلك قيل للأكار فلاح ، لأنه يشق الأرض ، وقد قال الشاعر(١٣):

لَقَدْ عَلِمتَ يا ابنَ أُمِّ صحصحْ   أن الحديدَ بالحديدِ يُفلحْ

أي:"يُشَقُّ ويُقطع"(١٤).

---

(١)البيت الثاني في اللسان(فركح)،والبيتين من شواهد الطبري في تفسيره: ٢٥٠/١، والفركحة : تباعد ما بين الأليتين . والفركاح والمفركح منه ، يعني به الذم وأنه لا يطيق حمل ما يحمَّل في حرب أو مأثرة تبقى.
(٢) تفسير الطبري: ٢٥٠/١.
(٣) الكشاف: ٤٦/١.
(٤)ديوانه القصيدة رقم : ١٤ ، يرثى من هلك من قومه .
(٥)ديوانه : ٧ ، وفي المطبوعة والديوان " فقد يبلغ " ، وهما روايتان مشهورتان .
(٦)البيت ذكره الطبري في تفسيره: ٢٥٠/١، وهو من قصيدة ليست في زيادات ديوانه منها إلا أبيات ثلاثة ، ليس هذا أحدها . وشعوب : اسم للمنية والموت ، غير مصروف ، لأنها تشعب الناس ، أي تصدعهم وتفرقهم . وشعبته شعوب : أي حطمته من ألافه فذهبت به وهلك .
(٧) أنظر: تفسير الطبري: ٢٥٠/١.
(٨) أنظر: البيان والتبيين للجاحظ: ٣٤١/٣. لأضبط بن قريع بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم"، فهو من "بني تميم". وقد عدّ في المعمرين، والبيت من أبيات له، أوردها القالي في أماليه عن ابن دريد عن ابن الأنباري عن ثعلب، قال: قال ثعلب: بلغني أنها قيلت قبل الإسلام بدهر طويل. أنظر: السجستاني: "٨"، البيان والتبيين "٣/ ٣٤١"، الأغاني "١٦/ ١٥٤ وما بعدها"، الأمالي "١/ ١٠٧"، الخزانة "٤/ ٥٨٩"، المثل السائر "١/ ٢٦"، مجالس ثعلب "٤٨٠".
(٩) قال الخليل: الفلاح والفلح لغة: البقاء في الخير، وفلاح الدهر: بقاؤه، وحيّ على الفلاح، أي: هلمّ على بقاء الخير، وفي الشعر فلح، قال[عمرو بن معد يكرب، ديوانه: ٤٧، وأنظر: التهذيب:٥٨١/١٥، واللسان(فيص)]:
أخبر المخبر عنكم أنكم   يوم فيف الريح أبتم بالفلح
أريد به الفلاح فقصر".[العين: (فلح(:ص٣٣٦/٣].
(١٠) المحرر الوجيز: ٨٦/١.
(١١) أنظر: النكت والعيون: ٧١/١.
(١٢) أنظر: اللسان، وتاج العروس، ومختار الصحاح (فلح).
(١٣) لم أتعرف على قائله، والبيت في اللسان، والعين، وشمس العلوم، للحميري، مادة(فلح)، وأنظر: النكت والعيون: ٧١/١، والبيت في المحكم:٢٦٦/٣، بلا نسبة.
(١٤) أنظر: اللسان(فلح).

وتجدر الإشارة بأن الفلاح مرتب على الاتصاف بهذه الصفات، فإن اختلت صفة منها نقص من الفلاح بقدر ما اختل من تلك الصفات، لأن من عقيدة أهل السنة والجماعة أن الإيمان يزيد وينقص(1)، ولولا ذلك ما كان في الجنات درجات .

واختلف فيمن أُرِيدَ بهم ، على أربعة أوجه(2):

أحدها: المؤمنون بالغيب من العرب ، والمؤمنون بما أنزل على محمد، وعلى من قبله من سائر الأنبياء هم مؤمنوا أهل الكتاب. قاله ابن مسعود(3).

والثاني: هم مؤمنو العرب وحدهم(4) .

والثالث: جميع المؤمنين. قاله أبو العالية(5).

والرابع:وقيل: "هم مؤمنو أهل الكتاب الذين صدقوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به ، وكانوا مؤمنين من قبل بسائر الأنبياء والكتب"(6).

والراجح هو قول ابن مسعود:" لأن الله جل ثناؤه نعت الفريقين بنعتهم المحمود ، ثم أثنى عليهم، فلم يكن عز وجل ليخص أحد الفريقين بالثناء ، مع تساويهما فيما استحقا به الثناء من الصفات. كما غير جائز في عدله أن يتساويا فيما يستحقان به الجزاء من الأعمال ، فيخص أحدهما بالجزاء دون الآخر، ويحرم الآخر جزاء عمله. فكذلك سبيل الثناء بالأعمال ، لأن الثناء أحد أقسام الجزاء"(7).

الفوائد:

١- من فوائد الآية: سلامة هؤلاء في منهجهم؛ لقوله تعالى: {أولئك على هدًى من ربهم}.

٢- ومنها: أن ربوبية الله عزّ وجلّ تكون خاصة، وعامة؛ وقد اجتمعا في قوله تعالى عن سحرة فرعون: {آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون} {الأعراف: ١٢١، ١٢٢}.

٣- ومنها: أن مآل هؤلاء هو الفلاح؛ لقوله تعالى:{وأولئك هم المفلحون}.

٤- ومنها: أن الفلاح مرتب على الاتصاف بما ذُكر؛ فإن اختلّت صفة منها نقص من الفلاح بقدر ما اختل من تلك الصفات؛ لأن الصحيح من قول أهل السنة والجماعة، والذي دلّ عليه العقل والنقل، أن الإيمان يزيد، وينقص، ويتجزأ؛ ولولا ذلك ما كان في الجنات درجات:هناك رتب كما جاء في الحديث: "إن أهل الجنة ليتراءون أصحاب الغرف كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق؛ قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال صلى الله عليه وسلم لا؛ والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين"(1) ، أي ليست خاصة بالأنبياء

القرآن

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦)} [البقرة : ٦].

---

(١)أجمع أهل السنة والجماعة على أن الإيمان يزيد وينقص، ومن النصوص الصريحة التي استند إليها الإجماع في الحكم بزيادة الإيمان؛ قوله تعالى:(أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا)(التوبة:١٢٤)، فهذه الآية من جملة أدلة صريحة في زيادة الإيمان، وجاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال [لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ولا ينهب نُهبة ذات شرف يرفع الناس إليه فيها بأبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن). متفق عليه:رواه البخاري: (٢٤٧٥)، ومسلم (٥٧)، فنفى عنه كمال الإيمان الواجب بفعل هذه الكبائر مما دل على نقص الإيمان بفعلها وهكذا كل ما ورد من نفي كمال الإيمان الواجب أو المستحب تدل على زيادته ومن ثمَّ نقصانه.

(٢) أنظر: تفسير الطبري: ٢٤٨/١-٢٤٩، والنكت والعيون: ٧١/١.

(٣) أنظر: تفسير الطبري(٢٦٢):ص٢٤٧/١.

(٤) أنظر: النكت والعيون: ٧١/١.

(٥) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٨٧):ص٣٩/١. ولفظه:" هذه الأربع الآيات من فاتحة السورة- في المؤمنين".

(٦) تفسير الطبري: ٢٤٨/١.

(٧) تفسير الطبري: ٢٤٩/١.

(١) أخرجه البخاري ص٢٦٣، كتاب بدء الخلق، باب ٨: ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، حديث رقم ٣٢٥٦؛ وأخرجه مسلم ص١١٧٠، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب ٣: ترائي أهل الجنة أهل الغرف كما يرى الكوكب في السماء، حديث رقم ٧١٤٤ [١١] ٢٨٣١.

التفسير:

إن الذين جحدوا ما أُنزل إليك من ربك استكبارًا وطغيانًا، لن يقع منهم الإيمان، سواء أخوَّفتهم وحذرتهم من عذاب الله، أم تركت ذلك؛ لإصرارهم على باطلهم.

اختلف أهل التفسير في سبب نزول هذه الآية على أقوال[١]:

أحدها: أنها "نزلت في أبي جهل وخمسة من أهل بيته". قاله الضحاك[٢].

والثاني: وقيل نزلت في اليهود. قاله ابن عباس[٣]، والكلبي[٤]،واختاره الطبري[٥].

والثالث: وقيل: "نزلت في أهل القليب[٦] قليب بدر. منهم أبو جهل، وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة وعقبة بن أبي معيط والوليد بن المغيرة"[٧]، حكي ذلك عن الربيع[٨].

قال ابن حجر: "وكذا حكاه أبو حيان ولم ينسبه لقائل[٩]، وأقره، وفيه خطأ لأن الوليد بن المغيرة مات بمكة قبل الهجرة[١٠]، وعقبة بن أبي معيط إنما قتل بعد رحيل المسلمين من بدر راجعين إلى المدينة قتل بأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالصفراء باتفاق أهل العلم بالمغازي"[١١].

الرابع: وقال أبو العالية: "نزلت في قادة الأحزاب، وهم الذين قال الله تعالى فيهم: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ}"[١٢].

والخامس:وقيل: أنها "أنزلت في مشركي العرب من قريش وغيرهم"[١٣].

السادس:وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرص أن يؤمن جميع الناس ويبايعوه على الهدى، فأخبره الله تعالى أنه لا يؤمن إلا مَنْ سبقت له السعادة في الذّكْر الأول، ولا

---

(١) نظر: أسباب النزول للواحدي: ٢١-٢٢، والعجاب في بيان الأسباب لابن حجر: ١/٢٣٠-٢٣٢.

(٢)أخرج ابن إسحاق ومن طريقه ابن جرير (٨٤/١) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن صدر سورة البقرة إلى المائة منها نزل في رجال سماهم بأعيانهم وأنسابهم من أحبار يهود ومن المنافقين من الأوس والخزرج. وإسناد ابن إسحاق حسن.

(٣) أنظر: تفسير الطبري(٢٩٥)، و(٢٩٦):ص٢٥١/١، وابن أبي حاتم(٩٤):ص٤١/١، والخبر في سيرة ابن هشام القسم الأول:٥٣١، في :فصل الأعداء من يهود، دون سند، وابن كثير في تفسيره:١/ ٤٥، والسيوطي في:الدر المنثور:١/ ٢٩، والشوكاني في "فتح الباري" في "فتح القدير:١/ ٢٨.

(٤) أنظر: اسباب النزول للواحدي: ٢١.

(٥) أنظر: تفسير الطبري: ٢٥٢/١.

(٦)في "القاموس" مادة قلب" "ص١٦٣": "القليب: البئر، أو العادية القديمة منها، ويؤنث".

(٧) أنظر: البحر المحيط: ٥٠/١.، والعجاب في بيان الأسباب: ٢٢٩/١-٢٣٠.

(٨) أنظر: تفسير الطبري(٢٩٨):ص٢٢/١.

(٩)أصل القول دون ذكر الأسماء مروي بالسند عن الربيع بن أنس كما في تفسير الطبري "٢٥٢/ ١" ونصه: "آيتان في قادة الأحزاب: إن الذين كفروا ... فهم الذين قتلوا يوم بدر". قال ابن عطية في "١٥٢/ ١": هكذا حكي هذا القول، وهو خطأ؛ لأن قادة الأحزاب قد أسلم كثير منهم، وإنما نزلت ترتيب الآية في أصحاب القلب ... " وعلة تخطئته لهذا القول انصراف ذهنه إلى غزوة الخندق -والله أعلم- وليس هذا بلازم، فالمقصود من الأحزاب هنا المشركون الذين تحزبوا على المسلمين في بدر، وهذا قول أبي العالية، ويرويه عنه الربيع كما في "تفسير ابن كثير" "١/ ٤٥".[حاشية العجاب: ١/ ٢١٠].

(١٠)قال ابن إسحاق في كلامه على كفاية الله نبيه أمر المستهزئين: "حدثني يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير، أو غيره من العلماء: أن جبريل أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم يطوفون بالبيت فقام وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنبه فمر به الأسود بن المطلب، فرمى في وجهه بورقة خضراء فعمي، ومر به الأسود بن عبد يغوث، فأشار إلى بطنه، فاستسقى بطنه فمات منه حبنا [هو انتفاخ البطن من داء] ، ومر به الوليد بن المغيرة، فأشار إلى أثر جرح بأسفل كعب رجله، كان أصابه قبل ذلك بسنين، وهو يجر سَبَله [أي: فضول ثيابه] وذلك أنه مر برجل من خزاعة وهو يريش نبلًا له، فتعلق سهم من نبله بإزاره فخدش في رجله ذلك الخدش، وليس بشيء، فانتقض به [أي: تجدد] فقتله ... " انظر "سيرة ابن هشام" "١/ ٤١٠".

(١١) العجاب في بيان الأسباب: ٢٣٠/١. والذي في سيرة ابن هشام "١/ ٦٤٤" ما يلي: "قال ابن إسحاق: حتى إذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصفراء قتل النضر بن الحارث، ثم خرج حتى إذا كان بعرق الظبية قتل عقبة بن أبي معيط. قال ابن هشام: عرق الظنية عن غير ابن إسحاق" ا. هـ باختصار.

ولا يمكن قبول هذا السبب لأن الآية تدل على أنها نزلت في كفار أحياء لا أموات!

(١٢)ذكره أبو حيان في "البحر" "١/ ٥٠" وتسلسله عنده الثاني وهو نفس القول الماضي الذي ذكره برقم الرابع، وكل ما هنالك أنه قسمه إلى قسمين: قادة الأحزاب وأصحاب القليب، وفي هذا نظر. والآية من سورة إبراهيم "٢٨".

(١٣) البحر المحيط: ٥٠/١، والعجاب: ٢٣١/١.

يضل إلا من سبق له من الله الشقاءُ في الذكر الأول"(١). قال ابن حجر: "وحاصله أنها خاصة بمن قدر الله تعالى أنه لا يؤمن"(٢).

واختار القول الأخير القرطبي (٣)، وإليه مال ابن عطية، فقد حكاه أولًا ثم قال: "والقول الأول مما حكيناه هو المعتمد عليه، وكل من عين أحدًا فإنما مثّل بمن كشف الغيب -بموته على الكفر- أنه في ضمن الآية "(٤)، وهذا يعني أن الآية هي عامة، ومعناها الخصوص فيمن سبقت عليه كلمة العذاب، وسبق في علم الله أنه يموت على كفره، أراد الله أن يعلم الناس أن فيهم من هذا حاله دون أن يعين أحداً.

قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا}[البقرة:٦]، " أي: إن الذين جحدوا بآيات الله وكذبوا رسالة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم"(٥).

قال ابن عباس:" أي بما أنزل إليك، وإن قالوا إنا قد آمنا بما جاءنا قبلك"(٦).

وأصْلُ (الكفر) عند العرب : تَغطيةُ الشيء، ولذلك سمَّوا الليل " كافرًا "، لتغطية ظُلمته ما لبِسَته، كما قال الشاعر(٧) :

فَتَذَكَّرَا ثَقَلا رَثِيدًا، بَعْدَ مَا ... أَلْقَتْ ذُكاءُ يَمِينَهَا في كافِرِ

وقال لبيدُ بن ربيعة(٨):

يَعْلُو طَرِيقَة مَتْنِهَا مُتَوَاتِرًا ... فِي لَيْلَةٍ كَفَرَ النُّجُومُ غَمَامُهَا

يعني غَطَّاها، فكذلك الذين جحدوا النبوّة من الأحبار من اليهود غَطَّوا أمر محمد صلى الله عليه وسلم وكَتَمُوه الناسَ - مع علمهم بنبوّته، ووُجُودِهم صِفَتَه في كُتُبهم - فقال الله جل ثناؤه فيهم : {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاعِنُونَ} [سورة البقرة : ١٥٩]، وهم الذين أنزل الله عز وجل فيهم :{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ}(٩).

قوله تعالى:{ سَوَا ءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ}[البقرة:٦]، "أي: سواءٌ أحذرتهم يا محمد بن عذاب الله وخوفتهم منه أم لم تحذرهم، لا يصدقون بما جئتهم به"(١٠).

قال ابن عباس:" أي: أنهم قد كفروا بما عندهم من ذكرك وجحدوا ما أخذ عليهم من الميثاق فقد كفروا بما جاءك، وبما عندهم مما جاءهم به غيرك، فكيف يسمعون منك إنذارا وتحذيرا، وقد كفروا بما عندهم من علمك"(١).

---

(١)أخرجه الطبري(٢٩٧):ص٢٥٢/١، وهو عند ابن كثير "١/ ٤٥" والسيوطي "١/ ٢٨-٢٩" والشوكاني "١/ ٢٨" ونسباه إلى ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه والبيهقي ولم أجده في "تفسير ابن أبي حاتم"، هذا، وقد تصرف ابن حجر في النقل بالاختصار.

(٢) العجاب في بيان الأسباب: ٢٣٢/١.

(٣) انظر: تفسير القرطبي: ١٨٤/١.

(٤) المحرر الوجيز: ٨٧/١. قال ابن عطية: واختلف فيمن نزلت هذه الآية بعد الاتفاق على أنها غير عامة لوجود الكفار قد أسلموا بعدها.

- فقال قوم هي فيمن سبق في علم الله أنه لا يؤمن أراد الله تعالى أن يعلم أن في الناس من هذه حاله دون أن يعين أحد.

- وقال ابن عباس نزلت هذه الآية في حيي بن أخطب وأبي ياسر وابن الأشرف ونظرائهم.

- وقال الربيع بن أنس نزلت في قادة الأحزاب وهم أهل القليب ببدر قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه هكذا حكي هذا القول وهو خطأ لأن قادة الأحزاب قد أسلم كثير منهم وإنما ترتيب الآية في أصحاب القليب والقول الأول مما حكيناه هو المعتمد عليه وكل من عين أحدا فإنما مثل بمن كشف الغيب بموته على الكفر أنه في ضمن الآية.(المحرر الوجيز: ٨٧/١).

(٥) صفوة التفاسير: ٢٧/١.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(٩٢):ص٤٠/١.

(٧)الشعر لثعلبة بن صعير المازني ، شرح المفضليات : ٢٥٧ . والضمير في قوله " فتذكرا " للنعامة والظليم . والثقل : بيض النعام المصون ، والعرب تقول لكل شيء نفيس خطير مصون : ثقل . ورثد المتاع وغيره فهو مرثود ورثيد : وضع بعضه فوق بعض ونضده . وعنى بيض النعام ، والنعام تنضده وتسويه بعضه إلى بعض . وذكاء : هي الشمس.

(٨) انظر: شرح المعلقات السبع للزوزني: ١٠٠، ويروى " ظلامها " . يعني البقرة الوحشية ، قد ولجت كناسها في أصل شجرة ، والرمل يتساقط على ظهرها .

(٩) تفسير الطبري: ٢٥٥/١.

(١٠) صفوة التفاسير: ٢٧/١.

قال القرطبي:أي: "معتدلٌ عندهم: الإنذار وتركه[٢].

قال الصابوني: "أي يتساوى عندهم، فلا تطمع في إيمانهم، ولا تذهب نفسك تذهب نفسك عليهم حسرات، وفي هذا تسلية للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن تكذيب قوله له"[٣].

قال الطبري:"أيّ الأمرين كان منك إليهم[سواء]، الإنذار أم ترك الإنذار[٤]، ومن ذلك قول عبيد الله بن قيس الرُّقَيَّات[٥] :

تُغِذُّ بيَ الشّهبَاءُ نَحْوَ ابن جَعْفرٍ سَوَاءٌ عَلَيْهَا لَيْلُهَا ونَهَارُهَا

يعني بذلك:معتدلٌ عندها في السير الليلُ والنهارُ، لأنه لا فُتُورَ فيه. ومنه قول الآخر[٦]:

وَلَيْلٍ يَقُولُ المَرْءُ مِنْ ظُلُمَاتِهِ سَوَاءٌ صَحِيحَاتُ العُيُونِ وَعُورُهَا

لأن الصحيح لا يبصر فيه إلا بصرًا ضعيفًا من ظُلْمته.

قال أبو حيان:" فإن قوله : {سَوَا ءٌ عَلَيْهِمْ} إشارة إلى أن السواء الذي أضيف إليهم وباله ونكاله عليهم ومستعل فوقهم ، لأنه لو أراد بيان أن ذلك من وصفهم فحسب لقال : سواء عندهم ، فلما قال : سواء عليهم ، نبه على أنه مستعل عليهم"[٧].

واختلفت القراءة في قوله تعالى: {أَأَنذَرْتَهُمْ}[البقرة:٦]، على وجوه[٨]:

أحدها: قرأ الزهري، وابن محيصن : {أنذرتهم}، بهمزة واحدة ، حذف الهمزة الأولى لدلالة المعنى عليها، ولأجل ثبوت ما عادلها وهو {أم}، وقرأ أبي أيضا بحذف الهمزة ونقل حركتها إلى الميم.

والثاني: قرأ عاصم وحمزة والكسائي بهمزتين، وقرأ أهل الحجاز وأبو عمرو بالمد وتليين الهمزة الثانية.

والثالث: وقرأ ابن عامر بألف بين همزتين.

قال الثعلبي:" وهذه الآية خاصّة فيمن حقّت عليه كلمة العذاب في سابق علم الله، وظاهرها إنشاء ومعناها إخبار"[٩].

قال أبو العالية:" آيتان في قادة الأحزاب: {إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون}، قال: هم الذين ذكرهم الله في هذه الآية: {ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار}"[١٠].

وعن عبد الله بن عمرو، عن النبي صلى الله عليه وسلم:"قيل يا رسول الله إنا نقرأ من القرآن فنرجو، ونقرأ فنكاد أن نأيس. فقال: ألا أخبركم؟ ثم قال: إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون هؤلاء أهل النار. قالوا: لسنا منهم يا رسول الله؟ قال: أجل"[١١].

الفوائد:

١- من فوائد الآية: تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم حين يردُّه الكفار، ولا يَقبلون دعوته.

٢- ومنها: أن من حقت عليه كلمة العذاب فإنه لا يؤمن مهما كان المنذِر والداعي؛ لأنه لا يستفيد . قد ختم الله على قلبه .، كما قال تعالى: {إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم} [يونس: ٩٦، ٩٧] ، وقال تعالى: {أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار} [الزمر: ١٩] يعني هؤلاء لهم النار؛ انتهى أمرهم، ولا يمكن أن تنقذهم.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم(٩٢):ص٤٠/١.

(٢) انظر: تفسير القرطبي: ١٨٤/١.

(٣) صفوة التفاسير: ٢٧/١.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ٢٥٥/١-٢٥٦.

(٥)ديوانه : ١٦٣ ، والكامل للمبرد ١ : ٣٩٨ ، ٣٩٩ . يمدح عبد الله بن جعفر بن أبي طالب . أغذ السير وأغذ فيه : أسرع . ورواية ديوانه ، والكامل " تقدت " . وتقدى به بعيره : أسرع على سنن الطريق . والشهباء : فرسه ، للونها الأشهب ، وهو أن يشق سوادها أو كمتتها شعرات بيض حتى تكاد تغلب السواد أو الكمتة .

(٦) البيت لمضرس بن ربعي الفقعسي . حماسة ابن الشجري : ٢٠٤ .

(٧) البرح المحيط: ٣٤/١.

(٨) أنظر: السبعة في القراءات: ١٣٦-١٣٧، والحجة للقراء السبعة: ٢٢٤/١، والبحر المحيط: ٣١/١.

(٩) تفسير الثعلبي: ١٥٠/١.

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم(٩٣):ص٤٠/١.

(١١)أخرجه ابن أبي حاتم(٩١):ص٤٠/١.

٣- ومنها: أن الإنسان إذا كان لا يشعر بالخوف عند الموعظة، ولا بالإقبال على الله تعالى فإن فيه شبهاً من الكفار الذين لا يتعظون بالمواعظ، ولا يؤمنون عند الدعوة إلى الله.

القرآن
{خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧)} [البقرة:٧].
التفسير:
طبع الله على قلوب هؤلاء وعلى سمعهم، وجعل على أبصارهم غطاء؛ بسبب كفرهم وجحودهم وعنادهم مِن بعد ما تبيَّن لهم الحق، فلم يوفقهم للهدى، ولهم عذاب شديد في نار جهنم.
قوله تعالى:{ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ}[البقرة:٧]، " أي: طبع على قلوبهم فلا يدخل فيها نور، ولا يشرق فيها إيمان"(١).
قال ابن عباس:" أي: عن الهدى أن يصيبوه أبدا بغير ما كذبوك به من الحق الذي جاءك من ربك حتى يؤمنوا به وإن آمنوا بكل ما كان قبلك، ولهم بما هم عليه من خلافك عذاب عظيم. فهذا في الأحبار من يهود فيما كذبوا به من الحق بعد معرفته"(٢).
قال الثعلبي:أي:" طبع الله على قلوبهم وأغلقها وأقفلها فليست تعي خبرا ولا تفهمه. يدل عليه قوله: {أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفالُها}[محمد:٢٤]" (٣).
قال الماوردي:" الختم الطبع ، ومنه ختم الكتاب"(٤).
قال ابن عثيمين: أي: " قلوبهم مختوم عليها لا يصدر منها خير، ولا يصل إليها خير"(٥).
قال سعيد المقبري: "ختم الله على قلوبهم بالكفر"(٦).
وروي "عن السدي: {ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم}، يقول: فلا يسمعون ولا يعقلون"(٧).
وقال أبو مالك: "{ختم الله}، يعني: طبع الله"(٨).
وعن مجاهد:" {ختم الله على قلوبهم}، قال: الطبع ثبتت الذنوب على القلب تحف به من كل نواحيه حتى تلتقي عليه. فالتقاؤها عليه الطبع. والطبع الختم"(٩).
وعن مجاهد أيضا: "الرّانُ أيسَرُ من الطَّبْع ، والطَّبع أيسر من الأقْفَال ، والأقفال أشدُّ ذلك كله"(١٠).
وسُمِّي القلب قلباً لتقلُّبِهِ بالخواطر(١١)، وقد قيل(١٢) :
ما سُمِّيَ القَلبُ إلاَّ مِنْ تَقَلُّبِهِ وَالرَّأيُ يَصْرِفُ ، بالإنْسَانُ أَطْوَارا
واختلف في قوله تعالى:{خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ}[البقرة:٧]، على أقوال(١٣):
أحدها : أن القلب مثل الكف ، فإذا أذنب العبدُ ذنباً ضُمَّ منه كالإصبع ، فإذا أذنب ثانياً ضم منه كالإصبع الثانية ، حتى يضمَّ جميعه ثم يطبع عليه بطابع . وهو قول مجاهد(١).
والثاني : أنها سمة تكون علامة فيهم ، تعرفهم الملائكة بها من بين المؤمنين .

---

(١) صفوة التفاسير: ٢٧/١.
(٢)أخرجه ابن أبي حاتم(٩٤):ص٤١/١.
(٣) تفسير الثعلبي: ١٥٠/١.
(٤) النكت والعيون: ٧٢.
(٥) تفسير ابن عثيمين: ٣٧/١.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(٩٦):ص٤١/١.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(٩٥):ص٤١/١.
(٨) أخرجه ابن أبي حالتم(٩٧):ص٤١/١.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(٩٩):ص٤١/١.
(١٠) أخرجه الطبري(٣٠٣):ص٢٥٩/١.
(١١) أنظر: التفسير البسيط: ١١٤/٢، والنكت والعيون: ٧٣/١.
(١٢)البيت في "التهذيب" (قلب) ٣/ ٣٠٢٦، وكذا "اللسان" (قلب) ٦/ ٣٧١٤، بهذا النص، وورد في القرطبي ١/ ١٦٣، و"الدر المصون" ١/ ١١٤، "روح المعاني" ١/ ١٣٥، شطره الثاني: فاحذر على القلب من قلب وتحويل
غير منسوب في جميع المصادر.
(١٣) انظر:النكت والعيون: ٧٢/١-٧٣، وتفسير الطبري: ٢٦٠/١-٢٦١.

والثالث : أنه إخبار من الله تعالى عن كفرهم وإعراضهم عن سماع ما دعوا إليه من الحق ، تشبيهاً بما قد انسدَّ وختم عليه ، فلا يدخله خير .

والرابع : أنها شهادة من الله تعالى على قلوبهم ، بأنها لا تعي الذكر ولا تقبل الحقَّ ، وعلى أسماعهم بأنها لا تصغي إليه ، والغشاوة : تعاميهم عن الحق.

والصحيح هو القول الأول، وذلك لما صحّ بنظيره عن رسول الله-صلى الله عليه وسلم، أنه قال: " إنّ المؤمنَ إذا أذنب ذنبًا كانت نُكْتةٌ سوداءُ في قلبه، فإن تاب وَنزع واستغفر، صَقَلت قلبه، فإن زاد زادت حتى تُغْلق قلبه، فذلك " الرَّانُ " الذي قال الله جل ثناؤه : {كَلا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ }[سورة المطففين : ١٤]"(٢).

فيتبيّن لنا من الحديث: " أنّ الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها، وإذا أغلقتها أتاها حينئذ الخَتْم من قبل الله عز وجلّ والطبع، فلا يكون للإيمان إليها مَسْلك، ولا للكفر منها مَخْلَص، فذلك هو الطَّبع. والختم الذي ذكره الله تبارك وتعالى في قوله :{خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ}، نظيرُ الطبع والختم على ما تدركه الأبصار من الأوعية والظروف، التي لا يوصَل إلى ما فيها إلا بفضِّ ذلك عنها ثم حلّها. فكذلك لا يصل الإيمان إلى قلوب من وَصَف الله أنه ختم على قلوبهم، إلا بعد فضِّه خَاتمَه وحلّه رباطَه عنها"(٣).

وأصلُ الختم : الطَّبْع، والخاتَم هو الطَّابع. يقال منه : ختمتُ الكتابَ، إذا طبَعْتَه"(٤).

قال أبو حيان:" وذهب بعض المتأولين من القدرية إلى أن معنى {ختم الله على قلوبهم}: وسمها سمة تدل على أن فيها الكفر، لتعرفهم الملائكة بتلك السمة، وتفرق بينهم وبين المؤمنين الذين في قلوبهم الشرع، قال: والختم والطبع واحد، وهما سمة وعلامة في قلب المطبوع لى قلبه (٥)، وهذا باطل, لأن الختم في اللغة ليس هو الإعلام، ولا يقال: ختمت على الشيء بمعنى: أعلمت عليه ومن حمل الختم على الإعلام فقد تشهى على أهل اللغة، وجر كلامهم إلى موافقة عقيدته"(٦).

وقد خص القلب بالختم لأنه محل الفهم والعلم، كما أنه ذكر الاعضاء (السمع والبصر القلب)،لأنها طرق العلم، فالقلب محل العلم وطريقه السماع أو الرؤية .

قوله تعالى: {وَعَلَى سَمْعِهِمْ } [البقرة : ٧]، " أي: وختم على سمعهم"(٧).

قال الثعلبي:" فلا يسمعون الحق ولا ينتفعون به"(٨).

قال ابن عثيمين:" والختم على الأذن: أن لا تسمع خيراً تنتفع به"(٩).

قال الواحدي: " وحد السمع، لأنه مصدر، والمصادر لا تثنى ولا تجمع، لأن المصدر ينبئ عن الفعل، فهو بمنزلة الفعل، والفعل لا يثنى ولا يجمع (١٠)، وقال ابن الأنباري: أراد: وعلى مواضع سمعهم، فحذف

---

(١) أنظر: تفسير الطبري(٣٠١):ص٢٥٨/١. ولفظه:" القلبُ مثلُ الكفّ ، فإذا أذنب ذنبًا قبض أصبعًا حتى يقبض أصابعه كلها - وكان أصحابنا يُرون أنه الرَّان".

أي: إنّ الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها، وإذا أغلقتها أتاها حينئذ الخَتْم من قبل الله عز وجلّ والطبع، فلا يكون للإيمان إليها مَسْلك ، ولا للكفر منها مَخْلَص ، فذلك هو الطَّبع، والختم الذي ذكره الله تبارك وتعالى في قوله : (خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ) ، نظيرُ الطبع والختم على ما تدركه الأبصار من الأوعية والظروف ، التي لا يوصَل إلى ما فيها إلا بفضٍّ ذلك عنها ثم حلّها. فكذلك لا يصل الإيمان إلى قلوب من وَصَف الله أنه ختم على قلوبهم ، إلا بعد فضِّه خَاتمَه وحلّه رباطَه عنها.

(٢)رواه أحمد في المسند ٧٩٣٩ (٢ : ٢٩٧ حلبي)، ورواه الحاكم ٢ : ٥١٧، ورواه الترمذي ٤ : ٢١٠ ، وابن ماجه ٢ : ٢٩١.

(٣) تفسير الطبري: ٢٦/١-٢٦١.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ٢٦٥/١، والقول لحجاج ساقه ساقه ابن كثير في تفسيره ١ : ٨٥ ، والشوكاني ١ : ٢٨ .

(٥)ذكره أبو علي الفارسي في "الحجة" عن قوم من المتأولين، ١/ ٣٠١.

(٦) التفسير البسيط: ١١٤/٢.

(٧) تفسير ابن عثيمين:٣٧/١.

(٨) تفسير الثعلبي: ١٥٠/١.

(٩) تفسير ابن عثيمين:٣٧/١.

(١٠)انظر: "معاني القرآن" للزجاج ١/ ٤٧، "تهذيب اللغة" (سمع) ٢/ ١٧٥٦، والثعلبي ١/ ٤٨/ب، "تفسير أبي الليث" ١/ ٩٣، "زاد المسير" ١/ ٢٨، والقرطبي ١/ ١٦٥. وقيل: وحد السمع، لأن المسموع واحد وهو الصوت، وقرئ شاذا {وعلى أسماعهم}. انظر. "الفتوحات الإلهية" ١/ ١٥.

المضاف، كما تقول العرب: تكلم المجلس، وهم يريدون أهله، وحذف المضاف كثير في التنزيل والكلام[١]، وقيل: اكتفى من الجمع بالواحد[٢]، كما قال الراعي[٣]:

بها جيف الحسرى فأما عظامها   فبيض وأما جلدها فصليب

وقال الله تعالى: {يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ} [الشورى: ٤٥]، وهو كثير جدًّا.

وقال سيبويه[٤]: توحيد السمع يدل على الجمع، لأنه توسط جمعين، كقوله: {يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} [البقرة: ٢٥٧]، وقوله: {عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ} [النحل: ٤٨]"[٥].

وقوله تعالى{وَعَلَى سَمْعِهِمْ}[البقرة:٧]، فيه قراءتان[٦]:

أحدهما : {وَعَلَى سَمْعِهِمْ}، وهي قراءة الجمهور.

والثاني: {وعلى أسماعهم}، قرأ بها ابن أبي عبلة.

قوله تعالى: {وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ} [البقرة : ٧]، أي: "وعلى أبصارهم غطاء، فلا يبصرون هدى"[٧].

قال الثعلبي:" أي غطاء وحجاب، فلا يرون الحق"[٨].

قال ابن عباس:" ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم والغشاوة على أبصارهم"[٩].

وقال السدي:"جعل على أبصارهم غشاوة، يقول: على أعينهم فهم لا يبصرون"[١٠].

قال ابن عثيمين:" أي: غطاء يحول بينها وبين النظر إلى الحق؛ ولو نظرت لم تنتفع"[١١].

روي "عن قتادة قال: "استحوذ عليهم الشيطان إذ أطاعوه، ف ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة، فهم لا يبصرون هدى، ولا يسمعون ولا يفقهون، ولا يعقلون"[١٢].

قال أبو حيان:" شبه قلوبهم لتأبيها عن الحق ، وأسماعهم لإضرابها عن سماع داعي الفلاح ، وأبصارهم لامتناعها عن تلمح نور الهداية بالوعاء المختوم عليه المسدود منافذة المغشي بغشاء يمنع أن يصل إليه ما يصلحه ، لما كانت مع صحتها وقوة إدراكها ممنوعة عن قبول الخير وسماعه وتلمح نوره"[١٣].

والأبصار جمع البصر، والبصر العين، إلا أنه مذكر، ويقال: تبصرت الشيء بمعنى رمقته[١٤]، ومنه قول زهير[١٥]:

تبصر خليلي هل ترى من ظعائن   تحملن بالعليا من فوق جرثم[١]

---

(١)لم أجده منسوبا لابن الأنباري. وورد بمعناه في "تفسير أبي الليث" ١/ ٩٣، والقرطبي ١/ ١٦٦، "تهذيب اللغة" (سمع) ٢/ ١٧٥٧.

(٢)انظر: "معاني القرآن" للزجاج ١/ ٤٧، والثعلبي ١/ ٤٨ ب، و"تفسير أبي الليث" ١/ ٩٣، و"تهذيب اللغة" (سمع) ص ١٧٥٧.

(٣)كذا نسبه الثعلبي ١/ ٤٨ ب، والبيت لعلقمة بن عبدة الفحل كما في "الكتاب" وغيره.

قاله يصف طريقاً شاقًا، قطعه لممدوحه. الحسرى: جمع حسير، والحسير: البعير المعيب يتركه أصحابه فيموت، وابيضت عظامه لما أكلت السباع والطير ما عليه من لحم، صليب: يابس لم يدبغ. الشاهد (جلدها) مفرد أريد به الجمع، أي: جلودها. انظر: "الكتاب" ١/ ٢٠٩، و"معاني القرآن" للزجاج١/ ٤٧، "تفسير الثعلبي" ١/ ٤٨ ب، والقرطبي ١/ ١٦٥، "الخزانة" ٧/ ٥٥٩، وفيها: (به جيف الحسرى ..)، "الدر المصون" ١/ ١١٤، والرازي ٢/ ٥٣، وفيه: (الحيدى) بدل (الحسرى).

(٤)انظر. "الكتاب" ١/ ٢٠٩، والنص من الثعلبي ١/ ٤٨/ب.

(٥) أنظر: التفسير البسيط: ١١٥/٢-١١٦.

(٦) أنظر: المحرر الوجيز: ٨٨/١.

(٧) صفوة التفاسير: ٢٧/١.

(٨) تفسير الثعلبي: ١٥١/١.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٠):ص٤٢/١.

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم(١٠١):ص٤٢/١.

(١١) تفسير ابن عثيمين:٣٧/١.

(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٩٨):ص٤١/١.

(١٣) البحر المحيط: ٣٤/١.

(١٤)تهذيب اللغة" (بصر) ١/ ٣٤٠.

(١٥)ديوان زهير: ٩. والظعائن: جمع ظعينة، وهي المرأة في الهودج تحمل على الإبل، بالعلياء: الأرض المرتفعة، جرثم: ماء معين.

والغشاوة : الغطاء على العين يمنعها من الرؤية، والغشاوة في كلام العرب : الغطاءُ، ومنه قول الحارث بن خالد بن العاص[2] :

تَبِعْتُكَ إِذْ عَيْنِي عَلَيْهَا غِشَاوَةٌ   فَلَمَّا انْجَلَتْ قَطعْتُ نَفْسِي أَلُومُهَا

ومنه يقال : تغشَّاه الهم : إذا تجلَّله وركبه، ومنه قول نابغة بني ذبيان[3] :

هَلا سَأَلْتِ بَنِي ذُبيَان مَا حَسَبِي   إِذَا الدُّخانُ تَغَشَّى الأشمَطَ البَرَمَا

يعني بذلك : تجلله وَخالطه.

واختلفت القراءة في قوله تعالى:{ غِشَاوَةٌ}[البقرة:٧]، على وجوه[4]:

أحدها: قرأ عاصم فيما روى المفضل الضبي[5] عنه: {غشاوة}، بالنصب[6]، وله وجهان[7]:

الأول: أن تحمل على الفعل، كأنه قال: وختم على قلبه غشاوة، أي: بغشاوة فلما حذف الحرف وصل الفعل، ومعنى ختم عليه بغشاوة: مثل جعل على بصره غشاوة. ألا ترى أنه إذا ختمها بالغشاوة فقد جعلها فيها، والدليل على جواز حمل غشاوة على ختم هذا الظاهر قوله: {أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ} [النحل: ١٠٨]، وطبع في المعنى كختم، وقد حملت الأبصار على (طبع)، فكذلك تحمل على (ختم).

والوجه الثاني: ما قاله الفراء ، وهو أنه نصبها بإضمار (وجعل)، كقوله في الجاثية: {وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً} [الجاثية: ٢٣][8].

والثاني: وقرأ الباقون {غشاوة}، بالرفع.

قال أبو علي: والرفع أحسن والقراءة به أولى، لأن النصب إما أن تحمله على ختم الظاهر فيعترض في ذلك أنك حلت بين حرف العطف والمعطوف به، وهذا عندنا إنما يجوز في الشعر، وإما أن تحمله على فعل يدل عليه خَتَمَ تقديره وجعل على أبصارهم، فقراءة الرفع أحسن، وتكون الواو عاطفة جملة على جملة[9].

والثالث: وقرأ الحسن: «غشاوة» بضم الغين، وقرئت «غشاوة» بفتح الغين.

قال ابن عطية:" وأصوب هذه القراءات المقروء بها ما عليه السبعة من كسر الغين على وزن عمامة والأشياء التي هي أبدا مشتملة، فهكذا يجيء وزنها كالضمامة والعمامة والكنانة والعصابة والربابة وغير ذلك"[10].

قوله تعالى: {وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}[البقرة: ٧]، " أي ولهم في الآخِرة عذاب شديدٌ لا ينقطع، بسبب كفرهم وإجرامهم وتكذيبهم بآيات الله"[1].

---

(١) أنظر: التفسير البسيط: ١١٦/٢.

(٢) الشاعر هو الحارث بن خالد المخزومي ، ويأتي البيت في تفسير آية سورة الأعراف : ١٨ (٨ : ١٠٣ بولاق) ، وروايته هناك : " صحبتك إذ عيني . . أذيمها " ، شاهدًا على " الذام " ، وهو أبلغ في العيب من الذم ، ثم قال أبو جعفر : " وأكثر الرواة على إنشاده : ألومها " ، وخبر البيت : أن عبد الملك بن مروان لما ولى الخلافة حج البيت ، فلما انصرف رحل معه الحارث إلى دمشق ، فظهرت له منه جفوة ، وأقام ببابه شهرًا لا يصل إليه ، فانصرف عنه وقال البيت الشاهد وبعده : وما بيَ إن أقصَيتِني من ضَرَاعةٍ ... وَلاَ افْتَقَرَتْ نَفْسِي إلى مَنْ يَضِيمُها(انظر الأغاني ٣ : ٣١٧) ، وبلغ عبد الملك شعره ، فأرسل إليه من رده إليه .

(٣)ديوانه : ٥٢ . والأشمط : الذي شاب رأسه من الكبر ، والبرم : الذي لا يدخل مع القوم في الميسر . قال ابن قتيبة في المعاني الكبير ٤١٠ ، ١٢٣٨ : " وإنما خص الأشمط ، لأنه قد كبر وضعف ، فهو يأتي مواضع اللحم " .

(٤) أنظر:السبعة: ١٣٨، والحجة للقراء السبعة: ٢٩١/١-٢٩٢.

(٥)هو المفضل بن محمد الضبي الكوفي، إمام مقرئ، نحوي، إخباري، أخذ القراءة عن عاصم، ومات سنة ثمان وستين ومائة. انظر ترجمته في: "تاريخ بغداد" ١٣/ ١٢١، "الأنساب" ٨/ ٣٨٥، "إنباه الرواة" ٣/ ٢٩٨، "غاية النهاية" ٢/ ٣٠٧.

(٦)قال ابن مجاهد: "قرأوا كلهم (غشاوة) في (البقرة) رفعا وبالألف، إلا أن المفضل ابن محمد الضبي روى عن عاصم (وعلى أبصارهم غشاوة) نصبا"، "السبعة" ص ١٤١، "معاني القرآن" للفراء١/ ١٣، "الحجة" ١/ ٢٩١ "زاد المسير" ١/ ٢٨.

(٧) أنظر: الحجة للقراء السبعة: ٣٠٩/١-٣١٠. والتفسير البسيط: ١١٨-١١٩.

(٨)أنظر: معاني القرآن" ١/ ١٣، ١٤، ونقل الواحدي بتصرف يسير.

(٩) أنظر الحجة للقراء السبعة: ٣١٠/١-٣١١. وقال الواحدي: "والأشهر في القراءة رفع الغشاوة ، لأنها لم تحمل على (ختم)، ألا ترى أنه قد جاء في الأخرى {وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً} [الجاثية: ٢٣]، فلما لم تحمل في هذه على (ختم) كذلك لا تحمل هاهنا، وبقطعها عن ختم فتكون مرفوعة بـ(على)".[التفسير البسيط:١١٨/٢].

(١٠) المحرر الوجيز: ٨٩/١.

وروي " عن ابن عباس في قوله: {عذاب}، يقول: نكال"[٢].
وعن مقاتل بن حيان، "قوله: {ولهم عذاب عظيم}، يعني عذاب وافر"[٣].
قال ابن عطية: " معناه بمخالفتك يا محمد وكفرهم بالله استوجبوا ذلك"[٤].
قال ابن عثيمين: " وعظمه الله تعالى؛ لأنه لا يوجد أشد من عذاب النار"[٥].
قال أبو حيان:" فإنه لو اقتصر على قوله عذاب ولم يقل عظيم لاحتمل القليل والكثير ، فلما وصفه بالعظيم تمم المعنى وعلم أن العذاب الذي وعدوا به عظيم ، إما في المقدار وإما في الإيلام والدوام"[٦].
قال ابن عباس : "ولهم بما هُمْ عليه من خلافك {عذابٌ عظيم}، قال : فهذا في الأحبار من يهود ، فيما كذَّبوكِ به من الحق الذي جاءك من ربّك بعد معرفتهم"[٧].
قال الزجاج في هذه الآية: "إنهم كانوا يسمعون ويبصرون ويعقلون، ولكن لم يستعملوا هذه الحواس استعمالاً يجدي عليهم، فصاروا كمن لا يعقل ولا يسمع ولا يبصر"[٨].
قال الواحدي: "ومعنى العذاب الأليم: الذي يخلص وجعه إلى قلوبهم"[٩].
وأصل (العذاب) في كلام العرب: من العذب، وهو المنع؛ يقال: عَذبتَه عَذبًا أي منعتَه مَنْعًا، فعَذَبَ عُذوبًا أي امتنع، ومنه يقال للفرس إذا قام في المِعْلف ولم يتناول العلف وامتنع عنه: عَذُوبٌ وعَاذِبٌ، ومنه الماء العَذْب؛ لأنه يمنع العطش[١٠]، فسمي العذاب عذابًا؛ لأنه يَعْذُبُ المعاقب عن معاودة ما عوقب عليه، ويعذب غيره من ارتكاب مثله[١١].
وقوله تعالى: {أَلِيمٌ}:، الأليم: بمعنى المؤلم [١٢]، كالسميع: بمعنى المسمع ، وقال ذو الرمة[١٣]:
وترفع من صدور شَمَرْدَلاتٍ يصُكُّ وجوهَها وَهَجٌ أليمُ
وقال عمرو بن معد يكرب[١٤]:
أمِنْ ريحانة الدَّاعي السَّميع يُؤرِّقني وأصْحابي هَجوع
أي: المسمع[١٥].
الفوائد:
١- من فوائد الآية: أن محل الوعي القلوب؛ لقوله تعالى: { ختم الله على قلوبهم } يعني لا يصل إليها الخير.
٢- ومنها: أن طرق الهدى إما بالسمع؛ وإما بالبصر: لأن الهدى قد يكون بالسمع، وقد يكون بالبصر؛ بالسمع فيما يقال؛ وبالبصر فيما يشاهد؛ وهكذا آيات الله عزّ وجلّ تكون مقروءة مسموعة؛ وتكون بيّنة مشهودة.

---

(١) صفوة التفاسير: ٢٧/١.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٢):ص٤٢/١.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٣):ص٤٢/١.
(٤) المحرر الوجيز: ٨٩/١.
(٥) تفسير ابن عثيمين: ٣٧/١.
(٦) البحر المحيط: ٣٤/١.
(٧) أخرجه الطبري(٣١١):ص٢٦٨/١.
(٨) معاني القرآن: ٨٢/١.
(٩) التفسير البسيط: ١٥٣/٢.
(١٠)انظر: "تهذيب اللغة" (عذب) ٣/ ٢٣٦٤، "الصحاح" (عذب) ١/ ١٧٨، "تفسير الثعلبي" ١/ ٤٨ ب، "الكشاف" ١/ ١٦٤.
(١١) أنظر: التفسير البسيط: ١٥١/٢-١٥٢.
(١٢)انظر. "تفسير الطبري" ١/ ١٢٣، "معاني القرآن" للزجاج ١/ ٥١، "تفسير أبي الليث" ١/ ٩٥.
(١٣)البيت في "ديوانه" ٢/ ٦٧٧، "مجاز القرآن" ١/ ٣٢ و"تفسير الطبري" ١/ ١٢٣، وفيه (يصد) بدل (يصك)، "تفسير القرطبي" ١/ ١٩٨، و"الدر المصون" ١/ ١٣٠. قوله: الشمردلات الإبل الحسان الجميلة الخلق، يصك: يضرب، وهج أليم: شدة الحرارة
(١٤)البيت في "الشعر والشعراء" ص ٢٣٥، و"تفسير الطبري" ١/ ١٢٣، "معاني القرآن" للزجاج١/ ٥١، و"تفسير الثعلبي" ١/ ٥٠ أ، و"تفسير ابن عطية" ١/ ١٦٥، "الأصمعيات" ص ١٧٢، "البحر المحيط" ١/ ٥٩. وريحانة: أخت عمرو، وكان الصمة أبو دريد قد غزا بني زبيد وسباها، وغزاهم عمرو مرارًا ولم يقدر عليها، وقيل: ريحانة امرأة أراد أن يتزوجها فهو يشبب بها.
(١٥) أنظر: التفسير البسيط: ١٥٢/٢-١٥٣.

٣- ومنها: وعيد هؤلاء الكفار بالعذاب العظيم.
مسألة:
إذا قال قائل: هل هذا الختم له سبب من عند أنفسهم، أو مجرد ابتلاء وامتحان من الله عزّ وجلّ؟
فالجواب: أن له سبباً؛ كما قال تعالى: {فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم} [الصف: ٥] ، وقال تعالى: {فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية}[المائدة: ١٣].

القرآن
{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨)} [البقرة : ٨]
التفسير:
ومن الناس فريق يتردد متحيِّرًا بين المؤمنين والكافرين، وهم المنافقون الذين يقولون بألسنتهم: صدَّقْنَا بالله وباليوم الآخر، وهم في باطنهم كاذبون لم يؤمنوا.
في سبب نزول الآية ثلاثة أقوال(١):
أحدها: أنها نزلت في قوم معينين، لأن الله تعالى حكى عنهم أقوالا معينة، قالوها، فلايكون صادرا إلا من معين. قاله أبو حيان(٢)، والطبري(٣).
والثاني: أنها نزلت في منافقي الأوس والخزرج ومن كان على صفتهم، قاله ابن عباس(٤).
والثالث: أنها عامة في المنافقين، قاله مجاهد(٥)،الربيع(٦)،و ابن جريج(٧)، وروي عن أبي العالية(٨) والحسن البصري، وقتادة والسدي مثل ذلك(٩).
لما تقدم وصف المؤمنين في صدر السورة بأربع آيات(١٠)، ثم عرّف حال الكافرين بهاتين الآيتين{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧)} [البقرة : ٦ - ٧]، شرع تعالى في بيان حال المنافقين في ثلاثة عشرة آية، وهم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، ولما كان أمرهم يشتبه على كثير من الناس أطنب في ذكرهم بصفات متعددة، كل منها نفاق، كما أنزل سورة براءة فيهم، وسورة المنافقين فيهم، وذكرهم في سورة النور وغيرها من السور، تعريفا لأحوالهم لتجتنب، ويجتنب من تلبس بها أيضًا(١١).
قوله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ}[البقرة : ٨]، "أي: ومن الناس فريق"(١٢).
قال ابن عثيمين:" أي: وبعض الناس، ولم يصفهم الله تعالى بوصف. لا بإيمان، ولا بكفر.؛ لأنهم كما وصفهم الله تعالى في سورة النساء: {مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء} [النساء: ١٤٣]"(١).

---

(١) أنظر: العجاب في بيان الأسباب: ٢٣٢/١-٢٣٣.

(٢) أنظر: البحر المحيط: ٥٤/١، وقال: " "وهم عبد الله بن أبي بن سلول، وأصحابه، ومن وافقه من غير أصحابه ممن أظهر الإسلام وأبطن الكفر ... " وهو في هذا يرد على أبي البقاء إذا استضعف أن تكون "مَنْ" موصولة بمعنى الذي قال: لأن "الذي" يتناول قومًا بأعيانهم، والمعنى هنا على الإبهام.
(٣) أنظر: تفسيره: ٢٦٨/١.
(٤)أنظر: تفسير الطبري(٣١٢) و(٣١٧):ص٢٦٨/١-٢٧٠،وأخرجه ابن أبي حاتم(١٠٤):ص٤٢/١، ولمعرفة أسماء المنافقين من الأوس والخرج، أنظر: سيرة ابن هشام: ٣٥٥-٣٦١.
(٥) أخرجه الطبري(٣١٣)، و(٣١٤)، و(٣١٦):ص٢٦٩/١، ولفظه:" "هذه الآية إلى ثلاث عشرة ، في نَعت المنافقين".
(٦) أنظر: تفسير الطبري(٣١٨):ص٢٧٠/١.
(٧) أنظر: تفسير الطبري(٣١٩):ص٢٧٠/١.
(٨) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٠٥):ص٤٢/١.
(٩) أنظر:تفسير ابن أبي حاتم:٤٢/١، وتفسير ابن كثير: ٤٧/١، والعجاب في أسباب: ٢٣٢/١.
(١٠) وهي قوله تعالى: {ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)} [البقرة : ٢ - ٥]
(١١) أنظر: تفسير ابن كثير: ١٧٦/١.
(١٢) صفوة التفاسير:٢٩/١.

واختلف العلماء في أصل كلمة {الناس}، وفيه وجهان[٢]:
أحدهما : أن يكون جمعًا لا واحدَ له من لَفْظِه، كالقوم والرهط والجيش، واختلفوا في تصغيره، فقيل: (أنيس) و (نويس).
فمن قال: (أنيس) وهو قول أكثر النحويين[٣]، دل على أن أصله (أناس) لثبوت الهمزة في التصغير. ومن قال: نويس، جعل اشتقاق الناس من (النوس) وهو الاضطراب والحركة يقال ناس ينوس إذا تذبذب وتحرك، وأناس إذا حرك. ومنه قول المرأة في حديث أم زرع: "أناس من حلي أذني"[٤].
قال الأزهري:" وسمي الناس ناسًا، لأن من شأنهم الحركة على الاختيار العقلي، والواو في التصغير يدل على هذا الاشتقاق، وواحد الناس: إنسان، لا من لفظه"[٥].
والثاني : أن يكون أصله (أُناس)[٦]، أسقِطت الهمزة منها لكثرة الكلام بها ، ثم دخلتها الألف واللام المعرِّفتان ، فأدغِمت اللام - التي دخلت مع الألف فيها للتعريف - في النون ، كما قيل في{لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي} [سورة الكهف : ٣٨]، وقد استعمله الشاعر على الأصل فقال[٧]:
إن المنايا يَطّلعـ   ـنَ على الأناس الآمنينا
قال الأزهري: "وهذا قول حذاق النحويين"[٨].
قال الأزهري: "وأصل الإنس، والإنسان، والناس، من آنس يؤنس إذا أبصر، لأنهم يؤنسون، أي: يبصرون، كما قيل للجن: جن، لأنهم مجتنّون، لا يؤنسون أي: لا يبصرون"[٩]، وقد روي عن ابن عباس أنه قال: عهد الله سبحانه إلى آدم فنسي فسمي إنساناً"[١٠]، قال الواحدي: "وإن صح هذا فالهمزة تكون زائدة"[١١]، ومنه قول الشاعر[١٢]:

---

(١) تفسير ابن عثيمين: ٣٩/١.
(٢) أنظر: تفسير الطبري: ٢٦٨/١، والتفسير البسيط: ١٢٣/٢-١٢٤.
(٣)قال سيبويه: (ليس من العرب أحد إلا ويقول: نويس)، انظر "الكتاب" ٣/ ٤٥٧، وانظر "المسائل الحلبيات" لأبي علي الفارسي ص ١٧١، ١٧٢.
(٤)قطعة من حديث طويل، فقد أخرج البخاري بسنده عن عائشة، قالت (جلس إحدى عشرة امرأة، فتعاهدن وتعاقدن أن لا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئاً ...)، وفيه: (قالت الحادية عشرة: زوجي أبو زرع فما أبو زرع أناس من حلي أذني .....). أخرجه البخاري (٥١٨٩) كتاب النكاح، باب: حسن المعاشرة مع الأهل، ومسلم (٢٤٤٨) كتاب فضائل الصحابة، باب: فضائل عائشة، قال ابن حجر اختلف في رفعه ووقفه، ثم ذكر الخلاف في ذلك، وقال: (قلت: المرفوع منه في الصحيحين: (كنت لك كأبي زرع لأم زرع) وباقيه من قول عائشة، وجاء خارج الصحيحين مرفوعا كله ...). (الفتح) ٩/ ٢٥٥ - ٢٥٧. وقد ذكر علماء اللغة وغريب الحديث أجزاء من الحديث، لما فيه من الألفاظ، فذكره أبو عبيد في "غريب الحديث"، ١/ ٣٦٤ - ٣٧٦، وورد في "الفائق" ٣/ ٤٨، ٤٩، وذكر قطعة منه الأزهري في "التهذيب" ٣/ ٢٤٥١، وذكره السيوطي من طرق كثيرة في "المزهر" ٢/ ٤٤٩.
(٥) الهذيب: ٢١٦/١.
(٦) أنظر: التهذيب: ٢١٧/١.
(٧)البيت لذي جدن الحميري، ورد في "مجالس العلماء" للزجاجي ص ٧٠، "الخزانة" ٢/ ٢٨٠، "الخصائص" ٣/ ١٥١، "تفسير البيضاوي" ١/ ٩٩، "الدر المصون" ١/ ١١٩، "اللسان" (نوس) ٨/ ٤٥٧٥.
(٨) التهذيب: ٢١٧/١.
(٩) التهذيب: ٢١٦/١-٢١٧.
(١٠)ذكره الثعلبي في "تفسيره" ١/ ٤٩ أ، والقرطبي ١/ ١٦٨.
(١١) التفسير البسيط: ١٢٦/٢. قال الواحدي: "وذكر أبو علي في [المسائل الحلبية:٤٣]": أن الكسائي قال: إن الأناس لغة، والناس لغة أخرى، كأنه يذهب إلى أن (الفاء) محذوف من الناس، كما يذهب إليه سيبويه[الكتاب:١٩٦/٢]، والدلالة على أنهما من لفظ واحد، وليسا من كلمتين مختلفتين أنهم قالوا: (الأناس) في المعنى الذي قالوا فيه (الناس) وقالوا: الإنس والأنس والإنسي والأناسي ، وإذا كان كذلك ثبت أن الهمزة (فاء) الفعل، وأن الألف من (أناس) زائدة ، وأن (فاء) الفعل من الناس هي الهمزة المحذوفة، وهذا من مبادئ التصريف وأوائله، ولو جاز لقائل أن يقول: إن (ناسا) لسقوط الهمزة منه ليس من لفظ أناس، للزمه أن يقول: [قولهم (ويل أمه) إذا حذفت الهمزة منه: ليست التي في (أمه) وأن يقول]: (عدة) ليس من الوعد، لسقوط الواو منه التي هي (فاء)". التفسير البسيط: ١٢٦/٢-١٢٧].
[ولم أجد هذا القول للكسائي في "المسائل الحلبيات". انظر: "المسائل الحلبيات" ص١٦٨ - ١٧٣، وانظر "تهذيب اللغة" (أنس) ١/ ٢١٦ - ٢١٧].
(١٢) هو أبو تمام: والبيت في ديوانه: ٢٤٥/٢.

لا تنسين تلك العهود فإنما   سميت إنسانا لأنك ناسي
وقال الآخر[١]:
فإن نسيت عهودا منك سالفة   فاغفر فأوّل ناس أوّل الناس
قوله تعالى:{مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ }[البقرة:٨]، أي:" يقولون بألسنتهم صدَّقنا بالله"[٢].
قال الثعلبي: أي: صدّقنا"[٣].
قال ابن عثيمين:"أي: يقول بلسانه"[٤].
قوله تعالى:{وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ} [البقرة : ٨]، "أي وصدَّقنا بالبعث والنشور"[٥].
قال الثعلبي: أي: يوم القيامة"[٦].
وذكروا في سبب تسميته باليوم الآخر وجهان[٧]:
أحدهما: قيل: لأنه بعد أيام الدنيا.
الثاني: وقيل: لأنه آخر يوم ليس بعده ليلة، والأيام إنما تتميز بالليالي ، فإذا لم يكن بعده ليل لم يكن بعده يوم على الحقيقة.
قال الطبري:"وإنما سُمّى يومُ القيامة {اليومَ الآخر}، لأنه آخر يوم ، لا يومَ بعده سواه، فإن قال قائل : وكيف لا يكون بعده يوم ، ولا انقطاعَ للآخرة ولا فناء ، ولا زوال ؟ قيل : إن اليومَ عند العرب إنما سُمي يومًا بليلته التي قبله ، فإذا لم يتقدم النهارَ ليلٌ لم يسمَّ يومًا. فيوم القيامة يوم لا ليلَ بعده ، سوى الليلة التي قامت في صبيحتها القيامة ، فذلك اليوم هو آخر الأيام. ولذلك سمّاه الله جل ثناؤه " اليوم الآخر " ، ونعتَه بالعَقِيم. ووصفه بأنه يوم عَقيم ، لأنه لا ليل بعده"[٨].
قال الواحدي: و"(اليوم) مقداره من لدن طلوع الشمس إلى غروبها، وجمعه: أيام، وكان الأصل (أيوام) واجتمعت الياء والواو، وسبقت إحداهما الأخرى بالسكون، فأدغمت"[٩].
قوله تعالى:{وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ} [البقرة : ٨]" أي:وما هم "بمصدِّقين، فيما يزعمون أنهم به مُصَدِّقون"[١٠].
روي عن سعيد بن جبير: " قوله: {وما هم بمؤمنين}، قال: مصدقين"[١١].
قال الصابوني: "أي: وما هم على الحقيقة بمصدقين ولا مؤمنين"[١٢].
قال البيضاوي: "هذا هو القسم الثالث المذبذب بين القسمين، وهم الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم تكميلاً للتقسيم، وهم أخبث الكفرة وأبغضهم إلى الله لأنهم موهوا الكفر وخلطوا به خداعاً واستهزاءً، ولذلك طول في بيان خبثهم وجهلهم واستهزأ بهم، وتهكم بأفعالهم وسجل على عمههم وطغيانهم، وضرب لهم الأمثال وأنزل فيهم إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وقصتهم عن آخرها معطوفة على قصة المُصِرِّينَ"[١٣].
واختلف أهل اللغة في أصل (النفاق) على قولين:

---

(١) ذكره الرازي في تفسيره: ٦١/٢، ونسبه لأبي الفتح البستي، والشطر الاول عنده: نسيت عهدك والنسيان مغتفر. وأورده السمين الحلبي في الدر المصون: ١٢٠/١، وابن عادل الحنبلي في اللباب: ٣٢٩/١.
(٢) صفوة التفاسير: ٢٩/١.
(٣) تفسير الثعلبي: ١٥٢/١.
(٤) تفسير ابن عثيمين: ٣٩/١.
(٥) صفوة التفاسير: ٢٩/١.
(٦) تفسير الثعلبي: ١٥٢/١.
(٧) أنظر: التفسير البسيط: ١٢٨/٢.
(٨) تفسير الطبري: ٢٧١/١-٢٧٢.
(٩) التفسير البسيط: ١٢٨/٢.
(١٠) تفسير الطبري: ٢٧٢/١.
(١١) أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٦):ص٤٢/١.
(١٢) صفوة التفاسير: ٢٩/١.
(١٣) تفسير البيضاوي: ٤٣/١.

أحدها: فقيل: مأخوذ من النفق، وهو السّرب في الأرض الذي يُستَتَر فيه، سمّي النفاق بذلك لأنّ المنافق يستر كفرَه. وبهذا قال أبو عبيد[١].
والثاني: وقيل: إنه مأخوذ من نافقاء، والنافقاء موضع يرقّقه اليربوع من جحره، فإذا أتى من قِبِل القاصعاء ضرب النافقاء برأسه فانتفق، أي: خرج، ومنه اشتقاق النفاق؛ لأنّ صاحبه يكتم خلافَ ما يُظهر، فكأنَّ الإيمان يخرج منه، أو يخرج هو من الإيمان في خفاء.
ويمكن أنَّ الأصل في الباب واحد، وهو الخروج، والنفق المسلك النافذ الذي يمكن الخروج منه[٢]، قال ابن رجب: "والذي فسّره به أهل العلم المعتبرون أنّ النفاق في اللغة هو من جنس الخداع والمكر، وإظهار الخير وإبطان خلافه"[٣]، قال تعالى: {إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاء فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ}[الأنعام ٣٥].
والنفاق في الاصطلاح الشرعي: هو إظهار الإيمان وإبطان الكفر وهو بهذا المعنى لفظ إسلامي لم تكن العرب تعرفه قبل الإسلام. ولكن الصلة قائمة بين المعنيين اللغوي والاصطلاحي، فالمنافق هو الذي خرج من الإيمان باطنا بعد دخوله فيه ظاهراً، و قيد النفاق بأنه نفاق من الإيمان، ومن الناس من يسمي من خرج عن طاعة الملك نافقاً عليه، لكن النفاق الذي في القرآن هو النفاق على الرسول صلى الله عليه وسلم، فخطاب الله ورسوله للناس بهذه الأسماء كخطاب الناس لغيرها، وهو خطاب مقيّد خاص لمطلق يحتمل أنواعا[٤].
ويعرف ابن كثير النفاق قائلا: "النفاق: هو إظهار الخير، وإسرار الشرّ، وهو أنواع: اعتقاديٌّ، وهو الذي يخلّد صاحبه في النار، وعمليٌّ وهو أكبر من الذنوب، قال ابن جريج: المنافق يخالف قوله فعله، وسرّه علانيته، ومدخله مخرجه، ومشهده مغيبه"[٥].
وعن حذيفة قال: المنافقون الذين فيكم اليوم شر من المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: فقلنا يا أبا عبد الله وكيف ذلك؟ قال: إن أولائك كانوا يسرون نفاقهم وإن هؤلاء يعلنون[٦]، وسئل حذيفة عن النفاق فقال: " أن تتكلم باللسان ولا تعمل به"[٧].
والنفاق يطلق على النفاق الأكبر؛ الذي هو إضمار الكفر، وعلى النفاق الأصغر؛ الذي هو اختلاف السر والعلانية في الواجبات، وفي المحرمات ومثله أن النفاق الأكبر هو اختلاف السر والعلانية في الكفريات والشركيات[٨]، وقد أطلق النفاق على إبطان الكفر وإبطان المعصية[٩].
والنفاق على دروب؛ نفاق كفر ونفاق قلب ولسان وأفعال وما هو دون ذلك[١٠]، ورُوِي عن الحسن البصري وقتادة رضي الله عنهما: أن صاحب الكبيرة منافق[١١]، و روى الترمذي عن الحسن البصري شيئاً من هذا أنه قال: النفاق نفاقان؛ نفاق عمل ونفاق التكذيب [١٢]، وإن النفاق قسمان: قسماً لمن يُظهر الكفر ويبطن الإيمان، وقسم لمن يظهر غير ما يسر فيما سوى الدين وهو بذلك كافراً، وقد قيل لابن عمر: "إنا ندخل على سلطاننا فنقول لهم خلاف ما نتكلم إذا خرجنا من عندهم قال كنا نعدها نفاقا" [١٣].
وعند ابن القيم: "النفاق نفاقان؛ نفاق اعتقاد ونفاق عمل" [١٤]، و"النفاق نوعان: أكبر وأصغر"[١]:

---

(١) انظر: لسان العرب (٢٤٣/١٤)، مادة: (نفق).
(٢) مقاييس اللغة لابن فارس (٤٥٥/٥)، مادة: (نفق).
(٣) جامع العلوم والحكم (٤٨١/٢).
(٤) كتاب الإيمان لابن تيمية رحمه الله المجلد السابع (٦٤٥/١٣٩)
(٥) تفسير ابن كثير، ٤٨/١ عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٨]، وانظر: تفسير ابن جرير الطبري، ٢٦٨/١-٢٧٢ .
(٦) البخاري في كتاب الفتن /٦٥٨٠.
(٧) الفريابي: في كتابه التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع١٥٦/١.
٨ هامش بن تيمية في الفتاوى ١٤٠/١١
٩ الفتاوى ١٤١/١١
١٠ ابن منده كتاب الإيمان ٦٠٣/٢
١١ الملل ١٢٨/٣٣
١٢ سنن الترمذي ١٩/٥
(١٣) صحيح البخاري: (٦٧٥٦). وسنن ابن ماجة(٣٩٧٥)، ومسند احمد: ٥٧٩٥.
(١٤) فقه الصلاة ابن القيم ٧٨/١.

أولاً: النفاق الأكبر:

وهو أن يُظهر الإنسان الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، ويُبطن ما يُناقض ذلك كلّه أو بعضه، وهذا هو النفاق الذي كان على عهد رسول الله ﷺ، ونزل القرآن بذمِّ أهله وتكفيرهم، وأخبر أنهم في الدرك الأسفل من النار[٢].

قال ابن القيم: الحامل لهم على النفاق طلب العزّ والجاه بين الطائفتين، فيرضوا المؤمنين ليعزّوهم، ويرضوا الكفار ليعزّوهم أيضاً. ومن ها هنا دخل عليهم البلاء؛ فإنهم أرادوا العزّتين من الطائفتين، ولم يكن لهم غرض في الإيمان والإسلام ولا طاعة الله ورسوله، بل كان ميلهم وصَغْوُهم ووجهتهم إلى الكفار، فقوبلوا على ذلك بأعظم الذّل وهو أن جُعِلَ مستقرّهم في أسفل السافلين تحت الكفار.[٣]

ثانيا:- النفاق الأكبر:

وهو كل ما جاء في النصوص تسمية فاعلها منافقاً مع إخراجه من الملة وتكفيره بذلك سواء كان قولاً أو عملاً أو اعتقاداً، فالنفاق: هو الذي أنكره الله على المنافقين في القرآن و أوجب لهم الدرك الأسفل من النار[٤]، وهذا النوع من النفاق يوجب الخلود في النار في دركها الأسفل وهو أن يظهر للمسلمين إيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وهو في الباطن منسلخ من ذلك كله مكذب به لا يؤمن بأن الله أنزله على بشر و جعله رسولاً للناس يهديهم بإذنه وينذرهم بأسه ويخوفهم عقابه. وقد هتك الله سبحانه أستار المنافقين وكشف أسرارهم في القرآن وجلي لعباده أمورهم ليكونوا منها ومن أهلها على حذر وذكر طوائف العالم الثلاثة في أول سورة البقرة : المؤمنين والكفار والمنافقين. فذكر في المؤمنين أربع آيات وفي الكفار آيتين وفي المنافقين ثلاث عشرة آية لكثرتهم وعموم الابتلاء بهم وشدة فتنتهم على الإسلام وأهله فإن بلية الإسلام بهم شديدة جداً لأنهم منسوبون إليه وإلى نصرته وموالاته وهم أعداؤه في الحقيقة[٥].

الفوائد:

١-من فوائد الآية: بلاغة القرآن؛ بل فصاحة القرآن في التقسيم؛ لأن الله سبحانه وتعالى ابتدأ هذه السورة بالمؤمنين الخلّص، ثم الكفار الخلّص، ثم بالمنافقين؛ وذلك؛ لأن التقسيم مما يزيد الإنسان معرفة، وفهماً.

٢- ومنها: أن القول باللسان لا ينفع الإنسان؛ لقوله تعالى: (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين)

٣- ومنها: أن المنافقين ليسوا بمؤمنين . وإن قالوا: إنهم مؤمنون .؛ لقوله تعالى: { وما هم بمؤمنين }؛ ولكن هل هم مسلمون؟ إن أريد بالإسلام الاستسلام الظاهر فهم مسلمون؛ وإن أريد بالإسلام إسلام القلب والبدن فليسوا بمسلمين.

٤- ومنها: أن الإيمان لا بد أن يتطابق عليه القلب، واللسان.

ووجه الدلالة: أن هؤلاء قالوا: "آمنا" بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم؛ فصح نفي الإيمان عنهم؛ لأن الإيمان باللسان ليس بشيء.

القرآن

{يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩)} [البقرة : ٩]

التفسير:

يعتقدون بجهلهم أنهم يخادعون الله والذين آمنوا بإظهارهم الإيمان وإضمارهم الكفر، وما يخدعون إلا أنفسهم؛ لأن عاقبة خداعهم تعود عليهم، ومِن فرط جهلهم لا يُحِسُّون بذلك؛ لفساد قلوبهم.

فإن المنافقين "من الغفلة بحيث لا يخدعون إلا أنفسهم في غير شعور! إن الله بخداعهم عليم والمؤمنون في كنف الله فهو حافظهم من هذا الخداع اللئيم. أما أولئك الأغفال فهم يخدعون أنفسهم ويغشونها. يخدعونها حين

---

(١) المدارج ابن القيم ٣٤٨/١.

(٢) جامع العلوم والحكم للإمام ابن رجب رحمه الله تعالى، ٤٨٠/٢، وانظر: صفات المنافقين لابن القيم، ص٤.

(٣) طريق الهجرتين (ص٧١٣).

٤ ابن القيم في الصلاة ٧٨/١

(٥) ابن القيم في المدارج ٣٤٨/١

يظنون أنهم أربحوها وأكسبوها بهذا النفاق، وهم في الوقت ذاته يوردونها موارد التهلكة. وينتهون بها إلى شر مصير! "[١].

قوله تعالى: {يُخَادِعُونَ اللهَ}[البقرة:٩]،"أي يخالفون الله"[٢].

قال ابن عثيمين:"أي: بإظهار إسلامهم الذي يعصمون به دماءهم، وأموالهم"[٣].

قال ابن جُرَيْج: يظهرون "لا إله إلا الله" يريدون أن يحرزوا بذلك دماءهم وأموالهم، وفي أنفسهم غير ذلك"[٤].

وقال قتادة:" نعت المنافق: خنع الأخلاق، يصدق بلسانه وينكر بقلبه، ويخالف بعلمه، ويصبح على حال ويسمى على غيره، ويسمى على حال ويصبح على غيره، يتكفأ تكفأ السفينة كلما هبت ريح هب معها"[٥].

قوله تعالى:{والذين آمَنُوا}[البقرة:٩]،أي: "ويخادعون المؤمنين بقولهم إذا رأوهم آمنا"[٦].

قال ابن عثيمين:" ويخدعون الذين آمنوا بإظهار الإسلام، وإبطان الكفر، فيظن المؤمنون أنهم صادقون"[٧].

قال ابن زيد:" هؤلاء المنافِقُون ، يخادعون الله ورسوله والذين آمنوا ، أنهم مؤمنون بما أظهروا"[٨].

قال الزجاج:" يظهرون غير ما في نفوسهم، والتقية تسمى أيضا خداعا، فكأنهم لما أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر صارت تقيتهم خداعا"[٩].

قال الطبري: " وخداعُ المنافق ربَّه والمؤمنينَ ، إظهارُه من القول والتصديق ، خلافَ الذي في قلبه من الشكّ والتكذيب ، ليدْرَأ عن نفسه ، بما أظهر بلسانه ، حكمَ الله عز وجلّ - اللازمَ مَن كان بمثْل حاله من التكذيب ، لو لم يُظْهِرْ بلسانه ما أظهرَ من التصديق والإقرار - من القَتْل والسِّباء. فذلك خِداعُه ربَّه وأهلَ الإيمان بالله"[١٠].

قال أبو حيان:" والله تعالى هو العالم الذي لا يخفى عليه شيء. فمخادعة المنافقين الله هو من حيث الصورة لا من حيث المعنى من جهة تظاهرهم بالإيمان وهم مبطنون للكفر ، قاله جماعة ، أو من حيث عدم عرفانهم بالله وصفاته فظنوا أنه ممن يصح خداعه"[١١].

قال السمعاني:" المخادعة، والخدع بمعنى واحد وحقيقة المخادعة: أن يظهر شيئا ويبطن خلافه"[١٢].

قال القاشاني: "المخادعة: استعمال الخدع من الجانبين، وهو إظهار الخير، واستبطان الشر. ومخادعة الله مخادعة رسوله، لقوله من يطع الرسول فقد أطاع الله [النساء: ٨٠] . فخداعهم لله وللمؤمنين إظهار الإيمان والمحبة، واستبطان لكفر والعداوة. وخداع الله والمؤمنين إياهم مسالمتهم، وإجراء أحكام الإسلام عليهم. بحقن الدماء وحصن الأمول وغير ذلك، وادخار العذاب الأليم، والمآل الوخيم، وسوء المغبة لهم، وخزيهم في الدنيا لافتضاحهم بإخباره تعالى وبالوحي عن حالهم. لكن الفرق بين الخداعين: أن خداعهم لا ينجح إلا في أنفسهم. بإهلاكها، وتحسيرها، وإيراثها الوبال والنكال- بازدياد الظلمة، والكفر، والنفاق، واجتماع أسباب الهلكة، والبعد والشقاء، عليها- وخداع الله يؤثر فيهم أبلغ تأثير، ويوبقهم أشد إيباق، كقوله

---

(١) في ظلال القرآن (١/ ٤٢-٣)
(٢) تفسير البغوي: ١/٦٥-٦٦.
(٣)تفسير ابن عثيمين:١/٤٠.
(٤)تفسير ابن أبي حاتم (١/٤٦)ز وتفسير ابن كثير: ١/١٧٨.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٨):ص١/٤٣.
(٦) تفسير البغوي: ١/٦٥-٦٦.
(٧) تفسير ابن عثيمين:١/٤٠.
(٨) أخرجه الطبري(٣٢٠):ص١/٢٧٣-٢٧٤.

(٩) معاني القرآن: ١/٨٥.
(١٠) تفسير الطبري:١/٢٧٢-٢٧٣.
(١١) البحر المحيط: ١/٣٩.
(١٢)تفسير السمعاني: ١/٤٧.

تعالى: ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين [آل عمران: ٥٤] ، وهم- من غاية تعمقهم في جهلهم- لا يحسون بذلك الأمر الظاهر"(١).

قال الزمخشري: "فان قلت : عم كانوا يخادعون؟

قلت: كانوا يخادعونهم عن أغراض لهم ومقاصد منها متاركتهم وإعفاؤهم عن المحاربة وعما كانوا يطرقون به من سواهم من الكفار. ومنها اصطناعهم بما يصطنعون به المؤمنين من إكرامهم والإحسان إليهم وإعطائهم الحظوظ من المغانم ونحو ذلك من الفوائد ، ومنها اطلاعهم - لاختلاطهم بهم - على الأسرار التي كانوا حراصا على إذاعتها إلى منابذيهم. فإن قلت : فلو أظهر عليهم حتى لا يصلوا إلى هذه الأغراض بخداعهم عنها"(٢).

و"الخداع" -في اللغة- فهو : "الإخفاء، جاء في معجم الأفعال: "أخدعت الشيء: أخفيته، ومنه المخدع: وهي الخزانة، والأخدعان: العرقان في العنق لخفائهما"(٣).

وقال صاحب اللسان: " الخدع: إظهار خلاف ما تخفيه ..، وخديعة وخدعة أي : أراد به المكروه وختله من حيث لا يعلم"(٤).

وفي الاصطلاح ": الخداع: إنزال الغير عما هو بصدده بأمر يبديه على خلاف ما يخفيه"(٥).

وذكر الخداع في القرآن الكريم في خمسة مواضع، في ثلاث سور، في ثلاث آيات، ومن الملاحظ أن هذه السور كلها مدنية، وفي هذا إشارة إلى ظهور النفاق وفشوه بعد الهجرة إلى المدينة المنور ة؛ لتحذير المسلمين من هذا الداء الخطير؛ ولتو هين كيد هؤلاء المنافقين، والتأكيد على أن مكرهم وخداعهم إلى البوار(٦).

والخداع يلتقي مع المكر في إضمار الشر والمكروه إذا كان من البشر، باستثناء الخداع في الحرب، فهو من باب : التخطيط والتدبير الجائز؛ لقوله عليه السلام في الحديث الذي رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنهما : "الحرب خدْعة "(٧)، وهو من باب المقابلة والتدبير والجزاء، إذا كان من الله تعالى، قال تعالى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا} [النساء : ١٤٢]، قال الشوكاني: ومعنى كون الله خادعهم: أنه صنع بهم صنع من يخادِع من خادعه، وذلك أنه تركهم على ما هم عليه من التظاهر بالإسلام في الدنيا فعصم به أموالهم ودماءهم، وأخّر عقوبتهم إلى الدار الآخرة، فجازاهم على خداعهم بالدرك الأسفل من النار"(٨).

قوله تعالى: {وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُم}[البقرة:٩]، "أي: وما يخدعون في الحقيقة إلا أنفسهم لأن وبال فعلهم راجع عليهم"(٩).

قال ابن عثيمين:" أي: ما يخدع هؤلاء المنافقون إلا أنفسهم، حيث منّوها الأماني الكاذبة"(١٠).

---

(١) محاسن التأويل: ٢٤٨/١-٢٤٩.

(٢) الكشاف: ٥٨/١.

(٣) الأفعال، أبو القاسم علي بن جعفر السعدي(ت٥١٥هـ)، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٣:١/٢٨٦.

(٤) لسان العرب: ٦٣/٨.

(٥) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني: ١٤٣.

(٦) ومن الآيات التي ورد فيها الخداع،قوله تعالى:

- {وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ} [الأنفال : ٦٢].

- {يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ} [البقرة : ٩].

- {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا} [النساء : ١٤٢].

- {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا} [النساء : ١٤٢].

(٧) رواه البخاري في الجامع الصحيح المختصر(كتاب الجهاد والسير، باب: الحرب خدعة):(٢٨٦٦): ١١٠٢/٣.

(٨) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني(١٢٥٠هـ)، دار الفكر، بيروت: ٥٢٩/١.

(٩) صفوة التفاسير: ٢٩/١.

(١٠)تفسير ابن عثيمين:٤٠/١.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو (وما يخادعون) بالألف[1].
قوله تعالى: {وَمَا يَشْعُرُونَ} [البقرة:٩]، أي: "وما يَدْرُون"[2].
قال البغوي:" أي لا يعلمون أنهم يخدعون أنفسهم وأن وبال خداعهم يعود عليهم"[3].
قال الصابوني: أي: "ولا يُحسّون بذلك ولا يفطنون إليه، لتمادي غفلتهم، وتكامل حماقتهم"[4].
قال ابن عثيمين:"أي ما يشعر هؤلاء أن خداعهم على أنفسهم مع أنهم يباشرونه؛ ولكن لا يُحِسُّون به، كما تقول: "مَرَّ بي فلان ولم أشعر به"[5].
يقال : ما شَعَرَ فلانٌ بهذا الأمر ، وهو لا يشعر به - إذا لم يَدْرِ ولم يَعْلم - شِعرًا وشعورًا. ومنه قول الشاعر[6]:

عَقَّوْا بِسَهمٍ وَلَمْ يَشْعُر بِهِ أَحَدٌ   ثُمَّ اسْتَفَاءُوا وَقَالُوا : حَبَّذَا الوَضَحُ

يعني بقوله : لم يَشعر به ، لم يدر به أحد ولم يعلم[7].
الفوائد:
١- من فوائد الآية: مكر المنافقين، وأنهم أهل مكر، وخديعة؛ لقوله تعالى: { يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم }؛ ولهذا قال الله تعالى في سورة المنافقين: {هم العدو فاحذرهم} [المنافقون: ٤] ؛ فحصر العداوة فيهم؛ لأنهم مخادعون.
٢- ومنها: التحفظ من المنافقين؛ لأنه إذا قيل لك: "فلان يخدع" فإنك تزداد تحفظاً منها؛ وأنه ينبغي للمؤمن أن يكون يقظاً حذراً، فلا ينخدع بمثل هؤلاء.
فإن قال قائل: كيف نعرف المنافق حتى نكون حذرين منه؟
فالجواب: نعرفه بأن نتتبع أقواله، وأفعاله: هل هي متطابقة، أو متناقضة؟ فإذا علمنا أن هذا الرجل يتملق لنا، ويظهر أنه يحب الإسلام، ويحب الدين، لكن إذا غاب عنا نسمع عنه بتأكد أنه يحارب الدين عرفنا أنه منافق؛ فيجب علينا أن نحذر منه.
٣- ومن فوائد الآية: أن المكر السيئ لا يحيق إلّا بأهله؛ فهم يخادعون الله، ويظنون أنهم قد نجحوا، أو غلبوا؛ ولكن في الحقيقة أن الخداع عائد عليهم؛ لقوله تعالى: { وما يخدعون إلا أنفسهم }: فالحصر هنا يدل على أن خداعهم هذا لا يضر الله تعالى شيئاً، ولا رسوله، ولا المؤمنين.
٤- ومنها: أن العمل السيئ قد يُعمي البصيرة؛ فلا يشعر الإنسان بالأمور الظاهرة؛ لقوله تعالى: { وما يشعرون } أي ما يشعرون أنهم يخدعون أنفسهم؛ و "الشعور" أخص من العلم؛ فهو العلم بأمور دقيقة خفية؛ ولهذا قيل: إنه مأخوذ من الشَّعر؛ والشعر دقيق؛ فهؤلاء الذين يخادعون الله، والرسول، والمؤمنين لو أنهم تأملوا حق التأمل لعرفوا أنهم يخدعون أنفسهم، لكن لا شعور عندهم في ذلك؛ لأن الله تعالى قد أعمى بصائرهم . والعياذ بالله .، فلا يشعرون بهذا الأمر.

القرآن
{فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠)} [البقرة : ١٠]

---

(١) أنظر: محاسن التأويل: ٢٤٩/١.
(٢) تفسير الطبري: ٢٧٧/١.
(٣) تفسير البغوي: ٦٦/١.
(٤) صفوة التفاسير: ٢٩/١.
(٥)تفسير ابن عثيمين:٤٠/١.
(٦)الشعر للمتنخل الهذلي ، ديوان الهذليين ٢ : ٣١ ، وأمالي القالي ١ : ٢٤٨ ، وسمط اللآلئ ٥٦٣ . عقى بالسهم : رمى به في السماء لا يريد به شيئًا ، وأصله في الثأر والدية ، وذلك أنهم كانوا يجتمعون إلى أولياء المقتول بدية مكملة ، ويسألونهم قبول الدية . فإن كانوا أقوياء أبوا ذلك ، وإلا أخذوا سهمًا ورموا به في السماء ، فإن عاد مضرجًا بدم ، فقد زعموا أن ربهم نهاهم عن أخذ الدية . وإن رجع كما صعد ، فقد زعموا أن ربهم أمرهم بالعفو وأخذ الدية . وكل ذلك أبطل الإسلام . وفاء واستفاء : رجع . والوضح : اللبن . يهجوهم بالذلة والدناءة ، فأهدروا دم قتيلهم ، ورموا بالسهم الذي يزعمونه يأمرهم وينهاهم ، ورجعوا عن طلب الترة إلى قبول الدية ، وآثروا إبل الدية وألبانها على دم قاتل صاحبهم ، وقالوا في أنفسهم : اللبن أحب إلينا من القود وأنفع .
(٧) أنظر: تفسير الطبري: ٢٧٧/١-٢٧٨.

التفسير:
في قلوبهم شكٌّ وفساد فابْتُلوا بالمعاصي الموجبة لعقوبتهم، فزادهم الله شكًا، ولهم عقوبة موجعة بسبب كذبهم ونفاقهم.
قوله تعالى: {فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ}[البقرة:١٠]، أي: في قلوبهم: "شك ونفاق"(١).
قال الثعلبي:"ومنه يقال: فلان يمرض في الوعد، إذا لم يصحّحه"(٢).
و" المرض الذي وصَف الله جل ثناؤه أنه في قلوب المنافقين، هو الشكُّ في اعتقادات قلوبهم وأديانهم، وما هم عليه - في أمر محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمر نبوته وما جاء به - مقيمون"(٣).
وأصل المرَض : السَّقم ، ثم يقال ذلك في الأجساد والأديان. فأخبر الله جلّ ثناؤه أن في قلوب المنافقين مَرَضًا ، وإنما عنى تبارك وتعالى بخبره عن مرض قلوبهم ، الخبرَ عن مرض ما في قلوبهم من الاعتقاد ولكن لمّا كان معلومًا بالخبَر عن مرض القلب ، أنَّه معنيٌّ به مرضُ ما هم معتقدُوه من الاعتقاد - استغنى بالخبَر عن القلب بذلك والكفاية عن تصريح الخبَر عن ضمائرهم واعتقاداتهم كما قال عُمر بن لَجَأ(٤) :
وَسَبَّحَتِ الْمَدِينَةُ ، لا تَلُمْهَا ، رَأَتْ قَمَرًا بِسُوقِهِمُ نَهَارَا
يريد : وسبَّح أهل المدينة ، فاستغنى بمعرفة السامعين خَبَرَه بالخبَرِ عن المدينة ، عن الخبر عن أهلها. ومثله قول عنترة العبسي(٥):
هَلا سَأَلتِ الْخَيْلَ يَا ابْنَةَ مَالِكٍ إنْ كُنْتِ جَاهِلَةً بِمَا لَمْ تَعْلَمِي
يريد : هلا سألتِ أصحاب الخيل؟(٦)
وقول مهلهل بن ربيعة(٧):
أُبئتُ أنّ النارَ بعدكَ أُوقدتْ واستبّ بعدكَ يا كُليبُ المجلسُ
يعني أهل المجلس.
واختلف في قوله تعالى: {فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ}[البقرة:١٠]، على وجوه:
أحدها: المرض: الزنا. قاله عكرمة(٨) وروي عن طاوس مثل ذلك(٩).
الثاني: أنه: النفاق. قاله ابن عباس(١٠).
الثالث: أنه: الشكّ. قاله أبو العالية(١١)، وابن عباس(١٢)،وكذا روي عن مجاهد، والحسن، وعكرمة، والربيع بن أنس، والسدي، وقتادة(١٣).
قوله تعالى:{فَزَادَهُمُ الله مَرَضاً}[البقرة:١٠]، أي ":فزادهم الله رجساً فوق رجسهم، وضلالاً فوق ضلالهم"(١٤).
قال الثعلبي: أي:" شكًا ونفاقا وهلاكا"(١٥).
وذكر السادة أهل التفسير في قوله تعالى:{ فَزَادَهُمُ الله مَرَضاً}[البقرة:١٠]، وجوها:
أحدها: {{فَزَادَهُمُ الله مَرَضاً}: "أي: شكًا". قاله ابن عباس(١)، وري عن أبي العالية مثل ذلك(٢).

---

(١) تفسير الثعلبي: ١٥٤/١، وانظر: تفسير البغوي: ٦٦/١، وانظر: صفوة التفاسير: ٢٩/١.
(٢) تفسير الثعلبي: ١٥٤/١.
(٣) تفسير الطبري: ٢٨١/١.
(٤) البيت من شواهد الطبري في تفسيره: ٢٧٩/١.
(٥) في معلقته المشهورة، أنظر: شرح المعلقات للنحاس: ٣٠/٢، وديوانه: ٢٥.
(٦) أنظر: تفسير الطبري: ٢٧٨/١-٢٧٩.
(٧) ديوانه:٢٨٠، وانظر: أمالي ابن الشجري:٥٢/١، وتفسير القرطبي: ٣٢/١، و٢٣٩.
(٨) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٠٩):ص٤٣/١.
(٩) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(١١٠):ص٤٣/١.
(١٠) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(١١١):ص٤٣/١.
(١١) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(١١٣):ص٤٣/١.
(١٢) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(١١٢):ص٤٣/١.
(١٣) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم٤٣/١.
(١٤) صفوة التفاسير: ٢٩/١.
(١٥) تفسير الثعلبي: ١٥٤/١.

والثاني: أن:" المرض مرضان: مرض زنا، ومرض نفاق"قاله زيد بن علي[٣]، وري عن عكرمة مثل ذلك[٤].
والثالث: وقيل: "{فزادهم الله مرضا}، أي: نفاقا". قاله سعيد بن جبير[٥].
قال الواحدي: "أى: شكًّا على شكٍّ وفسادًا على فساد. بما أنزل من القرآن، فشكّوا فيه كما شكّوا في الذي قبله كقوله تعالى: {وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ} الآية [التوبة: ١٢٤]"[٦].
واختلف في قوله تعالى{فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً}[البقرة:١٠]، على وجهين:
أحدهما: قيل هو خبر، والفاء للسبية، أي: أن الله قد فعل بهم ذلك وهذه الزيادة هي بما ينزل من الوحي ويظهر من البراهين، فهي على هؤلاء المنافقين عمى وكلما كذبوا زاد المرض[٧].
والثاني: وقيل هو دعاء، والفاء هنا للتفريغ، وتكون الجملة بعدها دعائية، أي: " زادهم الله شكا ونفاقا جزاء على كفرهم وضعفا عن الانتصار وعجزا عن القدرة"[٨].
كما قال الأخطل[٩] :
يا مرسل الريح جنوبا وصبا   إذ غضبت زيد فزدها غضبا
أي: لا تهدها على الانتصار فيما غضبت منه.
قال القرطبي: " وعلى هذا يكون في الآية دليل على جواز الدعاء على المنافقين والطرد لهم ; لأنهم شر خلق الله "[١٠]، ولأن المنافقين يريدون الكفر، وهذه الإرادة مرض أدى بهم إلى زيادة المرض؛ لأن الإرادات التي في القلوب عبارة عن صلاح القلوب، أو فسادها؛ فإذا كان القلب يريد خيراً فهو دليل على سلامته، وصحته؛ وإذا كان يريد الشر فهو دليل على مرضه، وعلته.وهؤلاء قلوبهم تريد الكفر؛ لأنهم يقولون لشياطينهم إذا خلوا إليهم: {إنا معكم إنما نحن مستهزئون} [البقرة: ١٤]، أي بهؤلاء المؤمنين السذج . على زعمهم . ويرون أن المؤمنين ليسوا بشيء، وأن العِلية من القوم هم الكفار؛ ولهذا جاء التعبير بـ {إنا معكم} [البقرة: ١٤] الذي يفيد المصاحبة، والملازمة، فهذا مرض زادهم الله به مرضاً إلى مرضهم حتى بلغوا إلى موت القلوب، وعدم إحساسها، وشعورها[١١].
وقرأ حمزة: {فزادهم}، بكسر (الزاي)، وكذلك ابن عامر. وكان نافع يشم (الزاي) إلى الكسر، وفتح الباقون[١٢].
قوله تعالى: {وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[البقرة:١٠]، "أي ولهم عذابٌ مؤلمٌ"[١٣].
أخرج ابن أبي حاتم بسنده "عن أبي العالية، في قوله: {ولهم عذاب أليم}، قال: الأليم: الموجع في القرآن كله"[١٤].
قال ابن أبي حاتم:" وكذلك فسره سعيد بن جعفر، والضحاك بن مزاحم، وقتادة وأبو مالك، وأبو عمران الجوني، ومقاتل بن حيان"[١٥].
قال الثعلبي: أي: "وجيع يخلص وجعه إلى قلوبهم، وهو بمعنى مؤلم"[١].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم: (١١٤):ص١/٤٣-٤٤.
(٢) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(١١٥):ص١/٤٤.
(٣) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(١١٦):ص١/٤٤.
(٤) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(١١٧):ص١/٤٤.
(٥) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(١١٨):ص١/٤٤.
(٦) البسيط: ٢/١٥٠-١٥١.
(٧) انظر: المحرر الوجيز، أبو محمد عبدالحق بن غالب بن عطية الأندلسي، دار الكتب العلية، لبنان، ط١، ١٩٩٣: ١/٩٣.
(٨) تفسير القرطبي: ١/١٩٧.
(٩) ديوانه: ٣١٩.
(١٠) تفسير القرطبي: ١/١٩٧.
(١١) أنظر: تفسير ابن عثيمين: ١/٤٧.
(١٢) أنظر: المحرر الوجيز: ١/٩٢.
(١٣) صفوة التفاسير: ١/٢٩.
(١٤) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(١١٩):ص١/٤٤.
(١٥) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم:ص١/٤٤.

قال القرطبي: "(أليم)، في كلام العرب معناه مؤلم أي موجع، مثل السميع بمعنى المسمع، قال ذو الرمة يصف إبلا[٢] :

ونرفع من صدور شمردلات يصُك وجوهها وهج أليم[٣]

كما قال تعالى وصف عذاب المنافقين: {بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} [النساء : ١٣٨]، وقال تعالى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا} [النساء : ١٤٥]، قال هنا في المنافقين(وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)، بينما قال في الكفار كما تقدم {خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [البقرة : ٧]، وذلك لأن الأليم هو البالغ في الإيلام الغاية العظمى.

قوله تعالى: {بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ}[البقرة:١٠]، أي:"بسبب كذبهم في دعوى الإيمان، واستهزائهم بآيات الرحمن"[٤].

أخرج ابن أبي حاتم بسنده "عن ابن عباس، في قوله: {بما كانوا يكذبون، يقول: يبدلون ويحرفون"[٥].

قال الثعلبي:" أي بتكذيبهم على الله ورسوله في السرّ"[٦].

وحقيقة الكذب: "الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو به، وقد يستعار لفظ الكذب فيما ليس بكذب في الحقيقة"[٧]، كقول الأخطل[٨]:

كَذبتكَ عينُك أمْ رَأيتَ بواسطٍ

كأنها لما أوهمته خلاف الحقيقة كانت بمنزلة ما كذبته[٩].

والكذب من أقبح الخصال؛ وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الكذب من خصال المنافقين، فقال صلى الله عليه وسلم "آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب.."[١] الحديث.

ومرض القلب نوعان[١٠]:

١- مرض شبهة وشك[١١]، ومرض شهوة وغي، وكلاهما في القرآن، قال تعالى في مرض الشبهة {فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا} [البقرة : ١٠]، وقال تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا

---

(١) تفسير الثعلبي: ١٥٤/١.
(٢) ديوانه: ٦٧٧/٢، قال الباهلي في شرحه: شمردلات: هي نوق طوال سراع، ويصكّ يضرب، ووهج، أي حرّ شديد.
(٣) تفسير القرطبي: ١٩٨/١.
(٤) صفوة التفاسير: ٢٩/١.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٠):ص٤٤/١.
(٦) تفسير الثعلبي: ١٥٤/١.
(٧) التفسير البسيط: ١٥٣/٢. قال أبو حيان: والكذب له محامل في لسان العرب، أحدها: الإخبار بالشيء على خلاف ما هو عليه. والثاني: الإخبار بالذي يشبه الكذب ولا يقصد به إلا الحق. والثالث: الخطأ. الرابع: البطول. الخامس: الإغراء بلزوم المخاطب الشيء المذكور. "البحر المحيط" ١/ ٦٠، وانظر: "الكشاف" ١/ ١٧٨، "الدر المصون" ١/ ١٣٢.
(٨)البيت مطلع قصيدة للأخطل يهجو بها جريرا وقوله (كذبتك عينك): أي خيل إليك، وواسط: مكان بين البصرة والكوفة. البيت من شواهد سيبويه ٣/ ١٧٤. وورد في "المقتضب" ٣/ ٢٩٥، "تهذيب اللغة" (الكذب) ٤/ ٣١١٤، "مغنى اللبيب" ١/ ٤٥.
(٩) أنظر: التفسير البسيط: ١٥٤/٢.
(١) أخرجه البخاري ص٥، كتاب الإيمان، باب ٢٤: علامات المنافق، حديث رقم ٣٣؛ وأخرجه مسلم ص٦٩٠، كتاب الإيمان، باب ٢٥: خصال المنافق، حديث رقم ٢١١ [١٠٧] ٥٩.
(١٠) انظر: زاد المعاد، ابن القيم الجوزية، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٨: ٤/٥.
(١١) وهو كل داء يشتمل على شبهة وهو على أنواع كثيرة منها:
(١) النفاق: وهو إظهار الخير وإبطان الشر وهو قسمان أكبر اعتقادي وأصغر عملي من التخلق بأخلاق المنافقين. وقد ذم الشارع التخلق بأخلاق المنافقين وأفعالهم لأنه يفضي بالإنسان إلى الوقوع في النفاق الأكبر.
(٢)الشك: وهو التردد في ثبوت الحق الذي دل عليه الشرع من تفرد الله ووحدانيته في الربوبية والأسماء والصفات والألوهية وغير ذلك من القطعيات.
(٣) سوء الظن: بأن يسيء العبد الظن بربه وأفعاله وأقداره وآياته ورسله وأولياءه.
(٤)الرياء: بأن يظهر العبد عمل الآخرة مراءاة للناس وطمعا في الدنيا .
(٥) الوساوس: بأن تستولي وساوس الكفر والشك والإلحاد على قلب العبد وفكره ويستجيب لها.
(٦) موالاة الكفار: بأن يؤثر العبد محبة الكفار وموالاتهم ونصرتهم وإحسان الظن بهم والعياذ بالله.
(٧) فتنة التكفير والتبديع: بأن يغلو العبد في تكفير المسلمين وتبديعهم لأدنى شبهة ويولع في الكلام في هذه المسائل.

عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ} [المدثر : ٣١]، وقوله تعالى في حق من دعي إلى تحكيم القرآن والسنة فأبى وأعرض: {أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [النور : ٥٠].

٢- مرض الشهوات(١)، وأما مرض الشهوات فقال تعالى {يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا} [الأحزاب : ٣٢]، فهذا مرض شهوة الزنا، وقال عن مرض الشبهات : هو أصعبهما وأقتلهما للقلب.

وإن مرض الشبهات أخطر بكثير على العبد من مرض الشهوات لأنه قد يفضي إلى الكفر وليس من السهولة التوبة منه والتخلص من تأثيره، ولذلك كثير من أصحابه ينافحون ويعتقدون أنهم على صواب خلافا لمرض الشهوة الذي يدرك العبد غالبا أنه مبتلى به وتنفع معه المواعظ والتذكير وقد يتخلص منه، والواجب على المؤمن أن يشخص قلبه ويطهر قلبه ويغسل باطنه من جميع هذه الأمراض بزيادة الإيمان والإكثار من العمل الصالح وطلب الهداية وصدق التوجه والبعد عن مواطن الفتنة وصحبة أرباب القلوب السليمة وإغلاق أبواب الشرور والفتنة عن قلبه. ومرض الشبهات شفاؤه يكون بالعلم والحجة ومرض الشهوات شفاؤه يكون بالمواعظ والإيمانيات.

ولا يكاد أحد يسلم من عارض وخاطر سوء ولكن المؤمن الحق هو الذي يكثر من تعاطي الدواء ويجتهد في التزكية والإصلاح لقلبه ويجاهد نفسه في ذلك بحيث لا يستقر فيه المرض ولا يكون ملازما له ومن كان كذلك كان حريا لنجاته وسلامته لقوله تعالى: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [العنكبوت : ٦٩]، وأما من أهمل قلبه وأعرض عن طلب الدواء عاقبه الله بالحرمان وزيادة المرض وأبعده عن روضة اليقين وساحة الرضا والاطمئنان.

وقوله تعالى: {يَكْذِبُونَ}[البقرة:١٠]، فيه قراءتان:

القراءة الأولى: قرأ أهل الكوفة(٢) {يَكْذِبُونَ} بالتخفيف من الكذب، وهو أشبه بما قبله وبما بعده؛ لأن قبله: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ} [البقرة: ٨] وهذا كذب منهم، وبعده قوله: {وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ} [البقرة: ١٤] وهذا يدل على كذبهم في دعوى الإيمان"(٣). ورجح الطبري هذه القراءة(٤).

---

(١)وهو كل داء يشتمل على شهوة وهو على أنواع، منها:

(١) حب الرئاسة: بأن يفتن العبد بحب الرئاسة والقيادة وتستشرف نفسه لذلك فيهلك.

(٢) حب الشهرة: بأن يفتن العبد ويسعى بكل ما يملك في نيل الشهرة في الأعمال الخيرية.

(٣) حب الدنيا: بأن يفتن العبد بحب الدنيا وتكون همه ومبلغ علمه وغاية مراده.

(٤) فتنة النساء: بأن تستولي على القلب الفتنة بحب النساء والجنس ويوظف العبد كل طاقاته في هذا السبيل من غير وقوف عند حدود الشرع.

(٥) حب الصور: بأن يفتن العبد بحب الصور الجميلة وعشقها والهيام بها.

(٦) شهوة الكبر: بأن يصاب القلب بشهوة الترفع والتكبر على عباد الله.

(٧) شهوة الحسد: بأن يمتلأ القلب بمرض تمني زوال النعمة من الغير وحب التفوق على الآخرين في الدنيا.

(٨) شهوة الظلم: بأن يستلذ القلب ويستمتع بإيقاع الظلم بجميع صوره على الآخرين من سب وشتم وغيبة ونميمة وإفساد واستباحة للأموال المعصومة.

(٢)عاصم وحمزة والكسائي انظر "السبعة" لابن مجاهد ص ١٤٣، "الحجة" لأبي علي ١/ ٣٢٩، "الكشف" لمكي١/ ٢٢٧، و"تفسير الطبري" ١/ ١٢١ - ١٢٣.

(٣) التفسير البسيط: ١٥٤/٢. قال الواحدي: " وأيضا فإن قوله تعالى {وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ} لا يخلو إما أن يراد به المنافقون، أو المشركون، أو الفريقان جميعاً. فإن أراد المنافقين فقد قال فيهم: {وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١)} [المنافقون: ١]، وإن كانوا المشركين فقد قال: {وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٩٠) مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ} [المؤمنون: ٩٠ - ٩١]. وإن كانوا الفريقين فقد أخبر عنهم جميعا بالكذب الذي يلزم أن يكون فعله (يكذبون) بالتخفيف".[وانظر: الحجة:٣٣٧/١].

(٤) أنظر: تفسيره: ١٢٣/١.

القراءة الثانية:{يُكَذِّبُونَ}، بضم الياء وتشديد الذال، رجحه مكي[1]، قال الواحدي: "ومن شدد فلكثرة ما في القرآن مما يدل على التثقيل كقوله: {وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ} [الأنعام: ٣٤] وقوله: {بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ} [يونس: ٣٩]، {وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي} [يونس: ٤١] ونحوها من الآيات"[2].

الفوائد:

١- من فوائد الآية: أن الإنسان إذا لم يكن له إقبال على الحق، وكان قلبه مريضاً فإنه يعاقب بزيادة المرض؛ لقوله تعالى: { في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً }؛ وهذا المرض الذي في قلوب المنافقين: شبهات، وشهوات؛ فمنهم من علم الحق، لكن لم يُرده؛ ومنهم من اشتبه عليه؛ وقد قال الله تعالى في سورة النساء: {إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلًا} [النساء: ١٣٧] ، وقال تعالى في سورة المنافقين: {ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون} [المنافقون: ٣].

٢-ومن فوائد الآية: أن أسباب إضلال اللَّهِ العبدَ هو من العبد؛ لقوله تعالى: { في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً }؛ ومثل ذلك قوله تعالى: {فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم} [الصف: ٥] ، وقوله تعالى: {ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة} [الأنعام: ١١٠] ، وقوله تعالى: {فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم} [المائدة: ٤٩] .

٣-ومنها: أن المعاصي والفسوق، تزيد وتنقص، كما أن الإيمان يزيد وينقص؛ لقوله تعالى: { فزادهم الله مرضاً }؛ والزيادة لا تُعقل إلا في مقابلة النقص؛ فكما أن الإيمان يزيد وينقص، كذلك الفسق يزيد، وينقص؛ والمرض يزيد، وينقص.

٤-ومنها: الوعيد الشديد للمنافقين؛ لقوله تعالى:{ولهم عذاب أليم}.

٥-ومنها: أن العقوبات لا تكون إلا بأسباب ـ أي أن الله لا يعذب أحداً إلا بذنب ـ؛ لقوله تعالى:{ بما كانوا يكذبون}.

٦-ومنها: أن هؤلاء المنافقين جمعوا بين الكذب، والتكذيب؛ وهذا شر الأحوال.

٧-ومنها: ذم الكذب، وأنه سبب للعقوبة؛ فإن الكذب من أقبح الخصال؛ وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الكذب من خصال المنافقين، فقال صلى الله عليه وسلم "آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب.."[1] الحديث؛ والكذب مذموم شرعاً، ومذموم عادة، ومذموم فطرة أيضاً.

مسألة :-

إن قيل: كيف يكون خداعهم لله وهو يعلم ما في قلوبهم؟

فالجواب: أنهم إذا أظهروا إسلامهم فكأنما خادعوا الله؛ لأنهم حينئذ تُجرى عليهم أحكام الإسلام، فيلوذون بحكم الله ـ تبارك وتعالى ـ حيث عصموا دماءهم وأموالهم بذلك.

القرآن

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١)} [البقرة : ١١]

التفسير:

وإذا نُصحوا ليكفُّوا عن الإفساد في الأرض بالكفر والمعاصي، وإفشاء أسرار المؤمنين، وموالاة الكافرين، قالوا كذبًا وجدالا إنما نحن أهل الإصلاح.

اختلف أهل التفسير فِيمَنْ نزلتهذه الآية، على ثلاثة أقوال[3]:

أحدها : أنها نزلت في قوم، لم يكونوا موجودين في ذلك الوقت ، وإنما يجيئون بعد ، وهو قول سلمان الفارسي[1].

---

(١)انظر: الكشف: ١/ ٢٢٨.

(٢) التفسير البسيط: ٢/٥٥، وانظر: "الحجة" لأبي علي:١/ ٣٣٧. وانظر "الكشف" لمكي: ١/ ٢٢٨.

(١) أخرجه البخاري ص٥، كتاب الإيمان، باب ٢٤: علامات المنافق، حديث رقم ٣٣؛ وأخرجه مسلم ص٦٩٠، كتاب الإيمان، باب ٢٥: خصال المنافق، حديث رقم ٢١١ [١٠٧] ٥٩.

(٣) أنظر: النكت والعيون: ٧٤/١.

الثاني : أنها نزلت في المنافقين ، الذين كانوا موجودين ، وهو قول ابن مسعود[٢]، وابن عباس[٣] ومجاهد[٤]، وروي عن الربيع مثل ذلك[٥].
الثالث: وقيل: أريد به "اليهود، أي: قال لهم المؤمنون { لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ } بالكفر وتعويق الناس عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآ، وقيل معناه لا تكفروا ، والكفر أشد فسادا في الدين". حكاه البغوي[٦].
والراجح-والله أعلم- أنها: "نزلت في المنافقين الذين كانوا على عَهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن كان معنيًّا بها كُلُّ من كان بمثل صفتهم من المنافقين بعدَهم إلى يوم القيامة، وقد يَحْتَمِل قولُ سلمان عند تلاوة هذه الآية : " ما جاء هؤلاء بعدُ " ، أن يكون قاله بعد فناء الذين كانوا بهذه الصِّفَة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خبرًا منه عمَّن هو جَاء منهم بَعدَهم ولمَّا يجئ بعدُ ، لا أنَّه عنَى أنه لم يمضِ ممّن هذه صفته أحدٌ"[٧].
قوله تعالى:{وَإِذَا قِيلَ}[البقرة: ١١]، " أي: وإذا قال لهم بعض المؤمنين"[٨].
قال ابن عثيمين:" القائل هنا مبهم للعموم . أي: ليعم أيَّ قائل كان"[٩].
قوله تعالى: {لاَ تُفْسِدُوا في الأَرضِ}[البقرة:١١]، أي: " لا تسعوا في الأرض بالإفساد بإثارة الفتن، والكفر والصَدِّ عن سبيل الله"[١٠].
وقوله تعالى: {فِي الْأَرْضِ}[البقرة:١١]: المراد الأرض نفسها؛ أو أهلها؛ أو كلاهما . وهو الأولى؛ أما إفساد الأرض نفسها: فإن المعاصي سبب للقحط، ونزع البركات، وحلول الآفات في الثمار، وغيرها، كما قال تعالى عن آل فرعون لما عصوا رسوله موسى عليه السلام: {ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون} [الأعراف: ١٣٠]، فهذا فساد في الأرض، وأما الفساد في أهلها: فإن هؤلاء المنافقين يأتوا إلى اليهود، ويقولون لهم: {لئن أخرجتم لنخرجنَّ معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم} [الحشر: ١١] : فيزدادوا استعداءً للرسول صلى الله عليه وسلم ومحاربة له؛ كذلك أيضاً من فسادهم في أهل الأرض: أنهم يعيشون بين المسلمين، ويأخذون أسرارهم، ويفشونها إلى أعدائهم؛ ومن فسادهم في أهل الأرض: أنهم يفتحون للناس باب الخيانة والتَقِيَّة، بحيث لا يكون الإنسان صريحاً واضحاً، وهذا من أخطر ما يكون في المجتمع[١١].
وقد ذكر أهل التفسير في قوله تعالى:{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا في الأَرضِ} [البقرة:١١]، ثلاثة وجوه[١٢]:
أحدها : أنه الكفر، والعمل بالمعصية. قاله أبو العالية[١٣] والسدي[١٤].
والثاني : فعل ما نهى الله عنه ، وتضييع ما أمر بحفظه، قال ابن عثيمين:" أن "الإفساد في الأرض" هو أن يسعى الإنسان فيها بالمعاصي، كما فسره بذلك السلف؛ لقوله تعالى: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ

---

(١) أنظر: تفسير الطبري(٣٣٧)، و(٣٣٨):ص٢٨٧/١-٢٨٨، وتفسير ابن أبي حاتم(١٢٣):ص٤٥/١، وهذا الخبر نقله ابن كثير ١ : ٩١ ، والسيوطي ١ : ٣٠ ، ونسبه أيضًا لوكيع وابن أبي حاتم ، وذكره الشوكاني ١ : ٣١ ونسبه لابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم ، ولم أجد نسبته لابن إسحاق عند غيره .
(٢) أنظر: تفسير الطبري(٣٣٩):ص٢٨٨/١.
(٣) أنظر: تفسير الطبري(٣٣٩):ص٢٨٨/١.
(٤) انظر: تفسير الطبري(٣١٣)، و(٣١٤)، و(٣١٦):ص٢٦٩/١.
(٥) أنظر: تفسير الطبري(٣٤٠):ص٢٨٨/١.
(٦) أنظر: تفسيره: ٦٦/١.
(٧) تفسير الطبري: ٢٨٨/١-٢٨٩.
(٨) صفوة التفاسير: ٣٠/١.
(٩) تفسير ابن عثيمين: ٤٦/١.
(١٠) صفوة التفاسير: ٣٠/١.
(١١) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٥٠/١.
(١٢) أنظر: النكت والعيون: ٧٤/١.
(١٣) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢١):ص٤٤/١-٤٥.
(١٤) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٢):ص٤٥/١.

أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الروم : ٤١] "(١)، لأنه "من عصى الله في الأرض أو أمر بمعصية الله، فقد أفسد في الأرض؛ لأن صلاح الأرض والسماء بالطّاعة"(٢).
والثالث : أنه موالاة الكفار .
قيل: أن من الفساد في الأرض اتخاذ المؤمنين الكافرين أولياء، كما قال تعالى : { وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ } [الأنفال : ٧٣] فقطع الله الموالاة بين المؤمنين والكافرين كما قال : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا } [النساء : ١٤٤] ثم قال : { إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا } [النساء : ١٤٥](٣).
قال الماوردي: "وكل هذه الثلاثة ، فساد في الأرض ، لأن الفساد العدول عن الاستقامة إلى ضدها"(٤).
وأخرج ابن أبي حاتم عن سلمان: {وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون}، قال سلمان: لم يجئ أهل هذه الآية بعد"(٥).
قال البيضاوي:" الفساد: خروج الشيء عن الاعتدال. والصلاح: ضده، وكلاهما يعمان كل ضار ونافع"(٦).
وفي قراءة قوله تعالى: {وَإِذا قِيلَ لَهُمْ }[البقرة:١١]، وجهان(٧):
أحدهما: قرأ الكسائي : (قيل) و(غيض) و(جيء) و(حيل) و(سيق) و(سيئت)، بروم أوائلهن الضم، ووافق ابن عامر في: (سيق) و(حيل) و(سيء) و(سيئت) - ووافق أهل المدينة في : (سيء) و(سيئت).
قال ابن خالويه: فالحجة لمن ضمّ أوله:" أنه بقّى على فعل ما لم يسمّ فاعله دليلا في الضم، لئلا يزول بناؤه. وقد قرأ بعض القراء ذلك بكسر بعض، وضمّ بعض فالحجة له في ذلك: ما قدّمناه من إتيانه باللغتين معا"(٨).
والثاني: وقرأ الباقون:{قِيلَ}، وقرأ الباقون بكسر أوله.
قال ابن خالويه: فالحجة لمن كسر أوله: أنه استثقل الكسر على الواو التي كانت عين الفعل في الأصل، فنقلها إلى فاء الفعل بعد أن أزال حركة الفاء، فانقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها كما قالوا: ميزان وميعاد"(٩).
وهؤلاء جمعوا في قولهم:{ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ}[البقرة:١١]، بين أمرين كبيرين: العمل بالفساد في الأرض، وإظهار أنه ليس بإفساد بل هو صلاح، قلباً للحقائق وجمعاً بين فعل الباطل واعتقاده حقاً.
قوله تعالى: {قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ}[البقرة:١١]؛ "أي: ليس شأننا الإِفسادُ أبداً، وإنما نحن أناسٌ مصلحون، نسعى للخير والصلاح فلا يصح مخاطبتنا بذلك"(١٠).
قال ابن عباس:" أي: إنما نريد الإصلاح بين الفريقين من المؤمنين وأهل الكتاب. يقول الله: ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون"(١١).
وقوله تعالى: {إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ}[البقرة:١١]، يحتمل تفسيرين(١٢):

---

(١) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٤٩/١.
(٢) تفسير ابن كثير: ١٨٠/١.

(٣) تفسير ابن كثير: ١٨١/١.
(٤) النكت والعيون: ٧٤/١.
(٥) تفسير ابن أبي حاتم(١٢٣):ص٤٥/١.
(٦) تفسير البيضاوي: ٤٦/١.
(٧) أنظر: الحجة في القراءات السبع: ابن خالويه: ٦٩.
(٨) الحجة في القراءات السبع: ٦٩.
(٩) الحجة في القراءات السبع: ٦٩.
(١٠) صفوة التفاسير: ٣٠/١.
(١١) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٤):ص٤٥/١.
(١٢) أنظر: التفسير البسيط: ١٥٨/٢، ومعاني القرآن للزجاج: ١/ ٥٢، وانظر "تفسير الطبري" ١/ ١٢٦ - ١٢٧، "زاد المسير" ١/ ٣٢، "تفسير البغوي" ١/ ٦٧.

أحدهما: يظهرون أنهم مصلحون، كما أنهم يقولون: آمنا، وهم كاذبون. والثاني: أن الذي نحن عليه هو صلاح عند أنفسنا.

و(الأرض): الجرم المقابل للسماء، وجمعه أرضون، ولا تجيء مجموعة في القرآن ويعبر بها عن أسفل الشيء[1]، ويقال: أرض أريضة، أي: حسنة النبت[2]، وتأرض النبت: تمكن على الأرض فكثر، وتأرض الجدي: إذا تناول نبت الأرض، والأرضة: الدودة التي تقع في الخشب من الأرض[3].

الفوائد:

١. من فوائد الآية: أن النفاق الذي هو إظهار الإسلام، وإبطان الكفر من الفساد في الأرض؛ لقوله تعالى: { وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض }؛ والنفاق من أعظم الفساد في الأرض.

٢. ومنها: أن من أعظم البلوى أن يُزَيَّن للإنسان الفساد حتى يَرى أنه مصلح؛ لقولهم: {إنما نحن مصلحون}.

٣. ومنها: أن غير المؤمن نظره قاصر، حيث يرى الإصلاح في الأمر المعيشي فقط؛ بل الإصلاح حقيقة أن يسير على شريعة الله واضحاً صريحاً.

٤. ومنها: أنه ليس كل من ادعى شيئاً يصدق في دعواه؛ لأنهم قالوا: { إنما نحن مصلحون }؛ فقال الله تعالى: { ألا إنهم هم المفسدون }؛ وليس كل ما زينته النفس يكون حسناً، كما قال تعالى: {أفمن زُين له سوء عمله فرآه حسناً فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء} [فاطر: ٨] .

القرآن

{أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (١٢)} [البقرة : ١٢]

التفسير:

ألاَ فانتبهوا أيها الناس، إن هذا الذي يعتمدونه ويزعمون أنه إصلاح هو عين الفساد[4]، وإنهم هم المفسدون حقاً لا غيرهم، ولكنْ لا يفطنون ولا يحُسون، لانطماسِ نور الإيمان في قلوبهم، ولجهلهم وبلادتهم وعدم فهمهم للأمور.

قوله تعالى: {أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ}[البقرة:١٢]،" أي: ألاَ فانتبهوا أيها الناس، إنهم هم المفسدون حقاً لا غيرهم"[5].

أخرج ابن أبي حاتم"عن أبي العالية في قوله: {ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون}، قال: هم المنافقون"[6].

وهذا كقوله تعالى: {هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ} [المنافقون : ٤] أي هم لا غيرهم؛ فلا عداء أبلغ من عداء المنافقين للمؤمنين؛ ولا فساد أعظم من فساد المنافقين في الأرض[7].

قال الزجاج: "(ألا) كلمة يبتدأ بها، ينبه بها المخاطب توكيدا، يدل على صحة ما بعدها"[8].

قال الواحدي: "ودخلت الألف واللام في (المفسدين) للجنس، كأنه جعلهم جنس المفسدين تعظيماً لفسادهم، كأنه لا يعتد بفساد غيرهم مع فسادهم، وكل فساد يصغر في جنب فسادهم، حتى كان المفسد في الحقيقة هم دون غيرهم، وإن كان غيرهم قد يفسد"[9].

قوله تعالى: {وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ}[البقرة: ١٢]، أي: " ولكنْ لا يفطنون ولا يحُسون، لانطماسِ نور الإيمان في قلوبهم"[1].

---

(١) انظر: المجمل ٩٢/٢.
(٢) انظر: انظر: المجمل ٩٢/١؛ والعين ٥٥/٧.
(٣) اللسان (أرض): ١١٣/٧, والعين: ٥٦/٧. وانظر: مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، دار القلم، دمشق:٢٢/١.
(٤) انظر: تفسير ابن كثير: ١٨١/١.
(٥) صفوة التفاسير: ١٣٠/١.
(٦) تفسير ابن أبي حاتم(١٢٥):ص٤٥/١.
(٧) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٥٠/١.
(٨) معاني القرآن: ٣٩٢/٤.
(٩) التفسير البسيط: ١٥٩/٢-١٦٠. ولهذا جاء في هذِه الجملة عدة مؤكدات منها: الاستفتاح، والتنبيه والتأكيد بإنّ وبضمير الفصل، وتعريف الخبر. انظر "تفسير ابن عطية" ١/ ١٦٨، "الكشاف" ١/ ١٨١ "الدر المصون" ١/ ١٣٩.

وقد ذكروا في قوله تعالى: {وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ}[البقرة: ١٢]، ثلاثة أوجه[٢]:
أحدها: "أي: لا يعلمون أنهم مفسدون، بل يحسبون أنهم مصلحون.
الثاني: ولكن لا يعلمون ما عقوبة فعلهم وما يحل بهم. قاله الثعلبي[٣].
قال الواحدي: "وذلك أن مفعول العلم محذوف فيحتمل القولين"[٤].
الثالث: أنهم يعلمون الفساد سرا ويظهرون الصلاح، وهم لا يشعرون أن أمرهم يظهر عند النبي - صلى الله عليه وسلم -[٥].
الفوائد:
١- من فوائد الآية: أن الإنسان قد يبتلى بالإفساد في الأرض، ويخفى عليه فساده؛ لقوله تعالى: { ولكن لا يشعرون
٢- ومنها: قوة الرد على هؤلاء الذين ادعوا أنهم مصلحون، حيث قال الله عزّ وجلّ: { ألا إنهم هم المفسدون }؛ فأكد إفسادهم بثلاثة مؤكدات؛ وهي { ألا } و "إن" ، و{ هم }؛ بل حصر الإفساد فيهم عن طريق ضمير الفصل.

القرآن
{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣)} [البقرة : ١٣]
التفسير:
وإذا قيل للمنافقين آمنوا كما آمن الناس أي كإيمان الناس بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والجنة والنار وغير ذلك مما أخبر المؤمنين به وعنه وأطيعوا الله ورسوله في امتثال الأوامر وترك الزواجر، قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء، يعنون - لعنهم الله - أصحاب رسول الله ﷺ، ألا أنهم هم السفهاء ولكنهم من تمام جهلهم أنهم لا يعلمون بحالهم في الضلالة والجهل، وذلك أردى لهم وأبلغ في العمى، والبعد عن الهدى[٦].
قوله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ }[البقرة:١٣]،أي "وإذا قيل للمنافقين: آمنوا إيماناً صادقاً لا يشوبه نفاقٌ ولا رياء"[٧].
قال ابن عباس:" وإذا قيل لهم صدقوا"[٨].
قوله تعالى:{كَمَآ آمَنَ الناس} [البقرة:١٣]، أي: " كما آمن أصحاب النبي عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام ُ، وأخلصوا في إيمانكم وطاعتكم لله"[٩].
قال ابن عباس:" صدقوا كما صدق أصحاب محمد- صلى الله عليه وسلم- أنه نبي ورسول، وأن ما أنزل الله حق، وصدقوا بالآخرة وأنكم تبعثون من بعد الموت"[١٠].
واختلف في {الناس} في هذه الآية، على قولين:
أحدهما: أن الآية خطاب للمنافقين، والمراد بالناس، أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم. وهذا هو المشهور. وهو قول أبي العالية[١١] والسدي[١٢]، ورواية الضحاك عن ابن عباس[١]،

---

(١) صفوة التفاسير: ٣٠/١.
(٢)انظر: التفسير البسيط: ١٦١/٢، و"تفسير ابن عطية" ١/ ١٦٨، "تفسير البغوي" ١/ ٦٦، "زاد المسير" ١/ ٣٣، "تفسير القرطبي" ١/ ١٧٧ - ١٧٨.
(٣)انظر: تفسيره: ١٥٤/١.
(٤) التفسير البسيط: ١٦١/٢.
(٥)انظر: "تفسير ابن عطية" ١/ ١٦٨، "تفسير البغوي" ١/ ٦٦، "زاد المسير" ١/ ٣٣، "تفسير القرطبي" ١/ ١٧٧ - ١٧٨.
(٦) انظر: تفسير ابن كثير: ١٨٢/١، وتفسير القرطبي: ٢٠٥/١.
(٧) صفوة التفاسير: ١٣٠/١.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٦):ص٤٥/١.
(٩) صفوة التفاسير: ١٣٠/١.
(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٦):ص٤٥/١.
(١١) أخرجه ابن أبي حاتم(١٣٠):ص٤٦/١.
(١٢) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٤٦/١.

والثاني: أن المراد بالآية اليهود، والناس: عبد الله بن سلام وأصحابه. ذكره أبو الليث من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس(٢).

روي " عن ابن عباس في قوله : { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ} ، يقول : وإذا قيل لهم صدِّقوا كما صدَّق أصحاب محمد ، قولوا : إنَّه نبيٌّ ورسول ، وإنّ ما أنزل عليه حقّ ، وصدِّقوا بالآخرة ، وأنَّكم مبعوثون من بعد الموت"(٣).

قال السمعاني:" كما آمن الناس يعنى: المهاجرين والأنصار"(٤).

قال ابن عثيمين: "والمراد بـ {الناس} هنا الصحابة الذين كانوا في المدينة، وإمامهم النبي -صلى الله عليه وسلم-"(٥).

قال الآلوسي: "واستدل بالآية على أن الإقرار باللسان إيمان وإلا لم يفد التقييد، وكونه للترغيب يأباه إيرادهم التشبيه في الجواب، والجواب عنه بعد إمكان معارضته بقوله تعالى وَما هُمْ بِمُؤْمِنِينَ أنه لا خلاف في جواز إطلاق الإيمان على التصديق اللساني لكن من حيث إنه ترجمة عما في القلب أقيم مقامه إنما النزاع في كونه مسمى الإيمان في نفسه ووضع الشارع إياه له مع قطع النظر عما في الضمير على ما بين لك في محله، ولما طلب من المنافق الإيمان دل ذلك على قبول توبة الزنديق.

فإن لا يكُنْهَا أوَ تَكُنْهُ فَإنَّهُ أخوهَا غذته أمه بِلِبَانها(٦)

نعم إن كان معروفا بالزندقة داعيا إليها ولم يتب قبل الأخذ قتل كالساحر ولم تقبل توبته كما أفتى به جمع من المحققين"(٧).

قوله تعالى: {قالوا أَنُؤْمِنُ كَمَآ آمَنَ السفهآء} [البقرة: ١٣]:"أي: قالوا أنؤمن كإيمان هؤلاء الجهلة أمثال «صهيب، وعمار، وبلال» ناقصي العقل والتفكير؟!"(٨).

قال الثعلبي: السفهاء: الجهّال"(٩).

قال ابن عثيمين:" الاستفهام هنا للنفي، والتحقير؛ والمعنى: لا نؤمن كما آمن السفهاء؛ وربما يكون أيضاً مضمناً معنى الإنكار. أي أنهم ينكرون على من قال: {آمنوا كما آمن الناس} ؛ وهذا أبلغ من النفي المحض"(١٠).

قال البيضاوي: وإنما سفَّهوهم، لاعتقادهم فسادَ رأيهم، أو لتحقير شأنهم، فإن أكثر المؤمنين كانوا فقراء ومنهم موالي كصهيب وبلال، أو للتجلد وعدم المبالاة بمن آمن منهم إن فسر الناس بعبد الله بن سلام وأشياعه"(١١).

---

(١) أخرجه الطبري(٣٤٣):ص٢٩٢/١. وانظر: تفسير ابن أبي حاتم:(١٢٧)، و(١٢٨):ص٤٥/١-٤٦ ، "تفسير ابن عطية" ١/ ١٦٨ - ١٦٩، "تفسير ابن كثير" ١/ ٥٤

(٢)"تفسير أبي الليث" ١/ ٩٦.

(٣) أخرجه الطبري(٣٤٣):ص٢٩٢/١.

(٤) تفسير السمعاني: ٥٠/١.

(٥) تفسير ابن عثيمين:٤٩/١.

(٦) البيت لأبي الأسود الدؤلي في ديوانه ص١٦٢، ٣٠٦؛ وانظر: أدب الكاتب ص٤٠٧؛ وإصلاح المنطق ص٢٩٧؛ وتخليص الشواهد ص٩٢؛ وخزانة الأدب ٥/ ٣٢٧، ٣٣١؛ والرد على النحاة ص١٠٠؛ وشرح المفصل ٣/ ١٠٧؛ والكتاب ١/ ٤٦؛ ولسان العرب ١٣/ ٣٧١ "كنن"، ٣٧٤ "لبن"؛ والمقاصد النحوية ١/ ٣١٠؛ وبلا نسبة في المقتضب ٣/ ٩٨؛ والمقرب ١/ ٩٦.

وقبل البيت:

الخمر يشربها الغواة فإنني رأيت أخاها مغنيا بمكانها

فإن لا يكنها: أي فإلا يكن أخو الخمر هو الخمر. أو تكنه: أي أو تكن الخمر هي أخاها. فاسم "يكن" الأولى ضمير مستتر يعود على الأخ، والضمير البارز المنصوب العائد إلى الأخ هو خبرها.

المعنى: دعك من هذا الإثم يرتكبه السفهاء من الناس؛ فإني وجدت أخا الخمر، أي العنب أو الزبيب، مغنيا عنها وصالحا لأن تحل محلها، فإن لم يكونا شيئا واحدا فهما أخوان رضعا من ثدي أم واحدة.

(٧) روح المعاني: ١٥٧/١.

(٨) صفوة التفاسير: ٣٠/١.

(٩) تفسير الثعلبي: ١٥٥/١.

(١٠) تفسير ابن عثيمين:٤٩/١.

(١١) تفسير البيضاوي: ٤٧/١.

وقال الآلوسي:" وإنما سفهوهم جهلا منهم حيث اشتغلوا بما لا يجدي في زعمهم ويحتمل أن يكون ذلك من باب التجلد حذرا من الشماتة إن فسر الناس بمن آمن منهم، واليهود قوم بهت"(١).

قوله تعالى: {أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السفهآء}[البقرة:١٢]،" أي ألا إنهم هم السفهاء حقاً"(٢).

وعن ابن عباس، "يقول الله: {ألا إنهم هم السفهاء}، يقول: الجهال"(٣).

وهذه الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: "{ألا} ، و "إن"، وضمير الفصل: {هم} ، وهو أيضاً مفيد للحصر"(٤).

قوله تعالى:{ولكن لاَّ يَعْلَمُونَ}[البقرة:١٢]، أي:"ولكن لا يعلمون بحالهم في الضلالة والجهل"(٥).

قال ابن عباس:" ولكن لا يعقلون"(٦).

قال الثعلبي: أي: لايعلمون"بأنهم كذلك"(٧).

قال ابن عثيمين:" أي لا يعلمون سفههم"(٨).

وإذا قيل: ما الفرق بين قوله تعالى هنا: {ولكن لا يعلمون} ، وقوله تعالى فيما سبق: {ولكن لا يشعرون} ؟

فالجواب: أن الإفساد في الأرض أمر حسي يدركه الإنسان بإحساسه، وشعوره؛ وأما السفه فأمر معنوي يدرك بآثاره، ولا يُحَسُّ به نفسِه(٩).

و(السفه) لغة: خِفَّة الحِلمِ أو نَقِيضُه أو الجَهْلُ، والسَّفَهُ نَقْصٌ في العَقل وأصله الخِفَّة، من سفه سفهًا من باب تعب، وسفه بالضم سفاهة وسَفَاهًا، أي: صار سَفِيهًا، فهو سفيه، والأنثى سفيهة، والجمع سفهاء. وسفه الحق جهله، وسَفِهه تسفيهًا: نسبه إلى السَّفَه(١٠).

واصطلاحا: السَّفَه: نقيض الحِلم وهو سرعة الغضب، والطَّيش مِن يسير الأمور، والمبادرة في البطش، والإيقاع بالمؤذي، والسَّرف في العقوبة، وإظهار الجزع مِن أدنى ضررٍ، والسَّبُّ الفاحش(١١).

وقال الجرجاني: "السَّفَه: عبارة عن خِفَّة تعرض للإنسان مِن الفرح والغضب، فتحمله على العمل بخلاف طور العقل، وموجب الشَّرع"(١٢)، وقال ابن القيِّم: "السَّفَه غاية الجهل، وهو مركَّبٌ مِن عدم العلم بما يُصلِح معاشه ومعاده، وإرادته بخلافه"(١٣).

وفي اصطلاح الفقهاء السفه: خِفة تبعث الإنسان على العمل في ماله بخلاف مقتضى العقل والشرع، مع قيام العقل حقيقة؛ قال الحنفية: فالسفه لا يوجب خللاً، ولا يمنع شيئًا من أحكام الشرع(١٤)، وقيل: السفه: صفة لا يكون الشخص معها مطلق التصرُّف، كأن يكون مبذرًا، يضيِّع المال في غير وجهه الجائز، وأما عُرفًا،

---

(١) روح المعاني: ١٥٧/١.

(٢)صفوة التفاسير: ٣٠/١.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(١٣١):ص٤٦/١.

(٤) تفسير ابن عثيمين:٤٩/١.

(٥)صفوة التفاسير: ٣٠/١.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(١٣١):ص٤٦/١.

(٧) تفسير الثعلبي: ١٥٥/١.

(٨) تفسير ابن عثيمين:٤٩/١.

(٩)أنظر: تفسير ابن عثيمين:٤٩/١.

(١٠) انظر: لسان العرب: ٤٩٧/١٣، والصحاح للجوهري: ٢٢٣٤/٦-٢٢٣٥. والقاموس المحيط، الفيروزآبادي: ١٦٠٩. والمصباح المنير، الفيومي: ٢٨٠/١.

(١١) تهذيب الأخلاق/ الجاحظ: ٢٩.

(١٢) التعريفات: ١١٩. وقال الراغب: "السفه خفة البدن، ومنه قيل: زمام سفيه: كثير الاضطراب، وثوب سفيه: رديء النسج. واستعمل في خفة النفس لنقصان العقل، وفي الأمور الدنوية والأخروية".(مفردات القرآن: ٤١٤).

والفرق بين السفيه والأحمق هو أن الحُمْق قلَّة العقل وفسَادٌ فِيه، واصطلاحا هو :" وضع الشَّيء في غير موضعه مع العلم بقُبْحه"(النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير:٤٤٢/١) وقيل أن " حقيقة الأحْمَق: مَن يعمل ما يضرُّه مع علمه بقُبْحه"(شرح النووي على مسلم:١٣٦/١٨).

(١٣) بدائع الفوائد: ١٨٣/٥.

١٤ ابن عابدين (٢/ ٤٢٦ - ٤٢٧)، ومجلة الأحكام، م (٩٤٥).

فهو بذاءة اللسان، والنطق بما يُستحيى منه(١)،(٢)، وفي جواهر الإكليل: السفيه: البالغ العاقل الذي لا يُحسن التصرف في المال، فهو خلاف الرشيد(٣)،(٤)، قال ابن كثير: " والسفيه : هو الجاهل الضعيف الرّأي القليل المعرفة بمواضع المصالح والمضار ؛ ولهذا سمى الله النساء والصبيان سفهاء، في قوله تعالى : { وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا } [النساء : ٥] قال عامة علماء السلف : هم النساء والصبيان"(٥).

والسفيه مكلف رغم أنه يسيء التصرف، وقد يكون تصرفه: {سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [البقرة: ١٤٢]، ولعدم إيمانهم برسالة محمد - صلى الله عليه وسلم - سماهم الله تعالى بالسفهاء؛ كما ردَّ الله تعالى اتهامهم المسلمين بالسفهاء بقوله: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ} [البقرة: ١٣].

وأما سفه المشركين وترْكهم اتباعَ ملَّة إبراهيم - عليه السلام - فقد قال تعالى: {وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ} [البقرة: ١٣٠]، قال الشيخ محمد جمال الدين القاسمي: هذا إنكار واستبعاد لأن يكون في العقلاء مَن يرغب عن الحق الواضح الذي هو ملَّة إبراهيم، وهو ما جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - وفي ذلك تعريض بمُعاندي أهل الكتاب والمشركين؛ أي: لا يرغب عن ملته الواضحة الغراء إلا مَن سَفِه نفسه؛ أي: حملها على السفه، وهو الجهل، وقال الراغب: وسفه نفسه أبلغ من جهلها؛ وذاك أن الجهل ضربان: جهل بسيط، وهو ألا يكون للإنسان اعتقاد في الشيء، وجهل مركَّب، وهو أن يعتقد في الحق أنه الباطل، وفي الباطل أنه حق، والسفه: أن يعتقد ذلك ويتحرَّى بالفعل مقتضى ما اعتقده، فبيَّن تعالى أن مَن رغب عن ملة إبراهيم، فإن ذلك لِسَفَه نفسه، وذلك أعظم مذمة، فهو مبدأ كل نقيصة، وذاك أن من جهل نفسه، جَهل أنه مصنوع، وإذا جهل كونه مصنوعًا، جهل صانعه، وإذا لم يعلم أن له صانعًا، فكيف يعرف أمره ونهْيه، وما حُسنه وقُبحه! ولكون معرفتها ذريعة إلى معرفة الخالق - جل ثناؤه،، قال : { وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ } [الذاريات : ٢١]، وقال : { وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ } [الحشر : ١٩](٦).

الفوائد:

١. من فوائد الآية: أن المنافق لا تنفعه الدعوة إلى الخير؛ لقوله تعالى: { وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء }؛ فهم لا ينتفعون إذا دعوا إلى الحق؛ بل يقولون: { أنؤمن كما آمن السفهاء}

٢. ومنها: إعجاب المنافقين بأنفسهم؛ لقولهم: (أنؤمن كما آمن السفهاء)

٣. ومنها: شدة طغيان المنافقين؛ لأنهم أنكروا على الذين عرضوا عليهم الإيمان: { قالوا أنؤمن }؛ وهذا غاية ما يكون من الطغيان؛ ولهذا قال الله تعالى في آخر الآية: {في طغيانهم يعمهون] {البقرة: ١٥ [.

٤. ومنها: أن أعداء الله يصفون أولياءه بما يوجب التنفير عنهم لقولهم: { أنؤمن كما آمن السفهاء }؛ فأعداء الله في كل زمان، وفي كل مكان يصفون أولياء الله بما يوجب التنفير عنهم؛ فالرسل وصفهم قومهم بالجنون، والسحر، والكهانة، والشعر تنفيراً عنهم، كما قال تعالى: {كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون} [الذاريات: ٥٢] ، وقال تعالى: {وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين} [الفرقان: ٣١] وورثة الأنبياء مثلهم يجعل الله لهم أعداء من المجرمين، ولكن {وكفى بربك هادياً ونصيراً} [الفرقان: ٣١] ؛ فمهما بلغوا من الأساليب فإن الله تعالى إذا أراد هداية أحد فلا يمنعه إضلال هؤلاء؛ لأن أعداء الأنبياء يسلكون في إبطال دعوة الأنبياء مَسْلكين؛ مسلك الإضلال، والدعاية الباطلة في كل زمان، ومكان؛ ثم مسلك السلاح . أي المجابهة المسلحة؛ ولهذا قال تعالى: {هادياً} [الفرقان: ٣١] في مقابل المسلك الأول الذي هو الإضلال . وهو الذي نسميه الآن بالأفكار المنحرفة، وتضليل الأمة، والتلبيس على عقول أبنائها؛ وقال تعالى: {ونصيراً} [الفرقان: ٣١] في مقابل المسلك الثاني . وهو المجابهة المسلحة.

---

(١) ابن عابدين (٢/ ٤٢٣)، وكشف الأسرار (٤/ ٣٦٩)، والمصباح المنير مادة: (سفه).
(٢) القليوبي (٣/ ٣٦٤).
(٣) جواهر الإكليل (١/ ١٦١)، ط دار المعرفة.
(٤) الموسوعة الفقهية الكويتية (١٦/ ١٠٠).
(٥) تفسير ابن كثير: ١٨٢/١.
(٦) انظر: محاسن التأويل؛ محمد جمال الدين القاسمي: ١٥٦/١..

٥. ومن فوائد الآية: أن كل من لم يؤمن فهو سفيه، كما قال الله تعالى: {ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه} [البقرة: ١٣٠] .

٦. ومنها: أن الحكمة كل الحكمة إنما هي الإيمان بالله، واتباع شريعته؛ لأن الكافر المخالف للشريعة سفيه؛ فيقتضي أن ضده يكون حكيماً رشيداً.

٧.ومنها: تحقيق ما وعد الله به من الدفاع عن المؤمنين، كما قال تعالى: {إن الله يدافع عن الذين آمنوا} [الحج: ٣٨] ؛ فإذا ذموا بالقول دافع الله عنهم بالقول؛ فهؤلاء قالوا: { أنؤمن كما آمن السفهاء }، والله عزّ وجلّ هو الذي جادل عن المؤمنين، فقال: { ألا إنهم هم السفهاء } يعني هم السفهاء لا أنتم؛ فهذا من تحقيق دفاع الله تعالى عن المؤمنين؛ أما دفاعه عن المؤمنين إذا اعتُدي عليهم بالفعل فاستمع إلى قول الله تعالى: {إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان} [الأنفال: ١٢] : هذه مدافعة فعلية، حيث تنْزل جنود الله تعالى من السماء لتقتل أعداء المؤمنين؛ فهذا تحقيق لقول الله تعالى: {إن الله يدافع عن الذين آمنوا} [الحج: ٣٨] ؛ ولكن الحقيقة أن هذا الوعد العظيم من القادر جل وعلا الصادق في وعده يحتاج إلى إيمان حتى نؤمن بالله عزّ وجلّ، ولا نخشى أحداً سواه، فإذا ضعف الإيمان أصبحنا نخشى الناس كخشية الله، أو أشد خشية؛ لأننا إذا كنا نراعيهم دون أوامر الله فسنخشاهم أشد من خشية الله عزّ وجلّ؛ وإلا لكنا ننفذ أمر الله عزّ وجلّ، ولا نخشى إلا الله سبحانه وتعالى.

فنحن لو آمنا حقيقة الإيمان بهذا الوعد الصادق الذي لا يُخلف لكنا منصورين في كل حال؛ لكن الإيمان ضعيف؛ ولهذا صرنا نخشى الناس أكثر مما نخشى الله عزّ وجلّ؛ وهذه هي المصيبة، والطامة العظيمة التي أصابت المسلمين اليوم؛ ولذلك تجد كثيراً من ولاة المسلمين ـ مع الأسف ـ لا يهتمون بأمر الله، ولا بشريعة الله؛ لكن يهتمون بمراعاة فلان، وفلان؛ أو الدولة الفلانية، والفلانية ـ ولو على حساب الشريعة الإسلامية التي من تمسك بها فهو المنصور، ومن خالفها فهو المخذول؛ وهم لا يعرفون أن هذا هو الذي يبعدهم من نصر الله؛ فبدلاً من أن يكونوا عبيداً لله أعزة صاروا عبيداً للمخلوقين أذلة؛ لأن الأمم الكافرة الكبرى لا ترحم أحداً في سبيل مصلحتها؛ لكن لو أننا ضربنا بذلك عُرض الحائط، وقلنا: لا نريد إلا رضى الله، ونريد أن نطبق شريعة الله سبحانه وتعالى على أنفسنا، وعلى أمتنا؛ لكانت تلك الأمم العظمى تهابنا؛ ولهذا يقال: من خاف الله خافه كل شيء، ومن خاف غير الله خاف من كل شيء.

٨. ومن فوائد الآية: الدلالة على جهل المنافقين؛ لأن الله عزّ وجلّ نفى العلم عنهم؛ لقوله تعالى: { ولكن لا يعلمون }؛ فالحقيقة أنهم من أجهل الناس ـ إن لم يكونوا أجهل الناس؛ لأن طريقهم إنما هو خداع، وانخداع، وتضليل؛ وهؤلاء المنافقون من أجهل الناس؛ لأنهم لم يعلموا حقيقة أنفسهم، وأنهم هم السفهاء.

القرآن

{وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤)} [البقرة : ١٤]

التفسير:

وإذا لقي هؤلاء المنافقون المؤمنين قالوا : آمنا وأظهروا لهم الإيمان والموالاة غروراً منهم للمؤمنين ونفاقاً ومصانعة وليشركوهم فيما أصابهم من خير ومغنم، وإذا خلوا إلى سادتهم وكبراؤهم من أحبار اليهود ورؤوس المشركين والمنافقين، قالوا : إنا نحن على دينكم وعلى مثل ما أنتم عليه من الإعتقاد، وإنما نستهزئ بالقوم ونسخر منهم بإظهار الإيمان(١).

سبب النزول:

عن الكلبي، عن صالح، عن ابن عباس: "نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي وأصحابه، وذلك: أنهم خرجوا ذات يوم فاستقبلهم نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال عبد الله بن أبي: انظروا كيف أرد هؤلاء السفهاء عنكم، فذهب فأخذ بيد أبي بكر الصديق رضي الله عنه فقال: مرحبا بالصديق سيد بني تيم، وشيخ الإسلام، وثاني رسول الله في الغار، الباذل نفسه وماله. ثم أخذ بيد عمر رضي الله عنه فقال:

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ١٨٢/١.

مرحبا بسيد بني عدي بن كعب، الفاروق القوي في دين الله، الباذل نفسه وماله لرسول الله. ثم أخذ بيد علي كرم الله وجهه فقال: مرحبا بابن عم رسول الله وختنه، سيد بني هاشم ما خلا رسول الله. ثم افترقوا. فقال عبد الله لأصحابه: كيف رأيتموني فعلت؟ فإذا رأيتموهم فافعلوا كما فعلت فأثنوا عليه خيرا. فرجع المسلمون إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وأخبروه بذلك. فأنزل الله هذه الآية"(١).

قوله تعالى: {وَإِذَا لَقُواْ الذين آمَنُواْ قالوا آمَنَّا}[البقرة:١٤]، أي "وإذا رأوا المؤمنين وصادفوهم أظهروا لهم الإيمان والموالاة نفاقاً ومصانعة"(٢).

قال ابن عباس:" كان رجال من اليهود إذا لقوا أصحاب النبي- صلى الله عليه وسلم- أو بعضهم قالوا: إنا على دينكم"(٣).

قال الثعلبي: "أي: رأوا، يعني المنافقين عبد الله بن أبي وأصحابه"(٤).

قال السعدي:" إذا اجتمعوا بالمؤمنين، أظهروا أنهم على طريقتهم وأنهم معهم"(٥).

وقرأ محمد بن السميقع: "وإذا لاقوا وهما بمعنى واحد"(٦).

قوله تعالى: {وَإِذَا خَلَوْاْ إلى شَيَاطِينِهِمْ}[البقرة:١٤]، "أي: وإذا انفردوا ورجعوا إلى رؤسائهم وكبرائهم، أهلِ الضلالِ والنفاق"(٧).

قال السعدي: أي: إلى"رؤسائهم وكبرائهم في الشر"(٨).

قال أبو مالك: قوله:{خلوا}، يعني: مضوا"(٩).

واختلف في معنى: {شَيَاطِينِهِمْ}[البقرة:١٤]، على أقوال(١٠):

أحدها: قالوا:{ شَيَاطِينِهِمْ}: أي: سائر أهل الشرك الذين هم على مثل الذي هم عليه من الكُفر بالله وبكتابه ورسوله.

الثاني: وقيل: شياطينهم من اليهود. قاله ابن عباس(١١)، وروي عن السدي(١٢)، وأبي العالية(١٣) والربيع(١٤) مثل ذلك.

الثالث: وقيل: رءوسهم في الكُفر. وهذا قول ابن مسعود(١٥).

الرابع: وقيل: أي رؤسائهم وقادتهم في الشرك والشرّ. قاله قتادة(١٦).

الخامس: وقيل: وهم المشركون. قاله قتادة(١).

---

(١) رواه الواحدي في "أسباب النزول": ٢٥، إسناده واه جدا: محمد بن مروان بن السائب عن الكلبي عن أبي صالح، أطلق العلماء على هذا الإسناد: سلسلة الكذب أ. هـ.

والأثر ذكره السيوطي في الدر (١/ ٣١) وعزاه للواحدي والثعلبي بسند واه.

(٢) صفوة التفاسير: ٣٠/١.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(١٣٣):ص٤٦/١.

(٤) تفسير الثعلبي: ١٥٥/١.

(٥) تفسير السعدي: ٤٣/١.

(٦) تفسير الثعلبي: ١٥٥/١.

(٧) صفوة التفاسير: ٣٠/١.

(٨) تفسير السعدي: ٤٣/١.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(١٣٥):ص٤٧/١.

(١٠) انظر: تفسير الطبري: ١٩٥/١-١٩٨.

(١١) أنظر: تفسير الطبري(٣٤٩)، و(٣٥٠):ص٢٩٦/١-٢٩٧، وابن أبي حاتم(١٣٧):ص٤٧/١.

(١٢) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٤٠):ص٤٨/١.

(١٣) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٤٨/١.

(١٤)أنظر: تفسير ابن أبي حاتم:٤٨/١.

(١٥) أنظر: تفسير الطبري(٣٥١):ص٢٩٧/١.

(١٦) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٣٨):ص٤٧/١، ونحوه في تفسير الطبري(٣٥٢):ص٢٩٧/١.

السادس: وقيل: أصحابهم من المنافقين والمشركين. قاله مجاهد(٢)، والربيع(٣).
قلت: وجميع آراء السابقة صحيحة، والقول الأول يجمع جميع الأقوال وهو الأقرب، وبه قال الإمام الطبري(٤).
وفي قوله :{إلى شَيَاطِينِهِمْ}[البقرة:١٤]، ثلاثة أوجه (٥):
أحدها : معناه: مع شياطينهم ، فجعل (إلى) موضع (مع) ، كما قال تعالى:{مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ}[آل عمران : ٥٢]، يريد : مع الله، وكما توضع(على) في موضع (من) ، و (في) و(عن) و(الباء)، كما قال الشاعر (٦):
إِذَا رَضِيَتْ عَلَيَّ بَنُو قُشَيْرٍ لَعَمْرُ اللهِ أَعْجَبَنِي رِضَاهَا
فقوله (رضيتْ عليّ) أريد به: (رضيتْ عَنِّي).
والثاني : وهو قول بعض البصريين : أنه يقال خلوت إلى فلان ، إذا جعلته غايتك في حاجتك ، وخلوت به يحتمل معنيين : أحدهما الخلاء به في الحاجة ، والآخَر في السخرية به.
وعلى القول الأخير: ا يكون قوله :{ وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ}، أفصح ، وهو على حقيقته مستعمل .
والثالث : وهو قول بعض الكوفيين : أن معناه: إذا انصرفوا إلى شياطينهم فيكون قوله :{إلى} مستعملاً في موضع لا يصح الكلام إلا به .
قال الإمام الطبري: "وهذا القول-أي الأخير- عندي أولى بالصواب، لأن لكل حرف من حُرُوف المعاني وجهًا هو به أولى من غيره فلا يصلح تحويل ذلك عنه إلى غيره إلا بحجة يجب التسليم لها. ولِـ (إلى) في كل موضع دخلت من الكلام حُكْم ، وغيرُ جائز سلبُها معانِيَها في أماكنها"(٧).
واختلف أهل اللغة في الأصل الذي يرجع إليه اشتقاق (الشيطان)، على قولين(٨):
أحدهما: أنه مشتق من (شَطَنَ)، بمعنى: بَعُد عن الحقِّ، وشَطَنَتْ دارُه، أي بعدت، فسمي شيطاناً ، إما لبعده عن الخير ، وإما لبعد مذهبه في الشر ، فعلى هذا النون أصلية(٩).
والقول الثاني : أنه يرجع إلى الجذر (شَيَطَ)، مشتق من شاط يشيط ، أي هلك يهلك، كما قال الأعشى(١٠) :
قد نَخْضِبُ العَيْرَ من مَكْنُونِ فائلِه وَقَدْ يَشِيطُ عَلَى أَرْمَاحِنَا البَطَلُ
أي يهلك ، فعلى هذا يكون النون فيه زائدة(١١).
والقول الأول هو الأرجح؛ أي: اشتقاقه من (شطن)؛ وذلك لأنَّها أقرب إلى وصف أعمال الشيطان التي تَهدف إلى إبعاد الناس عن عمَل الخير واتِّباع الحق؛ "لأنَّ اشتقاق الشيطان من شطن؛ بمعنى: بَعُد عن الخير

---

(١) أنظر: تفسير الطبري(٣٥٣):ص٢٩٧/١.
(٢)أنظر: تفسير الطبري(٣٥٤)، و(٣٥٥)، و(٣٥٨):ص٢٩٧/١-٢٩٨، وابن أبي حاتم(١٣٩):ص٤٧/١.
(٣) أنظر: تفسير الطبري(٣٥٦):ص٣٩٨/١.
(٤) أنظر: تفسير الطبري: ٢٩٦/١.
(٥) أنظر: النكت والعيون: ٧٦/١، وتفسير الطبري: ١٩٨/١-١٩٩.
(٦)الشعر للعقيف العقيلي ، يمدح حكيم بن المسيب القشيري . نوادر أبي زيد : ١٧٦ ، خزانة الأدب ٤ : ٢٤٧ ، وغيرهما كثير .
(٧) انظر: تفسير الطبري: ١٩٩/١.
(٨) أنظر: قاموس العين - الفراهيدي ج (٦)، ص (٢٣٦)، وأساس البلاغة، ص (٣٢٩)، القاموس المحيط ج (١)، ص (٨٧٠)، والمصباح المنير ج (١)، ص (٣١٣)، والمعجم الوسيط ج (١)، ص (٤٨٣)، وتهذيب اللغة ج (١١)، ص (٢١٣)، وجمهرة اللغة ج (٢)، ص (٨٦٧)، ومختار الصحاح، ص (١٤٢).
(٩)انظر المعاجم التالية :
* معجم العين – للخليل بن أحمد الفراهيدي – ص٤٧٩، ٥٠٣.
* مجمل اللغة – لابن فارس – ج٢ – ص٥٠٢، ٥١٨.
* المحيط في اللغة – للصاحب بن عباد – ج٧ – ص٣٠٤، ٣٥٨.
* لسان العرب – لابن منظور – ج١٣ – ص٢٣٧، ٣٣٧ ،. * مختار الصحاح – للفخر الرازي – ص٣٣٨
* المفردات في غريب القرآن – للراغب الاصفهاني – ص٢٦١،. * المصباح المنير – للفيومي – ص١٤٢
(١٠)ديوانه ص ١١٣؛ ولسان العرب ٧/ ٣٣٨ (شيط). نخضب: نصبغ بالخضاب وهو الحناء، وأراد به هنا الدماء. العير: الحمار الوحشي. الفائل: اللحم الذي على نقرة الورك، ومكنون فائله: دمه المستتر فيه. يشيط: يهلك، أو يذهب دمه هدرًا.
(١١) أنظر: قاييس اللغة ج (٣)، ص (١٨٤ - ١٨٥)، ولسان العرب ج (١٧)، ص (١٠٥)، والمفردات - الراغب الأصفهاني، ص (٢٦١).

ومال عن الحقِّ - أقرب إلى الحقيقة من اشتقاقه من شاط؛ بمعنى: احترق؛ ذلك أنَّ عمل الشيطان هو إبعاد الناس عن الحقِّ، والذي يبعد الناس عن الحقِّ والخير يكون هو بعيدًا عنه"[١].

قوله تعالى: {قالوا إِنَّا مَعَكُمْ }[البقرة:١٤]، أي أي قالوا لهم نحن"على ما أنتم عليه من التكذيب والعداوة"[٢].

قال ابن عباس:" أي: إنا على مثل ما أنتم عليه"[٣].

قال الثعلبي: "أي: على دينكم وأنصاركم"[٤].

قوله تعالى:{ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ}[البقرة:١٤]، أي: " وإنما نستهزئ بالقوم ونسخر منهم بإظهار الإيمان"[٥].

قال الطبري:أي:"إنما نحن ساخرون"[٦].

قال الثعلبي:أي: "بمحمد وأصحابه"[٧].

قال الماوردي: " أي ساخرون بما نظهره من التصديق والموافقة"[٨].

روي "عن ابن عباس : قالوا : {إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ}، ساخرون بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم"[٩]. وفي رواية أخرى له:" إنما نحن نستهزئ بالقوم ونلعبُ بهم"[١٠]. وروي عن قتادة[١١] والربيع[١٢] مثل ذلك.

الفوائد:

من فوائد الآية ذلّ المنافق؛ فالمنافق ذليل؛ لأنه خائن؛ فهم {إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا } خوفاً من المؤمنين؛ و{ إذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم } خوفاً منهم؛ فهم أذلاء عند هؤلاء، وهؤلاء؛ لأن كون الإنسان يتخذ من دينه تَقيَّة فهذا دليل على ذله؛ وهذا نوع من النفاق؛ لأنه تستر بما يُظَن أنه خير وهو شر

القرآن

{اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥)} [البقرة : ١٥]

التفسير:

الله يجازيهم على استهزائهم بالإمهال ثم بالنكال، ويزيدهم -بطريق الإمهال والترك -في ضلالهم وكفرهم وكذبهم يتخبطون ويتردّدون ويتحيرون[١٣].

قوله تعالى:{اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ}[البقرة:١٥]،" أي: الله يجازيهم على استهزائهم بالإمهال ثم بالنكال"[١٤]

قال القرطبي: أي: الله "ينتقم منهم ويعاقبهم ، ويسخر بهم ويجازيهم على استهزائهم"[١٥].

قال الثعلبي:" أي: يجازيهم جزاء استهزائهم"[١٦].

وقد اختلف أهل التفسير في قوله تعالى:{اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ}[البقرة:١٥]، على وجوه[١]:

---

(١)التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن - د. عودة خليل أبو عودة - مكتبة المنار - الأردن، ص (٤٧٨).
(٢) النكت والعيون: ٧٦/١.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(١٤١):ص٤٨/١.
(٤) تفسير اثعلبي: ١٥٧/١.
(٥) صفوة التفاسير: ٣٠/١.
(٦) تفسير الطبري: ٢٠٠/١.
(٧) تفسير اثعلبي: ١٥٧/١.
(٨) النكت والعيون: ٧٧/١.
(٩) أخرجه الطبري(٣٥٩):ص٢٠٠/١.
(١٠)أخرجه الطبري(٣٦٠):ص٢٠٠/١، وابن أبي حاتم(١٤٢):ص٤٨/١.
(١١)أخرجه الطبري(٣٦١):ص٢٠٠/١، وانظر: تفسير ابن أبي حاتم:٤٨/١.
(١٢)أخرجه الطبري(٣٦٢):ص٢٠٠/١، وانظر: تفسير ابن أبي حاتم:٤٨/١.
(١٣) انظر: تفسير ابن كثير: ١٨٢/١.
(١٤) صفوة التفاسير: ٣٠/١.
(١٥) تفسير القرطبي: ٢٠٧/١.
(١٦) تفسير الثعلبي: ١٥٧/١.

أحدها : معناه: أنه يحاربهم على استهزائهم(٢) ، فسمي الجزاء باسم المجازى عليه ، كما قال تعالى : {فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْه بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ}، وليس الجزاء اعتداءً ، قال عمرو بن كلثوم(٣) :

ألا لا يَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا   فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الجَاهِلِينا

فسمى انتصاره جهلا ، والجهل لا يفتخر به ذو عقل ، وإنما قال ليزدوج الكلام فيكون أخف على اللسان من المخالفة بينهما. وكانت العرب إذا وضعوا لفظا بإزاء لفظ جوابا له وجزاء ذكروه بمثل لفظه وإن كان مخالفا له في معناه ، وعلى ذلك جاء القرآن والسنة(٤).

الثاني : أن معناه أنه يجازيهم جزاء المستهزئين .

الثالث : أنه لما حسن أن يقال للمنافق :{ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ} [الدخان : ٤٩] ، صار القول كالاستهزاء به.

الرابع : ما حكي : أنهم يُفْتَح لهم باب الجحيم ، فيرون أنهم يخرجون منها ، فيزدحمون للخروج ، فإذا انتهوا إلى الباب ضربهم الملائكة ، بمقامع النيران ، حتى يرجعوا ، وهذا نوع من العذاب ، وإن كان كالاستهزاء .

الخامس: أنه لما كان ما أظهره من أحكام إسلامهم في الدنيا ، خلاف ما أوجبه عليهم من عقاب الآخرة ، وكانوا فيه اغترار به ، صار كالاستهزاء [بهم] (٥) .

وإلى هذا القول ذهب الطبري(٦) والسعدي(٧). وبنحو هذا المعنى روي الخبر عن ابن عباس، في قوله تعالى:{اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ } قال:" يسخر منهم للنقمة منهم"(٨)(٩).

والراجح -والله أعلم- هو القول الأول، فسمى العقوبة باسم الذنب، هذا قول الجمهور من العلماء، والعرب تستعمل ذلك كثيرا في كلامهم.

قوله عز وجل : {وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيانِهِم يَعْمَهُونَ}[البقرة:١٥]، أي: "أن الله يبقيهم ضالين في طغيانهم"(١٠).

قال القرطبي: " أي يطيل لهم المدة ويمهلهم ويملي لهم، كما قال : {إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً} [آل عمران : ١٧٨]"(١١).

---

(١) أنظر: النكت والعيون: ٧٧-٧٨.

(٢) ومنه قوله تعالى: { إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ } وقوله { يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ } [النساء : ١٤٢]، وقوله { فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ } [التوبة : ٧٩] و { نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ } [التوبة : ٦٧] وما أشبه ذلك، إخبار من الله تعالى أنه يجازيهم جَزَاءَ الاستهزاء، ويعاقبهم عقوبة الخداع فأخرج خبره عن جزائه إياهم وعقابه لهم مُخرج خبره عن فعلهم الذي عليه استحقوا العقاب في اللفظ، وإن اختلف المعنيان كما قال تعالى : { وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا } [الشورى : ٤٠] وقوله تعالى : { فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ } [البقرة : ١٩٤]، فالأول ظلم، والثاني عدل، فهما وإن اتفق لفظاهما فقد اختلف معناهما، وإلى هذا المعنى وَجَّهوا كل ما في القرآن من نظائر ذلك.

(٣) المعلقات السبع للزوزني: ١٢٠.

(٤) أنظر: تفسير القرطبي: ٢٠٧/١.

(٥) انظر: تفسير الطبري: ٣٠٢/١-٣٠٣. وتفسير ابن كثير: ١٨٣/١-١٨٤.

(٦) أنظر: تفسيره: ٣٠٤/١. يقول الطبري:" والصواب في ذلك أن معنى الاستهزاء في كلام العرب : إظهارُ المستهزئ للمستهزَإ به من القول والفعل ما يُرضيه، ظاهرًا، وهو بذلك من قِيله وفِعْله به مُورثه مَساءة باطنًا، وكذلك معنى الخداع والسخرية والمكر، لأن المكر والخداع والسخرية على وجه اللعب والعبث منتف عن الله، عز وجل، بالإجماع، وأما على وجه الانتقام والمقابلة بالعدل والمجازاة فلا يمتنع ذلك، وبنحو هذا المعنى روي الخبر عن ابن عباس، في قوله تعالى : { اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ } قال : "يسخر بهم للنقمة منهم".

(٧) أنظر: تفسيره: ٤٣/١. يقول السعدي:" وهذا جزاء لهم، على استهزائهم بعباده، فمن استهزائه بهم أن زين لهم ما كانوا فيه من الشقاء والحالة الخبيثة، حتى ظنوا أنهم مع المؤمنين، لما لم يسلط الله المؤمنين عليهم، ومن استهزائه بهم يوم القيامة، أنه يعطيهم مع المؤمنين نورا ظاهرا، فإذا مشى المؤمنون بنورهم، طفئ نور المنافقين، وبقوا في الظلمة بعد النور متحيرين، فما أعظم اليأس بعد الطمع، {يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ} الآية".

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(١٤٣):ص٤٨/١، والخبر ساقه ابن كثير في تفسيره: ١ / ٩٤ ، والسيوطي: ١ / ٣١ ، والشوكاني: ١ / ٣٣ .

(٩) انظر: تفسير الطبري: ٣٠٤/١.

(١٠) تفسير ابن عثيمين: ٥٤/١.

(١١) تفسير القرطبي: ٢٠٨/١.

وفي {يَمُدُّهُمْ}[البقرة:١٥]، ثلاثة أقوال :
أحدهما : يملي لهم، وهو قول ابن مسعود(١) ، والسدي(٢).
الثاني : يزيدهم، وهو قول مجاهد(٣) .
الثالث: وقيل: يَمُدُّ لَهُم "(٤).

والراجح هو ما قاله مجاهد، بأن معنى {وَيَمُدُّهُمْ }: يزيدهم، على وجه الإملاء والترك لهم في عُتوِّهم وتمردهم، كما وصف ربُّنا أنه فعل بنظرائهم في قوله {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [سورة الأنعام : ١١٠]، يعني نذرُهم ونتركهم فيه، ونملي لهم ليزدادوا إثمًا إلى إثمهم، ولا وجه لقول من قال : ذلك بمعنى " يَمُدُّ لهم "، لأنه لا تدافُع بين العرب وأهل المعرفة بلغتها أن يستجيزوا قول القائل : " مدَّ النهرَ نهرٌ آخر "، بمعنى : اتصل به فصار زائدًا ماءُ المتَّصَل به بماء المتَّصِل - من غير تأوُّل منهم. ذلك أن معناه : مدّ النهرَ نهرٌ آخر. فكذلك ذلك في قول الله : { وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ}(٥).

وقوله تعالى : {طُغْيَانِهِمْ}[البقرة:١٥]، يعني في: "كفرهم وضلالهم"(٦).

قال ابن عباس :" في كفرهم يترددون"(٧). وروي عن ابن مسعود(٨) وقتادة(٩) والربيع(١٠) وابن زيد(١١) مثل ذلك.

و(الطُّغيان)،أصله مجاوزة الحد، من قولك : طغَى فلان يطغَى طُغيانًا، إذا تجاوز في الأمر حده فبغى، ومنه قوله الله:{كَلا إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى} [سورة العلق : ٦، ٧]، أي يتجاوز حدّه، وقوله في فرعون : {إِنَّهُ طَغَى} [طه : ٢٤] أي أسرف في الدعوى حيث قال : {أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى} [النازعات : ٢٤](١٢)، ومنه قول أمية بن أبي الصَّلْت(١٣) :

وَدَعَا اللهَ دَعْوَةً لاتَ هَنَّا   بَعْدَ طُغْيَانِه، فَظَلَّ مُشِيرَا

---

(١) أنظر: تفسير الطبري(٣٦٤):ص ٣٠٦/١-٣٠٧، والخبر ساقه ابن كثير ١ / ٣١ ، والسيوطي ١ / ٣١ ، والشوكاني ١ / ٣٣ .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(١٤٤):ص٤٨/١.

(٣) أخرجه الطبري:(٣٦٥)،ص٣٠٧/١، وابن أبي حاتم(١٤٥):ص٤٨/١، والخبر ساقه ابن كثير ١ / ٣١ ، والسيوطي ١ / ٣١ ، والشوكاني ١ / ٣٣ .

(٤) وهو قول بعض نحويّ البصرة يتأوّل ذلك أنه بمعنى : يَمُدُّ لَهُم ، ويزعم أن ذلك نظيرُ قول العرب : الغلامُ يلعَب الكِعَابَ ، يراد به يَلعب بالكعاب. قال : وذلك أنهم قد يقولون : " قد مَددت له وأمددتُ له " في غير هذا المعنى ، وهو قول الله تعالى ذكره : (وَأَمْدَدْنَاهُمْ) [سورة الطور : ٢٢] ، وهذا من : " مددناهم ". قال : ويقال : قد " مَدَّ البحر فهو مادٌّ " و " أَمَدَّ الجرح فهو مُمِدّ " . وحكي عن يونس الجَرْمِيِّ أنه كان يقول : ما كان من الشر فهو " مَدَدْت " ، وما كان من الخير فهو " أمْدَدت " . ثم قال : وهو كما فسرت لك ، إذا أردت أنك تركته فهو " مَدَدت له " ، وإذا أردت أنك أعطيته قلت : " أمْددت ". وأما بعضُ نحويي الكوفة فإنه كان يقول : كل زيادة حدثت في الشيء من نفسه فهو " مَدَدت " بغير ألف ، كما تقول : " مدَّ النهر ، ومدَّه نهرٌ آخر غيره " ، إذا اتصل به فصار منه ، وكلّ زيادة أحدِثتْ في الشيء من غيره فهو بألف ، كقولك : " أمدَّ الجرحُ " ، لأن المدّة من غير الجرح ، وأمدَدتُ الجيش بمَدَدٍ.(تفسير الطبري: ٣٠٧/١).

(٥) انظر: تفسير الطبري: ٣٠٧/١-٣٠٨.

(٦) تفسير القرطبي: ٢٠٨/١.

(٧) أخرجه الطبري(٣٦٦):ص٣٠٩/١.

(٨) أخرجه الطبري(٣٦٧):ص٣٠٩/١.

(٩) أخرجه الطبري(٣٦٨):ص٣٠٩/١.

(١٠) أخرجه الطبري(٣٦٩):ص٣٠٩/١.

(١١) أخرجه الطبري(٣٧٠):ص٣٠٩/١.

(١٢) أنظر: تفسير القرطبي: ٢٠٨/١.

(١٣)ديوانه : ٣٤ مع اختلاف في الرواية . والضمير في قوله " ودعا الله " إلى فرعون حين أدركه الغرق . والهاء في قوله " طغيانه " إلى فرعون ، أو إلى الماء لما طغا وأطبق عليه . وقوله " لات هنا " ، كلمة تدور في كلامهم يريدون بها : " ليس هذا حين ذلك " ، والتاء في قولهم " لات " صلة وصلت بها " لا " ، أصلها " لا هنا " أي ليس هنا ما أردت ، أي مضى حين ذلك . و " هنا " مفتوحة الهاء مشددة النون ، مثل " هنا " مضمومة الهاء مخففة النون . وقوله : " مشيرًا " ، أي مشيرًا بيده في دعاء ربه أن ينجيه من الغرق .

وقوله تعالى:{ يَعْمَهُونَ}[البقرة:١٥]، فيه ثلاثة أقوال[١] :

أحدها : يترددون ، قاله ابن عباس[٢]، ومجاهد[٣]، والربيع[٤]، ومنه قول ابن بري[٥]:

مَتى تَعْمَهْ إلى عُثْمانَ تَعْمَه   إلى ضَخْمِ السُّرادِقِ والقِبابِ

أي: تُرَدِّدُ النظرَ .

والثاني : معناه يتحيرون، قاله ابن عباس[٦]، ومنه قول رؤية بن العجاج [٧]:

ومهمه أطرافه في مهمه   أعمى الهدى بالجاهلين العمه

والثالث : يعمهون عن رشدهم ، فلا يبصرونه ، لأن من عمه عن الشيء كمن كمه عنه ، قال الأعشى[٨] :

أراني قد عمهت وشاب رأسي   وهذا اللعب شين للكبير

والرابع: يتمادَوْن. قاله ابن عباس[٩].

قال الثعلبي:{يعمهون}، أي:" يمضون، يترددون في الضلالة متحيرين، يقال: عمه يعمه عمها وعموها، وعمها فهو عمه، وعامه: إذا كان جائرا عن الحق"[١٠]. ثم استشهد بقول رؤبة السابق.

الفوائد:

١- من فوائد الآية: أن الله يستهزئ بمن يستهزئ به، أو برسله، أو بشرعه جزاءً وفاقاً؛ واعلم أن ها هنا أربعة أقسام:

- القسم الأول: قسم هو صفة كمال لكن قد ينتج عنه نقص: هذا لا يسمى الله تعالى به؛ ولكن يوصف الله به، مثل "المتكلم"، و"المريد"؛ فـ"المتكلم"، و"المريد" ليسا من أسماء الله؛ لكن يصح أن يوصف الله بأنه متكلم، ومريد على سبيل الإطلاق؛ ولم تكن من أسمائه؛ لأن الكلام قد يكون بخير، وقد يكون بشر؛ وقد يكون بصدق، وقد يكون بكذب؛ وقد يكون بعدل، وقد يكون بظلم؛ وكذلك الإرادة.
- القسم الثاني: ما هو كمال على الإطلاق، ولا ينقسم: فهذا يسمى الله به، مثل: الرحمن، الرحيم، الغفور، السميع، البصير.. وما أشبه ذلك؛ وهو متضمن للصفة؛ وليس معنى قولنا: "يسمى الله به" أن نُحْدِث له اسماً بذلك؛ لأن الأسماء توقيفية؛ لكن معناه أن الله سبحانه وتعالى تَسَمَّى به.
- القسم الثالث: ما لا يكون كمالاً عند الإطلاق؛ ولكن هو كمال عند التقييد ؛ فهذا لا يجوز أن يوصف به إلا مقيداً، مثل: الخداع، والمكر، والاستهزاء، والكيد. فلا يصح أن تقول: إن الله ماكر على سبيل الإطلاق، ولكن قل: إن الله ماكر بمن يمكر به، وبرسله، ونحو ذلك.

مسألة :-

هل "المنتقم" من جنس الماكر، والمستهزئ؟

الجواب: مسألة "المنتقم" اختلف فيها العلماء؛ منهم من يقول: إن الله لا يوصف به على سبيل الإفراد، وإنما يوصف به إذا اقترن بـ"العفو"؛ فيقال: "العفوُّ المنتقم"؛ لأن "المنتقم" على سبيل الإطلاق ليس صفة مدح إلا إذا قُرِن بـ"العفوّ"؛ ومثله أيضاً المُذِل: قالوا: لا يوصف الله سبحانه وتعالى به على سبيل الإفراد إلا إذا قُرِن بـ"المُعِز"؛ فيقال: "المعزُّ المُذل"؛ ومثله أيضاً "الضار": قالوا: لا يوصف الله سبحانه وتعالى به على سبيل الإفراد إلا إذا قُرِن "النافع"؛ فيقال: "النافع الضار"؛ ويسمون هذه: الأسماء المزدوجة.

---

(١) أنظر: النكت والعيون: ٧٩/١.

(٢) أنظر: تفسير الطبري(٣٧٣):ص٣١٠/١. ولفظه:" {يَعْمَهُونَ}، قال : يتردَّدون".

(٣) أنظر: تفسير الطبري(٣٧٥)، و(٣٧٦)، و(٣٧٧)، و(٣٧٨):ص٣١١/١.

(٤) أنظر: تفسير الطبري(٣٧٩):ص٣١١/١.

(٥) البيت ورد في اللسان ١٠/١٨٩: مادة(ع م هـ).

(٦) أنظر: تفسير الطبري(٣٧٤):ص٣١٠/١. ولفظه:" يَعْمَهُونَ " : المتلدِّد".

تلدد للرجل فهو متلدد : إذا لبث في مكانه حائرًا متبلدًا يتلفت يمينًا وشمالا .

(٧)ديوانه ص ١٦٦ واللسان والتهذيب والصحاح:(عنه).

(٨) البيت من شواهد الماوردي في النكت والعيون: ٧٩/١، والسيوطي في الإتقان: ١٧٤/١، والدر المنثور:٨٠/١.

(٩) أنظر: تفسير الطبري(٣٧٢):ص٣١٠/١.

(١٠) تفسير الثعلبي: ١٥٨/١.

ويرى بعض العلماء أنه لا يوصف به على وجه الإطلاق . ولو مقروناً بما يقابله . أي إنك لا تقول: العفوّ المنتقم؛ لأنه لم يرد من أوصاف الله سبحانه وتعالى "المنتقم"؛ وليست صفة كمال بذاتها إلا إذا كانت مقيدة بمن يستحق الانتقام؛ ولهذا يقول عزّ وجلّ: {إنا من المجرمين منتقمون} [السجدة: ٢٢] ، وقال عزّ وجلّ: {والله عزيز ذو انتقام} [آل عمران: ٤] ؛ وهذا هو الذي يرجحه شيخ الإسلام ابن تيمية؛ والحديث الذي ورد في سرد أسماء الله الحسنى، وذُكر فيه المنتقم غير صحيح؛ بل هو مدرج؛ لأن هذا الحديث فيه أشياء لم تصح من أسماء الله؛ وحذف منها أشياء هي من أسماء الله . مما يدل على أنه ليس من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم.

- القسم الرابع: ما يتضمن النقص على سبيل الإطلاق: فهذا لا يوصف الله سبحانه وتعالى به أبداً، ولا يسمى به، مثل: العاجز؛ الضعيف؛ الأعور.. وما أشبه ذلك؛ فلا يجوز أن يوصف الله سبحانه وتعالى بصفة عيب مطلقاً.

و«الاستهزاء» هنا في الآية على حقيقته؛ لأن استهزاء الله بهؤلاء المستهزئين دال على كماله، وقوته، وعدم عجزه عن مقابلتهم؛ فهو صفة كمال هنا في مقابل المستهزئين مثل قوله تعالى: {إنهم يكيدون كيداً * وأكيد كيداً} [الطارق: ١٥، ١٦] أي أعظمَ منه كيداً؛ فالاستهزاء من الله تعالى حق على حقيقته، ولا يجوز أن يفسر بغير ظاهره؛ فتفسيره بغير ظاهره محرم؛ وكل من فسر شيئاً من القرآن على غير ظاهره بلا دليل صحيح فقد قال على الله ما لم يعلم؛ والقول على الله بلا علم حرام، كما قال تعالى: {قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون} [الأعراف: ٣٣] ؛ فكل قول على الله بلا علم في شرعه، أو في فعله، أو في وصفه غير جائز؛ بل نحن نؤمن بأن الله جل وعلا يستهزئ بالمنافقين استهزاءً حقيقياً؛ لكن ليس كاستهزائنا؛ بل أعظم من استهزائنا، وأكبر، وليس كمثله شيء.

وهذه القاعدة يجب أن يسار عليها في كل ما وصف الله به نفسه؛ فكما أنك لا تتجاوز حكم الله فلا تقول لما حرم: "إنه حلال"، فكذلك لا تقول لما وصف به نفسه أن هذا ليس المراد؛ فكل ما وصف الله به نفسه يجب عليك أن تبقيه على ظاهره، لكن تعلم أن ظاهره ليس كالذي ينسب لك؛ فاستهزاء الله ليس كاستهزائنا؛ وقرب الله ليس كقربنا؛ واستواء الله على عرشه ليس كاستوائنا على السرير؛ وهكذا بقية الصفات نجريها على ظاهرها، ولا نقول على الله ما لا نعلم؛ ولكن ننزه ربنا عما نزَّه نفسه عنه من مماثلة المخلوقين؛ لأن الله تعالى يقول: {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير} [الشورى: ١١] .

أما الخيانة فلا يوصف بها الله مطلقاً؛ لأن الخيانة صفة نقص مطلق؛ و"الخيانة" معناها: الخديعة في موضع الائتمان . وهذا نقص؛ ولهذا قال الله عزّ وجلّ: {وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم} [الأنفال: ٧١] ، ولم يقل: فخانهم؛ لكن لما قال تعالى: {يخادعون الله} [النساء: ١٤٢] قال: {وهو خادعهم} [النساء: ١٤٢] ؛ لأن الخديعة صفة مدح مقيدة؛ ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "الحرب خدعة"[(١)] ، وقال صلى الله عليه وسلم: "لا تخن من خانك"[(٢)] ؛ لأن الخيانة تكون في موضع الائتمان؛ أما الخداع فيكون في موضع ليس فيه ائتمان؛ والخيانة صفة نقص مطلق.

٢- ومن فوائد الآية: أن الله سبحانه وتعالى قد يُملي للظالم حتى يستمر في طغيانه.

---

(١) أخرجه البخاري ص٢٤٣، كتاب الجها والسير، باب ١٥٧؛ الحرب خدعة، حديث رقم ٣٠٢٨؛ وأخرجه مسلم ص٩٨٦، كتاب الجهاد والسير، باب ٥؛ جواز الخداع في الحرب، حديث رقم ٤٥٤٠ [١٨] ١٧٤٠.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٤١٤/٣؛ وأخرجه أبو داود في سننه ص١٤٨٥، كتاب البيوع، باب ٧٩: في الرجل يأخذ حقه من تحت يده، حديث رقم ٣٥٣٤؛ وأخرجه الترمذي ص١٧٧٨، كتاب البيوع، باب ٣٨: أد الأمانة إلى من ائتمنك، حديث رقم ١٢٦٤؛ وأخرجه الدارمي في سننه ٣٤٣/٢، حديث رقم ٢٥٩٧، كتاب البيوع، باب ٥٧: في أداء الأمانة واجتناب الخيانة، قال الألباني في صحيح الترمذي: صحيح ١٨/٢، وقال عبد القادر الأرناؤوط في حاشية جامع الأصول: صحيح ٣٢٣/٦، حاشية رقم ١.

٣- يستفاد من الفائدة السابقة: تحذير الإنسان الطاغي أن يغتر بنعم الله عزّ وجلّ؛ فهذه النعم قد تكون استدراجاً من الله؛ فالله سبحانه وتعالى يملي، كما قال تعالى: { ويمدهم في طغيانهم يعمهون }؛ ولو شاء لأخذهم، ولكنه سبحانه وتعالى يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته . كما جاء في الحديث[٣] .

فإن قال قائل: كيف يعرف الفرق بين النعم التي يجازى بها العبد، والنعم التي يستدرج بها العبد؟

فالجواب: أن الإنسان إذا كان مستقيماً على شرع الله فالنعم من باب الجزاء؛ وإذا كان مقيماً على معصية الله مع توالي النعم فهي استدراج.

٤- ومن فوائد الآية: أن صاحب الطغيان يعميه هواه، وطغيانه عن معرفة الحق، وقبوله؛ ولهذا قال تعالى: { ويمدهم في طغيانهم يعمهون }؛ ومن الطغيان أن يُقَدِّم المرء قوله على قول الله ورسوله؛ والله تعالى يقول: {يا أيها الذين آمنوا لا تقدِّموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم}[الحجرات: ١].

القرآن

{أولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦)} [البقرة : ١٦]

التفسير:

أولئك المنافقون باعوا أنفسهم في صفقة خاسرة، فأخذوا الكفر، وتركوا الإيمان، فما كسبوا شيئًا، بل خَسِروا الهداية، وهذا هو الخسران المبين.

قوله تعالى: {أولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى}[البقرة:١٦]، "أي استبدلوا الكفر بالإيمان، وأخذوا الضلالة ودفعوا ثمنها الهدى"[١].

وقوله: { أولَئِكَ }، اسم إشارة؛ والمشار إليهم المنافقون"الموصوفون بتلك الصفات"[٢]؛ وجاءت الإشارة بصيغة البُعد لبُعد منزلة المنافق سفولاً[٣].

قال السعدي:" أي: رغبوا في الضلالة، رغبة المشتري بالسلعة، التي من رغبته فيها يبذل فيها الأثمان النفيسة، وهذا من أحسن الأمثلة، فإنه جعل الضلالة، التي هي غاية الشر، كالسلعة، وجعل الهدى الذي هو غاية الصلاح بمنزلة الثمن، فبذلوا الهدى رغبة عنه بالضلالة رغبة فيها، فهذه تجارتهم، فبئس التجارة، وبئس الصفقة صفقتهم، وإذا كان من بذل دينارا في مقابلة درهم خاسرا، فكيف من بذل جوهرة وأخذ عنها درهما؟ " فكيف من بذل الهدى في مقابلة الضلالة، واختار الشقاء على السعادة، ورغب في سافل الأمور عن عاليها"[٤].

وقد اختلف أهل العلم في قوله تعالى:{اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى}[البقرة:١٦]، على أربعة أوجه[٥]:

أحدها : أنه على حقيقة الشراء فكأنهم اشتروا الكفر بالإيمان . قاله ابن عباس[٦].

والثاني : أنه بمعنى استحبوا الكفر على الإيمان. قاله قتادة[٧].

إذ عّبر عنه بالشراء ، لأن الشراء يكون فيما يستحبه مشتريه ، فإما أن يكون على معنى شراء المعاوضة فعلاً، لأن المنافقين لم يكونوا قد آمنوا ، فيبيعوا إيمانهم .

وهؤلاء وجَّهوا معنى قول الله جل ثناؤه {اشْتَرَوا} إلى معنى اختاروا، لأن العرب تقول : اشتريت كذا على كذا، واسْتَرَيْتُه - يَعْنُون اخترتُه عليه[٨].

ومن الاستراء قول أعشى بني ثعلبة[١]:

---

(٣) راجع البخاري ص٣٨٩، كتاب التفسير باب ٥: قوله: (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد)، حديث رقم ٤٦٨٦؛ ومسلماً ص١١٣٠، كتاب البر والصلة والأدب، باب ١٥: تحريم الظلم، حديث رقم ٦٥٨١ [٦١] ٢٥٨٣.

(١) صفوة التفاسير: ٣١/١.

(٢) تفسير السعدي: ٤٣/١.

(٣) تفسير ابن عثيمين: ٦٠/١.

(٤) تفسير السعدي: ٤٣/١.

(٥) أنظر: النكت والعيون: ٧٩/١.

(٦) أنظر: تفسير الطبري(٣٨٠):ص٣١٢/١.

(٧) أنظر: تفسير الطبري(٣٨٢):ص٣١٢/١.

(٨) انظر: تفسير الطبري: ٣١٣/١.

فَقَدْ أُخْرِجُ الكَاعِبَ المُسْتَرَا ... ةَ مِنْ خِدْرِهَا وأُشِيعَ القِمَارَ

يعني بالمستراة : المختارة.

وقال ذو الرُّمة، في الاشتراء بمعنى الاختيار[٢] :

يَذُبُّ القَصَايَا عَنْ شَرَاةٍ كَأَنَّهَا ... جَمَاهِيرُ تَحْتَ المُدْجِنَاتِ الهَوَاضِبِ

يعني بالشَّراة : المختارة.

وقال آخر في مثل ذلك[٣] :

إنَّ الشَّرَاةَ رُوقَةُ الأَمْوَالِ ... وَحَزْرَةُ القَلْبِ خِيَارُ المَالِ

وضعّف الطبري هذا القول، وذلك" لأن الله جل ثناؤه قال:{فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ }، فدل بذلك على أن معنى قوله:{أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى}، معنى الشراء الذي يتعارفه الناس، من استبدال شيء مكان شيء، وأخذِ عِوَض على عوض"[٤].

والثالث : أنه بمعنى أخذوا الكفر وتركوا الإيمان ، وهذا قول ابن عباس وابن مسعود[٥]، واختاره الطبري[٦].

والرابع: أنهم: آمنوا ثم كفروا. قاله مجاهد[٧].

وقرأ يحيى بن يعمر وابن أبي إسحاق: {اشْتَرَوِا الضَّلالَةَ}، بكسر الواو، لأنّ الجزم يحرّك الى الكسرة العدوى بفتحها حركة إلى أخف الحركات[٨].

قوله تعالى: {فَمَا رَبِحَتْ تِّجَارَتُهُمْ}[البقرة:١٦]، "أي: ما ربحت صفقتُهم في هذه المعارضةِ والبيع"[٩].

قال قتادة:" قد وَالله رأيتموهم خرجوا من الهدى إلى الضلالة ، ومن الجماعة إلى الفُرقة ، ومن الأمن إلى الخوف ، ومن السُّنة إلى البدعة"[١٠].

قال الثعلبي:أي: "فما ربحوا في تجارتهم"[١١].

قال ابن عثيمين:" أي: ما زادت تجارتهم، وهي اشتراؤهم الضلالة بالهدى"[١٢].

قال الطبري:" بشرائهم الضلالة بالهدى - خسروا ولم يربحوا ، لأن الرابح من التجّار : المستبدِلُ من سلعته المملوكة عليه بدلا هو أنفسَ من سلعته المملوكة أو أفضلَ من ثمنها الذي يبتاعها به. فأما المستبدِلُ من

---

(١)) ديوانه : ٣٥ ، وطبقات فحول الشعراء : ٣٦ ، واللسان (سرا) . وفي المطبوعة : " المشتراة " في الموضعين ، والصواب ما أثبتناه . والكاعب : التي كعب ثديها ، أي نهد ، يعني أنها غريرة منعمة محجوبة . وخدر الجارية : سترها الذي يمد لها لتلزمه بعد البلوغ ، وأشاع المال بين القوم : فرقه فيهم . وأراد بالقمار : لعب الميسر ، وعنى نصيب الفائز في الميسر من لحم الجزور ، يفرقه في الناس من كرمه .

(٢)ديوانه : ٦٢ . والضمير في قوله " يذب " لفحل الإبل . ويذب : يدفع ويطرد . والقصايا ، جمع قصية : وهي من الإبل رذالتها ، ضعفت فتخلفت . وجماهير ، جمع جمهور : وهو رملة مشرفة على ما حولها ، تراكم رملها وتعقد . والمدجنات ، من قولهم " سحابة داجنة ومدجنة " ، وهي : المطبقة الكثيفة المطر . والهواضب : التي دام مطرها وعظم قطرها . شبه الإبل في جلالة خلقها وضخامتها بجماهير الرمل المتلبدة في رأي العين من بعيد

(٣) البيت ورد في تفسير الطبري: ٣١٤/١.

(٤) تفسير الطبري: ٣١٤/١-٣١٥.

(٥) أنظر: تفسير الطبري(٣٨١):ص٣١٢/١.

(٦)تفسير الطبري: ٣١٥/١. قال الطبري: " وذلك أن كل كافر بالله فإنه مستبدلٌ بالإيمان كفرًا، باكتسابه الكفرَ الذي وُجد منه، بدلا من الإيمان الذي أمر به. أوَمَا تسمعُ الله جل ثناؤه يقول فيمن اكتسب كفرًا به مكان الإيمان به وبرسوله : (وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ) [سورة البقرة : ١٠٨] ؟ وذلك هو معنى الشراء، لأن كلّ مشترٍ شيئًا فإنما يستبدل مكانَ الذي يُؤخذ منه من البدل آخرَ بديلا منه. فكذلك المنافقُ والكافر، استبدلا بالهدى الضلالة والنفاق، فأضلهما الله، وسلبهما نورَ الهدى، فترك جميعَهم في ظلمات لا يبصرون".

(٧) أنظر: تفسير الطبري(٣٨٣)، و(٣٨٤):ص٣١٢/١.

(٨) أنظر: تفسير الثعلبي: ١٥٩/١.

(٩) صفوة التفاسير: ٣١/١.

(١٠) أخرجه الطبري(٣٨٥):ص٣١٦:١-٣١٧.

(١١) تفسير الثعلبي: ١٥٩/١.

(١٢) تفسير ابن عثيمين:٦٠/١.

سلعته بدلا دُونها ودونَ الثمن الذي ابتاعها به، فهو الخاسر في تجارته لا شكّ. فكذلك الكافر والمنافق ، لأنهما اختارَا الحيرة والعمى على الرشاد والهدى ، والخوفَ والرعبَ على الحفظ والأمن"[١].

وقرأ إبراهيم ابن أبي عبلة: {فما ربحت تجاراتهم} بالجمع[٢].

قوله تعالى: {وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ}" أي وما كانوا راشدين في صنيعهم ذلك، لأنهم خسروا سعادة الدارين"[٣].

قال الثعلبي:يعني:" من الضلالة"[٤].

قال الطبري:" ما كانوا رُشداءَ في اختيارهم الضلالة على الهدى ، واستبدالهم الكفرَ بالإيمان ، واشترائهم النفاقَ بالتصديق والإقرار"[٥].

قال ابن عثيمين:" أي: ما كانوا متصفين بالاهتداء حينما اشتروا الضلالة بالهدى؛ بل هم خاسرون في تجارتهم ضالون في منهجهم"[٦].

قال السعدي: " وقوله: {وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ}، تحقيق لضلالهم، وأنهم لم يحصل لهم من الهداية شيء، فهذه أوصافهم القبيحة"[٧].

وفي قوله تعالى:{وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ}[البقرة:١٦]، ثلاثة أوجه[٨] :

أحدها : وما كانوا مهتدين ، في اشتراء الضلالة .

الثاني : وما كانوا مهتدين إلى التجارة التي اهتدى إليها المؤمنون .

الثالث : أنه لما كان التاجر قد لا يربح ، ويكون على هدى في تجارته، نفى الله عنهم الأمرين من الربح والاهتداء ، مبالغة في ذمهم .

الفوائد:

١. من فوائد الآية: بيان سفه هؤلاء المنافقين، حيث اشتروا الضلالة بالهدى.

٢. ومنها: شغف المنافقين بالضلال؛ لأنه تبارك وتعالى عبر عن سلوكهم الضلال بأنهم اشتروه؛ والمشتري مشغوف بالسلعة محب لها.

٣. ومنها: أن الإنسان قد يظن أنه أحسنَ عملاً وهو قد أساء؛ لأن هؤلاء اشتروا الضلالة بالهدى ظناً منهم أنهم على صواب، وأنهم رابحون، فقال الله تعالى: { فما ربحت تجارتهم }.

٤. ومنها: خسران المنافقين فيما يطمعون فيه بالربح؛ لقوله تعالى: (فما ربحت تجارتهم).

٥. ومنها: أن المدار في الربح، والخسران على اتباع الهدى؛ فمن اتبعه فهو الرابح؛ ومن خالفه فهو الخاسر؛ ويدل لذلك قوله تعالى: {والعصر * إن الإنسان لفي خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر} [العصر: ١ . ٣] ، وقوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم * تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون} [الصف: ١٠، ١١] : تقف على {خير لكم} ؛ لأن {إن كنتم تعلمون} إذا وصلناها بما قبلها صار الخير معلقاً بكوننا نعلم . وهو خير علمنا أم لم نعلم.

٦. . ومن فوائد الآية: أن هؤلاء لن يهتدوا؛ لقوله تعالى: { وما كانوا مهتدين }؛ لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً؛ ولذلك لا يرجعون؛ وهكذا كل فاسق، أو مبتدع يظن أنه على حق فإنه لن يرجع؛ فالجاهل البسيط خير من هذا؛ لأن هذا جاهل مركب يظن أنه على صواب . وليس على صواب.

القرآن

---

(١) تفسير الطبري: ٣١٥/١-٣١٦.
(٢) أنظر: تفسير الثعلبي: ١٥٩/١.
(٣) صفوة التفاسير: ٣١/١.
(٤) تفسير الثعلبي:١٥٩/١.
(٥) تفسير الطبري: ٣١٧/١.
(٦) تفسير ابن عثيمين:٦٠/١.
(٧) تفسير السعدي: ٤٣/١.
(٨) أنظر: النكت والعيون: ٧٩/١.

{مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ} [البقرة : ١٧]

التفسير:

إن مثل المنافقين في اشترائهم الضلالة بالهدى، وصيرورتهم بعد البصيرة إلى العمى، كمثل رجل استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها وأبصر بها ما عن يمينه وشماله وتأنس بها فبينما هو كذلك إذ طفئت ناره وصار في ظلام شديد لا يُبصر ولا يهتدي.

قال ابن عباس:" هذا مثل ضربه الله للمنافقين أنهم كانوا يتعزون بالإسلام فينا المسلمين ويقاسمونهم الفيء فلما ماتوا سلبهم الله ذلك العز كما سلب صاحب النار ضوءه"[١]. وروي عن أبي العالية[٢]، وعطاء الخراساني[٣] مثل ذلك.

قوله تعالى: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الذي استوقد نَاراً}[البقرة:١٧]، "أي مثالهم في نفاقهم وحالهم العجيبة فيه كحال شخص أوقد ناراً ليستدفئ بها ويستضيء"[٤].

وذكروا في تفسير قوله تعالى:{اسْتَوْقَدَ نَارًا}[البقرة:١٧] ، أربعة وجوه[٥]:

أحدها: أنه أراد كمثل الذي أوقد، فدخلت السين زائدة في الكلام[٦]، وهو قول الأخفش[٧].

ومن ذلك قال الشاعر[٨] :

وَدَاعٍ دَعَا : يَا مَنْ يُجِيبُ إِلى النَّدَى ... فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَاكَ مُجِيبُ

فقوله: لم يستجبه، أي: لم يجبه.

الثاني : أنه أراد استوقد مِنْ غيره ناراً للضياء[٩].

الثالث: وقيل: المراد طلب من غيره أن يوقد له[١٠].

الرابع: وقيل: طلب الوقود وسعى في تحصيله، وهو سطوع النار وارتفاع لهبها[١١].

قال الواحدي: والأول الصحيح"[١٢]. أي بمعنى (أوقد).

و(النار) مشتقة من النور وجمعها نيران، والنار تستعار لكل شدة، فيقال: أوقد نار الفتنة، وألقى بينهم نارا: إذا ألقى عداوة[١٣].

وقوله {الذي} في قوله: {الذي استوقد نارا}، المراد به الجماعة، وهو مذهب ابن قتيبة وابن الأنباري، واحتج ابن قتيبة بقول الشاعر[١٤]:

فَإِنَّ الَّذِي حَانَتْ بِفَلْجٍ دِمَاؤُهُمْ ... هُمُ القَوْمُ كُلُّ القَوْمِ يَا أُمَّ خَالِدِ[١]

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم(١٥٨):ص١/٥٠.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(١٥٩):ص١/٥٠.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(١٦٠):ص١/٥٠-٥١.

(٤) صفوة التفاسير: ١/٣١.

(٥) أنظر: النكت والعيون: ١/٧٩-٨٠.

(٦) أنظر: النكت والعيون: ١/٧٩-٨٠.

(٧)انظر "معاني القرآن" للأخفش ١/ ٢٠٨، "تأويل مشكل القرآن" ص ٣٦٢، "تفسير الطبري" ١/ ١٤٣، "تفسير ابن عطية" ١/ ١٨٣، "زاد المسير" ١/ ٣٩، "القرطبي" ١/ ١٨٣، "البحر" ١/ ٧٥.

(٨)الشعر لكعب بن سعد الغنوي . الأصمعيات : ١٤ ، وأمالي القالي ٢ : ١٥١ ، وهي من حسان قصائد الرثاء .

(٩) أنظر: النكت والعيون: ١/٧٩-٨٠.

(١٠)انظر "تفسير ابن عطية" ١/ ١٨٤، "زاد المسير" ١/ ٣٩.

(١١)انظر: انظر: "تفسير البيضاوي" ١/ ١١، "تفسير أبي السعود" ١/ ٥٠، وانظر. "البحر" ١/ ٧٨.

(١٢) التفسير البسيط: ٢/١٨٧.

(١٣) أنظر: التفسير البسيط: ٢/١٨٧.

(١٤)البيت للأشهب بن رميلة، وهو من "شواهد سيبويه"، استشهد به على حذف النون من (الذين) عند طول الصلة. "الكتاب" ١/ ١٨٧، وكذا في "المقتضب" ٤/ ١٤٦، وفي "تأويل مشكل القرآن" ص ٣٦١، "تفسير الطبري" ١/ ١٤١، "المنصف" ١/ ٦٧، "زاد المسير" ١/ ٤٠، "القرطبي" في "تفسيره" ١/ ١٢٩، (الخزانة) ٦/ ٢٥، (شرح المفصل) ٣/ ١٥٤ - ١٥٥، (همع الهوامع) ١/ ٤،٦٨/ ٣٨٠، "الدر المصون" ١/ ١٥٧، "مغني اللبيب" ١/ ١٩٤، "البحر المحيط" ١/ ٧٦، "معجم البلدان" ٤/ ٢٧٢، قال ياقوت: فلج: واد بين البصرة وحمى ضرية، وقيل: طريق تأخذ من طريق البصرة إلى اليمامة. وقعت فيه الوقعة التي يصفها الشاعر، هم القوم كل القوم: أي الكاملون في قوميتهم. فاعلمي ذلك وابكي عليهم يا أم خالد.

وقال ابن الأنباري: "(الذي) في هذه الآية، واحد في معنى الجمع[٢] ، وليس على ما ذكره ابن قتيبة، لأن (الذي) في البيت الذي احتج به جمع واحد (اللذ)، والذي في الآية واحد في اللفظ لا واحد له، ولكن المراد منه الجمع [٣].

قوله تعالى: {فَلَمَّآ أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ}[البقرة:١٧]، "أي فلما أنارتْ المكان الذي حوله فأبصر وأمِن، واستأنس بتلك النار المشعة المضيئة"[٤].

قال مجاهد:" أما إضاءة النار فإقبالهم إلى المؤمنين والهدى"[٥].

وروي "عن السدي: {فلما أضاءت ما حوله}، :زعم أن أناسا دخلوا في الإسلام مقدم النبي- صلى الله عليه وسلم- المدينة ثم إنهم نافقوا فكان مثلهم كمثل رجل كان في ظلمة فأوقد نارا فلما أضاءت ما حوله من قذى أو أذى فأبصره حتى عرف ما يتقي منها فبينما هو كذلك إذ أطفئت ناره، فأقبل لا يدري ما يتقي من أذى، فذلك المنافق كان في ظلمة الشرك فأسلم فعرف الحلال والحرام، والخير من الشر، فبينما هو كذلك إذ كفر فصار لا يعرف الحلال من الحرام ولا الخير من الشر"[٦].

قال أبو عبيد: "أضاءت النار، وأضاءها غيرها"[٧].

قال الواحدي :"والنار تضيء في نفسها، وتضيء غيرها من الأشياء، قال الشاعر[٨]:

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم   دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه

ويقال: ضاءت النار، وأضاءت، لغتان[٩]، وأضاء السبيل إذا وضح، وكل ما وضح فقد أضاء، وأضاءت الشمس وأضاء القمر[١٠]، والذي في الآية واقع"[١١].

قوله تعالى:{ ذَهَبَ الله بِنُورِهِمْ} [البقرة:١٧]، "أي أطفأهم الله بالكلية، فتلاشت النار وعُدم النور"[١٢].

قال مجاهد: "ذهاب نورهم: إقبالهم إلى الكفار والضلالة"[١٣].

وقوله عز وجل :{ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ } [البقرة: ١٧]، فيه وجهان[١٤] :

أحدهما : نور المستوقِد ، لأنه في معنى الجمع ، وهذا قول الأخفش[١٥].

والثاني : بنور المنافقين ، لأن المثل مضروب فيهم ، قاله الزجاج[١] والفراء[٢]، وإليه ذهب الطبري[٣]، حكاه الماوردي عن الجمهور[٤].

---

(١)انظر "تأويل مشكل القرآن" ص ٣٦١، وانظر "الكشاف" ١/ ١٩٦، "إملاء ما من به الرحمن" ١/ ٢٠.

(٢)ذكر نحوه الأخفش في "معاني القرآن" ١/ ٢٠٩، وانظر "زاد المسير" ١/ ٣٩، "الدر المصون" ١/ ١٥٦.

(٣) أنظر: التفسير البسيط: ١٩٣/٢-١٩٤. وقد رد على ابن قتيبة "الطبري" حيث قال: (وقد زعم بعض أهل العربية من أهل البصرة: أن (الذي) في قوله: {كمثل الذي استوقد نارا} بمعنى (الذين) كما قال جل ثناؤه: {والذي جاء بالصدق وصدق به} [الزمر: ٣٣]. وكما قال الشاعر: فإن الذي ... البيت (ثم قال: (وقد أغفل قائل ذلك فرق ما بين (الذي) في الآيتين والبيت .... وغير جائز لأحد نقل الكلمة التي هي الأغلب في استعمال العرب على معنى، إلى غيره إلا بحجة يجب التسليم لها). "تفسير الطبري" ١/ ١٤١، وانظر "البحر" ١/ ٧٧، "الدر المصون" ١/ ١٥٧.

(٤) صفوة التفاسير: ٣١/١.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(١٦١):ص٥١/١.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(١٦٢):ص٥١/١.

(٧)"تهذيب اللغة" (ضاء) ٣/ ٢٠٧٧.

(٨)البيت نسبه بعضهم لأبي الطمحان القيني، وبعضهم للقيط بن زرارة، يقول: إن أحسابهم طاهرة زكية، فدجى الليل تنكشف من نور أحسابهم، حتى إن ثاقب الضوء يسهل نظم الجزع لناظمه، ورد البيت في "الكامل" ٣/ ١٢٩، "الحماسة بشرح المرزوقي" ٤/ ١٥٩٨، "أمالي المرتضى" ١/ ٢٥٧، "الشعر والشعراء" ص ٤٧٥، "الصناعتين" ص ٣٦٠، "خزانة الأدب" ٨/ ٩٥، "اللسان" (خضض) ٢/ ١١٨٦، "القرطبي" في "تفسيره" ١/ ١٨٥.[حاشية التفسير البسيط: ١٨٧/٢-١٨٨].

(٩)انظر "الصحاح" (ضوأ) ١/ ٦٠، "تهذيب اللغة" (ضاء) ٣/ ٢٠٧٧، "اللسان" (ضوأ) ٥/ ٢٦١٨.

(١٠)انظر: "القرطبي" في: "تفسيره" ١/ ١٨٥، "زاد المسير" ١/ ٣٩.

(١١) التفسير البسيط: ١٨٧/٢-١٨٨، وقوله واقع: أي متعد، وقيل: لازم، انظر "تفسير ابن عطية" ١/ ١٨٤، "الكشاف" ١/ ١٩٨، "زاد المسير" ١/ ٣٩، "البحر المحيط" ١/ ٧٨، "الدر المصون" ١/ ١٦٠.

(١٢) صفوة التفاسير: ٣١/١.

(١٣) أخرجه ابن أبي حاتم(١٦٣):ص٥١/١.

(١٤) أنظر: النكت والعيون: ٨٠/١.

(١٥)عزاه إليه الماوردي في:" النكت والعيون": ٨٠/١.

وفي ذهاب نورهم، وجوه:
أحدها: إقبالهم إلى الكافرين والضلالة. قاله مجاهد[٥]، والربيع[٦]، وابن زيد[٧]، وروي عن ابن عباس[٨] مثل ذلك.
والثاني: ذهب الله بنورهم عند الموت، لأنه لم يكن لها أصل في قلبه. قاله قتادة[٩]، وروي عن ابن عباس[١٠] مثل ذلك.
وفي المراد بـ{نورهم} وجهان[١١]
أحدهما : أنه عَنّى إيمانهم الذي تكلموا به وأظهروه للنبي -صلى الله عليه وسلم-. قاله الضحاك[١٢].
الثاني: ذهب الله بنورهم في الآخرة ، حتى صار ذلك سمةً لهم يُعْرَفُونَ بها . وهو قول الأصم[١٣].
قوله تعالى: {وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ} [البقرة: ١٧] "أي: وأبقارهم في ظلماتٍ كثيفة وخوف شديد، يتخبطون فلا يهتدون"[١٤].
روي عن ابن عباس: "{ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ }، يقول: في عذاب [١٥] إذا ماتوا"[١٦].
وعنه كذلك: "{ لاَّ يُبْصِرُونَ}: أي لا يبصرون الحق يقولون"[١٧].
وفي قوله:{وَتَرَكَهُمْ في ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ}[البقرة:١٧]، قولان [١٨]:
أحدهما : معناه لم يأتهم بضياء يبصرون به .
والثاني : أنه لم يخرجهم منه ، كما يقال تركته في الدار ، إذا لم تَخرجْهُ منها ، وكأنَّ ما حصلوا فيه من الظلمة بعد الضياء أسوأ حالاً ، لأن من طُفِئَت عنه النار حتى صار في ظلمة، فهو أقل بصراً ممن لم يزل في الظلمة ، وهذا مَثَل ضربه الله تعالى للمنافقين .
وفيما كانوا فيه من الضياء ، وجعلوا فيه من الظلمة قولان[١٩] :
أحدهما : أن ضياءهم دخولهم في الإسلام بعد كفرهم ، والظلمة خروجهم منه بنفاقهم. روي نحوه عن ابن مسعود[٢٠]، والضحاك[٢١].
والثاني : أن الضياء يعود للمنافقين بالدخول في جملة المسلمين ، والظلمة زوالهُ عنهم في الآخرة، وهذا قول ابن عباسٍ[1] وقتادةَ[2] وروي عن الحسن[3] مثل لك.

---

(١) أنظر: معاني القرآن: ٥٩/١.
(٢) أنظر: معاني القرآن: ١٥/١.
(٣) أنظر: تفسيره: ٣٤٢/١. والمعنى عند "الطبري": فلما أضاءت ما حوله: ذلك أن المنافق لم يزل مستضيئا بضوء القول الذي قاله منافقا في حياته، ثم في يوم القيامة أنطفأ ذلك النور، وقال: الهاء والميم في (بنورهم) عائد على (الهاء والميم) في قوله: (مثلهم)". وبعضهم قال: (الهاء والميم) تعود على (الذي). انظر: "القرطبي" في "تفسيره" ١/ ١٨٣.
(٤) أنظر: النكت والعيون: ٨٠/١.
(٥) أنظر: تفسير الطبري(٣٩٣)، و(٣٩٤)، و(٣٩٥):ص٣٢٤/١، وابن أبي حاتم(١٦٣):ص٥١/١.
(٦) أنظر: تفسير الطبري(٣٩٦):ص٣٢٤/١.
(٧) أنظر: تفسير الطبري(٣٩٧):ص٣٢٤/١.
(٨) أنظر: تفسير الطبري(٣٨٦)، و(٣٨٨):ص٣٢١/١-٣٢٢.
(٩) أنظر: تفسير الطبري(٣٩٠)، و(٣٩١):ص٣٢٢/١-٣٢٣، وابن أبي حاتم(١٦٤):ص٥١/١.
(١٠) أنظر: تفسير الطبري(٣٨٧):٣٢١/١.
(١١) أنظر: النكت والعيون: ٨٠/١.
(١٢) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٦٥):ص٥١/١.
(١٣) نقله عنه الماوردي في النكت والعيون: ٨٠/١.
(١٤) صفوة التفاسير: ٣١/١.
(١٥) أخرجه الطبري(٣٨٧):ص٣٢١/١.
(١٦)أخرجه ابن أبي حاتم(١٦٧):ص٥٢/١. بزيادة"إذا ماتوا".
(١٧)أخرجه ابن أبي حاتم(١٧١):ص٥٢/١.
(١٨) أنظر: النكت والعيون: ٨٠/١.
(١٩) أنظر: النكت والعيون: ٨٠/١.
(٢٠) أنظر: تفسير الطبري(٣٨٨):ص٣٢٢/١.
(٢١) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٦٩):ص٥٢/١، ونحوه في تفسير الطبري(٣٩٢):ص٣٢٣/١.

وقوله تعالى: {وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ}: إذ جمعها لتضمنها ظلمات عديدة[٤]:
١- ظلمة الليل؛ لأن استيقاد النار للإضاءة لا يكون إلا في الليل؛ لأنك إذا استوقدت ناراً بالنهار فإنها لا تضيء.
٢- ظلمة الجو إذا كان غائماً.
٣- الظلمة التي تحدث بعد فقد النور؛ فإنها تكون أشد من الظلمة الدائمة؛ و(لَا يُبْصِرُونَ) تأكيد من حيث المعنى لقوله تعالى: {فِي ظُلُمَاتٍ}، دال على شدة الظلمة[٥].

قال ابن كثير: ضرب الله للمنافقين هذا المثل، "فشبههم في اشترائهم الضلالة بالهدى، وصيرورتهم بعد البصيرة إلى العمى، بمن استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها، وتأنس بها وأبصر ما عن يمينه وشماله، فبينا هو كذلك إذْ طفئت ناره، وصار في ظلام شديد، لا يبصر ولا يهتدي، فكذلك هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضاً عن الهدى، واستحبابهم الغيَّ على الرشد، وفي هذا المثل دلالةٌ على أنهم آمنوا ثم كفروا"[٦]، ولذلك ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات الشك والكفر والنفاق لا يهتدون إلى سبيل خير، ولا يعرفون طريق النجاة[٧].

الفوائد:
١. من فوائد الآية: بلاغة القرآن، حيث يضرب للمعقولات أمثالاً محسوسات؛ لأن الشيء المحسوس أقرب إلى الفهم من الشيء المعقول؛ لكن من بلاغة القرآن أن الله تعالى يضرب الأمثال المحسوسة للمعاني المعقولة حتى يدركها الإنسان جيداً، كما قال تعالى: {وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون} [العنكبوت: ٤٣] .
٢. ومنها: ثبوت القياس، وأنه دليل يؤخذ به؛ لأن الله أراد منا أن نقيس حالهم على حال من يستوقد؛ وكل مثل في القرآن فهو دليل على ثبوت القياس.
٣. ومنها: أن هؤلاء المنافقين ليس في قلوبهم نور؛ لقوله تعالى: {كمثل الذي استوقد ناراً}؛ فهؤلاء المنافقون يستطعمون الهدى، والعلم، والنور؛ فإذا وصل إلى قلوبهم . بمجرد ما يصل إليها . يتضاءل، ويزول؛ لأن هؤلاء المنافقين إخوان للمؤمنين من حيث النسب، وأعمام، وأخوال، وأقارب؛ فربما يجلس إلى المؤمن حقاً، فيتكلم له بإيمان حقيقي، ويدعوه، فينقدح في قلبه هذا الإيمان، ولكن سرعان ما يزول.
٤. ومن الفوائد: أن الإيمان نور له تأثير حتى في قلب المنافق؛ لقوله تعالى: {فلما أضاءت ما حوله}: الإيمان أضاء بعض الشيء في قلوبهم؛ ولكن لما لم يكن على أسس لم يستقر؛ ولهذا قال تعالى في سورة المنافقين . وهي أوسع ما تحدَّث الله به عن المنافقين: {ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم} [المنافقون: ٣] .
٥. ومنها: أنه بعد أن ذهب هذا الضياء حلت الظلمة الشديدة؛ بل الظلمات.
٦. ومنها: أن الله تعالى جازاهم على حسب ما في قلوبهم: {ذهب الله بنورهم}، كأنه أخذه قهراً.
فإن قال قائل: أليس في هذا دليل على مذهب الجبرية؟
فالجواب: لا؛ لأن هذا الذي حصل من رب العباد عزّ وجلّ بسببهم؛ وتذكَّر دائماً قول الله تعالى} :فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم} [الصف: ٥] . حتى يتبين لك أن كل من وصفه الله بأنه أضله فإنما ذلك بسبب منه
٧. ومن فوائد الآيتين: تخلي الله عن المنافقين؛ لقوله تعالى: [وتركهم]
ويتفرع على ذلك: أن من تخلى الله عنه فهو هالك . ليس عنده نور، ولا هدًى، ولا صلاح؛ لقوله تعالى: {وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ} [البقرة : ١٧].

---

(١) أنظر: تفسير الطبري(٣٧٨):ص٣٢١/١.
(٢) أنظر: تفسير الطبري(٣٩١):ص٣٢٣/١.
(٣) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٧٠):ص٥٢/١.
(٤) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٥٦/١.
(٥) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٥٦/١.
(٦) تفسير ابن كثير: ١٨٧/١.
(٧) أنظر: صفوة التفاسير: ٣١/١.

القرآن
{صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨)} [البقرة : ١٨]
التفسير:
هم صُمٌّ عن سماع الحق سماع تدبر، بُكْم عن النطق به، عُمْي عن إبصار نور الهداية؛ لذلك لا يستطيعون الرجوع إلى الإيمان الذي تركوه، واستعاضوا عنه بالضلال.
قوله تعالى:{صُمٌّ}[البقرة:١٨]، "أي هم كالصم لا يسمعون خيراً"[١].
قال ابن عباس:" لا يسمعون الهدى"[٢]. وروي نحوه عن السدي[٣]، وقتادة[٤]، وأبي مالك[٥].
و(الصمم) في كلام العرب:الانسداد ، يقال : قناة صماء إذا لم تكن مجوفة، وصممت القارورة إذا سددتها. فالأصم : من انسدت خروق مسامعه. والأبكم : الذي لا ينطق ولا يفهم ، فإذا فهم فهو الأخرس. وقيل : الأخرس والأبكم واحد. ويقال : رجل أبكم وبكيم ، أي أخرس بين الخرس والبكم،[٦] قال الشاعر[٧] :
فليت لساني كان نصفين منهما بكيم ونصف عند مجرى الكواكب
قوله تعالى:{بُكْمٌ} [البقرة:١٨]،" أي" كالخرس لا يتكلمون بما ينفعهم"[٨].
قال قتادة:" بكم عنه[أي الحق]، فهم لا ينطقون به"[٩].
وقال أبو مالك:"قوله: {بكم}،يعني: خرسا عن الكلام بالإيمان، فلا يستطيعون الكلام"[١٠].
قوله تعالى:{عُمْيٌ}[البقرة:١٨]، "أي: كالعمي لا يبصرون الهدى ولا يتبعون سبيله"[١١].
قال ابن عباس: "لا يبصرونه"[١٢]. أي الهدى. وروي نحوه عن السدي[١٣]، وقتادة"[١٤].
و«العمى» : ذهاب البصر ، وقد عمي فهو أعمى ، وقوم عمي ، وأعماه الله، وتعامى الرجل : أرى ذلك من نفسه. وعمي عليه الأمر إذا التبس ، ومنه قوله تعالى : {فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ} [القصص : ٦٦][١٥].
وليس الغرض مما ذكرناه نفي الإدراكات عن حواسهم جملة ، وإنما الغرض نفيها من جهة ما ، تقول : فلان أصم عن الخنا، كما قالوا[١٦] :
أَصَمُّ عَمَّا سَاءَهُ سَمِيعُ
أي: لا يسمع ما ساءه مع كونه سميعا، يضرب مثلا للرجل يتغافل عما يكره.
وقال آخر[١٧]:
وَعَوْرَاءُ اللِّئَامِ صَمَمْتُ عَنْهَا وَإِنِّي لَوْ أَشَاءُ بِهَا سَمِيعُ

---

(١) صفوة التفاسير: ٣١/١.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(١٧٢):ص٥٢/١.
(٣) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٧٣):ص٥٣/١.
(٤) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٧٤):ص٥٣/١.
(٥) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٧٥):ص٥٣/١.
(٦) انظر: اللسان معجم مقاييس اللغة مادة(بكم).
(٧) البيت للحصين بن الحمام، ورد في معجم مقاييس اللغو: مادة(بكم)، وانظر: سيرة ابن هشام: ٩٢/١، وبكيم : أخرس . ومجرى الكواكب : فلكها الذي تدور فيه.
(٨) صفوة التفاسير: ٣١/١.
(٩) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٧٤):ص٥٢/١.
(١٠) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٧٥):ص٥٣/١.
(١١) صفوة التفاسير: ٣١/١.
(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم(١٧٢):ص٥٢/١.
(١٣) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٧٣):ص٥٢/١.
(١٤) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٧٤)، و(١٧٦):ص٥٢/١. ولفظه:" عمي عنه[أي الحق]، فهم لا يبصرونه".
(١٥) انظر: تفسير القرطبي: ٢١٤/١.
(١٦)ورد هذا الرجز في "تهذيب اللغة" (صمم) ٢/ ٢٠٥٨، "اللسان" (صمم) ٤/ ٢٥٠٠، "شرح الحماسة" للمرزوقي ٣/ ١٤٥٠، "الكشاف" ١/ ٢٠٤، "القرطبي" في "تفسيره" ١/ ١٨٦. جميعها بدون نسبة، ومعناه: هو أصم عما لا يليق به، معرض عما ساءه مع أنه يملك السمع.
(١٧)حماسة البحترى : ١٧٢. (وعوراء الكلام) ، وكانت في المخطوطة : و(عوراء اللام)، وكأن الصواب ما في الحماسة .و (العوراء) ، الكلمة القبيحة ، أو التي تهوى جهلا في غير عقل ولا رشد.

وقال مسكين الدارمي[1]:

أَعْمَى إِذَا مَا جَارَتِي خَرَجَتْ حَتَّى يُوَارِيَ جَارَتِي السِّتْرُ
وَأَصَمُّ عَمَّا كَانَ بَيْنَهُمَا سَمْعِي وَمَا بِالسَّمْعِ مِنْ وَقْرِ

فوصف نفسه لتركه النظر والاستماع بالعمى والصمم.

قوله تعالى:{فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ}[البقرة:١٨]، "أي: لا يرجعون عما هم فيه من الغي والضلال"[2].

قال الثعلبي:أي: " عن الضلالة والكفر الى الهداية والإيمان"[3].

قال ابن عثيمين:" الفاء هذه عاطفة، لكنها تفيد السببية، أي: بسبب هذه الأوصاف الثلاثة لا يرجعون عن غيِّهم؛ فلا ينتفعون بسماع الحق، ولا بمشاهدته، ولا ينطقون به"[4].

وتعددت عبارات أهل التفسير في قوله تعالى: {فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ}[البقرة:١٨] على وجهين:

أحدهام: معناه: " لا يرجعون إلى هدى" قاله ابن عباس[5]. وكذلك فسره الربيع بن أنس[6]، والسدي[7].

والثاني: أي: لا يتوبون ولا يذكرون. قاله قتادة[8].

قال ابن كثير:" أي: لا يرجعون الى الهدى والاسلام[9]، لأنهم تركوا الحق بعد أن عرفوه، فلا يرجعون، بخلاف من ترك الحق عن جهل وضلال كالنصارى ونحوهم، فإنه لا يعقل، وهو أقرب رجوعاً منهم [10].

وفي قراءة عبد الله بن مسعود وحفصة : {صماً بكماً عمياً}، فيجوز النصب على الذم، كما قال تعالى : {مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا} [الأحزاب : ٦١] ، وكما قال :{وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ} [المسد : ٤] ، ومن ذلك قول عروة بن الورد [11]:

سقوني الخمر ثم تكنفوني عداة الله من كذب وزور

فنصب "عداة الله" على الذم. فالوقف على "يبصرون" على هذا المذهب صواب حسن. ويجوز أن ينصب صما بـ {تركهم} ، كأنه قال : وتركهم صما بكما عميا، فعلى هذا المذهب لا يحسن الوقف على "يبصرون"[12].

الفوائد:

١- ومن فوائد الآية: أن هؤلاء المنافقين أصم الله تعالى آذانهم، فلا يسمعون الحق؛ ولو سمعوا ما انتفعوا؛ ويجوز أن يُنفى الشيء لانتفاء الانتفاع به، كما في قوله تعالى: {ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون} (الأنفال: ٢١)

٢- ومنها: أن هؤلاء المنافقين لا ينطقون بالحق . كالأبكم.

٣- ومنها: أنهم لا يبصرون الحق . كالأعمى.

٤- ومنها: أنهم لا يرجعون عن غيِّهم؛ لأنهم يعتقدون أنهم محسنون، وأنهم صاروا أصحاباً للمؤمنين، وأصحاباً للكافرين: هم أصحاب للمؤمنين في الظاهر، وأصحاب للكافرين في الباطن؛ ومن استحسن شيئاً فإنه لا يكاد أن يرجع عنه.

---

(١) أمالي المرتضى ١: ٤٣ : ٤٤ ثم ٤٧٤ ، من قصيدة رواها وشرحها ، وخزانة الأدب ١ : ٤٦٨ ، وصواب رواية البيت الأول:(جارتى الخدر)، لأن قبله : ما ضر جارى إذ أجاوره أن لا يكون لبيتـه ستر، ورواية الشطر الثاني:(سمعى ، وما بى غيره وقر) ، بغير إقواء.
(٢) صفوة التفاسير: ٣١/١.
(٣) تفسير الثعلبي: ١٦١/١.
(٤) تفسير الثعلبي: ١٦١/١.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(١٧٧):ص٥٣/١..
(٦) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم:ص٥٣/١.
(٧) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٧٨):ص٥٣/١. ولفظه:" فهم لا يرجعون إلى الإسلام".
(٨) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٧٩):ص٥٣/١.
(٩) ينظر تفسير ابن كثير: ١٨٩/١.
(١٠) تفسير السعدي: ٤٤/١.
(١١)ديوانه ط بيروت ص ٣٢ برواية: " سقوني النسء " يقال لكل مسكر نسء.
(١٢) انظر: تفسير القرطبي: ٢١٤/١.

القرآن
{أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) } [البقرة : ١٩]

التفسير:

أو تُشْبه حالُ فريق آخر من المنافقين يظهر لهم الحق تارة، ويشكون فيه تارة أخرى، حالَ جماعة يمشون في العراء، فينصب عليهم مطر شديد، تصاحبه ظلمات بعضها فوق بعض، مع قصف الرعد، ولمعان البرق، والصواعق المحرقة، التي تجعلهم من شدة الهول يضعون أصابعهم في آذانهم؛ خوفًا من الهلاك، والله تعالى محيط بالكافرين لا يفوتونه ولا يعجزونه.

قوله تعالى: {أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ} [البقرة : ١٩]، "أي أو مثلهم في حيرتهم وترددهم كمثل قومٍ أصابهم مطر شديد، أظلمت له الأرض، وأرعدت له السماء، مصحوبٍ بالبرق والرعد والصواعق"[١].

واختلف في قوله تعالى: {أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ} [البقرة : ١٩]، على قولين:

أحدهما: أنه المطر: قاله ابن عباس[٢]. قال ابن أبي حاتم:"وكذلك فسره أبو العالية والحسن وسعيد بن جبير[٣] ومجاهد[٤]،وعطية العوفي، وقتادة[٥]، وعطاء الخراساني والسدي والربيع بن أنس"[٦].

والثاني: أنه: السحاب. قاله الضحاك[٧]، ومنه قول علقمة بن عبدة[٨] :

كَأَنَّهُمُ صَابَتْ عَلَيْهِمْ سَحَابَةٌ   صَوَاعِقُهَا لِطَيْرِهِنَّ دَبِيبُ
فَلاَ تَعْدِلِي بَيْنِي وَبَيْنَ مُغَمَّرٍ   سُقِيتِ غَوَادِي الْمُزْنِ حِينَ تَصُوبُ

و(السماء): كل ما علاك فأظلك، ومنه قيل لسقف البيت: سماء.والسماء: المطر، سمي به لنزوله من السماء.قال حسان بن ثابت:[٩]

ديار من بني الحَسْحَاس قَفْر   تُعفِّيها الرَّوامِسُ والسماءُ

فقوله: السماء: أي المطر.

وقال معاوية بن مالك[١٠] :

إذا سقط السماءُ بأرض قوم   رَعَيْنَاهُ وإن كانوا غِضابا

أراد للسماء المطر، لقربه من السماء[١١].

---

(١) صفوة التفاسير: ٣١/١.
(٢) أنظر: ابن أبي حاتم(١٨٠):ص٥٤/١.
(٣)أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٥٤/١.
(٤)أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٥٤/١.
(٥) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٥٤/١.
(٦) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ص٥٤/١.
(٧) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٨١):ص٥٤/١.
(٨) ديوانه: ٢٩، ط. دار صادر، ١٩٩٦. أي أنّ الطير التي لم تستطع أن تطير فزعاً ورعباً دبّت دبيباً تطلب النجاة.
(٩) ديوان حسّان بن ثابت، وليد عرفات : ٨٠/١. بنو الحسحاس : قوم من العرب , أولاد الحسحاس بن مالك بن عدي بن النجار. قال ابن فارس : الحسحاس : الرجل الجواد , والروامس : الرياح التي ترمس الآثار فتسوي بها الأرض , والسماء : المطر.
(١٠) المفضليات، المفضل الضبي، تحقيق: احمد شاكر وعبدالسلام محمد هارون، دار المعارف/ مصر، ط٦، ١٩٧٩:ص٣٥٩.
(١١)تكررت لفظة(السماء) بالإفراد في القرآن الكريم (١٢٠) مرة:
١- منها ثمان وثلاثون(٣٨) يفهم من مدلولها الغلاف الغازي للأرض بسحبه ورياحه وكسفه؛ كما في قوله تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [البقرة : ١٦٤]، علماً بأن السحاب يتحرك في نطاق المناخ الذي لا يتعدي سمكه(١٦) كيلو مترا فوق مستوي سطح البحر عند خط الاستواء، والذي يحوي أغلب مادة الغلاف الغازي للأرض(٧٥% بالكتلة) والقرآن الكريم يشير إلي إنزال الماء من السماء في أكثر من آية، وواضح أن المقصود بالسماء هنا هو السحاب أو النطاق المحتوي علي السحاب والمعروف علميا بنطاق المناخ.
٢- واثنتان وثمانون(٨٢) آية يفهم منها أن المراد السماء الدنيا غالباً، التي تحوي النجوم والكواكب، ومن ذلك قوله تعالى: {إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ} [الصافات : ٦].[للاستزادة في الموضوع راجع: مقال ("والسماء ذات الرجع" في ضوء

ويسمى الطين والكلأ أيضا سماء، يقال: ما زلنا نطأ السماء حتى أتيناكم، يريدون الكلأ والطين، ويقال لظهر الفرس أيضا سماء لعلوه، وينسب لطفيل الغنوي[١] :

وأحمرَ كالدِّيباج أما سماؤهُ فريَّا وأما أرضه فمُحُولُ

والسماء: ما علا.والأرض: ويعبر بها عن أسفل الشيء، كما يعبر بالسماء عن أعلاه.

قوله تعالى:{فِيهِ ظُلُمَاتٌ}[البقرة : ١٩]، "أي: في ذلك السحاب ظلماتٌ داجية"[٢].

واختلف في قوله تعالى: {فِيهِ ظُلُمَاتٌ}[البقرة : ١٩]، على وجوه:

أحدها: فيه ابتلاء. قاله ابن عباس[٣].

والثاني: "أي: هم في ظلمة ما هم فيه من الكفر والحذر من القتل- على الذي هم عليه من الخلاف والتخوف لكم، على مثل ما وصف من الذي هو في ظلمة الصيب". قاله ابن عباس[٤].

والثالث: أن الظلمة: الضلالة. قاله الضحاك[٥].

قال ابن عثيمين:" أي : ظلمة الليل وظلمة السحاب وظلمة المطر[٦].

قوله تعالى:{ وَرَعْدٌ}[البقرة : ١٩]، أي: " ورعدٌ قاصف"[٧].

وفي تفسير قوله تعالى{وَرَعْدٌ}[البقرة : ١٩] ثلاثة أوجه:

أحدها: أن الرعد: التخويف. قاله ابن عباس[٨].

والثاني: إن الرعد ريح. قاله أبو الجلد[٩].

والثالث: أنه مَلَكٌ ينعق بالغيث ، كما ينعق الراعي بغنمه ، فَسُمِّيَ الصوتُ رعداً باسم ذلك المَلك ، قاله أبو خطاب البصري[١٠]، وابن عباس[١١]، ومجاهد[١٢]، وعكرمة[١٣]، والخليل، وروي عن أبي صالح[١٤] وقتادة[١٥]، وعلي بن أبي طالب[١٦]، مثل ذلك.

و(الرعد)[١٧]: هو الصوت الذي يسمع من السحاب، وروي "أنه ملك يسوق السّحاب"[١٨]، وقيل رَعَدَتِ السّماءُ وبرقت، وأَرْعَدَتْ وأبرقت، ويكنّى بهما عن التّهدّد. ويقال: صلف تحت رَاعِدَةٍ[١٩] : لمن يقول ولا يحقق. والرِّعْدِيدُ: المضطرب جبنا، وقيل: أُرْعِدَتْ فرائصه خوفا[١].

علوم الفضاء) للأستاذ الدكتور مسلم شلتوت أستاذ بحوث الشمس والفضاء بالمعهد القومي للبحوث الفلكية والجيوفيزيقية بحلوان، و مقال "والسماء ذات الرجع" أ.د زغلول النجار].

(١)البيت لطفيل الغنوي، وهو في ملحقات شعره ص ٦٢؛ وشمس العلوم ٧٢/١. وعجزه في المجمل ٩٢/٢.

(٢) صفوة التفاسير: ٣١/١.

(٣) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٨٢):ص٥٤/١.

(٤) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٨٣):ص٥٤/١.

(٥) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٨٤):ص٥٤/١.

(٦) أنظر: تفسير ابن عثيمين: ٦٦/١.

(٧) صفوة التفاسير: ٣١/١.

(٨) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٨٦):ص٥٥/١.

(٩) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٨٧):ص٥٥/١، وتفسير الطبري(٤٣٧)، و(٤٣٨):ص٣٤١/١-٣٤٢.

(١٠)أنظر: تفسير الطبري(٤٢٣):ص٣٣٩/١.

(١١)أنظر: تفسير الطبري(٤٢٤)، (٤٢٥)، و(٤٢٦)، و(٤٢٧)، و(٤٣٤)، و(٤٣٦):ص٣٣٩/١-٣٤١.

(١٢) أنظر: تفسير الطبري(٤١٩)، و(٤٢٠)، و(٤٢١)، و(٤٢٩)، و(٤٣٢):ص:٣٣٨/١-٣٤٠.

(١٣)أنظر: تفسير الطبري(٤٢٩)، و(٤٣١)، و(٤٣٥):ص٣٤٠/١-٣٤١.

(١٤) أنظر: تفسير الطبري(٤٢٢):ص٣٣٨/١.

(١٥)أنظر: تفسير الطبري(٤٣٠):ص٣٤٠/١.

(١٦)أنظر: تفسير الطبري(٤٣٣):ص٣٤٠/١.

(١٧) انظر: المفردات في غريب القرآن، الراغب: ٣٥٧.

(١٨)أخرجه أحمد، والترمذي وصححه، والنسائي وغيرهم عن ابن عباس قال: أقبلت يهود إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلم فقالوا: يا أبا القاسم، إنا نسألك عن خمسة أشياء... ثم قالوا: أخبرنا ما هذا الرعد؟ قال: ملك من ملائكة الله موكّل بالسحاب، بيده مخراق من نار، يزجر به السحاب، يسوقه حيث أمره الله ... إلخ. انظر: الدر المنثور ٤/ ٦٢١، وعارضة الأحوذي ١١/ ٢٨٤ وقال الترمذي حسن غريب، ومسند أحمد ١/ ٢٧٤.

(١٩) هذا مثل يقال للذي يكثر الكلام ولا خير عنده. انظر: المجمل ٢/ ٣٨٥، والمستقصى ٢/ ٩٦.

قوله تعالى:{ وبرقٌ}[البقرة : ١٩]، أي:" وبرقٌ خاطف"[٢].

قال ابن زيد:" هذا أيضًا مثلٌ ضربه الله للمنافقين ، كانوا قد استناروا بالإسلام ، كما استنارَ هذا بنور هذا البرق"[٣].

وقال عطاء:" مثَل ضُربَ للكافر"[٤].

قال الضحاك:"البرق فالإيمان. عني بذلك أهل الكتاب"[٥].

وفي تفسير (البرق) أقوال:

أحدهما: أن البرق ماء. قاله ابن عباس[٦].

والثاني: أن البرق مخاريق الملائكة. قاله. علي[٧]، وابن عباس[٨]،وروي عن أبي هريرة[٩] والربيع[١٠]، وكعب[١١] ومجاهد[١٢]، وابن جريج[١٣]، مثل ذلك.

والثالث: وقيل: هو سوطٌ من نور يُزجي به الملكُ السحابَ. قاله ابن عباس[١٤].

قال الطبري: " وقد يحتمل أن يكون ما قاله علي بن أبي طالب وابن عباس ومجاهد بمعنى واحد. وذلك أن تكون المخاريقُ التي ذكر عليّ رضي الله عنه أنها هي البرق ، هي السياط التي هي من نور ، التي يُزجي بها الملك السحاب ، كما قال ابن عباس. ويكون إزجاء الملك بها السحاب ، مَصْعَه إياه ، وذلك أن المِصَاعَ عند العرب ، أصله : المجالَدَةُ بالسيوف ، ثم تستعمله في كل شيء جُولد به في حرب وغير حرب ، كما قال أعشى بني ثعلبة ، وهو يصف جَواريَ يلعبن بِحلْيهنَّ ويُجالدْن به[١٥]:

إذَا هُنَّ نَازَلْنَ أَقْرَانَهُنَّ وَكَانَ المِصَاعُ بِمَا فِي الْجُوَنْ

يقال منه : ماصَعه مصاعًا. وكأن مجاهدًا إنما قال : " مَصْعُ ملك " ، إذْ كان السحاب لا يماصع الملك ، وإنما الرعد هو المماصع له ، فجعله مصدرًا من مَصَعه يَمْصَعه مَصْعًا"[١٦].

و(البرق): وهو الضوء اللامع المشاهد مع السحاب (كصيب) الصيب المطر، وبَرَقَ يقال في كل ما يلمع، نحو: سيف بَارِقٌ، وبَرَقَ وبَرِقَ يقال في العين إذا اضطربت وجالت من خوف قال عزّ وجل: (فَإِذا بَرِقَ الْبَصَرُ) [القيامة/ ٧]، وقرئ: (برق)[١٧]، وتصوّر منه تارة اختلاف اللون فقيل البُرْقَة للأرض ذات حجارة

---

(١) انظر: المجمل ٢/ ٣٨٥.

(٢) صفوة التفاسير: ٣١/١.

(٣) أخرجه الطبري(٤٦٢):ص٣٥١/١.

(٤) أخرجه الطبري(٤٦٤):ص٣٥١/١.

(٥) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٩٥):ص٥٥/١، وتفسير الطبري(٤٦٠):ص٣٥٠/١.

(٦) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٨٨):ص٥٥/١. وتفسير الطبري(٤٤٣)، و(٤٤٤):ص٣٤٣/١، وفي رواية اخرى عنه عند ابن أبي حاتم:(١٨٩):ص٥٥/١: " البرق من تلالؤ الماء".

(٧) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٩٠):ص٥٥/١، وتفسير الطبري(٤٣٩):ص٣٤٢/١-٣٤٣.

(٨) تفسير الطبري(٤٤٠):ص٣٤٣/١.

(٩) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٩١):ص:٥٦/١.

(١٠) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٩٢):ص:٥٦/١.

(١١) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٩٣):ص:٥٦/١.

(١٢) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٩٤):ص:٥٦/١.

(١٣) أنظر: تفسير الطبري(٤٥٠):ص٣٤٤/١.

(١٤) أنظر: تفسير الطبري(٤٤٢):ص٣٤٣/١.

(١٥)ديوانه : ١٥ ، قال المحقق: "وزعم الطبري كما ترى أنه أراد جواري يلعبن بحليهن ويجالدن بها . وقد أخطأ المعنى . وإنما أراد الأعشى ما هو أبلغ . وذلك أن الأقران جمع قرن : وهو الذي يقارنك في القوة والشجاعة ، وأراد به الرجال ، وينازلن : أراد ما يكون منهن من المداعبة والممارسة إرادة الغلبة على عقول الرجال وعزائمهم . والجون ، جمع جونة : وهي سلة صغيرة مستديرة مغشاة بالأدم يكون فيها الطيب . ويقال أيضًا : " جؤنة وجؤن " بالهمز . وذكر الأعشى المعركة القديمة الدائرة بين الرجال والنساء ، يتخذن الزينة والطيب سلاحًا ، فيتصدين للرجال ابتغاء الظفر والغلبة ، والفتنة التي تصرع الألباب والعزائم ، فيقع الرجال أسرى في أيديهن ".[حاشية تفسير الطبري: ٣٤٦/١].

(١٦) تفسير الطبري: ٣٤٥/١-٣٤٦.

(١٧)وهي قراءة نافع وأبي جعفر المدنيّين. انظر: الإتحاف ص ٤٢٨.

مختلفة الألوان، والأبرق: الجبل فيه سواد وبياض، وسمّوا العين بَرْقاء لذلك، وناقة بَرُوق: تلمع بذنبها، والبَرُوقة: شجرة تخضر إذا رأت السحاب، وهي التي يقال فيها: أشكر من بروقة(١) .

وبَرَقَ طعامه بزيت: إذا جعل فيه قليلا يلمع منه، والبارقة والأُبَيْرق: السيف، للمعانه، والبُرَاق، قيل: هو دابة ركبها النبيّ صلّى الله عليه وسلم لمّا عرج به، والله أعلم بكيفيته، والإِبْريق معروف، وتصوّر من البرق ما يظهر من تجويفه، وقيل: بَرَقَ فلان ورعد، وأَبْرَقَ وأرعد: إذا تهدّد(٢).

قوله تعالى:{يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ في آذَانِهِم مِّنَ الصواعق}[البقرة : ١٩]، "أي يضعون رءوس أصابعهم في آذانهم لدفع خطر الصواعق، وذلك من فرط الدهشة والفزع كأنهم يظنون أن ذلك ينجيهم"(٣).

قال ابن مسعود:" وكان المنافقون إذا حضروا مجلسَ النبي صلى الله عليه وسلم جعلوا أصابعهم في آذانهم ، فَرَقًا من كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، أن يَنزل فيهم شيء أو يُذكَروا بشيء فيقتَلوا"(٤).

قوله تعالى:{حَذَرَ الموت}[البقرة : ١٩]، أي خشية الموت من تلك الصواعق المدمرة"(٥).

قال الثعلبي: أي: مخافة الموت"(٦).

قال القاسمي: أي: خوف الموت من سماعها"(٧).

قوله تعالى:{والله مُحِيطٌ بالكافرين}[البقرة : ١٩]، "أي والله تعالى محيط بهم بقدرته، وهم تحت إرادته ومشيئته لا يفوتونه، كما لا يفوتُ من أحاط به الأعداء من كل جانب"(٨).

قال القاسمي:" علما وقدرة فلا يفوتونه"(٩).

قال الواحدي:" والله مهلكهم وجامعهم في النار"(١٠).

وقال الثعلبي:" أي عالم بهم، يدل عليه قوله: وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً}[الطلاق: ١٢] "(١١).

و(الإحاطة)، تستعمل بمعان عديدة، منها(١٢):

أحدها: العلم، كقوله: {أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا} [الطلاق: ١٢] أي: لم يشذ عن علمه شيء(١٣).

والثاني: القدرة، كأن قدرته أحاطت بهم(١٤)، فلا محيص لهم عنه.

والثالث: الهلاك، أُحِيط بفلان، إذا دنا هلاكه، وهو محاط به، قال الله تعالى: {وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ} [الكهف: ٤٢]، أي: أصابه ما أهلكه وأفسده(١٥). ومنه قوله: وله: {إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ} [يوسف: ٦٦] أي تهلكوا جميعاً(١٦).

وفي تشبيه المثل في هذه الآية أقوال(١٧):

أحدها : أنه مَثَلٌ للقرآن ، شُبِّهَ المطرُ المُنَزَّلُ من السماء بالقرآن ، وما فيه من الظلمات بما في القرآن من الابتلاء ، وما فيه من الرعد بما في القرآن من الزجر ، وما فيه من البرق بما في القرآن من البيان ، وما فيه

(١)انظر: المثل في المجمل ١/ ١٢١، وأساس البلاغة ص ٢٠، ومجمع الأمثال ١/ ٣٨٨.

(٢) انظر: مفردات غريب القرآن، الراغب: ١١٩.

(٣) صفوة التفاسير: ٣١/١.

(٤) أخرجه الطبري(٤٥٢):ص٣٤٦/١.

(٥) صفوة التفاسير: ٣١/١.

(٦) تفسير الثعلبي: ١٦٤/١.

(٧) محاسن التأويل: ٢٥٩/١.

(٨) صفوة التفاسير: ٣١/١.

(٩) محاسن التأويل: ٢٥٩/١.

(١٠) التفسير البسيط: ٢٠٩/٢، وذكره "الطبري" عن مجاهد انظر "الطبري" في "تفسيره" ١/ ١٥٨، والثعلبي في "تفسيره" ١/ ٥٥ أ، وابن عطية في "تفسيره" ١/ ١٩٣، في تفسيره والبغوي ١/ ٧٠، (أضواء البيان) ١/ ١١٤.

(١١) تفسير الثعلبي: ١٦٤/١.

(١٢) أنظر: التفسير البسيط: ٢٠٩/٢-٢١٠.

(١٣)انظر "الصحاح" (حوط) ٣/ ١١٢١، والبغوي في "تفسيره" ١/ ٧٠.

(١٤)انظر "تفسير الثعلبي" ١/ ٥٥ أ، و"الطبري" في تفسيره ١/ ١٥٨.

(١٥)"تهذيب اللغة" (حاط) ١/ ٧٠٧.

(١٦) أنظر: تفسير الثعلبي: ٥٥/١.

(١٧) أنظر: النكت والعيون: ٨٢/١-٨٣.

من الصواعق بما في القرآن من الوعيد الآجل ، والدعاء إلى الجهاد في العاجل ، وهذا المعنى عن ابن عباس(١).

والثاني : أنه مَثَلٌ ، لما يخافونه من وعيد الآخرة لشكهم في دينهم ، وما فيه من البرق بما في إظهار الإسلام من حقن دمائهم ومناكحهم ومواريثهم ، وما فيه من الصواعق بما في الإسلام من الزواجر بالعقاب في العاجل والآجل .

والثالث : أنه ضَرَبَ الصيِّب مَثَلاً بظاهر إيمان المنافق ، ومثل ما فيه من الظلمات بضلالته، وما فيه من البرق بنور إيمانه ، وما فيه من الصواعق بهلاك نفاقه. قاله ابن عباس(٢).

وقد اختلف العلماء في هذا المثل، هل هو لطائفتين من المنافقين أم لطائفة واحدة(٣):

القول الأول: ذهب بعض العلماء إلى أن (أو) هنا بمعنى الواو، فالمعنى على هذا أن للمنافقين مثلين، مثل الذي استوقد ناراً، ومثل أصحاب الصيب، وكون (أو) تأتي بمعنى (الواو) صحيح كما في قوله تعالى: {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا} [الإنسان : ٢٤].

الثول الثاني: وذهب البعض إلى أن (أو) هنا للتنويع، فمن المنافقين من مثله مثل الذي استوقد ناراً، ومنهم من مثله كمثل أصحاب الصيب، والذي يؤيد هذا القول أن المنافقين أصناف، والكفار أصناف.

الفوائد:

١. من فوائد الآية: تهديد الكفار بأن الله محيط بهم؛ لقوله تعالى: { والله محيط بالكافرين}.

٢. إن عدم التفات الكفار للنفع الحقيقي، وهو منهج الله، لا يعطيهم قدرة الإفلات من قدرة الله سبحانه وتعالى في الدنيا والآخرة.

القرآن

{يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)} [البقرة : ٢٠]

التفسير:

يقارب البرق -من شدة لمعانه- أن يسلب أبصارهم، ومع ذلك فكلَّما أضاء لهم مشَوْا في ضوئه، وإذا ذهب أظلم الطريق عليهم فيقفون في أماكنهم. ولولا إمهال الله لهم لسلب سمعهم وأبصارهم، وهو قادر على ذلك في كل وقتٍ، إنه على كل شيء قدير.

قوله تعالى: {يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ}[البقرة: ٢٠]، "أي يقارب البرقُ لشدته وقوته وكثرة لمعانه أن يذهب بأبصارهم فيأخذها بسرعة"(٤).

قال ابن كثير:" أي : لشدته وقوته في نفسه ، وضعف بصائرهم ، وعدم ثباتها للإيمان"(٥).

وقال ابن عطية: "كاد حجج القرآن وبراهينه وآياته الساطعة تبهرهم"(٦).

قال ابن عباس:" يكاد الإيمان يدخل في قلوبهم"(٧).

وعنه أيضا:" : "يكاد مُحْكَمُ القرآن يدل على عورات المنافقين"(٨).

---

(١) أنظر: تفسير الطبري(٤٥٤):ص٣٤٧/١، وانظر: "تفسير أبي الليث" ١/ ١٠٠، وابن عطية في "تفسيره" ١/ ١٩٢.

(٢) أنظر: تفسير الطبري(٤٥٣):ص٣٤٦/١.

(٣) تفسير الطبري: ٣٣٦/١.

(٤) صفوة التفاسير: ٣١/١.

(٥) تفسير ابن كثير: ١٩٠/١.

(٦) المحرر الوجيز: ١٠٤/١.

(٧) نقلا عن التفسير البسيط: ٢١٢/٢، ولم أجد هذِه الرواية عن ابن عباس، وفي "الطبري" عن الضحاك عن ابن عباس. قال: يلتمع أبصارهم ولما يفعل ١/ ١٥٨، "وتفسير ابن أبي حاتم" ١/ ٥٧، الدر" ١/ ٧٣، وأخرج ابن أبي حاتم عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يكاد محكم القرآن يدل على عورات المنافقين "تفسير ابن أبي حاتم" ١/ ٥٧.

(٨) أخرجه الطبري في تفسيره(٤٥٤):ص٣٤٩/١.

و(الخطف) : الأخذ بسرعة ، ومنه سمي الطير خطافا لسرعته، فمن جعل القرآن مثلا للتخويف فالمعنى أن خوفهم مما ينزل بهم يكاد يذهب أبصارهم. ومن جعله مثلا للبيان الذي في القرآن فالمعنى أنهم جاءهم من البيان ما بهرهم[1].

وقوله تعالى: {يَخْطَفُ}[البقرة:٢٠]، فيه وجهان من القراءة[2]:

أحدهما: {يخْطَف}، بفتح الطاء، قرأ بها علي بن الحسين ويحيى بن وثاب والحسن، وهي اللغة الجيدة.

والثاني: {يخْطِف} بكسر الطاء،قرأ بها يونس، قال الأخفش:" وهي قليلة رديئة لا تكاد تعرف"[3].

قال أبو علي: "حدثنا أحمد بن موسى: قال: اتفقوا على يَخْطَفُ [البقرة:٢٠]، أنّ طاءه مفتوحة"[4].

قوله تعالى: {كُلَّمَا أَضَآءَ لَهُمْ مَّشَوْاْ فِيهِ}[البقرة: ٢٠]، "أي كلما أنار لهم البرق الطريق مشوا في ضوئه"[5].

قال الراغب: كلما" رأوا لامعاً لهم إما راشدا تدركه بصائرهم وإما رفداً ينفعهم اهتزوا له، فمضوا بنوره"[6].

قال ابن كثير:" أي كلما ظهر لهم من الإيمان شيء استأنسوا به واتبعوه"[7].

قال الواحدي: كلما" كثرت الغنائم، وأصابوا الخير، رضوا به"[8].

قال ابن عباس:"إذا قرئ عليهم شيء من القرآن مما يحبون صدقوا"[9].

وعنه أيضا: " كلما أصابَ المنافقون من الإسلام عِزًّا اطمأنوا"[10].

وروي عن ابن مسعود: " فإذا كثرت أموالهم ، ووُلد لهم الغلمان، وأصابوا غنيمةً أو فتحًا ، مشوْا فيه ، وقالوا : إن دين محمد صلى الله عليه وسلم دينُ صدق. فاستقاموا عليه"[11].

وقال قتادة: هو المنافق إذا كثر ماله وأصاب رخاء وعافية قال للمسلمين: أنا معكم وعلى دينكم، وإذا أصابته النوائب قام متحيرا؛ لأنه لا يحتسب أجرها"[12].

قال الواحدي:" كأصحاب الصيب إذا أضاء لهم البرق فأبصروا الطريق مشوا، فإذا عادت الظلمة وقفوا متحيرين"[13].

وقرأ ابن أبي عبلة :{كلما ضاء}، بغير همز، وهي لغة[14]، وفي مصحف أُبيّ : {مرّوا فيه}، وفي مصحف ابن مسعود :{مضوا فيه}[15].

---

(١) انظر: تفسير القرطبي: ٢٢٢/١.

(٢) انظر: السبعة في القراءات: ١٤٨، والحجة للقراء السبعة: ٣٩٠/١، وتفسير القرطبي: ٢٢٣/١.

(٣) معاني القرآن: ٥٤/١.

(٤) الحجة للقراء السبعة: ٣٩٠/١. وقد ذكر: في(يخطف) ستة أوجه موافقة للخط. أنظر: معاني القرآن للأخفش:٥٤/١-٥٥، وتفسير القرطبي: ٢٢٢/١.

(٥) صفوة التفاسير: ٣١/١.

(٦) تفسير الراغب الأصفهاني: ١٠٩/١.

(٧) تفسير ابن كثير: ١٩٠/١.

(٨) التفسير البسيط: ٢١٤/٢. وذكر نحوه "الطبري"، إلا أنه قال: (جعل البرق لإيمانهم مثلا، وإنما أراد بذلك أنهم كلما أضاء لهم الإيمان، وإضاءته لهم: أن يروا ما يعجبهم في عاجل الدنيا ....)، "تفسير الطبري" ١/ ١٥٨، وانظر: "تفسير الخازن" ١/ ٧١، ٧٢، "البحر" ١/ ٩١.

(٩)ذكره ابن الجوزي عن ابن عباس والسدي، "زاد المسير" ١/ ٤٦، وأبو حيان في "البحر" ١/ ٩١، وذكر ابن عطية عن ابن عباس نحوه ١/ ١٩٥، وكذا "القرطبي" ١/ ١٩٣.

(١٠) أخرجه الطبري(٤٥٤):ص٣٤٧/١.

(١١) أخرجه الطبري(٤٥٢):ص٣٤٦/١.

(١٢)ذكره الثعلبي في "تفسيره" ١/ ٥٦ أ، وأخرجه "الطبري" في "تفسيره" ١/ ١٥٥، وذكره السيوطي في "الدر" وعزاه إلى عبد بن حميد وابن جرير ١/ ٧٢، وقد ورد نحوه عن ابن عباس. انظر: "تفسير الطبري" ١/ ١٥٤، و"تفسير ابن أبي حاتم" ١/ ٥٩، "الدر" ١/ ٧٢.

(١٣) التفسير البسيط:٢١٣/٢.

(١٤) أنظر: المحرر الوجيز: ١٠٤/١، والبحر المحيط: ٧١/١.

(١٥) أنظر: المحرر الوجيز: ١٠٤/١، والبحر المحيط: ٧١/١.

قوله تعالى:{وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ}[البقرة: ٢٠]، "أي وإذا اختفى البرق وفتر لمعانه وقفوا عن السير وثبتوا في مكانهم"(١).

قال الراغب:"ثم بين أنه إن اعترض لهم شبهة أو عن لهم مصيبة تحيروا ، فوقفوا"(٢).

قال ابن كثير:" وتارة تعْرض لهم الشكوك، أظلمت قلوبَهم، فوقفوا حائرين"(٣).

قال ابن عباس:"وإذا سمعوا شيئاً من شرائع النبي صلى الله عليه وسلم مما يكرهون وقفوا عنه"(٤).

وعنه أيضا:" وإن أصابَ الإسلام نكبةٌ قاموا ليرجعوا إلى الكفر"(٥).

قال الواحدي:"{وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِم}: الغنيمة وكانت بدلها الهزيمة، اعتلوا وقعدوا عن نصرة الرسول"(٦).

قال ابن عطية:" وقامُوا معناه ثبتوا، لأنهم كانوا قياما، ومنه قول الأعرابي: «وقد أقام الدهر صعري بعد أن أقمت صعره» يريد أثبت الدهر"(٧).

وقرأ يزيد بن قطيب والضحاك : {وإذا أظلم}، بضم الهمزة وكسر اللام، مبنياً للمفعول(٨).

قال الراغب: "والآية تأولت على وجهين :

أحدهما: أنه شبه حال المتحرين الذين اشتروا الضلالة بالهدى بمن حصل في ليلة مطيرة ومظلمة راعدة بارقة يخاف من أهوالها وصاعقتها ويسد أذنه خوفاً من أن يصعق ويكون هذا في شغل الكلام بالمشبه به ووصفه بما يعظم من غير أن يكون في تفاصيل صفة المشبه به ما يرجع إلى المشبه طريقة العرب، على ذلك قول لبيد(٩):

أَفَتِلْكَ أَمْ وَحْشِيَّةٌ مَسْبُوعَةٌ ... خَذَلَتْ وَهَادِيَةُ الصِّوَارِ قِوَامُهَا

فشبه "الناقة" بالوحشية ثم ذكر أنها مسبوعة مخذولة ، ولا اختصاص للناقة بهذا الوصف.

والثاني : أنه شبه ما أتى الله الإنسان من المعاون التي هي سبب الحياة الأبدية بالصيب الذي فيه خياة كل ذي حياة ، وما فيه من المشاق المبهمة والعوارض المشكلة بظلمات ، وجمع الظلمات تنبيهاً على كثرة العوارض ، وشبه ما فيه من الوعيد بالرعد ، وما فيه من الآيات الباهرة بالبرق ، ثم ذكر كل واحد من هذه الأشياء فقال : إذا سمعوا وعيداً تصاموا عنه كحال من تهوله الرعد فيخاف من صواعقه ، فيسد أذنه عنها مع أنه لا خلاص لهم منها وهذا معنى قوله : " {الله محيط بالكافرين} "(١٠).

قوله تعالى: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ }[البقرة:٢٠]، أي: لو أراد الله" لأذهب سَمعَهم وأبصارَهم"(١١).

قال الشوكاني: ذهب بهما" بالزيادة في الرعد والبرق"(١٢).

قال ابن عثيمين:" دون أن تحدث الصواعق، ودون أن يحدث البرق"(١٣).

قال الصابوني: "أي: لو أراد الله لزاد في قصف الرعد فأصمهم وذهب بأسماعهم، وفي ضوء البرق فأعماهم وذهب بأبصارهم"(١).

---

(١) صفوة التفاسير: ٣١/١.

(٢) تفسير الراغب الأصفهاني: ١٠٩/١.

(٣) تفسير ابن كثير: ١٩٠/١.

(٤)ذكره ابن الجوزي عن ابن عباس والسدي، "زاد المسير" ١/ ٤٦، وأبو حيان في "البحر" ١/ ٩١، وذكر ابن عطية عن ابن عباس نحوه ١/ ١٩٥، وكذا "القرطبي" ١/ ١٩٣.

(٥) أخرجه الطبري(٤٥٤):ص٣٤٧/١.

(٦) التفسير البسيط: ٢١٤/٢. وذكر نحوه "الطبري"، إلا أنه قال: (جعل البرق لإيمانهم مثلا، وإنما أراد بذلك أنهم كلما أضاء لهم الإيمان، وإضاءته لهم: أن يروا ما يعجبهم في عاجل الدنيا ....)، "تفسير الطبري" ١/ ١٥٨، وانظر: "تفسير الخازن" ١/ ٧١، ٧٢، "البحر" ١/ ٩١.

(٧) المحرر الوجيز: ١٠٤/١.

(٨) أنظر:المحرر الوجيز: ١٠٤/١، والبحر المحيط: ٧١/١.

(٩)شرح المعلقات السبع:٩٧.

(١٠) تفسير الراغب الأصفهاني: ١٠٨/١-١٠٩.

(١١) تفسير الطبري: ٣٦٠/١.

(١٢) الفتح القدير: ٤٩/١.

(١٣) تفسير ابن عثيمين:٦٩/١.

قال الراغب: تنبيه" على أنهم يصرفون أسماعهم وأبصارهم عما فيه نجاتهم وتأمل ما فيه صلاحهم وإنما جعل الله لهم السمع والأبصار لينفعهم ولو شاء الله لجعلهم بالحالة التي أنفسهم عليها يسدهما وتعطيلهما ، وذلك تنبيه على أنه إنما أعطاهم هذه الآلات لينتفعوا بها"[٢].

قال أبو العالية:" ذكر أسماعهم وأبصارهم التي عاثوا بها في الناس"[٣].

قال القرطبي:" ولو شاء الله لأطلع المؤمنين عليهم فذهب منهم عز الإسلام بالاستيلاء عليهم وقتلهم وإخراجهم من بينهم. وخص السمع والبصر لتقدم ذكرهما في الآية أولا، أو لأنهما أشرف ما في الإنسان"[٤].

وقرى:{بأسماعهم}، على الجمع[٥].

قوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[البقرة:٢٠]، " أي: لا يعتريه عجز في كل شيء فعله"[٦].

قال محمد بن إسحاق: " أي: إن الله على كل ما أراد بعباده من نقمة أو عفو قدير"[٧].

قال ابن عباس:" أي لما تركوا من الحق بعد معرفته، إن الله على كل شيء قدير"[٨].

قال ابن عثيمين:"فهو قادر على أن يُذهب السمع والبصر بدون أسباب: فيذهب السمع بدون صواعق، والبصر بدون برق"[٩].

قال القرطبي:" وأجمعت الأمة على تسمية الله تعالى بالقدير، فهو سبحانه قدير قادر مقتدر"[١٠].

قال الطبري:" وإنما وصف الله نفسه جل ذكره بالقدرة على كل شيء في هذا الموضع، لأنه حذر المنافقين بأسه وسطوته وأخبرهم أنه بهم محيط وعلى إذهاب أسماعهم وأبصارهم قدير، ثم قال: فاتقوني أيها المنافقون واحذروا خداعي وخداع رسولي وأهل الإيمان بي لا أحل بكم نقمتي فإني على ذلك وعلى غيره من الأشياء قدير. ومعنى قدير: قادر، كما معنى عليم: عالم، على ما وصفت فيما تقدم من نظائره من زيادة معنى فعيل على فاعل في المدح والذم"[١١].

وقوله تعالى:{كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِم قَامُوا}، وهذا مَثَلٌ ضربه الله تعالى للمنافقين ، وفيه تفسيران[١٢]:

أحدهما : معناه: كلما غنموا وأصابوا من الإسلام خيراً ، اتبعوا المسلمين ، وإذا أظلم عليهم فلم يصيبوا خيراً ، قعدوا عن الجهاد.

الثاني : معناه: كلما أضاء لهم الحق اتبعوه ، وإذا أظلم عليهم بالهوى تركوه .

قال القشيري:" من تمام مثل المنافقين- كذلك أصحاب الغفلات- إذا حضروا مشاهد الوعظ، أو جنحت قلوبهم إلى الرقة، أو داخلهم شىء من الوهلة تقرب أحوالهم من التوبة، وتقوى رغبتهم فى الإنابة حتى إذا رجعوا إلى تدبرهم، وشاوروا إلى قرنائهم، أشار الأهل والولد عليهم بالعود إلى دنياهم، وبسطوا فيهم لسان النصح، وهدّدوهم بالضعف والعجز، فيضعف قصودهم، وتسقط إرادتهم، وصاروا كما قيل:

إذا ارعوى، عاد إلى جهله ... كذى الضنى عاد إلى نكسة"[١٣].

وقال سهل:" الإصرار على الذنب يورث الجهل، والجهل يورث التخطي في الباطل، والتخطي في الباطل يورث النفاق، والنفاق يورث الكفر.

---

(١) صفوة التفاسير: ٣١/١.
(٢) تفسير الراغب الأصفهاني: ١٠٩/١.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٢١٢):ص٥٩/١.
(٤) تفسير القرطبي: ٢٢٤/١.
(٥) أنظر: تفسير القرطبي: ٢٢٤/١.
(٦) تفسير ابن عثيمين:٣٥٨/١.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(٢١٤):ص٥٩/١.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(٢١٣):ص٥٩/١.
(٩) تفسير ابن عثيمين:٦٩/١.
(١٠) تفسير القرطبي: ٢٢٤/١.
(١١) تفسير الطبري: ٣٨٣/١.
(١٢) أنظر: النكت والعيون: ٨٣/١.
(١٣)لطائف الإشارات: ٦٧/١.

قيل: وما علامة المنافق؟ قال: يبصر الشيء عند مذاكرته، فإذا قام من عنده كأنه لم يخطر على قلبه، قال الله تعالى: {كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا} [البقرة: ٢٠]"(١).

الفوائد:

١- ومنها: أن البرق الشديد يخطف البصر؛ ولهذا يُنهى الإنسان أن ينظر إلى البرق حال كون السماء تبرق؛ لئلا يُخطف بصره.

٢- ومنها: أن من طبيعة الإنسان اجتناب ما يهلكه؛ لقوله تعالى:{وإذا أظلم عليهم قاموا}.

٣- ومنها: إثبات مشيئة الله؛ لقوله تعالى: {ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم}

٤- ومنها: أنه ينبغي للإنسان أن يلجأ إلى الله عزّ وجلّ أن يمتعه بسمعه، وبصره؛ لقوله تعالى: {ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم}؛ وفي الدعاء المأثور: "متعنا بأسماعنا، وأبصارنا، وقوتنا ما أحييتنا"(١).

٦- ومنها: أن من أسماء الله أنه قدير على كل شيء.

٧- ومنها: عموم قدرة الله تعالى على كل شيء؛ فهو جلّ وعلا قادر على إيجاد المعدوم، وإعدام الموجود، وعلى تغيير الصالح إلى فاسد، والفاسد إلى صالح، وغير ذلك

القرآن

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١)} [البقرة : ٢١]

التفسير:

أيها الناس(الكفار والمؤمنون) اخضعوا وذلوا لله سبحانه وتعالى، الذي أوجدكم من العدم، وأوجد من قبلكم من الأمم الماضية، إذا عبدتم الله وحده، اتقيتم بذلك سخطه وعذابه، صرتم من المتقين الموصوفين بالتقوى.

سبب النزول:

أخرج أبو الحسن الواحدي " عن علقمة قال: كل شيء نزل فيه: {يا أيها الناس} فهو مكي، و{يا أيها الذين آمنوا} فهو مدني يعني أن يا أيها الناس خطاب أهل مكة و {يا أيها الذين آمنوا} خطاب أهل المدينة قوله: {يا أيها الناس اعبدوا ربكم} خطاب لمشركي مكة إلى قوله: {وبشر الذين آمنوا}، وهذه الآية نازلة في المؤمنين وذلك أن الله تعالى لما ذكر جزاء الكافرين بقوله: {النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين} ذكر جزاء المؤمنين"(٢).

قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ}[البقرة:٢١]، أي: يا أيها الناس، تذللوا لربكم بالطاعة(٣).

قال ابن عباس: "أي: وحدوا ربكم"(٤).

قال ابن عثيمين: "وذلك بفعل الأوامر، واجتناب النواهي ذلاً تاماً ناشئاً عن المحبة، والتعظيم؛ و "الرب" هو الخالق المالك المدبر لشؤون خلقه"(٥).

---

(١)تفسير التستري: ١٧٨.

(١) أخرجه الترمذي ص٢٠١٢، كتاب الدعوات، باب ٧٩: اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك...، حديث رقم ٣٥٠٢، قال الألباني في صحيح الترمذي: حسن [١٦٨/٣، حديث رقم ٢٧٨٣].

(٢)أسباب نزول القرآن: ٢٣.

(٣)أنظر: تفسير ابن عثيمين:٧٣/١.

(٤) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٢١٦):ص٦٠/١.

(٥) تفسير ابن عثيمين: ٧٣/١.

وفي هذه الآية وجوب عبادة الله عز وجل، وقد جاءت النصوص الآمرة بذلك :

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١)} [البقرة: ٢١]

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٦٨)} [البقرة: ١٦٨]

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١) } [النساء: ١، ٢]

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧٠) } [النساء: ١٧٠]

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا (١٧٤) } [النساء: ١٧٤، ١٧٥]

وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ}[البقرة:٢١] النداء هنا وجِّه لعموم الناس مع أن السورة مدنية؛ والغالب في السور المدنية أن النداء فيها يكون موجهاً للمؤمنين، والله أعلم بما أراد في كتابه؛ ولو قال قائل: لعل هذه آية مكية جعلت في السورة المدنية؟

فالجواب: أن الأصل عدم ذلك - أي عدم إدخال الآية المكية في السور المدنية، أو العكس؛ ولا يجوز العدول عن هذا الأصل إلا بدليل صحيح صريح؛ وعلى هذا فما نراه في عناوين بعض السور أنها مدنية إلا آية كذا، أو مكية إلا آية كذا غير مسلَّم حتى يثبت ذلك بدليل صحيح صريح؛ وإلا فالأصل أن السورة المدنية جميع آياتها مدنية، وأن السور المكية جميع آياتها مكية إلا بدليل ثابت(١).

واختلف في {الناس}، في قوله تعالى{يا أيها الناسُ اعبدُوا رَبكم}[البقرة:٢١]، على وجهين:

أحدهما: أنه: للفريقين جميعا من الكفار والمنافقين(٢). قاله ابن عباس(٣).

أي: وَحِّدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم. قال الطبري: والذي أراد ابن عباس - إن شاء الله- وحِّدوه، أي: أفردُوا ربكم بالطاعة والعبادة دون سائر خلقه.. وكذا أمر سائر خلقه المكلَّفين - بالاستكانة، والخضوع له بالطاعة، وإفراده بالربوبية والعبادة دون الأوثان والأصنام والآلهة وسائر ما يُعبد من دونه وهو الراجح في تفسير الطاغوت في قوله سبحانه {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ } [النحل: ٣٦](٤). يقول لهم: فالذي خلقكم وخلق آباءكم وأجدادَكم وسائرَ الخلق غيرَكم، وهو يقدرُ على

{قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨)} [الأعراف: ١٥٨]

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣)} [يونس: ٢٣]

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٥٧)} [يونس: ٥٧]

{قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤)} [يونس: ١٠٤]

{ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (١٠٨)} [يونس: ١٠٨]

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١)} [الحج: ١]

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) } [الحج: ٥]

{قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٤٩)} [الحج: ٤٩]

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣)} [الحج: ٧٣]

{وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦)} [النمل: ١٦]

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٣٣)} [لقمان: ٣٣]

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣)} [فاطر: ٣]

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥)} [فاطر: ٥]

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥)} [فاطر: ١٥]

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣)} [الحجرات: ١٣]

كانت هذه رسائل ونداءات ربانية عظيمة تنتظم النور الرباني للناس جميعا، ولكل الأمم في كل العصور، ترسم معالم الدين والحياة بالحقائق الكبرى عن هذا الوجود.

(١) تفسير ابن عثيمين:٧٣/١.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ٣٦٤/١، وتفسير ابن كثير: ١٩٥/١.

(٣) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٢١٥):ص٦٠/١.

(٤)قال السمرقندي في تفسيره: الشيطان والكاهن والصنم وكل من يدعو إلى ضلالة.

ضرّكم ونَفعكم - أولى بالطاعة ممن لا يقدر لكم على نَفعٍ ولا ضرٍّ.. وإفراد الله تعالى بالعبادة من أجل تتقوا سَخَطه وغضَبه أن يَحلّ عليكم، وتكونُوا من المتقين الذين رضي الله عنهم. { لعلكم تتقون}[1].

والثاني: وقيل المراد بالناس الكفار الذين لم يعبدوه، يدل عليه قوله : {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ} [البقرة : ٢٣][2].

والقول الأول أصح[3]، لأنه هذا أمر عام لكل الناس، بأمر عام، وهو العبادة الجامعة، لامتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه، وتصديق خبره، فأمرهم تعالى بما خلقهم له، قال تعالى: { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُون } [4].

قوله تعالى: {الَّذِي خَلَقَكُمْ} [البقرة : ٢١]، "أي الذي "أوجدكم من العدم"[5].

وتجدر الإشارة بأن قوله تعالى: {الَّذِي خَلَقَكُمْ}، صفة كاشفة تبين بعض معنى الربوبية؛ وليست صفة احترازية؛ لأنه ليس لنا ربان أحدهما خالق، والثاني غير خالق؛ بل ربنا هو الخالق[6].

قوله تعالى:{ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ }[البقرة:٢١]، " يعني: وخلق الذين من قبلكم"[7].

قال ابن عثيمين:" والمراد بـ "من قبلنا": سائر الأمم الماضية"[8].

قال السدي:" يقول: خلقكم وخلق الذين من قبلكم"[9]. وروي عن مجاهد نحو ذلك[10].

قوله تعالى: {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}[البقرة:٢١]، "أي: لأجل أن تتقوا الله عزّ وجلّ"[11].

واختلف في قوله: {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة:٢١] على وجهين[12]:

أحدهما: لعلكم تتقون بعبادتكم ربَّكم الذي خلقكم، وطاعتِكم إياه فيما أمركم به ونهاكم عنه، وإفرادكُم له العبادة، لتتقوا سَخَطه وغضَبه أن يَحلّ عليكم، وتكونُوا من المتقين الذين رضي عنهم ربهم. وهو معنى قول الضحاك[13].

قال الضحاك:" لعلكم تتقون النار بالصلوات الخمس"[14].

الثاني: لعلكم تُطيعونه. قاله مجاهد[15].

وقوله{لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}[البقرة:٢١]، فيه ثلاثة وجوه[16]:

أحدها: أن العرب استعملت "لعل" مجردة من الشك بمعنى لام كي[17]، فالمعنى: لتعقلوا ولتذكروا ولتتقوا، فـ(لعل) في هذه الآية قال فيها كثير من المفسرين هي بمعنى إيجاب التقوى وليست من الله تعالى بمعنى ترج وتوقع[18] والمعنى ذلك : اعبدُوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم، لتتقوه بطاعته وتوحيده وإفراده بالربوبية والعبادة، كما قال الشاعر[19]:

وَقُلْتُمْ لَنَا كُفُّوا الْحُرُوبَ، لَعَلَّنَا نَكُفُّ! وَوَثَّقْتُمْ لَنَا كُلَّ مَوْثِقِ

---

(١) [قال العلامة أحمد شاكر: يريد الطبري أن العرب تستعمل "لعل" أحيانا بغير معنى الشك، بمعنى لام الغاية = كي، كما قال ابن الشجري في أماليه]

(٢) انظر: تفسير القرطبي: ٢٢٥/١.

(٣) وهو قول أكثر المفسرين: انظر تفسير الطبري: ٣٦٤/١، وتفسير ابن كثير: ١٩٥/١.

(٤) انظر: تفسير السعدي: ٤٤/١.

(٥) تفسير ابن عثيمين:٧٣/١.

(٦) أنظر: تفسير ابن عثيمين:٧٣/١.

(٧) تفسير ابن عثيمين:٧٣/١.

(٨) تفسير ابن عثيمين:٧٣/١.

(٩) أخرجه ابن ابي حاتم(٢١٧):ص٦٠/١.

(١٠) انظر: تفسير ابن ابي حاتم٦٠/١. حكاه دون سند.

(١١) تفسير ابن عثيمين: ٢٢٥/١.

(١٢) انظر: تفسير الطبري: ٣٦٤/١.

(١٣) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٢١٩):ص٦٠/١.

(١٤) أخرجه ابن أبي حاتم(٢١٩):ص٦٠/١.

(١٥) أخرجه ابن أبي حاتم(٢٢٠):ص٦٠/١.

(١٦) انظر: تفسير القرطبي: ٢٢٦/١-٢٢٧.

(١٧)كما قال ابن الشجري في أماليه ١ : ٥١ .

(١٨) انظر: المحرر الوجيز: ١٠٥/١.

(١٩)لم أعرف قائلهما، ورواهما ابن الشجري نقلا عن الطبري ، فيما أرجح ، في أماليه ١ : ٥١ .

فَلَمَّا كَفَفْنَا الْحَرْبَ كَانَتْ عُهُودُكُمْ   كَلَمْحِ سَرَابٍ فِي الْفَلا مُتَأَلِّقِ

يريد بذلك : قلتم لنا كُفُّوا لنكفّ. وذلك أن " لعل " في هذا الموضع لو كان شَكًّا، لم يكونوا وثقوا لهم كل مَوْثِق. وبه قال أكثر المفسرين.

عن أبي مالك:" قوله: {لَعَلَّكُمْ}، يعني: غير آية في الشعراء {لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُون} [الشعراء : ١٢٩]، يعني: كأنكم تخلدون"[١].

والثاني: أن "لعل" على بابها من الترجي والتوقع، والترجي والتوقع إنما هو في حيز البشر، فكأنه قيل لهم : افعلوا ذلك على الرجاء منكم والطمع أن تعقلوا وأن تذكروا وأن تتقوا.

والثالث: أن تكون "لعل" بمعنى التعرض للشيء، كأنه قيل : افعلوا متعرضين لأن تعقلوا، أو لأن تذكروا أو لأن تتقوا. والمعنى في قوله "لعلكم تتقون" أي لعلكم أن تجعلوا بقبول ما أمركم الله به وقاية بينكم وبين النار. وهذا من قول العرب : اتقاه بحقه إذا استقبله به، فكأنه جعل دفعه حقه إليه وقاية له من المطالبة، ومنه قول علي رضي الله عنه : كنا إذا احمر البأس اتقينا بالنبي صلى الله عليه وسلم، أي جعلناه وقاية لنا من العدو[٢].

وقال عنترة[٣]:

ولقد كررت المهر يدمى نحره   حتى اتقتني الخيل بابني حِذيم

قال ابن عثيمين:" "لعل" هنا للتعليل . أي: لتصلوا إلى التقوى؛ ومعلوم أن التقوى مرتبة عالية، حتى قال الله عزّ وجلّ في الجنة: {أعدت للمتقين} [آل عمران: ١٣٣] ، وقال تعالى: {إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون} [النحل: ١٢٨] ، وقال تعالى: {واعلموا أن الله مع المتقين} [البقرة: ١٩٤]"[٤].

وقد ذكر السمين الحلبي، إذا وردت (لعلّ)، في كلام الله فللناس فيها ثلاثة أقوال[٥]:

أحدها: أنها على بابها من الترجي والطمع، قاله سيبويه[٦].

الثاني: للتعليل، قاله قطرب و"الطبري" وغيرهما[٧].

والثالث. أنها للتعرض للشيء، وإليه مال المهدوي وأبو البقاء.

وقال البعض: إن (لعل) إذا جاءت من الله فهي واجبة[٨].

الفوائد:

١. من فوائد الآية: العناية بالعبادة؛ يستفاد هذا من وجهين؛ الوجه الأول: تصدير الأمر بها بالنداء؛ و الوجه الثاني: تعميم النداء لجميع الناس مما يدل على أن العبادة أهم شيء؛ بل إنّ الناس ما خُلقوا إلا للعبادة، كما قال تعالى: {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون} (الذاريات: ٥٦)

٢. ومنها: أن الإقرار بتوحيد الربوبية مستلزم للإقرار بتوحيد الألوهية؛ لقوله تعالى: { اعبدوا ربكم }.

٣. ومنها: وجوب عبادة الله عزّ وجلّ وحده . وهي التي خُلق لها الجن، والإنس؛ و"العبادة" تطلق على معنيين؛ أحدهما: التعبد . وهو فعل العابد؛ و الثاني: المتعبَّد به . وهي كل قول، أو فعل ظاهر، أو باطن يقرب إلى الله عزّ وجلّ.

٤. ومنها: أن وجوب العبادة علينا مما يقتضيه العقل بالإضافة إلى الشرع؛ لقوله تعالى: { اعبدوا ربكم }؛ فإن الرب عزّ وجلّ يستحق أن يُعبد وحده، ولا يعبد غيره؛ والعجب أن هؤلاء المشركين الذين لم يمتثلوا هذا الأمر إذا أصابتهم ضراء، وتقطعت بهم الأسباب يتوجهون إلى الله، كما قال تعالى: {وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين} [لقمان: ٣٢] ؛ لأن فطرهم تحملهم على ذلك ولابد.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم(٢١٨):ص٦٠/١.

(٢) انظر: تفسير القرطبي: ٢٢٧/١.

(٣) البيت لعنترة بن الشداد، انظر: شرح الديوان: ٢٢١.يصف الشاعر حسن بلائه في ساحة القتال إذ يضرب بسيفه اعداءه وخيولهم وهم مضرجون بالدم لشدة ما فعل بهم.

(٤) تفسير ابن عثيمين:٧٣/١.

(٥)أنظر: الدر المصون" ١/ ١٨٩، وانظر "تفسير الطبري: ١/ ١٦١، (الإملاء) ١/ ٢٣.

(٦) أنظر: الكتاب: ١٤٨/٢، يقول: "فإذا قلت: (لعل) فأنت ترجوه أو تخافه في حال ذهابه". وقال: (لعل وعسى طمع واشفاق) ٤/ ٢٣٣. وانظر "تفسير الثعلبي" ١/ ٥٦ ب.

(٧) قال أبو حيان لا تكون بمعنى (كي) خلافا لقطرب وابن كيسان. "البحر" ١/ ٩٣.

(٨)انظر: "تفسير الثعلبي" ١/ ٥٦ب، "وتفسير ابن عطية" ١/ ١٧٩.

٥. ومن فوائد الآية: إثبات أن الله عزّ وجلّ هو الخالق وحده، وأنه خالق الأولين، والآخرين؛ لقوله تعالى: {الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُم} [البقرة : ٢١].
٦. ومنها: أن من طريق القرآن أنه إذا ذكر الحكم غالباً ذكر العلة؛ الحكم: {اعبدوا ربكم}؛ والعلة: كونه رباً خالقاً لنا، ولمن قبلنا.
٧. ومنها: أن التقوى مرتبة عالية لا ينالها كل أحد إلا من أخلص العبادة لله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون} [البقرة : ٢١].
٨. وربما يستفاد التحذير من البدع؛ وذلك؛ لأن عبادة الله لا تتحقق إلا بسلوك الطريق الذي شرعه للعباد؛ لأنه لا يمكن أن نعرف كيف نعبد الله إلا عن طريق الوحي والشرع: كيف نتوضأ، كيف نصلي.. يعني ما الذي أدرانا أن الإنسان إذا قام للصلاة يقرأ، ثم يركع، ثم يسجد.. إلخ، إلا بعد الوحي.
٩. ومنها: الحث على طلب العلم؛ إذ لا تمكن العبادة إلا بالعلم؛ ولهذا ترجم البخاري . رحمه الله . على هذه المسألة بقوله: "باب: العلم قبل القول، والعمل.

القرآن

{الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢)} [البقرة : ٢٢]

التفسير:

جعل الله الأرض فراشاً موطئاً يستقر عليها استقراراً كاملاً، وجعل السماء بمنزلة البناء وبمنزلة السقف، وأنزل من السماء مطراً عذباً فراتاً أنزله سبحانه بقدرته، فأخرج بذلك المطر أنواع الثمر والفواكه والخضار، فلا تجعلوا لله أشباهاً ونظراء من المخلوقين فتعبدونهم كما تعبدون الله، وتحبونهم كما تحبونه، وهم مثلكم مخلوقون مرزوقون مدبرون، وأنتم تعلمون أن الله ليس له شريك ولا نظير، لا في الخلق والرزق والتدبير، ولا في الألوهية والكمال.

قوله تعالى:{الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا}[البقرة : ٢٢]، أي: " جعل لكم الأرض مهادًا مُوَطَّأً وقرارًا يُستقرّ عليها"[(١)].

قال مقاتل:" يعني: بساطا"[(٢)].

عن قتادة : " {الذي جَعل لكم الأرض فراشًا}، قال : مهادًا لكم"[(٣)]. وروي عن الربيع بن أنس[(٤)] مثل ذلك.

وقوله{الَّذِي جَعَلَ} معناه هنا (صير) لتعديه إلى مفعولين، ويأتي (جعل) بمعان أخرى منها[(٥)]:

١- (جعل) يأتي معنى (خلق)، ومنه قوله تعالى : {مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ} [المائدة: ١٠٣] وقوله : {وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ} [الأنعام : ١].

٢- ويأتي بمعنى (سمى)، ومنه قوله تعالى : {حم. وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ. إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً} [الزخرف : ١ - ٣]. وقوله : {وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً} [الزخرف : ١٥]. {وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً} [الزخرف : ١٩] أي سموهم.

٣- ويأتي بمعنى (أخذ)، كما قال غلّس بن لقيط الأسدي[(٦)]:

---

(١) تفسير الطبري: ٣٦٥/١.
(٢) تفسير مقاتل بن سليمان: ٩٣/١.
(٣) أخرجه الطبري(٤٧٦):ص٣٦٥/١.
(٤) أخرجه الطبري(٤٧٧):ص٣٦٦/١.
(٥) أنظر: تفسير القرطبي: ٢٢٨/١.
(٦)البيت للشاعر مغلس بن لقيط (جاهلي)، انظر: لخزانة/ ٥/ ٣٠١، وسيبويه/ ٢/ ٣٦٥، وشرح المفصل/ ٣/ ١٠٥، والأشموني/ ١/ ١٤١، والبيت من قصيدة يرثي بها أخاه، ويشتكي أخوين له وكان أخوه بارا به، واسمه أطيط، وكان الآخران يظهران له العداوة. والضغمة: العضة، يقول: جعلت نفسي تطيب لعضة أعضهما بها يقرع لها الناب العظم، والهاء في قوله:لضغمهماها عائدة على الضغمة. وجعل: فعل شروع، خبره جملة تطيب. والبيت استشهد به الرضي على أنّ الضمير الثاني إذا كان مساويا للأول شذّ وصله كما في البيت، فإنه جمع بين ضميري الغيبة في الاتصال، وكان القياس لضغمهما إياها.

وقد جعلتْ نفسي تطيب لضَغْمَةٍ   لضَغْمِهماها يقرَعُ العظمُ نابُها
ضغمة: عضة، أراد بها الشدة.
٤- وقد تأتي زائدة، كما قال الآخر :
وقد جعلت أرى الاثنين أربعة   والواحد اثنين لما هدني الكبر
وقد قيل في قوله تعالى {وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ} : إنها زائدة، وجعل واجتعل بمعنى واحد، قال بشر بن أبي خازم(١) :
ناط أمر الضعاف واجتعل الليـ   ـل كحبل العاديّة الممدود
أي: يسير الليل كله لا ينثني.
قال الواحدي:" الأرض فراش الأنام على معنى أنها فرشت لهم، أي: بسطت، وهذا كقوله: {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا} [نوح: ١٩] والمعنى أنه لم يجعلها حزنة غليظة لا يمكن الاستقرار عليها"(٢).
قال ابن عثيمين:" هذا من باب تعديد أنواع من مخلوقاته عزّ وجلّ؛ جعل الله لنا الأرض فراشاً مُوَطَّأة يستقر الإنسان عليها استقراراً كاملاً مهيأة له يستريح فيها. ليست نشَزاً؛ وليست مؤلمة عند النوم عليها، أو عند السكون عليها، أو ما أشبه ذلك؛ والله تعالى قد وصف الأرض بأوصاف متعددة: وصفها بأنها فراش، وبأنها ذلول، وبأنها مهاد"(٣).
قوله تعالى: {والسماء بِنَآءً}[البقرة : ٢٢]،" أي وسقفاً للأرض مرفوعاً فوقها كهيئة القبة"(٤).
قال مقاتل:" يعني: سقفا"(٥).
قال ابن مسعود:" فبناءُ السماء على الأرض كهيئة القبة ، وهي سقف على الأرض"(٦).
وقال قتادة:" جعل السماء سَقفًا لكَ"(٧).
وإنما سُميت "السماءُ": سماءً لعلوها على الأرض وعلى سُكانها من خلقه ، وكل شيء كان فوق شيء آخرَ فهو لما تحته سَمَاءٌ. ولذلك قيل لسقف البيت : سَمَاوةٌ، لأنه فوقه مرتفعٌ عليه. ولذلك قيل : سَمَا فلان لفلان ، إذا أشرف له وقَصَد نحوه عاليًا عليه ، كما قال الفرزدق (٨):
سَمَوْنَا لِنَجْرَانَ الْيَمَانِي وَأَهْلِهِ   وَنَجْرَانُ أَرْضٌ لَمْ تُدَيَّثْ مَقَاوِلُهْ
وكما قال نابغة بني ذُبيانَ(٩) :

وقال سيبويه: إذا ذكرت مفعولين كلاهما غائب قلت: أعطاهوها وأعطاهاه، جاز وهو عربي، ولا عليك بأيهما بدأت .. وهذا ليس بالكثير في كلامهم والكثير في كلامهم أعطاه إياها. على أن الشاعر قال .. (البيت)، ولكن البيت يروى أيضا:
وقد جعلت نفسي تهمّ بضغمة   على علّ غيظ يقصم العظم نابها
وهذه الرواية أولى بالاتباع، لأن قصيدة البيت فيها شكوى وألم ورقة تعبير .. والبيت نفسه يمثل ذروة الانفعال العاطفي، ورواية النحويين فيها صناعة، تمنع من تدافع المعاني، وتعقد الكلام.
(١) شرح المفضليات: ٦٤٢. ناط: حمل وكفى، العادية: البئر القديمة.
(٢) التفسير البسيط: ٢٢٤/٢، وانظر: "تفسير الطبري" ١/ ١٦١ - ١٦٢، "تفسير ابن عطية" ١/ ١٩٨، "تفسير القرطبي" ١/ ١٩٧.
(٣) تفسير ابن عثيمين: ٧٦/١.
(٤) صفوة التفاسير: ٣٥/١.
(٥) تفسير مقاتل بن سليمان: ٩٣/١.
(٦) أخرجه الطبري(٤٧٨):ص٣٦٧/١.
(٧) أخرجه الطبري(٤٧٩):ص٣٦٧/١.
(٨)ديوانه : ٧٣٥ ، والنقائض : ٦٠٠ . ونجران : أرض في مخاليف اليمن من ناحية مكة . وذكر نجران ، على لفظه وأصل معناه ، والنجران في كلام العرب : الخشبة التي يدور عليها رتاج الباب . وديث البعير : ذلله بعض الذل حتى تذهب صعوبته . والمقاول : جمع مقول . والمقول والقيل : الملك من ملوك حمير . يقول : هي أرض عز عزيز ، لم يلق ملوكها ضيما يذلهم ويحني هاماتهم .
(٩)ديوانه : ٨٦ ، وروايته : " صفحت بنظرة " . وقوله " صفحت " ، أي تصفحت الوجوه بنظرة ، أو رميت بنظرة متصفحًا . والقرام : ستر رقيق فيه رقم ونقوش . والخدر : خشبات تنصب فوق قتب البعير مستورة بثوب ، وهو الهودج . ووضع الشيء : ألقاه . وتحيت : تصغير " تحت " ، وصغر " تحت " ، لأنه أراد أن ستر الخدر بعد وضع القرام لا يبدى منها إلا قليلا ، وهذا البيت متعلق بما قبله وما بعده . وقبله : فَلَوْ كَانَتْ غَدَاةَ الْبَيْنِ مَنَّتْ ... وَقَدْ رَفَعُوا الْخُدُورَ عَلَى الْخِيَامِ
صَفَحْتُ بنظرةٍ . . . .

سَمَتْ لِي نَظْرَةٌ ، فَرَأيتُ مِنْهَا   تُحَيْتَ الْخِدْرِ وَاضِعَةَ الْقِرَامِ
يريد بذلك : أشرفتْ لي نظرةٌ وبدت ، فكذلك السماء سُميت للأرض : سماءً ، لعلوها وإشرافها عليها[١].

قوله تعالى: {وَأَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً}[البقرة:٢٢]، أي: " أنزل من السماء مطرًا"[٢].

قال مقاتل:" يعني: المطر"[٣].

قال الصابوني: "أي: مطراً عذباً فراتاً أنزله بقدرته من السحاب"[٤].

قال الواحدي: "فإن قيل: كيف قال: {وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ}، والماء ينزل من السحاب؟ قيل: هذا من باب حذف المضاف، والتقدير: من نحو السماء ، كقول الشاعر[٥]:

أَمِنْكِ بَرْقٌ أَبِيتُ اللَّيْلَ أَرْقُبُهُ   كَأَنَّه في عِرَاضِ الشَّأْمِ مِصْباحُ

أي: من نَاحِيَتِك، ومثله كثير. وإن جعلت السماء بمعنى (السحاب)[٦] لم يكن من باب حذف المضاف"[٧].

قوله تعالى: {فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثمرات رِزْقاً لَّكُمْ}[البقرة:٢٢]، أي: أي: " فأخرج بذلك المطر مما أنبتوه في الأرض من زرعهم وغَرْسهم ثمرات"[٨].

قال الصابوني:"أي: فأخرج بذلك المطر أنواع الثمار والفواكه والخضار "[٩].

قوله تعالى:{رِزْقاً لَّكُمْ}[البقرة:٢٢]، أي:" عطاء لكم"[١٠].

قال الصابوني: أي:" غذاءً لكم"[١١].

قال الطبري:"غذاءً وأقواتًا"[١٢].

فنبههم الله تعالى بذلك على قدرته وسُلطانه ، وذكَّرهم به آلاءَه لديهم ، وأنه هو الذي خلقهم ، وهو الذي يَرزقهم ويكفُلُهم ، دون من جعلوه له نِدًّا وعِدْلا من الأوثان والآلهة، ثم زَجَرهم عن أن يجعلوا له ندًّا ، مع علمهم بأن ذلك كما أخبرهم ، وأنه لا نِدَّ له ولا عِدْل ، ولا لهم نافعٌ ولا ضارٌّ ولا خالقٌ ولا رازقٌ سِواه[١٣].

قوله تعالى:{فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَاداً }[البقرة:٢٢]، أي: لا تُصَيِّروا لله نظراء ومشابهين في العبادة[١٤].

قال الصابوني:"أي فلا تتخذوا معه شركاء من الأصنام والبشر تشركونهم مع الله في العبادة"[١٥].

قال أبو إسحاق: "هذا احتجاج عليهم لإقرارهم بأن الله خالقهم، فقيل لهم: لا تجعلوا لله أمثالًا وأنتم تعلمون أنهم لا يخلقون والله الخالق"[١٦].

وقال ابن زيد:" الأنداد : الآلهة التي جعلوها معه ، وجعلوا لها مثل ما جعلوا له"[١٧].

روي عن عكرمة : "{فلا تجعلوا لله أندادًا}، أن تقولوا : لولا كلبنا لَدَخل علينا اللصّ الدارَ، لولا كلبنا صَاح في الدار، ونحو ذلك"[١].

تَرَائِبَ يستضئُ الحليُ فيها ... كَجمْرِ النار بُذِّرَ في الظَّلامِ

(١) أنظر: تفسير الطبري: ٣٦٦/١.
(٢) تفسير الطبري: ٣٦٧/١.
(٣) تفسير مقاتل بن سليمان: ٩٣/١.
(٤) صفوة التفاسير: ٣٥/١.
(٥)البيت لأبي ذؤيب الهذلي، قوله: (أمنك برق) أي: من نحو منزلك، من الشق الذي أنت به، (عراض الشأم) نواحيها. انظر "شرح أشعار الهذليين" للسكري ١/ ١٦٧، "شرح الأبيات المشكلة الإعراب" الفارسي ص ٣٦٤.
(٦)انظر: "تفسير الثعلبي" ١/ ٥٦ ب، "تفسير ابن عطية" ١٩٩، "تفسير البيضاوي" ١/ ١٤، والخازن ١/ ٧٦، "تفسير أبي السعود" ١/ ٦١، "الفتوحات الإلهية" ١/ ٢٦.
(٧) التفسير البسيط: ٢٢٧/٢.
(٨) تفسير الطبري: ٣٦٧/١.
(٩) صفوة التفاسير: ٣٥/١.
(١٠) تفسير ابن عثيمين:٧٦/١.
(١١) صفوة التفاسير: ٣٥/١.
(١٢) تفسير الطبري: ٣٦٧/١.
(١٣)أنظر: تفسير الطبري: ٣٦٧/١-٣٦٨.
(١٤)أنظر: تفسير ابن عثيمين:٧٦/١.
(١٥) صفوة التفاسير: ٣٥/١.
(١٦)معاني القرآن" للزجاج ١/ ٦٥.
(١٧) أخرجه الطبري(٤٨٣):ص٣٦٩/١.

وعن ابن عباس في قوله: فلا تجعلوا لله أندادا قال: الأنداد هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء، في ظلمة الليل. وهو أن يقول: والله، وحياتك يا فلانة، وحياتي. ويقول: لولا كلبه هذا لأتانا اللصوص، ولولا البط في الدار لأتى اللصوص. وقول الرجل لصاحبه:
ما شاء الله وشئت، وقول الرجل: لولا الله وفلان. لا تجعل فيها فلان، فإن هذا كله به شرك"(٢).

وذكر أهل التفسير في قوله تعالى:{فَلاَ تَجْعَلُوا للهِ أَنْداداً}[البقرة:٢٢]، ثلاثة وجوه:
أحدها : أنَّ الأنداد: الأَكْفَاءُ ، وهذا قول ابن مسعود(٣).
والثاني : الأشباه ، وهو قول ابن عباس(٤)،وروي عن أبي العالية(٥)، والربيع بن أنس وقتادة والسدي وأبي مالك وإسماعيل بن أبي خالد نحو ذلك(٦).
والثالث : الأضداد، وهو قول المفضل(٧).

و"الأنداد": جمع نِدّ ، والنِّدّ : العِدْلُ والمِثْل ، كما قال حسان بن ثابت(٨):

أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِنِدٍّ؟ فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا الفِدَاءُ

يعني بقوله : " ولستَ له بند " ، لست له بمثلٍ ولا عِدْلٍ. وكل شيء كان نظيرًا لشيء وله شبيهًا فهو له ند(٩).

و(النِّد) المثل المناوئ، وأصله من قولهم: (ندّ) إذا نفر، ولهذا يقال للضد: ند، ثم استعمل في المثل وإن لم يكن هناك مخالفة(١٠)، قال جرير(١١):

أَتَيْماً يَجْعَلُونَ إليَّ نِدّاً وَمَا تَيْمٌ لِذِي حَسَبٍ نَدِيدُ

أي: مثل(١٢).

قال سهل: " قال سهل: أي أضداداً. فأكبر الأضداد النفس الأمّارة بالسوء المتطلعة إلى حظوظها ومناها بغير هدى من الله"(١٣).

قوله تعالى:{وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}[البقرة:٢٢]، أي:" وأنتم تعلمون أنها لا تَخْلُق شيئاً ولا تَرْزق، وأنَّ الله هو الخالق الرازق وحده، ذو القوة المتين"(١٤).

قال ابن عثيمين:" لأن المشركين يقرُّون بأن الخالق هو الله، والرازق هو الله، والمدبر للأمر هو الله إقراراً تاماً، ويعلمون أنه لا إله مع الله في هذا؛ لكن في العبادة ينكرون التوحيد: يشركون؛ يجعلون مع الله إلهاً آخر؛ وينكرون على من وحّد الله حتى قالوا في الرسول صلى الله عليه وسلم {أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب}؛ وإقرارهم بالخلق، والرزق أن الله منفرد به يستلزم أن يجعلوا العبادة لله وحده؛ فإن لم

---

(١) أخرجه الطبري(٤٨٥):ص٣٦٩/١.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٢٢٩):ص٦٢/١.
(٣) أنظر: أنظر: تفسير الطبري(٤٨٢):ص٣٨٦/١.
(٤) أنظر: تفسير الطبري(٤٨٤):ص٣٨٦/١.
(٥) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٢٣٠):ص٦٢/١.
(٦) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم:٦٢/١.
(٧) أنظر: "تهذيب اللغة" ٤/ ٣٥٤٠.
(٨) ديوانه: ٧٦، والبيت من قصيدة يهجو بها سفيان بن الحارث قبل فتح مكة، وانظر : "تهذيب اللغة" (ند) ٤/ ٣٥٤٠ "الأضداد" لابن الأنباري ص ٢٤، "الأضداد" لأبي حاتم ص ٧٤، "مجاز القرآن" ص ٣٤، "تفسير الطبري" ١/ ١٠٦٣ "تفسير القرطبي" ١/ ١٩٨، "اللسان" (ندد) ٧/ ٣٤٨٢.
(٩) أنظر: تفسير الطبري: ٣٦٨/١.
(١٠)انظر: "الأضداد" لابن الأنباري ص ٢٤، "مجاز القرآن" ص ٣٤، "الأضداد" للصاغاني ص ٢٤٦، قال أبو حاتم: (زعم قوم أن بعض العرب يجعل (الضد) مثل (الند) ويقول: هو يضادني، ولا أعرف أنا ذلك ..) (الأضداد) لأبي حاتم السجستاني ص ٧٥.
(١١)قاله يهجو تيما.
انظر: "ديوان جرير" ص ١٢٩، "الأضداد" لابن الأنباري ص ٢٤، "الأضداد" لأبي حاتم ص ٧٣، "معاني القرآن" للزجاج ١/ ٦٦، "ومجالس العلماء" للزجاجي ص ١١٤، "تفسير الثعلبي" ١/ ٥٦ ب.
(١٢) أنظر: التفسير البسيط: ٢٣٠/٢.
(١٣) تفسير التستري: ٢٧.
(١٤) صفوة التفاسير: ٣٥/١.

يفعلوا فهم متناقضون؛ ولهذا قال العلماء. رحمهم الله: توحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية؛ وتوحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألوهية؛ عني من أقر بتوحيد الربوبية لزمه أن يقر بتوحيد الألوهية؛ ومن أقر بتوحيد الألوهية فإنه لم يقرَّ بها حتى كان قد أقر بتوحيد الربوبية"(١).

وفي قوله تعالى:{وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}[البقرة:٢٢]، ثلاثة تأويلات:

أحدها : وأنتم تعلمون أن الله خلقكم ، وهذا قول ابن عباس وقتادة(٢).

قال ابن عطية:" يريد العلم الخاص في أنه تعالى خلق وأنزل الماء وأخرج الرزق، ولم تنف الآية الجهالة عن الكفار"(٣).

الثاني : معناه: وأنتم تعلمون أنه لا ندَّ له ولا ضد، وهذا قول مجاهد(٤).

الثالث : معناه: وأنتم تعْقلون فعبر عن العقل بالعلم. حكاه الماوردي (٥).

واختلف في الذين عُنُوا بهذه الآية، على قولين(٦):

أحدهما: عَنَى بها جميع المشركين من مُشركي العرب وأهل الكتاب. قاله ابن عباس(٧)، وقتادة(٨).

وقال بعضهم : عنى بذلك أهلَ الكتابين ، أهلَ التوراة والإنجيل. قاله مجاهد(٩).

وقال ابن الأنباري: قوله: {وَأَنتُم تَعلَمُونَ}، لا تتنافى مع قوله: {قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ} [الزمر: ٦٤] لأن هذا العلم الذي وصفهم به في هذه الآية لا يزيل عنهم الجهل؛ لأنه أراد: وأنتم تعلمون أن الأنداد التي تعبدونها لم ترفع لكم السماء ولم تمهد تحتكم الأرض، ولم ترزقكم رزقا. فعبدة الأصنام وغيرهم يتساوى علمهم في هذا المعنى، وإنما وصفهم الله جل ذكره بهذا العلم لتتأكد الحجة عليهم إذا اشتغلوا بشيء يعلمون أن الحق في سواه"(١٠).

الفوائد:

١. من فوائد الآية: بيان رحمة الله تعالى، وحكمته في جعل الأرض فراشاً؛ إذ لو جعلها خشنة صلبة لا يمكن أن يستقر الإنسان عليها ما هدأ لأحد بال؛ لكن من رحمته، ولطفه، وإحسانه جعلها فراشاً.

٢. ومنها: جعْل السماء بناءً؛ وفائدتنا من جعل السماء بناءً أن نعلم بذلك قدرة الله عزّ وجلّ؛ لأن هذه السماء المحيطة بالأرض من كل الجوانب نعلم أنها كبيرة جداً، وواسعة، كما قال تعالى: {والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون} (الذاريات: ٤٧).

٣. ومنها: بيان قدرة الله عزّ وجلّ بإنزال المطر من السماء؛ لقوله تعالى: { وأنزل من السماء ماء }؛ لو اجتمعت الخلائق على أن يخلقوا نقطة من الماء ما استطاعوا؛ والله تعالى ينزل هذا المطر العظيم بلحظة؛ وقصة الرجل الذي دخل والنبي صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة قال: ادع الله يغيثنا، فرفع (صلى الله عليه وسلم يديه، وقال: "اللهم أغثنا"(١) ، وما نزل من المنبر إلا والمطر يتحادر من لحيته.

٤. ومنها: حكمة الله سبحانه وتعالى، ورحمته بإنزال المطر من السماء؛ وجه ذلك: لو كان الماء الذي تحيى به الأرض يجري على الأرض لأضر الناس؛ ولو كان يجري على الأرض لحُرِم منه أراضٍ كثيرة . الأراضي المرتفعة لا يأتيها شيء؛ ولكن من نعمة الله أن ينزل من السماء؛ ثم هناك شيء آخر أيضاً: أنه ينزل رذاذاً . يعني قطرةً قطرةً؛ ولو نزل كأفواه القرب لأضر بالناس.

---

(١) تفسير ابن عثيمين:٧٦/١.

(٢) أنظر: تفسير الطبري(٤٨٧):ص٣٧٠/١.

(٣) المحرر الوجيز: ١٠٦/١.

(٤) أنظر: تفسير الطبري(٤٨٨)، (٤٨٩)، و(٤٩٠):ص٣٧١/١.

(٥) أنظر: النكت والعيون: ٨٣/١.

(٦) أنظر: تفسير الطبري: ٣٧٠/١-٣٧١.

(٧) أنظر: تفسير الطبري(٤٨٦):ص٣٧٠/١.

(٨) أنظر: تفسير الطبري(٤٨٧):ص٣٧٠/١.

(٩) أنظر: تفسير الطبري(٤٨٨)، (٤٨٩)، و(٤٩٠):ص٣٧١/١.

(١٠) التفسير البسيط: ٢٣١/٢، وانظر: "تفسير ابن عطية" ١/ ١٩٩، وزاد المسير:١/ ٤٩.

(١) أخرجه البخاري ص٧٩، أبواب الاستسقاء، باب ٧: الاستسقاء في خطبة الجمعة غير مستقبل القبلة، حديث رقم ١٠١٤؛ وأخرجه مسلم ص٨١٧، كتاب صلاة الاستسقاء، باب ٢: الدعاء في الاستسقاء، حديث رقم ٢٠٧٨ [٨] ٨٩٧.

٥. ومنها: إثبات الأسباب؛ لقوله تعالى: (فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم).
٦. ومنها: أن الأسباب لا تكون مؤثرة إلا بإرادة الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: (فأخرج به).
٧. ومنها: أنه ينبغي لمن أراد أن يضيف الشيء إلى سببه أن يضيفه إلى الله مقروناً بالسبب، مثل لو أن أحداً من الناس غرق، وجاء رجل فأخرجه . أنقذه من الغرق؛ فليقل: أنقذني الله بفلان؛ وله أن يقول :أنقذني فلان؛ لأنه فعلاً أنقذه؛ وله أن يقول: أنقذني الله ثم فلان؛ وليس له أن يقول: أنقذني الله وفلان؛ لأن هذا تشريك مع الله؛ ويدل لهذا . أي الاختيار أن يضيف الشيء إلى الله مقروناً بالسبب . أن النبي صلى الله عليه وسلم لما دعا الغلام اليهودي للإسلام وكان هذا الغلام في سياق الموت، فعرض عليه النبي صلى الله عليه وسلم أن يسلم، فأسلم؛ لكنه أسلم بعد أن استشار أباه: التفت إليه ينظر إليه يستشيره؛ قال: "أطع أبا القاسم" . أمر ولده أن يسلم، وهو لم يسلم في تلك الحال، أما بعد فلا ندري، والله أعلم؛ فخرج النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول: "الحمد لله الذي أنقذه بي من النار"[(١)] ، وهكذا ينبغي لنا إذا حصل شيء بسبب أن نضيفه إلى الله تعالى مقروناً ببيان السبب؛ وذلك؛ لأن السبب موصل فقط.
٨. ومن فوائد الآية: بيان قدرة الله، وفضله بإخراج هذه الثمرات من الماء؛ أما القدرة فظاهر: تجد الأرض شهباء جدباء ليس فيها ورقة خضراء فينزل المطر، وفي مدة وجيزة يخرج هذا النبات من كل زوج بهيج بإذن الله عزّ وجلّ، كما قال تعالى: {ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءاً فتصبح الأرض مخضرَّة} [الحج: ٦٣] ؛ وأما الفضل فبما يمن الله به من الثمرات؛ ولذلك قال تعالى: { رزقاً لكم}.
٩. ومنها: أن الله عزّ وجلّ منعم على الإنسان كافراً كان، أو مؤمناً؛ لقوله تعالى: { لكم }، وهو يخاطب في الأول الناس عموماً؛ لكن فضل الله على المؤمن دائم متصل بفضل الآخرة؛ وفضل الله على الكافر منقطع بانقطاعه من الدنيا.
١٠. ومنها: تحريم اتخاذ الأنداد لله؛ لقوله تعالى: { فلا تجعلوا لله أنداداً }؛ وهل الأنداد شرك أكبر، أو شرك أصغر؛ وهل هي شرك جلي، أو شرك خفي؛ هذا له تفصيل في علم التوحيد؛ خلاصته: إن اتخذ الأنداد في العبادة، أو جعلها شريكة لله في الخلق، والملك، والتدبير فهو شرك أكبر؛ وإن كان دون ذلك فهو شرك أصغر، كقول الرجل لصاحبه: "ما شاء الله وشئت".
١١. . ومن فوائد الآية: أنه ينبغي لمن خاطب أحداً أن يبين له ما تقوم به عليه الحجة؛ لقوله تعالى: { فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون }، ولقوله تعالى في صدر الآية الأولى: {اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم} [البقرة: ٢١] ؛ فإن قوله تعالى: {الذي خلقكم والذين من قبلكم} [البقرة: ٢١] فيه إقامة الحجة على وجوب عبادته وحده؛ لأنه الخالق وحده.

القرآن

{وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣)} [البقرة : ٢٣]

التفسير:

وإن كنتم -أيها الكافرون المعاندون- في شَكٍّ من القرآن الذي نَزَّلناه على عبدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وتزعمون أنه ليس من عند الله، فهاتوا سورة تماثل سورة من القرآن، واستعينوا بمن تقدرون عليه مِن أعوانكم، إن كنتم صادقين في دعواكم.

قوله تعالى: {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ}[البقرة:٢٣]، " أي: وإذا كنتم أيها الناس في شك وارتياب"[(١)].

قال مقاتل:" يعني: في شك"[(٢)].

قال الزجاج:" {فِي رَيْبٍ}، معناه: في شك"[(٣)].

---

(١) أخرجه أبو داود ص١٤٥٦، كتاب الجنائز، باب ٢: في عيادة الذمي، حديث رقم ٣٠٩٥؛ وأخرجه أحمد ١٧٥/٣، رقم ١٢٨٢٣.

(١) صفوة التفاسير: ٣٥/١.

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان: ٩٣/١.

(٣) معاني القرآن: ١٠٠/١.

عن أبي العالية: "{وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ}، قال: في شك"[1]. قال ابن أبي حاتم:" وكذلك فسره الحسن وقتادة والربيع بن أنس[2].

فإن الخطاب لمن جعل لله أنداداً؛ لأنه تعالى قال: {فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [البقرة : ٢٢]، و"الريب"، يفسره كثير من الناس بالشك؛ ولا شك أنه قريب من معنى: الشك، لكنه يختلف عنه بأن "الريب" يُشعر بقلق مع الشك، وأن الإنسان في قلق عظيم مما وقع فيه الشك؛ وذلك؛ لأن ما جاء به الرسول حق؛ والشاك فيه لا بد أن يعتريه قلق من أجل أنه شك في أمر لا بد من التصديق به؛ بخلاف الشك في الأمور الهينة، فلا يقال: "ريب"؛ وإنما يقال في الأمور العظيمة التي إذا شك فيها الإنسان وجد في داخل نفسه قلقاً، واضطراباً[3].

قال ابن كثير:" وقد تحداهم الله تعالى بهذا في غير موضع من القرآن ، فقال في سورة القصص : { قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [القصص : ٤٩] وقال في سورة سبحان : { قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا } [الإسراء : ٨٨] وقال في سورة هود : { أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [هود : ١٣] ، وقال في سورة يونس : { وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [يونس : ٣٧ ، ٣٨] وكل هذه الآيات مكية، ثم تحداهم [الله تعالى] (٤) بذلك - أيضًا - في المدينة ، فقال في هذه الآية : { وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ}، أي: في شكّ"[4].

قوله تعالى:{ مِمَّا نَزَّلْنَا}[البقرة:٢٣]، "أي: من صدق هذا القرآن، المعجز في بيانه، وتشريعه، ونظمه"[5].

قال ابن عثيمين:" المراد به القرآن؛ لأن الله أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم"[6].

قوله تعالى:{عَلَى عَبْدِنَا}[البقرة:٢٣]، أي:" على عبدنا ورسولنا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم "[7].

قال ابن عباس:" أي: في شك مما جاءكم به"[8].

قال الحسن: "فهذا قول الله لمن شك من الكفار فيما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم"[9].

وقوله تعالى {عَلَى عَبْدِنَا} فيه عظيم منزلة العبودية، إذ وصف الله تبارك وتعالى نبيه بهذا الوصف في مقام التحدي، فسمى المملوك - من جنس ما يفعله - عبدا لتذلله لمولاه، قال طرفة[10]:

إلى أَنْ تَحَامَتْنِي العَشِيرَةُ كُلُّهَا ... وَأُفْرِدْتُ إِفْرَادَ البَعِيرِ المُعَبَّدِ

المُعَبَّدُ: أي: (المُذَلَّلُ)، يُقالُ :بَعِيرٌ مُعَبَّدٌ؛ أيْ: مُذَلَّلٌ قدْ طُلِيَ بالهناءِ، وَبَعِيرٌ مُعَبَّدٌ؛ أيْ: مُكَرَّمٌ، وهوَ مِن الأَضْدَاد.

. قال بعضهم : لما كانت العبادة أشرف الخصال والتسمي بها أشرف الخطط، سمى نبيه عبدا، وأنشدوا [11]:

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم(٢٣٥):ص١/٦٣.
(٢) تفسير ابن أبي حاتم:ص١/٦٣.
(٣) أنظر: تفسير ابن عثيمين: ٨١/١.
(٤) تفسير ابن كثير: ١٩٩/١.
(٥) صفوة التفاسير: ٣٥/١.
(٦) تفسير ابن عثيمين:٨١/١.
(٧) صفوة التفاسير: ٣٥/١.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(٢٣٤):ص١/٦٣.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(٢٣٦):ص١/٥٣.
(١٠) ديوان طرفة بن العبد، دار صادر ودار بيروت، بيروت، ١٩٦١ ص ٣١ - ٣٣.وانظر: شرح المعلقات السبع، لزوزني،١٤٠٥ هـ ، ٥٩ . وهذا البيت لطرفة بن العبد البكري، من معلقته المشهورة التي مطلعها: لخولة أطلال ببرقة ثهمد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد.
(١١)لم أتعرف على القائل، والبيتين وردا في: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن المقري التلمساني، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، طبعة ٢:١٩٩٧/١٩٢.

يَا قَوْمِ قَلْبِي عِنْدَ زَهْرَاءَ   يَعْرِفُهُ السَّامِعُ وَالرَّائِي
لَا تَدْعُنِي إِلَّا بِيَا عَبْدَهَا   فَإِنَّهُ أَشْرَفُ أَسْمَائِي.

وقد وصف الله نبيه بالعبودية في أعلى المقامات :

١- في مقام التحدي: كما في هذه الآية: {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣)} [البقرة : ٢٣].

٢- وفي مقام الإسراء والمعراج: قال تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الإسراء : ١].

٣- وفي مقام الإيحاء: قال تعالى: {فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى} [النجم : ١٠].

٤- وفي مقام الدعوة: قال تعالى: {وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا} [الجن : ١٩].

وقد قال تعالى عن المسيح ابن مريم: {إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ} [الزخرف : ٥٩]، وقال ﷺ "لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ"(١).

قوله تعالى: {فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ}[البقرة:٢٣]، "أي فأتوا بسورةٍ واحدةٍ من مثل هذا القرآن، في البلاغة والفصاحة والبيان"(٢).

قال قتادة:" يعني : من مثل هذا القرآن حقًّا وصدْقًا ، لا باطل فيه ولا كذب"(٣).

قال الفراء:" (الهاء)، كناية عن القرآن، فأتوا بسورة من مثل القرآن"(٤).

واختلف في قوله تعالى {فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ}[البقرة:٢٣]، على قولين:

أحدهما : يعني من مثل هذا القرآن، وهذا قول مجاهد(٥) وقتادة(٦)،واختاره الطبري(٧)، وابن كثير(٨)، ودليلهم على ذلك قوله تعالى: { فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ } [هود : ١٣] وقوله : { لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ } [الإسراء : ٨٨].

والثاني : من مثل محمد صلى الله عليه وسلم، يعني : من رجل أمي مثله(٩).

والقول الراجح هو الأول، لأن التحدي عام لهم كلهم، مع أنهم أفصح الأمم(١٠).

قال أبو الهيثم: والسورة من سور القرآن عندنا: قطعة من القرآن، سبق وُحْدانُها جَمْعَها، كما أن الغرفة سابقة للغرف، وأنزل الله القرآن على نبيه صلى الله عليه وسلم شيئاً بعد شيء، وجعله مفصلاً، وبيّن كل سورة بخاتمتها وبادئتها، وميزها من التي تليها"(١١).

قوله تعالى: {وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ}[البقرة:٢٣]، أي: وادعوا "الذين تشهدون لهم بالألوهية، وتعبدونهم كما تعبدون الله، ادعوهم ليساعدوكم في الإتيان بمثله"(١٢).

قال الصابوني:" أي: وادعوا أعوانكم وأنصاركم الذين يساعدونكم على معارضة القرآن"(١٣).

قال ابن عثيمين: " وهذا غاية ما يكون من التحدي: أن يتحدى العابدَ والمعبودَ أن يأتوا بسورة مثله"(١٤).

قال أبو علي الجرجاني: معنى {ادعوا}: استعينوا"(١).

---

(١)رواه البخاري (أحاديث الأنبياء / ٣١٨٩)، والحديث يدل أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد نهى عن الغلو في مدحه بما قد يفضي إلى عبادته.
(٢) صفوة التفاسير: ٣٥/١.
(٣) أخرجه الطبري(٤٩١)، (٣٩٢):ص٣٧٣/١-٢٧٤.
(٤)معاني القرآن: ١٩/١.
(٥) أخرجه الطبري(٤٩٣)، و(٣٩٤)، و(٣٩٥):ص٣٧٤/١.
(٦) أخرجه الطبري(٤٩١)، (٣٩٢):ص٣٧٣/١-٢٧٤.
(٧)انظر: تفسير الطبري: ٣٧٤/١.
(٨) أنظر: تفسير ابن كثير: ١٩٩/١.
(٩) أنظر: تفسير ابن كثير: ١٩٩/١. وقال الماوردي: " فأتوا بسورة من مثل محمد- صلى الله عليه وسلم- من البشر ، لأن محمداً بشر مثلهم". [النكت والعيون: ٨٣].
(١٠)انظر: تفسير ابن كثير: ١٩٩/١.
(١١)"تهذيب اللغة" (سار) ٢/ ١٥٩٤، "اللسان" (سور) ٤/ ٢١٤٨.
(١٢) تفسير ابن عثيمين:٨٢/١.
(١٣) صفوة التفاسير: ٣٥/١.
(١٤) تفسير ابن عثيمين:٨٢/١.

قال الواحدي:" (الشهداء): جمع: شهيد، والشهيد يجوز أن يكون بمعنى: مشاهد كالجليس والشريب والأكيل والشريك، ويجوز أن يكون بمعنى: شاهد كالعليم والعالم، والقدير القادر، ويجوز أن يكون بمعنى: مشهود فعيل بمعنى مفعول، والشهود: الحضور، ومنه قوله تعالى {فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ} [البقرة: ١٨٥] أي حضر، والمشاهد للشيء: الحاضر عنده، وسمي الشاهد شاهداً: لأنه يخبر عما شاهد"[٢].

واختلفوا في {وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ}[البقرة:٢٣]، على أقوال:

أحدها: يعني: أعوانكم على ما أنتم عليه، وهذا قول ابن عباس[٣].

قيل: "سمى أعوانهم شهداء، لأنهم يشاهدونهم عند المعاونة، وهذا القول اختيار أبي إسحاق[٤]"[٥].

كما أن (الدعاء) على هذا القول بمعنى: الاستعانة، والعرب كثيراً ما تستعمل (الدعاء) في معنى الاستعانة، وذلك أن الإنسان إذا إستعان بغيره دعاه، فلما كان في الاستعانة يحتاج إلى الدعاء، سمى الاستعانة دعاء.

من ذلك قول الشاعر[٦]:

دَعَوْتُ بني قَيْس إليَّ فَشَمَّرَتْ ... خَنَاذِيدُ مِنْ سَعْدٍ طِوَالُ السَّواعِدِ

أي: استعنت بهم. ألا تراه يقول: فَشَمَّرَتْ.

وقالت امرأة من طيء[٧]:

دَعَا دَعْوَةً يَوْمَ الشَّرَى يَالَ مَالِكٍ ... ومَنْ لا يُجِبْ عِنْدَ الحَفِيظَةِ يُكْلَمِ

أي: استعان بهم فلم ينصروه[٨].

والثاني: ناساً يشهدون لكم، وهو قول مجاهد[٩].

والثالث: شهداءكم عليها إذا أتيتم بها أنها مثله، مثل القرآن، وهو قول ابن جُريج[١٠].

والرابع: آلهتكم ، لأنهم كانوا يعتقدون أنها تشهد لهم[١١]، وهذا قول أبي مالك[١٢]، والفراء[١٣]، وابن قتيبة[١٤].

قال أبو مالك:" يعني: شركاءكم"[١٥].

قال الواحدي: "والدعاء هاهنا بمعنى الاستغاثة والاستعانة قريب من السواء، وعلى هذا (شهيد) بمعنى مشهود، وآلهتهم كانت مشهودة لهم، لأنهم كانوا يشهدونها ويحضرونها"[١].

---

(١) نقلا عن: التفسير البسيط: ٢٥١/٢. وأبو علي الجرجاني صاحب "نظم القرآن"، وكتابه مفقود.

(٢) التفسير البسيط: ٢٤٣/٢، وانظر: "تهذيب اللغة" (شهد) ٢/ ١٩٤٢. "معجم مقاييس اللغة" (شهد) ٣/ ٢٢١. "اشتقاق أسماء الله" للزجاجي: ص ١٣٢. "مفردات الراغب" ص ٢٦٨. "اللسان" (شهد) ٤/ ٢٣٤٨.

(٣) أنظر: تفسير الطبري(٤٩٦):ص٣٧٦/١.

(٤) أنظر: معاني القرآن" للزجاج ١/ ٦٦.

(٥) التفسير البسيط: ٢٤٤/٢. وانظر: "تفسير ابن عطية" ١/ ٢٠٣، (غريب القرآن) لابن قتيبة: ١/ ٢٦، "زاد المسير" ١/ ٥١.

(٦)ورد البيت في "ديوان الحماسة" بشرح المرزوقي، وعزاه لبعض بنى فقعس ٢/ ٤٩٨، وورد في "البيان والتبيين"، وقال: قال القيسي، ٢/ ١١، وفي "الحيوان" وقال: قول بعض القيسيين من قيس بن ثعلبة ١/ ١٣٤، ومعنى البيت: يقول استغثت بهؤلاء القوم، فهب رجال لنصرتي كأنهم فحول، و (الخناذيذ): الكرام من الخيل، استعارها للكرام من الرجال.

(٧)ورد البيت في "ديوان الحماسة" بشرح المرزوقي ١/ ٢١١، "معجم ما استعجم من البلدان" ٣/ ٧٨٥، "معجم البلدان" ٣/ ٣٣٠، وكلهم نسبوه لامرأة من طيئ. قيل: هي بنت بهدل بن قرفة الطائي، أحد لصوص العرب في زمن عبد الملك بن مروان. و (الشرى): مكان وقعت فيه الوقعة المذكورة، و (الحفيظة) الخصلة التي يحفظ الإنسان عندها أي يغضب. و (يكلم): يقتل أو يغلب.

(٨) أنظر: التفسير البسيط: ٢٤٤/٢-٢٤٥، وانظر: "تفسير الثعلبي" ١/ ٥٧ أ، وأبي الليث في "تفسيره" ١/ ١٠٢. "القرطبي" في "تفسيره" ١/ ٢٠٠. "زاد المسير" ١/ ٥٠.

(٩) أنظر: تفسير الطبري(٤٩٧)، (٤٩٨)، و(٤٩٩):ص٣٧٦/١.

(١٠) أنظر: تفسير الطبري(٥٠٠):ص٣٧٧/١.

(١١)أي: استعينوا بآلهتكم في ذلك يمدونكم وينصرونكم.

(١٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٢٤١):ص٦٤/١.

(١٣) أنظر: معاني القرآن: ١٩/١. قال الفراء: "يريد آلهتكم. يقول: استغيثوا بهم وهو كقولك للرجل: إذا لقيت العدو خاليا فادع المسلمين. ومعناه: فاستغث واستعن بالمسلمين".

(١٤) أنظر: غريب القرآن: ٢٦.

(١٥) أخرجه ابن أبي حاتم(٢٤١):ص٦٤/١.

والراجح هو القول الأول: أي شُهداءكم الذين يُشاهدونكم ويعاونونكم على تكذيبكم الله ورسوله، ويظاهرونكم على كفركم ونفاقكم[٢].

قوله تعالى:{مِنْ دُونِ اللَّهِ}[البقرة:٢٣]، "أي: مما سوى الله"[٣].

قال الزجاج:" أي: ادعَوَا من استدعيتم طاعته ورجوتم معونته في الإتيان بسورة من مثله"[٤].

قال البيضاوي:" المعنى: وَادْعُوا للمعارضة من حضركم، أو رجوتم معونته من إنسكم وجنكم وآلهتكم غير الله سبحانه وتعالى، فإنه لا يقدر على أن يأتي بمثله إلا الله"[٥].

قال الواحدي: أي: "وادعوا من اتخذتموه معاونين من غير الله على تفسير ابن عباس[٦] وعلى قول الفراء[٧] يقول: ادعوا من اتخذتم إلها من دونه، وعلى قول القرظي[٨] ومجاهد[٩]، يقول: ادعوا من يشهد لكم دون الله، فإن الله تعالى لا يشهد لكم بالصدق، كما يشهد لمحمد، فاطلبوا غيره شهداء إن كنتم صادقين في أن هذا الكتاب يقوله محمد من نفسه، وأنه ليس من عند الله، وفي قولكم: لو أردنا لأتينا بمثله"[١٠].

وقوله {فادعوا}، يعني : استنصروا واستغيثوا، كما قال الراعي النميري[١١]:

فَلَمَّا الْتَقَتْ فُرْسَانُنَا وَرِجَالُهُمْ دَعَوْا : يَا لَكَعْبٍ! وَاعْتَزَيْنَا لِعَامِرِ

يعني بقوله : " دعوْا يالكعب " ، استنصرُوا كعبًا واستغاثوا بهم[١٢].

قوله تعالى: {إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [البقرة : ٢٣]، "أي: أنه مختلق وأنه من كلام البشر"[١٣].

قال ابن عثيمين: "أي: في أن هذا القرآن مفترًى على الله، والجواب على هذا: أنه لا يمكن أن يأتوا بسورة مثله مهما أتوا من المعاونين، والمساعدين"[١].

---

(١) التفسير البسيط: ٢٤٦/٢.

(٢) تفسير الطبري: ٣٧٧/١-٣٧٩، وانظر: تفسيرابن كثير: ١٩٩/١، قال الطبري: "وأما ما قاله مجاهد وابن جُريج في تأويل ذلك، فلا وجه له، لأن القوم كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أصنافًا ثلاثة : أهل إيمان صحيح، وأهل كفر صحيح، وأهلَ نفاق بين ذلك، فأهل الإيمان كانوا بالله وبرسوله مؤمنين، فكان من المحال أن يدّعي الكفار أن لهم شُهداء - على حقيقة ما كانوا يأتون به، لو أتوا باختلاق من الرسالة، ثم ادَّعوا أنه للقرآن نَظير - من المؤمنين، فأما أهلُ النفاق والكفر، فلا شكّ أنهم لو دُعُوا إلى تَحقيق الباطل وإبطال الحق لتتارعوا إليه مع كفرهم وضَلالهم، فمن أي الفريقين كانت تكون شُهداؤهم لو ادعوْا أنهم قد أتوْا بسورة من مثل القرآن ؟ ولكنْ ذلك كما قال جل ثناؤه : (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) [سورة الإسراء : ٨٨]، فأخبر جل ثناؤه في هذه الآية، أنّ مثل القرآن لا يأتي به الجنّ والإنس ولو تظاهروا وتعاونوا على الإتيان به، وقال في سورة هود : { أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [هود : ١٣]، وقال في سورة يونس : { وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [يونس : ٣٧، ٣٨] وكل هذه الآيات مكية، وتحدَّاهم بمعنى التوبيخ لهم في سورة البقرة فقال تعالى : {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣)} [البقرة : ٢٣]، يعني بذلك : إن كنتم في شَكّ في صدق محمد فيما جاءكم به من عندي أنه من عندي، فأتوا بسورة من مثله، وليستنصر بعضُكم بعضًا على ذلك إن كنتم صادقين في زعمكم، حتى تعلموا أنكم إذْ عَجزتم عن ذلك - أنّه لا يقدر على أن يأتي به محمد صلى الله عليه وسلم، ولا من البشر أحدٌ، ويَصحَّ عندكم أنه تنزيلي وَوحيي إلى عبدي".[تفسيره: ٣٧٧/١-٣٧٩].

(٣) تفسير ابن عثيمين:٨٢/١.

(٤) معاني القرآن: ١٠٠/١.

(٥) تفسير البيضاوي: ٥٨/١.

(٦) أنظر: تفسير الطبري(٤٩٦):ص٣٧٦/١.

(٧) أنظر: معاني القرآن: ١٩/١. قال الفراء: "يريد آلهتكم. يقول: استغيثوا بهم وهو كقولك للرجل: إذا لقيت العدو خاليا فادع المسلمين. ومعناه: فاستغث واستعن بالمسلمين".

(٨) نقلا عن: التفسير البسيط: ٢٥١/٢.

(٩) أنظر: تفسير الطبري(٤٩٧)، (٤٩٨)، و(٤٩٩):ص٣٧٦/١.

(١٠) التفسير البسيط: ٢٥٠/٢-٢٥١.

(١١) البيت في: اللسان (عزا)، تفسير الطبري: ٣٧٧/١، واعتزى : انتسب ، ودعا في الحرب بمثل قوله : يا لفلان ، أو يا للمهاجرين ، أو يا للأنصار ، والاسم العزاء والعزوة ، وهي دعوى المستغيث .

(١٢) أنظر: تفسير الطبري: ٣٧٧/١.

(١٣) صفوة التفاسير: ٣٥/١.

الفوائد:

١. من فوائد الآية: دفاع الله سبحانه وتعالى عن رسوله صلى الله عليه وسلم؛ لقوله تعالى: { فأتوا بسورة من مثله }؛ لأن الأمر هنا للتحدي؛ فالله عزّ وجلّ يتحدى هؤلاء بأن يأتوا بمعارض لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم.

٢. ومنها: فضيلة النبي صلى الله عليه وسلم؛ لوصفه بالعبودية؛ والعبودية لله عزّ وجلّ هي غاية الحرية؛ لأن من لم يعبد الله فلا بد أن يعبد غيره؛ فإذا لم يعبد الله عزّ وجلّ . الذي هو مستحق للعبادة . عَبَدَ الشيطان، كما قال ابن القيم . رحمه الله . في النونية:.

هربوا من الرق الذي خلقوا له وبلوا برق النفس والشيطان ٣. ومنها: أن القرآن كلام الله؛ لقوله تعالى: { مما نزلنا }؛ ووجه كونه كلام الله أن القرآن كلام؛ والكلام صفة للمتكلم، وليس شيئاً بائناً منه؛ وبهذا نعرف بطلان قول من زعم أن القرآن مخلوق.

٤. ومنها: إثبات علوّ الله عزّ وجلّ؛ لأنه إذا تقرر أن القرآن كلامه، وأنه منزل من عنده لزم من ذلك علوّ المتكلم به؛ وعلو الله عزّ وجلّ ثابت بالكتاب، والسنة، والإجماع، والعقل، والفطرة؛ وتفاصيل هذه الأدلة في كتب العقائد؛ ولولا خوض أهل البدعة في ذلك ما احتيج إلى كبير عناء في إثباته؛ لأنه أمر فطري؛ ولكن علماء أهل السنة يضطرون إلى مثل هذا لدحض حجج أهل البدع.

٥. ومن فوائد الآية: أن القرآن معجز حتى بسورة . ولو كانت قصيرة؛ لقوله تعالى: { فأتوا بسورة من مثله).

٦. ومنها: تحدي هؤلاء العابدين للآلهة مع معبوديهم؛ وهذا أشد ذلًا مما لو تُحدوا وحدهم.

القرآن

{فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤)} [البقرة : ٢٤]

التفسير:

فإن عجَزتم الآن -وستعجزون مستقبلا لا محالة- فاتقوا النار بالإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم وطاعة الله تعالى. هذه النار التي حَطَبُها الناس والحجارة، أُعِدَّتْ للكافرين بالله ورسله.

قوله تعالى: {فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ}[البقرة:٢٤]، "أي فإن لم تقدروا على الإتيان بمثل سورةٍ من سوره، وعجزتم في الماضي عن الإتيان بما يساويه أو يدانيه، مع استعانتكم بالفصحاء والعباقرة والبلغاء"[٢].

قال قتادة: "فإن لم تطيقوه"[٣].

قال الطبري: أي:" إن لم تأتوا بسورة من مثله، فقد تظاهرتم أنتم وشركاؤكم عليه وأعوانكم (١) ، فتبين لكم بامتحانكم واختباركم عجزكم وعَجزُ جميع خلقي عنه، وعلمتم أنه من عندي، ثم أقمتم على التكذيب به"[٤].

قال السمعاني:" يعنى: فإن لم تفعلوا ذلك"[٥].

قوله تعالى:{ وَلَن تَفْعَلُواْ}[البقرة:٢٤]، "أي ولن تقدروا في المستقبل أيضاً على الإتيان بمثله"[٦].

قال الطبري: " أي: لن تأتوا بسورة من مثله أبدًا"[٧].

قال قتادة:" ولن تطيقوه"[٨]. وفي لفظ:" أي لا تقدرون على ذلك، ولا تطيقونه"[٩].

قال الرماني:" فقطع بأنهم لن يفعلوا"[١].

---

(١) تفسير ابن عثيمين: ٨٢/١.

(٢) صفوة التفاسير: ٣٥/١.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٢٤٣):ص٦٤/١.

(٤) تفسير الطبري: ٤٧٩/٢٤.

(٥) تفسير السمعاني: ٥٩/١.

(٦) صفوة التفاسير: ٣٦/١.

(٧) تفسير الطبري: ٤٧٩/٢٤.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(٢٤٣):ص٦٤/١.

(٩) أخرجه الطبري(٥٠١):ص ٣٧٩/٢٤.

قال السمعاني: أي: " ولن تفعلوه أبدا ..وإنما قال هذا لبيان المعجزة؛ لأن القرآن كان معجزة للنبي حيث عجز الكل عن الإتيان بمثله"[٢].

قال الجصاص:" فأخبر أنهم لا يعارضونه ولا يقع ذلك منهم وذلك إخبار بالغيب"[٣].

قال ابن كثير:تحداهم القرآن" مع أنهم أفصح الأمم، وقد تحداهم بهذا في مكة والمدينة مرات عديدة ، مع شدة عداوتهم له وبغضهم لدينه ، ومع هذا عجزوا عن ذلك"[٤].

عن ابن عباس:" {فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا} [البقرة : ٢٤]، فقد بَين لكم الحق"[٥].

قوله تعالى:{فَاتَّقُوا النَّارَ}[البقرة:٢٤]، "أي فخافوا عذاب الله، واحذروا نار الجحيم التي جعلها الله جزاء المكذبين"[٦].

قال الطبري: " يقول: فاتقوا أن تَصْلَوُا النار بتكذيبكم رسولي بما جاءكم به من عندي أنه من وحيي وتنزيلي، بعدَ تبيُّنكم أنه كتابي ومن عندي، وقيام الحجة عليكم بأنه كلامي ووحيي، بعجزكم وعجز جميع خلقي عن أن يأتوا بمثله"[٧].

قال السمعاني:" أي: فآمنوا؛ لكي تتقوا النار بالإيمان"[٨].

قوله تعالى:{وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ}[البقرة:٢٤]، "أي اتقوا النار التي مادتُها التي تُشعل بها وتُضرم لإيقادها هي الكفار والأصنام التي عبدوها من دون الله"[٩].

قال الطبري: وصف جل ثناؤه النارَ التي حَذرهم صِلِيَّها فأخبرهم أنّ الناس وَقودها، وأن الحجارة وَقُودها"[١٠].

و«الوَقود»، بالفتح الحطب، و«الوُقود» بالضم التوقُّد، والحجارة من كبريتٍ أسود ، وفيها قولان:

أحدهما : أنهم يعذبون فيها بالحجارة مع النار ، التي وقودها الناس ، وهذا قول ابن مسعود[١١]، والسدي[١٢].

قال ابن مسعود:" هي حجارة من كبريت، خَلقها الله يومَ خلق السموات والأرض في السماء الدنيا، يُعدّها للكافرين"[١٣].

قال ابن جريج:" حجارة من كبريت أسودَ في النار، قال: وقال لي عمرو بن دينار: حجارةٌ أصلب من هذه وأعظم"[١٤].

الثاني : أن الحجارة وقود النار مع الناس ، ذكر ذلك تعظيماً للنار ، كأنها تحرق الحجارة مع إحراقها الناس. حكاه الماوردي[١٥].

قوله تعالى: {أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ}[البقرة:٢٢٤]، "أي هُيِّئت تلك النارُ وأُرصدت للكافرين الجاحدين، ينالون فيها ألوان العذاب المهين"[١٦].

قال الطبري:" أعدّت النارُ للجاحدين أنّ الله رَبُّهم المتوحِّدُ بخلقهم وخلق الذين من قبلهم"[١٧].

---

(١) النكت في إعجاز القرآن: ٩٧.
(٢) تفسير السمعاني: ٥٩/١.
(٣) أحكام القرآن: ٣٤/١.
(٤) تفسير ابن كثير: ١٩٩/١.
(٥) أخرجه الطبري(٥٠٢)ص: ٣٧٩/٢٤.
(٦) صفوة التفاسير: ٣٦/١.
(٧) تفسير الطبري: ٣٨٠/٢٤.
(٨) تفسير السمعاني: ٥٩/١.
(٩) صفوة التفاسير: ٣٦/١.
(١٠) تفسير الطبري: ٣٨٠/٢٤.
(١١) أنظر: تفسير الطبري(٥٠٥):ص٣٨٢/١.
(١٢) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٢٤٥):ص٦٤/١.
(١٣) أخرجه الطبري(٥٠٣):ص٣٨١/١.
(١٤) أخرجه الطبري(٥٠٦):ص٣٨٢/١.
(١٥) النكت والعيون: ٨٤-٨٥.
(١٦) صفوة التفاسير: ٣٦/١.
(١٧) تفسير الطبري: ٣٨٢/١.

قال ابن عباس:" أي: لمن كان على مثل ما أنتم عليه من الكفر"(١).

قال الزمخشري:" لما أرشدهم إلى الجهة التي منها يتعرّفون أمر النبي صلى اللّه عليه وسلم وما جاء به حتى يعثروا على حقيقته وسرّه وامتياز حقه من باطله. قال لهم فإذا لم تعارضوه ولم يتسهل لكم ما تبغون وبان لكم أنه معجوز عنه، فقد صرح الحق عن محضه ووجب التصديق فآمنوا وخافوا العذاب المعدّ لمن كذب. وفيه دليلان على إثبات النبوّة: صحة كون المتحدى به معجزاً، والإخبار بأنهم لن يفعلوا وهو غيب لا يعلمه إلا الله"(٢).

وقد ذكروا في قوله تعالى{أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ}[البقرة:٢٢٤]، وجهين(٣) : أحدهما : أنها وإن أعدت للكافرين ، فهي معدة لغيرهم من مستحقي العذاب من غير الكافرين ، وهي نار واحدة ، وإنما يتفاوت عقابهم فيها.

والثاني : أن هذه النار معدة للكافرين خاصة ، ولغيرهم من مستحقي العذاب نارٌ غيرها .

وقوله{أُعِدَّتْ}، استدلّ به كثير من أئمة السنة على أن النار موجودة الآن، لأن: {أُعِدَّتْ} أي: أرصدت وهيئت وقد وردت أحاديث كثيرة في ذلك(٤)، وقد خالفت المعتزلة بجهلهم في هذا ووافقهم القاضي منذر بن سعيد البلوطي قاضي الأندلس(٥).

وقد اتفق الجمهور أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان وهما باقيتان، وأن الله تعالى قد أعدهما وهيأهما ليكونا مستقراً لعباده، الجنة لأهل الطاعة والإيمان، والنار لأهل الكفر والعصيان، ولم يخالف ذلك إلا بعض ممن ضعف إيمانهم وتضاءلت عقولهم عن فهم النصوص القطعية الثابتة الدالة على وجود الجنة والنار وأنهما مخلوقتان وما تمسكوا به من أدلة لا ينظر إليه ولا يؤبه به لذلك أذكر هنا فقط الأدلة التي تمسك بها العلماء المحققون من أهل السنة والجماعة.

يقول ابن القيم: "لم يزل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعون وتابعوهم وأهل السنة والحديث قاطبة وفقهاء الإسلام وأهل التصوف والزهد على اعتقاد ذلك وإثباته مستندين في ذلك إلى نصوص الكتاب والسنة وما علم بالضرورة من أخبار الرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم فإنهم دعوا الأمم أليها وأخبروا بها، إلى أن نبغت نابغة من القدرية والمعتزلة فأنكرت أن تكون مخلوقة الآن وقالت بل الله ينشئها يوم القيامة وحملهم على ذلك أصلهم الفاسد الذي وضعوا به شريعة الله فيما يفعله(٦)، ويقول ابن حزم(٧): "ذهبت طائفة من المعتزلة والخوارج إلى أن الجنة والنار لم يخلقها بعد، وذهب جمهور المسلمين إلى أنهما قد خلقتا وما نعلم لمن قال أنهما لم يخلقا"(٨).

وتجدر الإشارة بأنه لم يقع خلاف بين أهل السنة والجماعة والمعتزلة على حقية الجنة والنار وثبوتهما، لأنَّها من المسائل العقدية التي لا تحتمل الخلاف، لورودها بأدلة قطعية الثبوت قطعية الدلالة، بل الخلاف وقع في أنهما موجودتان أم ستوجدان في يوم الجزاء، فقد ذهب أهل السنة والجماعة إلى القول بثبوت خلق الجنة والنار ووجودهما، وذهب المعتزلة إلى القول بنفي خلق الجنة والنار وعدم وجودهما، بل ستوجدان يوم الجزاء، مع العلم بأنه لم يذهب المعتزلة إلى ذاك القول بسبب اتباع الهوى، بل أرادوا أنْ يدفعوا تعارضاً ظهر لهم بين النصوص الشرعية، فخذلهم فهمهم وعقلهم، وما أغنت عنهم فلسفتهم العوراء المتهافتة من الحق شيئاً.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم(٢٤٨):ص١/٦٥.

(٢الكشاف: ١/١٠١) .

(٣) النكت والعيون: ٨٥.

(٤) تنظر: تفسير ابن كثير: ١/٢٠٢. منها: حديث ابن مسعود: سمعنا وجبة فقلنا ما هذه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "هذا حجر ألقي به من شفير جهنم منذ سبعين سنة الآن وصل إلى قعرها".[صحيح مسلم برقم (٢٨٤٤)].

(٥) تنظر: تفسير ابن كثير: ١/٢٠٢.

(٦)حادي الأفراح إلى بلاد الأفراح، لابن القيم، بتحقيق: الدكتور السيد الجميلي، الباب الأول: في بيان وجود الجنة، ص: ٣٧، الطبعة الرابعة ١٤٠٩هـ، ١٩٨٨م، دار الكتاب العربي.

(٧)هو الإمام أبو محمد علي بن أحمد الشهير بابن حزم الأندلسي الظاهري صاحب اللسان الشديد برع في فنون كثيرة ومن مؤلفاته: المحلى في الفقه، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ولد سنة ٣٨٤هـ وتوفي سنة ٤٥٦هـ انظر: سير أعلام النبلاء ١٨/ ١٨٧ – ٢١١.

(٨)الفصل والملل والأهواء والنحل، لابن حزم، الكلام في خلق الجنة والنار، ٤/ ٨١، دار الفكر، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م.

والصحيح في هذه المسألة هو قول أهل السنة والجماعة، لأن ما ذهب إليه المعتزلة، فيه خرق لإجماع الأمة[١].

---

(١)وقد تضافرت نصوص القرآن والسنة على إثبات ما ذهب جمهور المسلمين من كون الجنة والنار مخلوقتين الآن فالله تعالى يقول في شأن الجنة: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} [آل عمران : ١٣٣]، ويقول تعالى: { سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ[٥]{ ، وغير ذلك من الآيات التي تدل على أن الجنة مخلوقة موجودة الآن، وقد عبر القرآن بصيغة الماضي في قوله (أُعِدَّتْ) وهذا التعبير يفيد أنها مخلوقة موجودة-كما أشار أليه ابن كثير-، وفي قصة المعراج يقول تعالى: {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (١٤) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (١٦)} [النجم : ١٣ - ١٦]، مما يفيد أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى سدرة المنتهى ورأى عندها جنة المأوى كما في حديث أبي رضي الله عنه في قصة الإسراء حيث يقول في آخره: «ثم أنطلق بي جبريل حتى انتهى بي إلى سدرة المنتهى وغشيها ألوان لا أدري ما هي؟ ثم دخلت الجنة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ وإذا ترابها المسك".[أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب ذكر إدريس عليه السلام، ص: ٥٥٦، رقم الحديث: ٣٣٤٢].

وأخبر الله تعالى أنها الجنة التي يدخلها المؤمنون يوم القيامة فقال تعالى: {أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٩)} [السجدة : ١٩]ويقول في شأن النار: {وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١)} [آل عمران : ١٣١]، ويقول تعالى :{وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩)} [الكهف : ٢٩]، وقال تعالى: {أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا (١٠٢)} [الكهف : ١٠٢]، وقال تعالى : {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦)} [غافر : ٤٦].

وغير ذلك من الآيات الدالة على وجود النار. أما الأحاديث الدالة كذلك على وجود الجنة والنار وأنهما مخلوقتان فكثيرة تقتصر على ذكر حديثين فقط منها عن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل النار يقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة".[صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب الميت يعرض عليه بالغداة والعشي، ص: ٢٢١، رقم الحديث: ١٣٧٩]..

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال الله تعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. فاقرؤوا إن شئتم {فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين}".[صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، ص: ٥٤١، رقم الحديث: ٣٢٤٤]. وغير ذلك من الأحاديث التي تقرر وتؤكد أن الجنة والنار مخلوقتان وموجودتان الآن ومعدتان لاستقبال الخلق.

وقد نقد المعتزلة هذا الاستدلال لأهل اسنة والجماعة على خلق الجنة والنار، إذ بينوا أن التعبير بلفظ الماضي في هذه الآيات جاء لا ليدل على الوجود بل ليدل على تحقق الوقوع، وفي ذلك يقول الزمخشري المعتزلي في (كشافه): "كلها للمضى، والمراد بها الاستقبال، لأنَّ ما اللّه فاعله في المستقبل بمنزلة ما قد كان ووجد لتحققه".[الكشاف: ٥٩٢/٣].

ويبين الزمخشري عند تفسيره لسورة (غافر) للآيات [٦٩ إلى ٧٦]، والتي تتحدث عن النار وعذابها ما نصه: "إلا أن الأمور المستقبلة لما كانت في أخبار اللّه تعالى متيقنة مقطوعا بها: عبر عنها بلفظ ما كان ووجد، والمعنى على الاستقبال".[١٧٨/٤].

ويقول العرياني: "قوله تعالى في حق الجنة: {أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} (آل عمران:١٣٣)، وفي حق النار: {أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ} (البقرة: ٢٤). {وَبُرِّزَتْ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ} (الشعراء:٩١)، وحملها على التعبير عمّا يقع في المستقبل بلفظ الماضي تنبيها على تحقق وقوعه".[خير القلائد شرح جواهر العقائد، العرياني: ص١٨٢]، ، فالتعبير بالماضي لا يدل على وجودهما، بل هذا التعبير ليدل على تحقق هذا الوقوع.

واستدل أهل السنة والجماعة على وجود الجنة والنار، بقصة آدم عليه السلام وزوجه حواء، حيث أسكنهما الله تعالى الجنة، فلو لم تكن الجنة موجودة لما كان معنى لإدخال الله تعالى آدم وحواء بها.

فنقد المعتزلة هذا الوجه من وجوه الاستدلال لأهل السنة، بأن الله تعالى أدخل آدم وحواء بستان من بساتين الدنيا، ولم يدخلهما الجنة المعهودة، وفي ذلك يقول أبو مسلم الأصفهاني المعتزلي: "هي جنة من جنان الدنيا في الأرض".[جامع التأويل لمحكم التنزيل، محمد بن بحر الأصفهاني:٣٥].

، ويستدل المعتزلة على أن هذه الجنة لم تكن جنة الخلد بل بستان من بساتين الدنيا بجملة من الوجوه، نجملها في نقطتين، وهما:

١- أن الغرور لحق آدم في هذه الجنة، وجنة الخلد لا غرور فيها، وفي ذلك يقول البلخي المعتزلي: "لو كان آدم في جنة الخلد لما لحقه فيها الغرور من إبليس بقوله تعالى: {هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى} (طه:١٢٠)"[تفسير أبي القاسم الكعبي البلخي، ص١١٤].

٢- أن جنة الخلد من دخلها لا يخرج منها أبداً، فلما أخرج آدم عليه السلام منها علمنا أنها لم تكن الجنة المقصودة، وفي ذلك يقول البلخي المعتزلي: "إن من دخل هذه الجنة لا يخرج منها بقوله تعالى: {وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ} (الحجر:٤٨)".[تفسير أبي القاسم الكعبي البلخي، ص١١٤].

الفوائد:
١. من فوائد الآية: أن من عارض القرآن فإن مأواه النار؛ لقوله تعالى: (فاتقوا النار)
٢. ومنها: أن الناس وقود للنار كما توقد النار بالحطب؛ فهي في نفس الوقت تحرقهم، وهي أيضاً توقد بهم؛ فيجتمع العذاب عليهم من وجهين.
٣. ومنها: إهانة هؤلاء الكفار بإذلال آلهتهم، وطرحها في النار . على أحد الاحتمالين في قوله تعالى: { الحجارة }؛ لأن من المعلوم أن الإنسان يغار على من كان يعبده، ولا يريد أن يصيبه أذًى؛ فإذا أحرق هؤلاء المعبودون أمام العابدين فإن ذلك من تمام إذلالهم، وخزيهم.
٤. ومنها: أن النار موجودة الآن؛ لقوله تعالى: { أعدت }؛ ومعلوم أن الفعل هنا فعل ماض؛ والماضي يدل على وجود الشيء؛ وهذا أمر دلت عليه السنة أيضاً؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم عُرضت عليه الجنة، والنار، ورأى أهلها يعذبون فيها: رأى عمرو بن لحيّ الخزاعي يجر قصبه . أي أمعاءه . في النار؛ ورأى المرأة التي حبست الهرة حتى ماتت جوعاً: فلم تكن أطعمتها، ولا أرسلتها تأكل من خشاش الأرض؛ ورأى فيها صاحب المحجن . الذي كان يسرق الحُجَّاج بمحجنه . يعذب: وهو رجل معه محجن . أي عصا محنية الرأس . كان يسرق الحُجاج بهذا المحجن؛ إذا مر به الحجاج جذب متاعهم؛ فإن تفطن صاحب الرحل لذلك ادعى أن الذي جذبه المحجن؛ وإن لم يتفطن أخذه؛ فكان يعذب . والعياذ بالله . بمحجنه في نار جهنم(١) .
مسألة:
هل النار باقية؛ أو تفنى؟ ذكر بعض العلماء إجماع السلف على أنها تبقى، ولا تفنى؛ وذكر بعضهم خلافاً عن بعض السلف أنها تفنى؛ والصواب أنها تبقى أبد الآبدين؛ والدليل على هذا من كتاب الله عزّ وجلّ في

وحمل المعتزلة الإهباط الوارد في قوله تعالى: {وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ} (البقرة: ٣٦)، على "على الانتقال من بقعة إلى بقعة".[تفسير أبي القاسم الكعبي البلخي، ص١١٤].
ويوضح البزدوي وجه استدلالهم بالآية، فيقول: "لو كان في جنات عدن فما تصور الخروج؟ فإن من دخل الجنة لا يخرج منها".[أصول الدين، ص١٧٠]، فآدم عليه السلام وحواء لو أدخلا الجنة المعهودة لما خرجا منها، لأن الله تعالى أخبر أن من يدخل الجنة المعهودة لا يخرج منها أبداً، فلما أدخلا وخرجا علمنا أنَّ إدخالهما ليس في الجنة المعهودة، فبطل بذلك دليل أهل السنة المشار إليه سابقاً.
وقد نفى أهل السنة وجود التناقض بين آية الهلاك وآية دوام الأكل، فلا يلزم المحال الذي ذكره المعتزلة، ووجه عدم التناقض بين الآيتين أن "المراد بدوام الأكل أنه إذا أفنى منه شيء جيء ببدله، لا أنه يبقى بعينه، وذلك لا ينافي الهلاك لحظة".[خير القلائد شرح جواهر العقائد، ص١٨٣]، فأكل أهل الجنة دائم بمعنى التجدد، لا بمعنى عدم الفناء، ودوام التجدد لا يناقض عدم الهلاك.
أما بخصوص رد أهل السنة والجماعة لنقد المعتزلة للآية الأولى: قوله تعالى في حق الجنة: {أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} (آل عمران: ١٣٣)، وقوله تعالى في حق النار: {أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ} (البقرة: ٢٤)، إذ أشار المعتزلة أن لفظة (أعدت)، وإن كانت تدل على الزمن الماضي، الذي يدل على الوجود والوقوع، إلا أن هذه اللفظة في هذا الموطن المراد منها غير ما وضعت له، بل المراد منها تأكيد الوقوع في المستقبل.
فنقد أهل السنة هذا الفهم بقولهم: "وهذه الصيغة موضوعة للمضي حقيقة فلا وجه للعدول عنها إلى المجاز إلا بصريح آية، أو صحيح دلالة".[القاري، شرح كتاب الفقه الأكبر، ص١٦٥]، فنقل المعتزلة هذه اللفظة من الحقيقة التي وضعت لها إلى المجاز من غير دليل، كلام باطل، فسقط بذلك استدلالهم.
رد نقدهم للآية الثانية: قوله تعالى: {وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ} (البقرة: ٣٥).
استدل أهل السنة على وجود الجنة، بأن الله تعالى أدخل بها آدم وحواء عليهما السلام، فنقد المعتزلة هذا الاستدلال بأنَّ الجنة التي أدخل بها آدم وحواء ليست الجنة المعهودة، بل بستان من بساتين الدنيا، فنقد أهل السنة هذا الاستدلال للمعتزلة بأن الجنة التي أخرج منها آدم عليه السلام هي جنة الخلد المعهودة، لأن الله تعالى ذكر لآدم عليه السلام أوصاف هذه الجنة، وهذه الأوصاف لا تكون إلا في الجنة المعهودة، يقول البزدوي: "وكذلك قال الله تعالى: {وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ} (البقرة: ٣٥)، وقال تعالى: {فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنْ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى (١١٨) وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى} (طه: ١١٧- ١١٩)، أخبر أنه لو خرج من الجنة؛ يشقى، وأنه في الجنة لا يجوع ولا يعرى ولا يظمأ ولا يضحى، وهذا من صفات جنات عدن لا من صفات جنّات الدنيا، فدلتنا هذه الآية أن آدم عليه السلام كان في جنات عدن".[البزدوي، أصول الدين، ص١٧٠].
(١) راجع مسلم ص٨١٩ – ٨٢٠، كتاب الكسوف، باب ٣: ما عرض على النبي صلى الله عليه وسلم في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار، حديث رقم ٢١٠٠ [٩] ٩٠٤؛ وراجع مسلم ص١١٧٣، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب ١٣: النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، حديث رقم ٧١٩٢ [٥٠] ٢٨٥٦.

ثلاث آيات من القرآن: في سورة النساء، وسورة الأحزاب، وسورة الجن؛ فأما الآية التي في النساء فهي قوله تعالى: {إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً * إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً} [النساء: ١٦٨، ١٦٩] ؛ والتي في سورة الأحزاب قوله تعالى: {إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيراً * خالدين فيها أبداً} [الأحزاب: ٦٤، ٦٥] ؛ والتي في سورة الجن قوله تعالى: { ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً } [الجن: ٢٣] ؛ وليس بعد كلام الله كلام؛ حتى إني أذكر تعليقاً لشيخنا عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله على كتاب "شفاء العليل" لابن القيم؛ ذكر أن هذا من باب: "لكل جواد كبوة؛ ولكل صارم نبوة" . وهو صحيح؛ كيف إن المؤلف رحمه الله يستدل بهذه الأدلة على القول بفناء النار مع أن الأمر فيها واضح؟! غريب على ابن القيم رحمه الله أنه يسوق الأدلة بهذه القوة للقول بأن النار تفنى! وعلى كل حال، كما قال شيخنا في هذه المسألة: "لكل جواد كبوة؛ ولكل صارم نبوة"؛ والصواب الذي لا شك فيه . وهو عندي مقطوع به . أن النار باقية أبد الآبدين؛ لأنه إذا كان يخلد فيها تخليداً أبدياً لزم أن تكون هي مؤبدة؛ لأن ساكن الدار إذا كان سكونه أبدياً لابد أن تكون الدار أيضاً أبدية.

وأما قوله تعالى في أصحاب النار: {خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك} [هود: ١٠٧] فهي كقوله تعالى في أصحاب الجنة: {خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك} [هود: ١٠٨] لكن لما كان أهل الجنة نعيمهم، وثوابهم فضلاً ومنَّة، بيَّن أن هذا الفضل غير منقطع، فقال تعالى: {عطاءً غير مجذوذ} [هود: ١٠٨] ؛ ولما كان عذاب أهل النار من باب العدل، والسلطان المطلق للرب عزّ وجلّ قال تعالى في آخر الآية: {إن ربك فعال لما يريد} [هود: ١٠٧] ؛ وليس المعنى: {إن ربك فعال لما يريد} [هود: ١٠٧] أنه سوف يخرجه من النار، أو سوف يُفني النار.

٥. ومن فوائد الآية: أن النار دار للكافرين؛ لقوله تعالى: { أعدت للكافرين }؛ وأما من دخلها من عصاة المؤمنين فإنهم لا يخلدون فيها؛ فهم فيها كالزوار؛ لا بد أن يَخرجوا منها؛ فلا تسمى النار داراً لهم؛ بل هي دار للكافر فقط؛ أما المؤمن العاصي . إذا لم يعف الله عنه . فإنه يعذب فيها ما شاء الله، ثم يخرج منها إما بشفاعة؛ أو بمنة من الله وفضل؛ أو بانتهاء العقوبة.

مسألة(١):

إذا قال قائل: ما وجه الإعجاز في القرآن؟ وكيف أعجز البشر؟.

الجواب: أنه معجز بجميع وجوه الإعجاز؛ لأنه كلام الله، وفيه من وجوه الإعجاز ما لا يدرك؛ فمن ذلك:

أولاً: قوة الأسلوب، وجماله؛ والبلاغة، والفصاحة؛ وعدم الملل في قراءته؛ فالإنسان يقرأ القرآن صباحاً، ومساءً . وربما يختمه في اليومين، والثلاثة . ولا يمله إطلاقاً؛ لكن لو كرر متناً من المتون كما يكرر القرآن ملّ.

ثانياً: أنه معجز بحيث إن الإنسان كلما قرأه بتدبر ظهر له بالقراءة الثانية ما لم يظهر له بالقراءة الأولى.

ثالثاً: صدق أخباره بحيث يشهد لها الواقع؛ وكمال أحكامه التي تتضمن مصالح الدنيا، والآخرة؛ لقوله تعالى: {وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً } (الأنعام: ١١٥)

رابعاً: تأثيره على القلوب، والمناهج؛ وآثاره، حيث ملك به السلف الصالح مشارق الأرض، ومغاربها.

وأما كيفية الإعجاز فهي تحدي الجن، والإنس على أن يأتوا بمثله، ولم يستطيعوا.

مسألة(٢):

حكى الله عزّ وجلّ عن الأنبياء، والرسل، ومن عاندهم أقوالاً؛ وهذه الحكاية تحكي قول من حُكيت عنه؛ فهل يكون قول هؤلاء معجزاً . يعني مثلاً: فرعون قال لموسى: {لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين} [الشعراء: ٢٩] : هذا يحكيه الله عزّ وجلّ عن فرعون؛ فيكون القول قول فرعون؛ فكيف كان قول فرعون معجزاً والإعجاز إنما هو قول الله عزّ وجلّ؟

فالجواب: أن الله تعالى لم يحك كلامهم بلفظه؛ بل معناه؛ فصار المقروء في القرآن كلام الله عزّ وجلّ . وهو معجز.

القرآن

{وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥)} [البقرة : ٢٥]

التفسير:

وبشر -أيها الرسول- الذين آمنوا بالله وبمحمد ﷺ، وبما جاء به من عند ربه، وصدقوا إيمانهم ذلك وإقرارهم بأعمالهم الصالحة من واجبات ومستحبات، أن لهم جنات تجري من تحت أشجارها أنهار، كلما أعطوا عطاء ورزقوا رزقاً من ثمار الجنة قالوا قد رَزَقنا الله هذا النوع من قبل، فإذا ذاقوه وجدوه شيئًا جديدًا في طعمه ولذته، وإن تشابه مع سابقه في اللون والمنظر والاسم، ولهم في الجنَّات زوجات مطهَّرات.

قال ابن كثير:" لما ذكر تعالى ما أعده لأعدائه من الأشقياء الكافرين به وبرسله من العذاب والنكال ، عَطف بذكر حال أوليائه من السعداء المؤمنين به وبرسله ، الذين صَدَّقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة ، وهذا معنى تسمية القرآن "مثاني" على أصح أقوال العلماء. وهو أن يذكر الإيمان ويتبعه بذكر الكفر ، أو عكسه ، أو حال السعداء ثم الأشقياء ، أو عكسه. وحاصله ذكر الشيء ومقابله. وأما ذكر الشيء ونظيره فذاك التشابه"(١).

قال الزمخشري:" من عادته عز وجل في كتابه أن يذكر الترغيب مع الترهيب ، ويشفع البشارة بالإنذار إرادة التنشيط ، لاكتساب ما يزلف ، والتثبيط عن اقتراف ما يتلف. فلما ذكر الكفار وأعمالهم وأوعدهم بالعقاب ، قفاه ببشارة عباده الذين جمعوا بين التصديق والأعمال الصالحة من فعل الطاعات وترك المعاصي ، وحموها من الإحباط بالكفر والكبائر بالثواب"(٢).

قوله تعالى: {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا}[البقرة: ٢٥]، أي: " وبشر -أيها الرسول- الذين آمنوا بالله وبمحمد ﷺ، وبما جاء به من عند ربه"(٣).

قال الزجاج:" ذكر ذلك للمؤمنين، وما أعد لهم جزاءً لتصديقهم، بعد أن ذكر لهم جزاءَ الكافرين"(٤).

قال السمعاني:" يعني: المؤمنين من أهل الطاعة"(٥).

قال الصابوني:" أي: وبَشِّرْ يا محمد المؤمنين المتقين"(٦).

قال الطبري:" وهذا أمر من الله تعالى نبيَّه محمدًا صلى الله عليه وسلم بإبلاغ بشارته خلقَه الذين آمنوا به وبمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به من عند ربه "(٧).

قال ابن عثمين:" أي: الذين آمنوا بما يجب الإيمان به مما أخبر الله به، ورسوله؛ وقد بيَّن الرسول صلى الله عليه وسلم أصول الإيمان بأنها الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره؛ لكن ليس الإيمان بهذه الأشياء مجرد التصديق بها؛ بل لا بد من قبول، وإذعان؛ وإلا لما صح الإيمان"(٨).

قال الطبري:" هذا أمر من الله تعالى نبيَّه محمدًا صلى الله عليه وسلم بإبلاغ بشارته خلقَه الذين آمنوا به وبمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به من عند ربه ، وصدّقوا إيمانهم ذلك وإقرَارهم بأعمالهم الصالحة"(٩).

والخطاب في قوله تعالى: {بشّر} يحتمل وجهين(١٠):

أحدهما: أنه خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم. يعني: بشّر أيها النبي. وهو الظاهر.

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢٠٣/١.
(٢) تفسير الكشاف: ١٠٤/١.
(٣) التفسير الميسر: ٥.
(٤) معاني القرآن: ١٠١/١.
(٥) تفسير السمعاني: ٦٠/١.
(٦) صفوة التفاسير: ٣٦/١.
(٧) تفسير الطبري: ٣٨٣/٢٤.
(٨)تفسير ابن عثيمين:٩٠/١.
(٩) تفسير الطبري: ٣٨٤/١.
(١٠) أنظر: تفسير ابن عثيمين:٩٠/١.

والثاني: أنه لكل من يتوجه إليه الخطاب، يعني: بشِّر أيها المخاطَب، من اتصفوا بهذه الصفات بأن لهم جنات.

قال النسفي: " والمأمور بقوله: {وبشّر} الرسول عليه السلام أو كل أحد ، وهذا أحسن لأنه يؤذن بأن الأمر لعظمة وفخامة شأنه محقوق بأن يبشر به كل من قدر على البشارة به"(١).

قال البغوي:" والبشارة كل خبر صدق تتغير به بشرة الوجه ، ويستعمل في الخير والشر ، وفي الخير أغلب"(٢).

قال ابن عثيمين:" و "البشارة" هي الإخبار بما يسر؛ وسميت بذلك لتغير بَشَرة المخاطَب بالسرور؛ لأن الإنسان إذا أُخبر بما يُسِرُّه استنار وجهه، وطابت نفسه، وانشرح صدره؛ وقد تستعمل "البشارة" في الإخبار بما يسوء، كقوله تعالى: { فبشرهم بعذاب أليم } [آل عمران: ٢١] : إمَّا تهكماً بهم؛ وإما لأنهم يحصل لهم من الإخبار بهذا ما تتغير به بشرتهم، وتَسودَّ به وجوههم، وتُظلِم، كقوله تعالى في عذابهم يوم القيامة: {ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم * ذق إنك أنت العزيز الكريم} [الدخان: ٤٨، ٤٩] "(٣).

وقرئ {وَبَشّر}، على البناء للمفعول عطفاً على :أعدت، فيكون استئنافاً(٤).

قوله تعالى:{ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}[البقرة: ٢٥]، أي:"وحقّق تصديقَه ذلك قولا بأداء الصالح من الأعمال التي افترضتُها عليه "(٥).

قال الطبري:" وصدّقوا إيمانهم ذلك وإقرَارهم بأعمالهم الصالحة"(٦).

قال البغوي:" أي: أخلصوا الأعمال"(٧).

قال البيضاوي:{الصالحات]، "هي من الأعمال ما سوغه الشرع وحسنه. وعطف العمل على الإيمان مرتباً للحكم عليهما إشعاراً بأن السبب في استحقاق هذه البشارة مجموع الأمرين والجمع بين الوصفين، فإن الإيمان الذي هو عبارة عن التحقيق والتصديق أسٌّ، والعمل الصالح كالبناء عليه، ولا غناءَ بأسٍ لا بناء عليه، ولذلك قلما ذكرا منفردين. وفيه دليل على أنها خارجة عن مسمى الإيمان، إذ الأصل أن الشيء لا يعطفُ على نفسه ولا على ما هو داخل فيه"(٨).

قال ابن عثيمين:" أي: عملوا الأعمال الصالحات . وهي الصادرة عن محبة، وتعظيم لله عزّ وجلّ المتضمنة للإخلاص لله، والمتابعة لرسول الله؛ فما لا إخلاص فيه فهو فاسد؛ لقول الله تعالى في الحديث القدسي: "أنا أغنى الشركاء عن الشرك؛ من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه"(١) ؛ وما لم يكن على الاتّباع فهو مردود لا يقبل؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: "من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد"(٢)" (٩).

قال الزمخشري: {الصَّالِحَاتِ} "كل ما استقام من الأعمال بدليل العقل والكتاب والسنة ، واللام للجنس"(١٠).

قوله تعالى: {أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَار} [البقرة:٢٥]، أي:" أي بأن لهم حدائق وبساتين ذاتِ أشجار ومساكن، تجري من تحت قصورها ومساكنها أنهار الجنة"(١).

---

(١) تفسير النسفي: ٥٢/١.
(٢) تفسير البغوي: ٧٤/١.
(٣) تفسير ابن عثيمين:٨٩/١-٩٠، وانظر: زاد المسير: ٥٢/١.
(٤) تفسير: تفسير البيضاوي: ٥٩/١..
(٥) تفسير الطبري: ٣٨٤/١.
(٦) تفسير الطبري: ٣٨٣/٢٤.
(٧) تفسير البغوي: ٧٤/١.
(٨) تفسير: تفسير البيضاوي: ٥٩/١..
(١) أخرجه مسلم ص١١٩٥، كتاب الزهد، باب ٤: تحريم الرياء، حديث رقم ٧٤٧٥ [٤٦] ٢٩٨٥.
(٢) أخرجه البخاري ص٢١٤، كتاب الصلح، باب ٥: إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، حديث رقم ٢٦٩٧؛ وأخرجه مسلم ص٩٨٢ – ٩٨٣، كتاب الأقضية، باب ٨: نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، حديث رقم ٤٤٩٣ [١٨] ١٧١٨، واللفظ لمسلم.
(٩)تفسير ابن عثيمين:٩٠/١.
(١٠) تفسير الكشاف: ١٠٥/١.

قال ابن كثير:" أي : من تحت أشجارها وغرفها"[٢].
قال البغوي: "أي: من تحت أشجارها ومساكنها"[٣].
قال ابن عثيمين:"أي: تسيح من تحتها الأنهار"[٤].
و"الأنْهَار"، أي: "المياه في الأنهار لأن النهر لا يجري وقيل { من تحتها } أي بأمرهم لقوله تعالى حكاية عن فرعون {وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي} [الزخرف : ٥١] ، أي: بأمري والأنهار جمع نهر سمي به لسعته وضيائه. ومنه النهار. وفي الحديث "أنهار الجنة تجري في غير أخدود"[٥]"[٦].
عن مسروق، قال: نخل الجنة نَضيدٌ من أصْلها إلى فرعها، وثمرها أمثالُ القِلال، كلما نُزعت ثمرة عادتْ مكانها أخرى، وماؤها يَجري في غير أخدود"[٧].
قال الطبري:" وإنما رغَّب الله جل ثناؤه بهذه الآية عبادَه في الإيمان، وحضّهم على عبادته بما أخبرهم أنه أعدّه لأهل طاعته والإيمان به عنده، كما حذّرهم في الآية التي قبلها بما أخبر من إعداده ما أعدّ - لأهل الكفر به، الجاعلين معه الآلهة والأنداد - من عقابه عن إشراك غيره معه، والتعرّض لعقوبته بركوب معصيته وتَرك طاعته"[٨].
و"الجنات": جمع "جَنّة"، وهي لغة: "كل بستان ذي شجر يستر بأشجاره الأرض"[٩]، وعرفها صاحب لسان العرب، بقوله: "والجنة: البستان، ومنه الجنات، والعرب تسمي النخيل جنة..والجنة: الحديقة ذات الشجر والنخل، وجمعها جنان.. لاتكون الجنة في كلام العرب إلا وفيها نخل وعنب، فإن لم يكن فيها ذلك وكانت ذات شجر فهي حديقة وليست بجنة.. وقد ورد ذكر الجنة في القرآن العزيز والحديث الكريم في غير موضع.. وسميت بالجنة وهي المرة الواحدة من مصدر جنه جنا إذا ستره، فكأنما سَترةٌ واحدة لشدة التفافها وإظلالها"[١٠].
و"الجنة" :اصطلاحا كما قال الرازي: "ذكر الجنة بلام التعريف، فينصرف إلى ما هو المعلوم عند المسلمين، وليس ذلك إلا دار الثواب"[١١]. ويقول الصاوي: "والمراد منها دار الثواب"[١٢].
وإن الجنة من المسائل الغيبية، ومنهج أهل السنة والجماعة في إثبات هذه المسائل، يبينه صاحب تبصرة الأدلة، فيقول: " إن الدلائل السمعية وردت بثبوت عذاب القبر، فلا بد من القول بثبوته، ثم هو من الممكنات"[١٣].
يفهم من الكلام السابق، أن المسائل الغيبية، والتي منها عذاب القبر والجنة والنار، المنهج في إثباتها يكون على نقطتين، وهما:

---

(١) صفوة التفاسير: ٣٦/١.
(٢) تفسير ابن كثير: ٢٠٤/١.
(٣) تفسير البغوي: ٧٤/١.
(٤)تفسير ابن عثيمين:٩١/١.
(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف : ١٣ / ٩٦ ، وهناد في الزهد : ١ / ١٧١ ، والطبري في التفسير : ١ / ٣٨٤. والمروزي في زوائد الزهد ص (٥٢٤) وعزاه السيوطي أيضا لابن أبي حاتم وأبي الشيخ البيهقي في البعث وصححه عن ابن مسعود انظر : الدر المنثور : ١ / ٩٤ ، تفسير ابن كثير : ٤ / ١٧٧ ، والفتح السماوي ١ / ١٤٨.
(٦) تفسير البغوي: ٧٤/١.
(٧) أخرجه الطبري(٥٠٩):ص٣٨٤/١.
(٨) تفسير الطبري: ٣٨٥/٢٤.
(٩)المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان داوودي، دمشق، دار القلم، ط١، ١٩٩٢م، ص٢٠٤.
(١٠) انظر: ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، القاهرة، دار الحديث، دون ذكر رقم الطبعة، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م، ج٢، ص٢٣٥-٢٣٦.
(١١) الرازي، محمد بن عمر، الإشارة في أصول الكلام، تحقيق: محمد العايدي وربيع العايدي، عمان- الأردن، مركز نور العلوم، ط١، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م، ص٣٥٢.
(١٢) الصاوي، أحمد بن محمد، شرح الصاوي على جوهرة التوحيد، تحقيق: د. عبد الفتاح البزم، دمشق – بيروت، دار ابن كثير، ط٣، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م،ص٣٩٤.
(١٣) النسفي، أبو المعين ميمون، تبصرة الأدلة في أصول الدين, تحقيق وتعليق الأستاذ الدكتور حسين أتاي والدكتور شعبان علي دوزكون، رئاسة الشؤون الدينية للجمهورية التركية – أنقرة، ١٩٩٠م، دون ذكر رقم الطبعة، ج٢، ص ٣٦٥ .

١-أن الدليل السمعي ورد بها.
٢- أنها من جملة الممكنات عقلاً.
وكل ما هو كذلك وجب الثبوت له، وأنه حق لا مرية فيه ولا شك، وهذا ما فعله العلماء بالفعل عند إثباتهم لحقية الجنة، فعند حديثهم عن النقطة الأولى وهي ورود الدليل السمعي بالجنة، يقول اللقاني: "الجنة.. حق ثابتة بالكتاب والسنة واتفاق عظماء علماء الأمة، وكل ما هو كذلك فالإيمان به واجب"(١).
وعند حديثهم عن النقطة الثانية، بأن الجنة من جملة الممكنات العقلية، يقول صاحب تحرير المطالب: "أما الإمكان(٢) فأمر ضروري من جهة العقل"(٣)، فالجنة أمر ممكن، بل الإمكان ضروري، لا يتوقف على نظر أو استدلال، بل يعتبر الإمام السنوسي أن ثبوت حقية الجنة من المسائل التي تعلم من الدين بالضرورة، أي أن منكرها كافر، وفي ذلك يقول: "وأما الجنة.. فثبوتها مما علم من الدين ضرورة"(٤).
ويقول القاضي عبد الجبار: "فإن الأمة أجمعت على أن لا دار غير الجنة والنار"(٥)، فأهل السنة والمعتزلة لا خلاف بينهم في حقية الجنة والنار وثبوتهما.
وعند حديثنا عن مكان الجنة، نجد أن العلماء اختلفوا في مكانها، وفي هذا يقول الكومي:" اختلف العلماء في محلهما "(٦)، ويمكن أن نحصر أقوال العلماء في مكان الجنة بأربعة أقوال، وهي:
١- إن الجنة في العلو، دون الخوض في تحديد مكان في ذاك العلو، فيقول البزدوي: "الجنة في العلو"(٧).
٢- إن الجنة فوق السماوات السبع وتحت العرش، وقد مال الأكثرون من العلماء إلى هذا القول، حيث يقول العرياني: "والأكثرون على أن الجنة فوق السبع وتحت العرش، تمسكاً بقوله تعالى: {عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى(١٤) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى} (النجم: ١٤ – ١٥)، وقوله عليه السلام: (سقف الجنة عرش الرحمن)(٨)"(٩).
٣- ويرى بعض العلماء التوقف في هذه المسألة، وذلك بسبب تعارض ظواهر النصوص التي عينت مكاناً للجنة، فيقول القاري: "وقيل: بالوقف حيث لا يعلمه إلا الله تعالى"(١٠).
٤- في حين يرى بعض العلماء أن الأسلم في مثل هذه المسألة أن نفوض علم ذلك إلى الله تعالى، وممن ذكر من العلماء التفويض في هذه المسألة الكومي، حيث يقول: "والحق في ذلك تفويض العلم إلى الله"(١١).
بعد هذا العرض لأقوال العلماء في مكان الجنة، فالذي نراه أن الجنة لها مكان محدد بحدود علوية وسفلية، وذلك من خلال النقاط الثلاث الآتية:
١- أن الجنة عبارة عن جسم، وكل جسم لابد أن يكون له حدود تحده، ينتج من ذلك أن الجنة لها حدود تحدها، وتلك الحدود بينها لنا القرآن والسنة المطهرة.

---

(١) انظر: اللقاني، إبراهيم بن هارون، هداية المريد لجوهرة التوحيد، تحقيق: مروان حسين البجاوي، القاهرة، دار البصائر، ط١، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م، ص١١٠٢.
(٢) أي إمكان الجنة والنار.
(٣) الكومي، محمد بن أبي الفضل، تحرير المطالب لما تضمنته عقيدة ابن الحاجب، تحقيق: نزار حمادي، بيروت – لبنان، مؤسسة المعارف، ط١، ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م، ص٢٨٢.
(٤) السنوسي، محمد بن يوسف، شرح العقيدة الكبرى، تحقيق: السيد يوسف أحمد، بيروت - لبنان، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م، ص٤٤٠.
(٥) الهمذاني، عبد الجبار بن أحمد (ت٤١٥هـ)، شرح الأصول الخمسة، تحقيق: د. عبد الكريم عثمان، القاهرة، مكتبة وهبة، ط٤، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م، ص٦٢٣.
(٦) الكومي، تحرير المطالب لما تضمنته عقيدة ابن الحاجب، مرجع سابق، ص٢٨٣.
(٧) البزدوي، عبد الله بن محمد، أصول الدين، تحقيق: د. هانز بيتر لنس، القاهرة، المكتبة الأزهرية، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، ص١٧٠.
(٨) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب: وكان عرشه على الماء ٦/٢٧٠٠، حديث رقم:٦٩٨٧.
(٩) العرياني، خير القلائد شرح جواهر العقائد، ص١٨٣.
(١٠) القاري، علي بن سلطان، شرح كتاب الفقه الأكبر، علق عليه علي محمد دندل، بيروت - لبنان، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م، ص١٦٥-١٦٦.
(١١) الكومي، تحرير المطالب لما تضمنته عقيدة ابن الحاجب، ص٢٨٣.

٢- وعند بياننا لحد الجنة من العلو، فنقف عند حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يقول فيه: (سقف الجنة عرش الرحمن)(١)، فنفهم من هذا الحديث الشريف أن حدود الجنة من جهة الأعلى هو عرش الرحمن، يعني ذلك أن مكان الجنة تحت العرش.

٣- وأما عند ذكرنا لحد الجنة من جهة السفل، فنقف عند قول الله تعالى: {فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ} [الحديد: ١٣]، فهذه الآية الكريمة أخذت على عاتقها بيان حد الجنة من جهة السفل، وفي ذلك يقول الإمام الطبري: "وقد قيل: إن ذلك السور ببيت المقدس عند وادي جهنم.. حدثنا ابن البرقي، قال: ثنا عمرو بن أبي سلمة، عن سعيد بن عطية بن قيس، عن أبي العوّام مؤذّن بيت المقدس، قال: سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: إن السور الذي ذكره الله في القرآن: (فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ) هو السور الشرقيّ، باطنه المسجد، وظاهره وادي جهنم"(٢).

ويقول القرطبي: "والسور: حاجز بين الجنة والنار. وروي أن ذلك السور ببيت المقدس عند موضع يعرف بوادي جهنم. {باطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ}، يعني: ما يلي منه المؤمنين {وَظاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذابُ}، يعني: ما يلي المنافقين. قال كعب الأحبار: هو الباب الذي ببيت المقدس المعروف بباب الرحمة. وقال عبد الله بن عمرو: إنه سور بيت المقدس الشرقي باطنه فيه المسجد {وَظاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذابُ}، يعني: جهنم. ونحوه عن ابن عباس. وقال زياد بن أبي سوادة: قام عبادة ابن الصامت على سور بيت المقدس الشرقي فبكى، وقال: من ها هنا أخبرنا رسول الله ﷺ أنه رأى جهنم"(٣).

من خلال هذه المقدمات الثلاث يمكننا أن نحدد مكاناً للجنة، فالمقدمة الثانية بينت لنا أن سقف الجنة هو عرش الرحمن، فهذا حدها من جهة العلو الذي ثبت بالحديث الشريف، وحدها من جهة السفل عند سور ببيت المقدس عند موضع يعرف بوادي جهنم، كما ثبت ذلك بأقوال المفسرين للآية القرآنية السابقة.

وللجنة أسماء كثيرة مبثوثة الذكر في كتاب الله تعالى، وكثرة هذه الأسماء تدل على شرف المسمى في الغالب، وكانت على النحو الآتي:

- الجنة: وهو أشهر أسمائها، وقد ورد ذكره بقوله تعالى: {لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ} [الحشر: ٢٠].
- دار السلام: وقد ورد ذكره بقوله تعالى: {لَهُمْ دَارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ} [الأنعام: ١٢٧].
- دار المتقين: وقد ورد ذكره بقوله تعالى: {وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ} [النحل: ٣٠].
- دار الآخرة: وقد ورد ذكره بقوله تعالى: {وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ} [يوسف: ١٠٩].
- الحسنى: وقد ورد ذكره بقوله تعالى: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ} [يونس: ٢٦].
- دار المقامة: ورد ذكره بقوله تعالى: {الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ} [فاطر:٣٥].

ويذكر اللقاني بعض أسمائها، فيقول: "أوسطها وأفضلها الفردوس، وهو أعلاها، وفوقها عرش الرحمن، ومنها تنفجر أنهار الجنة - كما جاء في الحديث(٤)، وجنة المأوى، وجنة الخلد، وجنة النعيم، وجنة عدن، ودار السلام، ودار الخلد"(٥)، لقد ذكر اللقاني أسماء الجنة التي ترغب في طلبها، لما لهذه الأسماء من مزيد حب في نفس طلابها، لدلالة هذه الأسماء على الخلود والإقامة والراحة والدعة.

وقد ذكر الله تعالى أوصاف الجنة، وأنهارها وظلها، فيقول سبحانه: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاً ظَلِيلاً} [النساء: ٥٧].

ويصف لنا سبحانه الجنة بأن لها أبواباً، فيقول تعالى: {وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ} [الزمر: ٧٣].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب: وكان عرشه على الماء ٦/ ٢٧٠٠، حديث رقم:٦٩٨٧.
(٢) الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م، ج٢٣ ص١٨٣.
(٣) القرطبي، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، ط٢، ١٣٨٤ه-١٩٦٤م، ج١٧ص٢٤٦.
(٤) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب: وكان عرشه على الماء ٦/ ٢٧٠٠، حديث رقم:٦٩٨٧.
(٥) انظر: اللقاني، هداية المريد لجوهرة التوحيد، ص١١٠٢.

ويصف لنا ربنا سبحانه وتعالى سعتها، فيقول تعالى: {سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ} [الحديد: ٢١].

ويصف لنا الله تعالى الجنة بأنها ذات عيون كثيرة مختلفة الطعم واللذة، يقول تعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِينَ} [الحجر: ٤٥- ٤٦].

ويصف لنا الله تعالى شجر الجنة، فيقول تعالى: {فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَمْدُودٍ} [الواقعة: ٢٨-٣٠].

ويصف الله تعالى فاكهة الجنة، فيقول: {وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ} [الواقعة:٣٢–٣٣].

ويصف لنا النبي ﷺالجنة، فيقول: "قال الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر"(١).

وعن عبد الله بن قيس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "جنان الفردوس أربع: ثنتان من ذهب حليتهما وآنيتهما وما فيهما، وثنتان من فضة آنيتهما وحليتهما وما فيهما، وليس بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم عز وجل إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن، وهذه الأنهار تشخب من جنة عدن ثم تصدع بعد ذلك أنهاراً"(٢).

وقد أخبر الله تعالى أن للجنة أبوابًا في قوله تعالى: {وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ} [الزمر : ٧٣].

كما أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن للجنة أبوابًا :

- عن أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :" إِذَا دَخَلَ رَمَضَانُ فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ وَسُلْسِلَتْ الشَّيَاطِينُ"(٣).

وأخبر أنها ثمانية أبواب:

- عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :"فِي الْجَنَّةِ ثَمَانِيَةُ أَبْوَابٍ ."(٤).

- عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: "مَنْ قَالَ: أَشْهَدُ أَن لَا إِلَهَ إِلا الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَابْنُ أَمَتِهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ، وَأَنَّ النَّارَ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللهُ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ شَاءَ"(٥).

قوله تعالى:{كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً}[البقرة:٢٦]، "أي: كلما أعطوا عطاءً ورُزقوا رزقاً من ثمار الجنة"(٦).

قال القاسمي: أي كلما: "أطعموا من تلك الجنات"(٧).

قال البغوي: "أي: متى ما أطعموا من الجنة ثمرة"(٨).

قوله تعالى: {قَالُواْ هذا الذي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ}[البقرة:٢٦]، "أي هذا مثلُ الطعام الي قُدِّم إلينا قبل هذه المرة"(٩).

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الجنة، باب صفة الجنة، رقم٧٠٦٣. (النووي، محي الدين، المنهاج شرح صحيح مسلم، بيروت - لبنان، دار المعرفة، ط٦، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

(٢) أخرجه أحمد (١٩٦٨٢) مسند الكوفيين من حديث أبي موسى الأشعري. بهذا اللفظ. مسند الإمام أحمد، تحقيق: شعيب الأرناؤوط – عادل مرشد، وآخرون، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م. والبخاري نحوه، كتاب التوحيد، باب: قوله تعالى: وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة، برقم (٧٠٠٦).

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه – كتاب الصوم – باب هل يقال رمضان أو شهر رمضان حديث رقم (١٨٠٩) ، وأخرجه مسلم فى صحيحه – كتاب الصيام – باب فضل شهر رمضان حديث رقم (١٨٥٨).

(٤)رواه البخاري (٣٠١٧).

(٥) أخرجه مسلم حديث (٢٨)، وأخرجه البخاري في "كتاب الأنبياء" "باب (يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق)" حديث (٣٤٣٥).

(٦) صفوة التفاسير: ٣٦/١.

(٧) محاسن التأويل: ٢٢٧/١.

(٨) تفسير البغوي: ٧٣/١.

(٩) صفوة التفاسير: ٣٦/١.

قال ابن كثير: " مثل الذي كان بالأمس"[١].

واختلفوا في قوله تعالى{كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ}[البقرة:٢٥] على ثلاثة أقوال[٢]:

القول الأول : أن معناه : أن هذا الذي رُزِقْنَاهُ من ثمار الجنة ، مثلُ الذي رُزِقْنَاهُ من ثمار الدنيا ، وهذا قول ابن مسعود[٣] وابن عباس و السدي، ومجاهد[٤] وقتادة[٥]، وابن زيد[٦]، ورجّحه الطبري[٧].

وقولهم هذا على وجه التعجب، وليس في الدنيا شيء مما في الجنة سوى الأسماء، فكأنهم تعجبوا لما رأوه من حسن الثمرة وعظم خلقها[٨].

وعلى هذا القول، يكون معنى: {مِنْ قَبْلُ} : أي: في الدنيا، وفيه وجهان[٩]:

أحدهما: أنهم قالوا هذا الذي وعدنا به في الدنيا.

والثاني: هذا الذي رزقنا في الدنيا ; لأن لونها يشبه لون ثمار الدنيا، فإذا أكلوا وجدوا طعمه غير ذلك[١٠].

والقول الثاني: أن ثمار الجنة إذا جنيت من أشجارها ، استخلف مكانها مثلها ، فإذا رأوا ما استخلف بعد الذي جُنِي ، اشتُبه عليهم ، فقالوا :{هذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْل}، وهو قول أبي عبيدة[١١]، ويحيى بن أبي كثير[١٢].

وعلى هذا فإن قوله تعالى {من قبل}، يعني في الجنة لأنهم يرزقون ثم يرزقون، فإذا أتوا بطعام وثمار في أول النهار فأكلوا منها، ثم أتوا منها في آخر النهار قالوا: هذا مثل الذي كان بالأمس، لشدة مشابهة بعضه بعضًا، لقوله تعالى:{وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا}، فإذا أكلوا منها وجدوا لها طعما غير طعم الأول، وكذا قال الربيع بن أنس وقال مجاهد: يقولون : ما أشبهه به! [١٣].

والقول الثالث: وقيل معناه: خيارا لا رذل فيه، كقوله تعالى : {كِتَاباً مُتَشَابِهاً} [الزمر : ٢٣]، وليس كثمار الدنيا التي لا تتشابه، لأن فيها خيارا وغير خيار[١٤].

والراجح هو القول الأول، أي: أنهم كلما رزقوا من ثمارها رزقا قالوا: هذا كما رزقنا من قبل في الدنيا؛ وإنما اشتبه عليهم، لأن الله أجرى لهم ما يعرفون شكله، ولكن طعم ثمار الجنة فوق الوصوف حلاوةً.وذلك لكون الكلام لا يستقيم أن يقولوا ذلك عن ثمار الجنة وتشابهها شكلا ولونا مرةً بعد مرةً في أول دخولهم فيها ولم يذوقوا من ثمارها شئ[١٥]، وهكذا وجه الطبري رأيه وهو حسن في باب النظر في وجوه الكلام.

قوله تعالى: {وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً}[البقرة:٢٦]، "أي: متشابهاً في الشكل والمنظر، لا في الطعم والمَخْبر"[١٦].

قال الطبري:" وأتوا بالذي رُزِقوا من ثمارها متشابهًا"[١٧].

---

(١) تفسير ابن كثير:٢٠٤/١.
(٢) انظر: تفسير ابن كثير: ٢٠٤/١.
(٣) انظر: تفسير الطبري(٥١٢):ص٣٨٥/١-٣٨٦.
(٤) أنظر: تفسير الطبري(٥٢٤)، و(٥١٥):ص٣٨٦/١.
(٥) انظر: تفسير الطبري(٥١٣):ص:٣٨٦/١.
(٦) انظر: تفسير الطبري(٥١٦):ص:٣٨٦/١.
(٧) انظر: تفسير الطبري: ٣٨٧/١-٣٨٨.
(٨) انظر: تفسير القرطبي: ٢٤٠/١.
(٩) انظر: تفسير القرطبي: ٢٤٠/١.
(١٠) انظر: تفسير القرطبي: ٢٤٠/١.
(١١) انظر: تفسير الطبري(٥١٧):ص:٣٨٦/١.
(١٢) أنظر: تفسير الطبري(٥١٨):ص٣٨٧/١.
(١٣) انظر: تفسير الطبري: ٣٨٦/١، وتفسير القرطبي: ٢٤٠/١.
(١٤) انظر: تفسير الطبري: ٣٨٦/١، وتفسير القرطبي: ٢٤٠/١.
(١٥) انظر: تفسير الطبري: ٣٨٧/١-٣٨٨.
(١٦) صفوة التفاسير: ٣٦/١.
(١٧) تفسير الطبري:٣٨٩/١.

وذكر أهل التفسير في قوله تعالى:{وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً}، أربعة أقوال [١]:
أحدها : أن معنى التشابه أن كله خيار يشبه بعضه بعضاً وليس كثمار الدنيا ، التي لا تتشابه لأن فيها خياراً وغير خيار ، وهذا قول الحسن[٢]، وقتادة[٣]، وابن جريج[٤].
الثاني : أن التشابه في اللون دون الطعم فكأن ثمار الجنة في ألوان ثمار الدنيا ، وإن خالفتها في الطعم ، وهذا قول ابن عباس[٥]، ومجاهد[٦]، وابن مسعود والربيع بن أنس[٧]، وقتادة[٨]، وعكرمة[٩].
الثالث: أن التشابُه في اللون والطعم، قاله مجاهد[١٠]، وويحيى بن سعيد[١١].
الرابع : أن التشابه في الأسماء دون الألوان والطعوم ، فلا تشبه ثمار الجنة شيئاً من ثمار الدنيا في لون ولا طعم ، وهذا قول ابن الأشجعي[١٢]، وابن عباس[١٣]، وعبدالرحمن بن زيد[١٤].
والراجح-والله أعلم- أن التشابه، في اللون والمنظر، والطعمُ مختلف، بدليل قوله تعالى: { كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ} [البقرة : ٢٥]، "كلما رُزقوا من الجِنان من ثمرة من ثمارها رزقًا قالوا : هذا الذي رُزقنا من قبل هذا في الدنيا : فأخبر الله جل ثناؤه عنهم أنهم قالوا ذلك ، ومن أجل أنهم أتُوا بما أتوا به من ذلك في الجنة متشابهًا ، يعني بذلك تشابه ما أتوا به في الجنة منه ، والذي كانوا رُزقوه في الدنيا ، في اللون والمرأى والمنظر ، وإن اختلفا في الطعم والذوق ، فتباينا ، فلم يكن لشيء مما في الجنة من ذلك نظير في الدنيا"[١٥].
قوله تعالى:{ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ }[البقرة:٢٥]، "أي: ولهم في الجنة زوجاتٌ من الحور العين مطهَّرات من الأقذار والأدناس الحسية والمعنوية"[١٦].
قال الطبري: قوله { مطهَّرة}، أي: " أنهن طُهِّرن من كل أذًى وقذًى وريبةٍ ، مما يكون في نساء أهل الدنيا ، من الحيض والنفاس والغائط والبول والمخاط والبُصاق والمنيّ ، وما أشبه ذلك من الأذى والأدناس والريب والمكاره"[١٧].
قال القاسمي: أي: مطهرة" من الحيض والاستحاضة وما لا يختص بهنّ من الأقذار والأدناس، ويجوز لمجيئه مطلقاً ، أن يدخل تحته الطهر من دنَس الطباع ، وسوء الأخلاق وسائر مثالبهن وكيدهنّ"[١٨].
وقوله {أزواج} : جمع زوج، والمرأة : زوج الرجل، والرجل زوج المرأة، قال الأصمعي : ولا تكاد العرب تقول زوجة، وحكى الفراء أنه يقال: زوجة(١٩)، ولم يسمع في فصيح الكلام، ولذلك عدّه بعض أهل اللغة لحناً، وكان الأصمعي ينكره أشد الإنكار، وكان يحتج بقوله تعالى: {أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ} [الأحزاب : ٣٧]، فقيل له: أنها وردت في شعر ذي الرمّة[٢٠]:

---

(١) أنظر: النكت والعيون: ٨٦/١.
(٢) أنظر: تفسير الطبري(٥١٩)، و(٥٢٠)، و(٥٢١):ص٣٨٩/١.
(٣) أنظر: تفسير الطبري(٥٢٢):ص٣٨٩/١-٣٩٠.
(٤) أنظر: تفسير الطبري(٥٢٣):ص٣٩٠/١.
(٥) أنظر: تفسير الطبري(٥٢٤):ص٣٩٠/١.
(٦) أنظر: تفسير الطبري(٥٢٥)، و(٥٢٦)، و(٥٢٨)، و(٥٢٩):ص٣٩٠/١-٣٩١.
(٧) أنظر: تفسير الطبري(٥٢٧):ص٣٩٠/١.
(٨) أنظر: تفسير الطبري(٥٣٢):ص٣٩١/١.
(٩) أنظر: تفسير الطبري(٥٣٣):ص٣٩١/١.
(١٠) أنظر: تفسير الطبري(٥٣٠)، و(٥٣١):ص٣٩١/١.
(١١) أنظر: تفسير الطبري(٥٣١):ص٣٩١/١.
(١٢) أنظر: تفسير الطبري(٥٣٤):ص٣٩١/١-٣٩٢.
(١٣) أنظر: تفسير الطبري(٥٣٥):ص٣٩٢/١.
(١٤) أنظر: تفسير الطبري(٥٣٦):ص٣٩٢/١.
(١٥) تفسير الطبري: ٣٩٢/١.
(١٦) صفوة التفاسير: ٣٦/١.
(١٧) تفسير الطبري:٣٩٥/١.
(١٨) محاسن التأويل: ٢٢٧/١.
(١٩) انظر: تفسير الطبري: ٣٨٦/١، وتفسير القرطبي: ٢٤٠/١.
(٢٠) ديوانه: ١٠٢.

أذو زوجة بالمصرِ أمْ ذو خصومة ... أراك لها بالبصرة العام ثاويا

فقال: إنّ ذا الرّمة طالما أكل المالح والبقْل في حوانيت البقالين[١]، يريد أنّه مولّد[٢]، والصحيح أن الصيغتين كليهما فصيحة، وقد رواها ابن السكيت[٣].

وأنشد الفرزدق[٤] :

وإن الذي يسعى ليفسد زوجتي ... كساع إلى أسد الشرى يستبيلها

وشاع ذلك في كلام الفقهاء، قصدوا به التفرقة بين الرجل والمرأة عند ذكر الأحكام، وهي تفرقة حسنة.

وقال عمار بن ياسر في شأن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها : "إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّهَا زَوْجَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ ابْتَلاَكُمْ لِتَتَّبِعُوهُ أَوْ إِيَّاهَا"[٥].

واختلف في تفسير قوله تعالى :{وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ}[البقرة:٢٥] على أقوال[٦]:

أحدها: مطهرة من القذر والأذى، وهو قول ابن عباس[٧].

والثاني: وقيل: من الحيض والغائط والبول والنخام والبزاق والمني والولد، وهو قول مجاهد[٨]، وروي نحوه عن عطاء[٩].

والثالث: وقيل: مطهرة من الأذى والمأثم، وهو قول قتادة[١٠].

والرباع: وقيل: مطهرة من الحيض. وهو قول عبدالرحمن بن زيد[١١]، والحسن[١٢].

والقول الراجح: أن قوله تعالى{ مُطَهَّرَةٌ}، يشمل طهارة الظاهر وطهارة الباطن، أي: "أنهن طُهِّرن من كل أذًى وقَذًى وريبةٍ، مما يكون في نساء أهل الدنيا، من الحيض والنفاس والغائط والبول والمخاط والبُصاق والمنيّ، وما أشبه ذلك من الأذى والأدناس والريب والمكاره"[١٣].

قوله تعالى: {وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[البقرة:٢٦]، "أي" دائمون لا يموتون فيها ولا يخرجون منها"[١٤].

قال سعيد بن جبير: "يعني: لا يموتون"[١٥].

قال ابن عباس:" أي: خالدون أبدا، يخبرهم أن الثواب بالخير والشر مقيم على أهله أبدا لا انقطاع

---

(١) انظر: المزهر، السيوطي: ١٤/١.

(٢) تفسير ابن عاشور: ٣١٤/٣.

(٣) انظر: النقد اللغوي بين التحرر والجمود، د. نعمة رحيم العزاوي:٣٤. وقيل بأن ابن منظور رمى الأصمعي بالتشدد(انظر: لسان العرب مادة(زوج).

(٤) ديوانه: ٦١/٢. وفي اللسان (زوع) : « يستبيلها » ، أي : يطلب بولها.وفيه (بول) : « يفسد » بدل « يحرش » و « تستبيلها » أيضاً.

(٥)صحيح البخاري- الفتن - الفتنة التي تموج كموج البحر - رقم الحديث : (٦٥٧١). وفي هذا الحديث فائدة عظيمة وكنز ثمين لمن أراد ذلك فعمار ابن ياسر وعلى الرغم من أنه كان في جيش علي بن ابي طالب كرم الله وجهه ولم يكن في هذا مع السيدة عائشة رضي الله عنها فلم يمنعه ذلك من أن يقول أنها زوجة رسول الله في الدنيا والاخرة وهذه والله وحدها تكفينا من هذا الحديث. أما قوله "ولكن الله ابتلاكم لتتبعوه، " فهو خرج مع أمير المؤمنين مجتهداً في ذلك ويرى أنه على صواب والسيدة عائشة رضوان الله عليها ايضاً خرجت تطلب دم عثمان وايضاً اجتهدت في ذلك وترى أنها على صواب ونحن هنا لانقول أن الحق مع عائشة رضي الله عنها أو مع أمير المؤمنين كرم الله وجهه ولكن نقول كما قال أهل السنة والجماعة: ماحدث بين الصحابة عنه نسكت وأجر الاجتهاد لهم نثبت. وهؤلاء قوم عصم الله عنا دماءهم أفلا نعصم السنتنا عنهم.

(٦) انظر: تفسير ابن كثير: ٢٠٥/١.

(٧) أنظر: تفسير الطبري(٥٣٨)، و(٥٣٩):ص٣٩٥/١.

(٨) أنظر: تفسير الطبري(٥٤٠)، و(٥٤١)، و(٥٤٢)، و(٥٤٣)، و(٥٤٤)، و(٥٤٩):ص٣٩٥/١-٣٩٦.

(٩) أنظر: تفسير الطبري(٥٥٣):ص٣٩٧/١.

(١٠) أنظر: تفسير الطبري(٥٤٦)، و(٥٤٧)، و(٥٤٨):ص٣٩٦/١.

(١١) أنظر: تفسير الطبري(٥٥٠):ص٣٩٦/١.

(١٢) أنظر: تفسير الطبري(٥٥١، و(٥٥٢)):ص٣٩٧/١.

(١٣) تفسير الطبري: ٣٩٥/١.

(١٤) تفسير البغوي: ٧٤/١.

(١٥) أخرجه ابن أبي حاتم(٢٦٩):ص٦٨/١.

(١٦) أخرجه ابن أبي حاتم(٢٦٨):ص٦٨/١.

قال ابن عثيمين:أي:" ماكثون لا يخرجون منها"(١).
قال ابن كثير:" هذا هو تمام السعادة ، فإنهم مع هذا النعيم في مقام أمين من الموت والانقطاع فلا آخر له ولا انقضاء ، بل في نعيم سرمدي أبدي على الدوام ، والله المسؤول أن يحشرنا في زمرتهم ، إنه جواد كريم ، بر رحيم"(٢).
الفوائد:
١. من فوائد الآية: مشروعية تبشير الإنسان بما يسر؛ لقوله تعالى: {وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات}؛ ولقول الله تبارك وتعالى: {وبشرناه بإسحاق نبيًّا من الصالحين} [الصافات:١١٢]، وقوله تعالى: {وبشروه بغلام عليم} [الذاريات: ٢٨] ، وقوله تعالى: {فبشرناه بغلام حليم} [الصافات: ١٠١] ؛ فالبشارة بما يسر الإنسان من سنن المرسلين . عليهم الصلاة والسلام؛ وهل من ذلك أن تبشره بمواسم العبادة، كما لو أدرك رمضان، فقلت: هنّاك الله بهذا الشهر؟ الجواب: نعم؛ وكذلك أيضاً لو أتم الصوم، فقلت: هنّأك الله بهذا العيد، وتقبل منك عبادتك وما أشبه ذلك؛ فإنه لا بأس به، وقد كان من عادة السلف.
٢. ومن فوائد الآية: أن الجنات لا تكون إلا لمن جمع هذين: الإيمان، والعمل الصالح.
فإن قال قائل: في القرآن الكريم ما يدل على أن الأوصاف أربعة: الإيمان؛ والعمل الصالح؛ والتواصي بالحق؛ والتواصي بالصبر؟
فالجواب: أن التواصي بالحق، والتواصي بالصبر من العمل الصالح، لكن أحياناً يُذكر بعض أفراد العام لعلة من العلل، وسبب من الأسباب.
٣. ومنها: أن جزاء المؤمنين العاملين للصالحات أكبر بكثير مما عملوا، وأعظم؛ لأنهم مهما آمنوا، وعملوا فالعمر محدود، وينتهي؛ لكن الجزاء لا ينتهي أبداً؛ هم مخلدون فيه أبد الآباد؛ كذلك أيضاً الأعمال التي يقدمونها قد يشوبها كسل؛ قد يشوبها تعب؛ قد يشوبها أشياء تنقصها، لكن إذا منّ الله عليه، فدخل الجنة فالنعيم كامل.
٤. ومنها: أن الجنات أنواع؛ لقوله تعالى: { جنات }؛ وقد دل على ذلك القرآن، والسنة؛ فقال الله تعالى: {ولمن خاف مقام ربه جنتان} [الرحمن: ٤٦] ، ثم قال تعالى: {ومن دونهما جنتان} [الرحمن: ٦٢] ؛ وقال النبي صلى الله عليه وسلم "جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما؛ وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما(١) ".
٥. ومنها: تمام قدرة الله عزّ وجلّ بخلق هذه الأنهار بغير سبب معلوم، بخلاف أنهار الدنيا؛ لأن أنهار الماء في الدنيا معروفة أسبابها؛ وليس في الدنيا أنهار من لبن، ولا من عسل، ولا من خمر؛ وقد جاء في الأثر(٢) أنها أنهار تجري من غير أخدود . يعني لم يحفر لها حفر، ولا يقام لها أعضاد تمنعها؛ بل النهر يجري، ويتصرف فيه الإنسان بما شاء . يوجهه حيث شاء؛ قال ابن القيم رحمه الله في النونية:.
أنهارها في غير أخدود جرت سبحان ممسكها عن الفيضان ٦ . ومن فوائد الآية: أن من تمام نعيم أهل الجنة أنهم يؤتون بالرزق متشابهاً؛ وكلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا: هذا الذي رُزقنا من قبل؛ وهذا من تمام النعيم، والتلذذ بما يأكلون.
٧. ومنها: إثبات الأزواج في الآخرة، وأنه من كمال النعيم؛ وعلى هذا يكون جماع، ولكن بدون الأذى الذي يحصل بجماع نساء الدنيا؛ ولهذا ليس في الجنة مَنِيّ، ولا مَنِيَّة؛ والمنيّ الذي خلق في الدنيا إنما خُلق لبقاء النسل؛ لأن هذا المنيّ مشتمل على المادة التي يتكون منها الجنين، فيخرج بإذن الله تعالى ولداً؛ لكن في الآخرة لا يحتاجون إلى ذلك؛ لأنه لا حاجة لبقاء النسل؛ إذ إن الموجودين سوف يبقون أبد الآبدين لا يفنى منهم أحد؛ ثم هم ليسوا بحاجة إلى أحد يعينهم، ويخدمهم؛ الولدان تطوف عليهم بأكواب، وأباريق، وكأس من معين؛ ثم هم لا يحتاجون إلى أحد يصعد الشجرة ليجني ثمارها؛ بل الأمر فيها كما قال الله تعالى: {وجنى

(١) تفسير ابن عثيمين:٩٣/١.
(٢) تفسير ابن كثير: ٢٠٦/١. وانظر: محاسن التأويل:٢٧٧/١.

(١) أخرجه البخاري ص٤١٧، كتاب التفسير، سورة الرحمن، باب ١: قوله: (ومن دونهما جنتان..)، حديث رقم ٤٨٧٨؛ وأخرجه مسلم ص٧٠٩، كتاب الإيمان، باب ٨٠: إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى، حديث رقم ٤٤٨ [٢٩٦] ١٨٠.
(٢) أخرج الطبري هذا الأثر في تفسيره عن مسروق ٣٨٤/١، رقم ٥٠٩ن ٥١٠، ٥١١؛ ورجاله ثقات.

الجنتين دان} [الرحمن: ٥٤] ، وقال تعالى: {قطوفها دانية} [الحاقة: ٢٣] ؛ حتى ذكر العلماء أن الرجل ينظر إلى الثمرة في الشجرة، فيحسّ أنه يشتهيها، فيدنو منه الغصن حتى يأخذها؛ ولا تستغرب هذا؛ فنحن في الدنيا نشاهد أن الشيء يدنو من الشيء بغير سلطة محسوسة؛ وما في الآخرة أبلغ، وأبلغ.

٨. ومن فوائد الآية: أن أهل الجنة خالدون فيها أبد الآباد؛ لا يمكن أن تفنى، ولا يمكن أن يفنى من فيها؛ وقد أجمع على ذلك أهل السنة والجماعة.

القرآن

{إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (٢٦)} [البقرة : ٢٦]

التفسير:

إن الله لا يمنعه الحياء من أن يضرب مثلا كان بعوضة أم أدنى منها، لاشتمال الأمثال على الحكمة، وإيضاح الحق، والله لا يستحيي من الحق، فأما الذين آمنوا فيتفهمونها، ويتفكرون فيها، فإن علموا ما اشتملت عليه على وجه التفصيل، ازداد بذلك علمهم وإيمانهم، وإلا علموا أنها حق، وما اشتملت عليه حق، وإن خفي عليهم وجه الحق فيها لعلمهم بأن الله لم يضربها عبثا، بل لحكمة بالغة، ونعمة سابغة، فيعترضون ويتحيرون، فيزدادون كفرا إلى كفرهم، كما ازداد المؤمنون إيمانا على إيمانهم، الخارجين عن طاعة الله، وما يضل به إلا المعاندين لرسل الله; الذين صار الفسق وصفهم; فلا يبغون به بدلا فاقتضت حكمته تعالى إضلالهم لعدم صلاحيتهم للهدى، كما اقتضت حكمته وفضله هداية من اتصف بالإيمان وتحلى بالأعمال الصالحة.

اختلف في سبب نزول هذه الآية على أقوال[١]:

أحدها: قال ابن عباس: "لما ضرَب الله هذين المثلين للمنافقين - يعني قوله : {مثلهم كمثل الذي استوقد نارًا}، وقوله : {أو كصيِّب من السماء}، الآيات الثلاث - قال المنافقون : الله أعلى وأجلّ من أنْ يضرب هذه الأمثال ، فأنزل الله :{إن الله لا يستحي أنْ يضرب مثلا ما بعوضةً}، إلى قوله : {أولئك همُ الخاسرُون}". قاله ابن عباس[٢]، وابن مسعود[٣].

والثاني: وقال قتادة: "لما ذكر الله العنكبوت والذباب ، قال المشركون : ما بال العنكبوت والذباب يذكران ؟ فأنزل الله : {إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها"[٤]. ونقل الواحدي عن الحسن[٥] مثل ذلك.

والثالث: وهو قول الربيع- ان :" هذا مثل ضربه الله للدنيا ، إن البعوضة تحيا ما جاعتْ ، فإذا سمنت ماتتْ. وكذلك مثل هؤلاء القوم الذين ضرب الله لهم هذا المثل في القرآن : إذا امتلأوا من الدنيا ريًّا أخذَهم الله عند ذلك. قال : ثم تلا:{فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ } [سورة الأنعام : ٤٤]"[٦].

والرابع: أخرج الواحدي "عن ابن عباس في قوله: {إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا} قال: وذلك أن الله ذكر آلهة المشركين، فقال: {وإن يسلبهم الذباب شيئا} وذكر كيد الآلهة فجعله كبيت العنكبوت، فقالوا: أرأيت

---

(١) انظر:أسباب النزول للواحدي: ٢٣-٢٤، والعجاب في بيان الأسباب: ١/٢٤٥-٢٤٦، و تفسير ابن كثير: ١/٢٠٦-٢٠٧.

(٢) انظر: تفسير الطبري(٥٥٤):ص١/٣٩٩.

(٣) انظر: تفسير الطبري(٥٥٤):ص١/٣٩٩.

(٤) أخرجه الطبري(٥٥٨):ص١/٤٠٠، وانظر(٥٥٦):ص١/٣٩٩-٤٠٠.

(٥) انظر:أسباب النزول للواحدي: ٢٣، قال الواحدي: "وقال الحسن وقتادة: لما ذكر الله الذباب والعنكبوت في كتاب وضرب للمشركين به المثل ضحكت اليهود وقالوا: ما يشبه هذا كلام الله. فأنزل الله هذه الآية". وانظر: تفسير عبد الرزاق (١/٦٤).

(٦) أخرجه الطبري(٥٥٥):ص١/٣٩٩. وفي رواية أخرى عنه بنحوه، " إلا أنه قال : فإذا خلتْ آجالهم وانقطعت مُدّتهم (٢) ، صاروا كالبعوضة تحيا ما جاعت ، وتموت إذا رَويت ، فكذلك هؤلاء الذين ضرب الله لهم هذا المثل ، إذا امتلئوا من الدنيا ريًّا أخذهم الله فأهلكهم. فذلك قوله : (حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ) [سورة الأنعام : ٤٤]". [تفسير الطبري:(٥٥٦):ص١/٣٩٩].

حيث ذكر الله الذباب والعنكبوت فيما أنزل من القرآن على محمد، أي شيء يصنع بهذا؟ فأنزل الله هذه الآية"(١).

والقول الأول هو الأقرب إلى الصواب، قال الماوردي، "وتأويل الربيع أحسن، والأولُ أشبَهُ"(٢).

وقد اختار القول الأول ، الإمام الطبري(٣)، "لأنه أمس بالسورة، وهو مناسب، وذلك أنّ الله جلّ ذكره أخبر عباده أنه لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها، عَقِيب أمثالٍ قد تقدمت في هذه السورة، ضربها للمنافقين، دون الأمثال التي ضربها في سائر السور غيرها. فلأن يكون هذا القول - أعني قوله : " إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما " - جوابًا لنكير الكفار والمنافقين ما ضرب لهم من الأمثال في هذه السورة، أحقّ وأولى من أن يكون ذلك جوابًا لنكيرهم ما ضرب لهم من الأمثال في غيرها من السور"(٤).

قال الزمخشري:" سيقت هذه الآية لبيان أنّ ما استنكره الجهلة والسفهاء وأهل العناد والمراء من الكفار واستغربوه من أن تكون المحقرات من الأشياء مضروبا بها المثل، ليس بموضع للاستنكار والاستغراب، من قبل أنّ التمثيل إنما يصار إليه لما فيه من كشف المعنى ورفع الحجاب عن الغرض المطلوب، وإدناء المتوهم من المشاهد. فان كان المتمثل له عظيما كان المتمثل به مثله، وإن كان حقيرا كان المتمثل به كذلك. فليس العظم والحقارة في المضروب به المثل إذاً إلا أمراً تستدعيه حال المتمثل له وتستجرّه إلى نفسها، فيعمل الضارب للمثل على حسب تلك القضية. ألا ترى إلى الحق لما كان واضحاً جلياً أبلج، كيف تمثل له بالضياء والنور؟ وإلى الباطل لما كان بضد صفته، كيف تمثل له بالظلمة؟ ولما كانت حال الآلهة التي جعلها الكفار أنداداً للّه تعالى لا حال أحقر منها وأقلّ، ولذلك جعل بيت العنكبوت مثلها في الضعف والوهن، وجعلت أقلّ من الذباب وأخس قدرا، وضربت لها البعوضة فالذي دونها مثلا لم يستنكر ولم يستبدع، ولم يقل للمتمثل: استحى من تمثيلها بالبعوضة، لأنه مصيب في تمثيله، محق في قوله، سائق للمثل على قضية مضربه، محتذ على مثال ما يحتكمه ويستدعيه، ولبيان أنّ المؤمنين الذين عادتهم الإنصاف والعمل على العدل والتسوية والنظر في الأمور بناظر العقل، إذا سمعوا بمثل هذا التمثيل علموا أنه الحق الذي لا تمرّ الشبهة بساحته، والصواب الذي لا يرتع الخطأ حوله. وأنّ الكفار الذين غلبهم الجهل على عقولهم، وغصبهم على بصائرهم فلا يتفطنون ولا يلقون أذهانهم، أو عرفوا أنه الحق إلا أنّ حب الرياسة وهوى الألف والعادة لا يخليهم أن ينصفوا، فإذا سمعوه عاندوا وكابروا وقضوا عليه بالبطلان، وقابلوه بالإنكار، وأنّ ذلك سبب زيادة هدى المؤمنين وانهماك الفاسقين في غيهم وضلالهم. والعجب منهم كيف أنكروا ذلك وما زال الناس يضربون الأمثال بالبهائم والطيور وأحناش الأرض والحشرات والهوام، وهذه أمثال العرب بين أيديهم مسيرة في حواضرهم وبواديهم قد تمثلوا فيها بأحقر الأشياء فقالوا: أجمع من ذرّة، وأجرأ من الذباب، وأسمع من قراد، وأصرد من جرادة (٥)، وأضعف من فراشة، وآكل من السوس. وقالوا في البعوضة: أضعف من بعوضة، وأعز من مخ البعوض. وكلفتني مخ البعوض. ولقد ضربت الأمثال في الإنجيل بالأشياء المحقرة، كالزوان والنخالة (٦)وحبة الخردل، والحصاة، والأرضة، والدود، والزنابير. والتمثيل بهذه الأشياء وبأحقر منها مما لا تغنى استقامته وصحته على من به أدنى مسكة، ولكن ديدن المحجوج المبهوت الذي لا

---

(١) أخرجه الواحدي في أسباب النزول: ٢٣، وهذا إسناد ضعيف جدا لضعف عبد الغني بن سعيد - وفي نسخة أحمد صقر: عبد العزيز بن سعيد - (لباب النقول: ٩) وموسى بن عبد الرحمن (ميزان الاعتدال: ٢١١/٤) وعنعنة ابن جريج وهو ثقة يدلس (تهذيب التهذيب: ٤٠٤/٦، ٤٠٥) لكن معناه صحيح، وهو أصح مما قبله، فقد أخرج ابن جرير (١٣٨/١) وابن أبي حاتم وابن المنذر وعبد بن حميد (فتح القدير: ٥٨/١) عن قتادة بإسناد صحيح قال: لما ذكر الله العنكبوت والذباب، قال المشركون: ما بال العنكبوت والذباب يذكران؟ فأنزل الله الآية، وهذا مرسل أصح من المسند ويشهد له:

١ - ما أخرجه ابن جرير أيضا (١٣٨/١) من طريق آخر عن قتادة نحوه بإسناد صحيح.

٢ - ما أخرجه ابن أبي حاتم عن الحسن نحوه (لباب النقول: ١٩) .

(٢) النكت والعيون: ٨٨/١.

(٣) أنظر: تفسيره:٤٠٠/١.

(٤) تفسير الطبري:٤٠٠/١.

(٥)في الصحاح: صرد الرجل بالكسر فهو صرد ومصراد: يجد البرد سريعا.

(٦)في الصحاح: الزوان حب يخالط البر.

يبقى له متمسك بدليل ولا متشبث بأمارة ولا إقناع، أن يرمى لفرط الحيرة والعجز عن إعمال الحيلة بدفع الواضح وإنكار المستقيم والتعويل على المكابرة والمغالطة إذا لم يجد سوى ذلك معوّلا"[١].

قوله تعالى:{ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا}[البقرة:٢٦]، " إن الله تعالى لا يستحيي من الحق أن يذكر شيئًا ما، قلَّ أو كثر، ولو كان تمثيلا بأصغر شيء، كالبعوضة والذباب ونحو ذلك، مما ضربه الله مثلا لِعَجْز كل ما يُعْبَد من دون الله"[٢].

قال المراغي:" أي: إن الله جلت قدرته لا يرى من النقص أن يضرب المثل بالبعوضة فما دونها، لأنه هو الخالق لكل شيء جليلا كان أو حقيرا"[٣].

قال السعدي:" لاشتمال الأمثال على الحكمة، وإيضاح الحق، والله لا يستحيي من الحق، وكأن في هذا، جوابا لمن أنكر ضرب الأمثال في الأشياء الحقيرة، واعترض على الله في ذلك. فليس في ذلك محل اعتراض. بل هو من تعليم الله لعباده ورحمته بهم. فيجب أن تتلقى بالقبول والشكر"[٤].

قال الطبري:" قوله : {أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا}، : يعني: أن يبيِّن ويصف، كما قال جل ثناؤه : {ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلا مِنْ أَنْفُسِكُمْ} [سورة الروم : ٢٨]، بمعنى: وصف لكم، وكما قال الكُمَيْت[٥]:

وَذَلِكَ ضَرْبُ أَخْمَاسٍ أُرِيدَتْ ... لأَسْدَاسٍ، عَسَى أَنْ لا تَكُونَا

بمعنى : وصف أخماس[٦].

و"المثَل": الشبه، يقال : هذا مَثَل هذا ومِثْله، كما يقال : شَبَهُه وشِبْهه، ومنه قول كعب بن زهير[٧]:

كَانَتْ مَوَاعِيدُ عُرْقُوبٍ لَهَا مَثَلا ... وَمَا مَوَاعِيدُهَا إِلا الأَبَاطِيلُ

يعني شَبَهًا.

عن مجاهد : "{إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا}: الأمثال كبيرها وصغيرها، يؤمن به المؤمنون، ويعلمون أنه الحق من ربهم أخذهم الله فأهلكهم"[٨].

عن أبي العالية :" {إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا}، فإذا جاءت آجالهم وانقطعت مدتهم، صاروا كالبعوضة، تحيا ما جاعت وتموت إذا رويت، فكذلك هؤلاء الذين ضرب لهم هذا المثل إذا امتلئوا من الدنيا ريا أخذهم الله فأهلكهم"[٩].

واختلف في قوله تعالى{فَمَا فَوْقَهَا}[البقرة:٢٦] على أوجه[١٠]:

أحدها: دونها في الصغر، والقلة والحقارة[١]:

---

(١) الكشاف: ١١١/١-١١٢.
(٢) التفسير الميسر: ٥.
(٣) تفسير المراغي: ٧٢/١.
(٤) تفسير السعدي: ٤٧.
(٥)هذا بيت استرقه الكميت استراقا، على أنه مثل اجتلبه . وأصله : أن شيخًا كان في إبله ، ومعه أولاده رحالا يرعونها ، قد طالت غربتهم عن أهلهم . فقال لهم ذات يوم : " ارعوا إبلكم ربعا " (بكسر فسكون : وهو أن تحبس عن الماء ثلاثا ، وترد في اليوم الرابع) ، فرعوا ربعًا نحو طريق أهلهم . فقالوا : لو رعيناها خمسًا! (بكسر فسكون : أن تحبس أربعًا وترد في الخامس) فزادوا يومًا قبل أهلهم . فقالوا : لو رعيناها سدسًا! (أن تحبس خمسًا وترد في السادس) . ففطن الشيخ لما يريدون ، فقال : ما أنتم إلا ضرب أخماس لأسداس ، ما همتكم رعيها ، إنما همتكم أهلكم! وأنشأ يقول : وَذَلِكَ ضَرْبُ أَخْمَاسٍ أُرَاهُ ، ... لأَسْدَاسٍ ، عَسَى أَنْ لا تَكُونَا
فصار قولهم : " ضرب أخماس لأسداس " مثلا مضروبًا للذي يراوغ ويظهر أمرًا وهو يريد غيره . وحقيقة قوله " ضرب : بمعنى وصف " ، أنه من ضرب البعير أو الدابة ليصرف وجهها إلى الوجه الذي يريد ، يسوقها إليه لتسلكه . فقولهم : ضرب له مثلا ، أي ساقه إليه ، وهو يشعر بمعنى الإبانة بالمثل المسوق . وهذا بين .
(٦) انظر: تفسير الطبري: ٤٠٣/١.
(٧)) ديوانه : ٨ ، وفي المخطوطة : " وما مواعيده " ، وعرقوب - فيما يزعمون - : هو عرقوب ابن نصر ، رجل من العمالقة ، نزل المدينة قبل أن تنزلها يهود بعد عيسى ابن مريم عليه السلام . وكان يحتال في إخلاف المواعيد بالمماطلة ، كما هو معروف في قصته .
(٨) أخرجه ابن ابي حاتم(٢٧١):ص٦٨/١.
(٩) أخرجه ابن ابي حاتم(٢٧٠):ص٦٨/١.
(١٠) انظر: تفسير الطبري: ٤٠٥/١-٤٠٦. و تفسير ابن كثير: ٢٠٧/١.

كما إذا وصف رجل باللؤم والشح، فيقول السامع: نعم، وهو فوق ذلك، يعني فيما وصفت، وهذا قول الكسائي وأبي عبيدة، قال الرازي : وأكثر المحققين، وفي الحديث : "لو أن الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء"(٢).

وهذا قولٌ فيه نظر، وخلافُ تأويل أهل العلم الذين تُرْتَضى معرفتهم بتأويل القرآن.

والثاني: {فَمَا فَوْقَهَا}: فما هو أكبر منها :

لأنه ليس شيء أحقر ولا أصغر من البعوضة، وهذا قول قتادة بن دعامة واختاره ابن جرير(٣).

اختاره الطبري، فقال: "وأما تأويل قوله { فَمَا فَوْقَهَا}: فما هو أعظم منها - عندي - لما ذكرنا قبل من قول قتادة وابن جُريج : أن البعوضة أضعف خلق الله، فإذْ كانت أضعف خلق الله فهي نهايةٌ في القلة والضعف، وإذ كانت كذلك، فلا شك أن ما فوق أضعف الأشياء، لا يكون إلا أقوى منه فقد يجب أن يكون المعنى على ما قالاه - فما فوقها في العظم والكبر، إذ كانت البعوضة نهاية في الضعف والقلة"(٤).

والثالث: وقيل فما فوقها أي: الحشرة التي تعيش فوق البعوضة:

اكتشف العلم الحديث أن فوق ظهر البعوضة تعيش حشرة صغيرة جداً لا تفرى الا بالعين المجهرية وقالوا أن هذا مصداق لقوله تعالى: {إنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعوضَةً فمَا فوْقَهَا}.

وقصر الآية على ما ظهر من الاكتشافات الحديثة مزلق وقع فيه البعض تحت اسم (الإعجاز العلمي)، وهذا الرأي فيه نظر، لأن قصر المراد بالفوقية على هذه الحشرة التي لم يظهر أمرها إلا في هذا العصر - لو صحَّ التفسير بها - فيه تجهيل للأمة بدأ بالصحابة وختمًا بعلماء هذا العصر، وهو يستلزم أن يكون في القرآن ما لم يُعلم معنها، ولا أُدرك المراد منه إلا في هذا العصر، وذلك أمر باطل بلا ريب.

وإن قيل إن هذه الحشرة تدخل في عموم قوله {فما فوقها}، أي: في الصِّغَر، لجاز، والله تعالى أعلم.

---

(١) ذهب إلى أن فوق بمعنى دون في الآية هنا: أبو عبيدة في المجاز: ٣٥/١، واليزيدي في غريب القرآن وتفسيره: ٦٦، ونسبه القرطبي في تفسيره: ٢٤٣/١، وأبو حيان في البحر المحيط: ١٢٣/١، وابن كثير في تفسيره: ٨٥/١، وغيرهم للكسائي، ورجحه مكي في المشكل: ٨٨، ومال إليه ابن كثير في تفسيره: ٨٥/١، ورجحه الرازي في مفاتيح الغيب: ١٤٨/٢ ونسبه لأكثر المحققين. ومن حججهم: أ-أن الغرض المقصود من التمثيل هنا هو الصغر لأن من نزلت بسببهم الآية-وهم اليهود أو المنافقون أو المشركون على خلاف في روايات سبب النزول-لما ضرب الله تعالى الأمثال في كتابه بالعنكبوت والذباب وغير ذلك مما يستحقر ويطرح قالوا: إن الله أعز وأعظم من أن يضرب الأمثال بمثل هذه المحقرات فأنزل الله-عز وجل-هذه الآية رداً عليهم. انظر في سبب النزول: تفسير عبد الرزاق: ٤١/١، تفسير ابن أبي حاتم: ٩٣/١، أسباب النزول للواحدي-تحقيق الحميدان-: ٢٣، تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٨٤/١، البحر المحيط لأبي حيان: ١٢٠/١ وغيرها. ب-أن هناك ما هو أصغر من البعوضة، ومن ذلك جناحها الذي ضرب به النبي صلى الله عليه وسلم مثلاً للدنيا. وانظر في سوق الحجج لهذا القول: مفاتيح الغيب للرازي: ١٤٨/٢، النكت والعيون للماوردي: ٨٨/١، البحر المحيط لأبي حيان: ١٢٣/١، لباب التأويل للخازن: ٣٣/١، إرشاد العقل السليم لأبي السعود: ٧٣/١ وغيرها. وذهب آخرون إلى أن فوق في الآية بمعنى أعظم. ومنهم: ابن عباس وقتادة وابن جريج، انظر: زاد المسير لابن الجوزي: ٥٥/١، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٢٤٣/١، والنكت والعيون للماوردي: ٨٨/١. واختار ذلك قطرب فيما نسبه إليه ابن الأنباري في الأضداد: ٢٥٠/١، والفراء في معاني القرآن: ٢٠/١، والطبري في جامع البيان: ٤٠٥/١، والواحدي في الوجيز: ٩٧/١، وأبو حيان في البحر المحيط: ١٢٣/١، والنهر الماد-بحاشية البحر المحيط-: ١٢٠/١، والسمين الحلبي في الدر المصون: ١٦٥/١، والغرناطي في التسهيل لعلوم التنزيل: ٧٧/١. وحجتهم جريان فوق في هذا القول على مشهور ما استقر في اللغة. وقال آخرون: بأن فوق في الآية تدل على ما هو أصغر من البعوضة وما هو أكبر منها، ولذا كان اختياره في هذه الآية دون لفظ أقل أو دون أو أقوى، ولا يتأتى هذا القول إلا على قول من قال بأن اللفظ المشترك يحمل على جميع معانيه الجائزة في الآية. انظر: البحر المحيط لأبي حيان: ١٢٣/١ وهو اختيار ابن عاشور في التحرير والتنوير: ٣٦٢/١. وقد عده ابن الأنباري في الأضداد: ٢٥٠-٢٥١ من الأضداد، وقال عن رد قطرب لقول من قال إن فوق في الآية بمعنى دون: ورده هذا عندي غلط. وذكر كثير من المفسرين القولين في فوق من دون ترجيح. انظر: المحرر الوجيز لابن عطية: ١٥٤/١، ومعالم التنزيل للبغوي: ٧٧/١، وبحر العلوم للسمرقندي: ١٠٤/١، والنكت والعيون للماوردي: ٨٨/١، والكشاف للزمخشري: ٢٦٥/١، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٢٤٣/١، وإرشاد العقل السليم للبيضاوي: ٧٣/١، وأنوار التنزيل للبيضاوي: ٤٠/١، وروح المعاني للألوسي: ٢٠٧/١، وغيرها.

(٢)رواه الترمذي في السنن برقم (٢٣٢٠) من طريق عبد الحميد بن سليمان عن أبي حازم ، عن سهل بن سعد رضي الله عنه به مرفوعا ، وفيه عبد الحميد بن سليمان ضعيف.

(٣) تفسير الطبري: ٤٠٥/١-٤٠٦.

(٤) تفسير الطبري: ٤٠٥/١-٤٠٦.

قوله تعالى:{ فأما الذين صدّقوا الله ورسوله فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحق مِن رَّبِّهِمْ}[البقرة:٢٦]، أي:" فأما الذين صدّقوا الله ورسوله فيعلمون أن الله حق، لا يقول غير الحق، وأن هذا المثل من عند الله"(١).

قال المراغي:" أي: فالمؤمنون يقولون ما ضرب الله هذا المثل إلا لحكم ومصالح اقتضت ضربه لها، وهى تقرير الحق والأخذ به، فهو إنما يضرب لإيضاح المبهم بجعل المعقولات تلبس ثوب المحسوسات، أو تفصيل المجمل لبسطه وإيضاحه"(٢).

قال السعدي:" فيتفهمونها، ويتفكرون فيها، فإن علموا ما اشتملت عليه على وجه التفصيل، ازداد بذلك علمهم وإيمانهم، وإلا علموا أنها حق، وما اشتملت عليه حق، وإن خفي عليهم وجه الحق فيها لعلمهم بأن الله لم يضربها عبثا، بل لحكمة بالغة، ونعمة سابغة"(٣).

قال الطبري:" فيعرفون أن المثَل الذي ضرَبه الله ، لِما ضرَبه له ، مثَل"(٤).

قال الربيع:أي" أنّ هذا المثَلَ الحقُّ من ربهم ، وأنه كلامُ الله ومن عنده"(٥).

وقال قتادة:" أي يعلمون أنه كلامُ الرحمن ، وأنه الحق من الله"(٦).

قال مجاهد:" يؤمن بها المؤمنون ، ويعلمون أنها الحق من ربهم ، ويهديهم الله بها"(٧).

قوله تعالى:{وَأَمَّا الذين كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ الله بهذا مَثَلاً}[البقرة:٢٦]، أي:" وأما الذين جحدوا آيات الله ، وأنكرُوا ما عرفوا ، وستروا ما علموا أنه حق، فيتعجبون ويقولون: ماذا أراد الله من ضرب الأمثال بمثل هذه الأشياء الحقيرة؟"(٨).

قال الطبري:أما أي: " الذين جحدوا آيات الله ، وأنكرُوا ما عرفوا ، وستروا ما علموا أنه حق ، {فَيَقُولُونَ} ما الذي أراد الله بهذا المثل مثلا"(٩).

قال السعدي:" فيعترضون ويتحيرون، فيزدادون كفرا إلى كفرهم، كما ازداد المؤمنون إيمانا على إيمانهم"(١٠).

قال المراغي:" الذين كفروا هم اليهود والمشركون وكانوا يجادلون بعد أن استبانت لهم الحجة وحصحص الحق، ويقولون ماذا أراد الله بهذه المثل الحقيرة التي فيها الذباب والعنكبوت، ولو أنصفوا لعرفوا وجه الحكمة في ذلك وما أعرضوا وانصرفوا"(١١).

قال مجاهد:"ويعرفه الفاسقون فيكفرون به"(١٢).

قوله تعالى: {يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً}[البقرة:٢٦]، " أي: يضل بهذا المثل كثيراً من الكافرين لكفرهم به"(١٣).

قال ابن مسعود:" يعني: المنافقين"(١٤).

قال الطبري:" فيزيد هؤلاء ضلالا إلى ضلالهم ، لتكذيبهم بما قد علموه حقًّا يقينًا من المثل الذي ضربه الله لما ضرَبه له ، وأنه لما ضرَبه له موافق. فذلك إضْلال الله إياهم به"(١٥).

قوله تعالى:{وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً}[البقرة:٢٦]، " أي: ويهدي به كثيراً من المؤمنين لتصديقهم به، [فيزيد هم هدىً]"(١).

---

(١) صفوة التفاسير: ٣٨/١.
(٢) تفسير المراغي: ٧٢/١.
(٣) تفسير السعدي: ٤٧.
(٤) تفسير الطبري: ٤٠٦/١.
(٥) أخرجه الطبري(٥٦٥):ص٤٠٧/١.
(٦) أخرجه الطبري(٥٦٥):ص٤٠٧/١.
(٧) أخرجه الطبري(٥٦٦):ص٤٠٧/١.
(٨) انظر: تفسير الطبري: ٤٠٧/١، وصفوة التفاسير: ٣٨/١.
(٩) تفسير الطبري: ٤٠٧/١.
(١٠) تفسير السعدي: ٤٧.
(١١) تفسير المراغي: ٧٢/١.
(١٢) أخرجه الطبري(٥٦٦):ص٤٠٧/١.
(١٣) صفوة التفاسير: ٣٨/١.
(١٤) أخرجه الطبري(٥٦٧):ص٤٠٨/١.
(١٥) تفسير الطبري: ٤٠٨/١.

قال ابن مسعود:" {ويهدي به كثيرًا}، يعني: المؤمنين"[٢].
قال الطبري:" فيزيدهم هدى إلى هُداهم وإيمانًا إلى إيمانهم. لتصديقهم بما قد علموه حقًّا يقينًا أنه موافق ما ضرَبه الله له مثلا وإقرارُهم به. وذلك هدايةٌ من الله لهم به"[٣].
وذكروا في تفسير قوله تعالى:{يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً}[البقرة:٢٦]، ثلاثةُ أقوال[٤]:
أحدها : معناه: بالتكذيب بأمثاله ، التي ضربها لهم كثيراً ، ويهدي بالتصديق بها كثيراً .
والثاني : أنه امتحنهم بأمثاله ، فَضَلَّ قوم فجعل ذلك إضلالاً لهم ، واهتدى قوم فجعله هدايةً لهم .
والثالث : أنه إخبار عمَّنْ ضلَّ ومن اهتدى.
قال السعدي:" فهذه حال المؤمنين والكافرين عند نزول الآيات القرآنية. قال تعالى: {وَإِذَا مَا أُنزلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ}، فلا أعظم نعمة على العباد من نزول الآيات القرآنية، ومع هذا تكون لقوم محنة وحيرة وضلالة وزيادة شر إلى شرهم، ولقوم منحة ورحمة وزيادة خير إلى خيرهم، فسبحان من فاوت بين عباده، وانفرد بالهداية والإضلال"[٥].
قوله تعالى: {وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الفاسقين}[البقرة:٢٦]، "أي ما يضل بهذا المثل أو بهذا القرآن إلا الخارجين عن طاعة الله، الجاحدين بآياته"[٦].
قال ابن مسعود:" هم المنافقون"[٧]. وروي عن الربيع مثل ذلك[٨].
قال قتادة:" فسقوا فأضلَّهم الله على فِسقهم"[٩].
وقال مجاهد:" يعرفه المؤمنون فيؤمنون به، ويعرفه الفاسقون فيكفرون به "[١٠].
قال الطبري: أي:" وما يضلّ الله بالمثل الذي يضربه لأهل الضلال والنفاق ، إلا الخارجين عن طاعته ، والتاركين اتباعَ أمره ، من أهل الكفر به من أهل الكتاب ، وأهل الضّلال من أهل النفاق"[١١].
قال السعدي:" أي: الخارجين عن طاعة الله; المعاندين لرسل الله; الذين صار الفسق وصفهم; فلا يبغون به بدلا فاقتضت حكمته تعالى إضلالهم لعدم صلاحيتهم للهدى، كما اقتضت حكمته وفضله هداية من اتصف بالإيمان وتحلى بالأعمال الصالحة"[١٢].
و«الفسق» لغة: الخروج عن الشيء، أو القصد، وهو الخروج عن الطاعة، والفسق: الفجور، والعرب تقول : إذا خرجت الرطبة من قشرها : قد فسقت الرطبة من قشرها، وفسق فلان في الدنيا فسقاً : إذا اتسع فيها، وهوّن على نفسه، واتسع بركونها لها، لم يضيّقها عليه، ورجل فاسق، وفسيق وفُسَق : دائم الفِسْق، والفويسقة الفأرة : تصغر فاسقة، لخروجها من جحرها على الناس وإفسادها، والتفسيق ضدّ التّعديل[١٣] .
وأما المقصود بالفسق اصطلاحًا: فقد تنوعت عبارات العلماء في ذلك، على النحو الآتي:

---

(١) صفوة التفاسير: ٣٨/١.
(٢) أخرجه الطبري(٥٦٧):ص٤٠٨/١.
(٣) تفسير الطبري: ٤٠٨/١.
(٤) أنظر: النكت والعيون:٨٦/١.
(٥) تفسير السعدي: ٤٧.
(٦) صفوة التفاسير: ٣٨/١.
(٧) أخرجه الطبري(٥٦٨):ص٤٠٩/١.
(٨) أخرجه الطبري(٥٧٠):ص٤٠٩/١.
(٩) أخرجه الطبري(٥٦٩):ص٤٠٩/١.
(١٠) أخرجه الطبري(٥٦٦):ص٤٠٧/١.
(١) تفسير الطبري: ٤١٠/١.
(٢) تفسير ابن عطية(١٥٥/١).
(١٢) تفسير السعدي: ٤٧.
(١) انظر : اللسان (٣٠٨/١٠) ومعجم مقاييس اللغة (٥٠٢/٢) ، والمصباح المنير للفيومي ص (٥٦٨) ، وترتيب القاموس المحيط للزاوي (٥٠٢/٤) ، ومفردات الراغب ص (٥٧٢) .
(٢) تفسير ابن عطية(١٥٥/١).

أولا:- أن 'الفسق في عرف الاستعمال الشرعي: الخروج من طاعة الله - عز وجل - فقد يقع على من خرج بكفر، وعلى من خرج بعصيان". وهذا قول الطبري[١]، وابن عطية[٢]، والقرطبي [٣].

وقد روي "عن ابن عباس في قوله :{بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ }[سورة البقرة : ٥٩] ، أي بما بعُدوا عن أمري"[٤].

قال الشوكاني:عن هذا التعريف:" وهذا هو أنسب بالمعنى اللغوي، ولا وجه لقصره على بعض الخارجين دون بعض " [٥].

الثاني:- أن الفاسق: هو الخارج عن الطاعة. تقول العرب : فسقت الرطبة : إذا خرجت من قشرتها؛ ولهذا يقال للفأرة : فويسقة، لخروجها عن جُحْرها للفساد. ذكره ابن كثير[٦].

وثبت في الصحيحين، عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "خمس فواسق يُقتلن في الحل والحرم : الغراب، والحدأة، والعقرب، والفأرة، والكلب العقور"[٧].

الثالث:- أن" الفاسق الخارج عن أمر الله بارتكاب الكبيرة. ذكره البيضاوي[٨].

الرابع:- أن "الفسق شرعًا: خروج العقلاء عن الطاعة، فيشمل الكفر ودونه من الكبيرة والصغيرة، واختص في العرف والاستعمال بارتكاب الكبيرة، فلا يطلق على ارتكاب الآخرين إلا نادرًا بقرينة " . ذكره الألوسي[٩].

ومن خلال التعريفات السابقة : ندرك عموم مصطلح الفسق، فهو في الأصل – أعمّ من الكفر -[١٠] حيث يشمل الكفر وما دونه من المعاصي، ولكن خصّه العرف بمرتكب الكبيرة، ولذا يقول الراغب الأصفهاني : " والفسق يقع بالقليل من الذنوب والكثير، ولكن تعورف فيما كان كثيراً"[١١].

قال السعدي:" والفسق نوعان: نوع مخرج من الدين، وهو الفسق المقتضي للخروج من الإيمان; كالمذكور في هذه الآية ونحوها، ونوع غير مخرج من الإيمان كما في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا} الآية"[١٢].

الفوائد:

١. من فوائد الآية: إثبات الحياء لله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: {إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما}.

ووجه الدلالة: أن نفي الاستحياء عن الله في هذه الحال دليل على ثبوته فيما يقابلها؛ وقد جاء ذلك صريحاً في السنة، كما في قول النبي صلى الله عليه وسلم: "إن ربكم حييّ كريم يستحيي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صِفراً"[١] ؛ والحياء الثابت لله ليس كحياء المخلوق؛ لأن حياء المخلوق انكسار لما يَدْهَمُ الإنسان ويعجز عن مقاومته؛ فتجده ينكسر، ولا يتكلم، أو لا يفعل الشيء الذي يُستحيا منه؛ وهو صفة ضعف ونقص إذا حصل في غير محله.

---

(٣) أنظر: تفسيره: ٤٠٩/١-٤١٠.

(٢)المحرر الوجيز:١١٢/١.

(٣) تفسير القرطبي(٢٤٥/١).

(٣)أخرجه الطبري(٥٧١):ص٤٠٩/١-٤١٠.

(٤) فتح القدير (٥٧/١) .

(٦) تفسير ابن كثير: ٢٠٩/١.

(٧)صحيح البخاري برقم (٣٣١٤) وصحيح مسلم برقم (١١٩٨).

(٥)- تفسر البيضاوي (٤١/١)وانظر :تفسير أبي السعود (١٣١/١) .

(٦) تفسير الألوسي (٢١٠/١).

(٧) انظر : تفسير ابن كثير (٦٣/١) ، ومفردات الراغب ص (٥٧٢) ، ونزهة الأعين النواظر لابن الجوزي (٧٢/٢) ، والكليّات للكفوي ص:(٦٩٣) .

(٨) المفردات ص (٥٧٢). وسوف نفصل القول فيه في "الفوائد".

(١٢) تفسير السعدي: ٤٧.

(١) أخرجه أبو داود ص١٣٣٣، كتاب الوتر، باب ٢٣: الدعاء، حديث رقم ١٤٨٨؛ وأخرجه الترمذي ص٢٠١٨، كتاب الدعوات، باب ١٠٤: "إن الله حيي كريم..."، حديث رقم ٣٥٥٦؛ وأخرجه ابن ماجة ٢٧٠٧، كتاب الدعاء، باب ١٣: رفع اليدين في الدعاء، حديث رقم ٣٨٦٥؛ وأخرجه عبد الرزاق ٢٥١/٢، باب رفع اليدين في الصلاة، حديث رقم ٣٢٥٠، قال الألباني في صحيح أبي داود: صحيح [٤٠٩/١، حديث رقم ١٤٨٨].

٢. ومن فوائد الآية: أن الله تعالى يضرب الأمثال؛ لأن الأمثال أمور محسوسة يستدل بها على الأمور المعقولة؛ انظر إلى قوله تعالى: {مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً} [العنكبوت: ٤١] ؛ وهذا البيت لا يقيها من حَرّ، ولا برد، ولا مطر، ولا رياح {وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت} [العنكبوت: ٤١] ؛ وقال تعالى: {والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه} [الرعد: ١٤] : إنسان بسط كفيه إلى غدير مثلاً، أو نهر يريد أن يصل الماء إلى فمه! هذا لا يمكن؛ هؤلاء الذين يمدون أيديهم إلى الأصنام كالذي يمد يديه إلى النهر ليبلغ فاه؛ فالأمثال لا شك أنها تقرب المعاني إلى الإنسان إما لفهم المعنى؛ وإما لحكمتها، وبيان وجه هذا المثل.

٣. ومن فوائد الآية: أن البعوضة من أحقر المخلوقات؛ لقوله تعالى: { بعوضة فما فوقها }؛ ومع كونها من أحقر المخلوقات فإنها تقض مضاجع الجبابرة؛ وربما تهلك: لو سُلطت على الإنسان لأهلكته وهي هذه الحشرة الصغيرة المهينة.

٤. ومنها: رحمة الله تعالى بعباده حيث يقرر لهم المعاني المعقولة بضرب الأمثال المحسوسة لتتقرر المعاني في عقولهم.

٥. ومنها: أن القياس حجة؛ لأن كل مثل ضربه الله في القرآن، فهو دليل على ثبوت القياس.

٦. ومنها: فضيلة الإيمان، وأن المؤمن لا يمكن أن يعارض ما أنزل الله عزّ وجلّ بعقله؛ لقوله تعالى: {فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم}، ولا يعترضون، ولا يقولون: لِمَ؟، ولا: كيف؟؛ يقولون: سمعنا، وأطعنا، وصدقنا؛ لأنهم يؤمنون بأن الله عزّ وجلّ له الحكمة البالغة فيما شرع، وفيما قدر.

٧. ومنها: إثبات الربوبية الخاصة؛ لقوله تعالى: { من ربهم }؛ واعلم أن ربوبية الله تعالى تنقسم إلى قسمين: عامة؛ وخاصة؛ فالعامة هي الشاملة لجميع الخلق، وتقتضي التصرف المطلق في العباد؛ والخاصة هي التي تختص بمن أضيفت له، وتقتضي عناية خاصة؛ وقد اجتمعتا في قوله تعالى: {قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون} [الأعراف: ١٢١، ١٢٢] : فالأولى ربوبية عامة؛ والثانية خاصة بموسى، وهارون؛ كما أن مقابل ذلك "العبودية" تنقسم إلى عبودية عامة، كما في قوله تبارك وتعالى: {إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً} [مريم: ٩٣] ؛ وخاصة كما في قوله تعالى: {تبارك الذي نزل الفرقان على عبده} [الفرقان: ١] ؛ والفرق بينهما أن العامة هي الخضوع للأمر الكوني؛ والخاصة هي الخضوع للأمر الشرعي؛ وعلى هذا فالكافر عبد لله بالعبودية العامة؛ والمؤمن عبد لله بالعبودية العامة، والخاصة.

٨.ومن فوائد الآية: أن ديدن الكافرين الاعتراض على حكم الله، وعلى حكمة الله؛ لقوله تعالى: { وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلًا }؛ وكل من اعترض ولو على جزء من الشريعة ففيه شبه بالكفار؛ فمثلاً لو قال قائل: لماذا ينتقض الوضوء بأكل لحم الإبل، ولا ينتقض بأكل لحم الخنزير إذا جاز أكله للضرورة مع أن الخنزير خبيث نجس؟

فالجواب: أن هذا اعتراض على حكم الله عزّ وجلّ؛ وهو دليل على نقص الإيمان؛ لأن لازم الإيمان التام التسليم التام لحكم الله عزّ وجلّ . إلا أن يقول ذلك على سبيل الاسترشاد، والاطلاع على الحكمة؛ فهذا لا بأس به.

٩. ومن فوائد الآية: أن لفظ الكثير لا يدل على الأكثر؛ لقوله تعالى: { يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً }؛ فلو أخذنا بظاهر الآية لكان الضالون، والمهتدون سواءً؛ وليس كذلك؛ لأن بني آدم تسعمائة وتسعة وتسعون من الألف ضالون؛ وواحد من الألف مهتدٍ؛ فكلمة: { كثيراً } لا تعني الأكثر؛ وعلى هذا لو قال إنسان: عندي لك دراهم كثيرة، وأعطاه ثلاثة لم يلزمه غيرها؛ لأن "كثير" يطلق على القليل، وعلى الأكثر.

١٠. ومن فوائد الآية: أن إضلال من ضل ليس لمجرد المشيئة؛ بل لوجود العلة التي كانت سبباً في إضلال الله العبد؛ لقوله تعالى: { وما يضل به إلا الفاسقين }؛ وهذا كقوله تعالى: {فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين} [الصف: ٥] .

١١. ومنها: الرد على القدرية الذين قالوا: إن العبد مستقل بعمله . لا علاقة لإرادة الله تعالى به؛ لقوله تعالى: {وما يضل به إلا الفاسقين}.

١٢. وتجدر الإشارة بأن الفاسق يشمل الكافر والعاصي، ولكن فسْق الكافر أشد وأفحش، والمراد من الآية الفاسق الكافر، والله أعلم، بدليل أنه وصفهم بقوله : { الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ }، وهذه الصفات صفات الكفار المباينة

لصفات المؤمنين، كما قال تعالى في سورة الرعد : { أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ * وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ } الآيات، إلى أن قال : { وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ } [الرعد : ١٩ - ٢٥] [(١)].

والفسق له عدة أقسام باعتبارات مختلفة، فهو ينقسم إلى:

أولا:- فسق يخرج عن الإسلام، والثاني:- وفسق لا يخرج عن الإسلام

قال ابن عباس – رضي الله عنهما - : " كل شيء نسبه الله إلى غير أهل الإسلام من اسم مثل خاسر، ومسرف، وظالم، وفاسق، فإنما يعني به الكفر، وما نسبه إلى أهل الإسلام فإنما يعني به الذّنب " [(٢)].

وقد روي عن ابن عباس وطاووس وعطاء وغير واحد من أهل العلم، قالوا : "كفر دون كفر، وفسوق دون فسوق "[(٣)].

قال محمد بن نصر المروزي رحمه الله: " والفسق فسقان: فسق ينقل عن الملة، وفسق لا ينقل عن الملة، فيسمى الكافر فاسقًا، والفاسق من المسلمين فاسقًا"[(٤)].

و-ها هنا- أمر مهمّ لا بد من التنويه به، وهو أن الإيمان لما كان شعباً متعدّدة كما أخبر الصّادق المصدوق صلى الله عليه وسلم في حديث شعب الإيمان [(٥)]، فإن ما يقابله ويضاده كذلك، فالكفر شعب ومراتب، فمنه ما يُخرج من الملّة، ومنه كفر دون كفر، وكذا النفاق، والشرك، والفسق، والظلم، وهذا أصل عظيم تميّز به أهل السنة عن المبتدعة من الوعيدية والمرجئة [(٦)].

وفسق الكفر قد يكون اعتقادياً، وقد يكون عمليّاً، ومثال الاعتقادي : فسق المنافقين زمن النبي صلى الله عليه وسلم، قال تعالى : " قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ}[التوبة :٥٣]، فقوله : {إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ}[التوبة :٥٣]، تعليل لعدم قبول نفقاتهم [(٧)]، وقال تعالى : {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}[التوبة : ٦٧].

قال الشوكاني : " وهذا الترتيب يُفيد أنهم هم الكاملون في الفسق"[(٨)].

ومثال الفسق العملي المخرج عن الملة : فسق إبليس، إذ قال الله تعالى – عزّ وجلّ - : {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً }[الكهف :٥٠] .

ففسق إبليس إنما كان بتركه للسجود، وامتناعه عن اتباع أمر ربه – عزّ وجلّ – وهذا التّرك يعدّ فعلاً وعملاً – كما هو مقرّر في كتب الأصول - [(٩)].

وفسق الكفر هو المذكور في غالب آيات القرآن الكريم، وكما قال ابن الوزير: " قد ورد في السمع ما يدل على أن الفاسق في زمان النبي، صلى الله عليه وسلم، يطلق على الكافر كثيرًا، كقوله تعالى:{إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [التوبة : ٦٧]، وقوله تعالى: { وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ}[البقرة : ٩٩]، وقوله تعالى :{وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢١٠/١.

(٩) انظر : تفسير ابن جرير (١٤٢/١) ، والدرر المنثور للسيوطي (١٠٥/١) .

(١٠) أخرجه الترمذي في السنن ، كتاب الإيمان .

(١١) تعظيم قدر الصلاة (٥٢٦/٢) .

(١٢) وهو قوله صلى الله عليه وسلم : الإيمان بضع وستون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ..)) أخرجه البخاري ، كتاب الإيمان ح (٩) . ومسلم ، كتاب الإيمان ح(٣٥) .

(١٣) انظر : كتاب الصلاة لابن القيم ص (٥٣-٥٨) .

(١٤) انظر : فتح القدير للشوكاني (٣٦٩/٢) .

(١٥) فتح القدير (٣٧٩/٢) .

(١٦) انظر : روضة الناظر لابن قدامة ص (٥٤) ، وإرشاد الفحول للشوكاني ص (٥٢) . والقواعد الأصولية لابن اللحام ص (٦٢) ، ويقول الشوكاني في تفسيره (١٥٨/٢) :" وإطلاق اسم الفسق على تارك ما فرضه الله عليه غير ممتنع شرعاً " .

عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ}[السجدة : ٢٠]، وذكر آيات كثيرة ثم قال:" فهذه الآيات دالة على أن الفاسق في العرف الأول يطلق على الكافر، ويسبق إلى الفهم " [١].

وننبه إلى ضرورة عدم الخلط بين مفهوم الفسق عند أهل السنة، ومخالفيهم، وفيما يأتي بعض التنبيهات على ذلك:

١- إن مرتكب الكبيرة عند أهل السنة مع أنه فاسق بكبيرته، إلا أنه لا يخرج من الإيمان بالكلية، فيمكن اجتماع الإيمان مع هذا الفسق الأصغر ـ كما هو مقرر عند أهل السنة ـ، ومن ثم فهو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته[٢]، وأمره إلى الله تعالى، إن شاء غفر له برحمته، وإن شاء عذبه بعدله، ومآله إلى الجنة فيما بعد؛ فأهل السنة متفقون على أن فساق أهل الملة ـ وإن دخلوا النار، أو استحقوا دخولها ـ فإنهم لابد أن يدخلوا الجنة[٣].

يقول ابن تيمية ـ مقررًا هذه المسألة ـ " ومن أصول أهل السنة والجماعة: أن الدين والإيمان قول وعمل، قول القلب واللسان،وعمل القلب والجوارح، وأن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وهم مع ذلك لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر كما يفعله الخوارج، بل الأخوة الإيمانية ثابتة مع المعاصي، كما قال سبحانه: {فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ}[البقرة : ١٧٨]، وقال سبحانه : {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ[٩]إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ}[الحجرات : ٩،١٠].

٢- ولا يسلبون الفاسق الملّي الإسلام بالكلية، ولا يخلدونه في النار، كما تقول المعتزلة، بل الفاسق يدخل في اسم الإيمان المطلق كما في قوله: {فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ} [النساء : ٩٢] .

٣- وقد لا يدخل في اسم الإيمان المطلق كما في قوله تعالى: " إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً}[الأنفال : ٢]، وقوله صلى الله عليه وسلم: " لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَا يَنْتَهِبُ نُهْبَةً ذات شرف يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ"[٤]، ونقول: هو مؤمن ناقص الإيمان، أو مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته، فلا يعطي الاسم المطلق، ولا يسلب مطلق الاسم [٥].

فارتكاب الكبير يعدّ فسقاً ينافي كمال الإيمان الواجب، وهذا الفسق يمكن اجتماعه مع الإيمان، وصاحبه متعرّض للوعيد، فأهل السنة يقولون بجواز التبعض في الاسم والحكم، بمعنى أن يكون مع الرجل بعض الإيمان لا كله، ويثبت له من حكم أهل الإيمان وثوابهم بحسب ما معه، كما يثبت له من العقاب بحسب ما عليه [٦].

وإذا تقرر مفهوم الفسق عند أهل السنة، فإننا نورد مفهومه عند المخالفين:

- فأما الأشاعرة: فنجد فيهم من يجعل الفاسق الملي مؤمنًا بإطلاق، ويعتبرونه مؤمنًا حقًا.

كما قال أحدهم – وهو الآمدي - : " فعلى هذا مهما كان مصدقاً بالجنان وإن أخلّ بشيء من الأركان، فهو مؤمن حقاً، وانتفاء الكفر عنه واجب، وإن صح تسميته فاسقاً بالنسبة إلى ما أخلّ به من الطاعات، وارتكب من المنهيّات " [٧]، وسمى الإيجي مرتكب الكبيرة مؤمناً بإطلاق [٨].

---

(١٧) العواصم والقواصم (١٦٠/٢-١٦١) باختصار ، وانظر إيثار الحق على الخلق لابن الوزير ص (٤٥١) ، وتفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٢٣٨/١) .

(٢)هذا بالنسبة للحكم العام المطلق،فنطلق القول بنصوص الوعيد والتكفير والتفسيق ، ولا نحكم للمعين بدخوله في ذلك العام حتى يقوم فيه المقتضي الذي لا معارض له. انظر:مجموع فتاوى ابن تيمية(٣٣٢/١٠)،(٤٨٤/٤)،(٤٩٩/٢٨).

(٣)انظر:مجموع الفتاوى لابن تيمية (٤٨٦/٤).

(٥٣) أخرجه البخاري ومسلم ، كتاب المظالم ح (٢٤٧٥) ومسلم ، كتاب الإيمان ، ح (٧٦) .

(٥٤) العقيدة الواسطية بشرح محمد خليل هراس ص (١٥٢-١٥٦) .

(٥٥) انظر : شرح الأصفهانية : مخلوف ص (١٤٤) .

(٥٦) غاية المرام في علم الكلام ص (٣١٢) .

(٥٧) انظر : المواقف في علم الكلام ص (٣٨٩) .

وبجدر القول بأن مرتكب الكبيرة ـ عند أهل السنة ـ لا يعطي الإيمان المطلق، فلا يقال عن الزاني، أو شارب الخمر ـ مثلًا ـ: إنه مؤمن بإطلاق، ولكن نقيده، فنقول: مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، أو مؤمن ناقص الإيمان.

وقد عاب إبراهيم النخعي – رحمه الله – تلك المقولة، فقال : " ما أعلم قوماً أحمق في رأيهم من هذه المرجئة ؛ لأنهم يقولون : مؤمن ضالّ، ومؤمن فاسق"(١).

وعلى كلٍّ فإن مقالة أولئك الأشاعرة متفرعة من قول جمهورهم بأن الإيمان هو التصديق، حيث أخرجوا الأعمال عن مسمى الإيمان.

- أما المعتزلة: فمفهوم الفسق عندهم على عكس المقالة السابقة، فالفاسق عندهم ليس مؤمنًا، كما أنه ليس كافرًا، بل هو في منزلة بين المنزلتين، ولم يقل أحد من المعتزلة بإيمان مرتكب الكبيرة سوى الأصم(٢).

يقول عبد الجبار الهمداني المعتزلي : " صاحب الكبيرة له اسم بين الاسمين، وحكم بين الحكمين، لا يكون اسمه اسم الكافر، ولا اسمه اسم المؤمن، وإنما يسمى فاسقاً، وكذلك فلا يكون حكمه حكم الكافر، ولا حكم المؤمن، بل يفرد له حكم ثالث، وهو المنزلة بين المنزليتن " (٣) ولما كان مرتكب الكبيرة ـ عندهم ـ فاسقًا غير مؤمن، لذا حكموا عليه بالخلود في النار.

وكما قال عبد الجبار المعتزلي : " والذي يدل على أن الفاسق يُخلّد في النار، ويُعذّب فيها أبداً ما ذكرناه من عمومات الوعيد، فإنها كما تدل على أن الفاسق يفعل به ما يستحقه من العقوبة، تدل على أنه يُخلّد " (٤).

- وقد تبع الزيديةُ المعتزلة في مفهوم الفسق، ووافقوهم على ما سبق ذكره(٥).

القرآن

{الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٢٧)} [البقرة : ٢٧]

التفسير:

من صفات هؤلاء الكفار أنهم يتقضون العهد الذي بينهم وبين الله عزّ وجلّ؛ من بعد تغليظه وتأكيده، وهو الإيمان به، وبرسله، ويقطعون كل ما أمر الله به أن يوصل، كالأرحام، ونصرة الرسل، ونصرة الحق، والدفاع عن الحق، ويسعون لما به فساد الأرض فساداً معنوياً كالمعاصي؛ وفساداً حسياً كتخريب الديار، وقتل الأنفس، وألئك هم الناقصُون أنفسَهم حظوظَها - بمعصيتهم الله - من رحمته.

قوله تعالى:{الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ}[البقرة:٢٧]، أي: الذين يتركون ويخالفون، أمر الله الذي عهد إليهم يوم الميثاق(٦).

قال البغوي: أي: الذين يخالفون ويتركون أمر الله الذي عهد إليهم(٧).

قال الصابوني: "أي: ينقضون ما عهده إليهم في الكتب السماوية، من الإيمان بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم. ، أو ينقضون كل عهد وميثاق من الإيمان بالله، والتصديق بالرسل، والعمل بالشرائع "(٨).

النقض في اللغة: " الهدم، وإفساد ما أبرمته من حبل أو بناء، والمناقضة في الشعر، أن يقول الشاعر قصيدة، فينقض عليه شاعر آخر حتى يجيء بغير ما قال، والاسم النقيضة ويجمع على النقائض، ولهذا المعنى قالوا: نقائض جرير والفرزدق(٩).

---

(٥٨) السنة للإمام عبد الله بن الإمام أحمد حنبل (٣٤١/١) .
(٥٩) انظر : مقالات الإسلاميين (٣٣٣/١) .
(٦٠) شرح الأصول الخمسة ص (٦٩٧) .
(٦١) شرح الأصول الخمسة ص (٦٦٦) .
(٦٢) انظر : مثلاً العقد الثمين في معرفة رب العالمين للحسين بن بدر الدين ص (٥٧) ومصباح العلوم في معرفة الحيّ القيوم للرصاص ، ص (٢٠) .
(٦٢) أنظر: تفسير الثعلبي:١٧٣/١.
(٦٢) تفسير البغوي: ٧٧/١.
(٦٢) صفوة التفاسير: ٣٨/١.
(٩) أنظر: "تهذيب اللغة" (نقض) ٤/ ٣٦٤٨، وانظر "اللسان" (نقض) ٨/ ٤٥٢٤، والتفسير البسيط: ١٨٣/١.

و(العهد) في اللغة يكون لأشياء مختلفة، والذي أريد به هاهنا الوصية والأمر من قولهم: عهد الخليفة إلى فلان كذا وكذا، أي: أمره. ومنه قوله تعالى: {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ} [يس:٦٠]، أي ألم آمركم، والعهد أيضًا العقد الذي يتوثق به لما بعد (١).

وقال الراغب:" النقض : فسخ المبرم ، وأصله في طاقات الحبل ، والنكث: مثله..والعهد : كل أمرٍ شأنه أن يراعي كاليمين، والمشاركة، والمبايعة"(٢).

قوله تعالى:{ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ}[البقرة:٢٧]، أي: "بعد توثُّق الله فيه، بأخذ عهوده بالوفاء له ، بما عهد إليهم في ذلك"(٣).

قال الثعلبي:من بعد" توكيده وتشديده"(٤).

قال البغوي: من بعد" توكيده. والميثاق : العهد المؤكد"(٥).

قال الصابوني: " من بعد توكيده عليهم"(٦).

قال مقاتل بن حيان:" من بعد ميثاقه في التوراة، أن يؤمنوا بمحمد- صلى الله عليه وسلم- ويصدقوه، فكفروا ونقضوا الميثاق الأول"(٧).

قال الراغب:" والميثاق : اسم لما يقع به الوثاقة"(٨).

والميثاق: العهد، من غير خلاف بين أهل اللغة والتفسير(٩).

وذكر أبو إسحاق للعهد المذكور في هذه الآية ثلاثة أوجه(١٠):

أحدها: أنه: الوصيَّة، أي: ما أخذه على النبيين ومن اتبعهم ألا يكفروا بالنبي صلى الله عليه وسلم، وذلك قوله تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ} [آل عمران: ٨١]. قاله السدي(١١).

والثاني: أنه الميثاق، أي: عهد الله الذي أخذه من بين آدم من ظهورهم يوم الميثاق حين قال: {أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى} [الأعراف: ١٧٢] ثم جحدوا ونقضوا ذلك العهد في حال كمال عقولهم. قاله مقاتل بن حيان(١٢).

والثالث: أن عهد الله: هو الاستدلال على توحيده، وأن كل مميز يعلم أن الله خالق، فعليه الإيمان به.

قال أبو إسحاق: "والقولان الأولان في القرآن ما يصدق تفسيرهما"(١٣).

وقال الواحدي: "الوجه الأول أصحهما، من قبل أن الله لا يحتج عليهم بما لا يعرفون، لأنه بمنزلة ما لم يكن إذا كانوا لا يشعرون به، ولا لهم دلالة عليه. والثاني مع هذه صحيح، لأنهم عرفوا ذلك العهد بخبر الصادق، فكان كما لو كانوا يشعرون به"(١٤).

وفي هذه الكناية التي في ميثاقه قولان(١٥) :

أحدهما : أنها كناية ترجع إلى اسم الله وتقديره: من بعد ميثاق الله ذلك العهد، بما أكد من إيجابه عليهم.

---

(١) أنظر: التفسير البسيط: ٢/٢٨٣-٢٨٤، و"التهذيب" (عهد) ٣/ ٣٢٦٠٧، ومفردات الراغب: ٣٥٠.

(٢) تفسير الرابغ الأصفهاني: ١٣١/١.

(٣) تفسير الطبري: ٤١٤/١.

(٦٢) تفسير الثعلبي:١٧٣/١.

(٦٢) تفسير البغوي: ٧٧/١.

(٦٢) صفوة التفاسير: ٣٨/١.

(٦٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٢٩١):ص٧١/١-٧٢.

(٨) تفسير الرابغ الأصفهاني: ١٣١/١.

(٩) انظر: معاني القرآن للزجاج: ١٠٦، غريب القرآن وتفسيره لليزيدي: ٧٥، جامع البيان للطبري: ٤١٠/١، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٢٤٧/١، معجم مقاييس اللغة لابن فارس: ١٨٥/٦ ومجمل اللغة له أيضاً: ٩١٥/٤، الصحاح للجوهري: ١٥٦٣/٤، القاموس المحيط للفيروزآبادي: ٨٣٤.

(١٠) أنظر: معاني القرآن: ١٠٥/١-١٠٦.

(٦٢) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٢٩٠):ص٧١/١.

(٦٢) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٢٨٩):ص٧١/١.

(١٣) معاني القرآن: ١٠٦/١.

(١٤) التفسير البسيط: ٢٨٤/٢.

(١٥) أنظر: النكت والعيون: ٨٩/١، وتفسير الطبري" ١/ ١٨٤، والمحرر الوجيز: ١/ ٢١٨، وزاد المسير" ١/ ٥٦، والإملاء" ١/ ٢٧، والكشاف" ١/ ٢٦٨.

والثاني : أنها كناية ترجع إلى العهد، وتقديره: من بعد ميثاق العهد وتوكيده.

وفيمن عَنَاهُ الله تعالى بهذا الخطاب ، أربعة أقاويل[١]:

أحدها : المنافقون. قاله أبو العالية[٢]، وروي عن الربيع[٣] نحو ذلك.

والثاني : أهل الكتاب .

والثالث : جميع الكفار .

والرابع: الحرورية. قاله سعد[٤].

قوله تعالى: {وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ}[البقرة:٢٧]،"أي: ويقطعون كل ما أمر الله به أن يوصل، كالأرحام، ونصرة الرسل، ونصرة الحق، والدفاع عن الحق"[٥]

واختلفوا في قوله : {وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ}[البقرة:٢٧]، على وجوه[٦]:

أحدها: قيل : أنَّه الرحمُ والقرابةُ ، وهو قول السدي[٧]، وقتادة[٨] .

والثاني: أن الذي أمر الله تعالى به أن يوصل ، هو رسوله ، فقطعوه بالتكذيب والعصيان، وهو قول الحسن البصري[٩]، ومقاتل بن حيان[١٠].

والثالث: أنه على العموم في كل ما أمر الله تعالى به أن يوصل.

والقول الأول هو الأشبه بالصواب، "لأن فيه حمل اللفظ على مدلوله من العموم، ولا دليل واضح على الخصوص"[١١]، وقد رجحه ابن جرير قائلا: " وقد بين ذلك في كتابه، فقال تعالى: {فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ}[سورة محمد : ٢٢]، وإنما عَنى بالرّحم، أهل الرّحم الذين جمعتهم وإياه رَحِمُ والدة واحدة، وقطعُ ذلك: ظلمه في ترك أداء ما ألزم الله من حقوقها، وأوجبَ من برِّها، وَوَصْلُها: أداءُ الواجب لها إليها من حقوق الله التي أوجبَ لها، والتعطفُ عليها بما يحقُّ التعطف به عليها"[١٢].

قوله تعالى:{ وَيُفْسِدُونَ في الأَرْضِ}[البقرة:٢٧]، "أي: ويسعون لما به فساد الأرض فساداً معنوياً كالمعاصي؛ وفساداً حسياً كتخريب الديار، وقتل الأنفس"[١٣].

قال الواحدي:" بالمعاصي، وتعويق الناس عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم"[١٤].

قال المراغي:" بصدهم عن سبيل الله يبغونها عوجا ، وبالاستهزاء بالحق بعد ما تبين ، وبإهمالهم هداية العقل وهداية الدين ، فوجودهم في الأرض مفسدة لأنفسهم ومفسدة لأهلها"[١٥].

قال الصابوني:" بالمعاصي، والفتن، والمنع عن الإيمان، وإثارة الشبهات حول القرآن"[١٦].

قال الطبري:بـ"معصيتهم ربّهم ، وكفرهم به ، وتكذيبهم رسوله ، وجحدهم نبوته ، وإنكارهم ما أتاهم به من عند الله أنه حقٌّ من عنده"[١٧].

وقال مصعب: "فكان سعد يسميهم الفاسقين"[١].

---

(١) أنظر: النكت والعيون: ٨٩/١.
(٢) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٢٨٨):ص٧١/١.
(٣) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم:٧١/١.
(٤) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٢٨٧):ص٧١/١.
(٥) انظر: تفسير الطبري: ٤١٧/١، وتفسير ابن كثير: ٢١١/١.
(٦) انظر: تفسير الطبري: ٤١٦/١، و تفسير ابن كثير: ٢١١/١.
(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٢٩٣):ص٧٢/١.
(٨) انظر: تفسير الطبري(٥٧٤):ص٤١٦/١.
(٩) نقلا عن: النكت والعيون: ٩٠/١.
(١٠) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٢٩٤):ص٧٢/١.
(١١) البحر المحيط: ١٠٥/١.
(١٢) تفسير الطبري: ٤١٥/١.
(١٣) انظر: تفسير الطبري: ٤١٧/١، وتفسير ابن كثير: ٢١١/١.
(١٤) انظر: التفسير البسيط: ٢٨٧/٢، وانظر: تفسير الثعلبي: ١٧٣/١.
(١٥) تفسير المراغي: ٦٩/١.
(١٦) صفوة التفاسير: ٣٨/١-٣٩.
(١٧) تفسير الطبري: ٤١٦/١.

وذكروا في إفسادهم في الأرض ثلاثة أقوال[٢]:
أحدها : هو استدعاؤهم إلى الكفر .
والثاني : أنه إخافتهم السُّبُلَ وقطعهم الطريق.
والثالث: المعصية. قاله السدي[٣] ومقاتل بن حيان[٤].

قوله تعالى: {أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}[البقرة:٢٧]، أي: أولئك المذكورون هم "المغبونون"[٥].
قال الثعلبي:" أي: المغبونون بالعقوبة وفوت المثوبة"[٦].

أخرج ابن أبي حاتم بسنده "عن مقاتل بن حيان: أولئك هم الخاسرون في الآخرة"[٧]. وفي رواية أخرى له:" هم أهل النار"[٨].

قال ابن كثير: أي: "في الآخرة ، وهذا كما قال تعالى : { أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ } [الرعد : ٢٥]"[٩].

قال الصابوني: "لأنهم استبدلوا الضلالة بالهدى، والعذاب بالمغفرة"[١٠].

قال الواحدي:" والقوم نقصوا بكفرهم راحة أنفسهم التي كانت لهم لو آمنوا، فاستحقوا العقوبة وفاتتهم المثوبة"[١١].

قال المراغي: "لأن إفسادهم لما عمّ العقائد والأخلاق بفقد هداية الفطرة وهداية الدين ، استحقوا الخزي في الدنيا بحرمان السعادة الجسمية والعقلية والخلقية ، والعذاب الأليم في الآخرة ، ومن خسر السعادتين كان في خسران مبين"[١٢].

قال ابن عثيمين:" (الخاسر)، هو الذي فاته الربح؛ وذلك؛ لأن هؤلاء فاتهم الربح الذي ربحه من لم ينقض عهد الله من بعد ميثاقه، ولم يقطع ما أمر الله به أن يوصل"[١٣].

وفي تفسير قوله تعالى: {أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}[البقرة:٢٧]، خمسة وجوه"[١٤].
أحدها: قيل: أولئك هم الهالكون[١٥].
والثاني: قيل: أنهم الخاسرون في الآخرة، وهذا كما قال تعالى : { أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ } [الرعد : ٢٥].
والثالث: وقيل: أنهم الخاسرون في الدنيا والآخرة، فحصر الخسارة فيهم، لأن خسرانهم عام في كل أحوالهم، ليس لهم نوع من الربح، لأن كل عمل صالح شرطه الإيمان، فمن لا إيمان له لا عمل له، وهذا الخسار هو خسار الكفر[١٦].
والرابع: وقيل: أن كل شيء نسبه الله إلى غير أهل الإسلام من اسم مثل (خاسر)، فإنما يعني به الكفر، وما نسبه إلى أهل الإسلام، فإنما يعني به الذنب[١٧]. قاله ابن عباس[١].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم(٢٩٥):ص٧٢/١.
(٢) أنظر: النكت والعيون:٩٠/١.
(٣) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٢٩٦):ص٧٢/١.
(٤) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٢٩٧):ص٧٢/١.
(٦٢) تفسير البغوي: ٧٧/١.
(٦٢) تفسير الثعلبي:١٧٣/١.
(٧) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٢٩٨):ص٧٢/١.
(٨) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٢٩٩):ص٧٢/١.
(٩) تفسير ابن كثير: ٢١١/١.
(١٠) صفوة التفاسير: ٣٩/١.
(١١) التفسير البسيط: ٢٨٨/٢.
(١٢) تفسير المراغي: ٦٩/١.
(١٣) تفسير ابن عثيمين: ١٠٣/١.
(١٤) انظر: تفسير الطبري: ٤١٧/١، وتفسير ابن كثير: ٢١١/١.
(١٥) انظر: تفسير الطبري: ٤١٧/١.
(١٦) تفسير ابن عثيمين: ٤٣/١.
(١٧) انظر: تفسير الطبري: ٤١٧/١.

والخامس: وقيل: هم الناقصون أنفسهم وحظوظهم بمعصيتهم الله من رحمته، كما يخسر الرجل في تجارته بأن يوضع من رأس ماله في بيعه، وكذلك الكافر والمنافق خسر بحرمان الله إياه رحمته التي خلقها لعباده في القيامة أحوج ما كانوا إلى رحمته، يقال منه : خسر الرجل يخسر خَسْرًا وخُسْرانًا وخَسارًا، كما قال جرير بن عطية(٢):

إن سَلِيطًا في الخَسَارِ إنَّه ... أولادُ قومٍ خُلقُوا أَقِنَّه

فقوله(في الخَسَارِ) أي فيما يوكسهم من حظوظهم من الشرف والكرم، فقيل للهالك : خاسر، لأنه خسر نفسه وأهله يوم القيامة ومنع منزله من الجنة(٣).

وهذا القول الأخير أشبه بالصواب ورجّحه ابن جرير(٤)، لأن أصل الخسران هو نقصان مال التاجر من ربح أو رأس مال، وأكبر الخسارة غبن الإنسان بحظوظه من خالقه جل وعلا، وقد أقسم الله أنه لا ينجو منه أحد إلا بشروط معينة منصوصة في كتاب الله فقال تعالى {وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)} [العصر : ١ - ٣].

الفوائد:

١. من فوائد الآية: أن نقض عهد الله من الفسق؛ لقوله تعالى: { الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه } فكلما رأيت شخصاً قد فرط في واجب، أو فعل محرماً فإن هذا نقض للعهد من بعد الميثاق.

٢. ومنها: التحذير من نقض عهد الله من بعد ميثاقه؛ لأن ذلك يكون سبباً للفسق.

٣. ومنها: التحذير من قطع ما أمر الله به أن يوصل من الأرحام . أي الأقارب . وغيرهم؛ لأن الله ذكر ذلك في مقام الذم؛ وقطع الأرحام من كبائر الذنوب؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم لا يدخل الجنة قاطع"(١)، يعني قاطع رحم.

٤. ومنها: أن المعاصي والفسوق سبب للفساد في الأرض، كما قال تعالى: {ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون} [الروم: ٤١] ؛ ولهذا إذا قحط المطر، وأجدبت الأرض، ورجع الناس إلى ربهم، وأقاموا صلاة الاستسقاء، وتضرعوا إليه سبحانه وتعالى، وتابوا إليه، أغاثهم الله عزّ وجلّ؛ وقد قال نوح عليه السلام لقومه: {فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً * يرسل السماء عليكم مدراراً * ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لهم أنهاراً} [نوح: ١٠ . ١٢] .

فإن قال قائل: أليس يوجد في الأرض من هم صلحاء قائمون بأمر الله مؤدون لحقوق عباد الله ومع ذلك نجد الفساد في الأرض؟

فالجواب: أن هذا الإيراد أوردته أم المؤمنين زينب رضي الله عنها على النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال: "ويل للعرب من شر قد اقترب" ؛ قالت: أنهلك وفينا الصالحون؟! قال صلى الله عليه وسلم: "نعم، إذا كثر الخبث"(٢) ؛ وقوله صلى الله عليه وسلم "إذا كثر الخبث" يشمل معنيين.:

أحدهما: أن يكثر الخبث في العاملين بحيث يكون عامة الناس على هذا الوصف.

و الثاني: أن يكثر فعل الخبث بأنواعه من فئة قليلة، لكن لا تقوم الفئة الصالحة بإنكاره؛ فمثلاً إذا كثر الكفار في أرض كان ذلك سبباً للشر، والبلاء؛ لأن الكفار نجس؛ فكثرتهم كثرة خبث؛ وإذا كثرت أفعال المعاصي كان ذلك سبباً أيضاً للشر، والبلاء؛ لأن المعاصي خبث.

---

(١) تفسير الطبري(٥٧٥):ص٤١٧/١.

(٢)ديوانه : ٥٩٨ ، والنقائض : ٤ ، واللسان (قنن) ، وروايته : " أبناء قوم " . وسليط : بطن من بني يربوع قوم جرير ، واسم سليط : كعب بن الحارث بن يربوع . وكان غسان ابن ذهيل السليطي هجا بني الخطفي ، فهجاه جرير بهذا الرجز . وأقنة جمع قن (بكسر القاف) ، والقن : العبد الذي ملك هو وأبواه . والأنثى ، قن أيضًا بغير هاء .

(٣) انظر: تفسير القرطبي: ٢٤٨/١.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ٤١٧/١.

(١) أخرجه البخاري ص٥٠٧، كتاب الأدب، باب ١١: إثم القاطع، حديث رقم ٥٩٨٤؛ وأخرجه مسلم ص١١٢٦، كتاب البر والصلة، باب ٦: صلة الرحمن وتحريم قطيعتها، حديث رقم ٦٥٢٠ [١٨] ٢٥٥٦.

(٢) أخرجه البخاري ص٢٧١، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ٧: قصة يأجوج ومأجوج، حديث رقم ٣٣٤٦؛ وأخرجه مسلم ص١١٧٦ – ١١٧٧، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ١: اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج، حديث رقم ٧٢٣٥ [١] ٢٨٨٠.

٥.ومن فوائد الآية: أن هؤلاء الذين اعترضوا على الله فيما ضرب من الأمثال، ونقضوا عهده، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وأفسدوا في الأرض هم الخاسرون . وإن ظنوا أنهم يحسنون صنعاً.

القرآن

{كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨)} [البقرة : ٢٨]

التفسير:

كيف تجحدون وجود الله أو تعبدون معه غيره، و قد كنتم عدماً في أصلاب آبائكم لا تُعرفون ولا تُذكرون، فأخرجكم إلى الوجود وأنعم عليكم بأصناف النعم، ثم يميتكم عند استكمال آجالكم، ثم يحييكم حين يبعثكم، ثم اليه ترجعون فيجازيكم الجزاء الأوفى.

قوله تعالى: {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ}[البقرة:٢٨]، أي:" كيف تجحدون الخالق، وتنكرون الصانع"[١].

قال السعدي:" أي: كيف يحصل منكم الكفر بالله"[٢].

قوله تعالى {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بالله}[٢٨]، في التعبير بـ(كيف) قولان[٣]:

أحدهما: أنه استفهام في معنى التعجب، وهذا التعجب للمؤمنين، أي: اعجبوا من هؤلاء كيف يكفرون، وقد ثبتت حجة اللـه عليهم، قاله ابن قتيبة[٤]، والزجاج[٥].

والثاني: أنه استفهام خارج مخرج التقرير والتوبيخ. تقديره: ويْحَكم كيف تكفرون بالله؟ كما قال : {فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ} [سورة التكوير : ٢٦]. قاله الفراء[٦] وابن الانباري[٧].

والقول الأول هو الأشبه بالصواب، وهو قول عامة المفسرين، قال الواسطي : "وبخهم بهذا غاية التوبيخ، لأن الموات والجماد لا ينازع صانعه في شيء، وإنما المنازعة من الهياكل الروحانية"[٨].

قال ابن عثيمين:" الاستفهام هنا للإنكار، والتعجيب؛ والكفر بالله هو الإنكار، والتكذيب مأخوذ من: كَفَر الشيء: إذا ستره؛ ومنه الكُفُرّى: لغلاف طلع النخل؛ والمعنى: كيف تجحدونه، وتكذبون به، وتستكبرون عن عبادته، وتنكرون البعث مع أنكم تعلمون نشأتكم؟!"[٩].

قوله تعالى:{ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا}[البقرة:٢٨]، أي: وكنم "نطفا في أصلاب آبائكم"[١٠].

قال ابن عباس:" في أصلاب آبائكم لم تكونوا شيئا حتى خلقكم"[١١]. وعنه أيضا:" كنتم ترابا قبل أن يخلقكم، فهذه ميتة"[١٢].

وقال الصابوني:" أي وقد كنتم في العدم نُطفاً في أصلاب الآباء وأرحام الأمهات"[١٣].

قال ابن عثيمين:" وذلك: قبل نفخ الروح في الإنسان هو ميت؛ جماد"[١٤].

قوله تعالى:{ فَأَحْيَاكُمْ}[البقرة:٢٨]، " أي أخرجكم إلى الدنيا"[١٥].

قال السعدي: "أي: "خلقكم من العدم; وأنعم عليكم بأصناف النعم"[١٦].

---

(١) صفوة التفاسير:٣٩/١.
(٢) تفسير السعدي:٤٨/١.
(٣) انظر: تفسير الطبري: ٤٢٧/١، وتفسير القرطبي: ٢٤٨/١.
(٤) انظر: تأويل مشكل القرآن:٢٧٨.
(٥) أنظر: معاني القرآن: ١٠٧/١.
(٦) أنظر: معاني القرآن: ٢٣/١، وانظر: التفسير البسيط: ٢٨٩/٢.
(٧) انظر: تفسير الطبري: ٤٢٧/١، وتفسير القرطبي: ٢٤٨/١.
(٨) تفسير القرطبي: ٢٤٧/١.
(٩) تفسير ابن عثيمين:١٠٥/١.
(١٠) تفسير الثعلبي:١٧٣/١.
(١١) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٠٢):ص٧٣/١.
(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٠١):ص٧٣/١.
(١٣) صفوة التفاسير:٣٩/١.
(١٤) تفسير ابن عثيمين:١٠٥/١.
(١٥) صفوة التفاسير:٣٩/١.
(١٦) تفسير السعدي:٤٨/١.

قال ابن عثيمين: أي بنفخ الروح"[1].
قال ابن عباس:" فخلقكم فهذه حياة"[2].
قال الثعلبي: أي: "في الأرحام في الدنيا"[3].
قوله تعالى:{ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ} [البقرة : ٢٨]، أي: " عند انقضاء آجالكم"[4].
قال ابن عباس:" فترجعون إلى القبور فهذه ميتة أخرى"[5].
قال الحسن : "ذكر الموت مرتين هنا لأكثر الناس ، وأما بعضهم فقد أماتهم ثلاث مرات ، {أو كالذى مر على قرية} ، {ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم} ، {فخذ أربعة من الطير} ، الآيات"[6].
قوله تعالى:{ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ }[البقرة:٢٨]، " أي تردون [إليه] في الآخرة فيجزيكم بأعمالكم"[7].
قال السعدي: أي: "بعد البعث والنشور"[8].
قال ابن عباس:" ثم يبعثكم يوم القيامة، فهذه حياة"[9].
قوله تعالى:{ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [البقرة : ٢٨]، أي: "بعد الحشر- فيجازيكم بأعمالكم"[10].
قال أبو حيان:"أي إلى جزائه من ثواب أو عقاب"[11].
قال أبو العالية:" ترجعون إليه بعد الحياة"[12].
قال ابن عثيمين:" بعد الإحياء الثاني ترجعون إلى الله، فينبئكم بأعمالكم، ويجازيكم عليها"[13].
قال الصابوني:" للحساب والجزاء يوم النشور"[14].
قال النسفي:" تصيرون إلى الجزاء ، أو ثم يحييكم في قبوركم ثم إليه ترجعون للنشور"[15].
قال أبو حيان:" فعطف بثم التي تقتضي التراخي في الزمان. والرجوع إلى الله تعالى حاصل عقب الحياة التي للبعث ، فدل ذلك على أن تلك الحياة المذكورة هي للمسألة"[16].
واستدلت المجسمة بقوله : "{ثم إليه ترجعون} ، على أنه تعالى في مكان ولا حجة لهم في ذلك"[17].
قال الثعلبي:أي: " تأتون في الآخرة فيجزيكم بأعمالكم"[18].
قال السعدي:"فإذا كنتم في تصرفه، وتدبيره; وبره، وتحت أوامره الدينية، ومن بعد ذلك تحت دينه الجزائي، أفيليق بكم أن تكفروا به، وهل هذا إلا جهل عظيم وسفه وحماقة؟ بل الذي يليق بكم أن تؤمنوا به وتتقوه وتشكروه وتخافوا عذابه; وترجوا ثوابه"[19].
وفي قوله تعالى{تُرْجَعُونَ }[البقرة:٢٨]، قراءتان[20]:

---

(١) تفسير ابن عثيمين:١٠٥/١.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٠١):ص٧٣/١.
(٣) تفسير الثعلبي:١٧٣/١.
(٤) تفسير الثعلبي:١٧٣/١.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٠١):ص٧٣/١.
(٦) نقلا عن: البحر المحيط: ١٠٨/١.
(٧) تفسير البغوي: ٧٧/١.
(٨) تفسير السعدي:٤٨/١.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٠١):ص٧٣/١، وعنه أيضا:" حين يبعثكم". أخرجه ابن أبي حاتم(٣٠٢):ص٧٣/١.
(١٠) محاسن التأويل: ٢٨١/١.
(١١) نقلا عن: البحر المحيط: ١٠٨/١. وقيل أن (الهاء) : "عائدة على الجزاء على الأعمال. وقيل : عائدة على الموضع الذي يتولى الله الحكم بينكم فيه. وقيل : عائدة على الإحياء المدلول عليه بقوله : فأحياكم". [أنظر: البحر المحيط: ١٠٨/١].
(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٠٣):ص٧٣/١.
(١٣) تفسير ابن عثيمين:١٠٥/١.
(١٤) صفوة التفاسير:٣٩/١.
(١٥) تفسير النسفي: ٥٦/١.
(١٦) البحر المحيط: ١٠٨/١.
(١٧) البحر المحيط: ١٠٩/١.
(١٨) تفسير الثعلبي:١٧٣/١.
(١٩) تفسير السعدي:٤٨/١.
(٢٠) تفسير الثعلبي:١٧٣/١- والبحر المحيط: ١٠٩/١.

الأولى: {تُرْجَعُونَ}، مبنيا للمفعول من رجع المتعدي. وهي قراءة الجمهور.
والثانية: {تَرْجِعُونَ}، مبنيا للفاعل. قرأ بها مجاهد ، ويحيى بن يعمر ، وابن أبي إسحاق ، وابن محيصن ، والفياض بن غزوان ، وسلام ، ويعقوب. حيث وقع في القرآن من رجع اللازم ، لأن رجع يكون لازما ومتعديا.

قال أبو حيان:" وقراءة الجمهور أفصح ، لأن الإسناد في الأفعال السابقة هو إلى الله تعالى ، {فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم} ، فكان سياق هذا الإسناد أن يكون الفعل في الرجوع مسندا إليه ، لكنه كان يفوت تناسب الفواصل والمقاطع ، إذ كان يكون الترتيب : {ثم إليه مرجعكم} ، فحذف الفاعل للعلم به وبنى الفعل للمفعول حتى لا يفوت التناسب اللفظي. وقد حصل التناسب المعنوي بحذف الفاعل ، إذ هو وقبل البناء للمفعول مبني للفاعل. وأما قراءة مجاهد ، ومن ذكر معه ، فإنه يفوت التناسب المعنوي ، إذ لا يلزم من رجوع الشخص إلى شيء أن غيره رجعه إليه ، إذ قد يرجع بنفسه من غير راد. والمقصود هنا إظهار القدرة والتصرف التام بنسبة الإحياء والإماتة ، والإحياء والرجوع إليه تعالى ، وإن كنا نعلم أن الله تعالى هو فاعل الأشياء جميعها. وفي قوله تعالى : {ثم إليه ترجعون} من الترهيب والترغيب ما يزيد المسيء خشية ويرده عن بعض ما يرتكبه ، ويزيد المحسن رغبة في الخير ويدعوه رجاؤه إلى الازدياد من الإحسان ، وفيها رد على الدهرية والمعطلة ومنكري البعث ، إذ هو بيده الإحياء والإماتة والبعث وإليه يرجع الأمر كله"[١].

وفي قوله تعالى:{ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}، وجهان[٢]:
أحدهما : إلى الموضع الذي يتولى الله الحكم بينكم .
والثاني : إلى المجازاة على الأعمال .

وقد ذكروا في قوله تعالى:{وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ}[البقرة:٢٨]، ستة تأويلات[٣]:
أحدها : {وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً} أي: لم تكونوا شيئاً ، {فَأَحْيَاكُمْ} أي خلقكم ، {ثُمَّ يُمِيتُكُمْ} عند انقضاء آجالكم ، {ثُمَّ يُحْيِيكُمْ} يوم القيامة ، وهذا قول ابن عباس[٤]، وابن مسعود[٥]، أبي مالك[٦]، ومجاهد[٧]، وأبي العالية[٨].

وروي عن عبد الله: " {قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ} [غافر : ١١]، قال: هي التي في البقرة: {كُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ} [البقرة : ٢٨]"[٩]. وروى عن الضحاك وعطاء ونحو ذلك[١٠].
والثاني : أن قوله : {وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً} يعني في القبور {فَأَحْيَاكُمْ} للمساءلة ، {ثُمَّ يُمِيتُكُمْ} في قبوركم بعد مساءلتكم ، ثم يحييكم عند نفخ الصور للنشور ، لأن حقيقة الموت ما كان عن حياةٍ ، وهذا قول أبي صالح[١١].
والثالث : أن قوله : {وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً} يعني في أصلاب آبائكم ، {فَأَحْيَاكُمْ} أي أخرجكم من بطون أمهاتكم ، {ثُمَّ يُمِيتُكُمْ} الموتة التي لا بد منها ، {ثم يُحْيِيكُمْ} للبعث يوم القيامة ، وهذا قول قتادة[١٢].
والرابع : أن قوله : {وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً} يعني : أن الله عز وجل حين أخذ الميثاق على آدم وذريته ، أحياهم في صلبه وأكسبهم العقل وأخذ عليهم الميثاق ، ثم أماتهم بعد أخذ الميثاق عليهم ، ثم أحياهم وأخرجهم من بطون أمهاتهم ، وهو معنى قوله تعالى : {يَخْلُقُكُمْ في بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ} " [الزمر : ٦] فقوله : {وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً} يعني بعد أخذ الميثاق ، {فَأَحْيَاكُمْ} بأن خلقكم في بطون أمهاتكم ثم أخرجكم أحياء ، {ثم يُمِيتُكُمْ} بعد أن تنقضي آجالكم في الدنيا ، {ثُمَّ يُحْيِيكُمْ} بالنشور للبعث يوم القيامة ، وهذا قول ابن زيدٍ[١٣].

---

(١) البحر المحيط: ١٠٩/١.
(٢) أنظر: النكت والعيون: ٩٢/١.
(٣) أنظر: تفسير الطبري: ٤١٨/١-٤٢٧، والنكت والعيون: ٩١/١-٩٢.
(٤) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٠١):ص٧٣/١، وتفسير الطبري(٥٨٣)، و(٥٨١):ص٤١٩/١.
(٥) أنظر: تفسير الطبري(٥٧٦):ص٤١٨/١.
(٦) أنظر: تفسير الطبري(٥٧٨)، و(٥٧٩):ص٤١٨/١.
(٧) أنظر: تفسير الطبري(٥٨٠):ص٤١٩/١.
(٨) أنظر: تفسير الطبري(٥٨٢):ص٤١٩/١.
(٩) أخرجه ابن ابي حاتم(٣٠٠):ص٧٣/١.
(١٠) انظر: تفسير ابن ابي حاتم: ٧٣/١.
(١١) أنظر: تفسير الطبري(٥٨٤):ص٤١٩/١.
(١٢) أنظر: تفسير الطبري(٥٨٥):ص٤١٩/١-٤٢٠.
(١٣) أنظر: تفسير الطبري(٥٨٦):ص٤٢٠/١-٤٢١.

والخامس : أن الموتة الأولى مفارقة نطفة الرجل جسده إلى رحم المرأة ، فهي مَيِّتَةٌ من حين فراقها من جسده إلى أن ينفخ الروح فيها ، ثم يحييها بنفخ الروح فيها ، فيجعلها بشراً سويّاً ، ثم يميته الموتة الثانية بقبض الروح منه ، فهو ميت إلى يوم ينفخ في الصور ، فيرُد في جسده روحه ، فيعود حياً لبعث القيامة ، فذلك موتتان وحياتان. حكاه الطبري[1].

والسادس : أن قوله : {وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً} خاملي الذكر دارسي الأثر ، {فَأَحْيَاكُمْ} بالظهور والذكر ، {ثُمَّ يُمِيتُكُمْ} عند انقضاء آجَالكم ، {ثُمَّ يُحيِيكُمْ} للبعث ، واستشهد من قال هذا التفسير بقول أبي بُجَيْلَة السَّعْدِيِّ[2]:

فَأَحْيَيْتَ لِي ذكْري ، وَمَا كُنْتُ خَامِلا   وَلَكِنَّ بَعْضَ الذِّكْرِ أَنْبَهُ مِنْ بَعْضِ

قوله: "فأحييتَ لي ذكري"، أي : رفعته وشهرته في الناس حتى نبه فصار مذكورًا حيًّا ، بعد أن كان خاملا ميتًا[3].

ولكل من الأقوال السابقة وجه ومذهبٌ من التفسير، وأولى الأقوال بتفسير الآية هو قول ابن مسعود وابن عباس، أي: {وكنتم أمواتًا} أمواتَ الذكر ، خمولا في أصلاب آبائكم نطفًا ، لا تُعرفون ولا تُذكرون : فأحياكم بإنشائكم بشرًا سويًّا حتى ذُكِرتم وعُرِفتم وحَيِيتم ، ثم يُميتكم بقبض أرواحكم وإعادتكم رُفاتًا لا تُعرفون ولا تُذكرون في البرزخ إلى يوم تبعثون ، ثم يحييكم بعد ذلك بنفخ الأرواح فيكم لبعث الساعة وصَيحة القيامة ، ثم إلى الله ترجعون بعد ذلك"[4]. والله أعلم.

قال النسفي: "وإنما كان العطف الأول بالفاء والبواقي بثم لأن الإحياء الأول قد تعقب الموت بلا تراخٍ ، وأما الموت فقد تراخى عن الحياة والحياة الثانية كذلك تتراخى عن الموت إن أريد النشور ، وإن أريد إحياء القبر فمنه يكتسب العلم بتراخيه ، والرجوع إلى الجزاء أيضاً متراخٍ عن النشور، وإنما أنكر اجتماع الكفر مع القصة التي ذكرها لأنها مشتملة على آيات بينات تصرفهم على الكفر ، ولأنها تشتمل على نعمٍ جسام حقها أن تشكر ولا تكفر"[5].

وقال القاسمي:" فإن قيل: إن علموا أنهم كانوا أمواتا فأحياهم ثم يميتهم، لم يعلموا أنه يحييهم ثم إليه يرجعون، فيكف نظم ما ينكرونه، من الإحياء الأخير والرجع، في سلك ما يعترفون به من الإحياء الأول والإماتة .. ؟

قلت: تمكنهم من العلم بهما- لما نصب لهم من الدلائل- منزل منزلة علمهم في إزاحة العذر. سيما وفي الآية تنبيه على ما يدل على صحتهما. وهو أنه تعالى لما قدر على إحيائهم أولا، قدر على أن يحييهم ثانيا. فإن بدء الخلق ليس بأهون عليه من إعادته.! أو الخطاب، مع أهل الكتابين. وإنكار اجتماع الكفر- مع القصة التي ذكرها الله تعالى- إما لأنها مشتملة على آيات بينات تصرفهم عن الكفر، أو على نعم جسام حقها أن تشكر ولا تكفر. أو لإرادة الأمرين جميعا. فإن ما عدده آيات، وهي- مع كونها آيات- من أعظم النعم"[6].

الفوائد:

١. من فوائد الآية: شدة الإنكار حتى يصل إلى حد التعجب ممن يكفر وهو يعلم حاله، ومآله.

٢. ومنها: أن الموت يطلق على ما لا روح فيه . وإن لم تسبقه حياة .؛ يعني: لا يشترط للوصف بالموت تقدم الحياة؛ لقوله تعالى: { كنتم أمواتاً فأحياكم }؛ أما ظن بعض الناس أنه لا يقال: "ميت" إلا لمن سبقت حياته؛ فهذا ليس بصحيح؛ بل إن الله تعالى أطلق وصف الموت على الجمادات؛ قال تعالى في الأصنام: {أموات غير أحياء} [النحل: ٢١] .

---

(١) أنظر: تفسير الطبري: ٤٢٣/١.

(٢)الأغاني ١٨ : ١٤٠ ، والمؤتلف والمختلف للآمدي : ١٩٣ ، وأبو نخيلة اسمه لا كنيته ، كما قال أبو الفرج ، ويقال اسمه : يعمر بن حزن بن زائدة ، من بني سعد بن زيد مناة ، وكان الأغلب عليه الرجز ، وله قصيد قليل ، وكان عاقًّا بأبيه ، فنفاه أبوه عن نفسه . والبيت من أبيات ، يمدح بها مسلمة بن عبد الملك .

(٣) أنظر: تفسير الطبري: ٤٢١/١.

(٤) تفسير الطبري: ٤٢٤/١.

(٥) تفسير النسفي: ٥٦/١.

(٦) محاسن التأويل: ٢٨١/١.

٣. ومنها: أن الجنين لو خرج قبل أن تنفخ فيه الروح فإنه لا يثبت له حكم الحي؛ ولهذا لا يُغَسَّل، ولا يكفن، ولا يصلي عليه، ولا يرث، ولا يورث؛ لأنه ميت جماد لا يستحق شيئاً مما يستحقه الأحياء؛ وإنما يدفن في أيّ مكان في المقبرة، أو غيرها.

٤. ومنها: تمام قدرة الله عزّ وجلّ؛ فإن هذا الجسد الميت ينفخ الله فيه الروح، فيحيى، ويكون إنساناً يتحرك، ويتكلم، ويقوم، ويقعد، ويفعل ما أراد الله عزّ وجلّ.

٥. ومنها: إثبات البعث؛ لقوله تعالى: { ثم يحييكم ثم إليه ترجعون }؛ والبعث أنكره من أنكره من الناس، واستبعده، وقال: {من يحيي العظام وهي رميم} [يس: ٧٨] ؛ فأقام الله . تبارك وتعالى . على إمكان ذلك ثمانية أدلة في آخر سورة "يس.:"

الدليل الأول: قوله تعالى: {قل يحييها الذي أنشأها أول مرة} [يس: ٧٩] : هذا دليل على أنه يمكن أن يحيي العظام وهي رميم؛ وقوله تعالى} :أنشأها أول مرة} دليل قاطع، وبرهان جليّ على إمكان إعادته كما قال الله تعالى: {وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه} [الروم: ٢٧].

الدليل الثاني: قوله تعالى: {وهو بكل خلق عليم} [يس: ٧٩] يعني: كيف يعجز عن إعادتها وهو سبحانه وتعالى بكل خلق عليم: يعلم كيف يخلق الأشياء، وكيف يكونها؛ فلا يعجز عن إعادة الخلق.

الدليل الثالث: قوله تعالى: {الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون } [يس: ٨٠] : الشجر الأخضر فيه البرودة، وفيه الرطوبة؛ والنار فيها الحرارة، واليبوسة؛ هذه النار الحارة اليابسة تخرج من شجر بارد رطب؛ وكان الناس فيما سبق يضربون أغصاناً من أشجار معينة بالزند؛ فإذا ضربوها انقدحت النار، ويكون عندهم شيء قابل للاشتعال بسرعة؛ ولهذا قال تعالى: {فإذا أنتم منه توقدون} [يس: ٨٠] تحقيقاً لذلك.

ووجه الدلالة: أن القادر على إخراج النار الحارة اليابسة من الشجر الأخضر مع ما بينهما من تضاد قادر على إحياء العظام وهي رميم.

الدليل الرابع: قوله تعالى: {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ} [يس : ٨١].

ووجه الدلالة: أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس؛ والقادر على الأكبر قادر على ما دونه.

الدليل الخامس: قوله تعالى: {وهو الخلّاق العليم} [يس: ٨١] ؛ فـ {الخلاق } صفته، ووصفه الدائم؛ وإذا كان خلّاقاً، ووصفه الدائم هو الخلق فلن يعجز عن إحياء العظام وهي رميم.

الدليل السادس: قوله تعالى: {إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون} [يس: ٨٢] : إذا أراد شيئاً مهما كان؛ و {شيئاً} : نكرة في سياق الشرط، فتكون للعموم؛ {أمره} أي شأنه في ذلك أن يقول له كن فيكون؛ أو {أمره} الذي هو واحد "أوامر"؛ ويكون المعنى: إنما أمره أن يقول: "كن"، فيعيده مرة أخرى.

ووجه الدلالة: أن الله سبحانه وتعالى لا يستعصي عليه شيء أراده.

الدليل السابع: قوله تعالى: {فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء} : كل شيء فهو مملوك لله عزّ وجلّ: الموجود يعدمه؛ والمعدوم يوجده؛ لأنه رب كل شيء.

ووجه الدلالة: أن الله سبحانه وتعالى نزه نفسه؛ وهذا يشمل تنزيهه عن العجز عن إحياء العظام وهي رميم

الدليل الثامن: قوله تعالى: {وإليه ترجعون}.

ووجه الدلالة: أنه ليس من الحكمة أن يخلق الله هذه الخليقة، ويأمرها، وينهاها، ويرسل إليها الرسل، ويحصل ما يحصل من القتال بين المؤمن، والكافر، ثم يكون الأمر هكذا يذهب سدًى؛ بل لابد من الرجوع؛ وهذا دليل عقلي.

فهذه ثمانية أدلة على قدرة الله على إحياء العظام وهي رميم جمعها الله عزّ وجلّ في موضع واحد؛ وهناك أدلة أخرى في مواضع كثيرة في القرآن؛ وكذلك في السنة.

٦.ومن فوائد الآية: أن الخلق مآلهم، ورجوعهم إلى الله عزّ وجلّ.

القرآن

{هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩)} [البقرة : ٢٩]

التفسير:

هو الذي أوجد لكم - براً بكم ورحمة - جميع ما على الأرض من الأشجار، والزروع، والأنهار، والجبال.. للانتفاع والاستمتاع والاعتبار، ثم قصد إلى السماء، فجعلها سبع سماوات سوية طباقاً غير متناثرة قوية متينة، وهو لا يخفى عليه شيء سبحانه.

قال المفسرون: "لما استعظم المشركون أمر الإعادة عرفهم خلق السموات والأرض، ليدل بذلك على أن إعادة الحياة فيهم وقد خلقهم أولاً ليس بأكثر من خلقه السموات والأرض وما فيهما"[١].

قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا}[البقرة:٢٩]، أي: " هو الذي أوجد عن علم وتقدير على ما اقتضته حكمته جلّ وعلا، وعلمه جميع ما على الأرض، للانتفاع والاستمتاع والاعتبار"[٢].

قال قتادة:" أي: سخر لكم ما في الأرض جميعا كرامة من الله، ونعمة لابن آدم"[٣].

قال ابن عثيمين:" أي: أوجد عن علم وتقدير على ما اقتضته حكمته جلّ وعلا، وعلمه"[٤].

قال البيضاوي:"بيان نعمة أخرى مرتبة على الأولى، فإنها خلقهم أحياء قادرين مرة بعد أخرى، وهذه خلق ما يتوقف عليه بقاؤهم وتم به معاشهم"[٥].

قال السعدي:" أي: خلق لكم، برا بكم ورحمة.. وفي هذه الآية العظيمة دليل على أن الأصل في الأشياء الإباحة والطهارة، لأنها سيقت في معرض الامتنان، يخرج بذلك الخبائث، فإن تحريمها أيضا يؤخذ من فحوى الآية، ومعرفة المقصود منها، وأنه خلقها لنفعنا، فما فيه ضرر، فهو خارج من ذلك، ومن تمام نعمته، منعنا من الخبائث، تنزيها لنا"[٦].

روي "عن أبي هريرة قال: أخذ رسول الله- صلى الله عليه وسلم- بيدي فقال: خلق الله التربة يوم السبت، وخلق الجبال فيها يوم الأحد، وخلق الشجر فيها يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل"[٧].

وقال مجاهد:" خلق الله الأرض قبل السماء، فلما خلق الأرض ثار منها دخان فذلك حين يقول: ثم استوى إلى السماء وهي دخان. قال بعضهن فوق بعض، وسبع أرضين بعضهن تحت بعض"[٨].

وقوله تعالى{لَكُمْ}[البقرة:٢٩]، "اللام" –هنا- لها معنيان[٩]:

أحدهما: أنها تفيد التعليل: أي خلق لأجلكم، ولانتفاعكم به في دنياكم ودينكم.

قال النسفي: أما الأول فظاهر، وأما الثاني فالنظر فيه وما فيه من العجائب الدالة على صانع قادر حكيم عليم، وما فيه من التذكير بالآخرة لأن ملاذها تذكر ثوابها ومكارهها تذكر عقابها"[١٠].

وقال البيضاوي: " أي لأجلكم وانتفاعكم في دنياكم باستنفاعكم بها في مصالح أبدانكم بوسط أو بغير وسط، ودينكم بالاستدلال والاعتبار والتعرف لما يلائمها من لذات الآخرة وآلامها، لا على وجه الغرض"[١١].

---

(١) التفسير البسيط: ٢٩٤/٢، و ذكره أبو الليث عن الكلبي ١/ ٣٠٩، والآية فيها دلائل نعمه عليهم مما يوجب عليهم شكره، ودلائل توحيده، وانظر: تفسير ابن كثير ١/ ٧٢.

(٢) تفسير السعدي: ٤٨/١، وتفسير ابن عثيمين:١٠٩/١.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٠٧):ص٧٥/١.

(٤) تفسير ابن عثيمين:١٠٩/١.

(٥) تفسير البيضاوي: ٦٦/١.

(٦) تفسير السعدي: ٤٨/١.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٠٤):ص٧٤/١، وأخرجه مسلم في كتاب صفات المنافقين، رقم (٢٧٨٩):ص ٤/ ٢١٤٩.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٠٥):ص٧٤/١.

(٩) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٧٦/١.

(١٠) تفسير النسفي: ٥٦/١-٥٧. قاتل النسفي: "وقد استدل الكرخي وأبو بكر الرازي والمعتزلة بقوله خلق لكم على أن الأشياء التي يصح أن ينتفع بها خلقت مباحة في الأصل".

(١١) تفسير البيضاوي: ٦٦/١.

وقال الواحدي: "فما في الأرض مخلوق لهم بعضها للانتفاع، وبعضها للاعتبار، فإن السباع والعقارب والحيات، وكل ما يؤذي ويضر فيها منفعة للمكلفين وجهة ما فيها من العبرة والإرهاب؛ لأنه إذا رئي طرف من المتوعد به كان أبلغ في الزجر عن المعصية وأدعى إلى التمسك بالطاعة، كما أنه إذا قدم طرف من الموعود به كانت النفس إليه أشوق، وعليه أحرص، والأصل في ذلك أن الخبر لا يقوم مقام المشاهدة فيما يصل إلى القلب ويبلغ إلى النفس "[١].

والثاني: وقيل أنها تفيد الإباحة كما تقول: «أبحت لك».

والقول الأول هو الأشبه بالصواب، وهو قول عامة المفسرين.

واختلف في قوله تعالى: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ}[البقرة:٢٩]، على أقوال:

القول الأول: أن «الإستواء»، بمعنى: العلو والارتفاع: أي: علا إلى السماء، فسرها به أبو العالية[٢]، والحسن[٣]، والربيع[٤]. وذكره البغوي في تفسيره: "عن ابن عباس وأكثر مفسري السلف"[٥]،

قال ابن العثيمين:"وذلك تمسكا بظاهر لفظ استوى، وتفويضا لعلم كيفية هذا الارتفاع إلى الله عز وجل"[٦].

واختاره ابن جرير قائلا: " وأوْلى المعاني بقول الله جل ثناؤه: {ثم استوى إلى السماء فسوَّاهن}، علا عليهن وارتفع، فدبرهنّ بقدرته، وخلقهنّ سبع سموات"[٧].

قال شيخ الاسلام: "وهو قول إجماع السلف"[٨].

ثم اختلف متأوّلو الاستواء بمعنى «العلوّ والارتفاع»، في الذي استوى إلى السّماء[٩]:

أحدها: أن الذي استوى إلى السماء وعلا عليها، هو خالقُها ومنشئها.

والثاني: وقيل: بل العالي عليها: الدُّخَانُ الذي جعله الله للأرض سماء[١٠].

قال ابن عطية: وهذا يأباه رصف الكلام"[١١].

وقال الإمام الطبري: الاستواء في كلام العرب منصرف على وجوه[١٢]:

أحدها: انتهاء شباب الرجل وقوّته، فيقال إذا صار كذلك: قد استوى الرجل.

الثاني: استقامة ما كان فيه أَوَدٌ من الأمور والأسباب، يقال منه: استوى لفلان أمره: إذا استقام له.. بعد أود، ومنه قول الطرماح بن حكيم[١٣]:

طالَ على رَسْمِ مَهْدَدٍ أَبَدُهْ   وعَفَا واسْتَوَى بِهِ بَلَدُهْ

يعني: استقام به.

الثالث: الإقبال على الشيء بالفعل، كما يقال: استوى فلان على فلان بما يكرهه ويسوءه بعد الإحسان إليه.

الثالث: الاحتياز والاستيلاء كقولهم: استوى فلان على المملكة، بمعنى احتوى عليها وحازها.

---

(١) التفسير البسيط: ٢٩٥/٢، وفي خلق هذِه الأشياء التي ذكر حكم كثيرة، منها ما علم للبشر، ومنها ما لم يعلم، وما ذكره بعض هذِه الحكم. انظر: "تفسير ابن عطية" ١/ ٢٢٣، "الكشاف" ١/ ١٧٠، "زاد المسير" ١/ ٥٨، "القرطبي" ١/ ٢١٦.

(٢) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٠٨):ص٧٥/١.

(٣) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم:٧٥/١.

(٤)أنظر: تفسير ابن أبي حاتم:٧٥/١.

(٥) انظر: تفسير البغوي: ٧٨/١.

(٦)مجموع فتاوى ورسائل العثيمين " (٣/ ٣١٢).

(٧) انظر: تفسير الطبري: ٤٢٩/١، و تفسير ابن كثير: ٢١٣/١.

(٨) مجموع الفتاوى: ٥٢١/٥.

(٩)انظر: تفسير الطبري: ٤٢٩/١.

(١٠) انظر: تفسير الطبري: ٤٢٩/١.

(١١) المحرر الوجيز: ١١٥/١.

(١٢) تفسير الطبري: ٤٢٩/١.

(١٣)) ديوانه : ١١٠ ، واللسان (سوى) قال : " وهذا البيت مختلف الوزن ، فالمصراع الأول من المنسرح ، والثاني من الخفيف " . والرسم : آثار الديار اللاصقة بالأرض . ومهدد اسم امرأة . والأبد : الدهر الطويل ، والهاء في " أبده " راجع إلى الرسم . وعفا : درس وذهب أثره . والبلد : الأثر يقول : انمحى رسمها حتى استوى بلا أثر .

الرابع: العلوّ والارتفاع، كقول القائل: استوى فلان على سريره، يعني به علوّه عليه. اختاره الإمام الطبري(١).

القول الثاني: أن الإستواء بمعنى: قصد إليها وأقبل عليهما؛ وهذا ما اختاره ابن كثير(٢)، والفراء(٣)، والسعدي(٤)، والبغوي في تفسير سورة «فصلت»(٥)، فكما تقول: كان فلان مقبلا على فلان، ثم استوَى عليّ يشاتمني - واستوَى إليّ يشاتمني، بمعنى: أقبل عليّ وإليّ يشاتمني، واستُشْهد على أنّ «الاستواء» بمعنى «الإقبال»، بقول الشاعر(٦):

أَقُولُ وَقَدْ قَطَعْنَ بِنَا شَرَوْرَى سَوَامِدَ، وَاسْتَوَيْنَ مِنَ الضَّجُوعِ

فزعم أنه عنى به أنهن خرجن من الضّجوع، وكان ذلك عنده بمعنى: أقبلن، وهذا من التأويل في هذا البيت خطأ، وإنما معنى قوله : " واستوين من الضجوع "، استوين على الطريق من الضجوع خارجات، بمعنى استقمن عليه(٧).

قال ابن عثيمين:" وهذا القول ليس صرفا للكلام عن ظاهره ، وذلك لأن الفعل استوى اقترن بحرف يدل على الغاية والانتهاء، فانتقل إلى معنى يناسب الحرف المقترن به، ألا ترى إلى قوله تعالى: {عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ} [الإنسان : ٦]، حيث كان معناها يروى بها عباد الله ، لأن الفعل يشرب اقترن بالباء فانتقل إلى معنى يناسبها وهو يروى ، فالفعل يضمن معنى يناسب معنى الحرف المتعلق به ليلتئم الكلام "(٨).

القول الثالث: أن قوله {ثُمَّ اسْتَوَى إلى السَّمَاءِ}، يعني به: استوت، كما قال الشاعر(٩):

أَقُولُ لَهُ لَمَّا اسْتَوَى فِي تُرَابِهِ عَلى أيِّ دِينٍ قَبَّلَ الرأسَ مُصْعَبُ

القول الرابع: أنه لم يكن ذلك من الله جل ذكره بتحوّل، ولكنه بمعنى فعله، كما تقول: كان الخليفة في أهل العراق يواليهم ثم تحوّل إلى الشام، إنما يريد تحوّل فعله. قاله الاخفش(١٠).

القول الخامس: أن معنى قوله:{ثُمَّ اسْتَوَى إلى السَّمَاءِ}: عمد إليها، وقال: بل كل تارك عملاً كان فيه إلى آخره فهو مستو لما عمد ومستو إليه. حكاه الطبري(١١).

وأقرب الأقوال الى الصواب هو أن {اسْتَوَى} معناه: قصد إلى خلقها، إذ ترد كلمة(استوى) في القرآن على ثلاثة معاني:

أحدها: لا تعدى بالحرف، فيكون معناها: «الكمال والتمام»، كما في قوله عن موسى: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} [القصص : ١٤].

الثاني: أن تكون بمعنى: «علا» و«ارتفع»، وذلك إذا عديت بـ «على»، كما في قوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [الأعراف : ٥٤]، وقوله: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه : ٥]، وقوله تعالى: {لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ} [الزخرف : ١٣].

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٤٢٩/١.
(٢) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٧٦/١.
(٣) انظر: معاني القرآن :٢٥/١.
(٤) انظر: تفسير السعدي: ٧٤٥.
(٥) انظر: تفسيره: ١٢٦/٤. ولفظه:" أي: عمد إلى خلق السماء".
(٦)البيت لتميم بن أبي بن مقبل (معجم ما استعجم : ٧٩٥ ، ٨٥٧) ، وروايته " ثواني " مكان " سوامد " . وشرورى : جبل بين بني أسد وبني عامر ، في طريق مكة إلى الكوفة . والضجوع - بفتح الضاد المعجمة - : موضع أيضًا بين بلاد هذيل وبني سليم . وقوله : " سوامد " جمع سامد . سمدت الإبل في سيرها : جدت وسارت سيرًا دائمًا ، ولم تعرف الإعياء . وسوامد : دوائب لا يلحقهن كلال . والنون في " قطعن " للإبل
(٧) انظر: تفسير الطبري: ٤٢٨/١.
(٨)مجموع فتاوى ورسائل العثيمين: ٣/ ٣١٢.
(٩) البيت ورد في تفسير الطبري: ٤٢٨/١، ولم أجد قائله.
(١٠) انظر: معاني القرآن: ٦٢/١.
(١١) انظر: تفسير الطبري: ٤٢٩/١.

الثالث: أن تكون بمعنى: «قصد»كما إذا عديت بـ«إلى»، كما في هذه الآية: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [البقرة : ٢٩]، أي: لما خلق تعالى الأرض، قصد إلى خلق السماوات { فسواهن سبع سماوات } فخلقها وأحكمها، وأتقنها[١].

قال ابن عطية:" والقاعدة في هذه الآية ونحوها منع النقلة وحلول الحوادث، ويبقى استواء القدرة والسلطان"[٢].

قوله تعالى:{ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ }[البقرة:٢٩]، "أي صيّرهن وقضاهن سبع سماوات محكمة"[٣].

قال البغوي:أي" خلقهن مستويات لا فطور فيها ولا صدع"[٤].

قال ابن عثيمين: "أي جعلها سوية طباقاً غير متناثرة قوية متينة"[٥].

قال الربيع بن أنس:" سوّى خلقهن"[٦]. وروي عن أبي العالية[٧]، مثل ذلك.

قال قتادة:" بعضهن فوق بعض، بين كل سمائين مسيرة خمسمائة عام"[٨].

وقال مجاهد:" "بعضهن فوق بعض، وسبع أرضين بعضهن تحت بعض"[٩].

قال الطبري:" يعني: هيأهن وخلقهن ودبَّرهن وقوَّمهن. والتسوية في كلام العرب ، التقويم والإصلاح والتوطئة ، كما يقال : سوَّى فلان لفلان هذا الأمر. إذا قوّمه وأصلحه وَوَطَّأه له. فكذلك تسوية الله جل ثناؤه سمواته : تقويمه إياهن على مشيئته ، وتدبيره لهنّ على إرادته ، وتفتيقهنّ بعد ارتتاقهنّ"[١٠].

قوله تعالى:{وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[البقرة:٢٩]، "أي وهو عالم بكل ما خلق وذرأ"[١١].

قال سعيد بن جبير:" يعني من أعمالكم عليم"[١٢].

قال الطبري:" وقوله :{عليم}، بمعنى عالم. ورُوي عن ابن عباس أنه كان يقول : "هو الذي قد كمَل في علمه"[١٣].

قال ابن عثيمين: ومن علمه عزّ وجلّ أنه علم كيف يخلق هذه السماء"[١٤].

قال الصابوني:" أفلا تعتبرون بأن القادر على خلق ذلك - وهي أعظم منكم - قادر على إعادتكم؟! بلى إنه على كل شيء قدير"[١٥].

قال ابن عطية:"وهذه الآية تقتضي أن الأرض وما فيها خلق قبل السماء، وذلك صحيح، ثم دحيت الأرض بعد خلق السماء، وبهذا تتفق معاني الآيات: هذه والتي في سورة المؤمن وفي النازعات"[١٦].

قال البغوي: " قرأ أبو جعفر وأبو عمرو والكسائي وقالون وهو وهي بسكون الهاء إذا كان قبل الهاء واو أو فاء أو لام ، زاد الكسائي وقالون : ثم هو وقالون {أن يمل هو}[البقرة:٢٨٢]" [١٧].

الفوائد:

---

(١) انظر: تفسير السعدي: ٤٨/١.
(٢) المحرر الوجيز: ١١٥/١.
(٣) صفوة التفاسير: ٣٩/١.
(٤) تفسير البغوي: ٧٨/١.
(٥) تفسير ابن عثيمين:١١٠/١.
(٦) أخرجه الطبري(٥٨٩):ص٤٣١/١.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(٣١٠):ص٧٥/١.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٠٩):ص٧٥/١.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(٣١١):ص٧٥/١.
(١٠) تفسير الطبري: ٤٣١/١.
(١١) صفوة التفاسير: ٣٩/١.
(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٣١٢):ص٧٥/١.
(١٣) انظر: تفسير الطبري(٥٩٦):ص٤٣٨/١.
(١٤) تفسير ابن عثيمين:١١٠/١.
(١٥) صفوة التفاسير: ٣٩/١.
(١٦) المحرر الوجيز: ١١٥/١.
(١٧) تفسير البغوي: ٧٨/١.

١. من فوائد الآية: منّة الله تعالى على عباده بأن خلق لهم ما في الأرض جميعاً؛ فكل شيء في الأرض فإنه لنا . والحمد لله . والعجب أن من الناس من سخر نفسه لما سخره الله له؛ فخدم الدنيا، ولم تخدمه؛ وصار أكبر همه الدنيا: جمع المال، وتحصيل الجاه، وما أشبه ذلك.
٢. ومنها: أن الأصل في كل ما في الأرض الحلّ . من أشجار، ومياه، وثمار، وحيوان، وغير ذلك؛ وهذه قاعدة عظيمة؛ وبناءً على هذا لو أن إنساناً أكل شيئاً من الأشجار، فقال له بعض الناس: "هذا حرام"؛ فالمحرِّم يطالب بالدليل؛ ولو أن إنساناً وجد طائراً يطير، فرماه، وأصابه، ومات، وأكله، فقال له الآخر: "هذا حرام"؛ فالمحرِّم يطالب بالدليل؛ ولهذا لا يَحْرم شيء في الأرض إلا ما قام عليه الدليل.
٣. ومن فوائد الآية: تأكيد هذا العموم بقوله تعالى: { جميعاً } مع أن { ما } موصولة تفيد العموم؛ لكنه سبحانه وتعالى أكده حتى لا يتوهم واهم بأن شيئاً من أفراد هذا العموم قد خرج من الأصل.
٤. ومنها: إثبات الأفعال لله عزّ وجلّ . أي أنه يفعل ما يشاء؛ لقوله تعالى: { ثم استوى إلى السماء }: و{ استوى } فعل؛ فهو جلّ وعلا يفعل ما يشاء، ويقوم به من الأفعال ما لا يحصيه إلا الله، كما أنه يقوم به من الأقوال ما لا يحصيه إلا الله.
٥. ومنها: أن السموات سبع؛ لقوله تعالى: (سبع سموات)
٦. ومنها: كمال خلق السموات؛ لقوله تعالى: (فسواهن).
٧.ومنها: إثبات عموم علم الله؛ لقوله تعالى: (وهو بكل شيء عليم)
٨.ومنها: أن نشكر الله على هذه النعمة . وهي أنه تعالى خلق لنا ما في الأرض جميعاً؛ لأن الله لم يبينها لنا لمجرد الخبر؛ ولكن لنعرف نعمته بذلك، فنشكره عليها.
٩. ومنها: أن نخشى، ونخاف؛ لأن الله تعالى بكل شيء عليم؛ فإذا كان الله عليماً بكل شيء . حتى ما نخفي في صدورنا . أوجب لنا ذلك أن نحترس مما يغضب الله عزّ وجلّ سواء في أفعالنا، أو في أقوالنا، أو في ضمائر قلوبنا.

القرآن

{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠)} [البقرة : ٣٠]

التفسير:

واذكر يا محمد إذ قال ربك للملائكة واقصص على قومك ذلك، حين قال ربك للملائكة، أني جاعل في الأرض قوماً يخلف بعضهم بعضاً قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل، فقالت الملائلكة: يا ربنا، ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء، فإن كان المراد عبادتك، فنحن ننزهك التنزيه اللائق بحمدك وجلالك ونقدسك، فقال الله: إني أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف على المفاسد التي ذكرتموها ما لا تعلمون أنتم.

قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ}[البقرة:٣٠]، "أي: اذكر يا محمد حين قال ربك للملائكة واقصص على قومك ذلك"(١).

قال المراغي:" أي: واذكر لقومك مقال ربك للملائكة:"(٢).

قال ابن عثيمين:""الملائكة" جمع "مَلَئِك"، وأصله "مألك"؛ لأنه مشتق من الألوكة . وهي الرسالة؛ لكن صار فيها إعلال بالنقل . أي نقل حرف مكان حرف آخر؛ مثل أشياء أصلها: "شيئاء"؛ و "الملائكة" عالم غيبي خلقهم الله تعالى من نور، وجعل لهم وظائف، وأعمالاً مختلفة؛ فمنهم الموكل بالوحي كجبريل؛ وبالقطر، والنبات كميكائيل؛ وبالنفخ في الصور كإسرافيل؛ وبأرواح بني أدم كملك الموت.. إلى غير ذلك من الوظائف، والأعمال"(٣).

---

(١) صفوة التفاسير: ٤١/١.
(٢) تفسير المراغي: ٨٠/١.
(٣) تفسير ابن عثيمين: ١١٢/١.

وقد ذكر أهل العلم في قوله تعالى:{وَإِذْ}، وجهين(١):

أحدهما : أنه صلة زائدة ، وتقدير الكلام : وقال ربك للملائكة ، وهذا قول أبي عبيدة(٢)، واستشهد بقول الأسود بن يعفر(٣):

فَإِذَا وَذَلِكَ لاَ مَهَاةَ لِذِكْرِهِ وَالدَّهْرُ يَعْقُبُ صَالِحاً بِفَسَادِ

وببيت عبد مناف بن رِبْع الهُذَلِيِّ (٤):

حَتَّى إِذَا أَسْلَكُوهُمْ فِي قُتَائِدَةٍ شَلا كَمَا تَطْرُدُ الْجَمَّالَةُ الشُّرُدَا

وقال : معناه ، حتى أسلكوهم.

قال الزجاج:" قال أبو عبيدة: (إذ) ههنا زائدة، وهذا إقْدَام مِنْ أبي عبيدة لأن القرآن، لا ينبغي أن يتكلم فيه إلا بغاية تجري إلى الحق و (إذ) معناها الوقت، وهي اسم فكيف يكون لغوا "(٥)

والوجه الثاني : أن (إذ) كلمة مقصورة ، وليست بصلة زائدة، وفيها لأهل التأويل قولان(٦):

أحدهما : أن الله تعالى لما ذكَّر خلقه نِعَمَهُ عليهم بما خلقه لهم في الأرض ، ذكرهم نِعَمَهُ على أبيهم آدَمَ {إذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة}، وهذا قول المفضَّل .

والثاني : أن الله تعالى ذكر ابتداء الخلق فكأنه قال : وابتدأ خلقكم {إذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة}، وهذا من المحذوف الذي دَلَّ عليه الكلام ، كما قال النمر بن تَوْلَبَ(٧):

فَإِنَّ الْمَنِّيَة مَنْ يَخْشَهَا فَسَوفَ تُصَادِفُهُ أَيْنَمَا

---

(١) أنظر: تفسير الطبري: ٤٣٩/١ وما بعدها، والنكت والعيون: ٩٣/١.

(٢) أنظر: معاني القرآن للزجاج: ١٠٨/١.

(٣)المفضليات ، القصيدة رقم : ٤٤ ، وليس البيت في رواية ابن الأنباري شارح المفضليات . وقوله " لامهاه " ، يقال : ليس لعيشنا مهه (بفتحتين) ومهاه : أي ليس له حسن أو نضارة . وقد زعموا أن الواو في قوله " فإذا وذلك . " زائدة مقحمة ، كأنه قال : فإذا ذلك . . . ، وقد قال الطبري في تفسير قوله تعالى : " حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين " ج ٢٤ ص ٢٤ : " واختلف أهل العربية في موضع جواب " إذا " التي في قوله : (حتى إذا جاءوها) ، فقال بعض نحويي البصرة ، يقال إن قوله : (وقال لهم خزنتها) في معنى : قال لهم . كأنه يلغى الواو . وقد جاء في الشعر شيء يشبه أن تكون الواو زائدة ، كما قال الشاعر : فَإِذَا وَذَلِكَ يَا كُبَيْشَةُ لَمْ يَكُنْ ... إلا تَوَهُّمَ حَالِمٍ بِخَيَالِ فيشبه أن يكون يريد : فإذا ذلك لم يكن " . وقال أبو سعيد السكري في شرح أشعار الهذليين ٢ : ١٠٠ ، في شرح بيت أبي كبير الهذلي :

فَإِذَا وَذَلِكَ لَيْسَ إلا حِينَهُ وَإِذَا مَضَى شَيْءٌ كَأَنْ لَمْ يُفْعَلِ

قال أبو سعيد : " الواو زائدة . قال : قلت لأبي عمرو : يقول الرجل : ربنا ولك الحمد . فقال : يقول الرجل : قد أخذت هذا بكذا وكذا . فيقول : وهو لك " . وقال ابن الشجري في أماليه ١ : ٣٥٨ : " قيل في الآية إن الواو مقحمة ، وليس ذلك بشيء ، لأن زيادة الواو لم تثبت في شيء من الكلام الفصيح " . والذي ذهب إليه ابن الشجري هو الصواب ، ولكل شاهد مما استشهدوا به وجه في البيان ، ليس هذا موضع تفصيله . وكفى برد الطبري في هذا الموضع ما زعمه أبو عبيدة من زيادة " إذ " كما سيأتي : " وغير جائز إبطال حرف كان دليلا على معنى في الكلام " إلى آخر ما قال . وهو من سديد الفهم . وشرحه للبيت بعد ، يدل على أنه لا يرى زيادة الواو ، وذلك قوله في شرحه : " فإذا الذي نحن فيه ، وما مضى من عيشنا " .[حاشية الطبري: ٤٣٩/١].

(٤) ديوان الهذليين ٢ / ٤٢، وفي تفسير الطبري: ٤٣٩/١، ١٤ / ٨ ، ١٨ / ١٣ ، ٢٤ / ٢٥ (طبعة بولاق) والخزانة ٣ / ١٧٠ - ١٧٤ ، وأمالي ابن الشجري ١ / ٣٥٨ ، ٢ / ٢٨٩ ، وكثير غيرها . وسلك الرجل الطريق ، وسلكه غيره فيه ، وأسلكه الطريق : أدخله فيه أو اضطره إليه . وقتائدة : جبل بين المنصرف والروحاء ، أي في الطريق بين مكة والمدينة . وشل السائق الإبل : طردها أمامه طردًا . ومر فلان يشل العدو بالسيف : يطردهم طردًا يفرون أمامه . والجمالة : أصحاب الجمال . وشرد البعير فهو شارد وشرود : نفر وذهب في الأرض ، وجمع شارد شرد (بفتحتين) مثل خادم وخدم . وجمع شرود شرد (بضمتين) . ويذكر عبد مناف قومًا أغاروا على عدو لهم ، فأزعجوهم عن منازلهم ، واضطروهم إلى " قتائدة " يطردونهم بالسيوف والرماح والنبال ، كما تطرد الإبل الشوارد . وجواب " إذا " تقديره : شلوهم شلا ، فعل محذوف دل عليه المصدر ، كما سيأتي في كلام الطبري بعد .

(٥) أنظر: تفسير الطبري: ٤٣٩/١ وما بعدها، والنكت والعيون: ٩٣/١.

(٦) أنظر: النكت والعيون: ٩٣/١.

(٧)من قصيدة محكمة في مختارات ابن الشجري ١ / ١٦ ، والخزانة ٤ / ٤٣٨ ، وشرح شواهد المغني : ٦٥ ، وبعده : وإنْ تتخطَّاكَ أَسْبَابُها ... فإن قُصَاراكَ أنْ تهرمَا

يريد : أينما ذهب. وكما تقول العرب : " أتيتك من قبلُ ومن بعدُ " . تريد من قبل ذلك ، ومن بعد ذلك. فكذلك ذلك في " إذا " كما يقول القائل :" إذا أكرمك أخوكَ فأكرمه ، وإذا لا فلا " . يريد : وإذا لم يكرمك فلا تكرمه. ومن ذلك قول الآخر(١):

فَإِذَا وَذَلِكَ لا يَضُرُّكَ ضُرُّهُ   فِي يَوْمِ أسأَلُ نَائِلا أو أنْكَدُ

قال الطبري: " وكذلك معنى قول الله جل ثناؤه : {وإذ قالَ ربك للملائكة}، لو أبْطِلت (إذ) وحُذِفت من الكلام ، لاستحال عن معناه الذي هو به، وفيه (إذ)"(٢).

قال ابن عطية:"قال الجمهور: ليست بزائدة وإنما هي معلقة بفعل مقدر تقديره واذكر إذ قال"(٣).

و(الملائكة): واحدها ملك، وأصله (مَلْأَك)، مهموز، حذف همزه لكثرة الاستعمال، وأنشد(٤):

فَلَسْتَ لإنْسِيٍّ ولكن لمَلْأَكٍ   تَنَزَّلَ مِنْ جَوِّ السَّماء يَصُوبُ

وهذا قول سيبويه(٥)، وتابعه على هذا القول أكثر أهل العلم"(٦).

وأصل الملأك : الرسالة ، كما قال عدي بن زيد العِبَادِيّ(٧) :

أبْلِغ النُّعْمَانَ عَنِّي مَلأكًا   إنَّهُ قَدْ طَالَ حَبْسِي وَانْتِظَارِي

وقد ينشد : مألكًا ، على اللغة الأخرى. فمن قال : ملأكًا فهو مَفْعل ، من لأك إليه يَلأك إذا أرسل إليه رسالة مَلأكة؛ ومن قال : مَألكًا فهو مَفْعَل من ألكت إليه آلك : إذا أرسلت إليه مألكة وألوكًا ، كما قال لبيد بن ربيعة(٨):

وَغُلامٍ أرْسَلَتْه أُمُّه   بِألُوكٍ فَبَذَلْنَا مَا سَأَلْ

فهذا من " ألكت " ، ومنه قول نابغة بني ذبيان(٩):

أَلِكْنِي يَا عُيَيْنَ إلَيْكَ قَوْلا   سَأَهْدِيه ، إلَيْكَ إلَيْكَ عَنِّي

وقال عبدُ بني الحَسْحَاس(١٠):

أَلِكْنِي إِلَيْهَا عَمْرَكَ اللَّهُ يَا فَتًى   بِآيَةِ ما جاءتْ إلَيْنَا تَهَادِيَا

يعني بذلك : أبلغها رسالتي. فسميت الملائكةُ ملائكةً بالرسالة ، لأنها رُسُل الله بينه وبين أنبيائه ، ومن أرسلت إليه من عباده(١١).

---

(١) البيت من شواهد الطبري: ٤٤٢/١، ولم أتعرف على قائله.

(٢) تفسير الطبري: ٤٤٢/١.

(٣) المحرر الوجيز: ١١٦/١.

(٤) نسبه بعضهم لعلقمة بن الفحل، يمدح الحارث بن جبلة، وقيل: لرجل من عبد القيس جاهلي، يمدح بعض الملوك، قاله أبو عبيدة، وقيل: لأبي وجزة السعدي يمدح عبد الله بن الزبير. ورد البيت في "الكتاب" ٤/ ٣٨٠، و"الطبري" في "تفسيره" ١/ ٤٤٤ وما بعدها، "المفضليات" ص ٣٩٤، "مجاز القرآن" ص ٣٣، "المنصف" ٢/ ١٠٢، "الجمل" للزجاجي ص ٤٧، "إملاء ما من به الرحمن" ١/ ٢٨، "تفسير ابن عطية" ١/ ١٨٩، "الاشتقاق" لابن دريد ص ٢٦، "اللسان" (صوب) ١/ ٢٥١٩، و (ألك) ١/ ١١١، "الدر المصون" ١/ ١٦٨.

(٥) أنظر: الكتاب: ٣٠٨/٢.

(٦) أنظر: التفسير البسيط: ٣٠٨/٢. أصلها (ملأك)، يحذفون الهمزة منه، وينقلون حركتها إلى اللام وكانت مسكنة في حال همز الاسم. فإذا جمع الاسم ردوا الهمزة على الأصل فقالوا: (ملائكة)، انظر: "تفسير الطبري" ١/ ١٩٧، والثعلبي في "تفسيره" ١/ ٦٠ أ، "مجاز القرآن" ١/ ٣٥، "معاني القرآن" للزجاج ١/ ٨٠، "تهذيب اللغة" (ملك) ٤/ ٣٤٤٩.

(٧)الأغاني ٢ : ١٤ ، والعقد الفريد ٥ : ٢٦١ ، وفي المطبوعة " وانتظار " ، وهي إحدى قصائد عدي ، التي كان يكتبها إلى النعمان ، لما حبسه في محبس لا يدخل عليه فيه أحد . وبعده البيت المشهور ، وهو من تمامه : لَوْ بِغَيْرِ المَاءِ حَلْقِي شرقٌ ... كُنْت كالغَصَّانِ بالماء اعتصاري.

(٨)ديوانه القصيدة رقم : ٣٧ ، البيت : ١٦ ، وقوله " وغلام " مجرور بواو " رب " . أرسلت الغلام أمه تلتمس من معروف لبيد ، فأعطاها ما سألت .

(٩) ديوانه: ٨٥، وانظر: تفسير الطبري: ٤٤٦/١.

(١٠)الشعر لسحيم عبد بني الحسحاس ، ديوانه : ١٩، ألكنى إليها : أبلغها رسالة مني ، والرسالة : الألوك والمألكة. وتهادى في مشيه : تمايل دلالا أو ضعفًا.

(١١) أنظر: تفسير الطبري: ٤٤٤/١-٤٤٧. (بتصرف بسيط).

قال الماوردي:" والملائكة أفضل الحيوان وأعقل الخلق ، إلا أنهم لا يأكلون ، ولا يشربون ، ولا ينكحون ، ولا يتناسلون ، وهم رسل الله ، لا يعصونه في صغير ولا كبير ، ولهم أجسام لطيفة لا يُرَوْنَ إلا إذا قوّى الله أبصارنا على رؤيتهم"(١).

قوله تعالى: {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأرض خَلِيفَةً}[البقرة:٣٠]، "أي: خالق في الأرض ومتخذ فيها خليفة يخلفني في تنفيذ أحكامي فيها"(٢).

قال السدي: "فاستشار الملائكة في خلق آدم"(٣). وكذا روي عن قتادة(٤).

روي عن محمد بن إسحاق: "قوله {إني جاعل في الأرض خليفة}، يقول: ساكنا وعامرا يسكنها ويعمرها خلقا، ليس منكم"(٥).

وروي "عن ابن سابط، أن النبي- صلى الله عليه وسلم- قال: دحيت الأرض من مكة، وأول من طاف بالبيت الملائكة فقال:{إني جاعل في الأرض خليفة}، يعني مكة"(٦).

وروي "عن ابن عباس قال: أخرج الله آدم من الجنة قبل أن يسكنها إياه، ثم قرأ: {إني جاعل في الأرض خليفة}"(٧).

قال ابن عطية:" وإن قال قائل ما الحكمة في قول الله تعالى للملائكة {إِنِّي جاعِلٌ} الآية، قيل: هذا منه امتحان لهم واختبار ليقع منهم ما وقع ويؤدبهم تعالى من تعليم آدم وتكريمه بما أدب"(٨).

قال الزجاج:" وفي ذكر هذه الآية احتجاج على أهل الكتاب بتَثْبيتِ نبوة النبي - صلى الله عليه وسلم - أنَّ خَبَرَ آدم وما أمره اللَّه به من سجود الملائكة له معلوم عندهم، وليس هذا مِنْ علم العرب الذي كانت تعلمه، ففي إخبار النبي - صلى الله عليه وسلم -

دليل على تثبيت رسالته إذ آتاهم بما ليس من علم العرب، وإنما هو خبر لا يعلمه إلا من قرأ الكتاب أو أوحي إليه به"(٩).

قال ابن عطية:" وقرأ زيد بن علي «خليقة» بالقاف"(١٠).

واختلفوا في معنى { جَاعِلٌ }، في قوله تعالى:{إِنِّي جَاعِلٌ في الأَرْض خَلِيفَةً}[البقرة:٣٠]، على وجهين (١١):

أحدهما : أنه بمعنى خالق . قاله أبو روق(١٢).

والثاني: إني فاعل. قاله الحسن(١٣) وقتادة(١٤).

والراجح في تفسير قوله تعالى: {إِنِّي جَاعِلٌ في الأَرْضِ خَلِيفَةً}: "أي مستخلف في الأرض خليفة ، ومُصَيِّر فيها خَلَفًا. وذلك أشبه بتأويل قول الحسن وقتادة"(١٥).

وقوله {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً}[البقرة:٣٠]، اختلف العلماء في المراد بالخليفة هنا، وفي المسألة أربعة أقوال:

---

(١) النكت والعيون: ٩٤/١.
(٢) صفوة التفاسير: ٤١/١.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٣١٤):ص٧٦/١.
(٤) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٧٦/١.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(٣١٦):ص٧٦/١، والطبري(٦٠٠):ص٤٤٩/١.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(٣١٧):ص٧٦/١، والطبري(٥٩٩):ص٤٤٨/١.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(٣١٩):ص٧٦/١، وهو جزء من الخبر(٣٢٢):ص٧٧/١، وأخرجه الحاكم: ٢/ ٣٦١، قال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. وقال الذهبي: صحيح.
(٨) المحرر الوجيز: ١٢١/١.
(٩) معاني القرآن: ١٠٨/١.
(١٠) المحرر الوجيز: ١١٧/١.
(١١) أنظر: تفسير الطبري: ٤٤٧/١-٤٤٨.
(١٢) أنظر: تفسير الطبري(٥٩٨):ص٤٤٨/١.
(١٣) أنظر: تفسير الطبري(٥٩٧):ص٤٤٧/١.
(١٤) أنظر: تفسير الطبري(٥٩٧):ص٤٤٧/١.
(١٥) تفسير الطبري: ٤٤٨/١.

أحدها: أن الخليفة آدم-عليه الصلاة والسلام-لأنه خلف من سكن الأرض قبله من الجن أو الملائكة-على قولين لأهل العلم-وعليه فالخليفة فعيلة بمعنى فاعل والتاء للمبالغة عند قوم من النحاة، أو للعدل عن الوصف إلى الاسم فإن كلمة خليفة صفة في الأصل ثم أجريت مجرى الأسماء فألحقت التاء لذلك[١].

ويقوي هذا القول إفراد لفظ (خليفة) في الآية، وقد قال به الواحدي[٢]، والقرطبي[٣]، وابن القيم[٤]، والخازن[٥]، والغرناطي[٦]، وحكوا الإجماع على ذلك.

وقد رد دعوى الإجماع ابن كثير[٧]، والكوكباني[٨]، والخلاف في المسألة قديم مشهور كما سيتضح في الأقوال التالية[٩].

والثاني: أن الخليفة آدم وبنوه وأفرد لفظ (خليفة) استغناء بذكر آدم عن ذكر بنيه كما يستغنى بذكر أب القبيلة في قولنا مضر وتميم وقيس عن ذكر القبيلة. أو أريد بالخليفة من يخلفكم أو خلفاً يخلفكم أو خليفة منكم. والخليفة يصلح للواحد والجمع كما يصلح للذكر والأنثى[١٠].

والثالث: أن المراد: أولو الأمر ابتداء بآدم-عليه السلام-ومروراً بمن قام مقامه في ذلك من ولده إلى انقضاء العالم[١١].

وقد اختلفت عبارات أهل العلم في حكاية هذا القول:

فقال ابن عطية: "وقال ابن مسعود: إنما معناه خليفة مني في الحكم بين عبادي بالحق وبأوامري، يعني بذلك آدم-عليه السلام-ومن قام مقامه بعده من ذريته"[١٢].

وقال القرطبي :" وهو خليفة الله في إمضاء أحكامه وأوامره لأنه أول رسول في الأرض"[١٣].

وقال البيضاوي:"المراد به آدم لأنه كان خليفة الله في أرضه"[١٤].

وقال الشنقيطي:" لأنه خليفة الله في تنفيذ أوامره"[١٥].

وتجدر الإشارة بأن لفظ الخليفة يقال لمن استخلفه غيره، ولمن خلف غيره، فآدم-عليه السلام-وبنوه القائمون مقامه في ولاية الأمر ليسوا خلفاء ونواباً عن الله-عز وجل-وإنما الله-عز وجل-استخلفهم في ذلك عمن سبقهم تشريفاً وتكريماً لهم، فولي الأمر يقوم بما أوجبه الله-عز وجل-عليه من سياسة الأرض بالدين، فبالله تعالى يَخْلُفُ وهو-سبحانه-لا يُخْلَف ولا يُنَاب عنه لأنه-سبحانه-مشاهِد قريب بصير سميع مدبر فمحال أن يَخْلِفَه غيره، بل العبد هو الذي يحتاج إلى من يخلفه لغيبته أو موته أو عجزه ولذا جاء في صحيح مسلم: "اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل"[١٦].

---

(١)انظر: مفتاح دار السعادة لابن القيم: ٤٧٣/١، وأضواء البيان للشنقيطي: ٥٧/١.
(٢) انظر: الوسيط: ١٣١/١.
(٣)انظر: الجامع لأحكام القرآن: ٢٦٣/١
(٤) انظر: مفتاح دار السعادة: ١٣١/١ و١٦١.
(٥) انظر: لباب التأويل: ٣٥/١.
(٦)انظر: التسهيل لعلوم التنزيل: ٧٩/١.
(٧) انظر: تفسيره:: ٩٠/١.
(٨) انظر: تيسير المنان تفسير القرآن: ٨٤٢/٢.
(٩)انظر: الإجماع في التفسير للخضيري: ١٧٤-١٧٥.
(١٠)انظر: الكشاف للزمخشري: ٢٧١/١، مفاتيح الغيب للرازي: ١٨٠/٢، البحر المحيط لأبي حيان: ١٤٠/١، محاسن التأويل للقاسمي: ٩٥/٢، وغيرها. وقد قال بهذا القول: السمين الحلبي في الدر المصون: ١٧٧/١، وابن جماعة في غرر التبيان: ١٩٩، والكوكباني في تيسير المنان تفسير القرآن: ٨٤١-٨٤٢.
(١١)ونسبه الماوردي في النكت والعيون: ٩٥/١، وأبو حيان في البحر المحيط: ١٤٠/١ وبيان الحق النيسابوري في وضح البرهان: ١٣٥/١ لابن مسعود، وذهب إليه ابن عاشور في التحرير والتنوير: ٣٩٩/١.
(١٢)في المحرر الوجيز: ١٦٤/١.
(١٣)في الجامع لأحكام القرآن: ٢٦٣/١.
(١٤) أنوار التنزيل: ٤٥/١.
(١٥) أضواء البيان: ٥٧/١.
(١٦) صحيح مسلم: ٩٧٨/٢ رقم: ١٣٤٢.

وقد اختلف أهل العلم في جواز إطلاق لفظ خليفة الله على العبد بين مانع ومجيز، وفصل ابن القيم في مفتاح دار السعادة القول فقال بعد إيراده لأدلة الفريقين: "قلت: إن أريد بالإضافة إلى الله أنه خليفة عنه فالصواب قول الطائفة المانعة، وإن أريد بالإضافة أن الله استخلفه عن غيره ممن كان قبله فهذا لا يمتنع فيه الإضافة، وحقيقتها خليفة الله الذي جعله الله خلفاً عن غيره"[١].

والرابع: أن المراد: بنو آدم لأن كل قرن منهم يخلف القرن الذي سلفه[٢].

ويدل لهذا القول: قول الله-عز وجل-: {أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ} [البقرة:٣٠]و قوله-عز وجل-: {هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ} [فاطر:٣٩]، وغير ذلك من الآيات، و(خَلِيفَة) على هذا القول يجوز أن تكون بمعنى فاعل أو مفعول، فالقرن من البشر خالف لمن قبله وهو مخلوف بمن بعده[٣]، ومال إلى هذا القول ابن جرير[٤]، وكل هذه الأقوال محتملة، وأظهرها قول من قال المراد بالخليفة آدم وبنوه، وأفرد لفظ {خَلِيْفَةً} استغناء بذكر آدم عن ذكر بنيه سواء أكانت الخلافة في سكنى الأرض أم في عمارتها وسياستها بالدين.

قوله تعالى: {قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا}[البقرة:٣٠]، "أي قالوا على سبيل التعجب والاستعلام:كيف تستخلف هؤلاء، وفيهم من يفسد في الأرض بالمعاصي"[٥].

قال ابن سابط: " يعنون الحرام"[٦].

قال ابن عثيمين:" واستفهام الملائكة للاستطلاع، والاستعلام، وليس للاعتراض"[٧].

وتعددت الأقوال في الغرض من سؤال الملائكة، على وجوه[٨]:

أحدها: أن السؤال من الملائكة على وجه الاسترشاد عما لم يعلموا من ذلك. قاله الزجاج[٩].

والثاني: أن سؤالهم على غير وجه الإنكار منهم على ربّهم ، وإنما سألوه ليعلموا، وأخبروا عن أنفسهم أنهم يسبحون.

والثالث: أنه سألته الملائكة على وجه التعجب. قاله ابن جريج[١٠]. قال الطبري: " وجه التعجب ، فدعْوَى لا دلالة عليها في ظاهر التنزيل ، ولا خبر بها من الحجة يقطعُ العذرَ"[١١].

والراجح، إن ذلك منها "استخبار لربها ، بمعنى : أعلمنا يا ربنا أجاعلٌ أنت في الأرض مَنْ هذه صفته ، وتارك أن تجعل خلفاءَك منا ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك - لا إنكارٌ منها لما أعلمها ربها أنه فاعل. وإن كانت قد استعظمتْ لما أخبرت بذلك ، أن يكون لله خلقٌ يعصيه"[١٢].

قوله تعالى: {وَيَسْفِكُ الدمآء}[البقرة:٣٠]، أي: يريق الدماء بالبغي والاعتداء!! "[١٣].

قال البغوي:" أي كما فعل بنو الجان فقاسوا الشاهد على الغائب، وإلا فهم ما كانوا يعلمون الغيب"[١٤].

وذكر أهل التفسير في قوله تعالى: {قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدمآء }[البقرة:٣٠]، وجوها:

---

(١)مفتاح السعادة: ٤٧٢/١، وانظر: منهاج السنة لابن تيمية: ٥٠٧/١-٥١٠، المفردات للراغب: ١٥٦، معجم المناهي اللفظية لبكر أبو زيد: ١٥٦-١٥٧.

(٢)وهو قول الحسن البصري كما في جامع البيان للطبري: ٤٥١/١، والنكت والعيون للماوردي: ٩٥/١ وغيرهما، وقال به ابن كثير في التفسير: ٩٠/١، والقاسمي في محاسن التأويل: ٩٤/٢.

(٣)انظر: المحرر الوجيز لابن عطية: ١٦٤/١.

(٤)انظر: جامع البيان: ٤٤٨/١.

(٥) صفوة التفاسير: ٤١/١.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٢٠):ص٧٧/١.

(٧) تفسير ابن عثيمين: ١١٣/١.

(٨) أنظر: تفسير الطبري: ٤٦٩/١-٤٧٠.

(٩) أنظر: معاني القرآن: ١٠٩/١.

(١٠) أنظر: تفسير الطبري(٦١٦):ص٤٦٩/١.

(١١) تفسير الطبري: ٤٧١/١.

(١٢) تفسير الطبري: ٤٧٠/١.

(١٣) صفوة التفاسير: ٤١/١.

(١٤) تفسير البغوي: ٧٩/١.

أحدها: أن الجن بنو الجان كانوا في الأرض قبل خلق آدم، فأفسدوا فيها، وسفكوا الدماء، ومعنى الآية:" أتجعل فيها من يفسد فيها كما أفسدت الجن، ويسفك الدماء، كما سفكوا".وهذا قول أبي العالية(١)، والحسن(٢)، وابن عباس(٣)، وروي عن عبدالله ابن عمر(٤)، والربيع(٥)، مثل ذلك.

قال الطبري: " فعلى هذا القول : {إني جاعل في الأرض خليفة}، من الجن ، يخلفونهم فيها فيسكنونها ويعمرونها"(٦).

والثاني: أن الله أعلم الملائكة، أنه إذا كان في الأرض خلق، أفسدوا فيها وسفكوا الدماء". قاله قتادة(٧)، والسدي(٨)، وابن سابط(٩).

والثالث: وقيل: أبصر بعض الملائكة خلق آدم وبعض الأمور في أم الكتاب. قاله أبو جعفر محمد بن علي(١٠).

واختلفت القراءة في قوله تعالى: {وَيَسْفِكُ الدمآء}[البقرة:٣٠]، على وجوه(١١):

أحدها: قراءة الجمهور بكسر الفاء:{ وَيَسْفِكُ}.

والثاني: وقرأ أبو حيوة وابن أبي عبلة: {ويسفُك} بضم الفاء.

والثالث: وقرأ ابن هرمز {ويسفكَ}، بالنصب بواو الصرف كأنه قال: من يجمع أن يفسد وأن يسفك، وقال المهدوي: هو نصب في جواب الاستفهام.

قال ابن عطية: "والأول أحسن"(١٢).

قوله تعالى:{وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ}[البقرة:٣٠]، ونحن" ننزهك عما لا يليق بك متلبسين بحمدك"(١٣).

قال الطبري: أي" إنا نعظّمك بالحمد لك والشكر"(١٤).

قال ابن عطية: أي:" ننزهك عما لا يليق بك وبصفاتك"(١٥).

قال ابن عثيمين:"والذي يُنَزَّه الله عنه شيئان؛ أولاً: النقص؛ والثاني: النقص في كماله؛ وزد ثالثاً إن شئت: مماثلة المخلوقين؛ كل هذا يُنَزَّه الله عنه؛ النقص: مطلقاً؛ يعني أن كل صفة نقص لا يمكن أن يوصف الله بها أبداً. لا وصفاً دائماً، ولا خبراً؛ والنقص في كماله: فلا يمكن أن يكون في كماله نقص؛ قدرته: لا يمكن أن يعتريها عجز؛ قوته: لا يمكن أن يعتريها ضعف؛ علمه: لا يمكن أن يعتريه نسيان .. وهلم جراً؛ ولهذا قال عزّ وجلّ: {ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب} [ق: ٣٨] أي تعب، وإعياء؛ فهو عزّ وجلّ كامل الصفات لا يمكن أن يعتري كماله نقص؛ ومماثلة المخلوقين: هذه إن شئنا أفردناها بالذكر؛ لأن الله تعالى أفردها بالذكر، فقال: {ليس كمثله شيء} [الشورى: ١١] . وقال تعالى: {وله

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٢٢):ص٧٧/١.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٢٣):ص٧٧/١.
(٣) أنظر: تفسير الطبري(٦٠١):ص٤٥٠/١.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٢١):ص٧٧/١، والحاكم: ٢/ ٢٦١. قال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه (عن ابن عباس) .
(٥) أنظر: تفسير الطبري(٦٠٢):ص٤٥٠/١-٤٥١.
(٦) تفسير الطبري: ٤٥٠/١.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٢٤):ص٧٧/١-٧٨.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٢٥):ص٧٨/١.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٢٦):ص٧٨/١، والطبري(٦٠٣):ص٤٥١/١، و(٦٠٨):ص٤٦٢/١.
(١٠) أنظر تفسير ابن أبي حاتم(٣٢٧):ص٧٨/١. قال ابن أبي حاتم:" حدثنا أبي ثنا هشام الرازي ثنا ابن المبارك عن معروف- يعني ابن خربوذ المكي عمن سمع أبا جعفر محمد بن علي يقول: السجل ملك، وكان هاروت وماروت من أعوانه، وكان له كل يوم ثلاث لمحات ينظرهن في أم الكتاب، فنظر نظرة لم تكن له فأبصر فيها خلق آدم وما فيه من الأمور، فأسر ذلك إلى هاروت وماروت وكانا من أعوانه، فلما قال إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء قالا ذلك استطالة على الملائكة".
(١١) أنظر: المحرر الوجيز: ١١٧/١-١١٨.
(١٢) المحرر الوجيز: ١١٨/١.
(١٣) صفوة التفاسير:٤١/١.
(١٤) تفسير الطبري: ٤٧٢/١.
(١٥) المحرر الوجيز: ١١٨/١.

المثل الأعلى} ، وقال تعالى: {فلا تضربوا لله الأمثال} [النحل: ٧٤] ؛ وإن شئنا جعلناها داخلة في القسم الأول. النقص. لأن تمثيل الخالق بالمخلوق يعني النقص؛ بل المفاضلة بين الكامل والناقص تجعل الكامل ناقصاً، كما قال القائل[١]:

أَلَمْ تَرَ أنَّ السَّيْفَ يَنقصُ قدْرُهُ إذا قيل إنّ السيفَ أمضى من العصا

لو قلت: فلان عنده سيف أمضى من العصا تبين أن السيف هذا رديء، وليس بشيء؛ فربما نفرد هذا القسم الثالث، وربما ندخله في القسم الأول؛ على كل حال التسبيح ينبغي لنا. عندما نقول: "سبحان الله"، أو: "أسبح الله"، أو ما أشبه ذلك. أن نستحضر هذه المعاني"[٢].

وقولهم: {وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ}[البقرة:٣٠]، ذكر فيه المفسرون وجوها[٣]:

أحدها: أنه هو على جهة الاستفهام، كأنهم أرادوا وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ الآية، أم نتغير عن هذه الحال.

قال ابن عطية: "وهذا يحسن مع القول بالاستفهام المحض في قولهم: {أَتَجْعَلُ}؟"[٤].

والثاني: أن معناه التمدح ووصف حالهم، وذلك جائز لهم كما قال يوسف عليه السلام: إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ [يوسف: ٥٥] .

قال ابن عطية: "وهذا يحسن مع التعجب والاستعظام لأن يستخلف الله من يعصيه في قولهم أَتَجْعَلُ وعلى هذا أدبهم بقوله تعالى: {إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ}"[٥].

والثالث: وقيل أن :معنى الآية: ونحن لو جعلتنا في الأرض واستخلفتنا نسبح بحمدك.

قال ابن عطية: "وهذا أيضا حسن مع التعجب والاستعظام في قولهم: {أَتَجْعَلُ}"[٦].

وأصلُ التسبيح لله عند العرب : التنزيهُ له من إضافة ما ليس من صفاته إليه ، والتبرئة له من ذلك ، كما قال أعشى بني ثعلبة[٧] :

أَقُولُ - لمَّا جَاءَنِي فَخْرُه - سُبْحَانَ مِنْ عَلْقَمَةَ الْفَاخِرِ

يريد : سُبحان الله من فَخر علقمة ، أي تنزيهًا لله مما أتى علقمة من الافتخار ، على وجه النكير منه لذلك[٨].

وقوله تعالى: {وبِحَمْدِكَ}، معناه: "نخلط التسبيح بالحمد ونصله به، ويحتمل أن يكون قوله بِحَمْدِكَ اعتراضا بين الكلامين، كأنهم قالوا ونحن نسبح ونقدس، ثم اعترضوا على جهة التسليم، أي وأنت المحمود في الهداية إلى ذلك"[٩].

واختلف في تسبيح الملائكة على أقوال[١٠]:

أحدها: معناه: نصلي لك. وهذا قول السدي[١١].

والثاني: أن تسبيحهم : رفع الصوت بالذكر.

---

(١) البيت في يتيمة الدهر، للثعالبي: ٢٩٩/٥. قال الثعالبي:" أبو درهم البندنيجي أنشدني الشيخ أبو بكر أيده الله تعالى له من نتفةٍ:
(متى ما أقل مولاي أفضل منهم أكن للذي فضلته متنقصا)
(ألم تر أن السيف يزري به الفتى إذا قال هذا السيف أمضى من العصا)"
(٢) تفسير ابن عثيمين:١١٣/١-١١٤.
(٣) أنظر: المحرر الوجيز: ١١٨/١.
(٤) المحرر الوجيز: ١١٨/١.
(٥) المحرر الوجيز: ١١٨/١.
(٦) المحرر الوجيز: ١١٨/١.
(٧)ديوانه : ١٠٦ ، من قصيدته المشهورة ، التي قالها في هجاء علقمة بن علاثة ، في خبر منافرة علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل (الأغاني ١٥ : ٥٠ - ٥٦) . وذكر ابن الشجري في أماليه ١ : ٣٤٨ عن أبي الخطاب الأخفش ، قال : " وإنما ترك التنوين في " سبحان " وترك صرفه ، لأنه صار عندهم معرفة " . وقال في ٢ : ٢٥٠ : " لم يصرفه ، لأن فيه الألف والنون زائدين ، وأنه علم للتسبيح ، فإن نكرته صرفته " . وانظر ص : ٤٩٥ وتعليق رقم : ٣ .
(٨) أنظر: تفسير الطبري: ٤٧٤/١.
(٩) المحرر الوجيز: ١١٨/١.
(١٠) انظر: تفسير الطبري: ٤٧٤/١. وتفسير ابن كثير: ٢٢٠/١-٢٢١.
(١١) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٣٠):ص٧٩/١، والطبري(٦١٩):ص٤٧٤/١.

والثالث:أن تسبيحهم : سبحان الله على عُرفه في اللغة، أي التسبيح المعلوم، قاله قتادة[١]، وروي عن الحسن[٢] نحو ذلك، وهذا هو الصحيح، وهو قول عامة المفسرين[٣].

قوله تعالى:{ وَنُقَدِّسُ لَكَ}[البقرة:٣٠]، " أي نثني عليك بالقدس والطهارة"[٤].

قال الصابوني: "أي: نعظم أمرك ونطهرّ ذكرك مما نسبه إليك الملحدون"[٥].

قال البغوي: " وقيل : لم يكن هذا من الملائكة على طريق الاعتراض والعجب بالعمل بل على سبيل التعجب وطلب وجه الحكمة فيه"[٦].

قال ابن عثيمين:"التقديس" معناه التطهير؛ وهو أمر زائد على "التنْزيه"؛ لأن "التنزيه" تبرئة، وتخلية؛ و"التطهير" أمر زائد؛ ولهذا نقول في دعاء الاستفتاح: "اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب؛ اللهم نقني من خطاياي كما ينقَّى الثوب الأبيض من الدنس؛ اللهم اغسلني من خطاياي بالماء، والثلج، والبَرد" : فالأول: طلبُ المباعدة؛ والثاني: طلب التنقية . يعني: التخلية بعد المباعدة؛ والثالث: طلب الغسل بعد التنقية حتى يزول الأثر بالكلية؛ فيجمع الإنسان بين تنْزيه الله عزّ وجلّ عن كل عيب ونقص، وتطهيره، أنه لا أثر إطلاقاً لما يمكن أن يعلق بالذهن من نقص"[٧].

واختلف في تقديس الملائكة، على أوجه[٨]:

أحدها: فقالوا: التقديس: هو التطهير والتعظيم، قاله ابن عباس[٩]، وروي عن الضحاك[١٠] نحو ذلك، وهو اختيار الطبري[١١]، وابن عطية[١٢].

والثاني: قيل : إن تقديس الملائكة لربها صَلاتها له. قاله قتادة[١٣]، وكذا فسره السدي[١٤]. قال ابن عطية:"وهذا ضعيف"[١٥].

والثالث: وقال بعضهم : " نقدس لك " : نعظمك ونمجدك. قاله أبو صالح[١٦] ومجاهد[١٧].

والرابع: أن التقديس معناه: لا نَعْصي ولا نأتي شيئًا تكرهُه. قاله ابن إسحاق[١٨].

والراجح هو قول ابن عباس، ومنه قولهم : " سُبُّوح قُدُّوس "، يعني بقولهم : " سُبوح "، تنزيهٌ لله، وبقولهم : " قُدوسٌ "، طهارةٌ له وتعظيم، ولذلك قيل للأرض : " أرض مُقدسة "، يعني بذلك المطهرة[١٩].

قوله تعالى: {قَالَ إني أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}[البقرة:٣٠]، أي:" أعلم من المصالح ما هو خفيٌ عليكم، ولي حكمة في خلق الخليقة لا تعلمونها"[٢٠].

---

(١) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٢٩):ص١/٧٩، والطبري(٦٢٠):ص١/٤٧٤، وانظر: تفسير عبد الرزاق ١/ ٦٥.
(٢) أنظر: تفسير البغوي: ١/٧٩، قال: " قال الحسن : نقول سبحان الله وبحمده وهو صلاة الخلق، وصلاة البهائم وغيرهما، سوى الآدميين وعليها يرزقون ".
(٣) انظر مثلا: تفسير الطبري: ١/٤٧٤. وتفسير ابن كثير: ١/٢٢٠-٢٢١، والدر المنثور ١ : ٤٦ ، والشوكاني ١ : ٥٠ .
(٤) تفسير البغوي: ١/٧٩.
(٥) صفوة التفاسير:١/٤١.
(٦) تفسير البغوي: ١/٧٩.
(٧) تفسير ابن عثيمين:١/١١٥.
(٨) انظر: تفسير الطبري: ٤٧٤-٤٧٥.
(٩) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٣١):ص١/٧٩.
(١٠) أنظر: تفسير الطبري(٦٢٥):ص١/٤٧٦.
(١١) انظر: تفسير الطبري: ١/٤٧٥.
(١٢) انظر: المحرر الوجيز: ١/١١٨. قال ابن عطية:" والتقديس التطهير بلا خلاف، ومنه الأرض المقدسة أي المطهرة، ومنه بيت المقدس، ومنه القدس الذي يتطهر به".
(١٣) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٣٢):ص١/٧٩، والطبري(٦٢١):ص٦/٤٧٤.
(١٤) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم:١/٧٩.
(١٥) المحرر الوجيز: ١/١١٨.
(١٦) أنظر: تفسير الطبري(٦٢٢):ص١/٤٧٥.
(١٧) أنظر: تفسير الطبري(٦٢٣):ص١/٤٧٥.
(١٨) أنظر: تفسير الطبري(٦٢٤):ص١/٤٧٦.
(١٩) انظر: تفسير الطبري: ١/٤٧٥.
(٢٠) صفوة التفاسير:١/٤١.

قال ابن عثيمين:" أي: من أمر هذه الخليفة التي سيكون منها النبيون، والصدِّيقون، والشهداء، والصالحون"[١].

واختلف أهل العلم في تفسير قوله تعالى :{قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ}، وذكروا أربعة أوجه[٢]:

أحدها: إني أعلم أن فيكم من يعصيني وهو إبليس. قاله ابن عباس[٣]، وابن مسعود[٤]، وروي عن مجاهد[٥]، والسدي[٦] نحو ذلك.

وذلك مما اطلع عليه من إبليس، وإضماره المعصية لله وإخفائه الكبر، مما اطلع عليه تبارك وتعالى منه وخفي على ملائكته.

والثاني: إني أعلم المصلحة فيه. قاله البغوي[٧].

والثالث: "إني أعلم أنهم يذنبون وأنا أغفر لهم"[٨].

والرابع: إني أعلم ما لا تعلمون، من أنه يكون من ذلك الخليفة أهلُ الطاعة والولايةِ لله. قاله قتادة[٩]، وبه قال أكثر أهل العلم. والله أعلم.

وقرأ أهل الحجاز والبصرة {إني أعلم} بفتح (الياء) وكذلك كل ياء إضافة استقبلها ألف مفتوحة إلا في مواضع معدودة ويفتحون في بعض المواضع عند الألف المضمومة والمكسورة وعند غير الألف وبين القراء في تفصيله اختلاف [١٠].

الفوائد:

١. من فوائد الآية: إثبات القول لله عزّ وجلّ، وأنه بحرف، وصوت؛ وهذا مذهب السلف الصالح من الصحابة، والتابعين، وأئمة الهدى من بعدهم؛ يؤخذ كونه بحرف من قوله تعالى: { إني جاعل في الأرض خليفة }؛ لأن هذه حروف؛ ويؤخذ كونه بصوت من أنه خاطب الملائكة بما يسمعونه؛ وإثبات القول لله على هذا الوجه من كماله سبحانه وتعالى؛ بل هو من أعظم صفات الكمال: أن يكون عزّ وجلّ متكلماً بما شاء كوناً، وشرعاً؛ متى شاء؛ وكيف شاء؛ فكل ما يحدث في الكون فهو كائن بكلمة { كن }؛ لقوله تعالى: {إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون} [يس: ٨٢] ؛ وكل الكون مراد له قدراً؛ وأما قوله الشرعي: فهو وحيه الذي أوحاه إلى رسله، وأنبيائه.

٢. ومن فوائد الآية: أن الملائكة ذوو عقول؛ وجهه أن الله تعالى وجه إليهم الخطاب، وأجابوا؛ ولا يمكن أن يوجه الخطاب إلا إلى من يعقله؛ ولا يمكن أن يجيبه إلا من يعقل الكلامَ، والجوابَ عليه؛ وإنما نبَّهْنا على ذلك؛ لأن بعض أهل الزيغ قالوا: إن الملائكة ليسوا عقلاء.

٣. ومنها: إثبات الأفعال لله عزّ وجلّ أي أنه تعالى يفعل ما شاء متى شاء كيف شاء؛ ومن أهل البدع من ينكر ذلك زعماً منه أن الأفعال حوادث؛ والحوادث لا تقوم إلا بحادث فلا يجيء، ولا يستوي على العرش، ولا ينْزل، ولا يتكلم، ولا يضحك، ولا يفرح، ولا يعجب؛ وهذه دعوى فاسدة من وجوه:

الأول: أنها في مقابلة نص؛ وما كان في مقابلة نص فهو مردود على صاحبه.

الثاني: أنها دعوى غير مسلَّمة؛ فإن الحوادث قد تقوم بالأول الذي ليس قبله شيء.

الثالث: أن كونه تعالى فعالاً لما يريد من كماله، وتمام صفاته؛ لأن من لا يفعل إما أن يكون غير عالم، ولا مريد؛ وإما أن يكون عاجزاً؛ وكلاهما وصفان ممتنعان عن الله سبحانه وتعالى.

---

(١) تفسير ابن عثيمين: ١١٥/١.
(٢) انظر: تفسير الطبري: ٤٧٦/١-٤٧٩.
(٣) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٣٣):ص٧٩/١، والطبري(٦٢٦):ص٤٧٦/١-٤٧٧.
(٤) أنظر: تفسير الطبري(٦٢٧):ص٤٧٧/١.
(٥) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٣٤):ص٧٩/١، والطبري(٦٢٨)، و(٦٢٩)، و(٦٣٠)، و(٦٣١)، و(٦٣٢)، و(٦٣٣)، و(٦٣٤)، و(٦٣٥)، و(٦٣٦)، و(٦٣٧):ص٤٧٧/١-٤٧٩.
(٦) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٧٩/١.
(٧) تفسير البغوي: ٧٩/١.
(٨) تفسير البغوي: ٧٩/١.
(٩) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٣٥):ص٧٩/١، والطبري(٦٣٩):ص٤٧٩/١.
(١٠) أنظر: تفسير البغوي: ٧٩/١.

فتَعَجَّبْ كيف أتي هؤلاء من حيث ظنوا أنه تنزيه لله عن النقص؛ وهو في الحقيقة غاية النقص!!! فاحمد ربك على العافية، واسأله أن يعافي هؤلاء مما ابتلاهم به من سفه في العقول، وتحريف للمنقول.

٤. ومن فوائد الآية: أن بني آدم يخلف بعضهم بعضاً . على أحد الأقوال في معنى { خليفة }؛ وهذا هو الواقع؛ فتجد من له مائة مع من له سنة واحدة، وما بينهما؛ وهذا من حكمة الله عزّ وجلّ؛ لأن الناس لو من وُلِد بقي لضاقت الأرض بما رحبت، ولما استقامت الأحوال، ولا حصلت الرحمة للصغار، ولا الولاية عليهم إلى غير ذلك من المصالح العظيمة.

٥. ومنها: قيام الملائكة بعبادة الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: {ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك}.

٦. ومنها: كراهة الملائكة للإفساد في الأرض؛ لقولهم:{أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء}.

٧. ومنها: أن وصف الإنسان نفسه بما فيه من الخير لا بأس به إذا كان المقصود مجرد الخبر دون الفخر؛ لقولهم: { ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك }؛ ويؤيد ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: "أنا سيد ولد آدم ولا فخر"[1] ؛ وأما إذا كان المقصود الفخر، وتزكية النفس بهذا فلا يجوز؛ لقوله تعالى: { فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى } [النجم: ٣٢] .

٨. ومنها: شدة تعظيم الملائكة لله عزّ وجلّ، حيث قالوا: {ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك}.

القرآن

{وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١)} [البقرة : ٣١]

التفسير:

وعلم الله آدم أسماء الأشياء، وما هو مسمى بها، ثم عرض المسميات على الملائكة قائلا لهم: أخبروني بأسماء من عرضته عليكم، إن كنتم صادقين بأنكم أوْلى بالاستخلاف في الأرض منهم لكون بني آدم يفسدون في الأرض.

قال ابن كثير:" هذا مقام ذكر الله تعالى فيه شرف آدم على الملائكة ، بما اختصه به من عِلم أسماء كلّ شيء دونهم ، وهذا كان بعد سجودهم له ، وإنما قدم هذا الفصل على ذاك ، لمناسبة ما بين هذا المقام وعدم علمهم بحكمة خلق الخليفة ، حين سألوا عن ذلك ، فأخبرهم [الله] تعالى بأنه يعلم ما لا يعلمون ؛ ولهذا ذكر تعالى هذا المقام عقيب هذا ليبين لهم شرف آدم بما فضل به عليهم في العلم"[1].

قوله تعالى:{ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا}[البقرة:٣١]، أي: علّمه"أسماء المسمّيات كلها"[2].

قال السعدي:" أي: أسماء الأشياء، وما هو مسمى بها، فعلمه الاسم والمسمى، أي: الألفاظ والمعاني"[3].

قال النسفي: " ومعنى تعليمه أسماء المسميات أنه تعالى أراه الأجناس التي خلقها وعلمه أن هذا اسمه فرس وهذا اسمه بعير وهذا اسمه كذا وهذا اسمه كذا"[4].

وقوله تعالى: {وَعَلَّمَ}[البقرة:٣١]، فيه وجهان[5]:

أحدهما: أن تعليم آدم هنا إلهام علمه ضرورة.

والثاني: وقال قوم: "بل تعليم بقول، فإما بواسطة ملك، أو بتكليم قبل هبوطه الأرض، فلا يشارك موسى-عليه السلام- في خاصته"[1].

---

(١) أخرجه أحمد ٢/٣، حديث رقم ١١٠٠٠؛ وأخرجه الترمذي ص١٩٧٠، كتاب تفسير القرآن، باب ١٧: ومن سورة بني إسرائيل، حديث رقم ٣١٤٨؛ وأخرجه ابن ماجة ص٢٧٣٩، كتاب الزهد، باب ٣٧: ذكر الشفاعة، حديث رقم ٤٣٠٨؛ ومدار الحديث على عليّ بن زيد بن جدعان، وفيه ضعف، والحديث صحيح بطرقه وشواهده، منها ما أخرجه الدارمي في المقدمة بمعناه ٣٩/١، حديث رقم ٤٧؛ وما أخرجه ابن أبي عاصم في كتاب السنة ٣٥٥/٢ ــ ٣٥٦، وقال الألباني في تخريجه: صحيح الإسناد ٣٥٦/٢، وقال في صحيح الترمذي: صحيح ٧١/٣، حديث رقم ٢٥١٦ ــ ٣٣٦٩.

(١) تفسير ابن كثير: ٢٢٢/١.

(٢) صفوة التفاسير: ٤١/١.

(٣) تفسير السعدي: ٤٨/١.

(٤) تفسير النسفي: ٥٨/١.

(٥) أنظر: المحرر الوجيز: ١١٩/١.

قال أبو حيان:" أظهرها أن الباري تعالى هو المعلم، لا بواسطة ولا إلهام"[٢].

قال ابن عطية:" وقرأ اليماني: «وعلّم» بضم العين على بناء الفعل للمفعول، «آدم» مرفوعا، قال أبو الفتح: «وهي قراءة يزيد البربري»"[٣].

في تسميته بآدم قولان :

أحدهما : أنه سمي آدم لأنه خلق من أديم الأرض ، وأديمها هو وجهها الظاهر ، وهذا قول ابن عباس ، واختيار البغوي[٤]، والزمخشري[٥]، والبيضاوي[٦]، وغيرهم.

وقد رَوَى أبو موسى الأشعري قال : قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: " إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والسهل والحزن، والخبيث والطيب"[٧].

والثاني : أنه مأخوذ من الأدمة ، وهي اللون ، فسمي بلك لسمرة لونه، يقال: رجل آدم نحو أسمر، قال ابن عطية:" وآدَمَ أفعل مشتق من الأدمة وهي حمرة تميل إلى السواد، وجمعه أدم وأوادم كحمر وأحامر، ولا ينصرف بوجه"[٨].

والثالث: وقيل: سمي بذلك لكونه من عناصر مختلفة وقوى متفرقة، كما قال تعالى: {من نطفة أمشاج نبتليه} [الإنسان:٢][٩].

والرابع: أنه مأخوذ من سيد القوم، يقال: هو أدمة قومه: سيدهم ومقدمهم[١٠].

والخامس: وقيل: سمي بذلك لما طيب به من الروح المنفوخ فيه المذكور في قوله تعالى: {ونفخت فيه من روحي} [الحجر:٢٩]، وجعل له العقل والفهم والروية التي فضل بها على غيره، كما قال تعالى: {وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا} [الإسراء:٧٠]، وذلك من قولهم: الإدام، وهو ما يطيب به الطعام[١١]، وفي الحديث: "لو نظرت إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما" [١٢] أي: يؤلف ويطيب.

قال السمين الحلبي:" أرجحها [أنه] اسم أعجمي غير مشتق، ووزنه فاعل كنظائره نحو: آزر وشالح، وإنما منع من الصرف للعلمية والعجمة الشخصية"[١٣].

واختلف أهل التفسير، في قوله: {الْأَسْمَاءَ}[البقرة:٣١]، على وجهين[١٤]:

أحدهما: أن الله «علمه التسميات». وهذا قول الجمهور.

والثاني: أنه تعالى«عرض عليه الأشخاص».

قال ابن عطية: "والأول أبين، ولفظة- علمه- تعطي ذلك"[١٥].

واختلف العلماء في المراد في هذه الأسماء التي علمها الله آدم، على وجوه :

أحدها: أسماء الملائكة. قاله الربيع بن خثيم[١].

---

(١) المحرر الوجيز: ١١٩/١.

(٢) البحر المحيط: ١٢٠/١.

(٣) المحرر الوجيز: ١١٩/١.

(٤) تفسير البغوي: ٧٩/١.

(٥) أنظر: الكشاف: ١٢٥/١.

(٦) أنظر: تفسيره: ٦٩/١.

(٧) رواه أبو داود(٤٦٩٣)، والترمذي(٢٩٥٥)، وأحمد(١٩٥٩٧):ص٤٠٠/٤، قال الترمذي: حديث صحيح، وصححه الألباني: في صحيح الجامع(١٧٥٩).

(٨) المحرر الوجيز: ١١٩/١.

(٩) انظر: مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني: ١٨/١-١٩.

(١٠)انظر: المجمل ٩٠/١، وأساس البلاغة ص ٤.

(١١) انظر: المجمل ٩٠/١.

(١٢) الحديث عن المغيرة بن شعبة أنه خطب امرأة فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "انظر إليهما فإنه أحرى أن يؤدم بينكما". أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن. انظر: عارضة الأحوذي ٣٠٧/٤؛ وأخرجه النسائي في سننه ٧٠/٦؛ وابن ماجه ٥٩٩/١).

(١٣) الدر المصون: ٢٦٢/١.

(١٤) أنظر: المحرر الوجيز: ١١٩/١.

(١٥) المحرر الوجيز: ١١٩/١.

والثاني: أسماء الذرية. قاله عبدالرحمن بن زيد[٢].
والثالث: أن الله علمه أسماء الملائكة وذريته، قاله الطبري،ورجحه بقوله تعالى: {ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ}، وهذه عبارة من يعقل[٣].
والرابع: علمه أسماء النجوم فقط. قاله حميد الشامي[٤].
والخامس: وحكى النقاش عن ابن عباس، أنه تعالى علمه كلمة واحدة عرف منها جميع الأسماء[٥].
والسادس: وقال بعضهم: "بل علمه الأسماء بكل لغة تكلمت بها ذريته"[٦] ، قال ابن عطية: "وقد غلا قوم في هذا المعنى حتى حكى ابن جني عن أبي علي الفارسي أنه قال: «علم الله تعالى آدم كل شيء، حتى إنه كان يحسن من النحو مثل ما أحسن سيبويه» ، ونحو هذا من القول الذي هو بين الخطأ من جهات"[٧].
والسابع: أنه تعالى علمه منافع كل شيء ولما يصلح[٨].
والثامن: أسماء جميع الأشياء ، وهذا قول ابن عباس[٩]، وقتادة[١٠]، ومجاهد[١١]، وسعيد بن جبير[١٢]، والحسن[١٣]، والربيع[١٤]، واختاره ابن كثير[١٥].
فقالوا: أنه تعالى علمه أسماء كل شيء، ذواتها وصفاتها وأفعالها، أسماء الملائكة وأسماء النبيين وأسماء ذرية آدم وأسماء البحار والأشجار والأحجار والأواني، واختار هذا القول ابن كثير رحمه الله، لعموم قوله تعالى {وعلم آدم الأسماء كلها}[١٦]، ولحديث الشفاعة الطويل لما يأتون الناس إليه ".. فيقولون : يا آدم أنت أبو البشر، وعلمك أسماء كل شيء"[١٧] [١٨].

---

(١) أنظر: تفسير الطبري(٦٥٩):ص٤٨٥/١.
(٢) أنظر: تفسير الطبري(٦٦٠):ص٤٨٥/١.
(٣) أنظر: تفسير الطبري: ٤٨٥/١.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٣٩):ص٨٠/١..
(٥) أنظر: المحرر الوجيز: ١٢٠/١.
(٦) أنظر: المحرر الوجيز: ١٢٠/١.
(٧) المحرر الوجيز: ١٢٠/١.
(٨) أنظر: المحرر الوجيز: ١٢٠/١. قال ابن عطية: وهذا رأي أكثر العلماء.
(٩) أنظر: تفسير الطبري(٦٤٦):ص٤٨٢/١، و(٦٥١):ص٤٨٣/١. ولفظه: " علمه اسم القصعة والفسوة والفُسَيَّة". وفي الخبر(٦٥٢):ص٤٨٣/١-٤٨٤. لفظه:" حتى الفسوة والفُسيَّة". وفي الخبر(٦٥٣):ص٤٨٤/١. ولفظه:" علمه اسم كل شيء حتى الهَنة والهُنَيَّة والفسوة والضرطة". وفي الخبر(٦٥٤):ص٤٨٤/١. ولفظه:" علمه القصعة من القُصيعة ، والفسوة من الفسية".
(١٠) أنظر: تفسير الطبري(٦٥٥)، و(٦٥٦)- و(٦٥٧):ص٤٨/١-٤٨٥..
(١١) أنظر: تفسير الطبري(٦٤٧)، و(٦٤٨)، و(٦٤٩):ص٤٨٣/١.
(١٢) أنظر: تفسير الطبري(٦٥٠):ص٤٨٣/١.
(١٣) أنظر: تفسير الطبري(٦٥٧):ص٤٨٤/١-٤٨٥.
(١٤) أنظر: تفسير الطبري(٦٥٨):ص٤٨٥/١.
(١٥) أنظر: تفسيره:٢٢٣/١.
(١٦) انظر: تفسير ابن كثير: ٢٢٣/١.
(١٧)صحيح البخاري برقم (٤٤٧٦)، و صحيح مسلم برقم (١٩٣) وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٢٤٣) وسنن ابن ماجة برقم (٤٣١٢).
(١٨)قال البخاري في تفسير هذه الآية من كتاب التفسير من صحيحه : حدثنا مسلم بن إبراهيم ، حدثنا مسلم ، حدثنا هشام ، حدثنا قتادة ، عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال لي خليفة : حدثنا يزيد بن زُرَيع ، حدثنا سعيد ، عن قتادة عن أنس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال - : "يجتمع المؤمنون يوم القيامة ، فيقولون : لو استشفعنا إلى ربنا ؟ فيأتون آدم فيقولون : أنت أبو الناس ، خلقك الله بيده ، وأسجد لك ملائكته ، وعلمك أسماء كل شيء ، فاشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا ، فيقول : لَسْتُ هُنَاكُمْ ، ويذكر ذنبه فيستحي ؛ ائتوا نوحًا فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض ، فيأتونه فيقول : لست هُنَاكُم. ويذكر سؤاله ربه ما ليس له به علم فيستحي. فيقول : ائتوا خليل الرحمن ، فيأتونه ، فيقول : لست هُنَاكم ؛ فيقول : ائتوا موسى عَبْدًا كَلمه الله ، وأعطاه التوراة ، فيأتونه ، فيقول : لست هُنَاكُمْ ، ويذكر قَتْلَ النفس بغير نفس ، فيستحي من ربه ؛ فيقول : ائتوا عيسى عَبْدَ الله ورسولَه وكَلِمة الله وروحه ، فيأتونه ، فيقول : لست هُنَاكُم ، ائتوا محمدًا عبدًا غَفَر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فيأتوني ، فأنطلق حتى أستأذن على ربي ، فيُؤذن لي ، فإذا رأيت ربي وقعتُ ساجدًا ، فيدعني ما شاء الله ، ثم يقال : ارفع رأسك ، وسل تعطه ، وقل يُسْمَع ، واشفع تُشَفَّع ، فأرفع رأسي ، فأحمده بتحميد يعلمُنيه ، ثم أشفع فيحد

قال ابن عطية:" وهذه كلها احتمالات، قال الناس بها"[1].

قلت: إن القول الثاني هو الأشبه بالصواب، وذلك لما روي عن "ابن عباس وعكرمة وقتادة ومجاهد وابن جبير : علمه أسماء جميع الأشياء كلها جليلها وحقيرها، وروى عاصم بن كليب عن سعد مولى الحسن بن علي قال : كنت جالسا عند ابن عباس فذكروا اسم الآنية واسم السوط، قال ابن عباس : "وعلم آدم الأسماء كلها"[2].

قوله تعالى: {ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ}[البقرة:٣١]، أي: عرض المسميات"[3] على الملائكة.

قال السعدي:"امتحانا لهم، هل يعرفونها أم لا؟"[4].

قال النسفي: "وإنما استنبأهم وقد علم عجزهم عن الإنباء على سبيل التبكيت"[5].

قال أبو حيان:"{ثم} : حرف تراخ ، ومهلة علم آدم ثم أمهله من ذلك الوقت إلى أن قال : { أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ}[البقرة:٣٣]، ليتقرر ذلك في قلبه ويتحقق المعلوم ثم أخبره عما تحقق به واستيقنه، وأما الملائكة فقال لهم على وجه التعقيب دون مهلة { أَنْبِئُونِي}، فلما لم يتقدم لهم تعريف لم يخبروا ، ولما تقدم لآدم التعليم أجاب وأخبر ونطق إظهارا لعنايته السابقة به سبحانه"[6].

وقد قرأ عبد الله بن مسعود : {ثم عرضهن}، وقرأ أبي بن كعب : {ثم عرضها}، أي: السماوات"[7].

وفيما عرضه عليهم قولان[8] :

أحدهما : أنه عرض عليهم الأسماء دون المسميات. روي عن ابن عباس[9]، وابن زيد[10]، وقتادة[11]، ومجاهد[12] -في أحد قوليه-، نحو ذلك.

والثاني : أنه عرض عليهم المُسَمَّيْنَ بها. قاله ابن مسعود[13]، ومجاهد[14]، وروي عن "الحسن، وقتادة"[15] مثل ذلك.

قال ابن عطية:" والذي يظهر أن الله تعالى علم آدم الأسماء وعرض مع ذلك عليه الأجناس أشخاصا، ثم عرض تلك على الملائكة وسألهم عن تسمياتها التي قد تعلمها آدم، ثم إن آدم قال لهم هذا اسمه كذا، وهذا اسمه كذا"[16].

لي حدًا فأدخلهم الجنة ، ثم أعود إليه، وإذا رأيت ربي مثله، ثم أشفع فيحد لي حدًا فأدخلهم الجنة، ثم أعود الرابعة فأقول : ما بقي في النار إلا مَنْ حبسه القرآن ووجب عليه الخلود".
هكذا ساق البخاري هذا الحديث هاهنا. وقد رواه مسلم والنسائي من حديث هشام ، وهو ابن أبي عبد الله الدَّسْتُوائي، عن قتادة ، به. وأخرجه مسلم والنسائي وابن ماجه من حديث سعيد ، وهو ابن أبي عَرُوبَة، عن قتادة".[صحيح البخاري برقم (٤٤٧٦)، و صحيح مسلم برقم (١٩٣) وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٢٤٣) وسنن ابن ماجة برقم (٤٣١٢)].

(١) المحرر الوجيز: ١٢٠/١.
(٢) انظر: تفسير القرطبي: ٢٨٢/١.
(٣) تفسير السعدي: ٤٨/١.
(٤) تفسير السعدي: ٤٨/١.
(٥) تفسير النسفي: ٥٨/١.
(٦) البحر المحيط: ١٢١/١.
(٧) أنظر: تفسير ابن كثير: ٢٢٣/١..
(٨) أنظر: النكت والعيون: ١٠٠/١.
(٩) أنظر: تفسير الطبري(٦٦١):ص٤٨٧/١. ولفظه:" ثم عرض هذه الأسماء ، يعني أسماء جميع الأشياء ، التي علّمها آدم من أصناف جميع الخلق".
(١٠) أنظر: تفسير الطبري(٦٦٣):ص٤٨٧/١. ولفظه:" أسماء ذريته كلّها ، أخذهم من ظهره. قال : ثم عرضهم على الملائكة".
(١١) أنظر: تفسير الطبري(٦٦٤):ص٤٨٧/١. ولفظه:" علمه اسم كل شيء ، ثم عرض تلك الأسماء على الملائكة".
(١٢) أنظر: تفسير الطبري(٦٦٦):ص٤٨٨/١. ولفظه:" يعني عرض الأسماء ، الحمامة والغراب".
(١٣) أنظر: تفسير الطبري(٦٦٢):ص٤٨٧/١. ولفظه:" ، ثم عرض الخلقَ على الملائكة".
(١٤) أنظر: تفسير الطبري(٦٦٥):ص٤٨٨/١. ولفظه:" عرض أصحاب الأسماء على الملائكة".
(١٥) أنظر: تفسير الطبري(٦٦٧):ص٤٨٨/١. ولفظهما:" علّمه اسم كل شيء : هذه الخيلَ ، وهذه البغال ، وما أشبه ذلك. وجعل يُسمي كل شيء باسمه ، وعُرِضت عليه أمة أمة".
(١٦) المحرر الوجيز: ١٢١/١.

وقال الشنقيطي:" قوله تعالى: {ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ}، يعني مسميات الأسماء لا الأسماء كما يتوهم من ظاهر الآية، وقد أشار إلى أنها المسميات بقوله : {أنبئونى بأسماء هؤلاء}، الآية، كما هو ظاهر"(١).

وفي زمان عرْضِهِم قولان(٢) :

أحدهما : أنه عرضهم بعد أن خلقهم .

والثاني : أنه صورهم لقلوب الملائكة ، ثم عرضهم قبل خلقهم .

قال ابن عثيمين: "والأظهر أنها أسماء لمسميات حاضرة بدليل قوله تعالى: {ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء} ؛ وهذه الأسماء. والله أعلم. ما يحتاج إليها آدم، وبنوه في ذلك الوقت"(٣).

قوله تعالى:{فَقَالَ أَنْبِئُونِي}[البقرة: ٣١]، أي:"أخبروني"(٤).

وقوله تعالى:{ أَنْبِئُونِي}، مأخوذ من الإنباء ، وفيه قولان(٥) :

أَظْهَرُهُمَا : أنه الإخبار، قاله ابن عباس(٦)، والنبأ الخبر ، والنبيء بالهمز مشتق من هذا، ومنه قول النابغة(٧):

وَأَنْبَأَهُ الْمُنَبِّئُ أَنَّ حَيًّا حُلُولٌ مِنْ حَرَامٍ أَوْ جُذَامِ

يعني بقوله : " أنبأه " : أخبره وأعلمه(٨).

والثاني : أن الإنباء الإعلام ، وإنما يستعمل في الإخبار مجازاً .

قال الراغب:" الإنباء : إخبار فيه إعلام ، وهو متضمن لهما ولذلك كل إنباء أخبار ، وليس كل إخبار إنباء ، وكل نبأ علماً وليس كل علم نبأ ولكونه متضمناً لهما ، ومشتملاً عليهما أجري مجرى كل واحد منهما فقيل أنبأته بكذا كقولك أخبرته وأنبأته بكذا ، كقولك أعلمته كذا ، ولا يقال : " نبأ " إلا لكل خبر يقتضي العلم كالمتواتر ، وخبر الله تعالى ، وخبر الأنبياء [عليهم السلام] وما جرى مجراها ، وسمى النبي لكونه منبئاً بما تسكن نفسه إليه ، ومنبأ بما سكن المؤمنون إليه"(٩).

قوله تعالى:{ بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ}[البقرة: ٣١]، "أي بأسماء هذه المخلوقات التي ترونها"(١٠).

قوله تعالى: {إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}[البقرة: ٣١]،"في قولكم وظنكم، أنكم أفضل من هذا الخليفة"(١١).

قال البغوي: " في أني لا أخلق خلقا إلا وكنتم أفضل وأعلم منه"(١٢).

قال النسفي: "وفيه رد عليهم وبيان أن فيمن يستخلفه من الفوائد العلمية التي هي أصول الفوائد كلها ما يستأهلون لأجله أن يستخلفوا"(١٣).

وذكر أهل العلم في فوله تعالى {إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}[البقرة: ٣١]، ستة أقاويل(١٤):

أحدها : إن كنتم صادقين أني لا أخلق خَلْقاً إلا كنتم أعلم منه ؛ لأنه هجس في نفوسهم أنهم أعلم من غيرهم .

---

(١) أضواء البيان: ٣٢/١.

(٢) أنظر: النكت والعيون: ١٠٠/١.

(٣) تفسير ابن عثيمين: ١١٩/١.

(٤) تفسير البغوي: ٨٠/١.

(٥) أنظر: النكت والعيون: ١٠٠/١.

(٦) أنظر: تفسير الطبري(٦٦٨):ص٤٨٨/١.

(٧)) ديوانه : ٨٧ من قصيدة له ، في عمرو بن هند ، وكان غزا الشام بعد قتل المنذر أبيه . وقال أبو عبيدة : هذه القصيدة لعمرو بن الحارث الغساني في غزوة العراق . ورواية الديوان : " أن حيًّا حلولا " بالنصب ، صفة " حيًّا " وهي الرواية الجيدة . وخبر " أن " محذوف ، كأنه يقول : قد تألبوا يترصدون لك . وحذفه للتهويل في شأن اجتماعهم وترصدهم . والبيت الذي يليه دال على ذلك ، وهو قوله : وَأَنَّ الْقَوْمَ نَصْرُهُمُ جَمِيعٌ ... فِئَامٌ مُجْلِبُونَ إِلَى فِئَامِ ورواية الرفع ، لا بأس بها ، وإن كنت لا أستجيدها . وقوله : " حرام " كأنه يعني بني حرام ابن ضنة بن عبد بن كبير بن عذرة بن سعد هذيم . أو كأنه يعني بني حرام بن جذام بن عدي بن الحارث ابن مرة بن أدد بن زيد . ودار جذام جبال حسمى ، وأرضها بين أيلة وجانب تيه بني إسرائيل الذي يلي أيلة ، وبين أرض بني عذرة من ظهر حرة نهيل (معجم البلدان : حسمى) .

(٨) أنظر: تفسير الطبري: ٤٨٩/١.

(٩) تفسير الراغب الأصفهاني: ١٤٢/١.

(١٠) صفوة التفاسير: ٤١/١.

(١١) تفسير السعدي: ٤٨/١.

(١٢) تفسير البغوي: ٨٠/١.

(١٣) تفسير النسفي: ٥٨/١.

(١٤) أنظر: النكت والعيون: ١٠٠/١.

والثاني : إن كنتم صادقين فيما زعمتم أن بني آدم آدم يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء. قاله ابن مسعود[١].
والثالث : إن كنتم صادقين أني إن استخلفتكم فيها سبَّحْتموني وقدَّسْتُمُوني ، فإن استخلفت غيركم فيها عصاني .
والرابع : إن كنتم صادقين فيما وقع في نفوسكم ، أني لا أخلق خلقاً إلا كنتم أفضل منه. قاله "الحسن وقتادة"[٢].
والخامس :إن كنتم عالمين لمَ أجعل في الأرض خليفة. قاله ابن عباس[٣].
والسادس : أن معناه إن كنتم صادقين، في "جواب السؤال، عالمين بالأسماء.
قالُوا: ولذلك لم يسغ للملائكة الاجتهاد وقالوا: سُبْحانَكَ حكاه النقاش. قال: ولو لم يشترط عليهم الصدق في الإنباء لجاز لهم الاجتهاد كما جاز للذي أماته الله مائة عام حين قال له {كم لبثت؟}، ولم يشترط عليه الإصابة، فقال، ولم يصب فلم يعنف"[٤].
قال ابن عطية: "وهذا كله محتمل"[٥].
واختار الطبري قول ابن عباس، فقال :والمعني " إن كنتم صادقين في قيلكم أني إن جعلت خليفتي في الأرض من غيركم عَصَاني ذريته وأفسدوا فيها وسفكوا الدماء ، وإن جعلتكم فيها أطعتموني ، واتّبعتم أمري بالتعظيم لي والتقديس. فإنكم إن كنتم لا تعلمون أسماء هؤلاء الذين عرضتُهم عليكم من خلقي ، وهم مخلوقون موجودون ترونهم وتعاينونهم ، وعَلِمه غيركم بتعليمي إيّاه ؛ فأنتم بما هو غير موجود من الأمور الكائنة التي لم توجد بَعدُ ، وبما هو مستتر من الأمور - التي هي موجودة - عن أعينكم أحرى أن تكونوا غير عالمين ، فلا تسألوني ما ليس لكم به علم ، فإني أعلم بما يصلحكم ويصلح خلقي"[٦].
قال البغوي: " علمه أسماء الأشياء وذلك أن الملائكة قالوا : لما قال الله تعالى : { إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأرْضِ خَلِيفَةً } ليخلق ربنا ما شاء فلن يخلق خلقا أكرم عليه منا وإن كان فنحن أعلم منه لأنا خلقنا قبله ورأينا ما لم يره. فأظهر الله تعالى فضله عليهم بالعلم وفيه دليل على أن الأنبياء أفضل من الملائكة وإن كانوا رسلا كما ذهب إليه أهل السنة والجماعة"[٧].
الفوائد:
١. من فوائد الآية: بيان أن الله تعالى قد يمنّ على بعض عباده بعلم لا يعلمه الآخرون؛ وجهه: أن الله علم آدم أسماء مسميات كانت حاضرة، والملائكة تجهل ذلك.
٢. ومنها: أن اللغات توقيفية . وليست تجريبية؛ "توقيفية" بمعنى أن الله هو الذي علم الناس إياها؛ ولولا تعليم الله الناسَ إياها ما فهموها؛ وقيل: إنها "تجريبية" بمعنى أن الناس كوَّنوا هذه الحروف والأصوات من التجارب، فصار الإنسان أولاً أبكم لا يدري ماذا يتكلم، لكن يسمع صوت الرعد، يسمع حفيف الأشجار، يسمع صوت الماء وهو يسيح على الأرض، وما أشبه ذلك؛ فاتخذ مما يسمع أصواتاً تدل على مراده؛ ولكن هذا غير صحيح؛ والصواب أن اللغات مبدؤها توقيفي؛ وكثير منها كسبي تجريبي يعرفه الناس من مجريات الأحداث؛ ولذلك تجد أن أشياء تحدث ليس لها أسماء من قبل، ثم يحدث الناس لها أسماء؛ إما من التجارب، أو غير ذلك من الأشياء.
٣. ومن فوائد الآيتين: جواز امتحان الإنسان بما يدعي أنه مُجيد فيه.
٤. ومنها: جواز التحدي بالعبارات التي يكون فيها شيء من الشدة؛ لقوله تعالى: { أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين.

---

(١) أنظر: تفسير الطبري(٦٧٢):ص١/٤٩٠.
(٢) أنظر: تفسير الطبري(٦٧٣):ص١/٤٩٠.
(٣) أنظر: تفسير الطبري(٦٧١):ص١/٤٩٠.
(٤) المحرر الوجيز: ١/١٢١.
(٥) المحرر الوجيز: ١/١٢١.
(٦) تفسير الطبري: ١/٤٩٠-٤٩١.
(٧) تفسير البغوي: ١/٨٠.

القرآن

{قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢)} [البقرة : ٣٢]

التفسير:

قالت الملائكة: سبحانك لا علم لنا بوجه من الوجوه إلا ما علمتنا إياه فضلا منك وجودا، إنك أنت العليم في شؤون خلقك، الحكيم في تدبيرك.

قوله تعالى: {قَالُوا سُبْحَانَكَ}[البقرة:٣٢]، أي: قالت الملائكة:" تنزيها لك"[١].

قال الثعلبي:أي:" تنزيها لك، عن الاعتراض لعلمك في حكمك وتدبيرك"[٢].

قال ابن عطية:أي: " تنزيها لك وتبرئة، أن يعلم أحد من علمك إلا ما علمته"[٣].

قوله تعالى{سُبحان} مصدر لا تصرُّف له، ومعناه : نسبِّحك ، كأنهم قالوا: نسبحك تسبيحًا ، وننزهك تنزيهًا ، ونبرّئك من أن نعلم شيئًا غير ما علمتنا[٤].

واختلف في انتصاب قوله {سُبْحَانَكَ}[البقرة:٣٢]،على وجهين[٥]:

أحدهما: أنه منصوب على المصدر. قاله الخليل.

والثاني: أنه منصوب على أنه منادى مضاف. قاله الكسائي [٦].

وقال أكثر أ÷ل العلم بأنه منصوب على المصدر، أي: نسبحك سبحانا. والله أعلم.

وتعددت عبارات أهل التفسير في معنى قوله {سُبْحَانَكَ}[البقرة:٣٢]، على وجوه:

أحدها: أنها:" كلمة أحبها الله لنفسه ورضيها، وأحب أن تقال". قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه[٧].

عن ابن أبي مليكة، عن ابن عباس: "سبحان الله، قالوا: قال تنزيه نفسه عن السوء، قال: ثم قال عمر لعلي وأصحابه عنده: "لا إله إلا الله" قد عرفناه، فما "سبحان الله"؟ فقال له علي: كلمة أحبها الله لنفسه ورضيها وأحب أن تقال"[٨].

والثاني: " اسم يعظم الله به ويحاشى به من السوء". قاله ميمون بن مهران[٩].

عن النضر بن عربي قال:" سأل رجل ميمون بن مهران عن "سبحان الله". فقال: اسم يعظم الله به ويحاشى به من السوء"[١٠].

والثالث: أن"سبحان الله" اسم لا يستطيع الناس أن ينتحلوه. قاله الحسن[١١].

عن ابن أبي مليكة، عن ابن عباس: "سبحان الله، قالوا: قال تنزيه نفسه عن السوء، قال: ثم قال عمر لعلي وأصحابه عنده: "لا إله إلا الله" قد عرفناه، فما "سبحان الله"؟ فقال له علي: كلمة أحبها الله لنفسه ورضيها وأحب أن تقال"[١٢].

قوله تعالى: {لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا}[البقرة:٣٢]، أي: " نحن لا علم لنا إلا ما علمتنا إياه"[١٣].

قال ابن إسحاق:" أي إنما أجبناك فيما علمتنا، فأما ما لم تعلمنا فإنك أعلم به منا"[١٤].

قال البغوي:" معناه فإنك أجل من أن نحيط بشيء من علمك إلا ما علمتنا"[١٥].

---

(١) تفسير البغوي: ٨٠/١.
(٢) تفسير الثعلبي: ١٧٨/١.
(٣) المحرر الوجيز: ١٢١/١.
(٤) انظر: تفسير الطبري: ٤٩٥/١.
(٥) أنظر: تفسير الثعلبي: ١٧٨/١، والمحرر الوجيز: ١٢١/١.
(٦) المحرر الوجيز: ١٢١/١.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٤٣):ص٨١/١.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٤٣):ص٨١/١.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٤٤):ص٨١/١.
(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٤٤):ص٨١/١.
(١١) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٤٥):ص٨١/١.
(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٤٣):ص٨١/١.
(١٣) صفوة التفاسير: ٤١/١.
(١٤) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٤٦):ص٨١/١.
(١٥) تفسير البغوي: ٨٠/١.

وقولهم هذا "اعتراف من الملائكة أنهم ليسوا يعلمون إلا ما علمهم الله، هذا مع أنهم ملائكة مقرَّبون إلى الله عزّ وجلّ"[١]، فكان في ذلك أوضحُ الدلالة وأبينُ الحجة ، على كذب مقالة كلّ من ادعى شيئًا من علوم الغيب من الحُزاة والكهنة والعافَةِ والمنجِّمة[٢].

قوله تعالى: {إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ} [البقرة : ٣٢]،أي: " إنك ذو العلم الواسع الشامل المحيط بالماضي والحاضر، والمستقبل"[٣].

قال الطبري:" إنك أنت يَا ربنا العليمُ من غير تعليم بجميع ما قد كان وما وهو كائن ، والعالم للغيوب دون جميع خلقك"[٤].

قال البغوي: أي إنك أنت"{العليم}، بخلقك"[٥].

قال الماوردي: "{العليم}: هو العالم من غير تعليم"[٦].

قال ابن عباس: "{العليم}، الذي قد كمل في علمه"[٧].

قال محمد بن إسحاق:" {العليم}، أي: عليم بما تخفون"[٨].

قوله تعالى:{الْحَكِيمُ}[البقرة:٣٢]،أي: "إنك أنت الحكيم في أمرك""[٩].

قال أبو العالية:" {الحكيم}: حكيم في أمره"[١٠].

وقال: محمد بن جعفر بن الزبير:" {الحكيم}: الحكيم في عذره وحجته إلى عباده"[١١].

قال ابن عباس:"{الحكيم}، الذي قد كمل في حُكمه"[١٢].

قال ابن عطية:" والْعَلِيمُ معناه: العالم، ويزيد عليه معنى من المبالغة والتكثير من المعلومات في حق الله عز وجل، والْحَكِيمُ معناه الحاكم، وبينهما مزية المبالغة"[١٣].

وأصل الحكمة في كلام العرب: "المنع، يقال: أحكمت اليتيم عن الفساد وحكمته، أي منعته. ويقال للحديدة المعترضة في فم الدابة: حكمة لأنها تمنع الدابة من الاعوجاج، والحكمة تمنع من الباطل، ومالا يجمل فلا يحل في المحكم من الأمر بمنعه من الخلل"[١٤].

وذكر أهل العلم أن {الحكيم}، له ثلاثة أوجه[١٥] :

أحدها: الحاكم العالم، المُصِيبُ للحقِّ ، ومنه سمي القاضي حاكماً ، لأنه يصيب الحق في قضائه ، وهذا قول أبي العباس المبرد، "وحينئذ يكون صفة ذات"[١٦].

والثاني: المانع من الفساد، يعني: المحكم للأمر، كي لا يتطرق إليه الفساد، ومنه سميت (حَكَمَةُ اللجام) ، لأنها تمنع الفرس من الجري الشديد، و"الحكمة هذا قياسها، لأنها تمنع من الجهل"[١٧]، ومنه قول جرير[١٨]:

أبَني حَنيفَة أحكِمُوا سُفهاءكُمْ ... إني أخافُ عليكمُ أنْ أغْضَبَا

---

(١) تفسير ابن عثيمين: ٨١/١.
(٢) انظر: تفسير الطبري: ٤٩٤/١.
(٣) تفسير ابن عثيمين:١٢١/١.
(٤) تفسير الطبري: ٤٩٥/١.
(٥) تفسير البغوي: ٨٠/١.
(٦) النكت والعيون: ١٠٠/١.
(٧) أخرجه الطبري(٦٧٤):ص٤٩٥/١.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٤٧):ص٨١/١.
(٩) تفسير الثعلبي: ١٧٨/١، وانظر: تفسير البغوي: ٨٠/١.
(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٤٨):ص٨١/١.
(١١) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٤٩):ص٨٢/١.
(١٢) أخرجه الطبري(٦٧٤):ص٤٩٥/١.
(١٣) المحرر الوجيز: ١٢١/١.
(١٤) تفسير الثعلبي: ١٧٨/١-١٧٩، وانظر: تهذيب اللغة واللسان:(حكم).
(١٥) أنظر: تفسير البغوي: ٨٠/١، والمحرر الوجيز: ١٢٢/١، والنكت والعيون: ١٠١/١.
(١٦) تفسير الثعلبي: ١٧٨/١.
(١٧)مقاييس اللغة:٩١/٢، وانظر: اللسان:(حكم).
(١٨) ديوانه: ٩٠، والبيت في اللسان:(حكم).

قوله (أَحْكِمُوا): أي: امنعوهم.
والثالث: أنه المُحْكِمُ لأفعاله، كقوله {عَذَابٌ أَلِيمٌ}[البقرة:١٠]، أي:" أي المؤلم والموجع"(١)، وكما قال عمرو بن معد يكرب(٢):

أَمِنْ رَيْحانة الدّاعي السّميعُ(٣) ... يُؤرّقُنِي وأصحابي هُجوعُ

أي المسمع.
ويجيء {الْحَكِيمُ} على هذا من صفات الفعل(٤).
قال الثعلبي:" وفي هذه الآية دليل على جواز تكليف ما لا يطاق(٥)، حيث أمر الله تعالى الملائكة بإنباء ما لم يعلموا، وهو عالم بعجزهم عنه"(٦).
الفوائد:
١. من فوائد الآية: أن الملائكة تتكلم؛ لقوله تعالى: {أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين * قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم}.
٢. ومنها: اعتراف الملائكة ـ عليهم الصلاة والسلام ـ بأنهم لا علم لهم إلا ما علمهم الله عزّ وجلّ.
ويتفرع على ذلك أنه ينبغي للإنسان أن يعرف قدر نفسه، فلا يدَّعي علم ما لم يعلم.
٣. ومنها: شدة تعظيم الملائكة لله عزّ وجلّ، حيث اعترفوا بكماله، وتنزيهه عن الجهل بقولهم: {سبحانك}؛ واعترفوا لأنفسهم بأنهم لا علم عندهم؛ واعترفوا لله بالفضل في قولهم: { إلا ما علمتنا }.
٤. ومنها: إثبات اسمين من أسماء الله؛ وهما { العليم }، و{ الحكيم }؛ فـ { العليم }: ذو العلم الواسع المحيط بكل شيء جملة وتفصيلاً لما كان، وما يكون من أفعاله، وأفعال خلقه.

---

(١) تفسير الثعلبي: ١٧٨/١.
(٢) الديوان: ١٤٠، الشعر والشعراء: ٣٣٢/١، الخزانة: ٤٦٠/٣، والأغاني: ٢٥/١٤، ٣٣، واللسان: ٢٨/١٠، والأصمعيات: ١٩٨، والصحاح: ١٢٣٣/٣، وتأويل مشكل القرآن: ٢٢٩، وقد وجدت في الكتاب الذي حققه السيد أحمد صقر خطأ -مطبعيا- في الهامش رقم(١) صفحة: ١٧، إذ قال صدره: أمن ريحانة الداعي السميع"، والصحيح: وعجزه: يُؤرّقُنِي وأصحابي هُجوعُ
(٣) ريحانة: امرأته المطلقة، وقيل أخته أم دريد بن الصمة. السميع: المسمع، وهو شاهد صيغة "فعيل" لمبالغة مفعل، تزوج عمرو امرأة من مراد يقال لها "ريحانة"، وذهب مغيرًا قبل أن يدخل بها، فلما قدم أخبر أنه قد ظهر بها وضح - وهو داء تحذره العرب - فطلقها وتزوجها رجل آخر من بني مازن بن ربيعة، وبلغ ذلك عمرًا وأن الذي قيل فيها باطل، فأخذ يشبب بها، وقيل إن "ريحانة" هي أخته، وكان الصمة والد دريد قد غزا بني زبيد فسباها، فغزا عمرو مرارًا ولم يقدر عليها.
فذكر عمرو ما كان من هذا أو ذاك، واستعاد ذكرى الشباب وما كان فيه من لهوه وصحبة الغيد. أما شيبه الذي تعجب له أمامة فليس مما يعيبه فإن له في ماضي زمانه ما يعده ذخيرة لفخره، فقد كان يغدو إلى الصيد على فرس سبوح في جريه، فتعن له حم رالوحش فيصرع منها ما يصرع، وهذا الشيب الذي نرى إنما هو خضاب الحوادث، وما أثرت فيه أهوال الحروب التي خاضها. ثم ساق بعض الحكم، وفخر باجتيازه الفلوات الموحشة، وشكا وجده، وفخر بمهره. انظر: الخزانة: ٤٦٠/٣.
(٤)أنظر: المحرر الوجيز: ١٢١/١.
(٥) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "تكليف ما لا يطاق وهو على ضربين : أحدهما: تكليف ما لا يطاق لوجود ضده من العجز، وذلك مثل أن يكلف المقعد القيام، والأعمى الخط ونقط الكتاب، وأمثال ذلك، فهذا مما لا يجوز تكليفه وهو مما انعقد الإجماع عليه، وذلك لأن عدم الطاقة فيه ملحقة بالممتنع والمستحيل، وذلك يوجب خروجه عن المقدور فامتنع تكليف مثله.
والثاني: تكليف مالا يطاق لا لوجود ضده من العجز مثل أن يكلف الكافر الذي سبق في علمه أنه لا يستحب التكليف كفرعون وأبى جهل وأمثالهم، فهذا جائز، وذهبت المعتزلة إلى أن تكليف مالا يطاق غير جائز، قال: وهذه المسألة كالأصل لهذه. قلت: وهذا الإجماع هو إجماع الفقهاء وأهل العلم، فإنه قد ذهب طائفة من أهل الكلام إلى أن تكليف الممتنع لذاته واقع في الشريعة، وهذا قول الرازي وطائفة قبله، وزعموا أن تكليف أبي لهب وغيره من هذا الباب حيث كلف أن يصدق بالأخبار التي من جملتها الإخبار بأنه لا يؤمن، وهذا غلط، فإنه من أخبر الله أنه لا يؤمن وأنه يصلي النار بعد دعاء النبي صلى الله عليه وسلم له إلى الإيمان فقد حقت عليه كلمة العذاب، كالذي يعاين الملائكة وقت الموت لم يبق بعد هذا مخاطباً من جهة الرسول بهذين الأمرين المتناقضين. وكذلك من قال: تكليف العاجز واقع محتماً بقوله: {يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ} [القلم: ٤٢]، فإنه يناقض هذا الإجماع، ومضمون الإجماع نفي وقوع ذلك في الشريعة، وأيضاً فإن مثل هذا الخطاب إنما هو خطاب تعجيز على وجه العقوبة لهم لتركهم السجود وهم سالمون يعاقبون على ترك العبادة في حال قدرتهم بأن أمروا بها حال عجزهم على سبيل العقوبة لهم، وخطاب العقوبة والجزاء من جنس خطاب التكوين، لا يشترط فيه قدرة المخاطب إذ ليس المطلوب فعله، وإذا تبينت الأنواع والأقسام زال الاشتباه والإبهام".[مجموع الفتاوى: ١٨١/٨-١٨٢].
(٦) تفسير الثعلبي: ١٧٩/١.

و{ الحكيم }: ذو الحكمة البالغة التي تعجز عن إدراكها عقول العقلاء وإن كانت قد تدرك شيئاً منها؛ و "الحكمة" هي وضع الشيء في موضعه اللائق به؛ وتكون في شرع الله، وفي قدر الله؛ أما الحكمة في شرعه فإن جميع الشرائع مطابقة للحكمة في زمانها، ومكانها، وأحوال أممها؛ فما أمر الله بشيء، فقال العقل الصريح: "ليته لم يأمر به"؛ وما نهى عن شيء، فقال: "ليته لم ينهَ عنه"؛ وأما الحكمة في قدره فما من شيء يقدره الله إلا وهو مشتمل على الحكمة إما عامة؛ وإما خاصة.

واعلم أن الحكمة تكون في نفس الشيء: فوقوعه على الوجه الذي حكم الله تعالى به في غاية الحكمة؛ وتكون في الغاية المقصودة منه: فأحكام الله الكونية، والشرعية كلها لغايات محمودة قد تكون معلومة لنا، وقد تكون مجهولة؛ والأمثلة على هذا كثيرة واضحة.

ولـ { الحكيم } معنًى آخر؛ وهو ذو الحكم، والسلطان التام؛ فلا معقب لحكمه؛ وحكمه تعالى نوعان: شرعي، وقدري؛ فأما الشرعي فوحيه الذي جاءت به رسله؛ ومنه قوله تعالى: { أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون } [المائدة: ٥٠] ، وقوله تعالى في سورة الممتحنة: { ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم } [الممتحنة ١٠ :؛ وأما حكمه القدري فهو ما قضى به قدراً على عباده من شدة، ورخاء، وحزن، وسرور، وغير ذلك؛ ومنه قوله تعالى عن أحد إخوة يوسف: {فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ} [يوسف : ٨٠].

والفرق بين الحكم الشرعي، والكوني: أن الشرعي لا يلزم وقوعه ممن حُكِم عليه به؛ ولهذا يكون العصاة من بني آدم، وغيرهم المخالفون لحكم الله الشرعي؛ وأما الحكم القدري فلا معارض له، ولا يخرج أحد عنه؛ بل هو نافذ في عباده على كل حال.

القرآن

{قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣)} [البقرة : ٣٣]

التفسير:

قال الله تعالى لآدم: أخبر الملائكة بأسماء هذه المسميات، وعندما أنبأهم باسمائها، تبيّن للملائكة فضل آدم عليهم، وحكمة الباري وعلمه في استخلاف هذه الخليفة، قال تعالى لهم: قلت لكم إني أعلم ما غاب في السماوات والأرض وأعلم ما تظهرون وما تخفون.

قوله تعالى: {قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ}[البقرة:٣٣]، أي: قال الله تعالى لآدم: " أعلمهم بالأسماء التي عجزوا عن علمها"[١].

قال ابن عثيمين:" و{آدم} هو أبو البشر؛ والظاهر أن هذا اسم له، وليس وصفاً؛ وهو مشتق لغة من الأدْمة؛ وهي لون بين البياض الخالص والسواد"[٢].

قوله:{يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ}[البقرة:٣٣]، النبأ أي الخبر، ومنه قول نابغة بني ذُبيان[٣] :

وَأَنْبَأَهُ الْمُنَبِّئُ أَنَّ حَيًّا ... حُلُولٌ مِنْ حَرَامٍ أَوْ جُذَامِ

فقوله(أنبأه)، أي: أخبره وأعلمه[١].

---

(١) صفوة التفاسير: ٤١/١.

(٢) تفسير ابن عثيمين: ١٢٣/١.

(٣)ديوانه : ٨٧ من قصيدة له ، في عمرو بن هند ، وكان غزا الشام بعد قتل المنذر أبيه . وقال أبو عبيدة : هذه القصيدة لعمرو بن الحارث الغساني في غزوة العراق . ورواية الديوان : " أن حيًّا حلولا " بالنصب ، صفة " حيًّا " وهي الرواية الجيدة . وخبر " أن " محذوف ، كأنه يقول : قد تألبوا يترصدون لك . وحذفه للتهويل في شأن اجتماعهم وترصدهم . والبيت الذي يليه دال على ذلك ، وهو قوله :

وَأَنَّ الْقَوْمَ نَصْرُهُمُ جَمِيعٌ ... فِئَامٌ مُجْلِبُونَ إِلَى فِئَامِ

ورواية الرفع ، لا بأس بها ، وإن كنت لا أستجيدها . وقوله : " حرام " كأنه يعني بني حرام ابن ضنة بن عبد بن كبير بن عذرة بن سعد هذيم . أو كأنه يعني بني حرام بن جذام بن عدي بن الحارث ابن مرة بن أدد بن زيد . ودار جذام جبال حسمى ، وأرضها بين أيلة وجانب تيه بني إسرائيل الذي يلي أيلة ، وبين أرض بني عذرة من ظهر حرة نهيل (معجم البلدان : حسمى) . فمن أجل أن بنى عذرة هذه ديارهم قريبة من جذام ، شككت فيمن عني النابغة ببني حرام في هذا البيت.

قال محمد ابن أبان: "سألت زيد بن أسلم عن قوله: {أنبئهم بأسمائهم}، قال: أنت جبريل، أنت ميكائيل، أنت إسرافيل، حتى عدد الأسماء كلها، حتى بلغ الغراب"(٢).

وروي "عن مجاهد في قول الله تعالى: {يا آدم أنبئهم بأسمائهم}، قال: اسم الحمامة والغراب، واسم كل شيء. وروي عن سعيد بن جبير والحسن وقتادة نحو ذلك"(٣).

قوله تعالى: {فَلَمَّآ أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ}[البقرة:٣٣]، أي: فلما "أخبرهم بكل الأشياء، وسمَّى كل شيء باسمه"(٤).

قال مجاهد:" {فلما أنبأهم}، أنبأ آدم الملائكة بأسمائهم، أسماء أصحاب الأسماء"(٥).

قوله تعالى:{قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [البقرة : ٣٣]، " أي: قال تعالى للملائكة: ألم أنبئكم بأني أعلم ما غاب في السماوات والأرض عنكم"(٦).

قال البغوي:أي" ما كان منهما وما يكون لأنه قد قال لهم { إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ }[البقرة:٣٠]" (٧).

قال ابن عطية:" معناه: ما غاب عنكم، لأن الله لا غيب عنده من معلوماته"(٨).

قال ابن كثير:" أي : ألم أتقدم إليكم أني أعلم الغيب الظاهر والخفي ، كما قال [الله] تعالى : { وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى } وكما قال تعالى إخبارا عن الهدهد أنه قال لسليمان : { أَلا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ }"(٩).

قال ابن عباس:" أخبرهم بأسمائهم - {فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقلْ لكم}، أيها الملائكة خَاصة {إنّي أعلم غيبَ السموات والأرض}، ولا يعلمه غيري"(١٠).

وقال الحسن:" فجعل آدم ينبئهم بأسمائهم ويقول: هذا اسم كذا وكذا من خلق الله، وهذا اسم كذا وكذا فعلم الله آدم من ذلك ما لم يعلموا حتى علموا أنه أعلم منهم. قال: فلما أنبأهم بأسمائهم، قال: {ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض}"(١١).

والاستفهام في قوله تعالى{ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ }، للتقرير؛ "والمعنى: قلت لكم، كقوله تعالى: {ألم نشرح لك صدرك} [الشرح: ١] : والمعنى: قد شرحنا لك صدرك"(١٢).

وقوله تعالى: {أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}[البقرة:٣٣]، دليل على كذب مقالة كلّ من ادعى شيئًا من علوم الغيب من الحُزاة والكهنة والعافَةِ والمنجِّمة، وأن أحدا لا يعلم من الغيب إلا ما أعلمه الله كالأنبياء أو من أعلمه من أعلمه الله تعالى(١٣).

وقال بعض أهل العلم بأن غيب السماوات والأرض، نوعان(١٤):

أحدهما غيب نسبي: وهو ما غاب عن بعض الخلق دون بعض.

والثاني: غيب عام: وهو ما غاب عن الخلق عموماً.

قوله تعالى:{ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ }[البقرة:٣٣]، أي: وأعلم "ما تظهرون"(١٥).

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٤٨٩/١.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٥٠):ص٨٢/١.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٥١):ص٨٢/١.
(٤) صفوة التفاسير: ٤١/١.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٥٢):ص٨٢/١.
(٦) صفوة التفاسير: ٤١/١.
(٧) تفسير البغوي: ٨٠/١.
(٨) المحرر الوجيز: ١٢٣/١.
(٩) تفسير ابن كثير: ٢٢٥/١-٢٢٦.
(١٠) أخرجه الطبري(٦٧٦):ص٤٩٧/١.
(١١) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٥٣):ص٨٢/١.
(١٢) تفسير ابن عثيمين:١٢٣/١.
(١٣) انظر: تفسير الطبري: ٤٩٤/١، وتفسير القرطبي: ٢٩٠/١.
(١٤) أنظر: تفسير ابن عثيمين:١٢٣/١.
(١٥) تفسير ابن كثير: ٢٢٨/١.

قال ابن عباس:" {وأعلم ما تبدون}، يقول : ما تظهرون"[١].
قوله تعالى:{وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ}[البقرة:٣٣]، أي وما كنتم"تخفون في أنفسكم"[٢].
قال ابن كثير:" يقول : أعلم السر كما أعلم العلانية ، يعني : ما كتم إبليس في نفسه من الكبر والاغترار"[٣].
وذكروا في تفسير قوله تعالى:{وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ}[البقرة:٣٣]، وجهين[٤]:
أحدهما : ما أسرَّه إبليس من الكبر والعصيان في نفسه، وهذا قول ابن عباس[٥]، وابن مسعود[٦]، وسعيد بن جبير[٧]، وسفيان[٨]، والضحاك[٩]، وروي عن عبدالله بن بريدة[١٠] نحو ذلك.
قال ابن عطية:" ويتوجه قوله {تَكْتُمُونَ}، للجماعة والكاتم واحد في هذا القول على تجوز العرب واتساعها، كما يقال لقوم قد جنى سفيه منهم: أنتم فعلتم كذا، أي منكم فاعله، وهذا مع قصد تعنيف، ومنه قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يُنادُونَكَ مِنْ وَراءِ الْحُجُراتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ [الحجرات: ٤] وإنما ناداه منهم عيينة، وقيل الأقرع"[١١].
والثاني : أن الذي كتموه : ما أضمروه في أنفسهم أن الله تعالى لا يخلق خلقاً إلاَّ كانوا أكرمَ عليه منه ، وهو قول الحسن البصري[١٢]، وقتادة[١٣]، وأبي العالية[١٤]، والربيع بن أنس[١٥].
والراجح-والله أعلم- هو ما قاله ابن عباس، أي: الذي كانوا يكتمونه، ما كان منطويًا عليه إبليس من الخلاف على الله في أمره ، والتكبُّر عن طاعته. واختاره الطبري[١٦].
الفوائد:
١. من فوائد الآية: إثبات القول لله عزّ وجلّ لقوله تعالى: { يا آدم }؛ وأنه بحرف، وصوت مسموع؛ لأن آدم سمعه، وفهمه، فأنبأ الملائكة به؛ وهذا الذي عليه أهل السنة والجماعة، والسلف الصالح . أن الله يتكلم بكلام مسموع مترتب بعضه سابق لبعض.
٢. ومنها: أن آدم . عليه الصلاة والسلام . امتثل، وأطاع، ولم يتوقف؛ لقوله تعالى: { فلما أنبأهم }؛ ولهذا طوى ذكر قوله: "فأنبأهم" إشارة إلى أنه بادر، وأنبأ الملائكة.
٣. ومنها: جواز تقرير المخاطب بما لا يمكنه دفعه؛ والتقرير لا يكون إلا هكذا . أي بأمر لا يمكن دفعه؛ وذلك لقوله تعالى: { ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض }.
٤. ومنها: بيان عموم علم الله عزّ وجلّ، وأنه يتعلق بالمشاهد، والغائب؛ لقوله تعالى: (أعلم غيب السموات والأرض).
٥. ومنها: أن السموات ذات عدد؛ لقوله تعالى: { السموات }؛ و "الأرض" جاءت مفردة، والمراد بها الجنس؛ لأن الله تعالى قال: {الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن} [الطلاق: ١٢] أي في العدد.
٦. ومنها: أن الملائكة لها إرادات تُبدى، وتكتم؛ لقوله تعالى: { وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون }.

---

(١) أخرجه الطبري(٦٧٨):ص١/٤٩٨.
(٢) تفسير الثعلبي: ١/١٧٩.
(٣) تفسير ابن كثير: ١/٢٢٨.
(٤) أنظر: النكت والعيون:١/١٠٠.
(٥) أنظر:تفسير الطبري(٦٧٨):ص١/٤٩٨.
(٦)أنظر:تفسير الطبري(٦٧٩):ص١/٤٩٨.
(٧)أنظر:تفسير الطبري(٦٨٠):ص١/٤٩٨.
(٨)أنظر:تفسير الطبري(٦٨١):ص١/٤٩٩.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٥٤):ص١/٨٢.
(١٠) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٥٥):ص١/٨٣.
(١١) المحرر الوجيز: ١/١٢٣.
(١٢) أخرجه الطبري(٦٨٢):ص١/٤٩٩.
(١٣) أخرجه الطبري(٦٨٣):ص١/٤٩٩.
(١٤) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٥٦):ص١/٨٣.
(١٥) أخرجه الطبري(٦٨٤):ص١/٤٩٩-٥٠٠، و تفسير ابن أبي حاتم(٣٥٧):ص١/٨٣.
(١٦) أنظر: تفسيره:١/٥٠٠.

٧. ومنها: أن الله تعالى عالم بما في القلوب سواء أُبدي أم أُخفي؛ لقوله تعالى: {ما تبدون وما كنتم تكتمون}.
فإن قال قائل: ما الدليل على أن الملائكة لها قلوب؟.
فالجواب: قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} [سبأ : ٢٣].

القرآن

{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤)} [البقرة : ٣٤]

التفسير:

اذكر إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم وتعظيما; وعبودية لله تعالى، فامتثلوا أمر الله وبادروا كلهم بالسجود، إلا إبليس امتنع عن السجود واستكبر عن أمر الله وعلى آدم، وكان في علم الله تعالى من الكافرين.

قوله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ}[البقرة:٣٤]، " واذكر -أيها الرسول- للناس تكريم الله لآدم حين قال سبحانه للملائكة: اسجدوا لآدم إكرامًا له وإظهارًا لفضله"[١].

ومثل هذا التعبير: {وَإِذْ قُلْنَا}: اذكر إذ قلنا؛ يتكرر كثيراً في القرآن، والعلماء يقدرون لفظ: "اذكر"، وهم بحاجة إلى هذا التقدير؛ لأن (إذ) ظرفية؛ والظرف لا بد له من شيء يتعلق به إما مذكوراً؛ وإما محذوفاً[٢]؛ وفي نظم الجُمل[٣]:لا بد للجار من التعلق بفعل أو معناه نحو مرتقي ومثله"[٤]، وقد جاء الضمير في {قلنا} بصيغة الجمع من باب التعظيم. لا التعدد. كما هو معلوم[٥].

قال المراغي:" بعد أن أعلم الله تعالى الملائكة مكانة آدم وأنه جعله خليفة في الأرض، أمرهم بالسجود له سجود خضوع لا سجود عبادة اعترافا بفضله، واعتذارا عما قالوه في شأنه، من قولهم: {أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا} [البقرة : ٣٠]"[٦].

قال ابن عثيمين: "«السجود»، هو السجود على الأرض بأن يضع الساجد جبهته على الأرض خضوعاً، وخشوعاً؛ وليس المراد به هنا الركوع؛ لأن الله تعالى فرَّق بين الركوع والسجود، كما في قوله تعالى: {تراهم ركعاً سجداً} [الفتح: ٢٩] ، وقوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا} [الحج: ٧٧]"[٧].

و«السجود»، معناه في كلام العرب التذلل والخضوع، قال الشاعر[٨]:

يجمع تضل البلق في حجراته ... ترى الأكم فيها سجدا للحوافر

الأكم : الجبال الصغار، جعلها سجدا للحوافر لقهر الحوافر إياها وأنها لا تمتنع عليها. وعين ساجدة، أي فاترة عن النظر، وغايته وضع الوجه بالأرض[٩].

و«السجود» أصله: الانحناء والتذلل، وجعل ذلك عبارة عن التذلل لله وعبادته، وهو عام في الإنسان، والحيوانات، والجمادات، وذلك ضربان: سجود باختيار، وليس ذلك إلا للإنسان، وبه يستحق الثواب، نحو قوله: {فاسجدوا لله واعبدوا} [النجم:٦٢]، أي: تذللوا له، وسجود تسخير، وهو للإنسان، والحيوانات، والنبات، وعلى ذلك قوله: {ولله يسجد من في السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال} [الرعد:١٥]، وقوله: {يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله} [النحل:٤٨]، فهذا سجود تسخير، وهو الدلالة الصامتة الناطقة المنبهة على كونها مخلوقة، وأنها خلق فاعل حكيم، وقوله: {ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون} [النحل:٤٩]، ينطوي على النوعين من السجود، التسخير والاختيار، وقوله: {والنجم والشجر يسجدان} [الرحمن:٦]، فذلك على سبيل التسخير،

---

(١) التفسير الميسر: ٦.
(٢) أنظر: تفسير ابن عثيمين: ١٢٥/١.
(٣) شرح ألفية ابن مالك للحازمي: الدرس(١٢):ص٧.، وانظر: تمرين الطلاب في صناعة الإعراب: ٦٣.
(٤) شرح ألفية ابن مالك للحازمي: الدرس(١٢):ص٧.، وانظر: تمرين الطلاب في صناعة الإعراب: ٦٣.
(٥) أنظر: تفسير ابن عثيمين: ١٢٥/١.
(٦) تفسير المراغي: ٨٥/١.
(٧) تفسير ابن عثيمين: ١٢٥/١.
(٨) البيت ورد في اللسان: مادة (س ج د).
(٩) انظر: تفسير القرطبي: ٢٩١/١.

وقوله: {اسجدوا لآدم} [البقرة:٣٤]، قيل: أمروا بأن يتخذوه قبلة، وقيل: أمروا بالتذلل له، والقيام بمصالحه، ومصالح أولاده، فائتمروا إلا إبليس، وقوله: {ادخلوا الباب سجدا} [النساء:١٥٤]، أي: متذللين منقادين، وخص السجود في الشريعة بالركن المعروف من الصلاة، وما يجري مجرى ذلك من سجود القرآن، وسجود الشكر، وقد يعبر به عن الصلاة بقوله: {وأدبار السجود} [ق:٤]، أي: أدبار الصلاة، ويسمون صلاة الضحى: سبحة الضحى، وسجود الضحى، {وسبح بحمد ربك} [طه:١٣٠] قيل: أريد به الصلاة(١)، والمسجد: موضع الصلاة اعتبارا بالسجود، وقوله: {وأن المساجد لله} [الجن:١٨]، قيل: عني به الأرض، إذ قد جعلت الأرض كلها مسجدا وطهورا كما روي في الخبر عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "نصرت بالرعب، وأوتيت جوامع الكلم، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، وبينا أنا نائم أتيت بمفاتح خزائن الأرض فتلت في يدي"(٢).

وقيل: المساجد: مواضع السجود: الجبهة والأنف واليدان والركبتان والرجلان، وقوله: {ألا يسجدوا لله} [النمل/٢٥](٣) أي: يا قوم اسجدوا، وقوله: {وخروا له سجدا} [يوسف/١٠٠]، أي: متذللين، وقيل: كان السجود على سبيل الخدمة في ذلك الوقت سائغا، ومنه قول الشاعر(٤):

وافى بها لدراهم الإسجاد ... من خمر ذي نطف أغن منطق

عنى بها دراهم عليها صورة ملك سجدوا له(٥).

والإسجاد : إدامة النظر، قال أبو عمرو: وأسجد إذا طأطأ رأسه، قال(٦):

فضول أزمتها أسجدت ... سجود النصارى لأحبارها

يقول: لما ارتحلن ولوين فضول أزِمَّة جمالهن على معاصمهن أَسْجدت لهن.

قال أبو عبيدة : وأنشدني أعرابي من بني أسد(٧):

وقلن له أسجد لليلى فأسجدا

يعني: بعيرها أنه طأطأ رأسه لتركبه(٨).

قال القرطبي: "قوله تعالى: {اسْجُدُوا لآدَمَ}[البقرة:٣٣]، أي: اسجدوا لي مستقبلين وجه آدم، وهو كقوله تعالى: {أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ} [الإسراء : ٧٨]، أي: عند دلوك الشمس وكقوله: {وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ} [ص : ٧٢]، أي: فقعوا لي عند إتمام خلقه ومواجهتكم إياه ساجدين"(٩).

وأخرج الطبري: " عن قتادة ، قوله : {وإذْ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم}، فكانت الطاعة لله ، والسجدة لآدم ، أكرم الله آدم أن أسْجَد له ملائكته"(١٠).

وقد استدل من فضل آدم وبنيه بقوله تعالى للملائكة :{اسْجُدُوا لآدَمَ}، قالوا: وذلك يدل على أنه كان أفضل منهم، وهذا القول فيه نظر.

وحكى النقاش عن مقاتل: "أن الله إنما أمر الملائكة بالسجود لآدم قبل أن يخلقه"(١١).

قال ابن عطية: "والقرآن يرد على هذا القول"(١٢).

وقال قوم: "سجود الملائكة كان مرتين"(١). قال ابن عطية: "والإجماع يرد هذا"(٢).

---

(١)(أخرج عبد الرزاق وغيره عن ابن عباس في الآية قال: هي الصلاة المكتوبة).

(٢)أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام ٢٠٩/١٣؛ وانظر: شرح السنة ١٩٨/١٣).

(٣)(هي بتخفيف ألا، على أنها للاستفتاح، وبها قرأ الكسائي ورويس وأبو جعفر. الإتحاف ٣٣٦).

(٤) البيت للأسود بن يعفر، ورد في المفضليات ص ٢١٨؛ والمجمل ٤٨٦/٢).

(٥) انظر: مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني: ٣٥٨/١.

(٦) البيت لحميد بن ثور يصف النساء، انظر: اللسان: مادة (س ج د). قال ابن بري صواب إنشاده:

فلما لوَيْنَ على مِعْصَمٍ   وكَفٍّ خضيبٍ وأسوارها،

فُضولَ أزِمَّتِها، أَسْجدت   سجودَ النصارى لأحْبارها

(٧) انظر: اللسان مادة(س ج د)، والمزهر: ٢٣٨/١.

(٨) انظر: اللسان: مادة(س ج د)، و تفسير القرطبي: ٢٩١/١.

(٩) انظر: تفسير القرطبي: ٢٩٢/١.

(١٠) تفسير الطبري(٧٠٧):ص٥١٢/١.

(١١) نقلا عن: المحرر الوجيز: ١٢٤/١.

(١٢) المحرر الوجيز: ١٢٤/١.

واختلف اهل العلم في كيفية سجود الملائكة لآدم بعد اتفاقهم على أنه لم يكن سجود عبادة، وذكروا وجوها في ذلك(٣):

أحدها: كان هذا أمرا للملائكة بوضع الجباه على الأرض، كالسجود المعتاد في الصلاة، لأنه الظاهر من السجود في العرف والشرع، وعلى هذا قيل : كان ذلك السجود تكريما لآدم وإظهارا لفضله، وطاعة لله تعالى، وكان آدم كالقبلة لنا، ومعنى "لآدم" : إلى آدم، كما يقال صلى للقبلة، أي إلى القبلة. وهذا قول الجمهور.

والثاني: لم يكن هذا السجود المعتاد اليوم الذي هو وضع الجبهة على الأرض، ولكنه مبقى على أصل اللغة، فهو من التذلل والانقياد، أي اخضعوا لآدم وأقروا له بالفضل، {فَسَجَدُوا} أي امتثلوا ما أمروا به.

قال ابن عطية: " وفي هذه الوجوه كلها كرامة لآدم عليه السلام"(٤).

واختلف أيضا هل كان ذلك السجود خاصا بآدم عليه السلام أم كان مباحا إلى عصر الرسول-صلى الله عليه وسلم-، وفيه قولين:

أحدهما: أن ذلك السجود كان خاصا بآدم فلا يجوز السجود لغيره من جميع العالم إلا لله تعالى.

والثاني: أن ذلك السجود كان جائزا بعد آدم إلى زمان يعقوب عليه السلام، لقوله تعالى : {وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً} [يوسف : ١٠٠] فكان آخر ما أبيح من السجود للمخلوقين.

والصحيح: أن سجود التحية والإكرام كان مباحا إلى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان مباحا في الشرائع السابقة إلى أن نسخ في شريعتنا، ومن المعلوم أن السجود لغير الله على وجه العبادة لم يكن مباحاً في أية شريعة فكل الأنبياء نهوا عن ذلك وبلغوا أقوامهم، روي عن عبدالله بن أبي أوفى أنه: لمَّا قدِمَ معاذٌ منَ الشَّامِ سجدَ للنَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ ما هذا يا مُعاذُ قالَ أتيتُ الشَّامَ فوافقتُهُم يسجُدونَ لأساقفتِهِم وبطارقتِهِم فوَدِدْتُ في نَفسي أن نفعلَ ذلِكَ بِكَ فقالَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ "وسلَّمَ فلا تفعَلوا فإنِّي لو كُنتُ آمرًا أحدًا أن يسجُدَ لغيرِ اللَّهِ لأمَرتُ المرأةَ أن تسجُدَ لزوجِها والَّذي نَفسُ محمَّدٍ بيدِهِ لا تؤدِّي المرأةُ حقَّ ربِّها حتَّى تؤدِّيَ حقَّ زوجِها ولو سألَها نفسَها وَهيَ علَى قتَبٍ لم تمنعْهُ"(٥).

---

(١) المحرر الوجيز: ١٢٤/١.

(٢) المحرر الوجيز: ١٢٤/١.

(٣) انظر: تفسير القرطبي: ٢٩٣/١.

(٤) المحرر الوجيز: ١٢٤/١.

(٥) صحيح ابن ماجة: ١٥١٥. حديث حسن صحيح.

ورد من حديث جماعة من أصحاب النبي -صلي الله عليه وسلم - ، منهم أبو هريرة ، وأنس بن مالك ، وعبد الله بن أبى أوفى ، ومعاذ بن جبل ، وقيس بن سعد ، وعائشة بنت أبي بكر الصديق . ١ - حديث أبى هريرة ، يرويه أبو سلمة عنه عن النبي (صلي الله عليه وسلم) قال : فذكره . أخرجه الترمذي (١ / ٢ ١ ٧) وابن حبان (١٢٩١) والبيهقي (٧ / ٢٩١) والواحدي في (الوسيط) (١ / ١٦١ / ٢) من طريق محمد بن عمرو عن أبى سلمة به وزادوا إلا الترمذي : (لما عظم الله من حقه عليها) . وقال : (حسن غريب) . وهو كما قال . ولفظ ابن حبان : (أن رسول الله (صلي الله عليه وسلم) دخل حائطا من حوائط الأنصار ، فإذا فيه جملان يضربان ويرعدان ، فاقترب رسول اللة (صلي الله عليه وسلم) منهما ، فوضعا جرانهما بالارض ، فقال من معه : (نسجد لك ؟ فقال النبي (صلي الله عليه وسلم) : ما ينبغى لأحد أن يسجد لأحد ، ولو كان أحد ينبغى له أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لما عظم الله عليها من حقه) . قلت : وإسناده حسن . / صفحة ٥٥ / وأخرجه الحاكم (٤ / ١٧١ - ١٧٢) والبزار من طريق سليمان بن أبى سليمان عن يحيى بن أبى كثير عن أبي سلمة به نحوه دون قصة الجملين . وقال الحاكم : (صحيح الإسناد) . ورده المنذري في (الترغيب) (٣ / ٧٥) والذهبي في (التلخيص) بأن سليمان وهو اليمامى ضعفوه . ٢ - حديث أنس بن مالك . يرويه خلف بن خليفة عن حفص بن أخى أنس عن أنس قال : قال رسول الله (صلي الله عليه وسلم) : (لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر ، ولو صلح لبشر أن يسجد لبشر ، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها) . أخرجه النسائي (ق ٨٥ / ٢) وأحمد (٣ / ١٥٨) وكذا البزار كما في (المجمع) (٩ / ٤) وقال : (ورجاله رجال الصحيح غير حفص بن أخى أنس ، وهو ثقة) . وقال المنذري : (رواه أحمد بإسناد جيد ، رواته ثقات مشهورون ، والبزار بنحوه) . قلت : وهو كما قالا ، لولا أن خلف بن خليفة - وهو من رجال مسلم ، وشيخ أحمد فيه - كان اختلط في الآخر ، فلعل أحمد سمعه منه قبل اختلاطه . وهو عنده مطول ، فيه قصة الجمل وسجوده للنبى (صلي الله عليه وسلم) ، فهو شاهد جيد لحديث أبي هريرة المتقدم . ٣ - حديث عبداللة بن أبى أوفى ، يرويه القاسم الشيباني عنه قال : (لما قدم معاذ من الشام ، سجد للنبى (ص) ، قال : ما هذا يا معاذ ؟ ! * (هامش) * (١) كذا وقع في مسلم ، وهو خطأ مطبعى ، والصواب (عن) كما في) المسند) وهو ثقة) . / صفحة ٥٦ / قال : أتيت الشام فوافيتهم يسجدون لأساقفتهم

ومعنى القتب أن العرب يعز عندهم وجود كرسي للولادة فيحملون نساءهم على القتب عند الولادة، وفي بعض طرق معاذ : ونهى عن السجود للبشر وأمر بالمصافحة(١).

والذي عليه جمهور أهل العلم بلا خلاف ولا نزاع بينهم أن هذا السجود من معاذ –رضي الله عنه- كان سجود تحية لا عبادة إذ كيف يجهل هذا الصحابي الجليل أن سجود العبادة لا ينبغي إلا لله.

وتجدر الاشارة بأن السجود كان فيما مضى يستعمل تحية وإكراما كما فعل أبوا يوسف وإخوته وكما فعلت الملائكة لآدم هذا من باب التحية والإكرام وليس من باب العبادة، وأما في شريعة محمد عليه الصلاة والسلام فإن الله -عز وجل- منع من ذلك وجعل السجود لله وحده سبحانه وتعالى ولا يجوز أن يسجد لأحد لا للأنبياء ولا غيرهم، حتى محمد عليه الصلاة والسلام منع أن يسجد له أحد وأخبر أن السجود لله وحده سبحانه وتعالى، فعلم بهذا أن جميع أنواع العبادة كلها لله وحده سبحانه وتعالى، ومن أعظمها السجود فإنه ذلك وانكسار لله سبحانه وتعالى فهو من أفضل العبادات فلا يصرف لغيره من الناس لا للأنبياء ولا للجن ولا للإنس ولا لغيرهم، والله المستعان.

وذكروا في قوله تعالى:{ لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا}[البقرة:٣٣]، قراءتين(٢):

إحداهما: {لِلْمَلَائِكَةِ}، بالكسر. وهي قراءة جمهور القراء.

والثانية:{ للملائكةُ}، بالضم، قرأ بها أبو جعفر المدني. قال أبو علي: "لم يكن مصيبا"(١).

وبطارقتهم ، فوددت في نفسي أن نفعل ذلك بك ، فقال رسول الله (صلي الله عليه وسلم) : فلا تفعلوا ، فإني لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لغير الله ، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها ، والذي نفس محمد بيده لا تؤدي المرأة حق ربها حتى تؤدي حق زوجها ، ولو سألها نفسها وهى على قتب لم تمنعه) . أخرجة ابن ماجه (١٨٥٣) وابن حبان (١٢٩ ٠) والبيهقي (٧ / ٢٩٢) من طريق حماد بن زيد عن أيوب عن القاسم به . قلت : وهذا إسناد حسن رجاله ثقات رجال الشيخين غير القاسم هذا وهو ابن عوف الشيباني الكوفي ، وهو صدوق يغرب كما في (التقريب) وروى له مسلم فرد حديث . وتابعه إسماعيل ، وهو ابن علية ثنا أيوب به نحوه . أخرجه أحمد (٤ / ٣٨١) . وخالفه معاذ بن هشام الدستوائى حدثنى أبى حدثنى القاسم بن عوف الشيباني ثنا معاد بن جبل أنه أتى الشام فرأى النصارى . . . الحديث نحوه . أخرجه الحاكم (٤ / ١٧٢) وقال : (صحيح على شرط الشيخين) . ووافقه الذهبي . كذا قالا ! والقاسم لم يخرج له البخاري ، ثم إن معاذ بن هشام الدستوائى فيه كلام من قبل حفظه ، وفي (التقريب) : (صدوق ربما وهم) . فأخشى أن يكون وهم في جعله من مسند معاذ نفسه ، وفي تصريح القاسم بسماعه منه . والله أعلم . نعم قد روي عن معاذ نفسه إن صح عنه ، وهو : / صفحة ٥٧ / ٤ - حديث معاذ . رواه أبو ظبيان عنه . (أنه لما رجع من اليمن قال : يا رسول الله . . .) . فذكره مختصرا . أخرجه أحمد (٢٢٧ / ٥) : ثنا وكيع ثنا الأعمش عن أبي ظبيان . وهذا إسناد رجاله كلهم ثقات رجال الشيخين ، لكن أبو ظبيان لم يسمعه من معاذ ، واسمه حصين بن جندب الجنبى الكوفي . ويدل على ذلك أمور : أولا : قال ابن حزم في أبي ظبيان هذا : (لم يلق معاذا ، ولا أدركه) . ثانيا : قال ابن أبى شيبة في (المصنف) (٧ / ٤٧ / ١) : ثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبى ظبيان قال : (لما قدم معاذ من اليمن . . .) . قلت : فأرسله ، وهو الصواب . ثالثا : قال أحمد وابن أبى شيبة : ثنا عبد الله بن نمير قال : نا الأعمش عن أبي ظبيان عن رجل من الأنصار عن معاذ بن جبل بمثل حديث أبي معاوية . فتأكدنا من انقطاع الحديث بين أبي ظبيان ومعاذ ، أو أن الواسطة بينهما رجل مجهول لم يسمه . ٥ - حديث قيس بن سعد . يرويه الشعبى عنه قال : (أتيت الحيرة ، فرأيتهم يسجدون لمرزبان لهم ، فقلت : رسول الله أحق أن يسجد له ، قال : فأتيت النبي (صلي الله عليه وسلم) ، فقلت : إنى أتيت الحيرة فرأيتهم يسجدون لمرزبان لهم ، فانت يا رسول الله أحق أن نسجد لك ، قال : أرأيت لو مررت بقبري أكنت تسجد له ؟ قال : قلت : لا ، قال : فلا تفعلوا ، لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لأحد ، لأمرت النساء أن يسجدن لأزواجهن ، لما جعل الله لهم عليهن من الحق) . / صفحة ٥٨ / أخرجه أبو داود (٢١٤٠) والحاكم (٢ / ١٨٧) والبيهقي (٧ / ٢٩١) من طريق شريك عن حصين عن الشعبى . وقال الحاكم : (صحيح الأسناد لما . ووافقه الذهبي . وأقول : شريك هو ابن عبد الله القاضي وهو سئ الحفظ . ٦ - حديث عائشة . يرويه سعيد بن المسيب عنها مرفوعا بلفظ : (لو أمرت أحدا أن يسجد لأحد ، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها . ولو أن رجلا أمر امرأة أن تنقل من جبل أحمر إلى جبل أسود ، ومن جبل أسود إلى جبل أحمر ، لكان نوطا أن تفعل) . أخرجه ابن ماجه (١٨٥٢) وابن أبي شيبة (٧ / ٤٧ / ٢) وأحمد (٦ / ٧٦) من طريق على بن زيد عن سعيد به . وفيه عند أحمد قصة الجمل المتقدمة من حديث أبى هريرة وأنس . وعلي بن زيد هو ابن جدعان وهو ضعيف . وفي الباب عن ابن عباس عند الطبراني في (المعجم الكبير) (٣ / ١٤٣ / ١) وفيه قصة الجمل . وفيه أبو عزة الدباغ وأسمه الحكم بن طهمان وهو ضعيف . وعن زيد بنرقم عند أبى إسحاق إبراهيم بن محمد بن أبى ثابت في (حديثه) (٢ / ١٤٣ / ١) . وفيه صدقة وهو ابن عبد الله السمين ، ومن طريقه رواه الطبراني في (الكبير) والأوسط ، والبزار كما في (المجمع) (٤ / ٣١٠) وقال : (وثقه أبو حاتم وجماعة ، وضعفه البخاري وجماعة).

(١) انظر: تفسير القرطبي: ٢٩٣/١.

(٢) الحجة للقراء السبعة: ٦٥/١، ومعاني القرآن: ١١١/١-١١٢، والمحرر الوجيز: ١٢٤/١.

قال الزجاج: "وأبو جعفر، من جِلَّةِ أهل المدينة وأهلِ الثَّبتِ في القَراءَةِ إلا أنه غلط في هذا الحرف لأن الملائكة في موضع
خفض فلا يجوز أن يرفع المخفوض ولكنه شبَّه تاءَ التأنيث بكسر ألف الوصل لأنك إذا ابْتدأتَ قلت اسْجُدوا، وليس ينبغي أن يقرأ القرآن بتوهم غير الصواب"(٢).

قوله تعالى: {فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ}[البقرة:٣٣]، "أي: فسجدوا جميعاً له غير إبليس"(٣).

قال ابن عثيمين:" {فسجدوا}، أي: من غير تأخير؛ فالفاء هنا للترتيب، والتعقيب"(٤).

قوله تعالى: {أبى واستكبر}[البقرة:٣٣]، "أي: امتنع مما أمر به وتكبر عنه"(٥).

أخرج ابن أبي حاتم "عن قتادة: قوله {أبى واستكبر وكان من الكافرين}، حسد عدو الله إبليس آدم على ما أعطاه الله من الكرامة، وقال: أنا ناري وهذا طيني. فكان بدء الذنوب الكبر، استكبر عدو الله أن يسجد لآدم"(٦).

قال الشنقيطي:" لم يبين هنا موجب استكباره في زعمه، ولكنه بينه في مواضع أخر كقوله : {قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ} [الأعراف : ١٢] وقوله : {قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ} [الحجر : ٣٣]" (٧).

قوله تعالى: {وَكَانَ مِنَ الكافرين}[البقرة:٣٣]، "أي: صار بإبائه واستكباره من الكافرين حيث استقبح أمر الله بالسجود لآدم"(٨).

أخرج ابن أبي حاتم "عن عبد الله بن بريدة قوله: {وكان من الكافرين}، من الذين أبوا، فأحرقتهم النار"(٩).

وذكر الطبري وابن أبي حاتم، عن أبي العالية أنه كان يقول: "{وكان من الكافرين}، يعني: من العاصين"(١٠).وروي عن الربيع(١) مثل ذلك.

---

(١) الحجة للقراء السبعة: ٦٥/١.
(٢) معاني القرآن: ١١١/١-١١٢.
(٣) صفوة التفاسير: ٤٣/١.
(٤) تفسير ابن عثيمين:١٢٥/١.
(٥) صفوة التفاسير: ٤٣/١.
(٦) تفسير ابن أبي حاتم(٣٦٤):ص٨٤/١.
(٧) أضواء البيان: ٣٣/١. ثم قال الشنقيطي: "مثل قياس إبليس نفسه على عنصره الذي هو النار وقياسه ءادم على عنصره الذي هو الطين واستنتاجه من ذلك أنه خير من ءادم . ولا ينبغي أن يؤمر بالسجود لمن هو خير منه مع وجود النص الصريح الذي هو قوله تعالى : {اسجدوا لأدم} يسمى في اصطلاح الأصوليين فاسد الاعتبار . وإليه الإشارة بقول صاحب مراقي السعود
:{اسجدوا لآدم} يسمى في اصطلاح الأصوليين فاسد الاعتبار وإليه الإشارة بقول صاحب مراقي السعود :
والخلف للنص أو إجماع دعا   فساد الاعتبار كل من وعى
فكل من رد نصوص الوحي بالأقيسة فسلفه في ذلك إبليس وقياس إبليس هذا لعنه الله باطل من ثلاثة أوجه :
الأول : أنه فاسد الاعتبار ؛ لمخالفة النص الصريح كما تقدم قريبا .
الثاني : أنا لا نسلم أن النار خير من الطين بل الطين خير من النار ؛ لأن طبيعتها الخفة والطيش والإفساد والتفريق وطبيعته الرزانة والإصلاح فتودعه الحبة فيعطيكها سنبلة والنواة فيعطيكها نخلة .
وإذا أردت أن تعرف قدر الطين فانظر إلى الرياض الناضرة وما فيها من الثمار اللذيذة والأزهار الجميلة والروائح الطيبة . تعلم أن الطين خير من النار .
الثالث : أنا لو سلمنا تسليما جدليا أن النار خير من الطين فإنه لا يلزم من ذلك أن إبليس خير من ءادم ؛ لأن شرف الأصل لا يقتضي شرف الفرع بل قد يكون الأصل رفيعا الفرع وضيعا كما قال الشاعر:
إذا افخرت بآباء لهم شرف   قلنا صدقت ولكن بئس ما ولدوا
وقال الآخر :
وما ينفع الأصل من هاشم   إذا كانت النفس من باهلة".
[أضواء البيان: ٣٣/١-٣٤].

(٨) صفوة التفاسير: ٤٣/١.
(٩) تفسير ابن أبي حاتم(٣٦٦):ص٨٤/١.
(١٠) تفسير الطبري(٧٠٥):ص٥١١/١، وابن أبي حاتم(٣٦٧):ص٨٥/١.

قال ابن عطية: "وتلك معصية كفر لأنها عن معتقد فاسد صدرت"[٢].
وذكروا في قوله تعالى {وَكَانَ مِنَ الكافرين}[البقرة:٣٣]، ثلاثة أقوال[٣]:
أحدهما: أن المراد: كان من الكافرين في علم الله بناءً على أن {كان} فعل ماضٍ؛ والمضي يدل على شيء سابق.
قال ابن عطية: "وقال جمهور المتأولين: معنى وَكانَ مِنَ الْكافِرِينَ أي في علم الله تعالى أنه سيكفر، لأن الكافر حقيقة والمؤمن حقيقة هو الذي قد علم الله منه الموافاة"[٤].
وقد أخرج ابن أبي حاتم عن " السدي: {وكان من الكافرين}، قال: من الكافرين الذين لم يخلقهم الله يومئذ، يكونون بعد"[٥].
والثاني: أن معناه: "وصار من الكافرين"[٦]. قال ابن فورك: "وهذا خطأ ترده الأصول"[٧].
والثالث: انه كان من الكافرين ، وليس قبله كافرا ، كما كان من الجنّ ، وليس قبله جِنٌّ ، وكما تقول : كان آدم من الإنس ، وليس قبله إنسيٌّ . قاله الحسن[٨].
والرابع: أنه قد كان قبله قوم كفار ، كان إبليس منهم[٩].
والخامس: أن (كان): تأتي أحياناً مسلوبة الزمان، ويراد بها تحقق اتصاف الموصوف بهذه الصفة؛ ومن ذلك قوله تعالى: {وكان الله غفوراً رحيماً} [النساء: ٩٦] ، وقوله تعالى: {وكان الله عزيزاً حكيماً} [النساء: ١٥٨] ، وقوله تعالى: {وكان الله سميعاً بصيراً} [النساء: ١٣٤] ، وما أشبهها؛ هذه ليس المعنى أنه كان فيما مضى؛ بل لا يزال؛ فتكون {كان} هنا مسلوبة الزمان، ويراد بها تحقيق اتصاف الموصوف بما دلت عليه الجملة.
قال ابن عثيمين: "وهذا هو الأقرب، وليس فيه تأويل؛ ويُجرى الكلام على ظاهره"[١٠].
ولفظة «إبليس» لغة : أبلس الرجل قُطِع به، وأبلس سكت، وأبلس من رحمة الله يئس وندم ومنه سُمِّي إبليس لأنه أبلس من رحمة الله وقيل : إبليس لا ينصرف لأنه أعجمي معرفة، والمبلس الساكت من الحزن أو الخوف،والإبلاس الحَيْرة[١١].
فيمكن القول بأن (إبليس) (إفعِيل)، من الإبلاس، وهو الإياس من الخير والندمُ والحزن[١٢]، ومن ذلك قوله جل ثناؤه : (فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ) [سورة الأنعام : ٤٤]، أي: " أنهم آيسون من الخير، نادمون حزنًا"[١٣]، كما قال العجَّاج[١٤]:

يَا صَاحِ، هَلْ تَعْرِفُ رَسْمًا مُكْرَسَا؟ قَالَ : نَعَمْ، أَعْرِفُهُ! وَأَبْلَسَا

وقال رؤبة [١٥]:

وَحَضَرَتْ يَوْمَ الْخَمِيسِ الأَخْمَاسْ وَفِي الْوُجُوهِ صُفْرَةٌ وَإِبْلاسْ

يعني به اكتئابًا وكسوفًا.

---

(١) أنظر: تفسير الطبري(٧٠٦):ص١/٥١١.
(٢) المحرر الوجيز: ١/١٢٥.
(٣) أنظر: تفسير ابن عثيمين:١/١٢٥-١٢٦.
(٤) المحرر الوجيز: ١/١٢٥.
(٥) تفسير ابن أبي حاتم(٣٦٩):ص١/٨٥.
(٦) حكاه المهدوي عن جماعة، أنظر: المحرر الوجيز: ١/١٢٥.
(٧) نقلا عن: المحرر الوجيز: ١/١٢٥.
(٨) نقلا عن: النكت والعيون: ١/١٠٣.
(٩) أنظر: النكت والعيون: ١/١٠٣.
(١٠) تفسير ابن عثيمين:١/١٢٦.
(١١)لسان العرب:٦/٢٩- ٣٠.
(١٢) انظر: تفسير الطبري: ١/٥٠٩.
(١٣) تفسير الطبري: ١/٥٠٩.
(١٤)ديوانه ١ : ٣١ ، والكامل ١ : ٣٥٢ ، واللسان : (بلس) ، (كرس) . المكرس : الذي صار فيه الكرس ، وهو أبوال الإبل وأبعارها يتلبد بعضها على بعض في الدار . وأبلس الرجل : سكت غما وانكسر وتحير ولم ينطق .
(١٥) ديوانه : ٦٧ ، واللسان (بلس) ، ورواية ديوانه " وعرفت يوم الخميس " . وبين البيتين بيت آخر هو : " وَقَدْ نَزَتْ بَيْنَ التَّرَاقِي الأَنْفَاسْ "

وأخرج الطبري " عن السُّدّيّ ، قال : كان اسم إبليس (الحارث)، وإنما سمي إبليس حين أبلس متحيِّرًا"[١].

وقال ابن عباس:" إبليس ، أبلسه الله من الخير كله ، وجعله شيطانًا رجيمًا عقوبة لمعصيته"[٢].

وقال ابن عباس:" إنما سمي إبليس، لأن الله أبلسه من الخير كله آيسه منه"[٣].

وفي مفهوم الشرع لا يُوجد تعريف اصطلاحي لإبليس في الشرع، إذ هو مخلوق معروف لدى الأديان الأخرى، وهو رمزُ الشرّ عند كل شعب من الشعوب ودين من الأديان وطائفة من الطوائف، وعليه نعرّف إبليس بأنه : الجانّ الذي أبى السجود لآدم حين خلقه الله، فاستحق لعنته، وطُرِد من جنته، ووجبت له النار بعد إنظار الله له إلى يوم القيامة، وأُوتِي من وسائل الإغواء ما لم يُؤتَ أحد من العالمين.

وقد اختلف العلماء هل إبليس من الجن أم من الملائكة، على ثلاثة أقوال:

القول الأول: أنه كان من الملائكة:

ذهب بعض أهل العلم إلى أن إبليس كان من الملائكة فلما عصى الله تعالى أخرجه من صف الملائكة، وقال به من العلماء: ابن عباس[٤] في رواية عنه وابن مسعود[٥]، وقتادة[٦]، ومحمد بن إسحاق[٧]، وسعيد بن جبير وسعيد بن المسيب[٨]، ورجحه ابن جرير الطبري بل وانتصر له، ورجحه البغوي، ونسبه ابن عطية والقرطبي والشوكاني إلى أنه قول الجمهور[٩].

واستدلوا أولئك بقول الله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ} [البقرة : ٣٤]، فلو لم يكن إبليس من الملائكة لم يؤمر بالسجود ولم يؤاخذ بالعصيان.

وقد تنوعت إجابات العلماء عن هذا الدليل:

-فقال ابن تيمية عن إبليس : " كان منهم [أي من الملائكة] باعتبار صورته وليس منهم باعتبار أصله "[١٠].

- وقال ابن كثير: "وذلك أنه [أي إبليس)] كان قد توسّم بأفعال الملائكة وتشبه بهم وتعبد وتنسك فلهذا دخل في خطابهم، وعصى بالمخالفة"[١١].

- وقال ابن عثيمين : "وإنما استثناه الله من الملائكة لأنه كان معهم وليس منهم يبين ذلك آية الكهف {كَانَ مِنَ الْجِنّ} [الكهف : ٥٠] .. ثم قال : وهذا الاستثناء يسمى استثناء منقطعا،كما تقول : جاء القوم إلا حمارا، وهو كلام عربي فصيح فاستثنى «الحمار» من «القوم» وإن لم يكن منهم"[١٢].

والقول الثاني: أنه من الجن. قاله الحسن البصري[١٣]، وسعد بن مسعود[١٤]، وشَهر بن حَوْشب[١٥] وابن زيد[١٦]، ورجحه ابن تيمية والسيوطي والزمخشري وابن كثير والشنقيطي[١٧].

---

(١)تفسير الطبري(٧٠٤):ص٩٩/١
(٢)تفسير الطبري(٧٠٣):ص٩٩/١
(٣) أخرجه ابن ابي حاتم(٣٦٢):ص٨٤/١.
(٤) أنظر: تفسير الطبري(٦٨٦):ص٥٠٢/١، وابن أبي حاتم(٣٦١):ص٨٤/١.
(٥) أنظر: تفسير الطبري(٦٨٨):ص٥٠٣/١.
(٦) أنظر: تفسير الطبري(٦٩٣):ص٥٠٤/١.
(٧) أنظر: تفسير الطبري(٦٩٥):ص٥٠٥/١.
(٨) أنظر: تفسير الطبري(٦٩٢):ص٥٠٤/١.
(٩)راجع في ذلك تفاسيرهم عند آية البقرة والكهف .مع كتاب الدر المنثور للسيوطي : ٩/ ٥٦٥.
(١٠) مجموع الفتاوى: ٣٤٦/٤.
(١١) تفسير ابن كثير: ١٦٧/٥.
(١٢) الفتاوى لابن عثيمين: رقم الفتوى: (١٠٨).
(١٣)أنظر: تفسير الطبري(٦٩٦)، و(٦٩٧):ص٥٠٦/١.
(١٤) أنظر: تفسير الطبري(٦٩٩):ص٥٠٧/١.
(١٥) أنظر: تفسير الطبري(٦٩٨):ص٥٠٦/١-٥٠٧.
(١٦) أنظر: تفسير الطبري(٧٠١):ص٥٠٨/١.
(١٧)راجع في ذلك تفاسيرهم عند آية البقرة والكهف كما سبق ويضاف إلى هذه المصادر كتاب السيوطي الدر المنثور وتفسير ابن جرير ، أما شيخ الإسلام ابن تيمية فقد ذكر رأيه في مجموع الفتاوى ٤/ ٣٤٦ وابن عثيمين في كتابه الذي أفرده لسورة الكهف عند آيتها التي تحدثت عن قصة آدم وإبليس وكذا في فتاويه ورقم الفتوى ١٠٨،أما السيوطي فذكر رأيه في (تفسير الجلالين).

ولهذا ذهب عامة أهل العلم إلى أن إبليس وذريته لم يكونوا قط من الملائكة، ويدل على ذلك عدة أدلة:

أحدها: قول الله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا} [الكهف : ٥٠]، فبين الله أن سبب فسقه كونه من الجن،أي أنه من عنصر أو من جنس آخر غير الملائكة، أما الاستثناء في قوله تعلى:(فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ)، فإنه استثناء منقطع أي أن (إلا) هنا بمعنى (لكن)، وهو كقوله تعالى: {لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (٢٤) إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (٢٥)} [النبأ : ٢٤ - ٢٥]، هذا الاستثناء منقطع لأن الحميم والغساق ليس من البرد والشراب والمعنى: لكن يطعمون الحميم والغساق.

الثاني: وقوله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا} [الكهف : ٥٠].

وهنا نص الله أن له ذرية يعني (نسل) وهم الجن، والملائكة لانسل لهم .فلو كان ملكا لم يكن له نسل

والثالث: أن إبليس مخلوق من نار كما قال تعالى حاكيا عن إبليس: {قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ} [الأعراف : ١٢]، والملائكة مخلوقة من نور لما في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" خلقت الملائكة من نور وخلق الجن من نار وخلق آدم مما وُصف لكم"[١]. ففرق الرسول صلى الله عليه وسلم بين خلق الملائكة وخلق الجن.

والرابع: قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [التحريم : ٦]. فلو كان إبليس ملكا ماعصى الله.

والخامس: أن الجن الذين هم ذرية إبليس، لهم شهوة للطعام والشراب وغيره، وليس للملائكة شهوة دل على ذلك عدة نصوص منها:

- أن الجن سألوا الرسول صلى الله عليه وسلم لما اجتمعو به عن طعامهم فقال: "كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر مايكون لحما، وكل بعرة علف لدوابكم.فلاتستنجو بهما فإنهما طعام إخوانكم الجن "[٢].
- قوله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا} [الكهف : ٥٠]، والذرية لابد لها من شهوة.
- قوله تعالى: {فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ} [الرحمن : ٥٦]
- حديث: "فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله"[٣].

فالملائكة من صفتهم أنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويسبحون الليل ولا يفترون، وما فعله إبليس يعد معصية ولا يتناسب مع صفات الملائكة.

والقول الثالث: أن إبليس كان أصله من الملائكة فمسخه الله من الجن لما عصاه. وهذا قول ابن مسعود[٤]، وابن عباس-في رواية عنه-[٥]، وقتادة[٦]، ومحمد بن إسحاق[٧].

---

(١)مسلم (٢٩٩٦)، وأحمد (٦/ ١٥٣)، وابن حبان (٦١٥٥).

(٢)أخرجه مسلم (٢/٣٦) وابن خزيمة في " صحيحه " (رقم ٨٢) والبيهقي (١/١٠٨ - ١٠٩) من طريق عبد الأعلى بن عبد الأعلى عن داود عن عامر قال: سألت علقمة : هل كان ابن مسعود شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجن ؟ قال فقال علقمة : أنا سألت ابن مسعود فقلت : هل شهد أحد منكم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجن ؟ قال : لا، ولكنا كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة ففقدناه، فالتمسناه في الأودية والشعاب، فقلنا : استطير أواغتيل، قال : فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل (حراء)، قال : فقلنا : يا رسول الله فقدناك فطلبناك فلم نجدك، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فقال : أتاني داعي الجن فذهبت معه، فقرأت عليهم القرآن، قال : فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم. وسألوه الزاد، فقال : فذكره، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فلا تستنجوا بهما، فإنهما طعام إخوانكم من الجن" .(وضعفه الألباني: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة " (٣ / ١٣٣).

(٣)رواه مسلم برقم ٢٠٢٠.

(٤) أنظر: تفسير الطبري(٦٨٨):ص٥٠٣/١.

(٥) أنظر: تفسير الطبري(٦٨٦):ص٥٠٢/١، وابن أبي حاتم(٣٦١):ص٨٤/١.

(٦) أنظر: تفسير الطبري(٦٩٣):ص٥٠٤/١.

(٧) أنظر: تفسير الطبري(٦٩٥):ص٥٠٥/١.

قال ابن عباس:" كان إبليس اسمه عزازيل، وكان من أشرف الملائكة من ذوي الأربعة الأجنحة ثم أبلس بعد"[1].

والقول الرابع: أن الشيطان كان من الملائكة باعتبار صورته وليس منهم باعتبار أصله ولا باعتبار مثاله. قاله شيخ الإسلام ابن تيمية[2]، وهذا القول ليس عليه دليل.

والراجح : أن إبليس لم يكن من الملائكة، وهو الصحيح، لقوة أدلته. وهو الذي عليه المحققون من أهل العلم. ـوالله أعلم-.

الفوائد:

١. من فوائد الآية: بيان فضل آدم على الملائكة؛ وجهه أن الله أمر الملائكة أن يسجدوا له تعظيماً له.

٢. ومنها: أن السجود لغير الله إذا كان بأمر الله فهو عبادة؛ لأن لله تعالى أن يحكم بما شاء؛ ولذلك لما امتنع إبليس عن هذا كان من الكافرين؛ وقد استدل بعض العلماء بهذه الآية على كفر تارك الصلاة؛ قال: لأنه إذا كان إبليس كفر بترك سجدة واحدة أُمر بها، فكيف عن ترك الصلاة كاملة؟! وهذا الاستدلال إن استقام فهو هو؛ وإن لم يستقم فقد دلت نصوص أخرى من الكتاب، والسنة، وأقوال الصحابة على كفر تارك الصلاة كفراً أكبر مخرجاً عن الملة.

ويدل على أن المحرَّم إذا أمر الله تعالى به كان عبادة قصة إبراهيم عليه السلام، حين أمره الله أن يذبح ابنه إسماعيل فامتثل أمر الله؛ ولكن الله رحمه، ورحم ابنه برفع ذلك عنهما، حيث قال تعالى: {فلما أسلما وتلّه للجبين * وناديناه أن يا إبراهيم * قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين} [الصافات: ١٠٣ . ١٠٥] ؛ ومن المعلوم أن قتل الابن من كبائر الذنوب، لكن لما أمر الله عزّ وجلّ به كان امتثاله عبادة.

٣. ومن فوائد الآية: أن إبليس . والعياذ بالله . جمع صفات الذم كلها: الإباء عن الأمر؛ والاستكبار عن الحق، وعلى الخلق؛ والكفر؛ إبليس استكبر عن الحق؛ لأنه لم يمتثل أمر الله؛ واستكبر على الخلق؛ لأنه قال: {أنا خير منه} [الأعراف: ١٢] ؛ فاستكبر في نفسه، وحقر غيره؛ و"الكبر" بطر الحق، وغمط الناس.

تنبـــــيه:

إن قال قائل: في الآية إشكال . وهو أن الله تعالى لما ذكر أمر الملائكة بالسجود، وذكر أنهم سجدوا إلا إبليس؛ كان ظاهرها أن إبليس منهم؛ والأمر ليس كذلك؟.

والجواب: أن إبليس كان مشاركاً لهم في أعمالهم ظاهراً، فكان توجيه الأمر شاملاً له بحسب الظاهر؛ وقد يقال: إن الاستثناء منقطع؛ والاستثناء المنقطع لا يكون فيه المستثنى من جنس المستثنى منه.

القرآن

{وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥)} [البقرة : ٣٥]

التفسير:

وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك حواء -وكان خلقها من ضلعه الأيسر- الجنة وكلا منها أكلاً رغداً واسعا لاحجر فيه من أصناف الثمار والفواكه، ولا تقربا هذه الشجرة بالأكل منها وهى الحنطة أو الكرم أو غيرهما، فتصيرا من الظالمين العاصين.

قوله تعالى{ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ}[البقرة: ٣٥]، قلنا يا آدم" أسكن في جنة الخلد مع زوجك حواء"[3].

و(الجنة): هي "البستان الكثير الأشجار، وسمي بذلك لأنه مستتر بأشجاره"[4].

وقد اختلف في الجنة التي أسكنها آدم على قولين[5]:

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٦١):ص٨٤/١.
(٢) مجموع الفتاوى: ٣٤٦/٤.

(٣) صفوة التفاسير: ٤٣/١.
(٤) تفسير ابن عثيمين:١٢٨/١.
(٥) انظر: تفسير ابن كثير: ٢٣٣/١.

أحدهما: هي في السماء. وهذا قول الأكثرين(١).
والثاني: وقيل أنها في الأرض، إذ حكى القرطبي عن المعتزلة والقدرية القول بأنها في الأرض(٢).
قال ابن عثيمين:" ظاهر الكتاب، والسنة أنها جنة الخلد، وليست سواها؛ لأن "أل" هنا للعهد الذهني"(٣).
وإن قيل: "كيف يكون القول الصحيح أنها جنة الخلد مع أن من دخلها لا يخرج منها. وهذه أُخرج منها آدم؟

فالجواب: أن من دخل جنة الخلد لا يخرج منها: بعد البعث؛ وفي هذا يقول ابن القيم في الميمية المشهورة"(٤).

قال الماوردي وسُمِّيت [الأنثى]: امرأةً، لأنها خُلِقَتْ مِنَ المرءِ"(٥).
فأما تسميتها حواء، ففيه قولان:
أحدهما : أنها سميت بذلك لأنها خلقت من حَيٍّ ، وهذا قول ابن عباسٍ(٦)، وابن مسعود(٧)، والسدي(٨).

عن السُّدّيّ في خبر ذكره، عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس - وعن مُرَّة، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: "فأُخرج إبليسُ من الجنة حين لعن، وأسكِن آدم الجنة. فكان يمشي فيها وَحْشًا ليس له زوج يسكن إليها، فنام نومة فاستيقظ، وإذا عند رأسه امرأة قاعدةٌ خلقها الله من ضلعه، فسألها: من أنت؟ فقالت: امرأة. قال: ولم خلقت؟ قالت: تسكن إليّ. قالت له الملائكة - ينظرون ما بلغ علمه-: ما اسمها يا آدم؟ قال: حواء. قالوا: ولم سُميت حواء؟ قال: لأنها خلقت من شيء حيّ. فقال الله له:"يا آدمُ اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رَغدًا حيث شئتما"(٩).

عن السدي قال: "أخرج إبليس من الجنة، وأسكن آدم الجنة، فكان يمشي فيها وحشا ليس له زوج يسكن إليها، فنام نومة فاستيقظ وعند رأسه امرأة قاعدة خلقها الله من ضلعه، فسألها ما أنت؟ فقالت امرأة قال: ولم خلقت؟ قالت: تسكن إلي قالت له الملائكة ينظرون ما بلغ من علمه ما اسمها يا آدم؟ قال: حواء. قالوا: ولم حواء؟ قال: إنها خلقت من شيء حيّ، فقال الله: {يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ} [البقرة : ٣٥]"(١٠).
والثاني : أنها سميت بذلك، لأنها أم كل حيٍّ. حكاه الماوردي(١١).
واختلف فيما خلقت منه حواء على قولين(١٢):
أحدهما : أنه خلقها من مثل ما خلق منه آدم. وهذا قول تفرد به ابن بحر المعتزلي، وقد قال الربيع بن أنس حواء من طينة آدم واحتج بقوله تعالى {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ} [الأنعام : ٢](١٣).
القول الثاني: و هو ما عليه الجمهور أنه خلقها من ضلع آدم الأيسر بعد أن ألقى عليه النوم حتى لم يجد لها مسا قال ابن عباس : فلذلك تواصلا و لذلك سميت امرأة لأنها خلقت من المرء(١).

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ٢٣٣/١.
(٢) انظر: تفسير القرطبي: ٣٠٢/١-٣٠٣.
(٣) تفسير ابن عثيمين:١٢٨/١-١٢٩.
(٤) تفسير ابن عثيمين:١٢٨/١-١٢٩.
(٥) النكت والعيون: ١٠٤/١.
(٦) انظر: تفسير الطبري(٧١٠):ص٥١٣/١.
(٧) انظر: تفسير الطبري(٧١٠):ص٥١٣/١.
(٨) انظر: تفسير ابن أبي حتم(٣٧٢):ص٨٥/١.
(٩) أخرجه الطبري(٧١٠):ص٥١٣/١.
(١٠) أخرجه ابن أبي حتم(٣٧٢):ص٨٥/١.
(١١) أنظر: النكت والعيون: ١٠٤/١.
(١٢) انظر: أعلام النبوة، الماوردي: ص ٣٨-٣٩.
(١٣)عمدة القاري شرح صحيح البخاري - (٢٣ / ١٣٤). وقوله: {خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ} فيها قولان: الأول: أن المراد بالنفس الواحدة: العين الواحدة; أي: من شخص معين، وهو آدم عليه السلام، وقوله: {وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا} أي: حواء; لأن حواء خلقت من ضلع آدم.(القول المفيد على كتاب التوحيد " للشيخ العثيمين).
الثاني: أن المراد بالنفس الجنس، وجعل من هذا الجنس زوجه، ولم يجعل زوجه من جنس آخر، والنفس قد يراد بها الجنس; كما في قوله تعالى: {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ} [آل عمران: من الآية١٦٤]; أي: من جنسهم.

كما اختلف في زمن خلق حواء على قولين(٢):

أحدهما: أن آدم أُدْخِلَ الجنَّة وَحْدَهُ ، فَلَمَّا استوحش خُلِقَتْ حواءُ من ضِلْعِهِ بعد دخوله في الجنة ، وهذا قول ابن مسعود(٣).

عن أشعث الحداني: "كانت حواء من نساء الجنة، وكان الولد يرى في بطنها إذا حملت أذكر أم أنثى من صفائها"(٤).

والثاني: أنها خلقت من ضلعه قبل دخوله الجنة، ثم أُدْخِلا معاً إلى الجنةِ ، لقوله تعالى : {وَقُلْنَا يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ}، وهذا قول أبي إسحاق(٥).

والقول الثاني عليه أكثر أهل العلم(٦).

ويقال لامرأة الرجل : زَوْجُه وزَوْجتُه، والزوجة بالهاء أكثر في كلام العرب منها بغير الهاء. والزوج بغير الهاء يقال إنه لغة لأزْد شَنوءة. فأما الزوج الذي لا اختلاف فيه بين العرب، فهو زوجُ المرأة(٧).

قوله تعالى: {وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا}[البقرة: ٣٥]، "أي كلا من ثمار الجنة أكلاً رغداً واسعاً "(٨).

قال البغوي: أكلا " واسعا كثيرا"(٩).

قال الطبري:أي" وكلا من الجنة رزقًا واسعًا هنيئًا"(١٠).

قال ابن عثيمين: " أي: أكلاً هنيأً، ليس فيه تنغيص.والأمر بمعنى الإباحة، والإكرام"(١١).

و(الرَّغَد): الواسع من العيش ، الهنيء الذي لا يُعنِّي صاحبه. يقال : أرْغد فلان : إذا أصاب واسعًا من العيش الهنيء(١) ، كما قال امرؤ القيس بن حُجْر(٢) :

---

(١) قال الشيخ الألباني – رحمه الله: - وقد روى ابن سعد (١ / ٣٩) وغيره عن مجاهد في قوله تعالى : {وخلق منها زوجها} ، قال :" خَلَق " حواء " من قُصَيْرى آدم " - وهو أعلى الأضلاع وأسفلها ، وهما " قُصَيْريان . - " ، وذكر ابن كثير في " البداية " (١ / ٧٤) عَنْ اِبْنِ عَبَّاسٍ أنها خُلقت من ضلعه الأقصر الأيسر وهو نائم ، ولأمَ مكانه لحماً ، وقال :" ومصداق هذا في قوله تعالى ... " فذكر الآية ، مع الآية الأخرى : { وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ...} الآية ، لكن الحافظ – أي : ابن حجر - أشار إلى تمريض هذا التفسير في شرح قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : {استوصوا بالنساء خيراً فان المرأة خلقت من ضِلَع ... }، فقال (٦ / ٣٦٨) : قيل : فيه إشارة إلى أن " حواء " خلقت من ضلع آدم الأيسر ".

وقال الشيخ القاري في " شرح المشكاة " (٣ / ٤٦٠) : " أي : خُلقن خلقاً فيه اعوجاج ، فكأنهن خلقن من الأضلاع ، وهو عظم معوج ، واستعير للمعوج صورة ، أو معنى ، ونظيره في قوله تعالى : {خلق الإنسان من عجل .. " قلتأي الألباني- : وهذا هو الراجح عندي ، أنه استعارة وتشبيه ، لا حقيقة ، وذلك لأمرين:

الأول : أنه لم يثبت حديث في خلق حواء من ضلع آدم - كما تقدم. -

والآخر : أنه جاء الحديث بصيغة التشبيه في رواية عن أبي هريرة بلفظ : (إن المرأة كالضِلَع " أخرجه البخاري (٥١٨٤) ، ومسلم (٤ / ١٧٨) ، وأحمد (٢ / ٤٢٨ و ٤٤٩ و ٥٣٠) وغيرهم من طرق عن أبي هريرة ، وصححه ابن حبان (٦ / ٤١٦٨/١٨٩ – " الإحسان" . وأحمد أيضاً (٥ / ١٦٤ و ٦ / ٢٧٩) وغيره من حديث أبي ذر ، وحديث عائشة رضي الله عنهم ". سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة " (١٣ / ١١٣٩ ، ١١٤٠).

(٢) انظر: تفسير الطبري: ٥١٤/١، والنكت والعيون: ١٠٤/١.

(٣) انظر: تفسير الطبري: (٧١٠):ص٥١٣/١.

(٤) أخرجه ابن ابي حاتم(٨٢٧٧):ص١٤٤٨/٥.

(٥) انظر: تفسير الطبري: (٧١١):ص٥١٤/١.

(٦) انظر: تاريخ الطبري ١ : ٥٢ وابن كثير ١ : ١٤١ - ١٤٢. وقد ذكر معظم كتب التفسير قصة خلق حواء، عند تفسير هذه الآية ، ويقول أبو حيان في البحر المحيط : ١ / ١٥٦ "وفي هذه القصة زيادات ذكرها المفسرون ، لا نطول بذكرها ، لأنها ليست مما يتوقف عليها مدلول الآية ولا تفسيرها". ونلحظ أن هذه الأمور الغيبية التي استأثر الله تعالى بعلمها وحجبها عنا ، ليس بين أيدينا ما يدل عليها من النصوص الصحيحة .. فأين كان هذا الذي كان ؟ وما الجنة التي عاش فيها آدم وزوجه حينا من الزمان ؟ ومن هم الملائكة ؟ ومن هو إبليس ؟ كيف قال الله تعالى لهم ذلك ؟ وكيف أجابوه ؟ وكيف تم خلق حواء ؟ .. إلخ .. إلخ هذا كله يحتاج إلى نص ثابت. وغالب ما يروى من آثار حولها لا يخلو من مقال أو هو من الإسرائيليات ، فحسبنا ما جاءت به النصوص ، ونكل علم ما رآها إلى الله سبحانه. وانظر : في ظلال القرآن : ١ / ٥٩.

(٧) انظر: تفسير الطبري: ٥١٤/١.

(٨) صفوة التفاسير: ٤٣/١.

(٩) تفسير البغوي: ٨٢/١.

(١٠) تفسير الطبري: ٥١٦/١.

(١١) تفسير ابن عثيمين:١٢٨/١.

بَيْنَمَا الْمَرْءُ تَرَاهُ نَاعِمَا يَأْمَنُ الأَحْدَاثَ فِي عَيْشٍ رَغَدْ

وقد أخرج الطبري عن ابن مسعود أنه قال:" الرغد ، الهنيء"[٣].

وذكر أهل التفسير في (الرغدِ) ثلاثةُ تأويلاتٍ[٤]:

أحدها : أنه العيش الهني ، وهذا قول ابن عباس وابن مسعود[٥].

والثاني : أنه العيش الواسع ، وهذا قول الضحاك[٦]، وأبي عبيدة[٧] .

والثالث : أنه أراد الحلال الذي لا حساب فيه ، وهو قول مجاهد[٨].

قوله تعالى:{ حَيْثُ شِئْتُمَا}[البقرة:٣٥]، "أي من أي مكان في الجنة أردتما الأكل فيه"[٩].

قال البغوي:أي:" كيف شئتما ومتى شئتما وأين شئتما"[١٠].

قال ابن عثيمين:" أي: في أيّ مكان من هذه الجنة، ونقول أيضاً: وفي أيّ زمان؛ لأن قوله تعالى: {كُلا} فعل مطلق لم يقيد بزمن"[١١].

قوله تعالى:{وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ}[البقرة:٣٥]، "أي: ولا تأكلا من هذه الشجرة"[١٢].

قال الطبري: "والشجر في كلام العرب : كلّ ما قام على ساق ، ومنه قول الله جل ثناؤه : {وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ}[الرحمن : ٦] ، يعني بـ«النجم»: ما نَجمَ من الأرض من نَبت ، وبالشجر ما استقلّ على ساق"[١٣].

قال البغوي: " يعني للأكل"[١٤].

اختلف أهل التفسير في الشجرة التي نُهيا عنها ، على أقاويل[١٥] :

أحدها : أنها البُرُّ ، وهذا قول ابن عباس[١٦].

والثاني : أنها الكَرْمُ ، وهذا قول السُّدِّيِّ[١٧]، وجعدة بن هبيرة[١٨] .

والثالث : أنها التِّين ، وهذا قول ابن جريجٍ[١٩]، ويحكيه عن بعض الصحابة .

والرابع : أنها شجرة الخلد التي تأكل منها الملائكة . قاله يعقوب بن عتبة[٢٠].

والصواب: أن هذه الشجرة غير معلومة النوع، وأنه لا علم عندنا أي شجرة كانت على التعيين، لأن الله لم يَضَع لعباده دليلا على ذلك في القرآن، ولا في السنة الصحيحة[٢١]، فتبقى على إبهامها. والله أعلم.

قوله تعالى:{فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ} [البقرة : ٣٥]، "أي: فتصيروا من الذين ظلموا أنفسهم بمعصية الله"[١].

---

(١) أنظر: تفسير الطبري: ٥١٥/١.

(٢)لم أجد في ديوانه، وهو من شواهد الطبري في تفسيره: ٥١٥/١.

(٣) تفسير الطبري(٧١٢):ص٥١٥/١.

(٤) أنظر: النكت والعيون: ١٠٤/١-١٠٥.

(٥) تفسير الطبري(٧١٢):ص٥١٥/١.

(٦) تفسير الطبري(٧١٦):ص٥١٥/١-٥١٦.

(٧) أنظر: النكت والعيون: ١٠٤/١-١٠٥.

(٨) تفسير الطبري(٧١٣):ص٥١٥/١.

(٩) صفوة التفاسير: ٤٣/١.

(١٠) تفسير البغوي: ٨٢/١.

(١١) تفسير ابن عثيمين:١٢٨/١.

(١٢) صفوة التفاسير: ٤٣/١.

(١٣) تفسير الطبري: ٥١٦/١.

(١٤) تفسير البغوي: ٨٢/١.

(١٥) انظر: تفسير الطبري: ٥١٦/١، والنكت والعيون: ١٠٥/١.

(١٦) انظر: تفسير الطبري(٧٢٤):ص ٥١٨/١.

(١٧) انظر: تفسير الطبري(٧٣١):ص ٥١٩/١.

(١٨) انظر: تفسير الطبري(٧٣٣):ص ٥١٩/١.

(١٩) انظر: تفسير الطبري(٧٤٠):ص ٥٢٠/١.

(٢٠) انظر: تفسير الطبري(٧٢٧):ص ٥١٨/١.

(٢١) انظر: تفسير الطبري: ٥٢٠/١-٥٢١.

قال ابن عثيمين:" أي: من المعتدين لمخالفة الأمر"[٢].
قال البغوي: أي: فتصيرا من الضارين بأنفسكما بالمعصية"[٣].
وأصل " الظلم " في كلام العرب، وضعُ الشيء في غير موضعه، ومنه قول نابغة بني ذبيان[٤] :
إلا أُوَارِيَّ لأيًا مَا أُبَيِّنُهَا وَالنُّؤْيُ كَالحَوْضِ بِالمَظْلُومَةِ الجَلَدِ
فجعل الأرض مظلومة، لأن الذي حفر فيها النؤى حَفر في غير موضع الحفر، فجعلها مظلومة، لموضع الحفرة منها في غير موضعها، ومن ذلك قول ابن قمية في صفة غيث [٥]:
ظَلَمَ البِطَاحَ بِهَا انْهِلالُ حَرِيصَةٍ فَصَفَا النِّطَافُ لَهُ بُعَيْدَ المُقْلَع
قوله ظلمه إياه : مجيئه في غير أوانه، وانصبابه في غير مصبِّه. ومنه : ظَلَم الرجلُ جَزوره، وهو نحره إياه لغير علة. وذلك عند العرب وَضْع النحر في غير موضعه[٦].
وذكروا في قوله تعالى {فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ }[البقرة: ٣٥]، وجهان[٧] :
أحدهما : من المعتدين في أكل ما لم يُبَحْ لكما .
والثاني : من الظالمين لأنفسكما في أكلكما .
واختلفُوا في معصية آدم بأكله من الشجرة ، على أي وجهٍ وقعت منه ، على أربعة أقاويل[٨]:
أحدها : أنه أكل منها وهو ناسٍ للنهي لقولِهِ تعالى:{ولقد عَهِدْنَا إلى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ}[طه : ١١٥]، وزعم صاحب هذا القول ، أن الأنبياء يلزمهم التحفظ والتيقُّظ لكثرة معارفهم وعُلُوِّ منازلهم ما لا يلزم غيرهم ، فيكون تشاغله عن تذكُّر النهي تضييعاً صار به عاصياً .
والقول الثاني : أنه أكل منها وهو سكران فصار مؤاخذاً بما فعله في السُّكْر ، وإن كان غير قاصدٍ له ، كما يؤاخَذُ به لو كان صاحياً ، وهو قول سعيد بن المسيب[٩].
والقول الثالث : أنه أكل منها عامداً عالماً بالنهي ، وتأول قوله:{وَلَقَدْ عَهِدْنَا إلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ} [طه : ١١٥] أي فَزَلّ ، ليكون العَمْدُ في معصيةٍ يستحق عليها الذمَّ .
والرابع : أنه أكل منها على جهة التأويل ، فصار عاصياً بإغفال الدليل ، لأن الأنبياء لا يجوز أن تقع منهم الكبائر ، ولقوله تعالى في إبليس:{فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ} [الأعراف : ٢٢] وهو ما صرفهما إليه من التأويل .
واختلف من قال بهذا في تأويله الذي استجاز به الأكل ، على ثلاثةِ أقاويلَ [١٠]:
أحدها : أنه تأويل على جهةِ التنزيه دون التحريم .
والثاني : أنه تأويل النهي عن عين الشجرة دون جنسها ، وأنه إذا أكل من غيرها من الجنس لم يعص .
والثالث : أن التأويل ما حكاه الله تعالى عن إبليس في قوله:{مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الخَالِدِينَ} [الأعراف : ٢٣] .
الفوائد:

---

(١) صفوة التفاسير: ٤٣/١.
(٢) تفسير ابن عثيمين:١٢٩/١.
(٣) تفسير البغوي: ٨٣/١.
(٤)ديوانه : ٢٣. يقال : لقيته أصيلالا وأصيلانًا ، إذا لقيته بالعشي . وذلك أن الأصيل هو العشي ، وجمعه أُصُل (بضمتين) وأُصلان (بضم فسكون) ، ثم صغروا الجمع فقالوا : أصيلان ، ثم أبدلوا من النون لامًا . فعلوا ذلك اقتدارا على عربيتهم ، ولكثرة استعمالهم له حتى قل من يجهل أصله ومعناه . وعى في منطقه : عجز عن الكلام .
(٥) والبيت جاء في بعض كتب التفاسير منسوبًا لعمرو بن قميئة (انظر: تفسير القرطبي: ٥٠/٢). وصحة نسبته إلى الحادرة الذبياني ، وهو في ديوان الحادرة ، قصيدة : ٤ ، البيت رقم : ٧ ، وشرح المفضليات : ٥٤ . والبطاح جمع بطحاء وأبطح : وهو بطن الوادي . وأنهل المطر انهلالا : اشتد صوبه ووقعه . والحريصة والحارصة : السحابة التي تحرص مطرتها وجه الأرض ، أي تقشره من شدة وقعها . والنطاف جمع نطفة : وهي الماء القليل يبقى في الدلو وغيره . وقوله : " بعيد المقلع " : أي بعد أن أقلعت هذه السحابة . ورواية المفضليات : " ظلم البطاح له " وقوله : " له " : أي من أجله .
(٦)انظر: تفسير الطبري: ٥٢٤/١.
(٧)انظر: النكت والعيون: ١٠٥/١.
(٨)انظر: النكت والعيون: ١٠٥/١-١٠٦.
(٩)انظر:تفسير الطبري(٧٤٩):٥٣٠/١.
(١٠)انظر: النكت والعيون: ١٠٦/١.

١.من فوائد الآية: إثبات القول لله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: (وقلنا يا آدم).
٢. ومنها: أن قول الله يكون بصوت مسموع، وحروف مرتبة؛ لقوله تعالى: { يا آدم اسكن.. } إلخ؛ ولولا أن آدم يسمعه لم يكن في ذلك فائدة؛ وأيضاً هو مرتب؛ لقوله تعالى } :يا آدم اسكن أنت وزوجك }: وهذه حروف مرتبة، كما هو ظاهر؛ وإنما قلنا ذلك لأن بعض أهل البدع يقول: إن كلام الله تعالى هو المعنى القائم بنفسه، وليس بصوت، ولا حروف مرتبة؛ ولهم في ذلك آراء مبتدعة أوصلها بعضهم إلى ثمانية أقوال
٣. ومن فوائد الآية: منّة الله عزّ وجلّ على آدم، وحواء حيث أسكنهما الجنة.
٤. ومنها: أن النكاح سنة قديمة منذ خلق الله آدم، وبقيت في بنيه من الرسل، والأنبياء، ومن دونهم، كما قوله تعالى: {ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية} (الرعد: ٣٨)
فإن قال قائل: زوجته بنت من؟.
فالجواب: أنها خلقت من ضلعه.
فإن قال: إذاً تكون بنتاً له، فكيف يتزوج ابنته؟.
فالجواب: أن لله تعالى أن يحكم بما شاء؛ فكما أباح أن يتزوج الأخ أخته من بني آدم الأولين؛ فكذلك أباح أن يتزوج آدم من خلقها الله من ضلعه.
٥. ومن فوائد الآية: أن الأمر يأتي للإباحة؛ لقوله تعالى: { وكُلا منها }؛ فإن هذه للإباحة بدليل قوله تعالى: { حيث شئتما }: خيَّرهما أن يأكلا من أيّ مكان؛ ولا شك أن الأمر يأتي للإباحة؛ ولكن الأصل فيه أنه للطلب حتى يقوم دليل أنه للإباحة.
٦. ومنها: أن ظاهر النص أن ثمار الجنة ليس له وقت محدود؛ بل هو موجود في كل وقت؛ لقوله تعالى: { حيث شئتما }؛ فالتعميم في المكان يقتضي التعميم في الزمان؛ وقد قال الله تعالى في فاكهة الجنة: {وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة} (الواقعة: ٣٢، ٣٣)
٧. ومنها: أن الله تعالى قد يمتحن العبد، فينهاه عن شيء قد تتعلق به نفسه؛ لقوله تعالى: { ولا تقربا هذه الشجرة }؛ ووجه ذلك أنه لولا أن النفس تتعلق بها ما احتيج إلى النهي عن قربانها.
٨. ومنها: أنه قد يُنهى عن قربان الشيء والمراد النهي عن فعله؛ للمبالغة في التحذير منه؛ فإن قوله تعالى: { ولا تقربا هذه الشجرة }: المراد: لا تأكلا منها، لكن لما كان القرب منها قد يؤدي إلى الأكل نُهي عن قربها.
٩. ومنها: إثبات الأسباب؛ لقوله تعالى: { ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين}.
١٠. ومنها: أن معصية الله تعالى ظلم للنفس، وعدوان عليها؛ لقوله تعالى: {ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين}.

القرآن

{فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٣٦)} [البقرة : ٣٦]

التفسير:

فأوقعهما الشيطان في الخطيئة: بأنْ وسوس لهما حتى أكلا من الشجرة، فتسبب في إخراجهما من الجنة ونعيمها، وقال الله لهم: اهبطوا إلى الأرض بما اشتملتما عليه من ذريتكما بعضكم لبعض عدوٌّ من ظلم بعضكم بعضاً، ولكم في الأرض موضع قرار ومتاع ما تتمتعون به من نباتها إلى حين وقت انقضاء آجالكم.

قوله{فَأَزَلَّهُمَا الشيطان عَنْهَا}[البقرة: ٣٦]، أي: دعاهما إلى الزلة[(١)]، فزحزحهما[(١)] عن القصد المستقيم، بتزيينه ووسوسته وإغوائه[(٢)].

---

(١) الزلة: الخطيئة، وهي في أصل اللغة: عثور القدم، انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس: ٤/٣، والمفردات للراغب: ٢١٤، والمحرر الوجيز لابن عطية: ١٨٦/١، والبحر المحيط لأبي حيان: ١٥٩/١، وقد جاءت آيات أخرى تبين كيفية دعاء الشيطان الأبوين إلى ذلك، منها قوله-عز وجل-: {فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ} [الأعراف:٢٠-٢١]، وقوله-عز وجل-: {قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى} [طه:١٢٠]. ولفظ ابن حجر هنا نص كلام البغوي في معالم التنزيل: ٨٣/١ وهو من موارده في الفتح-كما في موارد ابن حجر العسقلاني في علوم القرآن من خلال كتابه فتح الباري لمحمد أنور صاحب: ٢٣٠-٢٣١-، وانظر: جامع البيان للطبري: ٥٢٤/١، والوسيط للواحدي: ١٢٢/١، وتيسير المنان تفسير القرآن

قال الصابوني:" أي أوقعهما في الزلة بسببها وأغواهما بالأكل منها هذا إذا كان الضمير عائداً إلى الشجرة، أما إذا كان عائداً إلى الجنة فيكون المعنى أبعدهما وحوّلهما من الجنة"[٣].

أخرج الطبري عن ابن عباس، أنه قال في تأويل قوله تعالى :{فأزلهما الشيطان}: "أغواهما" [٤].

وقال عاصم: "فنحاهما"[٥].

وأخرج ابن أبي حاتم "عن الحسن: {فأزلهما}، قال: من قبل الزلل"[٦]. وروي عن قتادة مثل ذلك[٧].

وقوله: {فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا}[البقرة:٣٦]، فيه وجهان من القراءة:

أحدهما: قرأته عامة القراء{فأزلّهما} بتشديد اللام، بمعنى : استزلّهما، من قولك زلَّ الرجل في دينه : إذا هفا فيه وأخطأ، فأتى ما ليس له إتيانه فيه. وأزلَّه غيره : إذا سبب له ما يزلّ من أجله في دينه أو دنياه .

والثاني: قرأه آخرون :{فأزَالهما}، بمعنى إزَالة الشيء عن الشيء، وذلك تنحيته عنه[٨].

واختلف أهل التفسير، هل خلص إليهما الشيطان حتى باشرهما بالكلام وشافههما بالخطاب أم لا ؟ فذكروا قولين:

أحدهما: أن الشيطان خلص إليهما. قاله عبد الله بن عباس[٩]، وابن مسعود[١٠]، ووهب بن منبه[١١]، وأبو العالية[١٢]، وأكثر المفسرين.

واستدلُّوا بقوله تعالى:{وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ} [الأعراف : ٢١].

والثاني: أنه لم يخلص إليهما، وإنما أوقع الشهوة في أنفسهما ، ووسوس لهما من غير مشاهدة ، لقوله تعالى:{فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ}[الأعراف : ٢٠]، وهو قول محمد بن إسحاق[١٣]، وابن زيد[١٤]، وروي عن محمد بن قيس[١٥] نحو ذلك.

والقول الأول أظهر وأشهر. والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: {فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ}[البقرة: ٣٦]، "فأخرجهما الشيطان "من نعيم الجنة" [١٦].

قال ابن كثير:" أي : من اللباس والمنزل الرحب والرزق الهنيء والراحة"[١].

للكوكباني: ٨٨٣/٢-٨٨٤، والتحرير والتنوير لابن عاشور: ٤٣٣/١. و(فَأَزَلَّهُمَا) في الآية تحتمل معنيين: أ-بمعنى استزلهما، أي: دعاهما إلى الزلة مزيناً لهما الخطيئة حتى وقعا فيها، وقال به كثير من المفسرين وهو قول الحافظ هنا، انظر: مجاز القرآن لأبي عبيدة: ٣٨/١، وغريب القرآن لليزيدي: ٦٨، وجامع البيان للطبري: ٥٢٤/١ وغيرها. ب-من زل عن المكان إذا تنحى عنه ولم يثبت فيه، والمعنى: نحاهما عن الجنة وأبعدهما عنها بسبب خطيئتهما بالأكل من الشجرة، والشيطان لا يستطيع تنحية العبد وزحزحته وإنما يقدر على الوسوسة التي هي سبب التنحية، وذلك مجاز كما في البحر المحيط لأبي حيان: ٥٩/١، والدر المصون للسمين: ١٩٣/١، وغيرهما. وانظر: القولين في: شرح الهداية للمهدوي: ١٦٣/١، الحجة في علل القراءات السبع للفارسي: ١٣/٢-١٤، الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي بن أبي طالب: ٢٣٦/١، الدر المصون للسمين الحلبي: ١٩٢/١-١٩٣، وغيرها.

(١) انظر: معاني القرآن للزجاج: ١١٥/١، وتيسير الكريم الرحمن للسعدي: ٣٢.

(٢) أي: الطاعة-وهو في حق الأبوين ترك ارتكاب المحظور-والتي كانا بسببها متنعمَين في الجنة فأخرجهما إبليس منها بتزيينه لهما الأكل من الشجرة التي نهاهما الله تعالى عن الأكل منها.

(٣) صفوة التفاسير: ٤٤/١.

(٤) تفسير الطبري(٧٤١):ص٥٢٥/١..

(٥) تفسير ابن أبي حاتم(٣٨٣):ص٨٧/١.

(٦) تفسير ابن أبي حاتم(٣٨٤):ص٨٧/١.

(٧) تفسير ابن أبي حاتم(٣٨٥):ص٨٧/١.

(٨) انظر: تفسير الطبري: ٥٢٤/١.

(٩) تفسير الطبري(٧٤١):ص٥٢٥/١..

(١٠) تفسير الطبري(٧٤٣):ص٥٢٦/١..

(١١) أنظر: تفسير الطبري(٧٤٢):ص٥٢٥/١-٥٢٦.

(١٢) تفسير الطبري(٧٤٥):ص٥٢٧/١.

(١٣) تفسير الطبري(٧٤٦)، و(٧٤٧):ص٥٢٨/١-٥٢٩.

(١٤) تفسير الطبري(٧٤٨)، و(٧٤٧):ص٥٢٩/١.

(١٥) تفسير الطبري(٧٥٢):ص٥٣٠/١-٥٣١.

(١٦) صفوة التفاسير: ٤٤/١.

قوله تعالى:{وَقُلْنَا اهْبِطُوا}[البقرة:٣٦]، "أي اهبطوا من الجنة إلى الأرض والخطاب لآدم وحواء وإبليس"(٢).
قال الثعلبي:" أي: أنزلوا الى الأرض"(٣).
وذكر ابن أبي حاتم أخبارا حول مكان هبوطهم في الأرض(٤). وهي روايات لا اعلم درجة صحتها، وقد قال ابن كثير:" لو كان في تعيين تلك البقاع فائدة تعود علي المكلفين، في أمر دينهم أو دنياهم، لذكرها الله تعالى في كتابه أو رسوله صلى الله عليه وسلم، وإن هذه الأخبار من الإسرائيليات"(٥).
قوله تعالى:{بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ}[البقرة: ٣٦]، أي:" متعادين يبغى بعضكم على بعض بتضليله"(٦).
قال البغوي:" أراد العداوة التي بين ذرية آدم والحية وبين المؤمنين من ذرية آدم وبين إبليس"(٧).
قال ابن عثيمين:أي: " الشيطان عدو لآدم، وحواء"(٨).
و(الهبوط): النزول من فوق إلى أسفل(٩)، يقال: هَبط فلان أرضَ كذا وواديَ كذا، إذا حلّ ذلك كما قال الشاعر(١٠):

مَا زِلْتُ أَرْمُقُهُمْ، حَتَّى إِذَا هَبَطَتْ ... أَيْدِي الرِّكَابِ بِهِمْ مِنْ رَاكِسٍ فَلَقَا

وقد اختلف في المقصود بالخطاب في قوله تعالى:{اهْبِطُوا}[البقرة:٣٦]، على أقوال(١١):
أحدها: أن المقصود: آدم وحواء وإبليس وذريتهم. اختاره ابن عطية واحتج بأن: " إبليس مخاطب بالإيمان بإجماع"(١٢).
والثاني: آدم وحواءُ وإبليس والحية. قاله أبو صالح مولى أم هانئ(١٣). واختاره البغوي(١٤)، ووروي عن السدي نحو ذلك- وزاد فيه إبليس(١٥).
والثالث: أن الخطاب، ظاهره العموم، ومعناه الخصوص في آدم وحواء، لأن إبليس لا يأتيه هدى، وخوطبا بلفظ الجمع تشريفا لهما(١٦).
والصحيح هو أن آدم وزوجته ممن عُني به في قوله{اهبطوا}، وهو قول الجمهور(١٧).
قوله تعالى: {وَلَكُمْ فِي الأرض مُسْتَقَرٌّ}[البقرة:٣٦]، "أي لكم في الدنيا موضع استقرار بالإقامة فيها"(١٨).
قال الزجاج: "أي: مُقَام وثبوت"(١٩).
قال ابن عباس: "المستقر: القبور"(٢٠). وعنه أيضا: "مستقر فوق الأرض، ومستقر تحت الأرض"(١).

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢٣٦/١.
(٢) صفوة التفاسير: ٤٤/١، وانظر: تفسير البغوي: ٨٤/١.
(٣) تفسير الثعلبي: ١٨٣/١.
(٤) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم:٨٨/١-٨٩. من تلك الأماكن: الصفا والمروة، أرض هند، بين مكة وطائف...الخ.
(٥) أنظر: تفسيره: ٣٩٥/٣.
(٦) تفسير المراغي: ٨٧/١.
(٧) تفسير البغوي:٨٤/١.
(٨) تفسير ابن عثيمين: ١٣٢/١.
(٩) انظر: تفسير القرطبي: ٣١٩/١.
(١٠) البيت لزهير بن أبي سلمى ، ديوانه : ٣٧ ، أرمقهم : يعني أحبابه الراحلين ، وينظر إليهم حزينًا كئيبًا ، والركاب : الإبل التي يرحل عليها . وراكس : واد في ديار بني سعد بن ثعلبة ، من بني أسد . وفلق وفالق : المطمئن من الأرض بين ربوتين أو جبلين أو هضبتين ، وقالوا : فالق وفلق ، كما قالوا : يابس ويبس (بفتحتين) .
(١١) انظر: تفسير الطبري: ٥٣٥/١-٥٣٦.
(١٢) المحرر الوجيز: ١٣١/١.
(١٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٤١٦):ص٩٢/١.
(١٤) انظر: تفسير البغوي: ٨٤/١.
(١٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٩٢/١.
(١٦) أنظر: المحرر الوجيز: ١٣١/١.
(١٧) انظر: تفسير الطبري: ٥٣٥/١.
(١٨) صفوة التفاسير: ٤٤/١.
(١٩) معاني القرآن: ١١٥/١.
(٢٠) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٩٩):ص٨٩/١.

قوله تعالى:{وَمَتَاعٌ إلى حِينٍ}[البقرة:٣٦]، "أي تمتع بنعيمها إلى وقت انقضاء آجالكم"[٢].
قال الثعلبي:" الى حين اقتضاء آجالكم ومنتهى أعماركم"[٣].
قال ابن كثير:" أي : إلى وقت مؤقت ومقدار معين ، ثم تقوم القيامة"[٤].
قال أبو حيان:" «المتاع»: ما استمتع به من المنافع ، أو الزاد ، أو الزمان الطويل ، أو التعمير"[٥].
واختلف في قوله تعالى: {إِلَى حِينٍ}[البقرة: ٣٦]، على خمسة أوجه:
أحدها: إلى الموت، وهذا قول من يقول المستقر هو المقام في الدنيا. قاله السدي[٦].
والثاني: إلى قيام الساعة، وهذا قول من يقول المستقر هو القبور. قاله ابن عباس[٧]، ومجاهد[٨].
والثالث: إلى أجل. قاله الربيع[٩].
والرابع: أن الحين: الوقت البعيد، قال خويلد [١٠]:
كأبي الرماد عظيم القدر جفنته حين الشتاء كحوض المنهل اللقف
لقف الحوض لقفا، أي: تهور من أسفله واتسع.
والخامس: أن«الحين»: وقت مجهول القدر ينطلق على طويل الزمان وقصيره، وإن كان موضوعاً في الأغلب للتكثير، قال جرير[١١]:
وَمَا مِرَاحُكَ بَعْدَ الْحِلْمِ وَالدِّينِ ... وَقَدْ عَلاكَ مَشِيبٌ حِينَ لا حِينِ
أي: وقت لا وقت [١٢].
وقال القرطبي: "«الحين» أيضا : المدة ومنه قوله تعالى : {هَلْ أَتَى عَلَى الْأِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ} [الإنسان : ١]، والحين الساعة قال الله تعالى {أو تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ} [الزمر : ٥٨]، قال ابن عرفة الحين القطعة من الدهر كالساعة فما فوقها وقوله "فذرهم في غمرتهم حتى حين} [المؤمنون : ٥٤] أي حتى تفنى آجالهم وقوله تعالى {تؤتي أكلها كل حين} [إبراهيم : ٢٥] أي كل سنة وقيل بل كل ستة أشهر وقيل بل غدوة وعشيا، والحين الغدوة والعشية قال الله تعالى {فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ} [الروم : ١٧] ويقال عاملته محاينة من الحين وأحينت بالمكان إذا أقمت به حينا وحان حين كذا أي قرب، قالت بثينة[١٣] :

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٠٠):ص٨٩/١.
(٢) صفوة التفاسير: ٤٤/١.
(٣) تفسير الثعلبي: ١٨٣/١.
(٤) تفسير ابن كثير: ٢٣٦/١.
(٥) البحر المحيط: ١٣٧/١.
(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٤٠٢):ص٩٠/١.
(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٤٠٤):ص٩٠/١.
(٨) انظر: تفسير الطبري(٧٧٢):ص٥٤٠/١.
(٩) انظر: تفسير الطبري(٧٧٣):ص٥٤٠/١.
(١٠)ديوان الهذليين ٢ / ١٥٦ برواية: " عند الشتاء " وجاء في تفسيره: والحوض اللقف: الذي يتهدم من أسفله، وبهامشه عن الأغاني في تفسير اللقف: اللقف: الذي يضرب الماء أسفله فيتساقط وهو ملان.
(١١)ديوانه: ٥٨٦، وسيبويه ١: ٣٥٨، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ١: ٢١٢، والخزانة ٢: ٩٤، وغيرها. مطلع قصيدة في هجاء الفرزدق، ورواية الديوان، وسيبويه: * ما بالُ جَهْلِكَ بَعْدَ الحِلمِ والدِّينِ *
وبعده: لِلْغَانِيَاتِ وِصَالٌ لَسْتُ قَاطِعَهُ ... عَلَى مَوَعِدِهِ مِنْ خُلْفٍ وَتَلْوِين
إِنِّي لأَرْهَبُ تَصْدِيقَ الْوُشَاةِ بِنَا ... أوْ أَنْ يَقُولَ غَوِىٌّ للنَّوَى: بِينِي
و ((المراح)) (بكسر الميم) : المرح والاختيال والتبختر، وذلك من جنون الشاباب واعتداده بنفسه. وكأن رواية الديوان هي الجودي.
وأنشده سيبويه شاهدًا على إلغاء ((لا)) وإضافة ((حين)) الأولى إلى ((حين)) الثانية، قال: فإنما هو حين حين، و ((لا)) بمنزلة ((ما)) إذا ألغيت.
وذكره أب عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٢١٢.
(١٢) انظر: مجاز القرآن:٢١٢/١، وتفسير الطبري:٣٥٩/١٢، والنكت والعيون:٢١٢/٢.
(١٣) ديوانه: ٢٢٤، بثينة هي صاحبة جميل بن معمر الشاعر المعروف بحميل بثينة، والبيت في أمالي القالي: ٢٠١/١، والمجمل:٢٤٤، واللسان والتاج: (ح ي ن).

وإنّ سُلُوّي عن جميلٍ لساعةٌ   من الدّهْرِ ما حانتْ ولا حان حِينُها" [1]

وقد ذكر أهل التفسير أن لكلمة«حين» في القرآن الكريم دلالات[2]:

١- حين بمعنى : ستة أشهر، ومنه قوله تعالى : {تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} [إبراهيم : ٢٥][3].

٢- حين بمعنى : منتهى الآجال، ومنه قوله تعالى : {فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ} [البقرة : ٣٦]، وقوله تعالى : {فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ} [يونس : ٩٨].

٣- حين بمعنى : الساعات، ومنه قوله تعالى:{فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ} [الروم :١٧- ١٨].

٤- حين بمعنى :وقت منكر، ومنه قوله تعالى: {وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ} [ص : ٨٨].

٥- حين بمعنى : أربعون سنة، ومنه قوله تعالى : {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا} [الإنسان : ١].

٦- حين بمعنى : ثلاثة أيام، ومنه قوله تعالى في الذاريات : {وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ} [الذاريات : ٤٣].

٧- حين بمعنى : نصف النهار، ومنه قوله تعالى : {وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ} [القصص : ١٥] .

٨- حين بمعنى : خمس سنين، ومنه قوله تعالى : {ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ} [يوسف : ٣٥][4]. على أن نهاية سجن يوسف بوقت خروجه.

٩- حين: ابتداء القتال يوم بدر، ومنه قوله تعالى: {فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ} [الصافات : ١٧٤]. على أن نهاية الاعراض عن المشركين بوقت الأمر بقتالهم.

الفوائد:

١.من فوائد الآية: الحذر من وقوع الزلل الذي يمليه الشيطان؛ لقوله تعالى: (فأزلهما الشيطان عنها).

٢. ومنها: أن الشيطان يغرّ بني آدم كما غرّ أباهم حين وسوس لآدم، وحواء، وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين، وقال: يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى؛ فالشيطان قد يأتي الإنسان، فيوسوس له، فيصغر المعصية في عينه؛ ثم إن كانت كبيرة لم يتمكن من تصغيرها؛ منّاه أن يتوب منها، فيسهل عليه الإقدام؛ ولذلك احذر عدوك أن يغرك.

٣.ومنها: إضافة الفعل إلى المتسبب له؛ لقوله تعالى: { فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه }؛ وقد ذكر الفقهاء . رحمهم الله . أن المتسبب كالمباشر في الضمان، لكن إذا اجتمع متسبب ومباشر تمكن إحالة الضمان عليه فالضمان على المباشر؛ وإن لم تمكن فالضمان على المتسبب؛ مثال الأول؛ أن يحفر بئراً، فيأتي شخص، فيدفع فيها إنساناً، فيهلك: فالضمان على الدافع؛ ومثال الثاني: أن يلقي شخصاً بين يدي أسد، فيأكله: فالضمان على الملقي . لا على الأسد.

٤. ومن فوائد الآية: أن الشيطان عدو للإنسان؛ لقوله تعالى: { بعضكم لبعض عدو }؛ وقد صرح الله تعالى بذلك في قوله تعالى: { إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً } (فاطر: ٦)

٥. ومنها: أن قول الله تعالى يكون شرعياً، ويكون قدرياً؛ فقوله تعالى: { يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها }: هذا شرعي؛ وقوله تعالى: { وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو }: الظاهر أنه كوني؛ لأنه سبحانه

---

(١) انظر: تفسير القطبي: ٣٢٢/١-٣٢٣.

(٢) انظر: نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر: ابن الجوزي: ٢٥٥، ومعاني القرآن للزجاج: ١١٦/١.

(٣) قال الزجاج: "وإنما {كل حين}، ههنا جُعِلَ لمدة معلومة، والحين يصلح للأوقات كلها، إلا أنه - في الاستعمال - في الكثير منها أكثر، يقال ما رأيتُكَ منذُ حين، تريد منذ حين طويل".[معاني القرآن: ١١٦/١].

(٤) وانظر: الأشباه والنظائر: ٢٣٨، والوجوه والنظائر: ٣٥، وجوه القرآن:٤٤، وإصلاح الوجوه: ١٤٩، وكشف السرائر: ٣٩٧.

وتعالى يعلم أنه لو عاد الأمر إليهما لما هبطا؛ ويحتمل أن يكون قولاً شرعياً؛ لكن الأقرب عندي أنه قول كوني . والله أعلم.

٦. ومنها: أن الجنة في مكان عالٍ؛ لقوله تعالى: { اهبطوا }؛ والهبوط يكون من أعلى إلى أسفل.

٧. ومنها: أنه لا يمكن العيش إلا في الأرض لبني آدم؛ لقوله تعالى: { ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين }؛ ويؤيد هذا قوله تعالى: {فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون} [الأعراف: ٢٥] ؛ وبناءً على ذلك نعلم أن محاولة الكفار أن يعيشوا في غير الأرض إما في بعض الكواكب، أو في بعض المراكب محاولة يائسة؛ لأنه لابد أن يكون مستقرهم الأرض.

٨. ومنها: أنه لا دوام لبني آدم في الدنيا؛ لقوله تعالى: { ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين }.

القرآن

{فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧)} [البقرة : ٣٧]

التفسير:

استقبل آدم دعوات من ربه وألهمه إياها، وهي قوله تعالى: {رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [سورة الأعراف : ٢٣]، فدعاه بها، فتاب الله عليه، وغفر له ذنبه إنه تعالى هو التواب لمن تاب مِن عباده، الرحيم بهم.

قوله تعالى: {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ}[البقرة: ٣٧]، " أي استقبل آدم دعوات من ربه ألهمه إياها فدعاه بها"(١).

قال الطبري:أي:" فلقَّى الله آدمَ كلمات توبة ، فتلقَّاها آدم من ربه وأخذها عنه تائبًا"(٢).

قال النسفي:" أي استقبلها بالأخذ والقبول والعمل بها. وفيه موعظة لذريتهما حيث عرفوا كيفية السبيل إلى التنصل من الذنوب"(٣).

قال ابن عثيمين:" يعني أخذ، وقبِل، ورضي من الله كلمات حينما ألقى الله إليه هذه الكلمات.فالكلمات اعتراف آدم وحواء بأنهما أذنبا، وظلما أنفسهما، وتضرعهما إلى الله سبحانه وتعالى بأنه إن لم يغفر لهما ويرحمهما لكانا من الخاسرين"(٤).

قال الشنقيطي:" لم يبين هنا ما هذه الكلمات، ولكنه بينها في سورة الأعراف بقوله : {قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [الأعراف : ٢٣]"(٥).

قال البغوي: " التلقي : هو قبول عن فطنة وفهم ، وقيل : هو التعلم"(٦).

وقال ابن عطية:" والتلقي من آدم هو الإقبال عليها والقبول لها والفهم.
وحكى مكي قولا: أنه ألهمها فانتفع بها"(٧).

واختلفت القراءة في قوله تعالى :{فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ}[البقرة:٣٧]، على وجهين(٨):

أحدهما: {فَتَلَقَّى آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٌ}، بنصب الاسم ورفع الكلمات. قرأ بها ابن كثير وحده.

والثاني: وقرأ الباقون: {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ}، برفع الاسم ونصب الكلمات.

وفي قراءة :{فتلقى آدمَ من ربه كلماتٌ}، فجعل (الكلمات) هي المتلقية آدم، وقد اعترض الإمام الطبري عليها قائلا: " وذلك، وإن كان من وجهة العربية جائزًا - إذْ كان كل ما تلقاه الرجل فهو له مُتلقّ، وما لقيه فقد لَقيه، فصار للمتكلم أن يُوجه الفعل إلى أيهما شاء، ويخرج من الفعل أيهما أحب - فغير جائز عندي في القراءة إلا رفع " آدم " على أنه المتلقي الكلمات، لإجماع الحجة من القرَأة وأهل التأويل من علماء السلف

---

(١) صفوة التفاسير: ٤٤/١.
(٢) تفسير الطبري:٥٤١/١.
(٣) تفسير النسفي: ٦٠/١.
(٤) تفسير ابن عثيمين: ١٣٤/١.
(٥) أضواء البيان: ٣٤.
(٦) تفسير البغوي: ٨٥/١.
(٧) المحرر الوجيز: ١٣٠/١.
(٨) انظر: السبعة: ١٥٣، والحجة للقراءة السبعة: ٢٣/٢.

والخلف على توجيه التلقي إلى آدم دون الكلمات. وغيرُ جائز الاعتراض عليها فيما كانت عليه مجمعة، بقول من يجوز عليه السهو والخطأ"[١].

واختُلِفَ في الكلمات التي تلقَّاها آدم من ربِّه، على أربعة أقوال[٢] :

أحدها : قوله {رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ} [الأعراف : ٢٣] وهذا قول الحسن ، وقتادة[٣] ، ومجاهد[٤]، وابن زيد[٥] .

والثاني : قول آدم : اللهم لا إله إلا أنت ، سبحانك وبحمدك ، ربِّ إني ظلمت نفسي ، فاغفر لي ، إنك خير الغافرين ، اللهم لا إله إلا أنت ، سبحانك وبحمدك ، إنِّي ظلمت نفسي ، فتُب عليَّ ، إنَّك أنت التوابُ الرحيم ، وهذا قول مجاهد[٦]، وروي عن عبدالرحمن بن يزيد بن معاوية[٧]، نحو ذلك.

والثالث : أن آدم قال لربِّه إذ عصاه : ربِّ أرأيت إن تبت وأصلحت ؟ فقال ربُّه : إني راجعك إلى الجنَّةِ ، وكانت هي الكلمات التي تلقاها من ربه ، وهذا قول ابن عباسٍ[٨] وقتادة[٩]، وأبي العالية[١٠]، والسدي[١١].

والرابع: أن آدم قال لربه إذ عصاه: : يا رب ، خطيئتي التي أخطأتها ، أشيء كتبته علي قبل أن تخلقني ، أو شيء ابتدعتُهُ من قبل نفسي ؟ قال : بلى ، شيء كتبته عليك قبل أن أخلقك. قال : فكما كتبته عليّ فاغفره لي. قاله عبيد بن عمير[١٢].

وهذه الأقوال وإن كانت مختلفة الألفاظ، فإن معانيها متفقة في أن الله جل ثناؤه لقَّى آدمَ كلماتٍ، فتلقَّاهُنّ آدمُ من ربه فقبلهن وعمل بهن، وتاب بقِيله إياهنّ وعملِه بهنّ إلى الله من خطيئته [١٣]، والراجح هو قوله تعالى: {رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [الأعراف : ٢٣]، وهو قول عامة أهل العلم مثل ابن عباس والحسن وسعيد بن جبير والضحاك ومجاهد[١٤].

قال ابن عطية: "وسئل بعض سلف المسلمين عما ينبغي أن يقوله المذنب، فقال: يقول ما قال أبواه، رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا. وما قال موسى: رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي. [القصص: ١٦] . وما قال يونس: لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ. [الأنبياء: ٨٧] "[١٥].

قوله تعالى: {فَتَابَ عَلَيْهِ}[البقرة: ٣٧]، "أي وفقه للتوبة وقبلها منه، وعاد عليه بالمغفرة"[١٦].

قال الصابوني: "أي قبل ربه توبته"[١٧].

قال الواحدي:" أي عاد عليه بالمغفرة"[١٨].

قال أبو حيان: "أي تفضل عليه بقبول توبته"[١٩].

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٥٤٢/١، و كثير ١ : ١٤٧ ، والدر المنثور ١ : ٥٩ ، والشوكاني ١ : ٥٨.
(٢) انظر: تفسير الطبري: ٥٤١/١ وما بعدها، والنكت والعيون: ١٠٩/١.
(٣) انظر: تفسير الطبري(٧٩١):ص٥٤٦/١.
(٤) انظر: تفسير الطبري(٧٨٧):ص٥٤٥/١.
(٥) انظر: تفسير الطبري(٧٧٤):ص٥٤١/١-٥٤٢.
(٦) انظر: تفسير الطبري(٧٨٨):ص٥٤٥/١.
(٧) انظر: تفسير الطبري(٧٨٦):ص٥٤٤/١-٥٤٥.
(٨) انظر: تفسير الطبري(٧٧٥)، و(٧٧٦)، و(٧٧٧):ص٥٤٢/١-٥٤٣.
(٩) انظر: تفسير الطبري(٧٧٨):ص٥٤٣/١.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(٧٧٩):ص٥٤٣/١.
(١١) انظر: تفسير الطبري(٧٨٠):ص٥٤٣/١.
(١٢) انظر: تفسير الطبري(٧٨١)، و(٧٨٢)، و(٧٨٣)، و(٧٨٤) و(٧٨٥):ص٥٤٤/١.
(١٣) انظر: تفسير الطبري: ٥٤٢/١ ومابعدها.
(١٤) انظر: تفسير ابن كثير: ٣٢٤/١.
(١٥) المحرر الوجيز: ١٣١/١.
(١٦) أنظر: "تفسير ابن عطية" ١/ ١٣١، "زاد المسير" ١/ ٧٠، و"تفسير ابن كثير" ١/ ٨٧.
(١٧) صفوة التفاسير: ٤٤/١.
(١٨) التفسير البسيط: ٤٠٩/٢.
(١٩) البحر المحيط: ١٣٧/١.

قال ابن عطية: أي: "رجع به، والتوبة من الله تعالى الرجوع على عبده بالرحمة والتوفيق، والتوبة من العبد الرجوع عن المعصية والندم على الذنب مع تركه فيما يستأنف"(١).

قال الماوردي:" أي قبل توبته ، والتوبةُ الرجوع ، فهي من العبد رجوعه عن الذنب بالندم عليه ، والإقلاع عنه ، وهي من الله تعالى على عبده ، رجوع له إلى ما كان عليه"(٢).

قال الراغب:" التوبة في الشرع: ترك الذنب، والندم على ما فات، والعزيمة على عدم العودة إليه، وتدارك ما أمكنه من عمل الصالحات، فهذه أركان التوبة وشرائطها"(٣).

ومعنى (التوبة) في اللغة: الرجوع. وفي الشريعة: رجوع العبد من المعصية إلى الطاعة، فالعبد يتوب إلى الله والله يتوب عليه، أي يرجع عليه بالمغفرة، والعبد تواب إلى الله أي راجع إليه بالندم، والله تواب يعود عليه بالكرم، والعبد تواب إلى الله بالسؤال، والله تواب عليه بالنوال"(٤).

وقوله: {فَتَابَ عَلَيْهِ}، ولم يقل (عليهما) وحواء مشاركة لآدم في الذنب، وقد قال تعالى لهما: قال {وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ} [البقرة : ٣٥] و {قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا} [الأعراف : ٢٣]، يجاب على هذه المسألة بما يأتي:

أولا: إن آدم عليه السلام لما خاطب في أول القصة بقوله (اسكن) خصه بالذكر في التلقي فلذلك كملت القصة بذكره وحده.

الثاني: لأن المرأة حرمة ومستورة فأراد الله الستر لها ولذلك لم يذكرها في المعصية في قوله {وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى} [طه : ١٢١].

الثالث: وأيضا لما كانت المرأة تابعة للرجل في غالب الأمر لم تذكر كما لم يذكر فتى موسى مع موسى في قوله {أَلَمْ أَقُلْ لكَ} [الكهف : ٧٥].

الرابع: وقيل : إنه دل بذكر التوبة عليه أنه تاب عليها إذ أمرهما سواء، قاله الحسن.

الخامس:وقيل : إنه مثل قوله تعالى {وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْهَا} [الجمعة : ١١] أي التجارة لأنها كانت مقصود القوم فأعاد الضمير عليها ولم يقل إليهما والمعنى متقارب. وقال الشاعر(٥) :

رَماني بِأمرٍ كُنتُ مِنهُ وَوالِدي بريّاً وَمِن أَجلِ الطويِّ رَماني

وفي التنزيل {وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ} [التوبة : ٦٢] فحذف إيجازا واختصارا(٦).

قوله تعالى:{إِنَّهُ هُوَ التواب الرحيم}[البقرة: ٣٧]، " أي إن الله كثير القبول للتوبة، واسع الرحمة للعباد"(٧).

قال محمد بن إسحاق:"{الرحيم}: يرحم العباد على ما فيهم"(٨).

وقال سعيد بن جبير:"رحيم بهم بعد التوبة"(٩).

قال الواحدي:" أي يتوب على عبده بفضله إذا تاب إليه من ذنبه"(١٠).

قال النسفي: "{التوّاب}الكثير القبول للتوبة، {الرحيم} على عباده"(١١).

---

(١) المحرر الوجيز: ١٣١/١.

(٢) النكت والعيون: ١٠٩/١.

(٣) مفردات الراغب: ٧٦. وانظر: "شرح أسماء الله" للزجاج ص ٦١، "تهذيب اللغة" (تاب) ١/ ٤١٦ - ٤١٧، "تفسير الطبري" ١/ ٢٤٦، و"ابن عطية" ١/ ١٣١ - ١٣٢، و"القرطبي" ١/ ٢٧٧ - ٢٧٨، "زاد المسير" ١/ ٧٠، "البحر" ١/ ١٦٦.

(٤) التفسير البسيط: ٤٠٩/٢. وانظر: تهذيب اللغة" (تاب) ١/ ٤١٦ - ٤١٧.

(٥) وفي رواية: بأمر كنت منه ووالدي ... بريئا ومن فوق الطوي رماني . اختلف في قائله ، فقد نسبه سيبويه الى ابن أحمر ، وقيل : للأزرق بن طرفة ، كما نسبه الأفندي الى الفرزدق ولم نجده في ديوانه المطبوع ، ومعناه واضح ، وجول الطوي : جدار البئر من اعلاها الى أسفلها ، وفي المثل : رماني من جول الطوي : أي رماني بما هو راجع إليه ، انظر كتاب سيبويه : ج ١ ص ٧٥ ، وشرح شواهد الكشاف : ص ٥٤٩.

(٦) انظر: تفسير القرطبي: ٣٢٤/١.

(٧) صفوة التفاسير: ٤٤/١.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(٤١٤):ص٩٢/١.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(٤١٥):ص٩٢/١.

(١٠) التفسير البسيط: ٤٠٩/٢.

(١١) تفسير النسفي: ٦٠/١.

قال ابن عطية:" وبنية {التَّوَّابُ}، للمبالغة والتكثير، وفي قوله تعالى: {إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}، تأكيد فائدته أن التوبة على العبد إنما هي نعمة من الله، لا من العبد وحده لئلا يعجب التائب، بل الواجب عليه شكر الله تعالى في توبته عليه"[1].

واختلفت القراءة في قوله تعالى{إنه}[البقرة:٣٧]، على وجهين[2]:

أحدهما: { إِنَّهُ } : بكسر الهمزة. وهي قرأءة الجمهور .

والثاني: { أَنَّهُ }: بفتح الهمزة، قرأ بها نوفل بن أبي عقرب، ووجهه أنه فتح على التعليل ، على معنى(لأنه).

قال أبو حيان: فالمفتوحة مع ما بعدها فضلة ، إذ هي في تقدير مفرد ثابت واقع مفروغ من ثبوته لا يمكن فيه نزاع منازع ، وأما الكسر فهي جملة ثابتة تامة أخرجت مخرج الإخبار المستقل الثابت ، ومع ذلك فلها ربط معنوي بما قبلها ، كما جاءت في : {وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لامَّارَةٌ} ، {اتَّقُوا رَبَّكُم إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ} ، {وَصَلِّ عَلَيْهِم إِنَّ} ، حتى لو وضعت الفاء التي تعطي الربط مكانها أغنت عنها ، وقالوا : إن أن إنما تجيء لتثبيت ما يتردد المخاطب في ثبوته ونفيه ، فإن قطع بأحد الأمرين ، فليس من مظانها ، فإن وجدت داخلة على ما قطع فيه بأحد الأمرين ظاهراً ، فيكون ذلك لتنزيله منزلة المتردد فيه لأمر ما"[3].

الفوائد:

١. من فوائد الآية: منة الله سبحانه وتعالى على أبينا آدم حين وفقه لهذه الكلمات التي كانت بها التوبة؛ لقوله تعالى: { فتلقى آدم من ربه كلمات }.

٢. ومنها: أن منة الله على أبينا هي منة علينا في الحقيقة؛ لأن كل إنسان يشعر بأن الله إذا منَّ على أحد أجداده كان مانّاً عليه.

٣. ومنها: أن قول الإنسان: "ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين" سبب لقبول توبة الله على عبده؛ لأنها اعتراف بالذنب؛ وفي قول الإنسان: "ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين" أربعة أنواع من التوسل؛ الأول: التوسل بالربوبية؛ الثاني: التوسل بحال العبد: {ظلمنا أنفسنا} ؛ الثالث: تفويض الأمر إلى الله؛ لقوله: {وإن لم تغفر لنا..} إلخ؛ الرابع: ذكر حال العبد إذا لم تحصل له مغفرة الله ورحمته؛ لقوله تعالى: {لنكونن من الخاسرين} ، وهي تشبه التوسل بحال العبد؛ بل هي توسل بحال العبد؛ وعليه فيكون توسل العبد بحاله توسلاً بحاله قبل الدعاء، وبحاله بعد الدعاء إذا لم يحصل مقصوده.

٤. ومن فوائد الآية: أن الله تعالى يتكلم بصوت مسموع؛ وجه ذلك أن آدم تلقى منه كلمات؛ وتلقي الكلمات لا يكون إلا بسماع الصوت؛ وهذا الذي عليه أهل السنة والجماعة أن الله يتكلم بكلام بصوت مسموع، وحروف مرتبة.

٥. ومنها: منة الله عزّ وجلّ على آدم بقبول التوبة؛ فيكون في ذلك منَّتان؛ الأولى: التوفيق للتوبة، حيث تلقَّى الكلمات من الله؛ و الثانية: قبول التوبة، حيث قال تعالى: { فتاب عليه }.

واعلم أن لله تعالى على عبده توبتين؛ التوبة الأولى قبل توبة العبد؛ وهي التوفيق للتوبة؛ والتوبة الثانية بعد توبة العبد؛ وهي قبول التوبة؛ وكلاهما في القرآن؛ قال الله ـ تبارك وتعالى: {وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا} [التوبة: ١١٨] : فقوله تعالى: {ثم تاب عليهم} أي وفقهم للتوبة، وقوله تعالى: {ليتوبوا} أي يقوموا بالتوبة إلى الله؛ وأما توبة القبول ففي قوله تعالى: {وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات} (الشورى: ٢٥)

٦. ومن فوائد الآية: أن الإنسان إذا صدق في تفويض الأمر إلى الله، ورجوعه إلى طاعة الله فإن الله تعالى يتوب عليه؛ وهذا له شواهد كثيرة أن الله أكرم من عبده؛ من تقرب إليه ذراعاً تقرب الله إليه باعاً، ومن أتاه يمشي أتاه الله هرولة؛ فكرم الله عزّ وجلّ أعلى، وأبلغ من كرم الإنسان.

---

(١) المحرر الوجيز: ١٣١/١.

(٢)أنظر: البحر المحيط: ١٤٠/١، والمحرر الوجيز: ١٣١/١.

(٣)أنظر: البحر المحيط: ١٤٠/١.

٧. ومنها: إثبات هذين الاسمين الكريمين: { التواب }، و{ الرحيم }؛ وما تضمناه من صفة، وفعل.
٨. ومنها: اختصاص الله بالتوبة، والرحمة؛ بدليل ضمير الفصل؛ ولكن المراد اختصاصه بالتوبة التي لا يقدر عليها غيره؛ لأن الإنسان قد يتوب على ابنه، وأخيه، وصاحبه، وما أشبه ذلك؛ لكن التوبة التي لا يقدر عليها إلا الله . وهي المذكورة في قوله تعالى: {ومن يغفر الذنوب إلا الله} [آل عمران: ١٣٥] . هذه خاصة بالله.
كذلك الرحمة المراد بها الرحمة التي لا تكون إلا لله؛ أما رحمة الخلق بعضهم لبعض فهذا ثابت . لا يختص بالله عزّ وجلّ؛ ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: "الراحمون يرحمهم الرحمن"[١] .

القرآن

{قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨)} [البقرة : ٣٨]

التفسير:
قال الله لهم: اهبطوا من الجنة جميعًا، وسيأتيكم أنتم وذرياتكم المتعاقبة ما فيه هدايتكم إلى الحق، فمن عمل بها فلا خوف عليهم فيما يستقبلونه من أمر الآخرة ولا هم يحزنون على ما فاتهم من أمور الدنيا.
قوله تعالى: {قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا}[البقرة:٣٨]، أي: قال الله لهم " اهبطوا من الجنة إلى الأرض"[١].
قال المراغي: " هذا الأمر لبيان أن طور النعيم والراحة قد انتهى وجاء طور العمل، وفيه طريقان : هدى وإيمان ، وكفر وخسران"[٢].
واختلف في سبب تكرار الأمر بالهبوط، على وجوه [٣]:
أحدها: قالوا: كرّره على جهة التغليظ وتأكيده ؛ كما تقول لرجل : قُمْ قُمْ.
والثاني: وقيل : كرر الأمر لما علق بكل أمر منهما حكما غير حكم الآخر فعلق بالأول العداوة وبالثاني إتيان الهدى.
والثالث: وقيل : الهبوط الأول من الجنة إلى السماء والثاني من السماء إلى الأرض، وعلى هذا يكون فيه دليل على أن الجنة في السماء السابعة، ويضعف هذا الوجه قوله في الهبوط الأول {وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ} [البقرة : ٣٦][٤].
والقول الثاني هو الأقرب، لأن الهبوط الأول دل على أن هبوطهم إلى دار بلية يتعادون فيها ولا يخلدون، والثاني أشعر بأنهم أهبطوا للتكليف، فمن اهتدى الهدى نجا ومن ضله هلك[٥].
قوله تعالى: {فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى}[البقرة : ٣٨]، " أي: فإن يأتكم مني شريعة ورسول وبيان ودعوة"[٦].
قال السعدي:" أي: أيَّ وقت وزمان جاءكم مني -يا معشر الثقلين- هدى، أي: رسول وكتاب يهديكم لما يقربكم مني، ويدنيكم مني، ويدنيكم من رضائي"[٧].
وقال أبو العالية:" الهدى الأنبياء والرسل، والبيان"[١].

---

(١) أخرجه أحمد ١٦٠/٢، حديث رقم ٦٤٩٤؛ وأخرجه أبو داود ص١٥٨٥، كتاب الأدب، باب ٥٨: في الرحمة، حديث ٤٩٤١؛ وأخرجه الترمذي ص١٨٤٦، كتاب البر والصلة، باب ١٦: ما جاء في رحمة الناس، حديث رقم ١٩٢٤، وفي الحديث: أبو قابوس لم يوثقه غير ابن حبان، قال الألباني: حديث صحيح بالشواهد والمتابعات [السلسلة الصحيحة ٦٣٠/٢ – ٦٣١، حديث رقم ٩٢٥].
(١) صفوة التفاسير: ٤٤/١.
(٢) تفسير المراغي: ٩٢/١.
(٣) انظر: تفسير القرطبي: ٣٢٧/١، والتفسير البسيط: ٤١٠/٢.
(٤)ضعف أبو حيان هذا الوجه: لأن الله قال في الهبوط الأول: {وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ} ولم يحصل الاستقرار على هذا القول إلا بالهبوط الثاني فكان يمبغي أن يذكر الاستقرار فيه، وقال في الهبوط الثاني: {قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا}، وظاهر الضمير أنه يعود إلى الجنة. [أنظر: البحر: ١٦٧/١].
(٥) انظر: تفسير البيضاوي: ٧١/١.
(٦) التفسير البسيط: ٤١٦/٢.
(٧) تفسير السعدي: ٥٠.

وقال مقاتل بن حيان: "يعني بالهدى محمدا- صلى الله عليه وسلم"[٢].
وقال الحسن: "الهدى: القرآن"[٣].
قال ابن عطية:" وفي قوله تعالى: {مِنِّي}، إشارة إلى أن أفعال العباد خلق الله تعالى"[٤].
وقوله تعالى{ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى} [البقرة : ٣٨]، يحتمل ثلاثة أوجه[٥]:
أحدها: معناه: رسول، أبعثه إليكم. قال ابن عطية: "وقالت فرقة: الهدى الرسل، وهي إلى آدم من الملائكة وإلى بنيه من البشر: هو فمن بعده"[٦].
والثاني: كتاب، أنزله عليكم بدليل قوله تعالى:{ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَآ } [البقرة : ٣٩].
والثالث: وقيل :معنى قوله{هُدىً}:بيان وإرشاد. روي عن أبي العالية[٧] مثل ذلك.
قال ابن عطية: "والصواب أن يقال: بيان ودعاء"[٨].
قوله تعالى:{فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ}[البقرة : ٣٨]، " أي: قبل أمري واتبع ما آمر به"[٩].
قال ابن كثير:" أي : من أقبل على ما أنزلت به الكتب وأرسلت به الرسل"[١٠].
قال الصابوني:" أي من آمن بي وعمل بطاعتي"[١١].
قال النسفي:" أي بالقبول والإيمان به"[١٢].
قال السعدي:" بأن آمن برسلي وكتبي، واهتدى بهم، وذلك بتصديق جميع أخبار الرسل والكتب، والامتثال للأمر والاجتناب للنهي"[١٣].
قال أبو خالد:" {فمن تبع هداي }،يعني كتابي"[١٤].
وقال مقاتل بن حيان:" فمن تبع محمدا- صلى الله عليه وسلم"[١٥].
قوله تعالى:{ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ }[البقرة : ٣٨]، "أي لا ينالهم خوف ولا حزن في الآخرة"[١٦].
قال سعيد بن جبير:" {لا خوف عليهم}، يعني: في الآخرة"[١٧]. وعنه كذلك: "{ولا هم يحزنون}، يعني: لا يحزنون للموت"[١٨].
قال الواحدي: " فلا خوف عليه في الآخرة ولا حزن"[١٩].
قال النسفي:أي "{فلا خوف عليهم}، في المستقبل، {ولا هم يحزنزن}، على ما خلفوا"[٢٠].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم(٤١٩):ص٩٣/١.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٢٠):ص٩٣/١.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٢١):ص٩٣/١.
(٤) المحرر الوجيز: ١٣١/١.
(٥) أنظر: تفسير النسفي: ٦٠/١.
(٦) المحرر الوجيز: ١٣١/١.
(٧) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٤٢٢):ص٩٣/١.
(٨) المحرر الوجيز: ١٣١/١.
(٩) التفسير البسيط: ٤١٦/٢.
(١٠) تفسير ابن كثير: ٢٤٠/١.
(١١) صفوة التفاسير: ٤٤/١.
(١٢) تفسير النسفي: ٦٠/١.
(١٣) تفسير السعدي: ٥٠.
(١٤) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٢٤):ص٩٣/١.
(١٥) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٢٣):ص٩٣/١.
(١٦) صفوة التفاسير: ٤٤/١.
(١٧) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٢٥):ص٩٣/١.
(١٨) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٢٦):ص٩٣/١.
(١٩) التفسير البسيط: ٤١٦/٢.
(٢٠) تفسير النسفي: ٦٠/١.

قال ابن كثير:" { فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ }، أي : فيما يستقبلونه من أمر الآخرة { وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ } على ما فاتهم من أمور الدنيا ، كما قال في سورة طه : { قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى } [طه : ١٢٣]"(١).

قال المراغي:" أي إن المهتدين بهدى الله لا يخافون مما هو آت ، ولا يحزنون على ما فات ، فإن من سلك سبيل الهدى سهل عليه كل ما أصابه أو فقده ، لأنه موقن بأن الصبر والتسليم مما يرضى ربه ، ويوجب مثوبته ، فيكون له من ذلك خير عوض عما فاته ، وأحسن عزاء عما فقده ، فمثله مثل التاجر الذي يكدّ ويسعى وتنسيه لذة الربح آلام التعب"(٢).

وفي قراءة يعقوب:{فلا خوفَ} بالفتح في كل القرآن.

قال السعدي:" فرتب على اتباع هداه أربعة أشياء: نفي (الخوف والحزن)، والفرق بينهما، أن المكروه إن كان قد مضى، أحدث الحزن، وإن كان منتظرا، أحدث الخوف، فنفاهما عمن اتبع هداه وإذا انتفيا، حصل ضدهما، وهو الأمن التام.

وكذلك نفي (الضلال والشقاء) عمن اتبع هداه وإذا انتفيا ثبت ضدهما، وهو الهدى والسعادة، فمن اتبع هداه، حصل له الأمن والسعادة الدنيوية والأخروية والهدى، وانتفى عنه كل مكروه، من الخوف، والحزن، والضلال، والشقاء، فحصل له المرغوب، واندفع عنه المرهوب، وهذا عكس من لم يتبع هداه، فكفر به، وكذب بآياته"(٣).

الفوائد:

١. من فوائد الآية أن الجنة التي أُسكنها آدم أولاً كانت عالية؛ لقوله تعالى: { اهبطوا }؛ والهبوط لا يكون إلا من أعلى.

٢. ومنها: إثبات كلام الله؛ لقوله تعالى: (قلنا).

٣. ومنها: أن التوكيد في الأسلوب العربي فصيح، ومن البلاغة؛ لقوله تعالى: { جميعاً }؛ وهو توكيد معنوي: لأنه حال من حيث الإعراب؛ لأن الشيء إذا كان هاماً فينبغي أن يؤكد؛ فتقول للرجل إذا أردت أن تحثه على الشيء: "يا فلان عجل عجل عجل" ثلاث مرات؛ والمقصود التوكيد، والحث.

٤.ومنها: أن الهدى من عند الله؛ لقوله تعالى:{فإما يأتينكم مني هدًى}.

فإن قال قائل: "إنْ" في قوله تعالى: { فإما } لا تدل على الوقوع؛ لأنها ليست كـ "إذا" ؟ قلنا: نعم، هي لا تدل على الوقوع، لكنها لا تنافيه؛ والواقع يدل على الوقوع . أنه ما من أمة إلا خلا فيها نذير؛ وممكن أن نقول: في هذه الصيغة . { فإما يأتينكم } . ما يدل على الوقوع؛ وهو توكيد الفعل.

ويتفرع على هذه الفائدة: أنك لا تسأل الهدى إلا من الله عزّ وجلّ؛ لأنه هو الذي يأتي به.

٥. ومن فوائد الآية: أن من اتبع هدى الله فإنه آمن من بين يديه، ومن خلفه؛ لقوله تعالى: {فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون}.

٦. ومنها: أنه لا يتعبد لله إلا بما شرع؛ لقوله تعالى: {فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون}.

٧. ومنها: أن من تعبد لله بغير ما شرع فهو على غير هدى؛ فيكون ضالاً كما شهدت بذلك السنة؛ فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم في خطبة الجمعة يقول: "وشر الأمور محدثاتها؛ وكل محدثة بدعة؛ وكل بدعة ضلالة(١).

٨-وفي هذه الآيات وما أشبهها، انقسام الخلق من الجن والإنس، إلى أهل السعادة، وأهل الشقاوة، وفيها صفات الفريقين والأعمال الموجبة لذلك، وأن الجن كالإنس في الثواب والعقاب، كما أنهم مثلهم، في الأمر والنهي(١).

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢٤٠/١.

(٢) تفسير المراغي: ٩٣/١.

(٣) تفسير السعدي: ٥٠.

(١) أخرجه النسائي ص٢١٩٣، كتاب صلاة العيدين، باب ٢٢: كيف الخطبة، حديث رقم ١٥٧٩ن بزيادة: "وكل ضلالة في النار"، وقال الألباني في صحيح النسائي: صحيح [٥١٢/١، حديث رقم ١٥٧٧]، وأصله في مسلم ص٨١٣، كتاب الجمعة، باب ١٣: تخفيف الصلاة والخطبة، رقم الحديث ٢٠٠٥ [٤٣] ٨٦٧، بدون: "وكل محدثة بدعة" ولا "وكل ضلالة في النار".

القرآن

{وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩)} [البقرة : ٣٩]

التفسير:

والذين جحدوا وكذبوا بآياتنا المتلوة ودلائل توحيدنا، أولئك الذين يلازمون النار، هم فيها ماكثون أبداً لا يفنون ولا يخرجون.

قوله تعالى:{ {وَالَّذِينَ كَفَرُوا}[البقرة:٤٠]، الذين كفروا بالله، فاستكبروا عن طاعته، ولم ينقادوا لها"[٢].

قال الثعلبي: " أي جحدوا"[٣].

قال المراغي:" أي وأما الذين لم يتبعوا هداى، وهم الذين كفروا بآياتنا اعتقادا"[٤].

قال قتادة: {والذين كفروا}، "المشركون من قريش"[٥].

قوله تعالى: {وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} [البقرة : ٣٩]، أي: وكذبوا"بالكتاب والرسول"[٦].

قال الثعلبي:" يعني القرآن"[٧].

قال الصابوني: "بما أنزلت وبما أرسلت"[٨].

قال المراغي: "وكذّبوا بها لسانا"[٩].

قال ابن عثيمين: "أي بالآيات الشرعية؛ وإن انضاف إلى ذلك الآيات الكونية زاد الأمر شدة؛ لكن المهم الآيات الشرعية؛ لأن من المكذبين الكافرين من آمنوا بالآيات الكونية دون الشرعية؛ فمثلاً كفار قريش مؤمنون بالآيات الكونية مقرون بأن الله خالق السموات، والأرض، وأنه المحيي، وأنه المميت، وأنه المدبر لجميع الأمور؛ لكنهم كافرون بالآيات الشرعية"[١٠].

وفي تفسير قوله تعالى:{ بِآيَاتِنَا} [البقرة : ٣٩]، قولان:

أحدهما: أن" آيات الله فمحمد صلى الله عليه وسلم". قاله السدي[١١].

والثاني: أنها القرآن. قاله سعيد بن جبير[١٢].

قال ابن عطية:" وقال وَكَذَّبُوا وكان في الكفر كفاية لأن لفظة كفروا يشترك فيها كفر النعم وكفر المعاصي، ولا يجب بهذا خلود فبين أن الكفر هنا هو الشرك، بقوله وَكَذَّبُوا بِآياتِنا"[١٣].

قال المراغي:" والتكذيب كفر سواء كان عن اعتقاد بعدم صدق الرسول ، أو مع اعتقاد صدقه وهو تكذيب الجحود والعناد ، وفي مثلهم يقول اللّه تعالى لنبيه : {فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ}، وقد يوجد الكفر بالقلب مع تصديق اللسان كما هي حال المنافقين"[١٤].

و{الآيات} جمع آية، ومعنى الآية في اللغة: العلامة[١٥]، ومنه قوله: {تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ} [المائدة: ١١٤] أي علامة منك لإجابتك دعاءنا، فكل آية من الكتاب علامة ودلالة على المضمون فيها.

---

(١)أنظر: تفسير السعدي: ٥٠.
(٢) تفسير ابن عثيمين:١٤١/١.
(٣) تفسير الثعلبي: ١٨٥/١.
(٤) تفسير المراغي: ٩٣/١.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٢٧):ص٩٤/١.
(٦) محاسن التأويل:٢٩٥/١.
(٧) تفسير الثعلبي: ١٨٥/١.
(٨) صفوة التفاسير: ٤٤/١.
(٩) تفسير المراغي: ٩٣/١.
(١٠) تفسير ابن عثيمين:١٤١/١.
(١١) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٢٨):ص٩٤/١.
(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٢٩):ص٩٤/١.
(١٣) المحرر الوجيز: ١٣٢/١.
(١٤) تفسير المراغي: ٩٣/١.
(١٥) أنظر: "معجم مقاييس اللغة" (أبي) ١/ ١٦٨، "الزاهر" ١/ ١٧٢، "مفردات الراغب" ص ٣٣، "اللسان" (أيا) ١/ ١٨٥، و"فوائد في مشكل القرآن" ص ٦٨، "البرهان في علوم القرآن" ١/ ٢٦٦.

وقال أبو عبيدة: معنى الآية: أنها علامة لانقطاع الكلام الذي قبلها، وانقطاعه من الذي بعدها[١]، وقال ثعلب عن ابن الأعرابي: الآية العلامة[٢].

وقال الليث: الآية العلامة، والآية من آيات القرآن، والجميع: الآي ، ولم يزد على هذا[٣]. فالآية بمعنى العلامة في اللغة صحيحة.

قال الأحوص[٤]:

أَمِنْ رَسْمِ آيَاتٍ عَفَوْنَ وَمَنْزِلٍ ... قَدِيمٍ تُعَفِّيهِ الأعَاصِيرُ مُحْوِلِ

قال ابن السكيت وحكاه أبو عمرو يقال: "خرج القوم بآيتهم، أي بجماعتهم، لم يدعوا وراءهم شيئا"[٥]، وقال بُرْج بن مُسْهِر[٦]:

خَرَجْنَا مِنَ النَّقْبَيْنِ لَا حَيَّ مِثْلُنَا ... بِآيَتِنَا نُزْجِي اللِّقَاحَ المطَافِلَا

معناه: خرجنا بجماعتنا. فعلى هذا القول معنى الآية من كتاب الله جماعة حروف دالة على معنى مخصوص[٧].

قوله تعالى:{أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ} [البقرة : ٣٩]، " أي: الملازمون لها، ملازمة الصاحب لصاحبه، والغريم لغريمه"[٨].

قال ابن عباس:" أي: خالدون أبدا"[٩].

قال البغوي: أي:" لا يخرجون منها ولا يموتون فيها"[١٠].

وقوله {أُولَئِكَ}، "أي المذكورون؛ وأشار إليهم بإشارة البعيد لانحطاط رتبتهم لا ترفيعاً لهم، وتعلية لهم، و{أصحاب النار} أي الملازمون لها؛ ولهذا لا تأتي "أصحاب النار" إلا في الكفار؛ لا تأتي في المؤمنين أبداً؛ لأن المراد الذين هم مصاحبون لها؛ والمصاحب لابد أن يلازم من صاحبه"[١١].

قوله تعالى: {هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة : ٣٩]، أي: "لا يخرجون منها، ولا يفتر عنهم العذاب ولا هم ينصرون"[١٢].

قال ابن عثيمين:" أي ماكثون؛ والمراد بذلك المكث، الدائم الأبدي؛ ودليل ذلك ثلاث آيات في كتاب الله؛ آية في النساء، وآية في الأحزاب، وآية في الجن؛ أما آية النساء فقوله تعالى: {إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً * إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً} [النساء: ١٦٨، ١٦٩] ؛ وأما آية الأحزاب فقوله تعالى: {إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيراً * خالدين فيها أبداً} [الأحزاب: ٦٤، ٦٥] ؛ وأما آية الجن فقوله تعالى: {ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً} [الجن: ٢٣]"[١٣].

---

(١)في "المجاز" لأبي عبيدة. (إنما سميت آية لأنها كلام متصل إلى انقطاعه، انقطاع معناه قصة ثم قصة (١/ ٥) وانظر: "الزاهر" ١/ ١٧٢.

(٢)لم أجده عن ابن الأعرابي، ويظهر أن الواحدي نقل الكلام وما بعده من "تهذيب اللغة"، ولم أجد بحث (آية) في المطبوع من "تهذيب اللغة"، انظر: "الغريبين" للهروي ١/ ١١٦، ١١٧، "اللسان" (أيا) ١/ ١٨٥.

(٣)انظر: "الصحاح" (أيا) ٦/ ٢٢٧٥، "مقاييس اللغة" (أي) ١/ ١٦٨، "مفردات الراغب" ص ٣٣، "اللسان" (أيا) ١/ ١٨٥.

(٤)هو الأحوص بن محمد بن عبد الله بن عاصم بن ثابت، لشعره رونق وحلاوة أكثر في الغزل، وكان يشبب بنساء أشراف المدينة، فنفاه سليمان بن عبد الملك إلى (دهلك)، انظر: "الشعر والشعراء" ص ٣٤٥، "الخزانة" ٢/ ١٦.

(٥)إصلاح المنطق" ص ٣٠٤، وانظر: "الزاهر" ١/ ١٧٣، "غريب القرآن" لابن قتيبة ص ٣٤، "زاد المسير" ١/ ٧١.

(٦)قوله: نزجي: نسوق، واللقاح: النوق ذوات اللبن، والمطافل: النوق معها أولادها. ورد البيت في "إصلاح المنطق" ص ٣٠٤، "الزاهر" ١/ ١٧٢، "مقاييس اللغة" (أي) ١/ ١٦٩، "تفسير القرطبي" ١/ ٥٧، "زاد المسير" ١/ ٧١، (الخزانة) ٦/ ٥١٥، "اللسان" (أيا) ١/ ١٨٥، "الدر المصون" ١/ ٣٠٨.

(٧) أنظر: التفسير البسيط: ٢/٤١٩-٤٢١.

(٨) تفسير السعدي: ٥٠.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٣١):ص١/٩٤.

(١٠) تفسير البغوي: ١/٨٦.

(١١) تفسير ابن عثيمين:١/١٤١.

(١٢) تفسير السعدي: ٥٠.

(١٣) تفسير ابن عثيمين:١/١٤١.

وروي عن أنس مرفوعا، أنه قال: "المخلدون في النار في توابيت من حديد مطبقة"(١).

قال ابن عطية:" والصحبة الاقتران بالشيء في حالة ما، في زمن ما، فإن كانت الملازمة والخلطة فهو كمال الصحبة، وهكذا هي صحبة أهل النار لها، وبهذا القول ينفك الخلاف في تسمية الصحابة رضي الله عنهم إذ مراتبهم متباينة، أقلها الاقتران في الإسلام والزمن، وأكثرها الخلطة والملازمة"(٢).

وقوله تعالى:{أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}: حكم القرآن بالخلود الأبدي على الكفار، إذ يرى أهل السنة والجماعة بأنه لا يبقى في النار إلا من حكم عليه القرآن بالخلود الأبدي وهم الكفار، وقد استدل العلماء بآيات وأحاديث عديدة جدا على قولهم بخروج العصاة من أهل الإيمان من النار بعدما ردوا على معظم هذه الأدلة التي ساقوها بآيات كثيرة جدا منها قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا} [النساء : ٤٨]، وكذلك بأحاديث الشفاعة الكثيرة التي تبين أن الله تعالى يخرج من النار من يشاء من العصاة المسلمين(٣).

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٣٢):ص٩٤/١.

(٢) المحرر الوجيز: ١٣٢/١.

(٣)وسنعرض لبعض أدلة علماء أهل السنة من القران والأحاديث الشريفة.

١- قال الله عز وجل: {وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا} [مريم : ٧١].

٢- قال جل شأنه: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣)} [فاطر : ٣٢ - ٣٣]، فقد قال العلماء أن في هذه الآية حرف يستحق أن يكتب بماء العين لا بماء الذهب ألا وهو الواو في قوله تعالى (يدخلونها)، فهذا وعد من الكريم سبحانه الذي لا يخلف وعده بدخول كل هذه الأمة الجنة، بأصنافها الثلاث: الظالمون والمقتصدون والسابقون، الكل وعده الله بدخول جنته، وقدم الظالم كما قال العلماء حتى لا يقنط وأخر السابق حتى لا يغتر. والوعد لكل المسلمين بجنات عدن مع البدء بالظالم وهو الذي خلط الطاعات بالمعاصي، يؤكد بقوة على أن هذه الآية من أرجى آيات القرآن الحكيم حيث لم يبقى قسم من المسلمين خارج عن هذا الوعد فهو شامل لكل من دخل في زمرة المسلمين، فحق لهذه الآية أن تكون من أرجى آيات القرآن الحكيم، ولا ريب أن الظالم هو الذي أذنب وأتى بالمعاصي سواء كانت كبيرة أو صغيرة، وهذه من أقوى الآيات في الرد على القائلين بخلود أهل المعاصي في النار.

٣- قال سبحانه: {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} [الأنعام : ١٢٨].

٤- ويقول جلت قدرته: في "هود" عن أهل {خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ} [هود : ١٠٧] .

والآيات كثيرة ونورد بعضا من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم:

١- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ... : حَتَّى إِذَا فَرَغَ اللَّهُ مِنْ الْقَضَاءِ بَيْنَ عِبَادِهِ وَأَرَادَ أَنْ يُخْرِجَ مِنْ النَّارِ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُخْرِجَ مِمَّنْ كَانَ يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ أَمَرَ الْمَلائِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوهُمْ فَيَعْرِفُونَهُ مْ بِعَلامَةِ آثَارِ السُّجُودِ وَحَرَّمَ اللَّهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ مِنْ ابْنِ آدَمَ أَثَرَ السُّجُودِ فَيُخْرِجُونَهُ مْ قَدْ امْتُحِشُوا فَيُصَبُّ عَلَيْهِمْ مَاءٌ يُقَالُ لَهُ مَاءُ الْحَيَاةِ فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الْحِبَّةِ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ". [رواه البخاري ٦٥٧٤ ومسلم ١٧٢].

٢- عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " : أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا فَإِنَّهُمْ لا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلا يَحْيَوْنَ وَلَكِنْ نَاسٌ أَصَابَتْهُمْ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ أَوْ قَالَ بِخَطَايَاهُمْ فَأَمَاتَهُمْ إِمَاتَةً حَتَّى إِذَا كَانُوا فَحْمًا أُذِنَ بِالشَّفَاعَةِ فَجِيءَ بِهِمْ ضَبَائِرَ ضَبَائِرَ فَبُثُّوا عَلَى أَنْهَارِ الْجَنَّةِ ثُمَّ قِيلَ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ أَفِيضُوا عَلَيْهِمْ فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الْحِبَّةِ تَكُونُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ".[رواه مسلم ١٨٥].

٣- حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال" :يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير، يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن برة من خير، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من خير" وفي رواية: "من إيمان" مكان "من خير".[رواه البخاري ٤٤، ومسلم ١٩٣].

٤- أحاديث شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم في أهل الكبائر الذين دخلوا النار أن يخرجوا منها فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم" :لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله، من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً".[رواه مسلم ١٩٩].

يوضح ذلك حديث الشفاعة المشهور وفيه... فيقول: "أي عيسى عليه السلام: ائتوا محمداً صلى الله عليه وسلم عبداً غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فيأتوني، فأنطلق حتى أستأذن على ربي فيؤذن لي، فإذا رأيت ربي وقعت ساجداً، فيدعني ما شاء الله، ثم يقال: ارفع رأسك، وسل تعطه، وقل يسمع، واشفع تشفع، فأرفع رأسي فأحمده بتحميد يعلمنيه، ثم أشفع، فيحد لي حداً، فأدخلهم الجنة، ثم أعود إليه، فإذا رأيت ربي -وذكر مثله- ثم أشفع، فيحد لي حداً، فأدخلهم الجنة، ثم أعود الثالثة، ثم أعود الرابعة، فأقول: ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن ووجب عليه الخلود" قال البخاري: إلا من حبسه القرآن يعني قول الله تعالى: خَالِدِينَ فِيهَا ". [رواه البخاري٤٤٧٦، و٦٥٦٥، ومسلم١٩٣. من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه].

٥- حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال" :يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، ثم يقول الله تعالى: أخرجوا من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، فيخرجون منها قد اسودوا فيلقون في نهر الحيا -أو الحياة.[رواه البخاري٢٢، ومسلم١٨٤].
قال النووي : "الحيا هنا مقصور وهو المطر سمي حياً لأنه تحيا به الأرض ولذلك هذا الماء يحيا به هؤلاء المحترقون وتحدث فيهم النضارة كما يحدث ذلك المطر في الأرض،– " فينبتون كما تنبت الحبة في جانب السيل، ألم تر أنها تخرج صفراء ملتوية ".[في شرحه لـ"صحيح مسلم" ٣٧/٣].
وعلى هذا فعقيدة أهل السنة لا تحتمل اللبس ولا المواربة في عدم خلود أهل المعصية في النار، فيلخصها الصابوني في "عقيدة السلف وأصحاب الحديث " فيقول: " الخلود في النار خلودان: خلود مؤمد له أمد ونهاية، وهو خلود العصاة، وخلود مؤبد لا نهاية له، وهو خلود الكفار. نسأل الله السلامة والعافية.ولهذا قال المؤلف: ويعلمون حقاً يقيناً أن مذنبي الموحدين لا يخلدون في النار ولا يتركون فيها أبداً، فأما الكفار فإنهم يخلدون فيها ولا يخرجون منها أبداً، والدليل: قول الله تعالى: يُرِيدُونَ {يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ} [المائدة : ٣٧]، وقوله سبحانه: {وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ} [البقرة : ١٦٧]، هؤلاء هم الكفار نعوذ بالله، {لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا} [النبأ : ٢٣]، ثم قال المؤلف : ولا يترك الله فيها من عصاة أهل الإيمان أحداً، فعصاة أهل الإيمان لا بد أن يخرجوا من النار ولو طال مكثهم خلافاً للخوارج والمعتزلة الذين يقولون بخلود العصاة في النار، وهذا من أبطل الباطل وهو من اعتقاد أهل البدع، فهم يقولون: إن العصاة يخلدون في النار مثل الكفرة، وهذا من أبطل الباطل".[عقيدة السلف وأصحاب الحديث للصابوني شرح للشيخ : عبد العزيز بن عبد الله الراجحي.(موقع فضيلة الشيخ الراجحي: www.shrajhi.com.sa)].
وقد يسأل البعض كيف الجمع بين الآيتين: قال عز وجل: إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاء، وقال تعالى: وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا.
نقول: بأنه لا اختلاف بين الآيتين مطلقا، فالآية الأولى فيها بيانه سبحانه لعباده أن ما دون الشرك تحت مشيئته قد يغفره فضلاً منه سبحانه، وقد يعاقب من مات على معصية بقدر معصيته لانتهاكه حرمات الله ولتعاطيه ما يوجب غضب الله، أما المشرك فإنه لا يغفر له بل له النار مخلداً فيها أبد الآباد إذا مات على ذلك - نعوذ بالله من ذلك - وأما الآية الثانية: ففيها الوعيد لمن قتل نفساً بغير حق وأنه يعذب وأن الله يغضب عليه بذلك، ولهذا قال تعالى :{وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا} [النساء : ٩٣]، معنى ذلك: أن هذا هو جزاؤه إن جازاه سبحانه وهو مستحق لذلك وإن عفا سبحانه فهو أهل العفو وأهل المغفرة جل وعلا، وقد يعذب بما ذكر الله مدة من الزمن في النار ثم يخرجه الله من النار، وهذا الخلود خلود مؤقت، ليس كخلود الكفار، فإن الخلود خلودان: خلود دائم أبداً لا ينتهي، وهذا هو خلود الكفار في النار، كما قال الله سبحانه في شأنهم :{وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ} [البقرة : ١٦٧]، هكذا في سورة البقرة، وقال في سورة المائدة :ي {يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ} [المائدة : ٣٧].
أما العصاة كقاتل النفس بغير حق والزاني والعاق لوالديه وآكل الربا وشارب المسكر إذا ماتوا على هذه المعاصي وهم مسلمون، وهكذا أشباههم هم تحت مشيئة الله؛ كما قال سبحانه :{إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا} [النساء : ٤٨]، وفي موضع آخر: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا} [النساء : ١١٦]، فإن شاء جل وعلا عفا عنهم لأعمالهم الصالحة التي ماتوا عليها وهي توحيده وإخلاصهم لله وكونهم مسلمين، أو بشفاعة الشفعاء فيهم مع توحيدهم وإخلاصهم. وقد يعاقبهم سبحانه ولا يحصل لهم عفو فيعاقبون بإدخالهم النار وتعذيبهم فيها على قدر معاصيهم، ثم يخرجون منها، كما تواترت بذلك الأحاديث عن رسول الله عليه الصلاة والسلام أنه يشفع للعصاة من أمته، وأن الله يحد له حداً في ذلك عدة مرات، يشفع ويخرج جماعة بإذن الله، ثم يعود فيشفع، ثم يعود فيشفع، ثم يعود فيشفع عليه الصلاة والسلام "أربع مرات".[انظر: مجموع فتاوى ومقالات ابن باز (٣٨٠/٩). وانظر: فتاوى ابن تيمية (٤٩٨/٧- ٥٠١) / منهاج السنة (٢٣٨/٦) / فتح الباري (٤٠٦/١١) البحار الزاخرة ٢٤٢].
قال البخاري -رحمه الله-[صحيح البخاري: (ج١٣ ص٣٩٢)]: حدثني معاذ بن فضالة حدثنا هشام عن قتادة عن أنس أن النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- قال: "يجمع الله المؤمنين يوم القيامة كذلك، فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا. فيأتون آدم، فيقولون: يا آدم أما ترى الناس؟ خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء، اشفع لنا إلى ربك، حتى يريحنا من مكاننا هذا. فيقول: لست هناكم -ويذكر لهم خطيئته التي أصاب- ولكن ائتوا نوحا فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، فيأتون نوحا، فيقول: لست هناك -ويذكر خطيئته التي أصاب- ولكن ائتوا إبراهيم خليل الرحمن. فيأتون إبراهيم، فيقول: لست هناكم -ويذكر لهم خطاياه التي أصابها- ولكن ائتوا موسى عبدا آتاه الله التوراة، وكلمه تكليما. فيأتون موسى، فيقول: لست هناكم -ويذكر لهم خطيئته التي أصاب- ولكن ائتوا عيسى عبد الله ورسوله وكلمته وروحه. فيأتون عيسى، فيقول: لست هناكم، ولكن ائتوا محمدا -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- عبدا غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. فيأتونني فأنطلق فأستأذن على ربي، فيؤذن لي عليه، فإذا رأيت ربي وقعت له ساجدا، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال لي: ارفع محمد، قل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع. فأحمد ربي بمحامد علمنيها، ثم أشفع فيحد لي حدا فأدخلهم الجنة، ثم أرجع فإذا رأيت ربي وقعت ساجدا، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال: ارفع محمد، وقل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع. فأحمد ربي

الفوائد:
١. من فوائد الآية: أن الذين جمعوا بين هذين الوصفين ـ الكفر، والتكذيب ـ هم أصحاب النار مخلدون فيها أبداً ـ كما سبق؛ فإن اتصفوا بأحدهما فقد دل الدليل على أن المكذب خالد في النار؛ وأما الكافر فمن كان كفره مخرجاً عن الملة فهو خالد في النار؛ ومن كان كفره لا يخرج من الملة فإنه غير مخلد في النار.
٢. ومنها: أن الله تعالى قد بين الحق بالآية التي تقطع الحجة، وتبين المحجة.
٣. ومنها: انحطاط رتبة من اتصفوا بهذين الوصفين ـ الكفر، والتكذيب.
٤. ومنها: إثبات النار؛ وقد ثبت بالدليل القطعي أنها موجودة الآن، كما في قوله تعالى: { واتقوا النار التي أعدت للكافرين } [آل عمران: ١٣١].

القرآن
{يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠)} [البقرة : ٤٠]
التفسير:
يا ذرية يعقوب اذكروا نعمي الكثيرة عليكم[١]، واشكروا لي، وأتموا وصيتي لكم: بأن تؤمنوا بكتبي ورسلي جميعًا، وتعملوا بشرائعي، فإن فعلتم ذلك أُتمم لكم ما وعدتكم به من الرحمة في الدنيا، والنجاة في الآخرة، وإيَّايَ -وحدي- فخافوني، واحذروا نقمتي إن نقضتم العهد، وكفرتم بي.
قوله تعالى: {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ}[البقرة:٤٠]، "أي يا أولاد إسرائيل"[٢].
قال ابن عباس:" : يا أهل الكتاب ، للأحبار من يهود"[٣].
قال البغوي: " يا أولاد يعقوب"[٤].
والأصل في {بني}، أن تكون للذكور، لكن إذا كانت لقبيلة، أو لأمة شملت الذكور، والإناث، كقوله تعالى: {يَا بَنِي آدَمَ قَدْ} [الأعراف : ٢٦]"[٥].
وقوله{إِسْرَائِيلَ}، يقصد به: يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام إذ كان يدعى (إسرائيل)[٦].
وذكر أهل التفسير في اشتقاق كلمة(إِسْرَائِيلَ)، وجوها[١]:

بمحامد علمنيها، ثم أشفع فيحد لي حدا فأدخلهم الجنة، ثم أرجع فإذا رأيت ربي وقعت ساجدا، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال: ارفع محمد، قل يستمع، وسل تعطه، واشفع تشفع. فأحمد ربي بمحامد علمنيها، ثم أشفع فيحد لي حدا فأدخلهم الجنة، ثم أرجع فأقول: يا رب ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن ووجب عليه الخلود"، فقال النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-: "يخرج من النار من قال لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن برة، ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه ما يزن من الخير ذرة".[الحديث أعاده البخاري ص(٤٢٢)، وأخرجه مسلم (ج١ ص١٨٠)، وأبوعوانة (ج١ ص١٧٨-١٧٩) وابن ماجة (ج٢ ص١٤٤٢)، وأحمد (ج٣ ص١١٦، ٢٤٤، ٢٤٧)، والطيالسي (ج٢ ص٢٢٧) من «ترتيب المسند» من رواية همام عن قتادة به].
وهكذا الملائكة وهكذا المؤمنون كلهم يشفعون ويخرج الله سبحانه من النار بشفاعتهم من شاء سبحانه وتعالى، ويبقي في النار بقية من العصاة من أهل التوحيد والإسلام فيخرجهم الرب سبحانه بفضله ورحمته بدون شفاعة أحد، ولا يبقى في النار إلا من حكم عليه القرآن بالخلود الأبدي وهم الكفار. وبهذا تعلم السائلة الجمع بين الآيتين وما جاء في معناهما من النصوص، وأن أحاديث الوعد بالجنة لمن مات على الإسلام على عمومها إلا من أراد الله تعذيبه بمعصيته، فهو سبحانه الحكيم العدل في ذلك يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد جل وعلا. ومنهم من لا يعذب فضلاً من الله لأسباب كثيرة من أعمال صالحة ومن شفاعة الشفعاء، وفوق ذلك رحمته وفضله سبحانه وتعالى.[انظر: مجموع فتاوى ومقالات ابن باز (٣٨٠/٩)].
(١) قال الإمام الطبري: "ونعمته التي أنعم بها على بني إسرائيل جلّ ذكره ، اصطفاؤه منهم الرسلَ ، وإنزاله عليهم الكتب ، واستنقاذُه إياهم مما كانوا فيه من البلاء والضَّرَّاء من فرعون وقومه ، إلى التمكين لهم في الأرض ، وتفجير عيون الماء من الحجر ، وإطعام المنّ والسلوى. فأمر جل ثناؤه أعقابهم أن يكون ما سلَف منه إلى آبائهم على ذُكْر ، وأن لا ينسوا صنيعه إلى أسلافهم وآبائهم ، فيحلّ بهم من النقم ما أحلّ بمن نسي نعمَه عنده منهم وكفرها ، وجحد صنائعه عنده"(انظر تفسيره: ٥٥٥/١).
(٢) تفسير ابن عثيمين:١٤٢/١.
(٣) تفسير الطبري(٨٠٠):ص٥٥٥/١.
(٤) تفسير البغوي: ٨٦/١.
(٥) تفسير ابن عثيمين:١٤٢/١.
(٦) انظر: تفسير الطبري: ٥٥٣/١. وتنفسير القرطبي: ٣٣٠/١، والمحرر الوجيز:١٨٥/١.

أحدها: أنه مركب من (إسرا) وهو العبد في اللغة العبرانية، و (إيل) اسم من أسماء الله تعالى، فكأنه عبد الله.
والثاني: أن معنى (إسرا) صفوة، و(إيل) الله تعالى، ومعناه صفوة الله.
وفيه وجوه أخرى ذكرها أبو حيان في البحر، وقال بعدها: "وهذه أقاويل ضعاف"(٢).
قال الواحدي: "والأصح عند أهل اللغة: أنه أعجمي لا اشتقاق له"(٣).
أخرج الطبري عن ابن عباس، " أن إسرائيل كقولك : عبد الله"(٤).
وأخرج أيضا بسنده "عن عبد الله بن الحارث ، قال : (إيل)، الله بالعبرانية"(٥).
واختلفت القراءة في قوله تعالى{إِسْرائِيلَ}[البقرة:٤٠]، على وجوه(٦):
أحدها: {إسراييل}، بقلب الهمزة ياء. روي عن نافع والحسن والزهري وابن أبي إسحاق.
والثاني: {إسرائل}، بحذف الياء.
والثالث: { إسرال}، بحذف الهمزة والياء.
وقال ابن عباس: "حضرت عصابة من اليهود نبي الله- صلى الله عليه وسلم، فقال لهم: هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب؟ فقالوا: اللهم نعم، قال النبي صلى الله عليه وسلم: أشهد عليهم"(٧).
واختلف في المخاطب في قوله تعالى: {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ}[البقرة:٤٠]، على وجهين(٨):
أحدهما: أن المخاطب من بني إسرائيل بهذا الخطاب هم المؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم، لأن الكافر لا نعمة لله عليه.قاله مكي(٩).
وعلى هذا القول، يستقيم الضمير في {عَلَيْكُمْ}، ويجيء كل ما توالى من الأوامر على جهة الاستدامة.
والثاني: أن الخطاب لجميع بني إسرائيل في مدة النبي عليه السلام، مؤمنهم وكافرهم، والضمير في {عَلَيْكُمْ}، يراد به على آبائكم كما تقول العرب ألم نهزمكم يوم كذا لوقعة كانت بين الآباء والأجداد. وهو قول ابن عباس(١٠)، وجمهور العلماء(١١)، ومنه قول الفرزدق(١٢):
وَبَيْتَان: بَيْتُ اللهِ نَحْنُ وُلاَتُهُ   وَبَيْتٌ بأَعْلَى إِيلِيَاءَ مُشَرَّفُ
يريد أن آباءه في القديم كانوا يلونهما، لا أنه كان يليه.
وقال آخر(١٣):
إذا افْتَخَرَتْ يَوْمًا تَمِيمٌ بِقَوْسِهَا   فَخَارًا عَلَى مَا أَطَّدَتْ مِنْ مَنَاقِبِ
فَأَنْتُم بِذِي قَارٍ أَمَالَتْ سُيُوفُكُم   عُرُوشَ الذِينَ اسْتَرْهَنُوا قَوْسَ حَاجِبِ
أراد آباؤكم فعلوا ذلك، لأن المخاطبين بهذا البيت كانوا بعد ذي قار بدهر طويل(١٤).
قوله تعالى: {اذكروا نِعْمَتِيَ التي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ}[البقرة:٤٠]، أي: "اذكروا ما أنعمت به عليكم وعلى آبائكم"(١٥).

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٥٥٣/١. وتنفسير القرطبي: ٣٣٠/١، والمحرر الوجيز:١٨٥/١، وتفسير الثعلبي:١/ ١٨٥، والتعريف والأعلام للسهيلي: ٢٠.
(٢) البحر المحيط: ١٤٤/١.
(٣) التفسير البسيط: ٤٦٢/٢.
(٤) تفسير الطبري(٧٩٨):ص٥٥٢/١.
(٥) تفسير الطبري(٧٩٩):ص٥٥٢/١.
(٦) المحرر الوجيز: ١٣٣/١، وتفسير البيضاوي: ٧٥/١.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٣٣):ص٩٤/١.
(٨) أنظر: المحرر الوجيز: ١٣٣/١.
(٩) نقلا عن: المحرر الوجيز: ١٣٣/١.
(١٠) تفسير الطبري(٨٠٠):ص٥٥٥/١.
(١١) نقل قول الجمهور ابن عطية، أنظر: المحرر الوجيز: ١٣٣/١.
(١٢)البيت في "ديوان الفرزدق" ٢/ ٣٢، "معجم البلدان" ١/ ٢٩٣، وإيلياء: بيت المقدس.
(١٣)البيتان لأبي تمام، وقوله: "ذي قار" يوم من أيام العرب، كان لهم على الفرس، وحاجب: هو ابن زرارة بن عدس، كان أرهن سيفه لكسرى، انظر: "ديوان أبي تمام مع شرحه" ١/ ١٠٩، "معجم البلدن" ٤/ ٢٩٤.
(١٤) أنظر: التفسير البسيط: ٤٢٦/٢-٤٢٧.
(١٥) صفوة التفاسير: ٤٦/١.

قال البيضاوي:" أي بالتفكر فيها والقيام بشكرها"[١].
قال البغوي: أي: احفظوا نعمي التي أنعمتها على أجدادكم وأسلافكم[٢].
قال ابن عثيمين:" أي اذكروها بقلوبكم، واذكروها بألسنتكم، واذكروها بجوارحكم؛ وذلك؛ لأن الشكر يكون في الأمور الثلاثة: في القلب، واللسان، والجوارح"[٣].
وقال السعدي: "وهو يشمل سائر النعم التي سيذكر في هذه السورة بعضها، والمراد بذكرها بالقلب اعترافا، وباللسان ثناء، وبالجوارح باستعمالها فيما يحبه ويرضيه"[٤].
قال البغوي:" والذكر : يكون بالقلب ويكون باللسان وقيل : أراد به الشكر ، وذكر بلفظ الذكر لأن في الشكر ذكرا وفي الكفران نسيانا ، قال الحسن : "ذكر النعمة شكرها"[٥]"[٦].
وقال ابن عطية:" والذكر في كلام العرب على أنحاء، وهذا منها ذكر القلب الذي هو ضد النسيان"[٧].
وقوله تعالى:{نِعْمَتِيَ} أي :"نعمي ، لفظها واحد ومعناها جمع، كقوله تعالى {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} [النحل : ١٨]"[٨].
وتحركت (الياء) من {نِعْمَتِيَ}، لأنها لقيت الألف واللام، ويجوز تسكينها، وإذا سكنت حذفت للالتقاء[٩].
قال الفراء: "وأما نصب الياء من {نِعْمَتِيَ}، فإن كل ياء كانت من المتكلم ففيها لغتان: الإرسالُ والسكون، والفتح، فإذا لقيتها ألفٌ ولام، اختارت العربُ اللغة التي حركت فيها الياء وكرهوا الأخرى لأن اللام ساكنة فتسقط الياء عندها لسكونها، فاستقبحوا أن يقولوا: (نعمتي التي)، فتكون كأنها مخفوضة على غير إضافة، فأخذوا بأوثق الوجهين وأبينهما"[١٠].
قال ابن عطية:"وفتحها أحسن، لزيادة حرف في كتاب الله تعالى"[١١].
وذكر أهل التفسير في (النعمة) التي أنعمها عليهم، قولين[١٢] :
أحدهما : عموم نِعَمِهِ الّتي أنعم بها على خلقِهِ، كما قال تعالى:{وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا}[النحل : ١٨]. قاله ابن زيد[١٣].
والثاني : أنه أراد نِعَمَهُ عَلَى آبائهم ، إذ نجَّاهم من آل فرعون ، وجعل منهم الأنبياء ، وأنزل عليهم الكتب ، وفجَّر لهم الحَجَرَ ، وأنزل عليهم المنَّ والسلوى ، والنعم على الآباء ، نعم على الأبناء ، لأنهم يَشْرُفون بشرف آبائهم . وهو قول الحسن البصري، وروي عن ابن عباس[١٤] وأبي العالية[١٥]، ومجاهد[١٦]، نحو ذلك.
قال ابن عطية:" وهذه أقوال على جهة المثال، والعموم في اللفظة هو الحسن"[١٧].
قوله تعالى: {وَأَوْفُواْ بعهدي}[البقرة:٤٠]، "أي أدّوا ما عاهدتموني عليه"[١٨].

---

(١) تفسير البيضاوي: ٧٥/١,
(٢) أنظر: تفسير البغوي: ٨٦/١.(بتصرف بسيط).
(٣) تفسير ابن عثيمين: ١٤٣/١.
(٤) تفسير السعدي: ٥٠.
(٥) رواه ابن مبارك في الزهد(١٤٣٤):ص٥٠٣، ومن طريقه ابن أبي دنيا في(الشكر): (٣٣)، ومن طريقه البيهقي في الشعبي(٤٤٢١):ص١٠٢/٤، و(٤١٠٧):ص٣٦٥/٨، واللفظ فيها: "أكثروا ذكر هذه النعم، فإن ذكرها شكر". وانظر: البغوي: في تفسيره: ٨٦/١، وأبو حيان: ٥٥/٤.
(٦) تفسير البغوي: ٨٦/١.
(٧) المحرر الوجيز: ١٣٣/١.
(٨) تفسير البغوي: ٨٦/١.
(٩) أنظر: المحرر الوجيز: ١٣٣/١.
(١٠) معاني القرآن: ٢٩/١.
(١١) المحرر الوجيز: ١٣٣/١.
(١٢) أنظر: النكت والعيون: ١١١/١.
(١٣) أنظر: تفسير الطبري(٨٠٤):ص٥٥٥٦/١.
(١٤) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٤٣٤):ص٩٥/١، وتفسير الطبري(٨٠٢):ص٥٥٥/١.
(١٥) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٤٣٥):ص٩٥/١، وتفسير الطبري(٨٠٣):ص٥٥٥/١-٥٥٦.
(١٦) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٤٣٦):ص٩٥/١، وتفسير الطبري(٨٠٣):ص٥٥٦/١.
(١٧) المحرر الوجيز: ١٣٣/١.
(١٨) صفوة التفاسير: ٤٦/١.

قال البيضاوي:أي:" بالإيمان والطاعة"(١).
قال ابن عثيمين: "أي ائتوا به وافياً"(٢).
قال السعدي:" وهو ما عهده إليهم من الإيمان به، وبرسله وإقامة شرعه"(٣).
قوله تعالى:{أُوفِ بِعَهْدِكُمْ}[البقرة:٤٠]،" أي أعطكم ما عهدت به إليكم وافياً"(٤).
قال البيضاوي:أي:"بحسن الإثابة"(٥).
قال السعدي:" وهو المجازاة على ذلك، والمراد بذلك: ما ذكره الله في قوله: {وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ [وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي] } إلى قوله: {فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ}"(٦).
أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس:"قوله{أوف بعهدكم]، يقول: أرضى عنكم وأدخلكم الجنة"(٧). قال ابن أبي حاتم ""وروي عن أبي العالية والضحاك والسدي والربيع بن أنس، نحو ما ذكرنا عن الضحاك عن ابن عباس"(٨).
قال الصابوني: أي"بما عاهدتكم عليه من حسن الثواب"(٩).
قال ابن عثيمين:" وهو الجزاء على أعمالهم، المذكور في قوله تعالى: {لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار} [المائدة: ١٢] ؛ فلو وفوا بعهد الله لوفى الله بعهدهم"(١٠).
وقرأ الزهري: "{أوفّ}، بفتح الواو وشد الفاء، للتكثير"(١١).
وقوله تعالى: {وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ}[البقرة:٤٠]، قال أبو عبيد عن الكسائي وأبي عبيدة: "وفيت بالعهد وأوفيت به سواء"(١٢).
وقال شمر: (وفى): يعني تمّ، وأوفى، معناه: أوفاني حقه، أي: أتمه ولم ينقص منه شيئا، وكذلك أوفى الكيل، أي: أتمه ولم ينقص منه شيئاً(١٣).
وقال أبو الهيثم: فيما رد على شمر: "الذي قال شمر في (وَفَى) و (أَوْفَى): باطل، إنما يقال: أَوْفَيْت بالعهد ووفيت بالعهد، وكل شيء في كتاب الله من هذا فهو بالألف قال الله تعالى: {وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ}[البقرة: ٤٠]، وقال: {أَوْفُوا بِالْعُقُودِ} [المائدة: ١]" (١٤).
وقد قال طفيل الغنوي في الجمع بين اللغتين(١٥):
أَمَّا ابنُ طَوْقٍ فَقَدْ أَوْفَى بِذِمَّتِهِ   كَمَا وَفَى بِقِلَاصِ النَّجْمِ حَادِيهَا

(١) تفسير البيضاوي: ٧٥/١.
(٢) تفسير ابن عثيمين: ١٤٣/١.
(٣) تفسير السعدي: ٥٠.
(٤) تفسير ابن عثيمين: ١٤٣/١.
(٥) تفسير البيضاوي: ٧٥/١.
(٦) تفسير السعدي: ٥٠.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٤٠):ص٩٦/١. وفي رواية أخرى أيضا عند أبن أبي حاتم:(٤٤١):ص٩٦/١؛:" {أوف بعهدكم}، أنجز لكم ما وعدتكم عليه بتصديقه واتباعه، فوضع عنكم ما كان عليكم من الإصر والأغلال التي كانت في أعناقكم بذنوبكم التي كانت من إحداثكم".

(٨) تفسير ابن أبي حاتم:٩٦/١.
(٩) صفوة التفاسير: ٤٦/١.
(١٠) تفسير ابن عثيمين: ١٤٣/١.
(١١) المحرر الوجيز: ١٣٤/١.
(١٢)"تهذيب اللغة" (وفا) ٤/ ٣٩٢٣ - ٣٩٢٤، وانظر: "اللسان" (وفي) ٨/ ٥٨٨٥.
(١٣)أنظر: تهذيب اللغة" (وفا) ٤/ ٣٩٢٤، وانظر: "اللسان" (وفي) ٨/ ٥٨٨٥.
(١٤) أنظر كلامه في: تهذيب اللغة:(وفا) ١٥/ ٨٨٦، وانظر "معاني القرآن" للزجاج ١/ ٩١، و"اللسان" (وفى) ٨/ ٤٨٨٤.
(١٥)في "الكامل" (بيض) بدل (طوق) وعند الزجاج (عوف) وهو رجل شهر بالوفاء، وقلاص النجوم: هي كما تزعم العرب، أن الدبران جاء خاطبا للثريا وساق مهرها كواكبا صغارا تسمى القلاص، انظر (الكامل) ٢/ ١٨٧، "معاني القرآن" للزجاج ١/ ٩١، "الخصائص" ١/ ٣٧٠، ٣/ ٣١٦، "شرح المفصل" ١/ ٤٢، "اللسان" (وفى) ٨/ ٤٨٨٤، "زاد المسير" ١/ ٧٣، "تفسير القرطبي" ٦/ ٣٢، "الدر المصون" ١/ ٣١٢.

واختلف أهل المعرفة في معنى العهد الذي وصف الله هؤلاء بنقضه، وفيه أربعة [1]:
أحدها: أنه وصية الله إلى خلقه، وأمره إياهم بما أمرهم به من طاعته، ونهيه إياهم عما نهاهم عنه من معصيته، في كتبه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم. ونقضُهم ذلك، تركُهم العمل به.
والثاني:أن عهدُ الله الذي نقضوه بعدَ ميثاقه، هو ما أخذه الله عليهم في التوراة - منَ العمل بما فيها، واتباع محمد صلى الله عليه وسلم إذا بُعث، والتصديق به وبما جاء به من عند ربهم، ونقضُهم ذلك، هو جحودهم به بعد معرفتهم بحقيقته، وإنكارهم ذلك، وكتمانهم علمَ ذلك الناسَ، بعد إعطائهم اللهَ من أنفسهم الميثاق لَيُبَيِّنُنَّه للناس ولا يكتمونه. فأخبر الله جل ثناؤه أنهم نبذوه وراَء ظهورهم واشتروا به ثمنًا قليلا. قاله ابن عباس[2]، وروي عن الربيع بن أنس[3]، وأبي العالية[4]، والضحاك[5]، والسدي[6]، وقتادة"[7]، نحو ذلك.
والثالث: أن عهدُه: توحيده، وهو موجه إلى جميعَ أهل الشرك والكفر والنفاق.
والرابع: أن العهدُ الذي ذكره الله جل ذكره، هو العهدُ الذي أخذه عليهم حين أخرجهم من صُلب آدم، الذي وصفه في قوله:{وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ}[سورة الأعراف : ١٧٢ - ١٧٣]. ونقضُهم ذلك، تركهم الوفاء به.
والقول الثاني هو الأقرب إلى الصواب، أي: عهدُ الله ووصيته التي أخذ على بني إسرائيل في التوراة، أن يبيِّنوا للناس أمر محمد صلى الله عليه وسلم أنه رسولٌ، وأنهم يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة أنه نبيّ الله، وأن يؤمنوا به وبما جاء به من عند الله"[8].
قوله تعالى:{وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ}[البقرة:٤٠]، "أي لا ترهبوا إلا إياي"[9].
قال البيضاوي:أي:" فيما تأتون وتذرون وخصوصاً في نقض العهد"[10].
قال الثعلبي:"فخافوني في نقض العهد"[11].
قال أبو العالية:"{وإياي فارهبون}، فاخشون"[12].وكذا روي عن السدى والربيع ابن أنس وقتادة[13].
وأخرج ابن أبي حاتم "عن ابن عباس:{وإياي فارهبون}، أن أنزل بكم ما أنزلت بمن كان قبلكم من آبائكم من النقمات التي قد عرفتم من المسخ وغيره"[14].
قال ابن عطية:" والرهبة يتضمن الأمر بها معنى التهديد"[15].
ولا يحفى بأن مافي هذه الآية من الوعد والوعيد، دالة على وجوب الشكر والوفاء بالعهد، وأن المؤمن ينبغي أن لا يخاف أحداً إلا الله تعالى[16].
وقوله { فَارْهَبُونِ }، قرأ ابن أبي إسحاق بالياء[17].

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٤١١/١-٤١٢. و تفسير القرطبي: ٣٣٢/١.
(٢) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٤٣٧)، و(٤٣٨):ص٩٥/١، وتفسير الطبري(٨٠٥):ص٥٥٨/١.
(٣) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم:٩٥/١، من رواية حاتم ابن إسماعيل عن أبي جعفر.
(٤) أنظر: تفسير الطبري(٨٠٦):ص٥٥٨/١.
(٥) أنظر: تفسير الطبري(٨٠٩):ص٥٥٩/١.
(٦) أنظر: تفسير الطبري(٨٠٧):ص٥٥٨/١.
(٧) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم:٩٥/١.
(٨) تفسير الطبري: ٥٥٧/١.
(٩) تفسير ابن عثيمين: ١٤٣/١.
(١٠) تفسير البيضاوي: ٧٥/١.
(١١) تفسير الثعلبي: ١٨٧/١، وانظر: التفسير البسيط: ٤٣٢/٢.
(١٢) تفسير ابن أبي حاتم(٤٤٣):ص٩٦/١.
(١٣) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم:٩٦/١.
(١٤) تفسير ابن أبي حاتم(٤٤٢):ص٩٦/١.
(١٥) المحرر الوجيز: ١٣٤/١.
(١٦) أنظر: تفسير البيضاوي: ٧٦/١.
(١٧) أنظر: المحر الوجيز: ١٣٤/١.

وسقطت الياء بعد النون في قوله{ فَارْهَبُونِ }، في هذه الآيات وفي كلّ القرآن على الأصل، وحذفها الباقون على الخط اتّباعا للمصحف[1].

الفوائد:

١.من فوائد الآية: أن الله تعالى يوجه الخطاب للمخاطب إما لكونه أوعى من غيره؛ وإما لكونه أولى أن يمتثل؛ وهنا وجّهه لبني إسرائيل؛ لأنهم أولى أن يمتثلوا؛ لأن عندهم من العلم برسالة النبي صلى الله عليه وسلم، وأنها حق ما ليس عند غيرهم.

٢. ومنها: أن تذكير العبد بنعمة الله عليه أدعى لقبوله الحق، وأقوم للحجة عليه؛ لقوله تعالى: { اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم }؛ فهل هذا من وسائل الدعوة إلى الله؛ بمعنى أننا إذا أردنا أن ندعو شخصاً نذكره بالنعم؟

فالجواب: نعم، نذكره بالنعم؛ لأن هذا أدعى لقبول الحق، وأدعى لكونه يحب الله عزّ وجلّ؛ ومحبة الله تحمل العبد على أن يقوم بطاعته.

٣. ومن فوائد الآية: عظيم منة الله تعالى في إنعامه على هؤلاء؛ لقوله تعالى: { التي أنعمت عليكم }.

٤. ومنها: أن من وفى لله بعهده وفى الله له؛ لقوله تعالى: { وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم }؛ بل إن الله أكرم من عبده، حيث يجزيه الحسنة بعشر أمثالها؛ وفي الحديث القدسي: "إِذَا تَقَرَّبَ الْعَبْدُ إِلَيَّ شِبْراً تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعاً؛ وَإِذَا تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعاً تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعاً؛ وَإِذَا أَتَانِي مَشْياً أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً"[1] .

٥. ومن فوائد الآية: أن من نكث بعهد الله فإنه يعاقب بحرمانه ما رتب الله تعالى على الوفاء بالعهد؛ وذلك؛ لأن المنطوق في الآية أن من وفى لله وفّى الله له؛ فيكون المفهوم أن من لم يفِ فإنه يعاقب، ولا يعطى ما وُعِد به؛ وهذا مقتضى عدل الله عزّ وجلّ.

٦. ومنها: وجوب الوفاء بالنذر؛ لأن الناذر معاهد لله، كما قال تعالى: {ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين} [التوبة: ٧٥] .

٧. ومنها: وجوب إخلاص الرهبة لله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: {وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ}]البقرة: من الآية٤٠].

٨. ومنها: أن الرهبة عبادة؛ لأن الله تعالى أمر بها، وأمر بإخلاصها.

فإن قال قائل: هل ينافي التوحيد أن يخاف الإنسان من سبُع، أو من عدو؟

فالجواب: لا ينافي هذا التوحيد؛ ولهذا وقع من الرسل: إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ لما جاءه الضيوف، ولم يأكلوا أوجس منهم خيفة؛ وموسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ لما ألقى السحرة حبالهم، وعصيهم أوجس في نفسه خيفة؛ ولأن الخوف الطبيعي مما تقتضيه الطبيعة؛ ولو قلنا لإنسان: "إنك إذا خفت من أحد سوى الله خوفاً طبيعياً لكنت مشركاً"، لكان هذا من تكليف ما لا يطاق؛ لأن خوف الإنسان مما يخاف منه خوفٌ طبيعي غريزي لا يمكنه دفعه؛ كل إنسان يخاف مما يُخشى منه الضرر.

فإن قال قائل: لو منعه الخوف من واجب عليه هل يُنهى عنه، أو لا؟

فالجواب: نعم، يُنهى عنه؛ لأن الواجب عليه يستطيع أن يقوم به؛ إلا إذا جاء الشرع بالعفو عنه في هذه الحال فلا حرج عليه في هذا الخوف؛ قال الله تعالى: {إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين} [آل عمران: ١٧٥] ؛ لكن إذا كان في الشرع رخصة لك أن تخالف ما أمر الله به في هذه الحال فلا بأس؛ ولهذا لو كان إنسان يريد أن يصلي صلاة الفريضة، وحوله جدار قصير، ويخشى إن قام أن يتبين للعدو؛ فله أن يصلي قاعداً؛ وهذا لأن الله تعالى عفا عنه: قال الله تعالى: {فاتقوا الله ما استطعتم} [التغابن: ١٦] ؛ ولو كان العدو أكثر من مثلي المسلمين فلا يلزمهم أن يصابروهم، ويجوز أن يفروا.

القرآن

---

(١) أنظر: تفسير الثعلبي: ١٨٧/١.

(١) أخرجه البخاري بلفظه ص٦٢٩، كتاب التوحيد، باب ٥٠: ذكر النبي صلى الله عليه وسلم وروايته عن ربه، حديث رقم ٧٥٣٦؛ وأخرجه مسلم ص١١٤٤، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب ١: الحدث على ذكر الله تعالى، حديث رقم ٦٨٠٥ [٢] ٢٦٧٥.

{وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١)} [البقرة : ٤١]

التفسير:

وآمنوا- يا بني إسرائيل- بالقرآن الذي أنزَلْتُه على محمد نبي الله ورسوله، موافقًا لما تعلمونه من صحيح التوراة، ولا تكونوا أول فريق من أهل الكتاب يكفر به، ولا تستبدلوا بآياتي ثمنًا قليلا من حطام الدنيا الزائل، وإياي وحدي خافوني في ذلك فاعملوا بطاعتي واتركوا معصيتي.

في سبب نزول الآية، قولان:

أحدهما: "أنها أنلت في يهود يثرب". قاله أبو سنان[1].

والثاني: أنها: "نزلت في قريظة، وكانوا أول من كفر من اليهود بمحمد، وتبعهم يهود فدك[2] وخيبر". نقله الكلبي عن ابن عباس[3].

قوله تعالى: {وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ}[البقرة:٤١]، أي: وصدّقوا بالذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم من القرآن [4].

قال ابن عثيمين:" هو القرآن أنزله الله سبحانه وتعالى على محمد صلى الله عليه وسلم"[5].

قال مجاهد:"{بما أنزلت}، القرآن"[6].

وقال الثعلبي:" يعني التوراة في التوحيد والنبوّة والأخبار، وبعض الشرائع نزلت في كعب وأصحابه من علماء اليهود ورؤسائهم"[7].

قال السعدي:" وهو القرآن الذي أنزله على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، فأمرهم بالإيمان به، واتباعه، ويستلزم ذلك، الإيمان بمن أنزل عليه"[8].

قوله تعالى:{ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ}[البقرة:٤١]، أي: " موافقًا لما تعلمونه من صحيح التوراة"[9].

أخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية:في قوله:{وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم}، يقول:"يا معشر أهل الكتاب، آمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم، يقول:لأنهم يجدون محمدا مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل"[10].

وروي عن الربيع بن أنس، وقتادة، نحو ذلك[11].

وقال مجاهد:"لما معكم، الإنجيل"[12].

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم(٤٤٨):ص٩٧/١.

وقد ذكر السمهودي بأن قبائل اليهود في يثرب كانوا نيفاً وعشرين قبيلة، منهم بنو عكرمة وبنو ثعلبة وبنو محمر وبنو زعورا وبنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة وبنو هدل وبنو عوف وبنو القصيص وبنو ماسلة، سكن هؤلاء المدينة وأطرافها.[أنظر: وفاء الوفاء بأخبار، دار المصطفى: ١٤٢/١، و المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام:٩٥/١٢].

(٢) فدك: "معروفة بينها وبين المدينة يومان، وحصنها يقال له: الشمروخ، بقرب خيبر". [الروض المعطار في خبر الأقطار:٤٣٧].

(٣) العجاب في بيان الأسباب: ٢٥١/١. لم أجد هذا في "تنوير المقباس من تفسير ابن عباس" للفيروزآبادي، مع أن المذكور أنه جمع فيه رواية الكلبي عن ابن عباس انظر "تاريخ التفسير" للشيخ قاسم القيسي "ص١٣٥"، وكذلك فإن السند الذي ذكر في المقدمة ينتهي إليه انظر "ص٢"، وقد رجعت إليه في البحث عن عدد من النصوص المنقولة هنا عن الكلبي فلم أجدها أو لم يتطابق النصان فلن أشير إليه بعد. [حاشية العجاب:٢٥١/١].

(٤) أنظر: تفسير الطبري: ٥٦٠/١، وتفسير ابن كثير: ٢٤٢/١.

(٥) تفسير ابن عثيمين:١/!٤٧.

(٦) تفسير ابن أبي حاتم(٤٤٥):ص٩٧/١.

(٧) تفسير الثعلبي: ١٨٧/١.

(٨) تفسير السعدي: ٥٠.

(٩) التفسير الميسر: ٧.

(١٠) تفسير ابن أبي حاتم(٤٤٤):ص٩٦/١.

(١١) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم:٩٧/١.

(١٢) تفسير ابن أبي حاتم(٤٤٥):ص٩٧/١.

قال السعدي:" أي: موافقا له لا مخالفا ولا مناقضا، فإذا كان موافقا لما معكم من الكتب، غير مخالف لها; فلا مانع لكم من الإيمان به، لأنه جاء بما جاءت به المرسلون، فأنتم أولى من آمن به وصدق به، لكونكم أهل الكتب والعلم"(١).

وذكر أهل العلم بأن تصديق القرآن لما معهم، يكون من وجهين(٢):

الوجه الأول: أنه وقع مطابقاً لما أخبرت التوراة، والإنجيل به.

والوجه الثاني: أنه قد شهد لهما بالصدق، فالقرآن يدل دلالة واضحة على أن الله أنزل التوراة، وأنزل الإنجيل.

قال ابن عثيمين:"وهذه شهادة لهما بأنهما صدق.؛ وكذلك التوراة، والإنجيل قد ذُكر فيهما من أوصاف القرآن، ومن أوصاف محمد صلى الله عليه وسلم حتى صاروا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم؛ فإذا وقع الأمر كما ذُكر فيهما صار ذلك تصديقاً لهما؛ ولهذا لو حدثتك بحديث، فقلت أنت: "صدقتَ"، ثم وقع ما حدثتك به مشهوداً تشاهده بعينك؛ صار الوقوع هذا تصديقاً أيضاً"(٣).

قوله تعالى: {وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ}[البقرة:٤١]،" أي أول من كفر به"(٤).

قال بعض المفسرين: أي: "ولا تكونوا أول فريق كافر به"(٥)، أو "أول حزب أو فوج كافر به ، أو ولا يكن كل واحد منكم أول كافر به"(٦).

قال ابن عباس:" {ولا تكونوا أول كافر به}، وعندكم فيه من العلم ما ليس عند غيركم"(٧).

وقال أبو العالية:" لا تكونوا أول من كفر بمحمد صلى الله عليه وسلم"(٨). وروي عن الحسن والسدي والربيع بن أنس نحو ذلك(٩).

قال الثعلبي:" يعني: أوّل من يكفر بالقرآن وقد بايعتنا اليهود على ذلك فتبوءوا بآثامكم وآثامهم"(١٠).

قال البغوي:" أي: بالقرآن يريد من أهل الكتاب، لأن قريشا كفرت قبل اليهود بمكة ، معناه : ولا تكونوا أول من كفر بالقرآن فيتابعكم اليهود على ذلك فتبوؤا بآثامكم وآثامهم"(١١).

قال المراغي:" أي: ولا تسارعوا إلى الكفر به ، مع أن الأجدر بكم أن تكونوا أوّل من يؤمن به"(١٢).

قال ابن عثيمين:" يعني: لا يليق بكم وأنتم تعلمون أنه حق أن تكونوا أول كافر به؛ ولا يعني ذلك :كونوا ثاني كافر!"(١٣).

قال البيضاوي:" بأن الواجب أن يكونوا أول من آمن به، ولأنهم كانوا أهل النظر في معجزاته والعلم بشأنه والمستفتحين به والمبشرين بزمانه. وأَوَّلَ كافِرٍ بِهِ وقع خبراً عن ضمير الجمع بتقدير: أول فريق أو فوج، أو بتأويل لا يكن كل واحد منكم أول كافر به"(١٤).

قال ابن عطية:" وقد كان كفر قبلهم كفار قريش، فإنما معناه من أهل الكتاب، إذ هم منظور إليهم في مثل هذا، لأنهم حجة مظنون بهم علم"(١٥).

---

(١) تفسير السعدي: ٥٠.
(٢) أنظر: تفسير ابن عثيمين:١/!٤٧.
(٣) تفسير ابن عثيمين:١/!٤٧.
(٤) تفسير النسفي: ٦١/١.
(٥) تفسير ابن كثير: ٢٤٣/١.
(٦) تفسير النسفي: ٦١/١.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٤٦):ص٩٧/١.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٤٧):ص٩٧/١.
(٩)أنظر: تفسير ابن أبي حاتم:٩٧/١.
(١٠) تفسير الثعلبي: ١٨٧/١.
(١١) تفسير الثعلبي: ١٨٧/١.
(١٢) تفسير المراغي: ٩٦/١.
(١٣) تفسير ابن عثيمين:١/!٤٧.
(١٤) تفسير البيضاوي: ٧٦/١.
(١٥) المحرر الوجيز: ١٣٤/١.

قال الجصاص:" وإن كان الكفر قبيحا من الأول والآخر منهيا عنه الجميع أن السابق إلى الكفر يقتدي به غيره فيكون أعظم لمأثمه وجرمه كقوله تعالى {وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ} [العنكبوت : ١٣] وقوله {مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا} [المائدة : ٣٢]" [١].

قال الواحدي:" وإنما قيل لهم: {وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ} لأن الخطاب لعلماء اليهود، فإذا كفروا كفر معهم الأتباع، فإن قيل: ما في {أن تكونوا أول كافر به}، من العظم، على ثان كافر؟ قيل: إنهم إذا كانوا أئمة في الضلالة كانت ضلالتهم أعظم"[٢].

قال السعدي:" وفي قوله: {أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ} أبلغ من قوله: {ولا تكفروا به} لأنهم إذا كانوا أول كافر به، كان فيه مبادرتهم إلى الكفر به، عكس ما ينبغي منهم، وصار عليهم إثمهم وإثم من اقتدى بهم من بعدهم"[٣].

وقوله:{وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ}[البقرة:٤١]،: اختلف في الضمير(به) على وجوه:

أحدها: أنه عائد إلى القرآن، والمعنى : ولا تكونوا أول من كفر بالقرآن وحقكم أن تؤمنوا به.

وهو اختيار الإمام الطبري، إذ يقول: والهاء التي في (به) من ذكر (ما) التي مع قوله : {وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ}"[٤].

والثاني: أنه عائد على محمد ﷺ، وهو اختيار أبي العالية-رحمه الله-[٥].

والثالث: وقيل: يعني (بكتابكم) أي التوراة والإنجيل، "ويتأول أنّ في تكذيبهم بمحمد صلى الله عليه وسلم تكذيبًا منهم بكتابهم، لأن في كتابهم الأمرَ باتباع محمد صلى الله عليه وسلم"[٦].

قلت: كلا القولين الأول والثاني صحيحان، لأنهما متلازمان، فكل "من كفر بالقرآن فقد كفر بمحمد صلى الله عليه وسلم، ومن كفر بمحمد صلى الله عليه وسلم فقد كفر بالقرآن"[٧].

قوله تعالى:{ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي}[البقرة:٤١]، "أي لا تستبدلوا بآياتي البينات التي أنزلتها عليكم"[٨].

قال سعيد بن جبير:" إن آياته: كتابه، الذي أنزل إليهم"[٩].

قال السدي:" يقول: لا تأخذوا طمعا قليلا وتكتموا اسم الله، فذلك الطمع وهو الثمن"[١٠].

قال الثعلبي:" أي ببيان صفة محمد ونعته"[١١].

قال ابن كثير:"أي : لا تعتاضوا عن الإيمان بآياتي وتصديق رسولي بالدنيا وشهواتها، فإنها قليلة فانية"[١٢].

قال المراغي:" أي ولا تعرضوا عن التصديق بالنبي صلى اللّه عليه وسلم وما جاء به وتستبدلوا بهدايته"[١٣].

قوله تعالى:{ ثَمَنًا قَلِيلًا }[البقرة:٤١]، أي: "شيئا يسيرا"[١٤].

قال سعيد بن جبير:" إن الثمن القليل، هو الدنيا وشهواتها"[١٥].

---

(١) أحكام القرآن: ٣٨/١.
(٢) التفسير البسيط: ٤٣٨/٢، وانظر: معاني القرآن" للزجاج ١/ ٩٢، وانظر: "تفسير أبي الليث" ١/ ١١٤، و"تفسير الثعلبي" ١/ ٦٨ أ، و"تفسير البغوي" ١/ ٨٧.
(٣) تفسير السعدي: ٥٠.
(٤) انظر: تفسير الطبري: ٥٦٣/١.
(٥) انظر: تفسير الطبري: ٥٦٣/١.
(٦) انظر: تفسير الطبري: ٥٦٣/١.
(٧) انظر: تفسير الطبري: ٥٦٣/١. وتفسير ابن كثير: ٢٤٣/١.
(٨) صفوة التفاسير: ٤٦/١.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٥٠):ص٩٧/١.
(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٥١):ص٩٧/١.
(١١) تفسير الثعلبي: ١٨٧/١.
(١٢) تفسير ابن كثير: ٢٤٣/١.
(١٣) تفسير المراغي: ٩٧/١.
(١٤) تفسير الثعلبي: ١٨٧/١.
(١٥) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٥٠):ص٩٧/١.

قال الصابوني:أي:" حطام الدنيا الفانية"[1].
وقال الحسن:" الثمن القليل: الدنيا بحذافيرها"[2].
واختلف أهل التفسير في (الثمن) الذي نهوا أن يشتروه بالآيات، على أقوال[3]:
أحدها: أن الأحبار كانوا يعلمون دينهم بالأجرة، فنهوا عن ذلك وفي كتبهم: علم مجانا كما علمت مجانا أي باطلا بغير أجرة. قاله أبو العالية[4].
والثاني: أنه كانت للأحبار مأكلة يأكلونها على العلم كالراتب، فنهوا عن ذلك. قاله الثعلبي[5].
والثالث: إن الأحبار أخذوا رشى على تغيير قصة محمد عليه السلام في التوراة، ففي ذلك قال تعالى: وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلًا [البقرة: ٤١، المائدة: ٤٤] .
والرابع: معنى الآية ولا تشتروا بأوامري ونواهيّ وآياتي ثمنا قليلا، يعني الدنيا ومدتها والعيش الذي هو نزر لا خطر له.
قال السعدي:"{ ثَمَنًا قَلِيلا}، وهو ما يحصل لهم من المناصب والمآكل، التي يتوهمون انقطاعها، إن آمنوا بالله ورسوله، فاشتروها بآيات الله واستحبوها، وآثروها"[6].
قوله تعالى:{وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ}[البقرة:٤١]،" أي لا تتقوا إلا إياي"[7].
قال الثعلبي: أي: " فاخشوني في أمر محمد لا فيما يفوتكم من الرياسة والمأكل"[8].
قال الصابوني:" أي خافون دون غيري"[9].
و(التقوى) هو: "اتخاذ وقاية من عذاب الله عزّ وجلّ، بفعل أوامره، واجتناب نواهيه"[10].
قال طلق بن حبيب: "التقوى، أن يعمل بطاعة الله رجاء رحمة الله على نور من الله، والتقوى أن يترك معصية الله مخافة عذاب الله على نور من الله"[11].
قال الراغب:" وإنما ذكر في الآية الأولى. {فارهبون} وفي الآية الآخرى {فاتقون}، لأن الرهبة دون التقوى ، فحينما خاطب الكافة عالمهم ومقلدهم ، وحثهم على ذكر نعمة التي يشركون فيها ، أمرهم بالرهبة التي هي مبادئ التقوى ، وحينما خاطب العلماء منهم ، وحثهم على مراعاة آياته والتنبه لما يأتي به أولوا العزم من الرسل ، أمرهم بالتوقى التي هي منتهى الطاعة"[12].
وقال ابن عثيمين:" في الآية الأولى: {وإياي فارهبون}[البقرة:٤٠]، أمر بالتزام الشريعة، وألا يخالفوها عصياناً؛ وفي هذه الآية: {وإياي فاتقون}[البقرة:٤١]، أمر بالتزام الشريعة، وألا يخالفوها لا في الأمر، ولا في النهي"[13].
قال ابن عطية:" وبين «اتقون» و «ارهبون» فرق، ان الرهبة مقرون بها وعيد بالغ"[14].
الفوائد:

---

(١) صفوة التفاسير: ٤٦/١.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٥٢):ص٩٨/١.
(٣) أنظر: المحرر الوجيز: ١٣٥/١.
(٤) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٤٤٩):ص٩٧/١، ولفظه: "لا تأخذوا عليه أجرا"وهو مكتوب عندهم في الكتاب الأول: يا ابن آدم، علم مجانا كما علمت مجانا".
(٥) تفسير الثعلبي: ١٨٧/١. ولفظه "وذلك أنّ رؤساء اليهود كانت لهم مآكل يصيبونها من سفلتهم وعوامّهم يأخذون منهم شيئا معلوما كلّ عام من زروعهم [فخافوا أن تبينوا] صفة محمد صلّى الله عليه وسلّم وبايعوه أن تفوتهم تلك المآكل والرّياسة، فاختاروا الدنيا على الآخرة".
(٦) تفسير السعدي: ٥٠.
(٧) تفسير ابن عثيمين:١٤٨/١.
(٨) تفسير الثعلبي: ١٨٧/١.
(٩) صفوة التفاسير: ٤٦/١.
(١٠) تفسير ابن عثيمين:١٤٨/١.
(١١) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٥٣):ص٩٨/١.
(١٢) تفسير الراغب الأصفهاني: ١٧١/١.
(١٣) تفسير ابن عثيمين:١٤٨/١.
(١٤) المحرر الوجيز: ١٣٤/١.

١. من فوائد الآية: أنه يجب على بني إسرائيل أن يؤمنوا بالقرآن الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم؛ لقوله تعالى: {وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم}.
٢. ومنها: أن الكافر مخاطب بالإسلام؛ وهذا مجمع عليه، لكن هل يخاطب بفروع الإسلام؟
الجواب: فيه تفصيل؛ إن أردت بالمخاطبة أنه مأمور أن يفعلها فلا؛ لأنه لا بد أن يُسلم أولاً، ثم يفعلها ثانياً؛ ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل: "فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله؛ فإن هم أطاعوا لذلك فأخبرهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة"(١) .
إذاً هم لا يخاطبون بالفعل . يعني لا يقال: افعلوا .؛ فلا نقول للكافر: تعال صلِّ؛ بل نأمره أولاً بالإسلام؛ وإن أردت بالمخاطبة أنهم يعاقبون عليها إذا ماتوا على الكفر فهذا صحيح؛ ولهذا يقال للمجرمين: {ما سلككم في سقر * قالوا لم نك من المصلين * ولم نك نطعم المسكين * وكنا نخوض مع الخائضين * وكنا نكذب بيوم الدين * حتى أتانا اليقين} [المدثر: ٤٢ . ٤٧] يعني هذا دأبهم حتى ماتوا؛ ووجه الدلالة من الآية أنه لولا أنهم كانوا مخاطبين بالفروع لكان قولهم: {لم نك من المصلين * ولم نك نطعم المسكين} [المدثر: ٤٣ . ٤٤] عبثاً لا فائدة منه، ولا تأثير له.
٣. ومن فوائد الآية: أن من اشترى بآيات الله ثمناً قليلاً ففيه شبه من اليهود؛ فالذين يقرؤون العلم الشرعي من أجل الدنيا يكون فيهم شبه باليهود؛ لأن اليهود هم الذين يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً؛ وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: "من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عَرْفَ الجنة يوم القيامة"(١) يعني ريحها؛ وحينئذ يشكل على كثير من الطلبة من يدخل الجامعات لنيل الشهادة: هل يكون ممن اشترى بآيات الله ثمناً قليلاً؟
والجواب: أن ذلك حسب النية؛ إذا كان الإنسان لا يريد الشهادة إلا أن يتوظف ويعيش، فهذا اشترى بآيات الله ثمناً قليلاً؛ وأما إذا كان يريد أن يصل إلى المرتبة التي ينالها بالشهادة من أجل أن يتبوأ مكاناً ينفع به المسلمين فهذا لم يشتر بآيات الله ثمناً قليلاً؛ لأن المفاهيم الآن تغيرت، وصار الإنسان يوزن بما معه من بطاقة الشهادة.
٤. ومن فوائد الآية: أن جميع ما في الدنيا قليل، ويشهد لهذا قوله تعالى: {قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلًا} [النساء: ٧٧] .
٥. ومنها: أن شرائع الله من آياته لما تضمنته من العدل، والإصلاح . بخلاف ما يسنُّه البشر من الأنظمة والقوانين فإنه ناقص:
أولاً: لنقص علم البشر، وعدم إحاطتهم بما يُصلح الخلق.
ثانياً: لخفاء المصالح عليهم: فقد يظن ما ليس بمصلحة مصلحة؛ وبالعكس.
ثالثاً: أننا لو قدرنا أن هذا الرجل الذي سن النظام، أو القانون من أذكى الناس، وأعلم الناس بأحوال الناس فإن علمه هذا محدود في زمانه، وفي مكانه؛ أما في زمانه فظاهر؛ لأن الأمور تتغير: قد يكون المصلحة للبشر في هذا الزمن كذا، وكذا؛ وفي زمن آخر خلافه؛ وفي المكان أيضاً قد يكون هذا التشريع الذي سنه البشر مناسباً لأحوال هؤلاء الأمة في مكانهم؛ ولكن في أمة أخرى لا يصلح؛ ولهذا ضل كثير من المسلمين مع الأسف الشديد في أخذ القوانين الغربية، أو الشرقية، وتطبيقها على مجتمع إسلامي؛ لأن الواجب تحكيم الكتاب، والسنة؛ والعجب أن بعض الناس . نسأل الله العافية . تجدهم قد مشوا على قوانين شرعت من عشرات السنين، أو مئاتها، وأهلها الذين شرعوها قد عدلوا عنها، فصار هؤلاء كالذين يمشمشون العظام بعد

---

(١) أخرجه البخاري ص١١٨، كتاب الزكاة، باب ٦٣: أخذ الصدقة من الأغنياء...، حديث رقم ١٤٩٦؛ وأخرجه مسلم ص٦٨٤، كتاب الإيمان، باب ٧: الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، حديث رقم ١٢١ [٢٩] ١٩.
(١) أخرجه أبو داود ص١٤٩٤، كتاب العلم، باب ١١: في طلب العلم لغير الله، حديث رقم ٣٦٦٤؛ وأخرجه ابن ماجة ص٢٤٩٢، كتاب السنة، باب ٢٣: الانتفاع بالعلم والعمل به، حديث رقم ٢٥٢؛ وأخرجه أحمد ٣٣٨/٢، حديث رقم ٨٤٣٨؛ وأخرجه الحاكم في مستدركه ٨٥/١، كتاب العلم، وقال: هذا حديث صحيح سنده ثقات رواته على الشيخين ولم يخرجاه، وأقره الذهبي، ومدار الحديث على فليح بن سليمان الخزاعي، قال الدارقطني: يختلفون فيه وليس به بأس، تهذيب التهذيب ٢٧٣/٨، وقال الحاكم فيه: "اتفاق الشيخين عليه يقوي أمره، ت. التهذيب، وقال عبد القادر الأرناؤوط في تخريج جامع الأصول ٥٤٤/٤، حاشية رقم ١: "توبع في جامع بيان العلم ٩٠/١ فهو به حسن". أهـ.

أن ترمى في الزبالة؛ وهذا شيء واضح: هناك قوانين شرعت لقوم كفار، ثم تغيرت الحال، فغيروها، ثم جاء بعض المسلمين إلى هذه القوانين القشور الملفوظة، وصاروا يتمشمشونها.

٦. ومن فوائد الآية: وجوب تقوى الله عزّ وجلّ، وإفراده بالتقوى؛ لقوله تعالى: { وإياي فاتقون}.

فإن قال قائل: أليس الله يأمرنا أن نتقي أشياء أخرى، كقوله تعالى: {واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله} [البقرة: ٢٨١] ، وقوله تعالى: {واتقوا النار التي أعدت للكافرين} [آل عمران: ١٣١] ، وقوله تعالى: {واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة} [الأنفال: ٢٥]؟

فالجواب: بلى، ولكن اتقاء هذه الأمور من تقوى الله عزّ وجلّ. فلا منافاة.

القرآن

{وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢)} [البقرة : ٤٢]

التفسير:

ولا تخلِطوا الحق الذي بيَّنته لكم بالباطل الذي افتريتموه، واحذروا كتمان الحق الصريح من صفة نبي الله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم التي في كتبكم، وأنتم تعلمون أنه الحق وتجدونها مكتوبة عندكم، فيما تعلمون من الكتب التي بأيديكم.

قوله تعالى{وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ}[البقرة: ٤٢]، " أي لا تخلطوا الحق المنزل من الله بالباطل الذي تخترعونه"[(١)].

قال الثعلبي:" أي خلطت وشبهت الحقّ الذي أنزل إليكم من صفة محمد صلّى الله عليه وسلّم"[(٢)].

قال ابن عثيمين:" أي لا تمزجوا بينهما حتى يشتبه الحق بالباطل؛ فهم كانوا يأتون بشبهات تُشَبِّه على الناس؛ فيقولون مثلاً: محمد حق، لكنه رسول الأميين لا جميع الناس"[(٣)].

وفي قوله:{ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ}[البقرة:٤٢]، ثلاثة وجوه من التفسير:

أحدها : لا تخلطوا الصدق بالكذب، وهو قول ابن عباس[(٤)].

والثاني : اليهودية والنصرانية بالإسلام ، وهو قول مجاهد[(٥)] .

والثالث : أن الحقُّ : التوراةُ التي أُنْزِلَتْ على موسى ، والباطلُ : الذي كتبوه بأيديهم. وهو قول ابن زيد[(٦)].

و(اللبس): هو الخلط، لبست عليه الأمر ألبسه، إذا مزجت بينه بمشكله وحقه بباطله قال الله تعالى {وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ} [الأنعام : ٩] [(٧)]، ومنه ومنه قول العجاج[(٨)]:

لَمَّا لَبَسْنَ الحَقَّ بِالتَّجَنِّي ... غَنِينَ وَاسْتَبْدَلْنَ زَيْدًا مِنِّي

فقوله(لبسن) أي: خلطن.

ومن ذلك قول الخنساء[(٩)] :

ترى الجليس يقول الحق تحسبه ... رشدا وهيهات فانظر ما به التبسا

صدق مقالته واحذر عداوته والبس عليه أمورا مثل ما لبسا

وأما (اللُّبس)-بضم اللام- فإنه يقال منه : لبِسْته ألبَسُه لُبْسًا ومَلْبَسًا، وذلك الكسوةُ يكتسيها فيلبسها، ومنه قول الأخطل[(١٠)]:

---

(١) صفوة التفاسير: ٤٦/١.

(٢) تفسير الثعلبي: ١٨٧/١.

(٣) تفسير ابن عثيمين:١٥٢/١.

(٤) أنظر: تفسير الطبري(٨٢٣):ص٥٦٨/١.

(٥) أنظر: تفسير الطبري(٨٢٥):ص٥٦٨/١.

(٦) أنظر: تفسير الطبري(٨٢٦):ص٥٦٨/١.

(٧) انظر: تفسير الطبري: ٥٦٧/١، وتفسير ابن القرطبي: ٣٤٠/١.

(٨)ديوانه : ٦٥ . غني عن الشيء واستغنى : اطرحه ورمى به من عينه ولم يلتفت إليه.

(٩) البيتين ذكرهما القرطبي في تفسيره: ٣٤٠/١.

(١٠)ديوانه : ١٤٢ ، وفيه " وقد لبست " . وأعصر جمع عصر : وهو الدهر والزمان . وعني هنا اختلاف الأيام حلوها ومرها ، فجمع . ولبس له أعصره : عاش وقاسى خيره وشره . وتجلل الشيب رأسه : علاه .

لَقَدْ لَبِسْتُ لِهَذَا الدَّهْرِ أَعْصُرَهُ ... حَتَّى تَجَلَّلَ رَأْسِي الشَّيْبُ وَاشْتَعَلَا
وتجدر الإشارة بأن كلمة(اللباس) جاءت في القرآن على ثلاثة أوجه هي:
الأول: اللباس المعروف، ومنه قوله تعالى: {يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ} [الأعراف : ٢٦]،وقوله: {إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ} [الحج : ٢٣]، وفي موضع آخر: {جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ} [فاطر : ٣٣]، وقوله تعالى: {يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ} [الدخان : ٥٣]، {أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا} [الكهف : ٣١].
والثاني: السكن: ومنه قوله تعالى: {أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} [البقرة : ١٨٧]، وقوله تعالى: {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا} [النبأ : ١٠].
والثالث: العمل الصالح : ومنه قوله تعالى: {وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ } [الأعراف : ٢٦].
و(الباطل) في كلام العرب: خلاف الحق[١]، ومعناه الزائل، قال لبيد[٢] :
أَلاَ كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلاَ الله بَاطِلُ وكل نعيم لا محالة زائل
قوله تعالى:{وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ}[البقرة:٤٢]، أي: "ولا تكتموا الحق الذي تعرفونه"[٣].
قال ابن كثير:" أي : لا تكتموا ما عندكم من المعرفة برسولي وبما جاء به"[٤].
قال المراغي:" فالنهى الأوّل عن التغيير ، والنهى الثاني عن الكتمان وقد أبانت الآية طريقهم في الغواية والإغواء[٥].

(١) انظر: تفسير القرطبي: ٣٤١/١.
(٢)البيت للبيد بن ربيعة في ديوانه ص٢٥٦؛ وجواهر الأدب ص٣٨٢؛ وخزانة الأدب ٢/ ٢٥٥-٢٥٧؛ والدرر ١/ ٧١؛ وديوان المعاني ١/ ١٨؛ وسمط اللآلي ص٢٥٣؛ وشرح التصريح ١/ ٢٩؛ وشرح شواهد المغني ١/ ١٥٠، ١٥٣، ١٥٤، ٣٩٢؛ وشرح المفصل ٢/ ٧٨؛ والعقد الفريد ٥/ ٢٧٣؛ ولسان العرب ٥/ ٣٥١ "رجز"؛ والمقاصد النحوية ١/ ٥، ٧، ٢٩١؛ ومغني اللبيب ١/ ١٣٣؛ وهمع الهوامع ١/ ٣؛ وبلا نسبة في أسرار العربية ص٢١١؛ وأوضح المسالك ٢/ ٢٨٩؛ والدرر ٣/ ١٦٦؛ ورصف المباني ص٢٦٩؛ وشرح شواهد المغني ٢/ ٥٣١؛ وشرح عمدة الحافظ ص٢٦٣؛ وشرح قطر الندى ص٢٤٨؛ واللمع ص١٥٤؛ وهمع الهوامع ١/ ٢٦٦. قوله: لا محالة: لا بد. زائل: فان. يقول: كل شيء في هذا الوجود ماض إلى زوال إلا وجه ربك ذي الجلال والإكرام. وللنحويين في هذا البيت شاهدان أولهما قوله: "ما خلا الله" حيث ورد بنصب لفظ الجلالة بعد "خلا" فدل ذلك على أن الاسم الواقع بعد "ما خلا" يكون منصوبا، وذلك لأن "ما" هذه مصدرية، وما المصدرية لا يكون بعدها إلا فعل، ولذلك يجب نصب ما بعدها على أنه مفعول به، وإنما يجوز جره إذا كانت حرفا، وهي لا تكون حرفا متى سبقها الحرف المصدري. وثانيهما توسط المستثنى بين جزأي الكلام في قوله: "ألا كل شيء ما خلا الله باطل" يريد: ألا كل شيء باطل ما خلا الله].(تنظر: شرح الأشموني لألفية ابن مالك: ٢٦/١).
Bottom of Form
(٣) تفسير المراغي: ٩٧/١.
(٤) تفسير ابن كثير: ٢٤٥/١/١.
(٥) تفسير المراغي: ٩٧/١-٩٨. ثم قال :" فقد جاء في كتبهم :
(١) التحذير من أنبياء كذبة يبعثون فيهم ، وتكون لهم عجائب وأفاعيل تدهش الألباب.
(٢) أن الله يبعث فيهم نبيا من ولد إسماعيل يقيم به أمة ، وأنه يكون من ولد الجارية (هاجر) وبين علامات واضحة له لا لبس فيها ولا اشتباه.
فأخذ الأحبار والرهبان يلبسون على العامة الحق بالباطل ، ويوهمونهم أن النبي صلى الله عليه وسلم من أولئك الأنبياء الذين وصفوا في التوراة بالكذب ، ويكتمون ما يعرفونه من أوصاف لا تنطبق إلا عليه ، وما يعرفونه من نعوت الأنبياء الصادقين وسبيل دعوتهم إلى الله ، إلى أنهم كانوا يصدونهم عن السبيل القويم بعدم الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم بزيادات يستحدثونها ، وتقاليد يبتدعونها بضروب من التأويل والاستنباط من كلام بعض سلفهم وأفعالهم ويحكّمونها في الدين ويحتجون بأن الأقدمين كانوا أعلم بكلام الأنبياء وأشد اتباعا لهم ، فعلى من بعدهم أن يأخذ بكلامهم دون كلام الأنبياء الذي يصعب علينا

وقيل: " ويجوز صرف الخطاب إلى المسلمين وإلى كل صنف منهم ، وبيانه أن يقال : أيها السلاطين لا تخلطوا العدل بالجوز ، ويا أيها القضاة لا تخلطوا الحكم بالرشوة ، وهكذا كل فريق"[1].

قلت: هذا الوجه وإن كان معناه صحيحاً، إلا أنه بعيد عن ظاهر القرآن، وفيه تكلف لسنا بحاجة إليه، والله أعلم.

وقوله{وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ}[البقرة:٤٢]، فيه وجهان من التفسير[2]:

أحدهما: يكون الله جل ثناؤه نهاهم عن أن يكتموا الحق، كما نهاهم أن يلبسوا الحق بالباطل، فيكون معنى الآية حينئذ : ولا تلبسوا الحق بالباطل ولا تكتموا الحق.

وهذا مذهب ابن عباس-رضي الله عنه-[3].

والثاني: أن يكون النهي من الله جل ثناؤه لهم عن أن يلبسوا الحق بالباطل، ويكون قوله : " وتكتموا الحق " خبرًا منه عنهم بكتمانهم الحق الذي يعلمونه، ونظيرُ ذلك في المعنى والإعراب قول الشاعر [4]:

لا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِيَ مِثْلَهُ عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ

وهذا مذهب أبي العالية[5]، ومجاهد[6].

و(الواو) في قوله تعالى: { وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ} [البقرة : ٤٢] تحتمل وجهين[7]:

أحدهما: أنها عاطفة. والمعنى: لا تلبسوا الحق بالباطل ولا تكتموا الحق؛ فتكون الجملتان منفرداً بعضهما عن بعض.

والثاني:أنها واو المعية. فيكون النهي عن الجمع بينهما؛ والمعنى: ولا تلبسوا الحق بالباطل مع كتمان الحق.

قال ابن عثيمين:"لكن على هذا التقدير[أي الواو المعية]، يبقى إشكال: وهو أن قوله تعالى: {لا تلبسوا الحق بالباطل} يقتضي أنهم يذكرون الحق، والباطل؛ فيقال: نعم، هم وإن ذكروا الحق والباطل فقد كتموا الحق في الحقيقة؛ لأنهم لبسوه بالباطل، فيبقى خفيا"[8].

وفي (الحق) الذي كتموه، ثلاثة أوجه[9]:

أحدها: أنه أمر محمد-صلى الله عليه وسلم- قاله ابن عباس[10]، ومجاهد[11]، والسدي[12]، وأبو العالية[13]، وروي عن الربيع بن أنس[14]، مثل ذلك.

والثاني: أنه الإسلام. قاله الحسن[15]، وقتادة[1].

فهمه بزعمهم، لكن هذه المعذرة لم يتقبلها الله منهم ، ونسب إليهم اللبس والكتمان للحق الذي في التوراة إلى يومنا هذا ، كما لم يتقبل ممن بعدهم من العلماء في أي شريعة ودين أن يتركوا كتابه ويتبعوا كلام العلماء بتلك الحجة عينها ، فكل ما يعلم من كتاب الله يجب علينا أن نعمل به ، وما لا يعلم يسأل عنه أهل الذكر ، ومتى فهمناه وعلمناه عملنا به".

(١) تفسير المراغي: ٩٨/١. نقله في التيسير.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ٥٦٩/١-٥٧٠.

(٣) انظر: تفسير الطبري(٨٢٧)، و(٨٢٨):ص ٥٦٩/١-٥٧٠.

(٤)هذا من الأبيات التي رويت في عدة قصائد . كما قال صاحب الخزانة ٣ : ٦١٧ . نسبه سيبويه ١ : ٤٢٤ للأخطل ، وهو في قصيدة للمتوكل الليثي ، ونسب لسابق البربري ، وللطرماح ، ولأبي الأسود الدؤلي قصيدة ساقها صاحب الخزانة (٣ : ٦١٨) ، وليست في ديوانه الذي نشره الأستاذ محمد حسن آل ياسين في (نفائس المخطوطات) طبع مطبعة المعارف ببغداد سنة ١٣٧٣ه (١٩٥٤م) ، وهذا الديوان من نسخة بخط أبي الفتح عثمان بن جنى . ولم يلحقها الأستاذ الناشر بأشتات شعر أبي الأسود التي جمعها .

(٥) انظر: تفسير الطبري(٨٢٩): ٥٧٠/١.

(٦) انظر: تفسير الطبري(٨٣٠)، و(٨٣١):ص ٥٧٠/١.

(٧) انظر: تفسير ابن عثيمين:١٥٢/١.

(٨) تفسير ابن عثيمين:١٥٢/١.

(٩) أنظر: تفسير الطبري:٥٧١/١-٥٧٢، والبحر المحيط: ١٥١/١.

(١٠) أنظر: تفسير الطبري(٨٣٢):ص٥٧١/١.

(١١) أنظر: تفسير الطبري(٨٣٤):ص٥٧١/١.

(١٢) أنظر: تفسير الطبري(٨٣٦):ص٥٧١/١، وابن أبي حاتم(٤٥٨):ص٩٩/١.

(١٣) أنظر: تفسير الطبري(٨٣٧):ص٥٧١/١-٥٧٢.

(١٤) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم:٩٩/١.

(١٥) نقلا عن: البحر المحيط: ١٥١/١.

والثالث: أن يكون الحق عامًّا، فيندرج فيه أمر رسول الله صلى الله عليه وسلّم والقرآن، وما جاء به صلى الله عليه وسلّم.
قال أبو حيان:" وكتمانه، أنهم كانوا يعلمون ذلك ويظهرون خلافه"[٢].
وقرأ عبد الله : {وَتَكْتُمُونَ الحَقّ}[٣]، وذلك في احتمال الجواب والعطف[٤].
وقال الراغب:" {وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ} أخص من قوله : {تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ} ، لأن اللبس هو الخلط بغيره، والكتمان إخفاؤه جملة"[٥].
قوله تعالى: {وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [البقرة : ٤٢]، أي: " والحال أنكم تعلمون صنيعكم"[٦].
قال ابن كثير:" وأنتم تجدونه مكتوبا عندكم فيما تعلمون من الكتب التي بأيديكم"[٧].
قال أبو حيان: أي:"وأنتم من ذوي العلم ، فلا يناسب من كان عالماً أن يكتم الحق ويلبسه بالباطل"[٨].
وقال ابن عباس:" أي: أنتم تجدونه عندكم فيما تعلمون من الكتب التي بأيديكم"[٩].
وقال قتادة:" وهم يعلمون أنه رسول الله"[١٠].
قال الراغب:" وقوله : {وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} تعظيم لارتكاب الذنب ، فإنه مع العلم بقبحة لأعظم عقوبة. وفي الآية حث على تجنب الشر والنهي عن كل تلبيس وتمويه وإن كانت الآية واردة فيمن آمنوا ببعض الكتاب ، وكفروا بالبعض ، وجحدوا صفة النبي - صلى الله عليه وسلم"[١١].
الفوائد:
١. من فوائد الآية: وجوب بيان الحق، وتمييزه عن الباطل؛ فيقال: هذا حق، وهذا باطل؛ لقوله تعالى: { ولا تلبسوا الحق بالباطل }؛ ومن لبْس الحق بالباطل: أولئك القوم الذين يوردون الشبهات إما على القرآن، أو على أحكام القرآن، ثم يزيلون الإشكال . مع أن إيراد الشبه إذا لم تكن قريبة لا ينبغي . ولو أزيلت هذه الشبهة؛ فإن الشيطان إذا أوقع الشبهة في القلب فقد تستقر فيه . وإن ذكِر ما يزيلها ..
٢. ومن فوائد الآية: أنه ليس هناك إلا حق، وباطل؛ وإذا تأملت القرآن والسنة وجدت الأمر كذلك؛ قال تعالى: {ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل} [الحج: ٦٢] ، وقال تعالى: {وإنا أو إياكم لعلى هدًى أو في ضلال مبين} [سبأ: ٢٤] ، وقال تعالى: {فماذا بعد الحق إلا الضلال} [يونس: ٣٢] ، وقال تعالى: { فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر } [الكهف: ٢٩] ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم "القرآن حجة لك أو عليك"[١] .
فإن قال قائل: أليس هناك مرتبة بين الواجب، والمحرم؛ وبين المكروه، والمندوب . وهو المباح .؟ قلنا: بلى، لا شك في هذا؛ لكن المباح نفسه لا بد أن يكون وسيلة إلى شيء؛ فإن لم يكن وسيلة إلى شيء صار من قسم الباطل كما جاء في الحديث: "كل لهو يلهو به ابن آدم فهو باطل إلا لعبه في رمحه، ومع أهله، وفي فرسه"[٢] ؛ وهذه الأشياء الثلاثة إنما استثنيت؛ لأنها مصلحة . كلها تعود إلى مصلحة ..

---

(١) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٤٦٠):ص٩٩/١. ولفظه:" وكتموا الإسلام وهم يعلمون أنه دين الله".
(٢) البحر المحيط: ١٥١/١.
(٣) البحر المحيط: ١٥١/١.
(٤) أنظر: تفسير الراغب الأصفهاني: ١٧٢/١.
(٥) تفسير الراغب الأصفهاني: ١٧١/١.
(٦) تفسير ابن عثيمين:١٥٢/١.
(٧) تفسير ابن كثير: ٢٤٥/١/١.
(٨) البحر المحيط: ١٥١/١.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٥٩):ص٩٩/١.
(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٦٠):ص٩٩/١.
(١١) تفسير الراغب الأصفهاني: ١٧١/١.
(١) أخرجه مسلم ٧١٨، كتاب الطهارة، باب ١: فضل الوضوء، حديث رقم ٥٣٤ [١] ٢٢٣.
(٢) أخرجه أحمد ١٤٤/٤، ١٤٨؛ وأخرجه أبو داود ص١٤٠٩، كتاب الجهاد، باب ٢٣: في الرمي، حديث رقم ٢٥١٣؛ وأخرجه الترمذي ص١٨٢٠، كتاب فضائل الجهاد، باب ١١: ما جاء في فضل الرمي في سبيل الله، حديث رقم ١٦٣٧؛ وأخرجه النسائي ص٢٣٢٤، كتاب الخيل، باب ٨؛ تأديب الرجل فرسه، حديث رقم ٣٦٠٨؛ وأخرجه الحاكم في مستدركه ٩٥/٢، كتاب الجهاد، ومدار إسناد بعضها على خالد بن زيد، قال الحافظ في التقريب: مقبول، وصحح الحاكم حديثه في

٣. ومن فوائد الآية: تحريم كتمان الحق؛ لقوله تعالى: { وتكتموا }؛ ولكن هل يقال: إن الكتمان لا يكون إلا بعد طلب؟

الجواب: نعم، لكن الطلب نوعان: طلب بلسان المقال؛ وطلب بلسان الحال؛ فإذا جاءك شخص يقول: ما تقول في كذا، وكذا: فهذا طلب بلسان المقال؛ وإذا رأيت الناس قد انغمسوا في محرم: فبيانه مطلوب بلسان الحال؛ وعلى هذا فيجب على الإنسان أن يبين المنكر، ولا ينتظر حتى يُسأل؛ وإذا سئل ولم يُجب لكونه لا يعلم فلا إثم عليه؛ بل هذا هو الواجب؛ لقوله تعالى: {ولا تقف ما ليس لك به علم} [الإسراء: ٢٣] . هذه واحدة .

ثانياً: إذا رأى من المصلحة ألا يبين فلا بأس أن يكتم كما جاء في حديث علي بن أبي طالب: "حدثوا الناس بما يعرفون؛ أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟!"[٣] ؛ وقال ابن مسعود: "إنك لن تحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة"[٤] ؛ فإذا رأيت من المصلحة ألا تبين فلا تبين ولا لوم عليك.

ثالثاً: إذا كان قصد السائل الامتحان، أو قصده تتبع الرخص، أو ضرب أقوال العلماء بعضها ببعض . وأنت تعلم هذا .: فلك أن تمتنع؛ الامتحان أن يأتي إليك، وتعرف أن الرجل يعرف المسألة، لكن سألك لأجل أن يمتحنك: هل أنت تعرفها، أو لا؛ أو يريد أن يأخذ منك كلاماً ليشي به إلى أحد، وينقله إلى أحد: فلك أن تمتنع؛ كذلك إذا علمت أن الرجل يتتبع الرخص ، فيأتي يسألك يقول: سألت فلاناً، وقال: هذا حرام . وأنت تعرف أن المسؤول رجل عالم ليس جاهلاً: فحينئذٍ لك أن تمتنع عن إفتائه؛ أما إذا كان المسؤول رجلاً تعرف أنه ليس عنده علم . إما من عامة الناس، أو من طلبة العلم الذين لم يبلغوا أن يكونوا من أهل الفتوى: فحينئذ يجب عليك أن تفتيه؛ لأنه لا حرمة لفتوى من أفتاه؛ أما لو قال لك: أنا سألت فلاناً، ولكني كنت أطلبك، ولم أجدك، وللضرورة سألت فلاناً؛ لكن لما جاء الله بك الآن أفتني: فحينئذ يجب عليك أن تفتيه؛ لأن حال هذا الرجل كأنه يقول: أنا لا أطمئن إلا لفتواك؛ وخلاصة القول أنه لا يجب عليك الإفتاء إلا إذا كان المستفتي مسترشداً؛ لأن كتمان الحق لا يتحقق إلا بعد الطلب بلسان الحال، أو بلسان المقال.

القرآن

{وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣)} [البقرة : ٤٣]

التفسير:

وادخلوا في دين الإسلام: بأن تقيموا الصلاة على الوجه الصحيح، كما جاء بها نبي الله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وتؤدوا الزكاة المفروضة على الوجه المشروع، وتصلوا مع المصلين من أمته صلى الله عليه وسلم.

سبب النزول:

قال الطبري: "ذُكِر أن أحبارَ اليهود والمنافقين كانوا يأمرون الناس بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ولا يفعلونه، فأمرهم الله بإقام الصلاة مع المسلمين المصدِّقين بمحمد وبما جاء به، وإيتاء زكاة أموالهم معهم، وأن يخضعوا لله ولرسوله كما خضعوا"[١].

وأخرج الطبري عن قتادة، في قوله : {وأقيموا الصلاةَ وآتُوا الزكاة}، قال : فريضتان واجبتان ، فأدُّوهما إلى الله"[٢].

قوله تعالى:{وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ}[البقرة:٤٣]، "أي ائتوا بها مستقيمة بشروطها، وأركانها، وواجباتها، ومكملاتها"[٣].

قال مقاتل بن حيان: "قوله لأهل الكتاب {أقيموا الصلاة}، أمرهم أن يصلوا مع النبي- صلى الله عليه وسلم"[١]. وكذا فسّره ابن كثير [٢].

المستدرك (٩٥/٢) ووافقه الذهبي، وقال: صحيح، ومدار بعضها على عبد الله بن زيد الأزرق، قال شعيب الأرناؤوط في تحرير التقريب ٢٤٤/٢: مجهول لم يرو عنه إلا أبو سلام.

(٣) سبق تخريجه ص١٨، حاشية رقم ١.

(٤) سبق تخريجه ص١٨، حاشية رقم ٢.

(١) تفسير الطبري: ٥٧٢/١.

(٢) تفسير الطبري(٨٣٩): ٥٧٢/١.

(٣) تفسير ابن عثيمين: ١٥٦/١.

قال الثعلبي:" أي:"وحافظوا على الصلوات الخمس بمواقيتها [وأركانها] وركوعها وسجودها"[٣].
قال ابن عطية:" معناه: أظهروا هيئتها وأديموها بشروطها"[٤].
قال الزمخشري:" يعنى صلاة المسلمين. لأنّ اليهود لا ركوع في صلاتهم"[٥].
قال ابن عثيمين:" وهذا كما أمر الله تعالى به بني إسرائيل، أمر به هذه الأمة، و {الصلاة} هنا تشمل الفريضة، والنافلة"[٦].

وأخرج ابن أبي حاتم "عن الحسن في قوله:{وأقيموا الصلاة}، قال: فريضة واجبة لا تنفع الأعمال إلا بها وبالزكاة"[٧]. وروي عن عطاء بن أبي رباح وقتادة نحو ذلك[٨].

وقال الزهري: "إقامتها أن تصلي الصلوات الخمس لوقتها"[٩].

و(إقامة الصلاة): "أداؤها - بحدودها وفروضها والواجب فيها - على ما فُرِضَتْ عليه، كما يقال: أقام القومُ سُوقَهم، إذا لم يُعَطِّلوها من البَيع والشراء فيها"[١٠]، وكما قال الشاعر[١١]:

أَقَمْنَا لأَهْلِ الْعِرَاقَيْنِ سُوقَ الـ ... ـضِّرَاب فَخَامُوا وَوَلَّوْا جَمِيعَا

قوله تعالى: {وَآتُوا الزَّكَاةَ} [البقرة : ٤٣]، "يعني: وأدّوا زكاة أموالكم المفروضة"[١٢].
قال الطبري:" وإيتاءُ الزكاة، هو أداء الصدقة المفروضة"[١٣].
قال ابن عثميمين:" أي: أعطوا الزكاة"[١٤].
قال مقاتل بن حيان:" قوله لأهل الكتاب: {وآتوا الزكاة}، أمرهم أن يؤتوا الزكاة، يدفعونها إلى النبي صلى الله عليه وسلم"[١٥]. وكذا فسّره ابن كثير[١٦].

وتعددت أقوال أهل التفسير في قوله تعالى{وَآتُوا الزَّكَاةَ} [البقرة : ٤٣]، على ثلاثة أوجه:
أحدها: أن المراد: هو أداء الصدقة المفروضة. وهذا قول الأكثرين، وهو الصحيح.
والثاني: وقيل: أن المراد: صدقة الفطر. قاله الحارث العكلي[١٧].
والثالث: أن المراد بـ"الزكاة طاعة لله والإخلاص". قاله ابن عباس[١٨].

والراجح- والله أعلم- هو القول الأول، وأما الوجهان الآخران، فلا يخفى ما فيهما من التكلف، مع تسليمنا بصدق ما يتضمنه من معان نفيسة. والله أعلم.

واختلف في أصل (الزّكاة) على ثلاثة أقوال:
أحدها: أنها مأخوذة من: زكا الشيء، إذا نما وزاد، قال الراغب: أصل الزكاة: النمو الحاصل عن بركة الله تعالى[١٩].

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم(٤٦٣):ص١/٩٩.
(٢) أنظر: تفسيره: ١/١/٢٤٥.
(٣) تفسير الثعلبي: ١/١٨٨.
(٤) المحرر الوجيز: ١/١٣٦.
(٥) الكشاف: ١/١٣٣.
(٦) تفسير ابن عثيمين: ١/١٥٦.
(٧) تفسير ابن أبي حاتم(٤٦١):ص١/٩٩.
(٨) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم:ص١/٩٩.
(٩) تفسير ابن أبي حاتم(٤٦٢):ص١/٩٩.
(١٠) تفسير الطبري: ١/٢٤١.
(١١) البيت ذكره الطبري ولم أتعرف على قائله. انظر: تفسير الطبري: ١/٢٤١.
(١٢) تفسير الثعلبي: ١/١٨٨.
(١٣) تفسير الطبري: ١/٥٧٢.
(١٤) تفسير ابن عثيمين: ١/١٥٦.
(١٥) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٦٩):ص١/١٠٠.
(١٦) أنظر: تفسيره: ١/١/٢٤٥.
(١٧) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٤٦٨):ص١/١٠٠.
(١٨) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٤٦٤):ص١/١٠٠.
(١٩) المفردات في غريب القرآن ص: ٢١٣ والمعجم الوسيط ص: ٣٩٨.

قال ابن عطية: "وسمي الإخراج من المال زكاة وهو نقص منه، من حيث ينمو بالبركة أو بالأجر الذي يثيب الله به المزكي"[١].

الثاني: أن (الزَّكَاةَ) مأخوذة من التطهير، كما يقال زكا فلان أي طهر من دنس الجرحة أو الاغفال[٢].

قال ابن عطية: فكأن الخارج من المال يطهره من تبعة الحق الذي جعل الله فيه للمساكين، ألا ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم سمى في الموطأ ما يخرج في الزكاة أوساخ الناس[٣]"[٤].

واختار الطبري هذا الوجه، قائلا:" وقد يحتمل أن تكون سُمِّيت زكاة ، لأنها تطهيرٌ لما بقي من مال الرجل ، وتخليص له من أن تكون فيه مَظْلمة لأهل السُّهْمان[٥]، كما قال جل ثناؤه مخبرًا عن نبيه موسى صلوات الله عليه : {أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً} [سورة الكهف : ٧٤] ، يعني بريئة من الذنوب طاهرة. وكما يقال للرجل : هو عدل زَكِيٌّ - لذلك المعنى، وهذا الوجه أعجب إليّ - في تأويل زكاة المال - من الوجه الأوّل ، وإن كان الأوّل مقبولا في تأويلها"[٦].

وقال ابن الأثير: وأصل الزكاة في اللغة: الطهارة والنماء والبركة والمدح فالزكاة طهرة للأموال وزكاة الفطر طهرة للأبدان[٧].

قلت: وكل ذلك صحيح في معنى التسمية فهي تزكي وتنمي المعطي والمعطى والمال الذي أخرجت منه.

والثالث: وقيل زكا الفَرْدُ، إذا صارَ زَوْجًا، بزيادة الزائد عليه حتى صار به شفْعًا.

قال الواحدي: "والعرب تقول للفرد: خسا، وللزوجين اثنين: زكا، قيل لهما: زكا، لأن الاثنين أكثر من الواحد"[٨]، ثم استشهد بقول الشاعر[٩]:

إذا نَحْنُ في تِعْدَادِ خَصْلِكَ لَمْ نَقُلْ   خَسًا وَزَكا أعْيَيْن مِنَّا المُعَدِّدَا

ومنه قول الشاعر[١٠]:

كَانُوا خَسًا أو زَكًا مِنْ دُون أَرْبَعَةٍ ... لَمْ يُخْلَقُوا، وَجُدُودُ النَّاس تَعْتَلِجُ

وقال آخر[١١] :

(١) المحرر الوجيز: ١٣٦/١.

(٢) انظر: تهذيب اللغة (زكا) ٢/ ١٥٤٢، واللسان:(زكا) ٣/ ١٨٤٩، والمصباح ج١ ص: ٢٧٢ والمختار من صحاح اللغة ص ٢١٨ والمطلع على أبواب المقنع ص: ٢٢٢ والروض المربع ج ١ ص: ١٠٧ والمجموع شرح المهذب ج٥ ص: ٢٩١، والمحرر الوجيز: ١٣٦/١.

(٣) رواه مسلم(١٠٧٢)، ولفظه:""إن الصدقة لا تنبغي لآل محمد، إنما هي أوساخ الناس".

وإنما كانت الزكاة أوساخ الناس؛ لأن الناس يتطهرون بإخراجها، كما قال الله تعالى: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ} [التوبة: ١٠٣]، وليس لها علاقة بمستحقي الزكاة، بل هي مال طيب حلال بالنسبة لهم، لكن إخراجها تطييب وتطهير لما يمكن أن يشوب صاحبها أو عمله أو ماله من سوء، فلذلك منع منها النبي صلى الله عليه وسلم آل محمد، لكن ليس هذا فيه إزراء بالناس، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء، يمنع آل النبي صلى الله عليه وسلم من أخذها صيانة لهم عن أن يقبلوا ما تطهر به الناس، وهذه مرتبة عليا، لكن هذا لا يعني أن من يأخذ الزكاة بحق فهو ناقص، فقد جعل الله من مصارف الزكاة الجهاد في سبيل الله، وهو من أفضل الأعمال، ومن مصارفها الغارم للإصلاح بين الناس ولو كان غنيًّا، وهو من خير الأعمال، قال الله تعالى: {لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا}، والمقصود أنه ليس صحيحًا أن إعطاء الزكاة لمن يستحقها تنقص له، ومن فهم بهذا المعنى فإنه لم يفهم مراد النبي صلى الله عليه وسلم، والله أعلم.

(٤) المحرر الوجيز: ١٣٦/١.

(٥)السهمان جمع سهم ، كالسهام : وهو النصيب والحظ .

(٦) تفسير الطبري: ٥٧٤/١.

(٧) النهاية في غريب الحديث ج ٢ ص: ٣٠٧.

(٨) التفسير البسيط: ٤٤٥/١-٤٤٦.

(٩) البيت في "الزاهر" ٢/ ١٨٧، وفي شعر الكميت جمع دواد سلوم ١/ ١٦٢، وفيه: (إذا نحن في تكرار وصفك ...).

(١٠)اللسان (خسا) ، وفيه : " الفراء : العرب تقول للزوج زكا ، وللفرد خسا . . . قال ، وأنشدتني الدبيرية . . . " وأنشد البيت . وتعتلج : تصطرع ويمارس بعضها بعضا .

(١١) الرجل من بني سعد، ثم أحد بني الحارث في عمرو بن كعب بن سعد، وهذا الرجز في خبر للأغلب العجلي، (طبقات فحول الشعراء : ٥٧٢ / ومعجم الشعراء : ٤٩٠ / والأغاني ١٨ : ١٦٤) ورواية الطبقات والأغاني : " كما شرار الرعى " .

فَلا خَسًا عَدِيدُهُ وَلا زَكا ... كَمَا شِرَارُ البَقْلِ أَطْرَافُ السَّفَا

و"السفا": شوك البُهْمَى، والبُهْمى الذي يكون مُدَوَّرًا في السُّلاء، ويعني بقوله:(ولا زكا)، لم يُصَيِّرْهم شَفعًا من وَترٍ، بحدوثه فيهم[1].

قال الواحدي: "والأظهر أن أصلها من الزيادة"[2]، ثم استشهد بقول النابغة[3]:

وَمَا أَخَّرْتَ مِنْ دُنْيَاكَ نَقْصٌ وَإِن قَدَّمْتَ عَادَ لَكَ الزَّكَاءُ

أراد بالزكاء: الزيادة[4].

والزكاة شرعًا: حق واجب في مال مخصوص لطائفة مخصوصة في وقت مخصوص[5].

قوله تعالى: {وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ}[البقرة:٤٣]، " أي صلوا مع المصلين"[6].

روي عن مجاهد في قوله تعالى:{واركعوا}، قال: "صلوا"[7].

وقال مقاتل بن حيان:" أمرهم أن يركعوا مع الراكعين، مع أمة محمد يقول: كونوا منهم ومعهم"[8].

قال الثعلبي:"يعني وصلّوا مع المصلين محمّد وأصحابه"[9].

قال البيضاوي: " أي في جماعتهم، فإن صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة لما فيها من تظاهر النفوس"[10].

قال ابن عطية:" وقالت فرقة: إنما قال {مَعَ}، لأن الأمر بالصلاة أولا لم يقتض شهود الجماعة، فأمرهم بقوله {مَعَ}، بشهود الجماعة"[11].

قال الواحدي: " عبّر بالركوع عن جميع الصلاة، إذ كان ركناً من أركانها، كما عبر باليد عن الجسد في قوله {ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ} [الحج: ١٠]" [12].

وذكر أهل العلم في أصل(الركوع) قولين[13]:

أحدهما: أنه مأخوذ من المذلّة والخضوع ، وهو قول الأصمعي والمفضل، قال الأضبطُ بنُ قريع السَّعْدِيُّ[14]:

لاَ تُذِلَّ الضَّعِيفَ عَلَّكَ أَنْ تَرْ ... كَعَ يَوْماً وَالدَّهْرُ قَدْ رَفَعَهْ

و(الرُّكوع): هو الخضوع لله بالطاعة، يقال منه: ركع فلانٌ لكذا وكذا، إذا خضع له[15]، ومنه قول الشاعر[16]:

والرعى (بكسر فسكون) : الكلأ نفسه ، والمرعى أيضًا . والسفا : شوط البهمي والسنبل وكل شيء له شوك . يقول : أنت في قومك كالسفا في البهمي ، هو شرها وأخبثها . والبيت الأول زيادة ليست في المراجع المذكورة .

(١) انظر: تفسير الطبري: ٥٧٣/١.

(٢) التفسير البسيط: ٤٤٥/٢.

(٣)ورد البيت في "الزاهر" ٢/ ١٨٧، "شمس العلوم" ٢/ ٢٢٣.

(٤)أنظر: التفسير البسيط: ٤٤٥/٢.

(٥) الإقناع في فقه الإمام ابن حنبل ج ١ ص: ٢٤٢.

(٦) تفسير ابن عثيمين:١٥٦/١. قال ابن عثيمين: " وإنما قلنا ذلك، لأنه لا يُتعبد لله بركوع مجرد".

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٧٠):ص١٠٠/١.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٧١):ص١٠٠/١.

(٩) تفسير الثعلبي: ١٨٨/١.

(١٠) تفسير البيضاوي: ٧٧/١.

(١١) المحرر الوجيز: ١٣٦/١.

(١٢) التفسير البسيط: ٤٤٧/٢،و ذكره الثعلبي في "تفسيره" ١/ ٦٨، انظر: "تفسير أبي الليث" ١/ ١١٥، و"ابن عطية" ١/ ٢٧٤، و"البغوي" ١/ ٨٨، "زاد المسير" ١/ ٧٥، و"القرطبي" ١/ ٢٩٣.

(١٣) انظر: النكت والعيون: ١١٤/١، وتفسير الطبري: ٥٧٤/١.

(١٤) البيت من شواهد البيضاوي في تفسيره: ٧٧/١، والماوردي: ١١٤/١.

(١٥) انظر: تفسير الطبري: ٥٧٤/١.

(١٦)هذا البيت من أبيات لعصام بن عبيد الزماني (من بني زمان بن مالك بن صعب بن علي بن بكر بن وائل) رواها أبو تمام في الوحشيات رقم ١٣٠، ورواها الجاحظ في الحيوان ٤ : ٢٨١ ، وجاء فيه : " قال الزيادي " وهو تحريف وتصحيف كما ترى . وهذه الأبيات من مناقضة كانت بين الزماني ويحيى بن أبي حفصة . وذلك أن يحيى تزوج بنت طلبة بن قيس بن عاصم المنقري فهاجاه عصام الزماني وقال:

أَرَى حَجْرًا تغيَّر واقشعرَّا وبُدِّل بعد حُلْو العيش مُرَّا

بيعَتْ بِكَسْرٍ لَئِيمٍ وَاسْتَغَاثَ بِهَا ... مِنَ الْهُزَالِ أَبُوهَا بَعْدَ مَا رَكَعَا

قوله:"بعد ما ركعا"، أي: بعد مَا خضَع من شِدَّة الجهْد والحاجة.

الثاني: أنه مأخوذ من التطامن والانحناء ، وهو قول الخليل ، وابن زيدٍ.

فقال أهل اللغة: "وكل شيء ينكب لوجهه وتمس ركبته الأرض أو لا تمسها بعد أن يخفض رأسه فهو راكع، ويقال للشيخ إذا انحنى من الكبر: قد ركع، قال لبيد[1]:

أُخَبِّرُ أَخْبَارَ القُرُونِ الَتِي مَضَتْ أَدِبُّ كَأَنِي كُلَّمَا قُمْتُ رَاكِعُ

فالراكع: المنحني في قول لبيد، وقال آخر[2]:

وَلَكِنِّي أَنُصُّ العِيَسَ تَدمَى ... أَظلتها وَتَرْكَعُ بِالْحُزُونِ

أي تنكب لوجوهها"[3].

وقد ذكر أهل التفسير في قوله تعالى {وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ}[البقرة:٤٣]، وجهين[4]:

أحدهما : أنه أراد جملة الصلاة ، فعبر عنها بالركوع ، كما يقول الإنسان : فَرَغْتُ من ركوعي ، أي من صلاتي .

والثاني : أنه أراد الركوع الذي في الصلاة ، لأنه لم يكن في صلاة أهل الكتاب ركوعٌ [5]. فأَمَرَهُم بما لا يفعلونه في صلاتهم .

وأجمَعوا على أن الركوع والسجود في الصلاة فرضان[6]، قال ابن المنذر: "وأجمَعوا على أن القادر لا تُجزئه الصلاة إلا أن يركع أو يسجد"[7].

الفوائد:

١. من فوائد الآية: أن الصلاة واجبة على الأمم السابقة، وأن فيها ركوعاً كما أن في الصلاة التي في شريعتنا ركوعاً؛ وقد دلّ على ذلك أيضاً قول الله تعالى لمريم: {يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين} [آل عمران: ٤٣] ؛ فعلى الأمم السابقة صلاة فيها ركوع، وسجود.

فأجابه يحيى بأبيات منها :

ألا مَنْ مُبلغٌ عنِّى عِصَامًا بأنّي سَوْفَ أَنْقُضُ مَا أَمرَّا

هكذا روى المرزباني في معجم الشعراء : ٢٧٠ ، وروى أبو الفرج في أغانيه ١٠ : ٧٥ أن يحيى خطب إلى مقاتل بن طلبة المنقري ابنته وأختيه ، فأنعم له بذلك . فبعث يحيى إلى بنيه سليمان وعمر وجميل ، فأتوه فزوجهن بنيه الثلاثة ، ودخلوا بهن ثم حملوهن إلى حجر ، (وهو مكان) .

وأبيات عصام الزماني ، ونقيضتها التي ناقضه بها يحيى ، من جيد الشعر ، فاقرأها في الوحشيات ، والحيوان ، والشعر والشعراء : ٧٤٠ ، ورواية الحيوان والوحشيات " بِيعَتْ بِوَكْسٍ قَليلٍ واسْتَقَلَّ بِهَا "

الوكس : اتضاع الثمن في البيع . وفي المخطوطة والمطبوعة " بكسر لئيم " ، وهو تحريف لا معنى له ، وأظن الصواب ما أثبت اجتهادًا . والكسر : أخس القليل . وقوله : " بيعت " الضمير لابنة مقاتل بن طلبة المنقري التي تزوجها يحيى أو أحد بنيه .

يقول : باعها أبوها بثمن بخس دنئ خسيس ، فزوجها مستغيثًا ببيعها مما نزل به من الجهد والفاقة ، فزوجها هذا الغنى اللئيم الدنيء ، ليستعين بمهرها .

(١) انظر: البيت في : الزاهر:١/ ١٤٠، وتهذيب اللغة:(ركع) ١/ ١٤٦٢، وتفسير الثعلبي: ١/ ٦٨ ب، "المجمل" (ركع) ٢/ ٣٩٧، "مقاييس اللغة" ٢/ ٤٣٥، و"تفسير ابن عطية" ١/ ٢٧٥، و"القرطبي" ١/ ٢٩٣، "ديوان لبيد" مع شرحه ص ١٧١.

(٢)البيت للطرماح، ويروى:

وَلَكِنيِّ أَسِيرُ العَنْسَ يَدْمَى ... أَظَلاَّهَا ....

العيس: الإبل، الأظل: باطن مَنْسم الناقة والبعير، ويدمى أظلاها من شدة السير، الحزون: جمع حزن، ما غلظ من الأرض في ارتفاع وخشونة، فهي تعثر وتقع في الحزون: فقال: تركع على التشبيه، انظر: "العين" ١/ ٢٢٧، "الأضداد" لابن الأنباري ص ٢٩٦، "ديوان الطرماح" ص ٥٣٢.[حاشية التفسير البسيط:٤٤٧/٢].

(٣) التفسير البسيط: ٤٤٧/٢، وانظر: تهذيب اللغة:(ركع) ١/ ١٤٦٢، والزاهر:١/ ١٤٠، ومقاييس اللغة:(ركع) ٢/ ٤٣٤، واللسان:(ركع) ٣/ ١٧١٩.

(٤) انظر: المحرر الوجيز: ١٣٦/١، والنكت والعيون: ١١٣/١-١١٤.

(٥) الكشاف: ١٣٣/١.

(٦) انظر: اختلاف الأئمة العلماء؛ لابن هبيرة:١/ ١١٤.

(٧) الإجماع : ٤٢.

٢. ومنها: أن الأمم السابقة عليهم زكاة؛ لأنه لابد من الامتحان بالزكاة؛ فإن من الناس من يكون بخيلاً . بذل الدرهم عليه أشد من شيء كثير .؛ فيُمتحَن العباد بإيتاء الزكاة، وبذلِ شيء من أموالهم حتى يُعلم بذلك حقيقة إيمانهم؛ ولهذا سميت الزكاة صدقة؛ لأنها تدل على صدق إيمان صاحبها.
٣. ومنها: الإجمال في موضع، وتبيينه في موضع آخر؛ لقوله تعالى: (وآتوا الزكاة) ولم يبين مقدار الواجب، ولا من يدفع إليه، ولا الأموال التي فيها الزكاة؛ لكن هذه الأشياء مبينة في موضع آخر؛ إذ لا يتم الامتثال إلا ببيانها.
٤. ومنها: جواز التعبير عن الكل بالبعض إذا كان هذا البعض من مباني الكل التي لا يتم إلا بها؛ لقوله تعالى: {واركعوا مع الراكعين}.
٥. ومنها: وجوب صلاة الجماعة؛ لقوله تعالى: { واركعوا مع الراكعين }؛ هكذا استدل بها بعض العلماء؛ ولكن في هذا الاستدلال شيء؛ لأنه لا يلزم من المعية المصاحبة في الفعل؛ ولهذا قيل لمريم: {اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين} : والنساء ليس عليهن جماعة؛ إذاً لا نسلم أن هذه الآية تدل على وجوب صلاة الجماعة؛ ولكن . الحمد لله . وجوب صلاة الجماعة ثابت بأدلة أخرى ظاهرة من الكتاب، والسنة، وأقوال الصحابة رضي الله عنهم.

القرآن
{أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٤٤)} [البقرة : ٤٤]
التفسير:
كيف يليق بكم يا معشر أهل الكتاب، وأنتم تأمرون الناس بالبر وهو جماع الخير، وتتركوا أنفسكم فلا تأتمروا بما تأمرون الناس به، وأنتم مع ذلك تتلون الكتاب وتعلمون ما فيه على من قصر في أوامر الله.
في سبب نزول الآية قولان[١]:
أحدهما: عن قتادة،أن الآية: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [البقرة : ٤٤]، نزلت في بني اسرائيل، إذ "كان بنو إسرائيل يأمرون الناس بطاعة الله وبتقواه وبالبر ويخالفون، فعيرهم الله[٢]. وروي عن ابن عباس[٣]، والسدي[٤]، وابن جريج[٥]، نحو ذلك.
والثاني: قال ابن زيد: " هؤلاء اليهود كان إذا جاء الرجل يسألهم ما ليس فيه حق ولا رشوة ولا شيء، أمروه بالحق. فقال الله لهم :{أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون}"[٦].
قوله تعالى: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ}[البقرة:٤٤]، أي: " أتأمرون الناس بطاعة الله"[٧].
قال الثعلبي: البر: "الطاعة والعمل الصالح"[٨].
قال ابن عطية:البر:" يجمع وجوه الخير والطاعات ويقع على كل واحد منها اسم بر"[٩].
قال السعدي: البر:" أي: بالإيمان والخير"[١٠].
قال أبو حيان:" الهمزة : للاستفهام وضعاً ، وشابها هنا التوبيخ والتقريع لأن المعنى : الإنكار ، وعليهم توبيخهم على أن يأمر الشخص بخير ، ويترك نفسه ونظيره في النهي ، قول أبي الأسود [١١]:

(١) انظر:أسباب النزول للواحدي: ٢٤، ذكر رواية ابن عباس فقط، وانظر: اللباب:١٩، والدر المنثور: ١/ ١٥٦، والعجاب في بيان الأسباب: ٢٥٢/١-٢٥٣، وتفسير الطبري: ٨/٢.
(٢) انظر: تفسير الطبري(٨٤٣): ٨/٢.
(٣) انظر: تفسير الطبري(٨٤٠)، و(٨٤١):ص ٧/٢.
(٤) انظر: تفسير الطبري(٨٤٢):ص ٨/٢.
(٥) انظر: تفسير الطبري(٨٤٤):ص ٨/٢.
(٦) انظر: تفسير الطبري(٨٤٥): ٨/٢.
(٧) انظر: تفسير الطبري: ٩/٢.
(٨) تفسير الثعلبي: ١٨٨/١.
(٩) المحرر الوجيز: ١٣٦/١.
(١٠) تفسير السعدي: ٥١.
(١١)هذا من الأبيات التي رويت في عدة قصائد . كما قال صاحب الخزانة ٣ : ٦١٧ . نسبه سيبويه ١ : ٤٢٤ للأخطل ، وهو في قصيدة للمتوكل الليثي ، ونسب لسابق البربري ، وللطرماح ، ولأبي الأسود الدؤلي قصيدة ساقها صاحب الخزانة (٣ :

لا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِيَ مِثْلَهُ   عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ

وقول الآخر[١] :

وابدأ بِنَفسِكَ فانَهها عَن غِيِّها ... فَإِن انتَهَت عَنهُ فَأَنتَ حَكيمُ

فيقبح في العقول أن يأمر الإنسان بخير وهو لا يأتيه ، وأن ينهى عن سوء وهو يفعله"[٢].

قوله تعالى: {وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ} [البقرة : ٤٤]، أي: "وتتركون أنفسكم"[٣].

قال ابن عباس:" أي: تتركون أنفسكم"[٤].

قال ابن عطية: "بمعنى تتركون، كما قال الله تعالى: نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ [التوبة: ٦٧] "[٥].

قال البيضاوي:أي: "وتتركونها من البر كالمنسيات"[٦].

قال الطبري:" وتتركون أنفسكم تعصيه ؟. ومعنى " نسيانهم أنفسهم " في هذا الموضع نظير النسيان الذي قال جل ثناؤه : {نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ} [التوبة : ٦٧]، بمعنى : تركوا طاعة الله فتركهم الله من ثوابه"[٧].

قال السعدي:" أي: تتركونها عن أمرها بذلك"[٨]. أي الإيمان والخير.

واختلف أهل التفسير في معنى (البر) في هه الآية على ثلاثة أقوال[٩]:

أحدها: أن(البرِّ)، هو عهد الله إلى بني اسرائيل في تصديق الرسول محمد -صلى الله عليه وسلم- والدخول في الإسلام. إذ كان أهل الكتاب يأمرون الناس بالتمسك بكتاب ربهم، ويتركونه بجحود ما فيه من نبوَّة محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-، وهو قول ابن عباس[١٠]-رضي الله عنه-.

والثاني:أن (البرِّ)، هو طاعة الله وتقواه، إذ كان بنو إسرائيل يأمرون الناس بطاعة الله وبتقواه وبالبر والصوم والصلاة، وهم يعصونه. والسدي[١١]، وقتادة[١٢]، وابن جريج[١٣].

والعرب قد يعبر بالبر عن الطاعة ، قال الشاعِرُ :

لاهُمَّ إِنَّ آلَ بَكْرٍ دُونَكَا ... يَبِرُّكَ النَّاسُ وَيَفْجُرُونَكَا

أي يُطِيعونك .

والثالث:أن(البرِّ)، هو الأمر بالحق لدى اليهود، إذ كان هؤلاء اليهود إذا جاء الرجل يسألهم ما ليس فيه حق ولا رشوة ولا شيء، أمروه بالحق، فنزلت الآية. روي ذلك عن ابن زيد[١٤].

قلت: وجميع هذه الأقوال صحيحة، وإن اختلف أهل التفسير في صفة (البر) الذي كان القوم يأمرون به غيرهم، لكنه لا خلاف بينهم على أن اليهود كانوا يأمرون الناس بما لله فيه رضا من القول أو العمل، "وهم لا يفعلونه"[١٥].

وتجدر الإشارة بأن كلمة (البر) وردت في القرآن على وجوه[١]:

---

٦١٨) ، وليست في ديوانه الذي نشره الأستاذ محمد حسن آل ياسين في (نفائس المخطوطات) طبع مطبعة المعارف ببغداد سنة ١٣٧٣ه (١٩٥٤م) ، وهذا الديوان من نسخة بخط أبي الفتح عثمان بن جنى . ولم يلحقها الأستاذ الناشر بأشتات شعر أبي الأسود التي جمعها .

(١) منسوب الى أبي الأسود الدؤلي، انظر: الخزانة: ٦١٨/٣.

(٢) البحر المحيط: ١٥٣/١.

(٣) فتح القدير: ٧٧/١.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٧٩): ١٠٢/١.

(٥) المحرر الوجيز: ١٣٦/١.

(٦) تفسير البيضاوي: ٧٧/١.

(٧) تفسير الطبري: ٩/٢.

(٨) تفسير السعدي: ٥١.

(٩) تفسير الطبري: ٨/٢ ومابعدها.

(١٠) انظر: تفسير الطبري(٨٤٠)، و(٨٤١):ص ٧/٢.

(١١) انظر: تفسير الطبري(٨٨٤٢٤٣):ص ٨/٢.

(١٢) انظر: تفسير الطبري(٨٤٣): ٨/٢.

(١٣) انظر: تفسير الطبري(٨٤٤):ص ٨/٢.

(١٤) انظر: تفسير الطبري(٨٤٥): ٨/٢.

(١٥) تفسير ابن كثير: ٢٤٧/١.

أحدها: (البَرّ)- بالفتح – خلاف البحر، قال تعالى: {وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا} [المائدة : ٩٦]، {وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} [الأنعام : ٥٩]، {قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} [الأنعام : ٦٣]، {هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} [يونس : ٢٢]، {وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا} [الإسراء : ٦٧]، {أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا} [الإسراء : ٦٨]، {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} [الإسراء : ٧٠]، {أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} [النمل : ٦٣]، {فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ} [العنكبوت : ٦٥]، {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الروم : ٤١]، {فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ} [لقمان : ٣٢].

والثاني: (البِرّ) – بالكسر – الإحسان – ويظهر فيه التوسع في فعل الخير، وينسب ذلك إلى الله تعالى تارة نحو: {إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ} [الطور : ٢٨]، وإلى العبد تارة، فيقال: بر العبد ربه، أي: توسع في طاعته، فمن الله تعالى الثواب، ومن العبد الطاعة، والبر في الصدق، لكونه بعض الخير المتوسع فيه، يقال: بر في قوله، وبر في يمينه، وقول الشاعر[2]:

أكون مكان البر منه ودونه وأجعل مالي دونه وأوامره

قيل: أردا به الفؤاد، وليس كذلك، بل أراد ما تقدم، أي: يحبني محبة البر.

ويقال: بر أباه فهو بار وبر مثل: صائف وصيف، وطائف وطيف، وعلى ذلك قوله تعالى: {وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا} [مريم : ٣٢]. وبر في يمينه فهو بار، وأبررته، وبرت يميني، وحج مبرور أي: مقبول، وجمع البار: أبرار وبررة، قال تعالى: {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ} [الانفطار : ١٣]، وقال: {كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ} [المطففين : ١٨]، وقال في صفة الملائكة: {كِرَامٍ بَرَرَةٍ} [عبس : ١٦]، فبررة خص بها الملائكة في القرآن من حيث إنه أبلغ من أبرار، فإنه جمع بر، وأبرار جمع بار، وبر أبلغ من بار، كما أن عدلا أبلغ من عادل[3].

والثالث:(البُرّ) – بالضم – الحب المعروف في الغذاء (القمح) لأنه أوسع ما يحتاج إليه في الغذاء، والبرير خص بثمر الأراك ونحوه، وقولهم: لا يعرف الهر من البر (انظر مجمع الأمثال ٢٦٩/٢)، من هذا. وقيل: هما حكايتا الصوت. والصحيح أن معناه لا يعرف من يبره ومن يسيء إليه.

والرابع: (البَرُّ) – بالفتح – من أسماء الله تعالى، أي فاعل البر وهو المحسن، والبر الذي بصدد الحديث عنه هنا هو البِرّ : بكسر الباء – مصدر مأخوذ من (ب رر) وهو في الأصل اسم لما يحصل به للمبرور النفع كما يطلق البر على الصلاح، الخير، الإحسان، الصدق الطاعة، الصلة، التقوى، الجنة، صلة الأرحام، حسن الخلق.

وقد ذكر أهل التفسير أن (البر) في القرآن على ثلاثة أوجه:

أحدها: البر: الصلة قال تعالى: {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [الممتحنة : ٨].

والثاني: (البر) : الطاعة قال تعالى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [المائدة : ٢].

والثالث:(البر): التقوى قال تعالى: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [البقرة : ٤٤]

ومما جاء في بيان أوجه البر في السنة قوله صلى الله عليه وسلم:

---

(١) انظر: مفردات ألفاظ القرآن، الأصفهاني: ٦٤.

(٢) البيت لخداش بن زهير وهو بتمامه وهو في تاج العروس (بر) ؛ والمجمل ١١٢/١؛ واللسان (برر) ؛ وليس في شعره، وذكر جامع ديوانه بيتا له من نفس القافية والبحر؛ وهو في شمس العلوم ١٢٣/١)

(٣) انظر: الإتقان للسيوطي ٢٥٣/١؛ والبرهان للزركشي ١٨/٤.

- "البر : حسن الخلق"[١].
- "الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة"[٢] أي الذي لا يخالطه شيء من المآثم .
-"البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب"[٣].

وبهذا نعلم أن (البر) في اللغة يطلق على كل اسم جامع للخير .

وقد اختلف العلماء في تعريف البر الاصطلاحي اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد فمنهم من قال : البر: الصلاح، ومنهم من قال : البر: الخير، ومنهم من قال : البر : خير الدنيا والآخرة، ومنهم من قال : البر : سعة الإحسان والخير الكامل، لكن أجمع تعريف له من قال البر كلمة جامعة لكل أصناف الخير، فالبر في الاصطلاح : هو كل ما يتقرب به إلى الله تعالى من صالح الأعمال وفاضل الأخلاق[٤].

قوله تعالى: {وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ} [البقرة :٤٤]، أي وأنتم: "تقرؤون التوراة"[٥].

قال الواحدي:" أي: تقرؤون التوراة، وفيها صفة محمد -صلى الله عليه وسلم- ونعته"[٦].

قال البيضاوي:" أي تتلون التوراة، وفيها الوعيد على العناد وترك البر ومخالفة القول العمل[٧].

قال ابن عثيمين:" والجملة هنا حالية. أي والحال أنكم تتلون الكتاب.؛ فلم تأمروا بالبر إلا عن علم؛ ولكن مع ذلك {تنسون أنفسكم} أي تتركونها، فلا تأمرونها بالبر"[٨].

وذكروا في قوله تعالى: {وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ} [البقرة : ٤٤]، وجهين[٩]:

أحدهما:معناه:وأنتم تدرسون وتقرءون الكتاب وهو التوراة. قاله ابن عباس[١٠].

والثاني: ويحتمل أن يكون المعنى: وأنتم: تتبعون الكتاب، أي في الاقتداء به.

قال ابن عطية: والتوراة " تنهاهم عما هم عليه من هذه الصفة الذميمة"[١١].

قوله تعالى: {أَفَلَا تَعْقِلُونَ}[البقرة٤٤]، " يعني: أفلا يكون لكم عقول تدركون بها خطأكم، وضلالكم.؟!"[١٢].

قال ابن عباس:"يقول: أفلا تفهمون ؟ فنهاهم عن هذا الخلق القبيح"[١٣].

قال الثعلبي:"أي أفلا تمنعون أنفسكم من مواقعة هذه الحال المردية لكم"[١٤].

قال البيضاوي: {أفلا تعقلون}" قبحَ صنيعكم، فيصدكم عنه، أو أفلا عقل لكم يمنعكم عما تعلمون وخامة عاقبته"[١٥].

قال الزمخشري:"توبيخ عظيم بمعنى : أفلا تفطنون لقبح ما أقدمتم عليه حتى يصدكم استقباحه عن ارتكابه ، وكأنكم في ذلك مسلوبو العقول ، لأن العقول تأباه وتدفعه. ونحوه {أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [الأنبياء : ٦٧]"[١٦].

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة باب تفسير البر والإثم ، رقم ٢٥٥٣ .
(٢) أخرجه البخاري في أبواب العمرة باب وجوب العمرة وفضلها، ٦٢٩/٢، رقم ١٦٨٣، ومسلم في الحج، باب في فضل الحج والعمرة، ٩٨٣/٢ رقم ١٣٤٩.
(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٢٦٩/٥، والدارمي في سننه ٦٩٦/٢.
(٤) انظر: البر في القرآن وأثره في حياة المكلفين، ادريس حامد محمد علي، مجلة جامعة الملك سعود، م١٧، العلوم التربوية والدراسات الإسلامية (٢) ، ص : ٩٩٧-١٠٥٢.
(٥) تفسير ابن عثيمين:١٥٨/١.
(٦) التفسير الوسيط: ٤٤٩/٢.
(٧) تفسير البيضاوي: ٧٧/١.
(٨) تفسير ابن عثيمين:١٥٨/١.
(٩) انظر: المحرر الوجيز: ١٣٧/١.
(١٠) أنظر: تفسير الطبري(٨٤٧):ص٩/٢-١٠. ولفظه:" تدرسون الكتاب بذلك. ويعني بالكتاب : التوراة".
(١١) المحرر الوجيز: ١٣٧/١.
(١٢) تفسير ابن عثيمين: ١٥٨/١.
(١٣) أخرجه الطبري(٨٤٨):ص١٠/٢.
(١٤) تفسير الثعلبي: ١٨٨/١. وانظر: المحرر الوجيز: ١٣٧/١. نقل كلام الثعلبي.
(١٥) تفسير البيضاوي: ٧٧/١.
(١٦) الكشاف: ١٣٣/١.

روي عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه في قوله: {أفلا تعقلون}، :قال: "أفلا تتفكرون"(١).

قال ابن عطية:" والعقل: الإدراك المانع من الخطأ مأخوذ منه عقال البعير، أي يمنعه من التصرف، ومنه المعقل أي موضع الامتناع"(٢).

قال ابن عثيمين:" و "العقل" هنا عقل الرشد، وليس عقل الإدراك الذي يناط به التكليف؛ لأن العقل نوعان: عقل هو مناط التكليف. وهو إدراك الأشياء، وفهمها.؛ وهو الذي يتكلم عليه الفقهاء في العبادات، والمعاملات، وغيرها؛ وعقل الرشد. وهو أن يحسن الإنسان التصرف.؛ وسمي إحسان التصرف عقلاً؛ لأن الإنسان عَقَل تصرفه فيما ينفعه"(٢).

قال الراغب:" وقد اتبع الله ذمهم بحكمين حقق غيهم أحدهما ، قوله : {وانتم تتلون) أي : تتدبرون التوراة ، والثاني : قوله : (أفلا تعلقون) - تنبيهاً - أن الجامع للعقل ومتبع الكتاب ليس من حقه أن يأمر الغير بما لا يفعله ، فذلك منبئ عن الجهل"(٢).

والعَقْل :"يقال للقوّة المتهيّئة لقبول العلم، ويقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوّة عَقْلٌ. وإلى الأوّل أشار صلّى الله عليه وسلم بقوله: «ما خلق الله خلقا أكرم عليه من العقل»(٢)، وإلى الثاني أشار بقوله: «ما كسب أحد شيئا أفضل من عقل يهديه إلى هدى أو يردّه عن ردى» (٢)، وهذا العقل هو المعنيّ بقوله: وَما يَعْقِلُها إِلَّا الْعالِمُونَ[العنكبوت: ٤٣] ، وكلّ موضع ذمّ الله فيه الكفّار بعدم العقل فإشارة إلى الثاني دون الأوّل، نحو: وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ}[البقرة:١٧١]، إلى قوله: {صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ}[البقرة:١٧١]، ونحو ذلك من الآيات، وكلّ موضع رفع فيه التّكليف عن العبد لعدم العقل فإشارة إلى الأوّل. وأصل العَقْل: الإمساك والاستمساك"(٢).

والعقل أصله: المنع(٢)، وعقل الإنسان هو "تمييزه الذي به فارق جميع الحيوان، سمي عقلاً لأنه يعقله أي يمنعه عن التورط في الهلكة، كما يعقل العقال البعير عن ركوب رأسه، ومن هذا سميت الدية عقلاً لأنها إذا وصلت إلى ولي المقتول عقلته عن قتل الجاني، أي منعته"(٢).

وقال السعدي:" وهذه الآية، وإن كانت نزلت في سبب بني إسرائيل، فهي عامة لكل أحد لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ} وليس في الآية أن الإنسان إذا لم يقم بما أمر به أنه يترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، لأنها دلت على التوبيخ بالنسبة إلى الواجبين، وإلا فمن المعلوم أن على الإنسان واجبين: أمر غيره ونهيه، وأمر نفسه ونهيها، فترك أحدهما، لا يكون رخصة في ترك الآخر، فإن الكمال أن يقوم الإنسان بالواجبين، والنقص الكامل أن يتركهما، وأما قيامه بأحدهما دون الآخر، فليس في رتبة الأول، وهو دون الأخير، وأيضا فإن النفوس مجبولة على عدم الانقياد لمن يخالف قوله فعله، فاقتداؤهم بالأفعال أبلغ من اقتدائهم بالأقوال المجردة"(٢).

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٧٤):ص١٠١/١.

(٢)المحرر الوجيز: ١٣٧/١.

(٢) تفسير ابن عثيمين: ١٥٨/١.

(٢) تفسير الراغب الأصفهاني: ١٧٦/١.

(٢) الحديث عن أبي هريرة عن النبي قال: «إنّ الله لما خلق العقل قال له: أقبل: فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، فقال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقا أشرف منك، فبك آخذ وبك أعطي» .

قال ابن تيمية: إنه كذب موضوع باتفاق، وقال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: أخرجه الطبراني في الكبير والأوسط وأبو نعيم بإسنادين ضعيفين. انظر: الإحياء مع تخريجه ١/ ٨٣، وحلية الأولياء ٧/ ٣١٨، وكشف الخفاء ١/ ٢٣٦.

(٢) الحديث عن عمر قال: قال رسول الله: «ما اكتسب رجل مثل فضل عقل يهدي صاحبه إلى هدى، ويردّه عن ردى، وما تم إيمان عبد ولا استقام دينه حتى يكمل عقله» ا. هـ. قال العراقي: أخرجه ابن المحبّر في العقل، وعنه الحارث بن أبي أسامة. انظر: الإحياء ١/ ٨٣. قلت: داود بن المحبّر كذّاب، وقال ابن حجر: وأكثر (كتاب العقل) الذي صنّفه موضوعات. مات سنة ٢٠٦ هـ. انظر: تقريب التهذيب ص ٢٠٠.

(٢) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني: ٥٧٧-٥٧٨.

(٢) أنظر: مقاييس اللغة: ٦٩/٤.

(٢) التفسير البسيط: ٤٥٠/٢، وانظر: "تهذيب اللغة" (عقل) ١/ ٢٥٢٤، وانظر: "اللسان" (عقل) ٥/ ٣٠٤٧.

(٢) تفسير الراغب الأصفهاني: ١٧٦/١.

وقد روى أحمد وغيره عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " رأيت ليلة أسري بي رجالا تقرض شفاههم بمقاريض من نار قلت من هؤلاء يا جبريل ؟ قال هؤلاء خطباء من أمتك يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب "(١).

قال القرطبي: فقد دل الحديث الصحيح وألفاظ الآية على أن عقوبة من كان عالما بالمعروف وبالمنكر وبوجوب القيام بوظيفة كل واحد منهما أشد ممن لم يعلمه وإنما ذلك ؛ لأنه كالمستهين بحرمات الله تعالى ومستخف بأحكامه وهو ممن لا ينتفع بعلمه ; قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه "(٢)"(٣).

الفوائد:

١.من فوائد الآية: توبيخ هؤلاء الذين يأمرون بالبر، وينسون أنفسهم؛ لأن ذلك منافٍ للعقل؛ وقد ورد الوعيد الشديد على من كان هذا دأبه؛ فقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم "أنه يؤتى بالرجل فيلقى في النار فتندلق أقتابه" . و"الأقتاب" هي الأمعاء . "فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع إليه أهل النار، فيقولون: يا فلان، أليس كنت تأمرنا بالمعروف، وتنهانا عن المنكر، فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه"(٢) ؛ فهو من أشد الناس عذاباً . والعياذ بالله ..

فإن قال قائل: بناءً على أنه مخالف للعقل، وبناءً على شدة عقوبته أنقول لمن لا يفعل ما أَمَر به، ومن لا يترك ما نهى عنه: "لا تأمر، ولا تنهَ"؟

فالجواب: نقول: لا، بل مُرْ، وافعل ما تأمر به؛ لأنه لو ترك الأمر مع تركه فِعلَه ارتكب جنايتين: الأولى: ترك الأمر بالمعروف؛ والثانية: عدم قيامه بما أمر به؛ وكذلك لو أنه ارتكب ما ينهى عنه، ولم يَنْهَ عنه فقد ارتكب مفسدتين: الأولى: ترك النهي عن المنكر؛ والثانية: ارتكابه للمنكر.

ثم نقول: أينا الذي لم يسلم من المنكر! لو قلنا: لا ينهى عن المنكر إلا من لم يأت منكراً لم يَنهَ أحد عن منكر؛ ولو قلنا: لا يأمر أحد بمعروف إلا من أتى المعروف لم يأمر أحد بمعروف؛ ولهذا نقول: مُرْ بالمعروف، وجاهد نفسك على فعله، وانْهَ عن المنكر، وجاهد نفسك على تركه.

٢. ومن فوائد الآية: توبيخ العالم المخالف لما يأمر به، أو لما ينهى عنه؛ وأن العالم إذا خالف فهو أسوأ حالاً من الجاهل؛ لقوله تعالى: { وأنتم تتلون الكتاب }؛ وهذا أمر فُطر الناس عليه . أن العالم إذا خالف صار أشد لوماً من الجاهل .؛ حتى العامة تجدهم إذا فعل العالم منكراً قالوا: كيف تفعل هذا وأنت رجل عالم؟! أو إذا ترك واجباً قالوا: كيف تترك هذا وأنت عالم؟.!

٣. ومن فوائد الآية: توبيخ بني إسرائيل، وأنهم أمة جهلة حمقى ذوو غيٍّ؛ لقوله تعالى: { أفلا تعقلون }.

٤. ومنها: أن من أمر بمعروف، ولم يفعله؛ أو نهى عن منكر وفعله من هذه الأمة، ففيه شبه باليهود؛ لأن هذا دأبهم . والعياذ بالله ..

القرآن

{وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥)} [البقرة : ٤٥]

التفسير:

واستعينوا في أموركم كلها بالصبر، وكذلك الصلاة، وإنها لشاقة ثقيلة إلا على الخاشعين الذليلين لأمر الله.

قوله تعالى:{ {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ}[البقرة:٤٥]، "أي استعينوا على أموركم بالصبر، والصلاة"(٤).

---

(١) رواه احمد وأبو يعلى بسند صححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها :(١/ ٥٨٥) برقم(٢٩١)

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه (قال الألباني في الضعيفة (٤/ ١٣٨برقم ١٦٣٤): ضعيف الإسناد جدا.)

(٣) تفسير القرطبي: ٣٦٦/١.

(٢) أخرجه البخاري ص٢٦٤، كتاب بدء الخلق، باب ١٠: صفة النار وأنها مخلوقة، حديث رقم ٣٢٦٧؛ وأخرجه مسلم ص١١٩٥، كتاب الزهد والرقائق، باب ٧: من يأمر بالمعروف ولا يفعله، وينهى عن المنكر ويفعله، حديث رقم ٧٤٨٣ [51] ٢٩٨٩.

(٤) تفسير ابن عثيمين:١٦٠/١.

قال ابن جريج:" إنهما معونتان على رحمة الله"(١).
قال الطبري:أي: " استعينوا على الوفاء بعهدي الذي عاهدتموني في كتابكم - من طاعتي واتباع أمري ، وترك ما تهوونه من الرياسة وحب الدنيا إلى ما تكرهونه من التسليم لأمري ، واتباع رسولي محمد صلى الله عليه وسلم - بالصبر عليه والصلاة"(٢).
قال الواحدي:" استعينوا بالصبر على أداء الفرائض واجتناب المحارم واحتمال الأذى وجهاد العدو وعلى المصائب والصلاة"(٣).
قال النسفي: أي: استعينوا على حوائجكم إلى الله، بالجمع بينهما، وأن تصلوا صابرين على تكاليف الصلاة محتملين لمشاقها وما يجب فيها من إخلاص القلب ودفع الوساوس الشيطانية والهواجس النفسانية ومراعاة الآداب والخشوع واستحضار العلم بأنه انتصاب بين يدي جبار السموات والأرض ، أو استعينوا على البلايا والنوائب بالصبر عليها والالتجاء إلى الصلاة عند وقوعها"(٤).
قال الجصاص:" ينصرف الأمر بالصبر على أداء الفرائض التي فرضها الله واجتناب معاصيه وفعل الصلاة المفروضة"(٥).
قال الراغب: وخصها[أي الصلاة] برد الضمير إليها دون الصبر ، وأما الصلاة التي تخفف على غير الخاشع ، فإنها مسماة باسمها ، وليس هي في حكمها ، بدلالة قوله تعالى : {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ} ، ومثلها ، وقل ما ترى صلاة غير الخاشع تنهاه عن الفحشاء والمنكر"(٦).
وقال المفسرون وأصحاب المعاني: "إن جميع العبادات داخلة تحت قوله: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ} لأنه أراد الصبر عليها، ولكن خصت الصلاة بالذكر تخصيصا وتفضيلا، كقوله: {فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ} [الرحمن: ٦٨]، وقوله {وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ} [البقرة: ٩٨]" (٧).
واختلف أهل التفسير في معنى (الصبر) في هذه الآية على قولين(٨):
أحدهما:أن الصبر: هو حبس النفس على ما تكره، وهو المعنى المشهور للصبر، وكل من حبس شيئا فقد صبره، ومنه الحديث في رجل أمسك رجلا وقتله آخر، فقال: "اقتلوا القاتل، واصبروا الصابر"(٩)، أي: احبسوا الذي حبسه حتى يموت، وكذلك لو حبسَ رجل نفسه على شيء يريده قال: صبرتُ نفسي(١٠)، قال عنترة(١١):
فَصَبَرْتُ عَارِفَةً لِذَلِكَ حُرَّةً ... تَرْسُو إِذَا نَفْسُ الجَبَانِ تَطَلَّعُ
والثاني: أن المراد به هنا: الصوم. قاله مجاهد(١٢)، والصوم بعض معاني الصبر، ولهذا سمي رمضان شهر الصبر كما نطق به الحديث(١).

---

(١) أخرجه الطبري(٨٥٤):ص١٥/٢.
(٢) تفسير الطبري: ١٠/٢-١١.
(٣) أنظر:التفسير البسيط: ٤٥٢/٢.
(٤) تفسير النسفي: ٦٣/١.
(٥) أحكام القرآن: ٣٩/١.
(٦) تفسير الراغب الأصفهاني: ١٧٧/١.
(٧) التفسير البسيط: ٤٥٦/٢.
(٨) انظر تفسير الطبري: ١١/٢.
(٩)الحديث ذكره أبو عبيد في "غريب الحديث" بدون سند، وفي الهامش قال المحقق: زاد في (ر). قال سمعت عبد الله بن المبارك يحدثه عن إسماعيل بن أميه يرفعه. "غريب الحديث" ١/ ١٥٥، وذكره الثعلبي ١/ ٦٩ أ، والأزهري في "تهذيب اللغة" عن أبي عبيد ٢/ ١٩٧٢، وهو في "الفائق" ٢/ ٢٧٦، "النهاية في غريب الحديث" ٣/ ٨، "غريب الحديث" لابن الجوزي ١/ ٥٧٨، وذكره في "كنز العمال" عن أبي عبيدة عن إسماعيل بن أمية مرسلا، ١٥/ ١٠.
(١٠) انظر التفسير البسيط: ٤٥١/٢.
(١١) البيت في "غريب الحديث" لأبي عبيد ١/ ١٥٥، "تهذيب اللغة" (صبر) ٢/ ١٩٧٢، "مقاييس اللغة" (صبر) ٣/ ٣٢٩، و"تفسير الثعلبي" ١/ ٦٩ أ، "اللسان" (صبر) ٤/ ٢٣٩١، و (عرف) ٥/ ٢٨٩٩، و"تفسير القرطبي" ١/ ٣١٧، "فتح القدير" ١/ ١٢٤، "ديوان عنترة" ص ٢٦٤. يقول: : صبرت عارفة: أي حبست نفسًا عارفة لذلك، أي نفسه، والعارفة الصابرة، ترسو: أي تثبت وتستقر، تطلع: تطلع نفس الجبان إلى حلقه من الفزع والخوف.
(١٢) انظر:تفسير ابن أبي حاتم(٤٨٠):ص١٠٢/١. ونقله ابن كثير في تفسيره: ٢٥١/١.

والأول هو الصحيح، وعليه جمهور أهل العلم(٢).

و(الصبر): "حبس النفس على ما تكره ومنعها محابّها وكفها عن هواها(٣)، والصبر لغة: الحبس، يقال قتل فلان صبرا أي أمسك وحبس حتى أتلف، وصبرت نفسي على الشيء : حبستها، قال الحطيئة(٤):

قُلْتُ لها أَصْبِرُها جاهِداً: ... وَيْحَك، أَمْثالُ طَرِيفٍ قَلِيلْ

والمصبورة التي نهي عنها في الحديث هي المحبوسة على الموت، وهي المجثّمة، قال عنترة يذكر حربا كان فيها(٥):

فَصَبَرْتُ عارِفَةً لذلك حُرَّةً ... تَرْسُو، إذا نَفْسُ الجبان تَطَلَّعُ

يقول: حَبَست نفساً صابرة. قال أبو عبيد: يقول إنه حَبَس نفسَه(٦).

وقال الراغب، الصبر ضربان : "صبر عن المشتهى ، وهو العفة ، وصبر على المكروه وهو الشجاعة "(٧).

وفي الآية قدّم الصبر على الصلاة "لأنها لا تكمل إلا به، أو لمناسبته لحال المخاطبين، ويجوز أن يراد بالصبر نوع منه وهو الصوم بقرينة ذكره مع الصلاة"(٨).

و(الاستعانة) هي "طلب العون؛ و "الاستعانة بالصبر" أن يصبر الإنسان على ما أصابه من البلاء، أو حُمِّل إياه من الشريعة"(٩).

وفي الصبر المأمور به ، قولان(١٠):

أحدهما : أنه الصبرُ على طاعته ومرضاته، والكف عن معصيته. قاله أبو العالية(١١).

والثاني : أنه الصوم ، وهو قول مجاهد، وقد كان النبيُّ (صلى الله عليه وسلم) إذا حَزَبَهُ أمرٌ استعان بالصلاة والصيام(١٢).

قوله تعالى:{وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ}[البقرة:٤٥]، "أي وإن الصلاة لشاقة صعبة الاحتمال إلا على المخبتين لله الخائفين من شديد عقابه"(١٣).

---

(١) ما رواه الإمام أحمد ومسلم من حديث أبي قتادة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "صَوْمُ شَهْرِ الصَّبْرِ وَثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ صَوْمُ الدَّهْرِ"(مسند أحمد (٧٥٦٧، ٨٩٦٥)، ومسلم (١١٦٢) واللفظ للإمام أحمد.) ، وأخرج الإمام أحمد عَنْ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشِّخِّيرِ عَنِ الْأَعْرَابِيِّ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ وذكر الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: صَوْمُ شَهْرِ الصَّبْرِ وَثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ يُذْهِبْنَ وَحَرَ الصَّدْرِ".(مسند الإمام أحمد (٢٢٩٦٥) ، وروى النسائي عن الباهلي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "صمْ شهرَ الصبرِ وثلاثة أيامٍ من كلِّ شهر".(سنن النسائي (٢٧٥٦) ، انظر صحيح الجامع (٣٧٩٤).

(٢) انظر: تفسير الطبري: ١١/٢. وتفسير ابن كثير: ٢٥١/١.

(٣) انظر تفسير الطبري: ١١/٢.

(٤)يوانه بشرح أبي سعيد السكري : ١٧٦ . وهو في اللسان (صبر)، والجامع : ١٤٤. وفيه (ويلك) بدل (ويحك) ، والإقناع : ٥٤ وفيه (به) بدل (بها) ، والعروض لابن جني : ٨٠

(٥)ديوانه : ٨٩ من أبيات ، يقول قبله ، يذكر الغراب ، ويتشاءم به:

إنَّ الذينَ نعيْتَ لي بفِراقهمْ   قد أسْهرُوا لَيْلي التِّمامَ فأَوْجعوا

وَعَرَفْتُ أَنَّ مَنِيَّتِي إِنْ تَأْتِنِي   لا يُنْجِنِي مِنْهَا الفِرَارُ الأَسْرَعُ

فصبرتُ عارفةً لذلكَ حرَّةً   ترسو إذا نفسُ الجبان تطلع

و قوله(نفس عارفة)، أي: حاملة الشدائد صبور، إذا حملت على أمر احتملته ، من طول مكابدتها لأهوال هذه الحياة . و(ترسو)، تثبت . و(تطلع) ، تنزو متلفتة إلى مهرب ، أو ناصر ، من الجزع والرعب.

(٦) انظر: اللسان: مادة(ص ب ر).

(٧) تفسير الراغب الأصفهاني: ١٧٧/١.

(٨) تفسير الآلوسي: ٢٤٨/١-٢٤٩.

(٩) تفسير ابن عثيمين: ٩٧/١.

(١٠) أنظر: النكت والعيون: ١١٥/١.

(١١) أنظر: تفسير الطبري(٨٥٣):ص١٤/١.

(١٢) أنظر: تفسير الطبري(٨٤٩):ص١٢/١. أخرج عن حذيفة قال : " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة " .

(١٣) تفسير المراغي: ١٠٢/١.

أخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك، في تفسير قوله تعالى{لكبيرة}، قال:"لثقيلة"[١].

وروي عن مجاهد في قوله:{ وإنها لكبيرة}، قال: الصلاة"[٢].

واختلف في عود الضمير{ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ}[البقرة:٤٥]، على أقوال[٣]:

أحدها:أنه يعود على { الصلاة }؛ وهذا قول ابن عباس والحسن ومجاهد[٤] والجمهور، واختاره الطبري، وأبو حيان وابن كثير والعكبري والقاسمي وغيرهم[٥].

واحتجوا بوجهين:

الوجه الأول: لأن(الصلاة) أقرب مذكور؛ والقاعدة في اللغة العربية أن الضمير يعود إلى أقرب مذكور ما لم يمنع منه مانع.

والوجه الثاني: وقالوا: خصصت الصلاة بذلك لعظم شأنها واستجماعها ضروباً من الصبر.

قال الثعلبي: "لأنّ الصبر داخل في الصلاة كقوله: {وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ }[التوبة:٦٢]، ولم يقل يرضوهما لأنّ رضا الرسول داخل في رضا الله، فردّ الكناية إلى الله، وقال الشاعر وهو حسّان[٦]:

إنّ شرخ الشباب والشعر الأسود   ما لم يعاص كان جنونا

ولم يقل يعاصيا ردّه إلى الشباب، لأن الشعر الأسود داخل فيه"[٧].

القول الثاني: أنه يعود على الصبر والصلاة، فأرادهما.

واحتجوا بوجهين:

الوجه الأول: إنما عاد على الصلاة مع أن الصبر مراد معها، لأنها الأغلب والأعم، كما في قوله-عز وجل-: {وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ} [التوبة:٣٤]، حيث رد الكناية إلى الفضة لأنها كذلك. وقيل: لأنها الأفضل والأهم كما في قوله تعالى: {وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا} [الجمعة:١١] حيث رد الكناية إلى التجارة لأنها كذلك[٨].

قال الجصاص:" فيه رد الضمير على واحد، مع تقدم ذكر اثنين"[٩].

الوجه الثاني: أراد بالضمير الصبر والصلاة، وإنما عادت الكناية إلى الصلاة، لكونها أقرب مذكور، ومنه قول الشاعر:

مَنْ يَكُ أَمْسَى في المَدِينَةِ رَحْلُهُ   فَإِنّي وَقَيَّارٌ بهَا لَغَرِيبُ

واعترض السمين الحلبي على هذا التعليل، إذ قال: "كذا قيل، وفيه نظر"[١٠].

القول الثالث: أنه يعود على الاستعانة المفهومة من قوله تعالى: { واستعينوا }؛ لأن الفعل { استعينوا } يدل على زمن، ومصدر؛ فيجوز أن يعود الضمير على المصدر المفهوم من الفعل، كما في قوله تعالى:{اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى} [المائدة:٨]، أي العدل المفهوم من قوله تعالى: { اعدلوا } أقرب للتقوى.

قال الألوسي: أي: شموله للمذكورات قبل، وهي الصبر والصلاة[١١].

وقد عبر ابن كثير، عن هذا القول فقال:"ويحتمل أن يكون عائداً-أي: الضمير-إلى ما دل عليه الكلام وهو الوصية بذلك كقوله تعالى في قصة قارون: {وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ} [القصص:٨٠]، وقال تعالى: {وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٨٧):ص١/١٠٣.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٨٦):ص١/١٠٣.

(٣) تفسير ابن عثيمين: ١/٩٧.

(٤) انظر:تفسير ابن أبي حاتم(٤٨٦):ص١/١٠٣.

(٥)انظر: جامع البيان للطبري: ٢/١٥، والنكت والعيون للماوردي: ١/١١٥، وزاد المسير لابن الجوزي: ١/٧٦، والوسيط للواحدي: ١/١٣١، والبحر المحيط لأبي حيان: ١/١٨٥، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير: ١/١١٣، وإملاء ما من به الرحمن للعكبري: ١/٣٤، ومحاسن التأويل للقاسمي: ٢/٢١٩، وروح المعاني للألوسي: ١/٢٤٩.

(٦) البيت في: الصحاح: ١/ ٤٢٤، وتفسير الثعلبي: ١/١٨٩.

(٧) تفسير الثعلبي: ١/١٨٩.

(٨) تفسير الثعلبي: ١/١٨٩.

(٩) أحكام القرآن: ١/٣٩.

(١٠) أنظر: الدر المصون: ١/٢١٢، وانظر: النكت والعيون للماوردي: ١/١١٦، والبحر المحيط لأبي حيان ١/١٨٥.

(١١)روح المعاني: ١/٢٤٩.

أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} [فصلت:٣٥]، أي: وما يلقى هذه الوصية إلا الذين صبروا وما يلقاها أي: يؤتاها إلا ذو حظ عظيم"(١).

وهذا القول يفرق عن القول قبله؛ لأن الاستعانة بالصبر والصلاة على قضاء الحوائج وفعل الطاعات لاستجرارهما ذلك غير صبر العبد وأدائه للصلاة(٢).

والرابع: أن الكناية تعود إلى جميع الأمور التي أمر بها بنو إسرائيل ونهو عنها من قوله: {اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ} [البقرة:٤٠]، إلى قوله: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ} [البقرة:٤٥] ومشقة تلك الأمور عليهم ظاهرة(٣). ورجحه ابن عاشور قائلا بأنها:" أوضح الأقوال وأجمعها"(٤).

والخامس: أن الكناية راجعة إلى إجابة الرسول صلى الله عليه وسلم، ونُسِبَ هذا القول للأخفش ولم يذكره في معاني القرآن عند هذه الآية(٥).

وهذا القول ضعيف كسابقه، لأنه لا دليل عليه في الآية، ولم يسبق للكعبة ذكر.

قال ابن عطية: "وفي هذا ضعف، لأنه لا دليل له من الآية عليه"(٦). وقد ضعفه الطبري(٧) كذلك.

قال ابن عطية:" وهذا أضعف من الذي قبله"(٨). وقد ضعفه الآلوسي(٩) كذلك.

والسادس: أن الكناية راجعة إلى الكعبة والقبلة المفهومة من ذكر الصلاة(١٠)، ذكره الضحاك عن ابن عباس وبه قال مقاتل(١١).

والسابع: أن الكناية راجعة إلى العبادة التي يتضمنها بالمعنى ذكر الصبر والصلاة (١٢).

وهذه الأقوال السبعة متفاوتة في القوة والضعف وأظهرها قول الجمهور؛ لأن القاعدة في العربية أن ضمير الغائب لا يعود على غير الأقرب إلا بدليل، وقول من قال إن الكناية تعود على الاستعانة أو على جميع المذكورات قبل جائز، والأقوال الأخرى فيها نظر.

وذكر أهل التفسير في قوله تعالى:{ لَكَبِيرَةٌ}[البقرة:٤٥]، وجهان:

أحدهما: أن معناه: "الشاقة ثقيلة على النفس، من قولك : كبر عليّ هذا الأمر ، {كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ}[الشورى:١٣]"(١٣). وهذا قول الضحاك(١٤)، وابن زيد (١٥).

والثاني: أن معناه: "لكبيرة القدر" (١٦).

وقوله تعالى: {إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ} [البقرة : ٤٥]، أي: " إلا على الذليلين لأمر الله"(١٧).

قال الطبري:أي: " إلا على الخاضعين لطاعته ، الخائفين سطواته ، المصدقين بوعده ووعيده"(١٨).

---

(١) تفسير ابن كثير: ١١٣/١.

(٢)انظر: الكشاف للزمخشري: ٢٧٨/١، وزاد المسير لابن الجوزي: ٧٦/١، وروح المعاني للألوسي: ٢٤٩/١، وقد قال به السمرقندي في بحر العلوم: ١١٦/١، والواحدي في الوجيز: ١٠٣/١، وعزاه أبو حيان في البحر المحيط: ١٨٥/١ للبجلي

(٣)انظر: الكشاف للزمخشري: ٢٧٨/١، مفاتيح الغيب للرازي: ٥٢/٣، روح المعاني للألوسي: ٢٤٩/١.

(٤) التحرير والتنوير: ٤٧٩/١.

(٥) أنظر المحرر الوجيز: ١٣٧/١، و النكت والعيون للماوردي: ١١٦/١، والبحر المحيط لأبي حيان: ١٨٥/١، وروح المعاني للألوسي: ٢٤٩/١.

(٦) المحرر الوجيز: ١٣٧/١.

(٧) تفسير الطبري: ١٥/٢.

(٨) المحرر الوجيز: ١٣٧/١.

(٩) أنظر: روح المعاني: ٢٤٩/١.

(١٠) أنظر المحرر الوجيز: ١٣٧/١، وزاد المسير لابن الجوزي: ٧٦/١،

(١١) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٤٨٨):ص١٠٣/١. ولفظه:" صرفك من بيت المقدس إلى الكعبة، كبير ذلك على المنافقين واليهود".

(١٢) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية: ٢٠٥/١، والبحر المحيط لأبي حيان: ١٨٥/١.

(١٣) أنظر: الكشاف: ١٣٤/١، و تفسير الراغب الأصفهاني: ١٧٨/١.

(١٤) تفسير الطبري(٨٥٦):ص١٥/٢.

(١٥) تفسير الطبري(٨٥٥):ص١٥/٢.

(١٦) تفسير الراغب الأصفهاني: ١٧٨/١.

(١٧) تفسير ابن عثيمين: ١٦١/١.

(١٨) تفسير الطبري:١٦/٢.

وقال الخازن : "يعني المؤمنين, .. وإنما كانت الصلاة ثقيلة على غير الخاشعين, لأن من لا يرجو لها ثواباً, ولا يخاف على تركها عقاباً فهي ثقيلة عليه"(١).

قال النسفي:" لأنهم يتوقعون ما ادخر للصابرين على متاعبها فتهون عليهم"(٢).

وقوله تعالى: {إِلا عَلَى الْخَاشِعِينَ}[البقرة:٤٥]، اختلف في المعني بـ"الخاشعين"، على وجوه(٣):

أحدها: المصدّقين بما أنزل الله. قاله ابن عباس(٤).

والثاني: المؤمنين حقا. قاله مجاهد(٥).

والثالث: الخائفين من الله. قال أبو العالية(٦).

والرابع: المتواضعين. قاله مقاتل بن حيان(٧).

والخامس: وقيل: الخاضعين لطاعته الخائفين سطواته، المصدقين بوعده ووعيده(٨).

قلت وكل المعاني السابقة متداخلة وصحيحة، فيمكن القول بأن الخاشع لله هو : المتواضع لله والمستكين لطاعته والمتذلل من مخافته.

وأصل (الخشوع): التواضع والتذلل والاستكانة، والإخبات(٩)، ومنه قول جرير(١٠):

لما أتى خبر الزبير تواضعت ... سور المدينة والجبال الخشع

قوله (الجبال الخشع): أي: متذللة لعظم المصيبة بفقد الزبير.

قال الواحدي:" أصل الخشوع في اللغة: السكون، قال الله تعالى {وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ} [طه: ١٠٨]، أي: سكنت، ويقال: جدار خاشع، إذا تداعى واستوى مع الأرض، قال النابغة(١١):

وَنُؤْيٌ كَجِذْمِ الحَوْضِ أَثْلَمُ خَاشِعُ

ومنه الحديث "كانت الكعبة خُشعة على الماء"(١٢)، أي: ساكنة، وهذا أصله في اللغة. ثم استعمل في أشياء تعود إلى هذا الأصل، فقيل: خشعت الأرض، إذا لم تمطر، فلم تهتز بالنبات، قال الله تعالى: {تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ}[فصلت: ٣٩]، وخشع السنام، إذا ذهب شحمه وتطأطأ شرفه.

---

(١) تفسير الخازن: ٤٧/١.

(٢) تفسير النسفي: ٦٣/١.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير: ٢٥٣/١، وتفسير الطبري: ١٦/٢.

(٤) أنظر: تفسير الطبري(٨٥٦):ص١٦/١.

(٥) أنظر: تفسير الطبري(٨٥٨):ص١٦/١.

(٦) أنظر: تفسير الطبري(٨٥٧):ص١٦/١.

(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٤٩٢):ص١٠٣/١.

(٨) انظر: تفسير ابن كثير: ٢٥٣/١.

(٩) تفسير الطبري: ١٧/٢، وانظر: الكشاف: ١٣٥/١.

(١٠)ديوان جرير : ٣٤٥ ، والنقائض : ٩٦٩ ، وقد جاء منسوبا له في تفسيره (١ : ٢٨٩ /٧ : ١٥٧ بولاق) ، وطبقات ابن سعد : ٣/١/ ٧٩ ، وسيبويه ١ : ٢٥ ، والأضداد لابن الأنباري : ٢٥٨ ، والخزانة ٢ : ١٦٦ . استشهد به سيبويه على أن تاء التأنيث جاءت للفعل ، لما أضاف " سور " إلى مؤنث وهو " المدينة " ، وهو بعض منها . قال سيبويه : " وربما قالوا في بعض الكلام : " ذهبت بعض أصابعه " ، وإنما أنث البعض ، لأنه أضافه إلى مؤنث هو منه ، ولو لم يكن منه لم يؤنثه . لأنه لو قال : " ذهبت عبد أمك " لم يحسن . (١ : ٢٥) . وهذا البيت يعير به الفرزدق بالغدر ويهجوه ، فإن الزبير بن العوام رضي الله عنه حين انصرف يوم الجمل ، عرض له رجل من بني مجاشع رهط الفرزدق ، فرماه فقتله غيلة . ووصف الجبال بأنها " خشع " . يريد عند موته ، خشعت وطأطأت من هول المصيبة في حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن قبح ما لقي من غدر بني مجاشع .

(١١)البيت في "تفسير الثعلبي" ١/ ٦٩ ب، "التهذيب" (خشع) ١/ ١٠٣٤، "اللسان" (خشع) ٢/ ١١٦٦، والقرطبي ١/ ٣٢٠، "ديوان النابغة" ص ٥٣.

من قصيدة للنابغة الذبياني يمدح النعمان وصدره:

رَمَادٌ كَكُحِلِ العين لَأْياً أُبِينُه

يقول من الآيات التي عرف بها الدار (رماد ككحل العين، لَأياً أبينه (أي بصعوبة بطء أتبينه، و (النُّؤْيُ): حاجز حول البيت لئلا يدخله الماء، و (الجِذْم): أصل الشيء (أثلم): تثلم: تهدم، و (الخاشع): المطمئن اللاصق بالأرض.

(١٢)

وخشعت الأبصار، إذا سكنت ونظرت في الأرض من غير التفات. وقيل: للمطيع المخبت: خاشع، لسكونه إلى الطاعة"[١].

قال الزمخشري:" فإن قلت : مالها لم تثقل على الخاشعين والخشوع في نفسه مما يثقل؟ قلت : لأنهم يتوقعون ما ادّخر للصابرين على متاعبها فتهون عليهم"[٢].

وفي الآية إشارة إلى فضيلة الصلاة، إذ إنها مما يستعان بها على الأمور، وشؤون الحياة؛ لقوله تعالى: (والصلاة)؛ ونحن نعلم علم اليقين أن هذا خبر صدق لا مرية فيه؛ وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا حزبه أمر صلى[١] ؛ ويؤيد ذلك اشتغاله لله في العريش يوم بدر بالصلاة، ومناشدة ربه بالنصر[٢].

والصلاة لا تكون عوناً للانسان، إلا إذا أتى بها على وجه كامل، وهي التي يكون فيها حضور القلب، والقيام بما يجب فيها أما صلاة غالب الناس اليوم فهي صلاة جوارح لا صلاة قلب؛ ولهذا تجد الإنسان من حين أن يكبِّر ينفتح عليه أبواب واسعة عظيمة من الهواجيس التي لا فائدة منها؛ ولذلك من حين أن يسلّم تنجلي عنه، وتذهب؛ لكن الصلاة الحقيقية التي يشعر الإنسان فيها أنه قائم بين يدي الله، وأنها روضة فيها من كل ثمرات العبادة لا بد أن يَسلوَ بها عن كل همّ؛ لأنه اتصل بالله عزّ وجلّ الذي هو محبوبه، وأحب شيء إليه؛ ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم "جعلت قرة عيني في الصلاة"[٣] ؛ أما الإنسان الذي يصلي ليتسلى بها، لكن قلبه مشغول بغيرها فهذا لا تكون الصلاة عوناً له؛ لأنها صلاة ناقصة؛ فيفوت من آثارها بقدر ما نقص فيها، كما قال الله تعالى: {اتل ما أوحي إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر} [العنكبوت: ٤٥] ؛ وكثير من الناس يدخل في الصلاة، ويخرج منها لا يجد أن قلبه تغير من حيث الفحشاء والمنكر . هو على ما هو عليه ؛ لا لانَ قلبه لذكر، ولا تحول إلى محبة العبادة[٣].

الفوائد:

١.من فوائد الآية: إرشاد الله - تبارك وتعالى - عباده إلى الاستعانة بهذين الأمرين: الصبر، والصلاة.

٢. ومنها: جواز الاستعانة بغير الله؛ لكن فيما يثبت أن به العون؛ فمثلاً إذا استعنت إنساناً يحمل معك المتاع إلى البيت كان جائزاً؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم "وتعين الرجل في دابته، فتحمله عليها، أو ترفع له عليها متاعه صدقة[١] ".

أما الاستعانة بما لا عون فيه فهي سفه في العقل، وضلال في الدين، وقد تكون شركاً: كأن يستعين بميت، أو بغائب لا يستطيع أن يعينه لبعده عنه، وعدم تمكنه من الوصول إليه.

٣. ومن فوائد الآية: فضيلة الصبر، وأن به العون على مكابدة الأمور؛ قال أهل العلم: والصبر ثلاثة أنواع؛ وأخذوا هذا التقسيم من الاستقراء؛ الأول: الصبر على طاعة الله؛ والثاني: الصبر عن معصية الله؛ والثالث: الصبر على أقدار الله ؛ فالصبر على الطاعة هو أشقها، وأفضلها؛ لأن الصبر على الطاعة يتضمن فعلاً وكفاً اختيارياً: فعل الطاعة؛ وكفّ النفس عن التهاون بها، وعدم إقامته؛ فهو إيجادي إيجابي؛ والصبر عن المعصية ليس فيه إلا كف فقط؛ لكنه أحياناً يكون شديداً على النفس؛ ولهذا جعل النبي صلى الله عليه وسلم الشاب الذي

---

(١) التفسير البسيط: ٤٥٤/٢-٤٥٥.

(٢) الكشاف: ١٣٤/١.

(١) أخرجه أحمد ٣٨٨/٥، حديث رقم ٢٣٦٨٨؛ وأخرجه أبو داود ص١٣٢١، كتاب الصلاة، باب ٢٢: وقت قيام النبي صلى الله عليه وسلم من الليل، حديث رقم ١٣١٩، ومدار الحديث على محمد بن عبد الله بن أبي قدامة الدؤلي، قال الذهبي: "ما أعلم روى عنه غير عكرمة بن عمار". ميزان الاعتدال (٥٩٥/٣) رقم ٧٧٤٧، وأقره الحافظ في تهذيب التهذيب ٢٤١/٩، وقال شعيب الأرناؤوط في تحرير التقريب: "مجهور"، تفرد بالرواية عنه عكرمة بن عمار اليماني ولم يوثقه أحد ٢٧٢/٣، وقال الحافظ في الفتح: أخرجه أبو داود بإسناد حسن ١٧٢/٣.

(٢) راجع البخاري ص٢٣٤، كتاب الجهاد، باب ٨٩: ما قيل في درع النبي صلى الله عليه وسلم والقميص في الحرب، حديث رقم ٢٩١٥؛ ومسلماً ص٩٩٠، كتاب الجهاد، باب ١٨: الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم، حديث رقم ٤٥٨٨ [٥٨] ١٧٦٣؛ والسيرة النبوية لابن هشام ١٩٦/٢.

(٣) أخرجه أحمد ١٢٨/٣، حديث رقم ١٢٣١٨؛ وأخرجه النسائي ص٢٣٠٧، كتاب عشرة النساء، باب ١: حب النساء، حديث رقم ٣٣٩١، وقال الألباني في صحيح النسائي: حسن صحيح ٥٧/٣، حديث رقم ٣٩٤٩.

(٣) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٩٧/١.

(١) سبق تخريجه ص١٤.

دعته امرأة ذات منصب، وجمال، فقال: "إني أخاف الله"[٢] في رتبة الإمام العادل من حيث إن الله يظله في ظله يوم لا ظل إلا ظله . وإن كان الإمام العادل أفضل .؛ لأن قوة الداعي في الشباب، وكون المرأة ذات منصب وجمال، وانتفاء المانع فيما إذا كان خالياً بها يوجب الوقوع في المحذور؛ لكن قال: "إني أخاف الله"؛ ربما يكون هذا الصبر أشق من كثير من الطاعات؛ لكن نحن لا نتكلم عن العوارض التي تعرض لبعض الناس؛ إنما نتكلم عن الشيء من حيث هو؛ فالصبر على الطاعة أفضل من الصبر عن المعصية؛ والصبر عن المعصية أفضل من الصبر على أقدار الله؛ لأنه لا اختيار للإنسان في دفع أقدار الله؛ لكن مع ذلك قد يجد الإنسان فيه مشقة عظيمة؛ ولكننا نتكلم ليس عن صبر معين في شخص معين؛ قد يكون بعض الناس يفقد حبيبه، أو ابنه، أو زوجته، أو ما أشبه ذلك، ويكون هذا أشق عليه من كثير من الطاعات من حيث الانفعال النفسي؛ والصبر على أقدار الله ليس من المكلف فيه عمل؛ لأن ما وقع لابد أن يقع . صبرت، أم لم تصبر: هل إذا جزعت، وندمت، واشتد حزنك يرتفع المقدور؟!.

الجواب: لا؛ إذاً كما قال بعض السلف: إما أن تصبر صبر الكرام؛ وإما أن تسلو سُلوّ البهائم.

٤. ومن فوائد الآية: الحث على الصبر بأن يحبس الإنسان نفسه، ويُحمِّلها المشقة حتى يحصل المطلوب؛ وهذا مجرب . أن الإنسان إذا صبر أدرك مناله؛ وإذا ملّ كسل، وفاته خير كثير .؛ ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: "احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز"[٣] ؛ وكثير من الناس يرى أن بداءته بهذا العمل مفيدة له، فيبدأ، ثم لا يحصل له مقصوده بسرعة، فيعجز، ويكِلّ، ويترك؛ إذاً ضاع عليه وقته الأول، وربما يكون زمناً كثيراً؛ ولا يأمن أنه إذا عدل عن الأول، ثم شرع في ثانٍ أن يصيبه مثل ما أصابه أولاً، ويتركه؛ ثم تمضي عليه حياته بلا فائدة؛ لكن إذا صبر مع كونه يعرف أنه ليس بينه وبين مراده إلا امتداد الأيام فقط، وليس هناك موجب لقطعه؛ فليصبر: لنفرض أن إنساناً من طلبة العلم همّ أن يحفظ: "بلوغ المرام"، وشرع فيه، واستمر حتى حفظ نصفه؛ لكن لحقه الملل، فعجز، وترك: فالمدة التي مضت خسارة عليه إلا ما يبقى في ذاكرته مما حفظ فقط؛ لكن لو استمر، وأكمل حصل المقصود؛ وعلى هذا فقس.

٥. ومن فوائد الآية: فضيلة الصلاة، حيث إنها مما يستعان بها على الأمور، وشؤون الحياة؛ لقوله تعالى: {والصلاة }؛ ونحن نعلم علم اليقين أن هذا خبر صدق لا مرية فيه؛ وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا حزبه أمر صلى[١] ؛ ويؤيد ذلك اشتغاله لله في العريش يوم بدر بالصلاة، ومناشدة ربه بالنصر[٢].

فإن قال قائل: كيف تكون الصلاة عوناً للإنسان؟

فالجواب: تكون عوناً إذا أتى بها على وجه كامل . وهي التي يكون فيها حضور القلب، والقيام بما يجب فيها أما صلاة غالب الناس اليوم فهي صلاة جوارح لا صلاة قلب؛ ولهذا تجد الإنسان من حين أن يكبِّر ينفتح عليه أبواب واسعة عظيمة من الهواجيس التي لا فائدة منها؛ ولذلك من حين أن يسلِّم تنجلي عنه، وتذهب؛ لكن الصلاة الحقيقية التي يشعر الإنسان فيها أنه قائم بين يدي الله، وأنها روضة فيها من كل ثمرات العبادة لا بد أن يَسلوَ بها عن كل همّ؛ لأنه اتصل بالله عزّ وجلّ الذي هو محبوبه، وأحب شيء إليه؛ ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم "جعلت قرة عيني في الصلاة"[٣] ؛ أما الإنسان الذي يصلي ليتسلى بها، لكن قلبه

---

(٢) أخرجه البخاري ص٥٦٧ ــ ٥٦٨، كتاب الحدود، باب ١٩: فضل من ترك الفواحش، حديث رقم ٦٨٠٦؛ وأخرجه مسلم ص٨٤٠، كتاب الزكاة، باب ٣٠: فضل إخفاء الصدقة، حديث رقم ٢٣٨٠ [٩١] ١٠٣١.

(٣) أخرجه مسلم ص١١٤٢، كتاب القدر، باب ٨: الإيمان بالقدر والإذعان له، حديث رقم ٦٧٧٤ [٣٤] ٢٦٦٤.

(١) أخرجه أحمد ٥/٣٨٨، حديث رقم ٢٣٦٨٨؛ وأخرجه أبو داود ص١٣٢١، كتاب الصلاة، باب ٢٢: وقت قيام النبي صلى الله عليه وسلم من الليل، حديث رقم ١٣١٩، ومدار الحديث على محمد بن عبد الله بن أبي قدامة الدؤلي، قال الذهبي: "ما أعلم روى عنه غير عكرمة بن عمار". ميزان الاعتدال (٣/٥٩٥) رقم ٧٧٤٧، وأقره الحافظ في تهذيب التهذيب ٩/٢٤١، وقال شعيب الأرناؤوط في تحرير التقريب: "مجهور"، تفرد بالرواية عنه عكرمة بن عمار اليماني ولم يوثقه أحد ٣/٢٧٢، وقال الحافظ في الفتح: أخرجه أبو داود بإسناد حسن ٣/١٧٢.

(٢) راجع البخاري ص٢٣٤، كتاب الجهاد، باب ٨٩: ما قيل في درع النبي صلى الله عليه وسلم والقميص في الحرب، حديث رقم ٢٩١٥؛ ومسلماً ص٩٩٠، كتاب الجهاد، باب ١٨: الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم، حديث رقم ٤٥٨٨ [٥٨] ١٧٦٣؛ والسيرة النبوية لابن هشام ٢/١٩٦.

(٣) أخرجه أحمد ٣/١٢٨، حديث رقم ١٢٣١٨؛ وأخرجه النسائي ص٢٣٠٧، كتاب عشرة النساء، باب ١: حب النساء، حديث رقم ٣٣٩١، وقال الألباني في صحيح النسائي: حسن صحيح ٣/٥٧، حديث رقم ٣٩٤٩.

مشغول بغيرها فهذا لا تكون الصلاة عوناً له؛ لأنها صلاة ناقصة؛ فيفوت من آثارها بقدر ما نقص فيها، كما قال الله تعالى: {اتل ما أوحي إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر} [العنكبوت: ٤٥] ؛ وكثير من الناس يدخل في الصلاة، ويخرج منها لا يجد أن قلبه تغير من حيث الفحشاء والمنكر . هو على ما هو عليه .؛ لا لانَ قلبه لذكر، ولا تحول إلى محبة العبادة.

٦. ومن فوائد الآية: أنه إذا طالت أحزانك فعليك بالصبر، والصلاة.

٧. ومنها: أن الأعمال الصالحة شاقة على غير الخاشعين . ولا سيما الصلاة ..

٨. ومنها: أن تحقيق العبادة لله سبحانه وتعالى بالخشوع له مما يسهل العبادة على العبد؛ فكل من كان لله أخشع كان لله أطوع؛ لأن الخشوع خشوع القلب؛ والإخبات إلى الله تعالى، والإنابة إليه تدعو إلى طاعته.

القرآن

{الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦)} [البقرة : ٤٦]

التفسير:

الذين يوقنون أنهم ملاقو ربِّهم جلَّ وعلا بعد الموت، وأنهم إليه راجعون يوم القيامة للحساب والجزاء.

قوله تعالى: {الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ }[البقرة: ٤٦]، "أي الذين يتيقنون بأنهم سيلاقون الله عزّ وجلّ؛ وذلك يوم القيامة"(١).

قال ابن كثير:" أي : يعلمون أنهم محشورون إليه يوم القيامة ، معروضون عليه"(٢).

قال النسفي:" أي يتوقعون لقاء ثوابه ونيل ما عنده ويطمعون فيه"(٣).

قال أبو العالية:" الظن ها هنا يقين"(٤). وروي عن مجاهد(٥)، والسدي(٦)، والربيع بن أنس(٧)، وقتادة(٨)، وابن جريج(٩)، وابن زيد(١٠)، مثل ذلك(١١).

وأخرج ابن أبي حاتم "عن سعيد في قوله: {الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم}، قال الذين شروا أنفسهم لله، ووطنوها على الموت"(١٢).

قال الثعلبي:{ يَظُنُّونَ } أي:" يعلمون ويستيقنون، كقوله تعالى: إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ} [الحاقة : ٢٠] أي أيقنت به"(١٣).

قال البغوي:أي: " يستيقنون أنهم مبعوثون وأنهم محاسبون"(١٤).

قال الزمخشري:" أى: يتوقعون لقاء ثوابه ونيل ما عنده، ويطمعون فيه" (١٥).

قال الراغب:" وتخصيص ذكر (الظن) ها هنا، إعلام بأنهم في كل حال لا يأمنون الموت ، ولو كان بدله العلم ، لم يصح على الوجه الذي يصح فيه الظن ، لأنك تقول : " أظن أني أموت في كل حال ، وأما قوله {ألا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ} ، فهو نهاية في الذم ، ومعناه : ألا تحصل لهم أمارة تنبههم على التفكر في ذلك - تنبيهاً أن هذا لا محالة مما تبين أمارته للإنسان إذا تأمل ، أدني تأمل ، وخاطب بالآيات عماء بني إسرائيل

---

(١) تفسير ابن عثيمين: ١٦٦/١، وانظر: تفسير السعدي: ٥١.
(٢) تفسير ابن كثير: ٢٥٤/١.
(٣) تفسير النسفي: ٦٣/١.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٩٣):ص١٠٣/١، والطبري(٨٦١):ص١٩/١.
(٥) أنظر: تفسير الطبري(٨٦٢):ص١٩/١.
(٦) أنظر: تفسير الطبري(٨٦٤):ص١٩/١.
(٧) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٠٣/١.
(٨) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٠٣/١.
(٩) أنظر: تفسير الطبري(٨٦٥):ص١٩/١.
(١٠) أنظر: تفسير الطبري(٨٦٦):ص١٩/١.
(١١) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٠٣/١.
(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٩٤):ص١٠٤/١.
(١٣) تفسير الثعلبي: ١/!٨٩.
(١٤) تفسير البغوي: ٩٠/١.
(١٥) الكشاف: ١٣٤/١.

الآميرن غيرهم بالبر ، الناسين أنفسهم بأن استعينوا في مدافعه هذه الحال بالصبر والتوصل به إلى الصلاة ، فبها يصير الإنسان خاشعاً ملتزماً للحق ممن ظهر منه"(١).

وفي مصحف عبد اللَّه : "{يعلمون}، ومعناه : يعلمون أن لا بد من لقاء الجزاء فيعملون على حسب ذلك، ولذلك فسر «يظنون» بـ(يتيقنون)" (٢)،وأما من لم يوقن بالجزاء ولم يرج الثواب كانت عليه مشقة خالصة.

قال الآلوسي:" والمراد من (ملاقاة الرب) سبحانه، إما ملاقاة ثوابه أو الرؤية عند من يجوزها، وكل منهما مظنون متوقع لأنه وإن علم الخاشع أنه لا بد من ثواب للعمل الصالح، وتحقق أن المؤمن يرى ربه يوم المآب- لكن من أين يعلم ما يختم به عمله- ففي وصف أولئك بالظن إشارة إلى خوفهم، وعدم أمنهم مكر ربهم فلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ [الأعراف: ٩٩] "(٣).

وقال النسفي:" وفسر (اللقاء): بالرؤية، و{ملاقو ربهم}، بمعاينوه بلا كيف"(٤).

وذكروا في معنى(ظن) في قوله تعالى: {الَّذِينَ يَظُنُّونَ}[البقرة: ٤٦]، قولان:

أحدهما: أن الظن هنا بمعنى اليقين، : فكأنه قال: الذين يَتَيَقَّنُون أنهم ملاقو ربهم. وهذا قول الجمهور، حكاه ابن عطية(٥).

ومن ذلك قوله تعالى: {وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا} [الجن : ١٢]، وقوله:{إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ} [الحاقة : ٢٠](٦).

وهو كثير عند العرب، وقد وردت من أشعار العرب أمثلة كثيرة على هذا النحو، فمن ذلك قول دريد بن الصمة(٧) :

فقلت لهم ظنوا بألفي مدجج ... سراتهم في الفارسي المسرد

يعني بذلك : تيقنوا ألفي مدجج تأتيكم.

وقول عميرة بن طارق(٨) :

---

(١) تفسير الراغب الأصفهاني: ١٧٩/١.

(٢) الكشاف: ١٣٤/١.

(٣) روح المعاني: ٢٥١/١.

(٤) تفسير النسفي: ٦٣/١.

(٥) أنظر: المحرر الوجيز: ١٣٧/١.

(٦) ومنه قوله تعالى: - {وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ} [القيامة : ٢٨].

- {وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا} [الكهف : ٥٣].

- {وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [التوبة : ١١٨].

- {هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ} [يونس : ٢٢].

في الآيات السابقة جاء الفعل(ظن) بمعنى الأعتقاد الجازم، وهو الأكثر استعمالا في الأسلوب القرآني وكلام العرب.

(٧) الأصمعيات : ٢٣ ، وشرح الحماسة ٢ : ١٥٦ ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة : ٤٠ ، وسيأتي غير منسوب في ٢٥ : ٨٣ ، وغير منسوب في ١٣ : ٥٨ برواية أخرى : " فظنوا بألفي فارس متلبب ". وهذا الشعر قاله في رثاء أخيه عبد الله بن الصمة ، وهو عارض ، المذكور في شعره . المدجج : الفارس الذي قد تدجج في شكته ، أي دخل في سلاحه ، كأنه تغطى به . والسراة جمع سري : وهم خيار القوم من فرسانهم . والفارسي المسرد : يعني الدروع الفارسية ، قال عمرو بن امرئ القيس الخزرجي :

إذا مشينا في الفارسي كما يمشى جمال مَصاعبٌ قُطُفُ

السرد : إدخال حلق الدرع بعضها في بعض. والمسرد : المحبوك النسج المتداخل الحلق. ينذر أخاه وقومه أنهم سوف يلقون عدوا من ذوى البأس قد استكمل أداة قتاله.

(٨)نقائض جرير والفرزدق : ٥٣ ، ٧٨٥ ، والأضداد لابن الأنباري . ١٢ وهو عميرة بن طارق بن ديسق اليربوعي ، قالها في خبر له مع الحوفزان ، ورواية النقائض : " وأجلس فيكم . . . " ، و " أجعل علمي ظن غيب مرجما " . وقبل البيت :

فلا تأمرني يا ابن أسماء بالتي ... تجر الفتى ذا الطعم أن يتكلما

ذو الطعم " ذو الحرم . وتجر ، من الإجرار : وهو أن يشق لسان الفصيل ، إذا أرادوا فطامه ، لئلا يرضع . يعني يحول بينه وبين الكلام .

بأن تغتزوا قومي وأقعد فيكم ... وأجعل مني الظن غيبا مرجما
يعني : وأجعل مني اليقين غيبا مرجما.

قال الزجاج:" الظن –ههنا- في معنى: اليقين، والمعنى: الذين يوقنون بذلك ولو كانوا شاكين، كانوا ضُلالاً كافرين، والظن: بمعنى اليقين موجود في اللغة"(١). ثم استشهد ببيت دريد السابق.

والثاني: وحكى المهدوي وغيره: أن {الظن} في هذه الآية، يصح أن يكون على بابه، والمعنى: يظنون أنهم ملاقو ربهم بذنوبهم ، لإشفاقهم من المعاصي التي كانت منهم(٢) .

قال ابن عطية:" وهذا تعسف، والظن في كلام العرب قاعدته الشك مع ميل إلى أحد معتقديه"(٣).

وقد قال: بعض أهل العلم من المتقدمين:"إن الظن يقع في معنى العلم الذي لم تشاهده، وإن كان قام في نفسك حقيقتُه"(٤).

قال الزجاج:"وهذا مذهب، إلا أن أهل اللغة لم يذكروا هذا"(٥).

قال ابن عطية:" وقد يوقع الظن موقع اليقين في الأمور المتحققة، لكنه لا يوقع فيما قد خرج إلى الحس، لا تقول العرب في رجل مرئي حاضر أظن هذا إنسانا وإنما تجد الاستعمال فيما لم يخرج إلى الحس بعد"(٦).

وقال بعض المفسرين: في قوله: {الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ}: "إنما استعمل الظن بمعنى العلم في هذا الموضع لأمرين:

أحدهما: أنه تنبيه أن علم أكثر الناس بالله في الدنيا، بالإضافة إلى علمه به في الآخرة كالظن في جنب العلم.

والثاني. أن العلم الحقيقي في الدنيا بأمور الآخرة لا يكاد يحصل إلا للنبيين والصديقين"(٧).

قوله تعالى: {وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} [البقرة : ٤٦]، " أي معادهم إليه يوم الدين"(٨).

قال أبو العالية:" يستيقنون أنهم يرجعون إليه يوم القيامة"(٩).

قال ابن عثيمين:" أي في جميع أمورهم، كما قال تعالى: {وإليه يرجع الأمر كله} [هود: ١٢٣] ، وقال تعالى: {وإلى الله ترجع الأمور} [البقرة: ٢١٠]"(١٠).

قال النسفي:" لا يملك أمرهم في الآخرة أحد سواه"(١١).

قال ابن كثير:" أي : أمورهم راجعة إلى مشيئته ، يحكم فيها ما يشاء بعدله ، فلهذا لما أيقنوا بالمعاد والجزاء سَهُل عليهم فعلُ الطاعات وترك المنكرات"(١٢).

قال السعدي:" فهذا الذي خفف عليهم العبادات وأوجب لهم التسلي في المصيبات، ونفس عنهم الكربات، وزجرهم عن فعل السيئات، فهؤلاء لهم النعيم المقيم في الغرفات العاليات، وأما من لم يؤمن بلقاء ربه، كانت الصلاة وغيرها من العبادات من أشق شيء عليه"(١٣).

واختلف في عود الضمير في قوله {إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}[البقرة:٤٦]، على ثلاثة وجوه(١):

وغزا الأمر واغتزاه : قصده ، ومنه الغزو : وهو السير إلى قتال العدو وانتهابه ، والمرجم : الذي لا يوقف على حقيقة أمره ، لأنه يقذف به على غير يقين ، من الرجم : وهو القذف . هذا ، والبيت ، كما رواه في النقائض ، ليس بشاهد على أن الظن هو اليقين . ورواية الطبري هي التي تصلح شاهدا على هذا المعنى .

(١) معاني القرآن: ١٢٦/١.
(٢) أنظر: المحرر الوجيز: ١٣٧/١.
(٣) أنظر: المحرر الوجيز: ١٣٧/١.
(٤) معاني القرآن: ١٢٦/١. قال الزجاج:" وهذا سمعته من إسماعيل بن إسحاق القاضي رحمه اللّه رواه عن زيد بن أسلم".
(٥) معاني القرآن: ١٢٦/١.
(٦) أنظر: المحرر الوجيز: ١٣٧/١.
(٧) القول نسبه الواحدي إلى الأخفش، ولم اجده في معاني القرآن، كما ذكره الرازي، دون ذكر تحديد القائل، أنظر: التفسير البسيط: ٤٦٢/٢، ومفاتيح الغيب: ٤٢٣/٢.
(٨) صفوة التفاسير: ٤٨/١.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٩٥):ص١٠٤/١.
(١٠) تفسير ابن عثيمين: ١٦٦/١.
(١١) تفسير النسفي: ٦٣/١.
(١٢) تفسير ابن كثير: ٢٥٤/١.
(١٣) تفسير السعدي: ٥١.

أحدها : أنه يعود على (الموت)، وأراد بالرجوع: الموت .
والثاني : أنه يعود على(الإعادة)، أي: أنهم راجعون بالإعادة في الآخرة، يعني: بالحشر والخروج إلى الحساب والعرض. وهو قول أبي العالية[٢] . واختاره الطبري[٣].
قال ابن عطية:" وتقوي هذا القول الآية المتقدمة قوله تعالى: ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [البقرة: ٢٨، الحج: ٦٦، الروم: ٤٠]"[٤].
والثالث : أنه يعود إلى(الرب)، فهم راجعون إليه، أي: لا يملك أحد لهم ضرّاً ولا نفعاً غيره كما كانوا في بدءِ الخلق .
والراجح هو القول الأخير، لأن "ظاهر الكلام والتركيب الفصيح أنه يعود إلى الرب ، وأن المعنى : وأنهم إلى ربهم راجعون ، وهو أقرب ملفوظ به"[٥].
وقد اختلف في تفسير (الرجوع) الذي في قوله { وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}[البقرة:٤٦]، وذكروا فيه وجهين:
أحدهما: أن المراد : الرجوع إلى الله تعالى يوم القيامة. وهذا مذهب أبي العالية[٦]، واختاره الطبري[٧].
والثاني: أن المراد: الرجوع الى الله تعالى بالموت[٨].
والراجح هو القول الأول، فالله تعالى أخبر في كتابه العزيز[٩]، أن مرجعهم إليه بعد إحيائهم، وذلك يوم القيامة. والله تعالى أعلم.
قال أبو حيان:" وليس في قوله : وأنهم إليه راجعون دلالة للمجسمة والتناسخية على كون الأرواح قديمة ، وإنما كانت موجودة في عالم الروحانيات. قالوا : لأن الرجوع إلى الشيء المسبوق بالكون عنده"[١٠].
الفوائد:
١. من فوائد الآية: إثبات ملاقاة الله عزّ وجلّ؛ لأن الله مدح الذين يتيقنون بهذا اللقاء.
٢. ومنها: إثبات رؤية الله عزّ وجلّ، كما ذهب إليه كثير من العلماء؛ لأن اللقاء لا يكون إلا مع المقابلة، وهذا يعني ثبوت الرؤية؛ فإن استقام الاستدلال بهذه الآية على رؤية الله فهذا مطلوب؛ وإن لم يستقم الاستدلال فثَمّ أدلة أخرى كثيرة تدل على ثبوت رؤية الله عزّ وجلّ يوم القيامة.
٣. ومنها: أن هؤلاء المؤمنين يوقنون أنهم راجعون إلى الله في جميع أمورهم؛ وهذا يستلزم أموراً:
أولاً: الخوف من الله؛ لأنك ما دمت تعلم أنك راجع إلى الله، فسوف تخاف منه.
ثانياً: مراقبة الله عزّ وجلّ . المراقبة في الجوارح .؛ والخوف في القلب؛ يعني أنهم إذا علموا أنهم سيرجعون إلى الله، فسوف يخشونه في السرّ، والعلانية.
ثالثاً: الحياء منه؛ فلا يفقدك حيث أمرك، ولا يجدك حيث نهاك.

القرآن

{يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٧)} [البقرة: ٤٧]

التفسير:
يا ذرية يعقوب تذكَّروا نعمي الكثيرة عليكم، واشكروا لي عليها، وتذكروا أني فَضَّلْتكم على عالَمي زمانكم بجعل النبوة والملك من أسلافكم، والكتب المنزَّلة كالتوراة والإنجيل.

---

(١) أنظر:البحر المحيط: ١٥٧/١، و النكت والعيون: ١١٦/١.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٩٥):ص١٠٤/١، والطبري(٨٦٧):ص٢٣/١.
(٣) انظر: تفسيره: ٢٣/١.
(٤) المحرر الوجيز: ١٣٨/١.
(٥) البحر المحيط: ١٥٧/١.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٩٥):ص١٠٤/١، والطبري(٨٦٧):ص٢٣/١.
(٧) انظر: تفسيره: ٢٣/١.
(٨) انظر: تفسيره: ٢٣/١.
(٩) قال تعالى: {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [البقرة : ٢٨].
(١٠) البحر المحيط: ١٥٧/١.

قال ابن عطية:" قد تكرر هذا النداء والتذكير بالنعمة، وفائدة ذلك أن الخطاب الأول يصح أن يكون للمؤمنين، ويصح أن يكون للكافرين منهم، وهذا المتكرر إنما هو للكافرين، بدلالة ما بعده، وأيضا فإن فيه تقوية التوقيف وتأكيد الحض على ذكر أيادي الله وحسن خطابهم بقوله: فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العالَمِينَ لأن تفضيل آبائهم وأسلافهم تفضيل لهم، وفي الكلام اتساع"[(١)].

قوله تعالى: {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ}[البقرة:٤٧،]، "أي: يا أولاد إسرائيل"[(٢)].

و{إِسْرَائِيلَ}، يقصد به: يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، إذ كان يدعى (إسرائيل) [(٣)].

قوله تعالى:{ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ}[البقرة:٤٧]، أي:" اذكروا فعلي بكم إذ أنعمت عليكم"[(٤)].

قال الصابوني: أي: "اذكروا ما أنعمت به عليكم وعلى آبائكم"[(٥)].

قال ابن عثيمين:" والمراد بـ "النعمة"- وإن كانت مفردة- جميع النعم، كما قال الله تعالى: {وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها} [إبراهيم: ٣٤]" [(٦)].

وقوله تعالى:{ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ}[البقرة:٤٧]، " أي على أجدادكم"[(٧)].

قال الثعلبي:" وذلك أن الله تعالى فلق لهم البحر وأنجاهم من فرعون وأهلك عدوّهم فأورثهم ديارهم وأموالهم، وظلل عَلَيْهِمُ الْغَمامَ في التيه من حر الشمس، وجعل لهم عمودا من نور يضيء لهم بالليل إذا لم يكن ضوء القمر، وأنزل عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوى، وفجّر لهم اثني عشرة عينا، وأنزل عليهم التوراة فيها بيان كلّ شيء يحتاجون إليه في نعم من الله كثيرة لا تحصى" [(٨)].

وروي "عن قتادة: أن عمر بن الخطاب، كان إذا تلا: {اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم}، قال: مضى القوم، وإنما يعني به أنتم"[(٩)].

وقد ذكر القرآن الكريم عشر نِعم أنعم الله سبحانه وتعالى بها على بني إسرائيل وهي[(١٠)]:

١- نَجاتهم من فرعون؛ فقد كان يُذيقهم العذاب الشديد؛ يُذبّح الذكور مِنهم ويُبقي الإناث أحياء.

٢- عبور بَني إسرائيل للبحر الأحمر سالمين بعد تَهيئة الله سبحانه وتعالى للطّريقِ اليابس في البحر ليسلكوه، وغرق فِرعون وجنوده.

٣- قبولُ الله سُبحانه وتعالى لتوبة بني إسرائيل وعَفوه عنهم.

٤- إنزال التّوراة على نبيّ الله موسى عليه الصلاة والسلام، ليَهتدوا بها، ويتدبّروها، ويسيروا على شرعها.

٥-التخلّص بشكلٍ جماعي من المجرمين بعد أن اتّخذ بنو إسرائيل العجل إلها، فعَبدوه من دونِ الله.

٦-إحياؤهم بعد موتهم الموت الحقيقي، ليستوفوا آجالهم المقدرة لهم.

٧- وِقايتهم من حرّ الشّمس أثناء وجودهم في وادي التيه (الموجود بين الشام ومصر) مدّة أربعين سنة، وذلك من خلال سترهم بالسّحاب الأبيض الرقيق.

٨- إنعام الله سُبحانه وتعالى على بني إسرائيل بأنواع كثيرة من الطّعام والشّراب كالمنّ، والسلوى.

٩- الإنعام عليهم بعد خروجهم من التّيه بدخول القرية، قال جمهور العلماء بأنها بيت المقدس، وقيل بأنّها أريحا من بيت المقدس.

١٠-الإنعام عليهم بسقياهم؛ حيث إنّهم طلبوا من نبيّ الله موسى عليه السّلام السقيا، فأمره الله أن يضرب بعَصاه أي حجر فانفجرت منه المياه بقوة، وخرجت منه اثنتا عشرة عيناً، لكلّ جماعةٍ منهم عين يَشربون منها.

---

(١) المحرر الوجيز: ١٣٨/١.
(٢) تفسير ابن عثيمين:١٤٢/١.
(٣) انظر: تفسير الطبري: ٥٥٣/١. وتنفسير القرطبي: ٣٣٠/١، والمحرر الوجيز:١٨٥/١.
(٤) تفسير الطبري: ٥٠١/١.
(٥) صفوة التفاسير: ٤٦/١.
(٦) تفسير ابن عثيمين:١٦٧/١.
(٧) تفسير الثعلبي: ١٨٦/١.
(٨) تفسير الثعلبي: ١٨٦/١.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٩٦):ص١٠٤/١.
(١٠) انظر: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر، سوريا، ط١:٢/ ١٦٠-١٦٨.

قوله تعالى:{ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ}[البقرة:٤٧]،" أي وأعطيتكم الفضل والزيادة على غيركم من الشعوب" (١).

قال الزمخشري:أي" على الجم الغفير من الناس"(٢).

قال الثعلبي:" يعني عالمي زمانكم"(٣).

قال قتادة:" فضلهم على عالم ذلك الزمان"(٤). وروي عن مجاهد(٥)، وابن زيد(٦) مثل ذلك.

وقال أبو العالية:" بما أعطوا من الملك والرسل والكتب ، على عالم من كان في ذلك الزمان ، فإن لكل زمان عالما"(٧).

قلت: ظاهر هذه الآية أن بني إسرائيل هم أفضل العالمين، بينما المعروف أن أمة محمد ﷺ هي أفضل الأمم على الإطلاق، والمقصود بالتفضيل الوارد في هذه الآية الكريمة ثلاثة وجوه، وهي:

أحدها: إنّ المقصود بالعالم في الآية الجمع الكثير من الناس، وعلى هذا يكون تفضيل بني إسرائيل على مجموعةٍ من الناس لا على جميع البشر، والدليل على ذلك مأخوذٌ من قولِ الله سُبحانه وتعالى في سورة الأنبياء: {وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء : ٧١]، فالمُراد بالعَالمين الواردة في الآية لا يشمل جَميع الناس، إنّما هو مَخصوصٌ بفئةٍ مُعيّنة من الخلق، وكذلك الأمر بالنسبة للأرض لا يُراد بها كلّ بقاعها وإنّما إشارة إلى أرض مُعيّنة ومخصوصة.

والثاني: المقصود بالتفضيل هنا أي بما أفاض الله سبحانه وتعالى عليهم من النعم دون غيرهم، والتي خصّهم بها عن الناس، بالإضافة إلى جعل النبوة والملك في أسلافهم، وذلك باعتبار أنّ الخطاب كان موجهاً لهم وقت نزول القرآن الكريم، ودليل ذلك قول الله سبحانه وتعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ} [المائدة : ٢٠].

والثالث: المقصود بالتفضيل الوارد في الآية هو فقط في زمانهم، والدليل على ذلك قول الله سبحانه وتعالى: {وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ} [الدخان : ٣٢]. وبه قال قتادة(٨)، ومجاهد(٩)، وابن زيد(١٠) ،وأبو العالية(١١). وهذا مذهب الجمهور.

الفوائد:

١. من فوائد الآية: أنه يجب على بني إسرائيل أن يذكروا نعمة الله عليهم، فيقوموا بشكرها؛ ومن شكرها أن يتبعوا محمداً صلى الله عليه وسلم

٢. ومنها: إظهار أن هذه النعمة لم تأت بكسبهم، ولا بكدّهم، ولا بإرث عن آبائهم؛ وإنما هي بنعمة الله عليهم؛ لقوله تعالى: {أنعمت عليكم}.

٣. ومنها: أن بني إسرائيل أفضل العالم في زمانهم؛ لقوله تعالى: { وأني فضلتكم على العالمين }؛ لأنهم في ذلك الوقت هم أهل الإيمان؛ ولذلك كُتب لهم النصر على أعدائهم العمالقة، فقيل لهم: {ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم} [المائدة: ٢١] ؛ و "الأرض المقدسة" هي فلسطين؛ وإنما كتب الله أرض فلسطين لبني إسرائيل في عهد موسى؛ لأنهم هم عباد الله الصالحون؛ والله سبحانه وتعالى يقول: {ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون} [الأنبياء: ١٠٥] ، وقال موسى لقومه: {إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده} [الأعراف: ١٢٨] ، ثم قال: {والعاقبة للمتقين} [الأعراف: ١٢٨] ؛ إذاً المتقون هم

---

(١) تفسير المراغي: ١٠٤/١.
(٢) الكشاف: ١٣٥/١.
(٣) تفسير الثعلبي: ١٩٠/١.
(٤) أخرجه الطبري(٨٦٨):ص٢٤/٢.
(٥) أخرجه الطبري(٨٧٠):ص٢٤/٢.
(٦) أخرجه الطبري(٨٧٢):ص٢٤/٢.
(٧) أخرجه الطبري(٨٦٩):ص٢٤/٢.
(٨) أخرجه الطبري(٨٦٨):ص٢٤/٢.
(٩) أخرجه الطبري(٨٧٠):ص٢٤/٢.
(١٠) أخرجه الطبري(٨٧٢):ص٢٤/٢.
(١١) أخرجه الطبري(٨٦٩):ص٢٤/٢.

الوارثون للأرض؛ لكن بني إسرائيل اليوم لا يستحقون هذه الأرض المقدسة؛ لأنهم ليسوا من عباد الله الصالحين؛ أما في وقت موسى فكانوا أولى بها من أهلها؛ وكانت مكتوبة لهم، وكانوا أحق بها؛ لكن لما جاء الإسلام الذي بُعث به النبي صلى الله عليه وسلم صار أحق الناس بهذه الأرض المسلمون . لا العرب .؛ ففلسطين ليس العرب بوصفهم عرباً هم أهلها؛ بل إن أهلها المسلمون بوصفهم مسلمين . لا غير وبوصفهم عباداً لله عزّ وجلّ صالحين؛ ولذلك لن ينجح العرب فيما أعتقد . والعلم عند الله . في استرداد أرض فلسطين باسم العروبة أبداً؛ ولا يمكن أن يستردوها إلا باسم الإسلام على ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم، وأصحابه، كما قال تعالى: {إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين} [الأعراف: ١٢٨] ؛ ومهما حاول العرب، ومهما ملؤوا الدنيا من الأقوال والاحتجاجات، فإنهم لن يفلحوا أبداً حتى ينادوا بإخراج اليهود منها باسم دين الإسلام . بعد أن يطبقوه في أنفسهم .؛ فإن هم فعلوا ذلك فسوف يتحقق لهم ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم "لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ، فَيَقْتُلُهُمُ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى يَخْتَبِئَ الْيَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ، وَالشَّجَرِ، فَيَقُولُ الْحَجَرُ، أَوِ الشَّجَرُ: يَا مُسْلِمُ، يَا عَبْدَ اللَّهِ، هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي، فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ"(١) ؛ فالشجر، والحجر يدل المسلمين على اليهود يقول: "يا عبد الله" . باسم العبودية لله .، ويقول: "يا مسلم" . باسم الإسلام .؛ والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: "يقاتل المسلمون اليهود" ، ولم يقل: "العرب".

ولهذا أقول: إننا لن نقضي على اليهود باسم العروبة أبداً؛ لن نقضي عليهم إلا باسم الإسلام؛ ومن شاء فليقرأ قوله تعالى: {ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون} [الأنبياء: ١٠٥] : فجعل الميراث لعباده الصالحين؛ وما عُلِّق بوصف فإنه يوجد بوجوده، وينتفي بانتفائه؛ فإذا كنا عبادَ الله الصالحين ورثناها بكل يسر وسهولة، وبدون هذه المشقات، والمتاعب، والمصاعب، والكلامِ الطويل العريض الذي لا ينتهي أبداً!! نستحلها بنصر الله عزّ وجلّ، وبكتابة الله لنا ذلك . وما أيسره على الله .! ونحن نعلم أن المسلمين ما ملكوا فلسطين في عهد الإسلام الزاهر إلا بإسلامهم؛ ولا استولوا على المدائن عاصمة الفرس، ولا على عاصمة الروم، ولا على عاصمة القبط إلا بالإسلام؛ ولذلك ليت شبابنا يعون وعياً صحيحاً بأنه لا يمكن الانتصار المطلق إلا بالإسلام الحقيقي . لا إسلام الهوية بالبطاقة الشخصية .! ولعل بعضنا سمع قصة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه حينما كسرت الفُرس الجسور على نهر دجلة، وأغرقت السفن لئلا يعبر المسلمون إليهم؛ فسخَّر الله لهم البحر؛ فصاروا يمشون على ظهر الماء بخيلهم، ورجلهم، وإبلهم؛ يمشون على الماء كما يمشون على الأرض لا يغطي الماء خفاف الإبل؛ وإذا تعب فرس أحدهم قيض الله له صخرة تربو حتى يستريح عليها؛ وهذا من آيات الله . ولا شك .؛ والله تعالى على كل شيء قدير؛ فالذي فلق البحر لموسى . عليه الصلاة والسلام . ولقومه، وصار يبساً في لحظة، ومشوا عليه آمنين؛ قادر على ما هو أعظم من ذلك.

فالحاصل أن بني إسرائيل لا شك أفضل العالمين حينما كانوا عباد الله الصالحين؛ أما حين ضربت عليهم الذلة، واللعنة، والصَّغار فإنهم ليسوا أفضل العالمين؛ بل منهم القردة، والخنازير؛ وهم أذل عباد الله لقوله تعالى: {ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباؤوا بغضب من الله} [آل عمران: ١١٢] ، وقوله تعالى: {لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون} [الحشر: ١٤] .

ويدل لذلك . أي أن المراد بقوله تعالى: { فضلتكم على العالمين } أي في وقتكم، أو فيمن سبقكم: قوله تعالى في هذه الأمة أمة محمد صلى الله عليه وسلم: {كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم} [آل عمران: ١١٠] ؛ فقوله تعالى: {كنتم خير أمة أخرجت للناس} صريح في تفضيلهم على الناس؛ ولهذا قال تعالى: { ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم }؛ وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أننا نوفي سبعين أمة نحن أكرمها، وأفضلها عند الله عزّ وجل(٢) . وهذا أمر لا شك فيه، ولله الحمد.

---

(١) أخرجه البخاري ص٢٣٥، كتاب الجهاد والسير، باب ٩٤: قتال اليهود، حديث رقم ٢٩٢٦؛ وأخرجه مسلم ص١١٨٤، كتاب الفتن، باب ١٨: لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء، حديث رقم ٧٣٣٩ [٨٢] ٢٩٢٢.

(٢) أخرجه أحمد ٢/٥، حديث رقم ٢٠٢٦٤؛ وأخرجه الترمذي ص١٩٥٤، كتاب تفسير القرآن، باب ٣: ومن سورة آل عمران، حديث رقم ٣٠٠١؛ وأخرجه ابن ماجة ص٢٧٣٧، كتاب الزهد، باب ٣٤: صفة أمة محمد صلى الله عليه وسلم، حديث رقم ٤٢٨٨، وقال الألباني في صحيح الترمذي: حسن ٣٢/٣، حديث رقم ٢٣٩٩.

٤. ومن فوائد الآية: أن الله تعالى إذا فضل أحداً بعلم، أو مال، أو جاه فإن ذلك من النعم العظيمة؛ لقوله تعالى: { وأني فضلتكم على العالمين }، خصها بالذكر لأهميتها.
٥. ومنها: تفاضل الناس، وأن الناس درجات؛ وهذا أمر معلوم . حتى الرسل يفضل بعضهم بعضاً، كما قال تعالى: {تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض} [البقرة: ٢٥٣] ، وقال تعالى: {ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض} [الإسراء: ٥٥] .

القرآن

{وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٤٨)} [البقرة : ٤٨]

التفسير:

وخافوا يوم القيامة، يوم لا يغني أحد عن أحد شيئًا، ولا يقبل الله شفاعة في الكافرين، ولا يقبل منهم فدية، ولو كانت أموال الأرض جميعًا، ولا يملك أحد في هذا اليوم أن يتقدم لنصرتهم وإنقاذهم من العذاب.

سبب للنزول

في سبب نزول الآية: قال الزجاج: " كانت اليهود تزعم أن آباءَها الأنبياء تشفع لها عند الله فأيئَسُهم اللّه من ذلك"[١].

قوله تعالى:{وَاتَّقُوا يَوْمًا}[البقرة:٤٨]، أي:" واخشوا عقاب يوم"[٢].

قال الثعلبي: " أي: واحذروا يوما واخشوا يوما"[٣].

قال ابن عثيمين:" أي: اتخذوا وقاية من هذا اليوم، بالاستعداد له بطاعة الله"[٤].

قال الصابوني:" أي: خافوا ذلك اليوم الرهيب الذي"[٥].

قوله تعالى:{لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا}[البقرة:٤٨]، أي:" لا تقضي فيه نفسٌ عن أخرى شيئاً من الحقوق"[٦].

قال أبو مالك:"يعني: لا تغني نفس مؤمنة عن نفس كافرة من المنفعة شيئا"[٧].

قال الطبري: أي: "لا تقضي نفس عن نفس حقا لزمها لله جل ثناؤه ولا لغيره"[٨].

قال الثعلبي:" أي: لا تقضي ولا تكفي ولا تغني"[٩].

قال الواحدي:" أي: لا يقابل مكروهها بشيء يدرؤه عنها.و{ لا تجزي }،معناه: لا تقضي ولا يغني، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم لأبي بردة بن نِيَار :"ولا تجزي عن أحد بعدك"[١٠]، معناه: ولا تقضي"[١١].

---

(١) معاني القرآن: ١٢٨/١، وانظر: العجاب: ٢٥٥/١-٢٥٦.
(٢) تفسير البغوي: ٩٠/١.
(٣) تفسير الثعلبي: ١٩٠/١.
(٤) تفسير ابن عثيمين:١٧٢/١.
(٥) صفوة التفاسير: ٤٨/١.
(٦) صفوة التفاسير: ٤٨/١.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٩٩):ص١٠٤/١.
(٨) تفسير الطبري: ٣٢/٢.
(٩) تفسير الثعلبي: ١٩٠/١.
(١٠)قطعة من حديث في قصة أبي بردة بن نِيَار، حينما ذبح قبل صلاة العيد، فأذن له النبي صلى الله عليه وسلم أن يضحي بالجذعة المعزى. أخرجه البخاري في عدة مواضع، فأورده (٩٥٥) كتاب (العيدين) باب (الأكل يوم النحر). و (٩٦٥) باب (الخطبة بعد العيد)، و (٩٦٨) باب: (التبكير إلى العيد)، و (٩٨٣) باب (كلام الإمام والناس في خطبة العيد). و (٥٥٤٥) كتاب (الأضاحي) باب (سنة الأضحية)، و (٥٥٥٦) باب (قول النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بردة ضح بالجذع من المعز)، و (٥٥٦٠) باب (الذبح بعد الصلاة). و (٥٥٦٣) باب (من ذبح قبل صلاة وأعاد). أخرجه مسلم من عدة طرق (١٩٦١) كتاب الأضاحي، وأخرجه أبو داود (٢٨٠٠) كتاب: (الأضاحي) باب (ما يجوز من السن في الضحايا)، وأحمد في "مسنده" ٤/ ٢٨٢، ٢٩٨، ٣٠٣ كلهم عن البراء.
(١١) التفسير البسيط: ٤٦٧/٢-٤٦٨. وذكره أبو عبيد عن الأصمعي. "غريب الحديث" ١/ ٤٣، وانظر: "تهذيب اللغة" (جزى) ١/ ٦٠١.

قال القرطبي:"فمعنى لا تجزي: لا تقضي ولا تغني ولا تكفي إن لم يكن عليها شي فإن كان فإنها تجزي وتقضي وتغني بغير اختيارها من حسناتها ما عليها من الحقوق"(١).

قال ابن عثيمين:" {نفس} نكرة في سياق النفي، فيكون عاماً؛ فلا تجزي، ولا تغني نفس عن نفس أبداً، حتى الرسول صلى الله عليه وسلم لا يغني شيئاً عن أبيه، ولا أمه(٢)؛ وقد نادى صلى الله عليه وسلم عشيرته

---

(١) تفسير القرطبي: ٣٧٨/١.

(٢) قلت إن الكلام في والدا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرع عن الكلام في حكم أهل الفترة ، والفترة معناها كما قال ابن كثير : "هي ما بين كل نبيين كانقطاع الرسالة بين عيسى عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وسلم".[تفسير القرآن العظيم ٢ / ٣٥ ، وانظر : جمع الجوامع للسبكي ١ / ٦٣ وروح المعاني للآلوسي ٦ / ١٠٣].

وقد قسّمهم أهل العلم إلى قسمين: القسم الأول: من بلغته الدعوة ، والقسم الثاني: من لم تبلغه الدعوة وبقي على حين غفلة، ويشمل القسم الأول نوعين:

أولا: من بلغته الدعوة ووحّد ولم يشرك كقس بن ساعدة وزيد بن عمرو بن نفيل. (انظر : البداية والنهاية ٢ / ٢٣٠ وفتح الباري ٧ / ١٤٧].

ثانيا: من بلغته الدعوة ولكنه غيّر وأشرك كعمرو بن لحي الذي غيّر دين إبراهيم ، والذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم : " رأيت عمرو بن عامر بن لحي الخزاعي يجرّ قصبه في النار ".[رواه البخاري (٣٥٢١) ومسلم (٢٨٥٦)].

وقد جاء النص عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن والديه في النار ، روى مسلم (٢٠٣) أن رجلاً قال : "يا رسول الله أين أبي ؟ قال : في النار ، فلما قضى دعاه فقال : إن أبي وأباك في النار".

وفي شأن أمه قال عليه الصلاة والسلام : "استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي ، واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي ".[رواه مسلم (٩٧٦)].

يقول النووي رحمه الله – شارحاً الحديث الأول: " فيه أن من مات في الفترة على ما كانت عليه العرب من عبادة الأوثان فهو من أهل النار ، وليس هذا مؤاخذة قبل بلوغ الدعوة ، فإن هؤلاء كانت قد بلغتهم دعوة إبراهيم وغيره من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم" .[شرح صحيح مسلم ٣ / ٧٩].

هذا وقد قال بعض أهل العلم منهم القرطبي، والحافظ جلال الدين السيوطي، القاضى أبو بكر ابن العربى أحد أئمة المالكية، والشيخ محمد بخيت، والدكتور محمد فؤاد شاكر، وآخرون، بأنهما ناجيان من النار.[أنظر: التذكرة للقرطبى ١٣-١٥، والدر المنثور للسيوطي: ٢٩٤/٢، ومسالك الحنفا ، ضمن الحاوى ، ١٣١/٢ ،وفتاوى الأزهر فى فتوى الشيخ محمد بخيت فى شأن أهل الفترة التى بتاريخ ربيع الأول ١٣٣٨ هجرية - ٢٥ نوفمبر ١٩١٩ م، ودراسات فى علوم القرآن والسنة لفضيلة الدكتور ص ١١٥- ١١٩].

وقد ذكر الإمام السيوطي في رسالته السادسة (السبل الجلية فى الآباء العلية) بقوله : "إنى لم أدع أن المسألة إجماعية، بل هى مسألة ذات خلاف، غير أنى اخترت أقوال القائلين بالنجاة، لأنها أنسب بهذا المقام"[السبل الجلية، ضمن مجموعة رسائل الإمام الحافظ جلال الدين السيوطى، فى تحقيق نجاة أبوى المصطفى صلى الله عليه وسلم وأنهم من أهل الجنة فى الآخرة، تحقيق: حسين مخلوف: ص ١٩٠].

واحتجوا من وجوه:

أحدها: أن المراد بالأب، عمه أبو طالب والعرب تطلق الأب على العم، وجاء بذلك الاستعمال كتاب الله العزيز في موضعين:

أحدهما: قطعي المتن قطعي الدلالة ، وهو قوله تعالى في البقرة:{ قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـهَكَ وَإِلَـهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ }[البقرة:١٣٣].

وإسماعيل عمه قطعاً ؛ فهو يعقوب بن سحاق بن إبراهيم.

والموضع الثاني: قطعي المتن لكنه ظني الدلالة ، وهو قوله تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِن قَبْلُ } إلى أن قال { :وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً } [الأنعام:٨٤-٨٦].

فهو نص قرآني على أن إبراهيم يطلق عليه أبٌ للوط ، وهو عمه على ما وردت به الأخبار ، إلا أن هذا النص ظني الدلالة لأنه يحتمل أن يكون الضمير من قوله تعالى:{وَمِن ذُرِّيَّتِهِ } يرجع إلى نوح ، لأنه قال في الآية من قبل ذلك:{وَنُوحاً هَدَيْنَا مِن قَبْلُ }، ولكنه احتمال مرجوح ؛ لأن الكلام عن إبراهيم.

وعلى هذا القول: فإنه يحتمل أنه صلى الله عليه وسلم، لما سأله الأعرابي بقوله: أين أبي ؟ وقال له: إن أباك في النار وولّى والحزن باد عليه ، فقالصلى الله عليه وسلم:" ردوه علي " فلما رجع قال له: " إن أبي وأباك في النار". يحتمل أنه يعني بأبيه: أبا طالب ؛ لأن العرب تسمي العم أبا لا سيما إذا انضمّ إلى العمومية التربية , والعطف والدفاع عنه.

وبذلك: إن التحقيق في أبوي رسول الله صلى الله عليه وسلم- أنهما من أهل الفترة ؛ لأن تعريف أهل الفترة أنهم القوم الذين لم يدركوا النذارة قبلهم , ولم تدركهم الرسالة التي من بعدهم .[من كتاب مجالس مع فضيلة الشيخ محمد الأمين الجنكي الشنقيطي:ص٤٠].

والثاني: احتجوا بأقوال أنكرها عامة أهل العلم ، وحكموا بأن الأحاديث الواردة في ذلك موضوعة أو ضعيفة جداً. [انظر : الحاوي للفتاوى ٢ / ٢٠٢].

الأقربين؛ فجعل ينادي كل واحد باسمه، ويقول: "يا صفية عمة رسول الله، لا أغني عنك من الله شيئاً؛ يا فاطمة بنت رسول الله، لا أغني عنك شيئاً.."(١)، مع أن العادة أن الإنسان يدافع عن حريمه، وعن نسائه؛ لكن في يوم القيامة ليست هناك مدافعة؛ بل قال الله تعالى: {فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون} [المؤمنون: ١٠١] : تزول الأنساب"(١).

وقد ذكر أهل التفسير في تعالى:{لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً}[البقرة:٤٧]، وجوها:

أحدها : معناه :لا تُغنِي ، كما يقال : البقرة تَجْزِي عن سبعةٍ أي تُغِني ، وهو قول السدي(٢)، وسعيد بن جبير(٣) وأبي مالك(٤)، وقال به جماعة من أهل التفسير(٥).

والثاني : معناه لا تقضي، ومنه قولهم: جزى الله فلاناً عني خيراً ، أثابه عني وقضاه عني، وهو قول المفضل(٦)، وجماعة من أهل التفسير(٧).

ويسند هذا القول أن أصل الجزاء في كلام العرب: القضاء والتعويض(٨).

والثالث: {لاَّ تَجْزِي} أي: لا تكفي. وهذا قول بعض المفسرين(٩).

والرابع: وقيل: لا تُكافِئ(١٠).

والأقرب من حيث اللغة هو القول الثاني، والمعنى في كل متقارب، والمراد: أنه لا يتحمل أحد عن أحد شيئاً. والله أعلم.

وفي قوله تعالى:{ لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا}[البقرة: ٤٨]، وجوه من القراءة:

أحدها: { لَا تَجْزِي}، قرأ بها الجمهور.

والثاني:{لا تُجزئ}، مضمومة (التاء) مهموزة (الياء). قرأ بها أبو السماك العدوي، من (أجزأ، يجزي) إذا كفي(١١)، ومن ذلك قول الشاعر(١٢):

قلت: إن المسألة خلافية، وذلك لورود نصوص ظاهرها فيه شي من التعارض، كما أن هذه المسألة ليست من مسائل الاعتقاد ولا العمل، فلم ينشغل بها السلف، لكونها من فضول العلم، أريد أن أشير بأنه لا دليل ينص على أن كلمة (أبي)، تشير إلى والد الرسول(عبدالله) تحديدا، وذلك للاحتمالات المشار إليها، فالمسألة ظنية الدلالة، كما أن دعوى الإجماع في هذه المسألة دعوى عريضة ولا يخفى ما فيها، وكلام السيوطي ليس بالقوي، من التكلف. وأختم كلامي بقول الإمام الصنعاني-رحمه الله-:" "إن مسألة إيمان أبوي المصطفى -صلى الله عليه وآله وسلم- من مسائل الفضول، لا يخوض فيها من هو بمهمات دينه مشغول".[جموع رسائل الصنعاني:رقم ٧].

والله تعالى أعلم.

(١) أخرجه البخاري ص٢٢١، كتاب الوصايا، باب ١١: هل يدخل النساء والولد في الأقارب؟ حديث رقم ٢٧٥٣؛ وأخرجه مسلم ص٧١٦، كتاب الإيمان، باب ٨٩: في قوله تعالى: (وأنذر عشيرتك الأقربين...)، حديث رقم ٥٠٤ [٣٥١] ٢٠٦.

(١) تفسير ابن عثيمين: ١٧٢/١.

(٢) أنظر: تفسير الطبري(٨٧٤):ص٢٧/٢.

(٣) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم:١٠٤/١.

(٤) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٤٩٩):ص١٠٤/١.

(٥) منهم: ابن جرير في جامع البيان: ٢٧/٢، وابن عطية في المحرر الوجيز: ٢٠٨/١، والسمرقندي في بحر العلوم: ١١٦/١، ومكي بن أبي طالب في المشكل: ٩١، وابن كثير في تفسير القرآن العظيم: ١١٤/١، والغرناطي في التسهيل: ٨٣/١، والعجيلي في الفتوحات الإلهية: ٥٠/١، والسعدي في تيسير الكريم الرحمن: ٣٤.

(٦) نقلا عن: النكت والعيون: ١١٦/١-١١٧.

(٧) منهم: ابن قتيبة في غريب القرآن: ٤١، وابن الجوزي في زاد المسير: ٧٦/١، والزمخشري في الكشاف: ٢٧٨/١ والبغوي في معالم التنزيل: ٩٠/١، والبيضاوي في أنوار التنزيل: ٥٥/١، والنسفي في تفسيره: ٤٧/١، والخازن في لباب التأويل: ٤٣/١، والكوكباني في تيسير المنان تفسير القرآن: ٩٣٩/٢، والشوكاني في فتح القدير: ١٢١/١، والقاسمي في محاسن التأويل: ١٢٠/٢، وابن عاشور في التحرير والتنوير: ٤٨٤/١.

(٨) أنظر: تفسير الطبري: ٢٧/٢، وتهذيب اللغة للأزهري: ١٤٢/١-١٤٣، ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس: ٤٥٦/١، والصحاح للجوهري: ٢٣٠٢/٦، ولسان العرب لابن منظور: ٦٢٠/١، وتاج العروس للزبيدي: ٢٨٤/١٩، والمفردات للراغب: ٩٣

(٩)انظر: المحرر الوجيز لابن عطية: ٢٠٨/١، معالم التنزيل للبغوي: ٩٠/١، وغريب القرآن لابن الملقن: ٥٣، وغيرها.

(١٠)انظر: المحرر الوجيز لابن عطية: ٢٠٨/١، معالم التنزيل للبغوي: ٩٠/١، وغريب القرآن لابن الملقن: ٥٣، وغيرها.

(١١) أنظر: تفسير الثعلبي: ١٩٠/١.

(١٢) لم أتعرف على قائله، والبيت من شواهد الثعلبي في تفسيره: ١٩٠/١، والسمين الحلبي في الدر المصون: ٣٣٧/١.

وأجزأت أمر العالمين ولم يكن   ليجزي إلّا كامل وابن كامل

قال الزمخشري: "ومن قرأ (لا تجزئ) من أجزأ عنه إذا أغنى عنه، فلا يكون في قراءته إلا بمعنى شيئا من الإجزاء"[١].

والثالث: وقرأ أبو السرار الغنوي : "لا تجزى نسمة عن نسمة شيئاً"[٢].

قوله تعالى: {وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ}[البقرة:٤٨]، "أي لا تقبل شفاعة في نفس كافرة بالله أبداً"[٣].

أخرج ابن أبي حاتم "عن الحسن: في قوله: {ولا يقبل منها شفاعة}، فقال: يوم القيامة يوم لا ينفع فيه شفاعة شافع أحدا"[٤]. قال ابن أبي حاتم: "يعني من الكفار"[٥].

قال الزمخشري:" وقيل : كانت اليهود تزعم أن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم فأويسوا"[٦].

وقال أهل العلم: "ليس معنى: {وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ} أن هناك شفاعة لا تقبل، وإنما المعنى لا يكون شفاعة فيكون لها قبول، كما أن قوله: {لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا} [البقرة: ٢٧٣]، معناه: لا يكون منهم سؤال فيكون إلحاف، ويقول امرؤ القيس[٧]:

عَلَى لاَحِبٍ لاَ يُهْتَدَى لِمَنَاره ... إِذَا سَافَهُ العَوْدُ الدِّيَافِيُّ جَرْجَرَا

أي ليس هناك (منار) فيكون اهتداء، وكقوله أيضًا[٨]:

وَلاَ تَرَى الضَّبَّ بهَا يَنْجَحِرْ ... لاَ يُفْزِعُ الأَرْنَبَ أَهْوَالُهَا

أي ليس هناك (ضب) فيكون منه انجحار"[٩].

قلت: ظاهر الآية عدم قبول الشفاعة مطلقاً يوم القيامة لكنه بين في مواضع أخرى أن الشفاعة المنفية هي الشفاعة للكفار" وأن قوله : {وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ}، إنما هي لمن مات على كفره غير تائب إلى الله عز وجل"[١٠]، والشفاعة لغيرهم بدون إذن رب السموات والأرض، أما الشفاعة للمؤمنين بإذنه فهي ثابتة بالكتاب والسنة والإجماع، والشفاعة لا تكون إلا بشرطين :

احدهما: أن يأذن الله بها .

والثاني:أن يكون راضياً عمن شفع وعمن شفع له .

كما قال تعالى:

- {مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ} [البقرة : ٢٥٥] .
- {يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا} [طه : ١٠٩].
- {لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا} [مريم : ٨٧].
- {يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا} [طه : ١٠٩].
- {وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} [سبأ : ٢٣].

---

(١) الكشاف: ١٣٥/١.

(٢) الكشاف: ١٣٥/١.

(٣) صفوة التفاسير: ٤٨/١.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(٥٠٠):ص١٠٥/١.

(٥) تفسير ابن أبي حاتم: ١٠٥/١.

(٦) الكشاف: ١٣٦/١.

(٧)يروي البيت في جميع المصادر (بمناره) وفي "ديوان امرئ القيس" (النباطي) بدل (الديافي) قوله (على لاَحِبٍ): اللاحب الطريق البين الذي لحبته الحوافر، ثم يستعمل لكل طريق بين وخفي، و (لا يهتدي لمناره): ليس فيه علم ولا منار يهتدى به، (سافه العَوْد) أي شمه المسن النجائب، (جرجرا): صوت ورغاء الإبل. ورد البيت في "تهذيب اللغة" (لحف) ٢/ ١٥٩٨، (ساف) ٢/ ١١٣٢، (داف) "الحجة" ٢/ ٤٧، "شرح أشعار الهذليين" ١/ ٣٦، "الخصائص" ٣/ ١٦٥، ٣٢١، "مقاييس اللغة" ٢/ ٣١٨، "اللسان" (ديف) ٣/ ١٤٦٦، (سوف) ٤/ ٢١٥٣، "الخزانة" ١٠/ ٢٥٨، "ديوان امرئ القيس" ص ٦٤.

(٨)ورد البيت في "شرح أشعار الهذليين" ١/ ٣٦، "الخصائص" ٣/ ١٤٦، ٣٢١، "الحجة" لأبي علي ٢/ ٤٧، يقول ليس ثم هول تفزع منه الأرنب، وليس هناك ضب فيكون منه انجحار.

(٩) التفسير البسيط: ٤٧٨/٢.

(١٠) انظر: تفسير الطبري: ٣٣/٢.

وقد أجمع أهل السنة والجماعة، أن شفاعة الأنبياء والصالحين تقبل في العصاة من المؤمنين ، خلافاً للمعتزلة ، قالوا : الكبيرة تخلد صاحبها في النار ، وأنكروا الشفاعة ، وهم على ضربين : طائفة أنكرت الشفاعة إنكاراً كلياً وقالوا : لا تقبل شفاعة أحد في أحد ، واستدلوا بظواهر آيات ، وخص تلك الظواهر أصحابنا بالكفار لثبوت الأحاديث الصحيحة في الشفاعة(١).

فمن نقل الإجماع عن السلف في إثبات الشفاعة الإمام أبو الحسن الأشعري حيث قال عن السلف أنهم: «أجمعوا على أن شفاعة النبي ﷺ لأهل الكبائر من أمته، وعلى أنه يخرج من النار قوماً من أمته بعد ما صاروا حمماً ..»(٢).

ونقل النووي عن القاضي عياض(٣) أنه قال عن الشفاعة: أجمع السلف والخلف ومن بعدهم من أهل السنة عليها»(٤).

والشفاعة في اللغة: "يدل على مقارنة الشيئين، والشفع خلاف الوتر»(٥)، تقول: كان وترًا فشفعته شفعاً(٦)، وشفع الوتر من العدد شَفْعاً: صيره زوجا. ويقال: ناقة شفوع، وهي التي تجمع بين مَحْلَبَيْن في حلبة واحدة.

وفي اللسان: : شفع لي يشفع شفاعة وتشفّع: طلب(٧). ومعنى استشفعه طلب منه الشفاعة، أي قال له: كن لي شافعاً.

والشفاعة: كلام الشفيع للملك في حاجة يسألها لغيره، والشافع: الطالب لغيره فيشفع به إلى المطلوب. يقال: تشفعت بفلان إلى فلان فشفعني فيه، واسم الطالب شفيع(٨). والشفيع: الشافع، والجمع شفعاء(٩).

قال المبرد وثعلب: "الشفاعة: كلام الشفيع الملك في حاجة يسألها لغيره"(١٠)

وقال ابن الأثير(١١) «يقال: شفع يشفع شفاعة، فهو شافــع وشفيع، والمشفّع: الذي يقبــل الشفاعة، والمشفَّع: الذي تقبل شفاعته»(١٢).

وقال الراغب(١٣) ا في تعريف الشفاعة :"أي من انضم إلى غيره وعاونه وصار شفعاً له أو شفيعاً في فعل الخير والشر، فعاونه وقوّاه، وشاركه في نفعه وضرّه»(١٤).

وقال: «الشفاعة: الانضمام إلي آخر ناصراً له وسائلاً عنه، وأكثر ما يستعمل في انضمام من هو أعلى حرمة ومرتبة إلى من هو أدني(١).

---

(١) انظر: البحر المحيط: ١٦٠/١.

(٢) أبو الحسن الأشعري- رسالة أصول أهل السنة والجماعة المسماة برسالة الثغر- ت د. محمد السيد الجليند (الرياض: دار اللواء، ١٤١٠هـ) ط٢، ص ٩٠.

(٣) عياض بن موسي اليحصبي، أبو الفضل، عالم المغرب، فقيه، محدث، نسابة، ولي قضاء سبتة ومولده فيها، ثم قضاء غرناطة، توفي بمراكش سنة ٥٤٤ هـ. انظر: وفيات الأعيان ج١، ص٣٩٢، والأعلام للزركلي ج٥، ص٩٩.

(٤) أبو زكريا يحيى بن شرف النووي -شرح صحيح مسلم- (القاهرة: المطبعة المصرية ومكتبتها) ج٣، ص٣٥.

(٥) أبو الحسين بن فارس- معجم مقاييس اللغة- ت عبد السلام هارون- (بيروت: دار الجيل، ١٤١١هـ) ط١، ج٣ ص٢٠١.

(٦) إسماعيل الجوهري- الصحاح- ت أحمد عبد الغفور- (بيروت: دار العلم للملايين، ١٣٩٩هـ- تحقيق أحمد عبد الغفور عطار) ط٢، ج٣، ص١٢٣٨.

(٧) جمال الدين بن منظور- لسان العرب- (بيروت: دار صادر) ج٨، ص١٨٣.

(٨) أحمد بن فارس- معجم مقاييس اللغة ج٣، ص٢٠١، الجوهري- الصحاح ج٣، ص١٢٣٨.

(٩) ابن منظور- لسان العرب ج٨، ص١٨٤ بتصرف.

(١٠)"تهذيب اللغة" (شفع) ٢/ ١٨٩٧، وانظر: "اللسان" (شفع) ٤/ ٢٢٨٩.

(١١) هو: على بن محمد الشيباني، أبو الحسن، عز الدين بن الأثير، المؤرخ، المحدث، الأديب، النسابة صاحب الكامل في التاريخ واللباب في تهذيب الأنساب وغيرها كثير، توفي رحمه الله سنة (٦٣٠ هـ). انظر: سير أعلام النبلاء ج٢٢، ص٣٥٣، وشذرات الذهب ج٥، ص١٣٧، والأعلام – خير الدين الزركلي – دار العلم للملايين – بيروت، ج٥، ص١٥٢.

(١٢)النهاية في غريب الحديث: ٤٨٥/٢.

(١٣) لقبه الراغب الأصفهاني، وكثر الخلاف في اسمه، والأشهر أن اسمه الحسين، وعليه مشى جل من ترجم له، العلامة الماهر، احد أعلام العلم، ومشاهير الفضل، خلف تراثاً كبيراً من المؤلفات، توفي سنة (٤٢٥هـ). انظر: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة – للسيوطي – تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم – المكتبة العصرية – بيروت، ج٢، ص٢٩٧، تاريخ حكماء الإسلام - البيهقى – طبع بدمشق ١٩٤٦، ج٢، ص١١٢، ونزهة الأرواح ج٢، ص٤٤.

(١٤)مفردات ألفاظ القرآن: ٤٥٧.

ويقول السفاريني[2] في توجيه ذلك: «فكأن الشافع ضم سؤاله إلى سؤال المشفوع له»[3].
والشفاعة في الإصطلاع الشرعي: «هي السؤال في التجاوز عن الذنوب والجرائم»[4].
وقال السفاريني: «هي سؤال الخير للغير»[5].
نستنتج من التعريفين أن الأول منهما يحصر الشفاعة في دفع المضرة، والثاني يجعلها مقتصرة على جلب الخير، والحق أنهما متلازمان، فهي سؤال لدفع مضرة أو جلب منفعة، ولهذا عرفها القاضي عبد الجبار[6] بأنها: «مسألة الغير أن ينفع غيره أو أن يدفع عنه مضرة»[7].
وهذا تعريف جامع مانع يشتمل على الأمرين معا، ولا يختص بواحد منهما، بل يتعلق بأحدهما تارة، وبالآخر تارة أخرى، ويطلق هذا التعريف على الشفاعة بصفة عامة سواءً كانت في أمور الدنيا أو الآخرة.
فيمكن القول بأن الشفاعة: هي: التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة[8].
واختلف في عود الضمير في قوله تعالى{ وَلَا يُقْبَلُ مِنْها شَفَاعَةٌ}[البقرة:٤٨]، على وجهين[9]:
أحدهما: أنه يعود على (النفس) المتأخرة. أي: لا يقبل من النفس المستشفعة شفاعة شافع.
والثاني: أن يعود الضمير على (النفس) الأولى، أي: ولا يقبل من النفس التي لا تجزي عن نفس شيئاً شفاعة.
والراجح أن الضمير في {منها}- عائد على نفس المتأخرة، لكونها أقرب مذكور. والله أعلم. وقال أبو حيان:" وقد يظهر ترجيح عودها إلى النفس الأولى ، لأنها هي المحدث عنها في قوله : {لا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ} ، والنفس الثانية هي مذكورة على سبيل الفضلة لا العمدة"[10].
واختلفت القراءة في قوله تعالى: { وَلَا يُقْبَلُ مِنْها شَفَاعَةٌ}[البقرة:٤٨]، على ثلاثة أوجه[11]:
أحدها:{وَلا يُقْبَلُ}، بالياء، قرأ بها نافع وابن عامر وحمزة والكسائيّ، وروي يحيى بن آدم وابن أبي أميّة والكسائي وغيرهم عن أبي بكر وحفص عن عاصم بـ(الياء).
والثاني: {وَلا تُقْبَلُ}، بالتاء. قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو، وروى الحسين الجعفيّ عن أبي بكر عن عاصم بـ(التاء).
والثالث: {ولا يقبلُ منها شفاعةً}، على بناء الفعل للفاعل وهو (اللّه) عز وجل ، ونصب الشفاعة. قرأ بها قتادة[12].
والقراءة بالبناء للمفعول أبلغ، "لأنه في اللفظ أعم ، وإن كان يعلم أن الذي لا يقبل هو الله تعالى"[13].
قوله تعالى: {وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ}[البقرة:٤٨]، "أي لا يقبل منها فداء"[14].

---

(١)مفردات ألفاظ القرآن: ٤٥٧.
(٢) هو محمد بن أحمد، أبو العون السفاريني النابلسي الحنبلي، محدث فقيه أصولي، ولد بسفارين من قرى نابلس، من تصانيفه الكثيرة: «البحور الزاخرة في علوم الآخرة » و «لوامع الأنوار البهية» وغيرها، توفي سنة ١١٨٨ هـ. انظر: الرسالة المستطرفة – محمد بن جعفر الكتاني – دار البشائر – بيروت، ص٩٨، و معجم المؤلفين – عمر رضا كحالة – مكتبة المثنى – دار إحياء التراث العربي – بيروت، ج٧، ص٢٦٢.
(٣)لوامع الأنوار البهية، السفاريني الحنبلي:٢٠٤/٢.
(٤) النهاية في غريب الحديث: ٤٨٥/٢.
(٥) لوامع الأنوار البهية: ٢٠٤/٢.
(٦) هو: القاضي عبد الجبار بن أ حمد، أبو الحسن الهمذاني، شيخ المعتزلة، ومن كبار الشافعية، ولي القضاء بالري، وله تصانيف كثيرة، منها طبقات المعتزلة، ودلائل النبوة، وغيرها، توفي سنة (٤١٥هـ). انظر: تاريخ بغداد – الخطيب البغدادي – مكتبة الخانجي – مصر، ج١١، ص١١٣، و طبقات الشافعية الكبري – تاج الدين السبكي – تحقيق الطناحي والحلو – القاهرة - ١٤٢٤ هـ، ج٥، ص٩٧.
(٧) انظر: شرح الأصول الخمسة، القاضي عبد الجبار: ٦٨٨.
(٨) انظر : القول المفيد شرح كتاب التوحيد:٤٣٣/١.
(٩) انظر: البحر المحيط: ١٦٠/١.
(١٠)البحر المحيط: ١٦٠/١.
(١١) انظر: السبعة: ١٥٤، والحجة للقراء السبعة: ٤٣/٢.
(١٢) أنظر: الكشاف: ١٣٦/١.
(١٣) البحر المحيط: ١٦٨/١.
(١٤) صفوة التفاسير: ٤٨/١.

قال الزمخشري:" أى فدية، لأنها معادلة للمفدى، ومنه الحديث:"لا يقبل منه صرف ولا عدل"[1]،أى: توبة ولا فدية"[2].

واختلف في قوله تعالى{وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ}[البقرة:٤٨] على أوجه[3]:

أحدها: أن (العدل): الفدية، " وسميت عدلاً لأن المفدي يعدل بها : أي يساويها"[4]، كما قال تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الأرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ } [آل عمران : ٩١] وقال : { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الأرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [المائدة : ٣٦] وقال تعالى : { وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ مِنْهَا } [الأنعام : ٧٠]، وقال : { فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا } الآية [الحديد : ١٥]. وهذا قول أبي العالية[5]، والسدي[6]، وقتادة[7]، وابن زيد[8].

الثاني:أنه: البدل، والبدل: الفدية، قاله ابن عباس[9].أي "رجل مكان رجل"[10].

الثالث: أنه: وروي عن ابن عباس : "أو حسنة مع الشرك"[11].

الرابع: وروي عن علي، رضي الله عنه، في حديث طويل، قال : والصرف والعدل : التطوع والفريضة. وهذا قول غريب[12].

والقول الأول أظهر في تفسير هذه الآية، لما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه لما سئل ما العدل؟ فقال صلى الله عليه وسلم: "العدل الفدية"[13].

قوله تعالى:{ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ}[البقرة:٤٨]، " أي: ليس لهم من يمنعهم وينجيهم من عذاب الله" [14].

قال البغوي:ولا هم" يمنعون من عذاب الله"[15].

قال الطبري:" يعني أنهم يومئذ لا ينصرهم ناصر"[16].

وقد ذكروا في قوله تعالى:{ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ}[البقرة:٤٨]، وجهين[17]:

أحدهما: وليس لهم من الله يومئذ نصير ينتصر لهم من الله إذا عاقبهم.

والثاني: ولا هم ينصرون بالطلب فيهم والشفاعة والفدية.

والراجح هو القول الأول، وهو الأقرب الى سياق الآية، إذ "أن الله جل ثناؤه إنما أعلم المخاطبين بهذه الآية أن يوم القيامة يوم لا فدية - لمن استحق من خلقه عقوبته - ، ولا شفاعة فيه ، ولا ناصر له، وذلك أن ذلك قد كان لهم في الدنيا ، فأخبر أن ذلك يوم القيامة معدوم لا سبيل لهم إليه"[18].

الفوائد:

---

(١) متفق عليه، أنظر: صحيح البخاري(١٧٧١):ص٦٦٢/٢، وسنن الترمذي(٢١٢٧):ص٣٨٢/٤، والنسائي(٤٦٨٩):ص٤٠/٨، وأبو داود(٤٥٣٩):ص١٨٣/٤، وابن ماجة(٢٦٣٥):٨٨٠/٢، ومسند الإمام احمد(٩٦٢):ص١١٩/١.

(٢) الكشاف: ١٣٦/١.

(٣) انظر: تفسير الطبري: ٣٤/٢-٣٥. وتفسير ابن كثير: ٢٥٦/١-٢٥٧.

(٤) البحر المحيط: ١٦١/١.

(٥) انظر: تفسير الطبري(٨٨١):ص٣٤/٢.

(٦) انظر: تفسير الطبري(٨٨٢):ص٣٤/٢.

(٧) انظر: تفسير الطبري(٨٨٣):ص٣٤/٢.

(٨) انظر: تفسير الطبري(٨٨٥):ص٣٤/٢.

(٩) انظر: تفسير الطبري(٨٨٤):ص٣٤/٢.

(١٠) البحر المحيط: ١٦١/١.

(١١) نقلا عن: البحر المحيط: ١٦١/١.

(١٢) انظر: تفسير ابن كثير ١ : ٢٥٦ ، والسيوطي ١ : ٦٨.

(١٣)ضعيف، ولم أجده عن غير الطبري ، نقله عنه ابن كثير ١ : ٢٥٧ ، والسيوطي ١ : ٦٨.

(١٤) صفوة التفاسير: ٤٨/١.

(١٥) تفسير البغوي: ٩٠/١.

(١٦) تفسير الطبري: ٣٦/٢.

(١٧)أنظر: تفسير الطبري: ٣٦/٢.

(١٨) تفسير الطبري: ٣٦/٢.

١. من فوائد الآية: التحذير من يوم القيامة؛ وهذا يقع في القرآن كثيراً؛ لقوله تعالى: { واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله }، وقوله تعالى: {يوماً يجعل الولدان شيباً} [المزمل: ١٧].
٢. ومنها: أنه في يوم القيامة لا تجزي نفس عن نفس شيئاً . بخلاف الدنيا .: فإنه قد يجزي أحد عن أحد؛ لكن يوم القيامة: لا.
٣. ومنها: أن الشفاعة لا تنفع يوم القيامة؛ والمراد لا تنفع من لا يستحق أن يشفع له؛ وأما من يستحق فقد دلت النصوص المتواترة على ثبوت الشفاعة . وهي معروفة في مظانها من كتب الحديث، والعقائد ..
٤. ومنها: أن يوم القيامة ليس فيه فداء؛ لا يمكن أن يقدم الإنسان فداءً يعدل به؛ لقوله تعالى: (ولا عدل)
٥. ومنها: أنه لا أحد يُنصر يوم القيامة إذا كان من العصاة؛ ولهذا قال الله تعالى: {ما لكم لا تناصرون * بل هم اليوم مستسلمون} [الصافات: ٢٥، ٢٦] ؛ فلا أحد ينصر أحداً يوم القيامة . لا الآلهة، ولا الأسياد، ولا الأشراف، ولا غيرهم ..

القرآن
{وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤٩)} [البقرة : ٤٩]
التفسير:
واذكروا نعمتنا عليكم حين أنقذناكم من بطش فرعون وأتباعه، وهم يُذيقونكم أشدَّ العذاب، فيُكثِرون مِن ذَبْح أبنائكم، وترك بناتكم للخدمة والامتهان، وفي ذلك اختبار لكم من ربكم، وفي إنجائكم منه نعمة عظيمة، تستوجب شكر الله تعالى في كل عصوركم وأجيالكم.
قوله تعالى{وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ}[البقرة: ٤٩]، "أي: واذكروا إذ أنقذناكم من آل فرعون"[١].
قال ابن عطية:" أي: خلصناكم"[٢].
قال الطبري: أي: "واذكروا إنعامنا عليكم، بإنجائناكم من آل فرعون[٣].
قال الثعلبي:" يعني: أسلافكم وآباءكم فاعتدّها منّة عليهم لأنّهم نجوا بنجاتهم، ومآثر الآباء مفاخر الأبناء"[٤].
قال البغوي:" يعني : أسلافكم وأجدادكم فاعتدها منة عليهم لأنهم نجوا بنجاتهم"[٥].
قال الواحدي:" {نجيناكم}: أصله على النجوة، وهي ما ارتفع واتسع من الأرض، ثم يسمى كل فائز ناجيا، كأنه خرج من الضيق والشدة إلى الرخاء والراحة، ومنه قوله: {فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ} [يونس: ٩٢]، أي نلقيك على نجوة"[٦].
وقال الراغب: "وأصل «النجاء»: طلب الخلاص ، ويقال لمن عدا نجا ، لكون العدو أحد أسباب التخلص ، فإن الله تعالى جعل للحيوانات قوتين تزيل بهما الأذى ، قوة بها تهرب مما يؤذيها ، وقوة بها تدفع ما يؤذيها ، فمن الحيوانات ما يختص بأحديهما ، ومنها ما جعلتا جميعاً به ، فإذاً : العدو أحد أسباب الخلاص ، فصح أن يعبر عنه به"[٧].
وقرأ إبراهيم النخعي: {وإذ نجّاكم}، على الواحد[٨].
وقوله تعالى: {آل فرعون} يقصد به: أهل دينه وقومه وأشياعه[١]، وأتباعه وأسرته وعزته[٢]، "ويدخل فيهم فرعون بالأولوية؛ لأنه هو المسلّط لهم على بني إسرائيل"[٣].

---

(١) تفسير ابن عثيمين: ٧٥/١.
(٢) المحرر الوجيز: ١٣٩/١.
(٣) أنظر: تفسير الطبري:٣٦/٢.
(٤) تفسير الثعلبي: ١٩١/١.
(٥) تفسير البغوي: ٩٠/١.
(٦) التفسير البسيط: ٤٨٩/٢، وانظر: تهذيب اللغة: (نجا) ٤/ ٣٥١٠.
(٧) تفسير الراغب الأصفهاني: ١٨٣/١.

(٨) أنظر: تفسير الثعلبي: ١٩١/١.

قال ابن عطية:" وإنما نسب الفعل إلى {آلِ فِرْعَوْنَ}، وهم إنما كانوا يفعلونه بأمره وسلطانه لتوليهم ذلك بأنفسهم"(٤).

واختلف أهل العربية في أصل كلمة «آل»، على قولين(٥):

أحدهما: أن أصلها من «أهل»، أبدلت الهاء همزة، كما قالوا: «ماء» فأبدلوا الهاء همزة، فإذا صغروه قالوا :«مويه»، فردوا الهاء في التصغير وأخرجوه على أصله. وكذلك إذا صغروا آل، قالوا :«أهيل»، وقد حكي سماعا من العرب في تصغير «آل»: «أويل»(٦)، وقد يقال:" فلان من آل النساء"، يراد به أنه منهن خلق، ويقال ذلك أيضا بمعنى أنه يريدهن ويهواهن(٧)، كما قال الشاعر (٨):

فإنك من آل النساء وإنما ... يَكُنَّ لأدْنَى; لا وصال لغائب

والفرق بين «الآل» و«الأهل»: أن «الآل» يختص بالأشرف والأخص، دون الشائع الأعم، " حتى لا يقال إلا في نحو قولهم القراء: آل الله، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد(٩)، {وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ} [غافر: ٢٨]، وكذلك ما أنشده أبو العباس للفرزدق(١٠):

نَجَوْتَ وَلَمْ يَمْنُنْ عَلَيْكَ طَلاَقَة ... سِوى رَبِذِ التَّقْرِيبِ مِنْ آلِ أَعْوَجَا

لأن أعوج فيهم فرس مشهور، فلذلك قال: آل أعوج"(١١).

والثاني: أن أصلها من (الأول)، وهو الرجوع، كأنّه يؤول إليك، وكان في الأصل همزتان فعوّضت من إحداهما مدّ وتخفيف. قاله الثعلبي(١٢).

والراجح هو القول الأول، وبه قال الكسائي(١٣)، وجمهور المفسرين وأهل اللغة(١٤).

واختلف في كلمة: «فِرْعَوْنَ»، على وجهين (١٥):

أحدهما: أنه اسم ذلك الملك بعينه.

والثاني: أنه لقب، يطلق على كل ملك من ملوك العمالقة(١٦)، مثل كسرى للفرس وقيصر للروم والنجاشي للحبشة، وأن اسم «فرعون» موسى: قابوس في قول أهل الكتاب.

وقيل أن اسمه: "الوليد بن مصعب بن الريان"(١٧)، ويكنى أبا مرة وهو من بني عمليق بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام(١).

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٣٧/٢.

(٢) تفسير الثعلبي: ١٩١/١.

(٣) تفسير ابن عثيمين: ٧٥/١.

(٤) المحرر الوجيز: ١٣٩/١.

(٥) أنظر: تفسير الراغب الأصفهاني: ١٨٣/١.

(٦) انظر: مادة (أهل) و(أول) في لسان العرب .

(٧) انظر: تفسير الطبري: ٣٧/٢.

(٨)لم أجد البيت ولم أعرف قائله، وقوله : " يكن لأدنى " يعني للداني القريب الحاضر ، يصلن حباله بالمودة ، أما الغائب فقد تقطعت حباله . وتلك شيمهن ، أستغفر الله بل شيمة أبناء أبينا آدم .

(٩) قال الزجاج:" آلُ الأنبياءِ صلوات اللَّه عليهم من كان على دينهم، وكذلك قولنا: صلى اللَّه على محمد وآله: معنى آله من اتبعه من أهل بيته وغيرهم".[معاني القرآن:١٣٠/١].

(١٠)في "الديوان": (خرجت) بدل (نجوت) ومعنى (الرَّبِذ): المشي الخفيف، (التقريب): ضرب من السير يقارب فيه الخطو، (أعوج): فرس مشهور. ورد البيت في "سر صناعة الأعراب" ١/ ١٠٢، "ديوان الفرزدق" ١/ ١١٧.

(١١) أنظر: التفسير البسيط: ٤٩٢/٢، ومعاني القرآن" للأخفش ١/ ٢٦٥.

(١٢) تفسير الثعلبي: ١٩١/١. وانظر: "مقاييس اللغة" (أول) ١/ ١٦١، "اللسان" (أول) ١/ ١٧٤ - ١٧٥.

(١٣)انظر: مقاييس اللغة:(أول) ١/ ١٦١، واللسان:(أول) ١/ ١٧٤ - ١٧٥، والتفسير البسيط: ٤٩١/٢، وتفسير الراغب الأصفهاني: ١٨٣/١.

(١٤) أنظر: تفسير الثعلبي: ١٩١/١، والمحرر الوجيز: ١٣٩/١، وتفسير القرطبي: ٣٨٣/١-٣٨٤، وتفسير الراغب الأصفهاني: ١٨٣/١.

(١٥) انظر: تفسير القرطبي: ٣٨٣/١-٣٨٤.

(١٦) قال بعض أهل اللغة: "فرعون بلغة القبط، وهو التمساح، ويقال: تفرعن الرجل إذا تشبه بفرعون في سوء أفعاله".[التفسير البسيط: ٤٩٤/٢، وانظر: الصحاح(فرعن):٢١٧٧/٦، والكشاف: ٢٧٩/١].

(١٧) قاله ابن إسحاق، انظر: تفسير الطبري(٨٨٨):ص٣٨/٢، وتفسير الثعلبي:١٩١/١.

وقال السهيلي : "وكل من ولى القبط ومصر فهو فرعون وكان فارسيا من أهل اصطخر(٢)".
قال المسعودي:"لا يعرف لفرعون تفسير بالعربية"(٣).
وقال ابن سيده: "وعندي أن «فرعون» هذا العلم أعجمي؛ ولذلك لم يصرف"(٤).
وقال الجوهري: "«فرعون»: لقب الوليد بن مصعب ملك مصر وكل عات فرعون والعتاة الفراعنة وقد تفرعن وهو ذو فرعنة أي دهاء ونكر"(٥).
و«الفرعنة»: "الكِبْر والتجبُّر، والفرعنة مصدر فرعون، ويقال: فرعون أيضًا"(٦)، وفي الحديث "أخذنا فرعون هذه الأمة"(٧)، و«فرعون» في موضع خفض إلا أنه لا ينصرف لعجمته(٨).
وقال الإمام الطبري في كتابه: "تاريخ الأمم والملوك" في سياق حديثه عن نسب موسى بن عمران عليه السلام وأخباره: "وأما ابن إسحاق فإنه قال فيما حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق قال: قبض الله يوسف، وهلك الملك الذي كان معه الريان بن الوليد، وتوارث الفراعنة من العماليق ملك مصر، فنشر الله بها بني إسرائيل، وقبر يوسف حين قبض كما ذكر لي في صندوق من مرمر في ناحية من النيل في جوف الماء، فلم يزل بنو إسرائيل تحت أيدي الفراعنة وهم على بقايا دينهم مما كان يوسف ويعقوب وإسحاق وإبراهيم شرعوا فيهم من الإسلام، متمسكين به، حتى كان فرعون موسى الذي بعثه الله إليه، ولم يكن منهم فرعون أعتى منه على الله ولا أعظم قولًا ولا أطول عمرًا في ملكه منه، وكان اسمه - فيما ذكروا لي - الوليد بن مصعب، ولم يكن من الفراعنة فرعون أشد غلظة، ولا أقسى قلبًا، ولا أسوأ ملكًا لبني إسرائيل منه، يعذبهم

---

(١) انظر: تفسير القرطبي: ٣٨٣/١، والقول لوهب.
(٢) انظر: تفسير القرطبي: ٣٨٤/١.
(٣) نقلا عن: تفسير الطبري: ٣٩٠/١، وفتح القدير الجامع: ١٨٨/١.
(٤) انظر: تفسير القرطبي: ١: ٣٨٤.
(٥) انظر: مختار الصحاح: مادة(فرعن)، وانظر المعنى في : صحاح العربية والمحيط في اللغة، وتهذيب اللغة: مادة(فرعن).
(٦)انظر: فتح القدير: ١٨٨/١.
(٧) جاء في مسند احمد: دَّثَنَا أَسْوَدُ بْنُ عَامِرٍ، حَدَّثَنَا شَرِيكٌ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: أَتَيْتُ أَبَا جَهْلٍ وَقَدْ جُرِحَ، وَقُطِعَتْ رِجْلُهُ . قَالَ: فَجَعَلْتُ أَضْرِبُهُ بِسَيْفِي، فَلَا يَعْمَلُ فِيهِ شَيْئًا (١) - قِيلَ لِشَرِيكٍ: فِي الْحَدِيثِ: وَكَانَ يَذُبُّ بِسَيْفِهِ ؟ قَالَ: نَعَمْ -، قَالَ: فَلَمْ أَزَلْ حَتَّى أَخَذْتُ سَيْفَهُ، فَضَرَبْتُهُ بِهِ، حَتَّى قَتَلْتُهُ . قَالَ: ثُمَّ أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ: قَدْ قُتِلَ أَبُو جَهْلٍ - وَرُبَّمَا قَالَ شَرِيكٌ: قَدْ قَتَلْتُ أَبَا جَهْلٍ -،قَالَ: " أَنْتَ رَأَيْتَهُ ؟ " قُلْتُ: نَعَمْ . قَالَ: " آللَّهِ " مَرَّتَيْنِ ؟ قُلْتُ: نَعَمْ (١) . قَالَ: " فَاذْهَبْ حَتَّى أَنْظُرَ إِلَيْهِ " . فَذَهَبَ، فَأَتَاهُ، وَقَدْ غَيَّرَتِ الشَّمْسُ مِنْهُ شَيْئًا، فَأَمَرَ بِهِ وَبِأَصْحَابِهِ، فَسُحِبُوا حَتَّى أُلْقُوا فِي الْقَلِيبِ، قَالَ: وَأُتْبِعَ أَهْلُ الْقَلِيبِ لَعْنَةً . وَقَالَ: " كَانَ هَذَا فِرْعَوْنَ هَذِهِ الْأُمَّةِ" . إسناده ضعيف لانقطاعه، أبو عبيدة -وهو ابن عبد الله بن مسعود- لم يسمع من أبيه، ولضعف شريك، وهو ابن عبد الله النخعي، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين. أبو إسحاق: هو عمرو بن عبد الله السبيعي.
وأخرجه الطبراني في "الكبير" (٨٤٦٨) و (٨٤٦٩) ، والبيهقي في "السنن" ٦٢/٩ من طرق عن شريك، بهذا الإسناد.
وأخرجه أبو داود (٢٧٠٩) ، وأبو يعلى (٥٢٦٣) ، والطبراني في "الكبير" (٨٤٧٠) و (٨٤٧١) ، والبيهقي في "الدلائل" ٨٧/٣، ٨٨ من طرق عن أبي إسحاق، به.
وأخرجه الطيالسي (٣٢٨) ، والطبراني في "الكبير" (٨٤٧٥) ، والبيهقي في "السنن" ٩٢/٩ من طريق الجراح بن مليح والد وكيع، والطبراني (٨٤٧٤) من طريق زيد بن أبي أنيسة، والبزار (١٧٧٥) "زوائد" من طريق أبي الأحوص، ثلاثتهم عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون، عن ابن مسعود. قال البيهقي: كذا قال: عن عمرو بن ميمون، والمحفوظ: عن أبي إسحاق، عن أبي عبيدة، عن أبيه. وقال الدارقطني قطني في "العلل" ٢٩٥/٥: وأبو عبيدة أصح.
وأخرجه البزار (١٧٧٤) "زوائد"، والطبراني في "الكبير" (٨٤٧٦) من طريق أبي بكر الهذلي، عن أبي المليح، عن عبد الرحمن بن عبد الله، عن ابن مسعود. قال البزار: لا نعلم روى أبو المليح عن عبد الرحمن، عن أبيه إلا هذا.
وأورده الهيثمي في "المجمع" ٧٨/٦-٧٩، وقال: رواه كله أحمد، والبزار باختصار، وهو من رواية أبي عبيدة، عن أبيه، ولم يسمع منه، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح.
وقال أيضاً: رواه الطبراني والبزار، وفيه أبو بكر الهذلي، وهو ضعيف. وقد أخرج البخاري (٣٩٦١) من حديث ابن مسعود أنه أتى أبا جهل وبه رمق يوم بدر، فقال أبو جهل: هلْ أعْمد مِن رجل قتلتموه. وأخرج أيضاً (٣٩٦٢) و (٣٩٦٣) من حديث أنس أنه انطلق ابن مسعود فوجد أبا جهل قد ضربه ابنا عفراء حتى برد. قال: أأنت أبو جهل؟ قال: وهل فوق رجل قتله قومه. أو قال: قتلتموه. وقد تقدمت قصة مقتل أبي جهل من حديث عبد الرحمن بن عوف برقم (١٦٧٣) وانظر الأحاديث الآتية بالأرقام (٣٨٢٥) و (٣٨٥٦) و (٤٠٠٨) و (٤٢٤٦) و (٤٢٤٧).
(٨) انظر: تفسير القرطبي: ٣٨٣-٣٨٤.

فيجعلهم خدمًا وخولًا، وصنَّفهم في أعماله؛ فصنِف يبنون، وصنف يحرثون، وصنف يزرعون له، فهم في أعماله، ومن لم يكن منهم في صنعة له من عمله فعليه الجزية، فسامَهم كما قال الله } :سُوءَ الْعَذَابِ {]البقرة: ٤٩]. وفيهم مع ذلك بقايا من أمر دينهم لا يريدون فراقه، وقد استنكح منهم امرأة يقال لها: آسية بنت مزاحمٍ، من خيار النساء المعدودات، فعمر فيهم وهم تحت يديه عمرًا طويلًا يسومهم سوء العذاب، فلما أراد الله أن يفرج عنهم وبلغ موسى عليه السلام الأشد، أُعطِيَ الرسالة"(١).

قال ابن عاشور: "و«فرعون»: علم جنس لملك مصر في القديم، أي: قبل أن يملكها اليونان، وهو اسم من لغة القبط، قيل: أصله في القبطية فاراه، ولعل الهاء فيه مبدلة عن العين، فإن رع اسم الشمس، فمعنى فاراه نور الشمس؛ لأنهم كانوا يعبدون الشمس، فجعلوا ملك مصر بمنزلة نور الشمس؛ لأنه يصلح الناس، نقل هذا الاسم عنهم في كتب اليهود، وانتقل عنهم إلى العربية، ولعله مما أدخله الإسلام، وهذا الاسم نظير كسرى لملك ملوك الفرس القدماء، وقيصر لملك الروم، ونمروذ لملك كنعان، والنجاشي لملك الحبشة، وتُبَّع لملك ملوك اليمن، وخان لملك الترك، واسم فرعون الذي أرسل موسى إليه: منفطاح الثاني، أحد ملوك العائلة التاسعة عشرة من العائلات التي ملكت مصر، على ترتيب المؤرخين من الإفرنج، وذلك في سنة ١٤٩١ قبل ميلاد المسيح"(٢).

فيمكن القول: أن كلمة «فرعون» ربما قد أصبحت تستخدم استخدامًا شائعًا في العصور الحديثة كلقب للحاكم في مصر القديمة لأسباب ترجع إلى الميول العقائدية ومحاولات التفسير التوراتية من زاوية واحدة، على أن التحقيق اللغوي للفظة يظل بعيدًا كل البعد عن حقيقة تلقب الحكام المصريين بهذا اللقب.

قوله تعالى: قوله تعالى:{ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ}[البقرة:٤٩]، يعني:"يكلفونكم ويذيقونكم أشدّ العذاب وأسوأه"(٣).

قال ابن عطية:"معناه: يأخذونكم به ويلزمونكم إياه"(٤).

قال البغوي:أي" يكلفونكم ويذيقونكم أشد العذاب وأسوأه"(٥).

قال ابن عثيمين:{ سُوءَ الْعَذَابِ}: " أي: سيئه وقبيحه"(٦).

قال الواحدي: " (السوم) أن تُجشّم إنساناً مشقةً وسوءاً أو ظلماً"(٧).

والخطاب في قوله { وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ }، لمن لم يدرك فرعون ولا المنجَّين منه، لأن المخاطبين بذلك كانوا أبناء من نجاهم من فرعون وقومه، فأضاف ما كان من نعمه على آبائهم إليهم، وكذلك ما كان من كفران آبائهم على وجه الإضافة، كما يقول القائل لآخر : " فعلنا بكم كذا، وفعلنا بكم كذا، وقتلناكم وسبيناكم "، والمخبر إما أن يكون يعني قومه وعشيرته بذلك، أو أهل بلده ووطنه - كان المقولُ له ذلك أدرك ما فعل بهم من ذلك أو لم يدركه(٨)، كما قال الأخطل يهاجي جرير بن عطية (٩):

ولقد سما لكم الهذيل فنالكم ... بإرَابَ، حيث يقسِّم الأنفالا

---

(١)تاريخ الأمم والملوك، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، اعتنى به: أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، (دون رقم الطبعة وتاريخها مجلد واحد ضخم)، ص١٣٠.

(٢) التحرير والتنوير: ٣٥/٩ و٢٤٧/١١.

(٣) تفسير الثعلبي: ١٩١/١.

(٤) المحرر الوجيز: ١٤٠/١

(٥) تفسير البغوي: ٩٠/١.

(٦) تفسير ابن عثيمين: ١٧٥/١.

(٧) التفسير البسيط: ٤٩٤/٢.

(٨)انظر: تفسير الطبري: ٣٨/٢.

(٩)ديوانه : ٤٨ ، ونقائض جرير والأخطل : ٧٧ - ٧٨ . قال الطبري فيما مضى ١ : ٣٦٦ : " سما فلان لفلان " : إذا أشرف عليه وقصد نحوه عاليا عليه " . والهذيل ، هو الهذيل بن هبيرة التغلبي غزا بني يربوع بإراب (وهو ماء لبنى رياح بن يربوع) فقتل منهم قتلا ذريعا . وأصاب نعما كثيرا ، وسبى سببا كثيرا ، منهم " الخطفى " جد جرير ، فسمى الهذيل " مجدعا " ، وصارت بنو تميم تفزع أولادها باسمه . (انظر خبر ذلك في النقائض ٤٧٣ ، ونقائض جرير والأخطل : ٧٨) نالكم : أدرككم وأصاب منكم ما أصاب . والأنفال جمع نفل (بفتحتين) : وهي الغنائم . وفي المطبوعة : " تقسم " وهي صواب لا بأس بها .

في فيلق يدعو الأراقم، لم تكن ... فرسانه عُزلا ولا أكفالا [١]

ولم يلحق جرير هذيلا ولا أدركه، ولا أدرك إراب ولا شهده، ولكنه لما كان يوما من أيام قوم الأخطل على قوم جرير، أضاف الخطاب إليه وإلى قومه، فكذلك خطاب الله عز وجل من خاطبه بقوله : {وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ}، لما كان فعله ما فعل من ذلك بقوم من خاطبه بالآية وآبائهم، أضاف فعله ذلك الذي فعله بآبائهم إلى المخاطبين بالآية وقومهم[٢].

واختلف أهل التفسير في معنى قوله تعالى: {يَسُومُونَكُمْ}[البقرة:٤٩]، على وجوه[٣]:

أحدها: قيل معناه: يذيقونكم ويلزمونكم إياه.

والثاني: يولونكم، قاله أبو عبيدة[٤]، كما يقال سامه خطة خسف إذا أولاه إياها، قال عمرو بن كلثوم[٥] :

إِذَا مَا المَلْكُ سَامَ النَّاسُ خَسْفًا ... أَبَيْنَا أَنْ نُقِرَّ الذُّلَّ فِينَا

والثالث:أن معناه : يديمون عذابكم، والسوم: الدوام، كما يقال : سائمة الغنم من إدامتها الرعي.

والرابع: يُجَشِّمُونَكُمُ الأعمال الشَّاقَّة. قاله الواحدي[٦].

والخامس: يزيدونكم على سوء العذاب ، ومنه مساومة البيع ، إنما هو أن يزيد البائعُ المشتريَ على ثمنٍ ، ويزيد المشتري على ثمنٍ ، وهذا قول المفضل[٧].

وجميع المعاني تحتمله اللفظ، إذ أن المراد بقوله{ يسومونكم}، أي: يوردونكم، ويذيقونكم، ويولونكم، يقال منه: سامه خطة ضيم، إذا أولاه ذلك وأذاقه[٨]، كما قال الشاعر[٩] :

إن سيم خسفا ، وجهه تربدا

وفي قوله تعالى: {سُوءَ الْعَذَابِ}[البقرة:٤٩]، وجهان[١٠]:

أحدهما: ما ساءهم من العذاب.

والثاني: أشد العذاب. قاله الزجاج[١١] وآخرون[١٢].

والأقرب هو القول الأول، لأنه لو كان الثاني صحيحا لقيل: أسوأ العذاب. والله تعالى أعلم.

وفي العذاب الذي كانوا يسومونهم قولان:

أحدهما: أن فرعون كان يعذبهم بجعلهم خدما وخولا، واستخدم بعضهم في أعماله، ومن لم يكن منهم في صنعة، فعليه الجزية. قاله ابن إسحاق[١٣]. واختاره الثعلبي[١].

---

(١)الفيلق : الكتيبة العظيمة . وقوله : " يدعو " الضمير للهذيل . والأراقم : هم جشم ومالك والحارث وثعلبة ومعاوية وعمرو - أبناء بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب ، رهط الهذيل . وأنما سموا الأراقم لأن كاهنتهم نظرت إليهم وهم صبيان ، وكانوا تحت دثار لهم ، فكشفت الدثار ، فلما رأتهم قالت : " كأنهم نظروا إلى بعيون الأراقم " ، والأراقم جمع أرقم : وهو أخبث الحيات ، وأشدها ترقدا وطلبا للناس . والعزل جمع أعزل : وهو الذي لا سلاح معه ، والأكفال جمع كفل (بكسر فسكون) : وهو الذي لا يثبت على متن فرسه ، ولا يحسن الركوب.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ٣٩/٢.

(٣) انظر: تفسير القرطبي: ٣٨٤/١. وتفسير ابن كثير: ٢٥٨/١، والنكت والعيون: ١١٨/١.

(٤)أنظر: مجاز القرآن" ١/ ٤٠، "تفسير الغريب" لابن قتيبة ص ٤٨.

(٥)شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات : ٤٢٥ ،و شرح القصائد التسع ٦٧٨ شرح القصائد العشر ٣٦٥. الخسف : الظلم والنقصان.

(٦) التفسير البسيط: ٤٩٤/٢.

(٧) أنظر: تهذيب اللغة" (سام) ٢/ ١٦٠٠، "اللسان" (سوم) ٤/ ٢١٥٧.

(٨) أنظر: تفسير الطبري: ٤٠/٢.

(٩) لم أتعرف على قائله، والبيت من شواهد الطبري في تفسيره: ٤٠/٢، الخسف : الظلم والإذلال والهوان ، وهي شر ما ينزل بالإنسان ، وأقبح ما ينزله أخ بأخيه الإنسان . وتربد وجهه : تلون من الغضب وتغير ، كأنما تسود منه مواضع . وقوله : " وجهه " فاعل مقدم ، أي تربد وجهه .

(١٠) أنظر: تفسير الطبري: ٤٠/٢، والمحرر الوجيز: ١/!٤٠.

(١١) أنظر: معاني القرآن: ١٣٠/١. قال الزجاج: "وإن كان العذاب كله سوءًا، فإنما نُكرَ في هذا الموضع لأنه أبلغ ما يعامل به مَرْعِيٌّ، فلذلك قيل سوءَ العذاب، أي ما يبلغ في الإساءَة ما لا غاية بعده".

(١٢) أنظر: معاني القرآن" للزجاج ١/ ١٣٠، وانظر: "تفسير الثعلبي" ١/ ٧٠ أ، و"تفسير أبي الليث" ١/ ١١٧، و"العمدة في غريب القرآن" لمكي ص ٧٥.

(١٣) أنظر: تفسير الطبري(٨٨٩):ص٤٠/٢.

والثاني: وقيل أن فرعون:"جعلهم في الأعمال القذرة ، وجعل يقتل أبناءهم ، ويستحيي نساءهم". قاله السدي[٢].

قوله تعالى:{ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ}[البقرة:٤٩]، "أي: يقتلون الذكور"[٣].

قال أبو العالية: " إن فرعون ملكهم أربعمائة سنة فقالت له الكهنة. سيولد العام بمصر غلام يكون هلاكك على يديه، فبعث في أهل مصر نساء قوابل فإذا ولدت امرأة غلاما أتى به فرعون فقتله ويستحيي الجواري"[٤].

واختلف في قوله تعالى {يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ}[البقرة:٤٩]، على قولين:

أحدهما: يذبحون الأطفال الذكورمن أبنائكم دون البالغين. وهذا قول ابن عباس[٥]، ومجاهد[٦]، والربيع[٧]، والسدي[٨]، وابن إسحاق[٩].

والثاني: وقيل: يعني: الرجال دون الأطفال[١٠]، وسموا «أبناء» لما كانوا كذلك، واستدل هذا القائل بقوله {نِسَاءَكُم}، فقالوا: بأن" المذبحين لو كانوا هم الأطفال ، لوجب أن يكون المستحيون هم الصبايا"[١١].

قال الطبري:" وقد أغفل قائلو هذه المقالة - مع خروجهم من تأويل أهل التأويل من الصحابة والتابعين - موضع الصواب. [و] لو كانوا إنما يقتلون الرجال ويتركون النساء ، لم يكن بأم موسى حاجة إلى إلقاء موسى في اليم ، أو لو أن موسى كان رجلا لم تجعله أمه في التابوت"[١٢].

الثالث: " وقيل: "كان ذبحهم للأبناء استخدامهم في الأعمال القذرة الجارية مجرى أعظم الذبحين القتل ، والإهانة ، قال : وعلى ذلك قوله تعالى : {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ}"[١٣]. ولا يخفى على ما في هذا الوجه من التكلف، وإن كان المعنى صحيحا.

والقول الأول أصح، حملا للفظ «الأبناء» على ظاهره، ويدل على هذا المعنى، عملية إلقاء موسى - عليه السلام- في التابوت حال صغره، كما أنه كان يتعذر قتل جميع الرجال على كثرتهم، ومن جهة أخرى أنهم كانوا محتاجين إليهم في استعمالهم في الصنائع الشاقة، وهذا قول عامة أهل التفسير، والله أعلم.

قال ابن عطية:" والصحيح من التأويل: أن الأبناء هم الأطفال الذكور، والنساء هم الأطفال الإناث، وعبر عنهن باسم «النساء» بالمئال"[١٤].

قال الواحدي:" وقيل: سمى البنات «نساء» على تقدير أنهن يكن نساء، وقيل: جمع الكبار والصغار بلفظ النساء، لأنهم كانوا يستبقون جميع الإناث، فجرى اللفظ على التغليب كما يطلق الرجال على الذكور وإن كان فيهم صغار"[١٥].

وقوله تعالى :{يُذَبِّحُونَ}[البقرة:٤٩] فيه وجهان من القراءة[١٦]:

أحدهما: {يُذَبِّحُونَ}، بالتشديد على المبالغة والتكثير، قرأ بها الجمهور.

والثاني: { يذبحون}، بفتح الباء، قرأ بها ابن محيصن "يذبحون" بفتح الباء[١].

---

(١)أنظر: تفسير الثعلبي: ١٩١/١.
(٢) أنظر: تفسير الطبري(٨٩٠):ص٤١/٢.
(٣) تفسير المراغي: ١١٠.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(٥٠٥):ص١٠٦/١، و(٨٩١٥):ص١٥٥٥/٥، والطبري(٨٩٣):ص٤٣/٢.
(٥) انظر: تفسير الطبري(٨٩١)، و(٨٩٢):ص٤٢/٢-٤٣.
(٦) أنظر: تفسير الطبري(٨٩٧):ص٤٤/٢-٤٥.
(٧) أنظر: تفسير الطبري(٨٩٤):ص٤٣/٢.
(٨) أنظر: تفسير الطبري(٨٩٥):ص٤٣/٢-٤٤.
(٩) أنظر: تفسير الطبري(٨٩٦):ص٤٤/٢.
(١٠) انظر: تفسير القرطبي: ٣٨٥/١.
(١١) تفسير الطبري: ٤٧/٢.
(١٢) تفسير الطبري: ٤٧/٢.
(١٣) تفسير الراغب الأصفهاني: ١٨٦/١.
(١٤) المحرر الوجيز: ١٤١/١.
(١٥) التفسير البسيط: ٥٠٥/٢.
(١٦) انظر: الثعلبي: ١٩١/١، وتفسير القرطبي: ٣٨٥/١.

والقراءة الأولى أرجح، "إذ الذبح متكرر"[٢]، وكان فرعون على ما روي قد رآه في منامه نارا خرجت من بيت المقدس فأحرقت بيوت مصر فأولت له رؤياه أن مولودا من بني إسرائيل ينشأ فيكون خراب ملكه على يديه[٣]، وقيل غير هذا والمعنى متقارب[٤].

قوله تعالى:{ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ}[البقرة:٤٩]، أي: " يتركونهن أحياء"[٥].

قال ابن أبي حاتم: "يعني: البنات"[٦].

قال الصابوني: أي:" يستبقون الإناث على قيد الحياة للخدمة"[٧].

قال الطبري: أي:" يستبقونهن فلا يقتلونهن"[٨].

قال المراغي: أي: "ويستبقون البنات إذلالا لكم حتى ينقرض شعبكم من البلاد"[٩].

قال الواحدي:" يَسْتَبْقُونهن ، ولا يقتلونهن، ومنه قوله - صلى الله عليه وسلم -: "اقتلوا شيوخ المشركين واستحيوا شرخهم"[١٠]"[١١].

قال ابن عثيمين:" أي: يستبقون نساءكم؛ لأنه إذا ذهب الرجال، وبقيت النساء ذلّ الشعب، وانكسرت شوكته؛ لأن النساء ليس عندهن من يدافع، ويبقين خدماً لآل فرعون؛ وهذا. والعياذ بالله. من أعظم ما يكون من الإذلال؛ ومع هذا أنجاهم الله تعالى من آل فرعون، وأورثهم ديار آل فرعون، كما قال تعالى: {فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩)} [الشعراء : ٥٧ - ٥٩]، وقال تعالى: {كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨)} [الدخان : ٢٥ - ٢٨]، وهم بنو إسرائيل"[١٢].

وقال ابن جريج:" يسترقون نساءكم"[١٣].

وضعّفه الطبري قائلا:" ذلك تأويل غير موجود في لغة عربية ولا أعجمية"[١٤].

قال الواحدي:" فإن قيل: فما في استحياء النساء من سوء العذاب؟

قيل: إن استحياء النساء على ما كانوا يعملون بهن أشد في المحنة من قتلهن، لأنهن يستعبدن وينكحن على الاسترقاق، والاستبقاء للإذلال استبقاء محنة"[١٥].

قوله تعالى: {وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ}[البقرة:٤٩]، أي: و"في إنجائكم منهم نعمة عظيمة"[١٦].

قال البغوي: " أي: في سومهم إياكم سوء العذاب محنة عظيمة"[١٧].

---

(١) انظر: تفسير القرطبي: ٣٨٥/١.
(٢) المحرر الوجيز: ١٤٠/١.
(٣) الخبر رواه السدي في تفسير ابن أبي حاتم(٥٠٦):ص١٠٦/١.
(٤) انظر: تفسير القرطبي: ٣٨٦/١.
(٥) تفسير البغوي: ٩١/١.
(٦) تفسير ابن أبي حاتم:١٠٦/١.
(٧) صفوة التفاسير: ٤٩/١.
(٨) تفسير الطبري: ٤٦/٢.
(٩) تفسير المراغي: ١١٠/١.
(١٠)أخرجه أبو داود عن سمرة بن جندب، وفيه (استبقوا) بدل (استحيوا) انظر: "سنن أبي داود" ٢٦٧٠ كتاب (الجهاد)، باب (في قتل النساء)، والترمذي (١٥٨٣) أبواب (السير) باب (ما جاء في النزول عن الحكم) وفيه: الشرخ: الغلمان الذين لم ينبتوا. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب. عارضه الأحوزي.
وأخرجه أحمد في "مسنده" ٥/ ١٢، ٢٠. ورمز السيوطي له بالصحة في "الجامع الصغير". انظر: "فيض القدير شرح الجامع" ٢/ ٧٦.
(١١) التفسير البسيط: ٥٠٤/٢.
(١٢) تفسير ابن عثيمين:١٧٦/١.
(١٣) أخرجه الطبري(٨٩٨):ص٤٦/٢.
(١٤) تفسير الطبري:٤٧/٢. ثم قال:" وذلك أن الاستحياء إنما هو استفعال من الحياة نظير " الاستبقاء " من " البقاء " ، و " الاستسقاء " من " السقي " . وهو من معنى الاسترقاق بمعزل".
(١٥) التفسير البسيط: ٥٠٥/٢.
(١٦) تفسير الثعلبي: ١٩٢/١.
(١٧) تفسير البغوي: ٩١/١.

قال ابن عثيمين:" أي: وفي إنجائكم من آل فرعون ابتلاء من الله عزّ وجل عظيم. أي: اختبار عظيم.؛ ليعلم من يشكر منكم، ومن لا يشكر"[١].

قال الصابوني:" أي: فيما ذكر من العذاب المهين من الذبح والاستحياء، محنة واختبارٌ عظيم لكم من جهته تعالى بتسليطهم عليكم ليتميز البرُّ من الفاجر"[٢].

قال المراغي:" أي: وفي ذلكم العذاب والتنجية منه امتحان عظيم من ربكم، كما قال تعالى : {وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ}، وقوله : {من ربكم} : أي: من جهته تعالى بتسليطهم عليكم ، وبعث موسى وتوفيقه لخلاصكم"[٣].

قال أبو حيان:"وفي قوله : {مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ} دليل على أن الخير والشرّ من الله تعالى ، بمعنى أنه خالقهما، وفيه رد على النصارى ومن قال بقولهم : إن الخير من الله والشرّ من الشيطان.. وكونه عظيماً هو بالنسبة للمخاطب والسامع، لا بالنسبة إلى الله تعالى ، لأنه يستحيل عليه اتصافه بالاستعظام"[٤].

وفي قوله تعالى:{ بَلاءٌ }[البقرة:٤٩]، وجهان:

أحدهما: أن معناه: البلاء والامتحان. وهذا قول جمهور أهل التفسير[٥].

والثاني: أن معناه: نعمة، أي: نعمة من ربكم عظيمة. روي ذلك عن ابن عباس[٦]، وأبي مالك[٧]، والسدي[٨]، ومجاهد[٩]، وابن جريج[١٠].

وكلا القولين صحيح، فقوله "{وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ}، راجع إلى الأمرين: إلى المنحة التي هي الإنجاء من آل فرعون المقتضية للشكر ، وإلى المحنة التي هي ذبحهم واستحياؤهم للنساء المقتضية للصبر"[١١]. والله أعلم.

وقال البغوي:" فـ«البلاء»: يكون بمعنى النعمة وبمعنى الشدة ، فالله تعالى قد يختبر على النعمة بالشكر، وعلى الشدة بالصبر وقال : الله تعالى:{ونبلوكم بالشر والخير فتنة"}[الأنبياء:٣٥]"[١٢].

وقال ابن عطية:" ويكون «الْبَلاَءُ» في الخير والشر"[١٣].

وقال الواحدي:" والذي في هذه الآية يحتمل الوجيهن، فإن حملته على الشدة، كان معناه: في أستحياء البنات للخدمة وذبح البنين بلاء ومحنة"[١٤].

وقال النسفي: في تفسير قوله{ وَفِى ذَالِكُم بَلاءٌ }،أي: "محنة إن أشير بذلكم إلى صنع فرعون ، ونعمة إن أشير به إلى الانتجاء"[١٥].

واختلف أهل التفسير في مرجع الإشارة في قوله تعالى:{ وَفِي ذلِكُمْ}[البقرة:٤٩]، على ثلاثة أوجه[١٦]:

أحدها: إشارة إلى جملة الأمر، إذ هو خبر فهو كمفرد حاضر، و«بَلاءٌ»، معناه: امتحان واختبار، ويكون الْبَلاءُ في الخير والشر.

---

(١) تفسير ابن عثيمين:١٧٦/١.

(٢) صفوة التفاسير: ٤٩/١.

(٣) تفسير المراغي: ١١٠/١.

(٤) البحر المحيط: ١٦٤/١.

(٥) انظر: تفسير الطبري: ٤٨/٢.

(٦) أنظر: تفسير الطبري(٨٩٩):ص٤٨/٢، وتفسير ابن أبي حاتم(٥٠٧):ص١٠٦/١.

(٧) انظر: تفسير ابن ابي حاتم:١٠٦/١. حكاه دون ذكر الإسناد.

(٨) أنظر: تفسير الطبري(٩٠٠):ص٤٨/٢.

(٩) أنظر: تفسير الطبري(٩٠١)، و(٩٠٢):ص٤٨/٢-٤٩.

(١٠) أنظر: تفسير الطبري(٩٠٣):ص٤٩/٢.

(١١) تفسير الرابغ الأصفهاني:١٨٦/١.

(١٢) تفسير البغوي: ٩١/١.

(١٣) المحرر الوجيز:١٤١/١.

(١٤) التفسير البسيط: ٥٠٧/٢.

(١٥) تفسير النسفي: ٦٤/١.

(١٦) أنظر: المحرر الوجيز: ١٤١/١.

والثاني: وقال قوم: الإشارة بـ{ذَلِكُمْ}، إلى التنجية من بني إسرائيل، فيكون الْبَلاءُ على هذا في الخير، أي وفي تنجيتكم نعمة من الله عليكم.
والثالث: الإشارة إلى الذبح ونحوه، و«الْبَلاءُ» -هنا- في الشر، والمعنى: وفي الذبح مكروه وامتحان.
وقد رجح الجمهور القول الأول[1]، لأن(البلاء) يكون في الخير والشر. والله أعلم.
وأصل «البلاء» في كلام العرب: الاختبار والامتحان، ثم يستعمل في الخير والشر، لأن الامتحان والاختبار قد يكون بالخير كما يكون بالشر، كما قال ربنا جل ثناؤه : {وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الأعراف : ١٦٨]، يقول : اختبرناهم، وكما قال جل ذكره : { وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً} [الأنبياء : ٣٥]. ثم تسمي العرب الخير " بلاء " والشر " بلاء " . غير أن الأكثر في الشر أن يقال : " بلوته أبلوه بلاء "، وفي الخير : " أبليته أبليه إبلاء وبلاء "، ومن ذلك قول زهير بن أبي سلمى [2]:
جزى الله بالإحسان ما فعلا بكم وأبلاهما خير البلاء الذي يبلو
فجمع بين اللغتين، لأنه أراد : فأنعم الله عليهما خير النعم التي يختبر بها عباده[3].
قال الراغب: وفي هذه الآية" حث لنا على تذكر نعمه ومراعاتها واحدة واحدة ، وتجديد الشكر لكل منها"[4].
وقال البيضاوي: " وفي الآية تنبيه على أن ما يصيب العبد من خير أو شر إختبار من الله تعالى، فعليه أن يشكر على مساره ويصبر على مضاره ليكون من خير المختبرين"[5].
الفوائد:
١- من فوائد الآية: تذكير الله تعالى لبني إسرائيل نعمته عليهم بإنجائهم من آل فرعون.
٢- ومنها: أن الإنجاء من العدو نعمة كبيرة ينعم الله بها على العبد؛ ولهذا ذكرهم الله بها في قوله تعالى: {نجيناكم}.
٣- ومنها: بيان حنق آل فرعون على بني إسرائيل؛ وقيل: إن هذا التقتيل كان بعد بعثة موسى؛ لأن فرعون لما جاءه موسى بالبينات قال: {اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم} [غافر: ٢٥] ، وقال في سورة الأعراف: {سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون} [الأعراف: ١٢٧].
وذكر بعض المؤرخين أن هذا التقتيل كان قبل بعثة موسى، أو قبل ولادته؛ لأن الكهنة ذكروا لفرعون أنه سيولد لبني إسرائيل ولد يكون هلاكك على يده؛ فجعل يقتلهم؛ وعضدوا هذا القول بما أوحى الله تعالى إلى أم موسى: {أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني} [القصص: ٧] ؛ لكن هذه الآية ليست صريحة فيما ذكروا؛ لأنها قد تخاف عليه إما من هذا الفعل العام الذي يقتَّل به الأبناء، أو بسبب آخر، وآية الأعراف: {قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا} [الأعراف: ١٢٩] لا دليل فيها صراحة على أن التقتيل كان قبل ولادة موسى عليه السلام؛ لأن الإيذاء لا يدل على القتل، ولأن فرعون لم يقل: سنقتل أبناءهم، ونستحيي نساءهم إلا بعد أن أُرسل إليه موسى عليه السلام، ولهذا قال موسى عليه السلام لقومه بعد ذلك: {إستعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده} [الأعراف: ١٢٨].
٤- ومنها: أن الرب سبحانه وتعالى له مطلق التصرف في عباده بما يسوؤهم، أو يسرهم؛ لقوله تعالى: {من ربكم} يعني هذا العذاب الذي سامكم إياه آل فرعون، والإنقاذ منه؛ كله من الله عزّ وجلّ؛ فهو الذي بيده الخير، ومنه كل شيء، وبيده ملكوت كل شيء.

القرآن
{وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٠)} [البقرة : ٥٠]

---
(١) انظر: البحر المحيط: ٨٣/١.
(٢)ديوانه : ١٠٩ ، وروايته " رأى الله . . . فأبلاهما " . وهذا بيت من قصيدة من جيد شعر زهير وخالصه .
(٣) انظر: تفسير الطبري: ٤٩/٢.
(٤) تفسير الراغب الأصفهاني: ١٨٦/١.
(٥) تفسير البيضاوي: ٧٩/١.

التفسير:
واذكروا نعمتنا عليكم، حين فَصَلْنا بسببكم البحر، وجعلنا فيه طرقًا يابسةً، فعبرتم، وأنقذناكم من فرعون وجنوده، ومن الهلاك في الماء، فلما دخل فرعون وجنوده طرقكم أهلكناهم في الماء أمام أعينكم.
قوله تعالى: {وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ}[البقرة:٥٠]، أي: اذكروا أيضاً إذ "فصلنا بكم البحر"(١).
قال النسفي: أي: " فصلنا بين بعضه وبعض حتى صارت فيه مسالك لكم"(٢).
قال الصابوني: " أي: اذكروا أيضاً إذ فلقنا لكم البحر حتى ظهرت لكم الأرض اليابسة فمشيتم عليها"(٣).
قال الآلوسي:" أي: فلقناه وفصلنا بين بعضه وبعض لأجلكم، وبسبب إنجائكم"(٤).
قال ابن عثيمين: اي: فلقناه لكم، وفصلنا بعضه عن بعض حتى عبرتم إلى الشاطئ"(٥).
وقرأ الزهري:{ فرّقنا}، بتشديد الراء(٦)، وهي "قراءة شاذة، أي: جعلناه فرقا وأقساما"(٧)، يقال : "فرق بين الشيئين، وفرّق بين الأشياء، لأن المسالك كانت "اثني عشر"(٨) على عدد الأسباط"(٩).
قال الراغب:" الفرقُ ، والفلقُ ، لكن الفلق لا يكون إلا بين جسمين ، والفرق : قد يكون في الأجسام والمعاني ، وفي هذه القصة قد جاء اللفظان ، قال تعالى : {فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ}[الشعراء:٦٣]، أي كل قطعة من الماء ، والفرقان : كل كتاب يفرق بين الأحكام"(١٠).
وقال السمين الحلبي: " والفرق والفلق واحد، وهو الفصل والتمييز، ومنه {وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ} [الإسراء : ١٠٦] أي: فصلناه، وميزناه بالبيان، والقرآن فرقان لتمييزه بين الحق والباطل وفرق الرأس لوضوحه"(١١).
قال ابن إسحاق: "أوحى الله إلى البحر - فيما ذكر لي : إذا ضربك موسى بعصاه فانفلق له. قال : فبات البحر يضرب. بعضه بعضا فرقا من الله وانتظاره أمره، فأوحى الله جل وعز إلى موسى : أن اضرب بعصاك البحر ، فضربه بها ، وفيها سلطان الله الذي أعطاه ، فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ، أي كالجبل على نشز من الأرض يقول الله لموسى : {فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لا تَخَافُ دَرَكًا وَلا تَخْشَى} [طه : ٧٧]، فلما استقر له البحر على طريق قائمة يَبَسٍ سلك فيه موسى ببني إسرائيل ، وأتبعه فرعون بجنوده"(١٢).
وروي عن ابن عباس(١٣)، والسدي(١٤)، وابن زيد(١٥)، وعبدالله بن شداد بن الهاد(١٦)، وعمرو بن ميمون ميمون الأودي(١٧)، نحو قول ابن إسحاق.
وقد ذكر أهل التفسير في قوله تعالى: {وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ}[البقرة: ٥٠]، وجهين(١٨):
أحدهما: وإذ فصلنا بكم البحر، لأن الفرق: الفصل بين الشيئين(١).

---

(١) تفسير الطبري: ٥٠/٢.
(٢) تفسير النسفي: ٦٤/١.
(٣) صفوة التفاسير: ٤٩/١.
(٤) روح المعاني: ٢٥٦/١.
(٥) تفسير ابن عثيمين: ١٧٨/١.
(٦) أنظر: المحرر الوجيز: ١٤١/١، وفتح القدير: ٨٣/١.
(٧) لسان العرب: (فرق):ص٣٠٠:١٠.
(٨) أنظر: تفسير الطبري(٩٠٤):ص٥٠/٢.
(٩) تفسير النسفي: ٦٤/١.
(١٠) تفسير الراغب الأصفهاني: ١٨٧/١.
(١١) الدر المصون: ٣٥٠/١.
(١٢) أخرجه الطبري(٩٠٦):ص٥١/٢-٥٢.
(١٣)أنظر: تفسير الطبري(٩٠٩):ص٥٣/٢.
(١٤)أنظر: تفسير الطبري(٩١٠):ص٥٤/٢.
(١٥) أنظر: تفسير الطبري(٩١١):ص٥٤/٢.
(١٦) أنظر: تفسير الطبري(٩٠٥)، و(٩٠٧):ص٥١/٢-٥٢.
(١٧) أنظر: تفسير الطبري(٩٠٨):ص٥٣/٢، وابن أبي حاتم(٥٠٨):ص١٠٧/١.
(١٨) انظر: تفسير الطبري: ٥٠/٢.

والثاني: أن معناه: وإذ فرقنا بينكم وبين البحر، يريد بذلك : فصلنا بينكم وبينه، وحجزناه حيث مررتم به، وهذا قول بعض نحويي البصرة.

واعترض الطبري على القول الثاني، فقال: "وذلك خلاف ما في ظاهر التلاوة، لأن الله جل ثناؤه إنما أخبر أنه فرق البحر بالقوم، ولم يخبر أنه فرق بين القوم وبين البحر، فيكون التأويل ما قاله قائلو هذه المقالة، وفرقه البحر بالقوم، إنما هو تفريقه البحر بهم، على ما وصفنا من افتراق سبيله بهم، على ما جاءت به الآثار"(٢).

وقوله { بِكُمُ}[البقرة:٥٠]، اختلف فيه على وجوه(٣):

أحدهما: أن (الباء) سببية، ومعنى {بِكُمُ}: بسببكم.

قال السمين الحلبي:" الظاهر أن (الباء) على بابها من كونها داخلة على الآلة، فكأنه فرق بهم كما يفرق بين الشيئين بما توسط بينهما"(٤).

والثاني: أن تكون للتعدية.

قال أبو البقاء: "ويجوز أن تكون المعدية كقولك: ذهبت بزيد، فيكون التقدير: أفرقناكم البحر، ويكون بمعنى: {وجاوزنا ببني إسرآئيل البحر} [الأعراف: ١٣٨] وهذا قريب من الأول"(٥).

والثالث: وقيل (الباء) بمعنى (اللام)، ومعناه {لكم}، اختاره ابن الجوزي(٦)، قال ابن عطية:"وهذا ضعيف"(٧).

والرابع: ويجوز أن تكون للحال من(البحر)، أي: فرقناه ملتبسا بكم، قال أبو البقاء:"أي: فرقنا البحر وأنتم به"(٨)، ومنه قول المتنبي(٩):

فَمَرَّت غَيرَ نافِرَةٍ عَلَيهم تَدُوسُ بِنَا الجَمَاجِمَ وَالتَّرِيبا

أي: تدوسها ونحن راكبوها.

والراجح هو القول الأول، ومعنى{ بِكُمُ}: بسببكم. إذ أن "فرق البحر كان بهم أي بسبب دخولهم فيه أي لما صاروا بين الماءين صار الفرق بهم"(١٠)، والله أعلم.

وقال الآلوسي: إن"العرب- على ما نقله الدامغاني- تقول: غضبت لزيد- إذا غضبت من أجله وهو حي- وغضبت بزيد- إذا غضبت من أجله وهو ميت- ففيه تلويح إلى أن الفرق كان من أجل أسلاف المخاطبين"(١١).

وذكروا في قصة شق البحر قولان(١٢):

أحدهما: أن "البَحْرَ هو بحر (القلزم)، ولم يفرق البحر عرضا جزعا(١٣) من ضفة إلى ضفة، وإنما فرق من موضع إلى موضع آخر في ضفة واحدة، وكان ذلك الفرق بقرب موضع النجاة، ولا يلحق في البر إلا في أيام

---

(١) أنظر: اللسان(فرق):ص١٠/٣٠٠، والدر المصون: ٣٥٠/١، والبحر المحيط: ١٦٤/١.
(٢) تفسير الطبري: ٥٠/٢.
(٣) أنظر: المحرر الوجيز: ١٤١/١، وتفسير الكشاف: ١٣٨/١، وروح المعاني: ٢٥٦/١.
(٤) الدر المصون: ٣٤٩/١.
(٥) نقلا عن: الدر المصون: ٣٤٩/١.
(٦) زاد المسير: ٧٨/١.
(٧) المحرر الوجيز: ١٤١/١.
(٨) نقلا عن الدر المصون: ٣٤٩/١.
(٩) أنظر: ديوانه: ٢٥٦/١، والبحر المحيط: ٣٥٥/١، والدر المصون: ٣٤٩/١، وتفسير الكشاف: ١٣٨/١، وتسقى : بالتضعيف ، والقحوف : جمع قحف بالكسر ، وقيل بالضم : وهو العظم الذي فوق الدماغ وإناء صغير من خشب. والحليب : اللبن المحلوب ، أى كأنها كانت معتادة بهم فمرت عليهم مطمئنة. تدوس جماجمهم : أى رؤسهم ونحن على ظهورها. والتريب : لغة في التراب.
(١٠) فتح القدير: ٨٣/١.
(١١) روح المعاني: ٢٥٦/١.
(١٢)أنظر: المحرر الوجيز: ١٤٢/١.
(١٣) المراد: أن الفرق كان طوالا لا عرضا. يقال: جزعت الوادي جزعا، من باب نفع: أي قطعته إلى الجانب الآخر.

كثيرة بسبب جبال وأوعار حائلة، وذكر العامري أن موضع خروجهم من البحر كان قريبا من برية فلسطين وهي كانت طريقهم"(١).

والثاني: وقيل "انفلق البحر عرضا وانفرق البحر على اثني عشر طريقا، طريق لكل سبط فلما دخلوها قالت كل طائفة غرق أصحابنا وجزعوا، فقال موسى: اللهم أعني على أخلاقهم السيئة، فأوحى الله إليه أن أدر عصاك على البحر، فأدارها فصار في الماء فتوح كالطاق يرى بعضهم بعضا، وجازوا، وجبريل صلى الله عليه وسلم في ساقتهم على ماذيانة يحث بني إسرائيل ويقول لآل فرعون: مهلا حتى يلحق آخركم أولكم، فلما وصل فرعون إلى البحر أراد الدخول فنفر فرسه فتعرض له جبريل بالرمكة(٢)، فاتبعها الفرس، ودخل آل فرعون وميكائيل يحثهم، فلما لم يبق إلا ميكائيل في ساقتهم على الضفة وحده انطبق البحر عليهم فغرقوا"(٣).

وفي تسمية البحر ثلاثة أقوال(٤):

أحدها: أنه سمي بحراً لاستبحاره، وهو سعته وانبساطه، ويقال: استبحر فلان في العلم، إذا اتسع فيه، وتبحر الراعي في رعي كثير، وتبحر فلان في المال(٥).

والثاني:أنه سمي بذلك، لأنه شق في الأرض، والبحر: الشق، ومنه البحِيرَة(٦).

والثالث: أن البحر هو الملح، يقال: أبحر الماء، أي صار ملحا، ومنه قول نُصَيْب(٧):

وَقَدْ عَادَ مَاءُ الأَرْضِ بَحْراً فَرَدَّنِي   إِلَى مَرَضِي أَنْ أَبْحَرَ المَشْرَبُ العَذْبُ(٨)

قوله تعالى: {فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ} [البقرة : ٥٠]،" أي: نجيناكم من الغرق وأغرقنا فرعون وقومه"(٩).

قال ابن كثير:" أي: خلصناكم منهم ، وحجزنا بينكم وبينهم"(١٠).

قال الشوكاني: " أي أخرجناكم منه، {وأغرقنا آل فرعون} فيه"(١١).

قوله تعالى: {وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ}[البقرة:٥٠]، " أي: وأنتم تشاهدون ذلك"(١٢).

قال الطبري:" أي تنظرون إلى فرق الله لكم البحر ، وإهلاكه آل فرعون في الموضع الذي نجاكم فيه ، وإلى عظيم سلطانه - في الذي أراكم من طاعة البحر إياه"(١٣).

قال ابن عطية: أي: تنظرون "بأبصاركم، لقرب بعضهم من البعض"(١).

---

(١) المحرر الوجيز: ١٤٢/١.

(٢) وهي الأنثى من البراذين.

(٣) المحرر الوجيز: ١٤٢/١.

(٤)تهذيب اللغة" (بحر) ١/ ٢٨٢، وانظر: "الغريبين" ١/ ١٣٤، "الصحاح" (بحر) ٢/ ٥٨٥، "مقاييس اللغة" (بحر) ١/ ٢١٥، "الغريبين" ١/ ١٣٤، "مفردات الراغب" ص ٣٧، "اللسان" (بحر) ١/ ٢١٥، "فتح القدير" ١/ ١٣٢، والتفسير البسيط: ٥٠٨/٢-٥٠٩.

(٥) أنظر: تهذيب اللغة: (بحر) ١/ ٢٨٢، والتفسير البسيط: ٥٠٨/٢.

(٦) أنظر: تهذيب اللغة" (بحر) ١/ ٢٨٢، قال الأزهري: "قال أبو إسحاق النحوي: وأثبت ما روينا عن أهل اللغة في البَحِيرَة: أنها الناقة، كانت إذا نتجت خمسة أبطن فكان آخرها ذكرا، بحروا أذنها، أي: شقوها، وأعفوا ظهرها من الركوب والحمل، والذبح، ولا تُحَلَّأ عن ماء ترده، ولا تمنع من مرعى، وإذا لقيها المُعْيي المنقطع به لم يركبها". [وانظر: "اللسان" (بحر) ١/ ٢١٥].

(٧)البيت في "تهذيب اللغة" (بحر) ١/ ٢٨٢، "الصحاح" (بحر) ٢/ ٥٨٥، "مقاييس اللغة" (بحر) ١/ ٢١٥، "الغريبين" ١/ ١٣٤، "مفردات الراغب" ص ٣٧، "اللسان" (بحر) ١/ ٢١٥، "فتح القدير" ١/ ١٣٢، وفي أكثر المصادر: (فزادني) بدل: (فردني).

وهو نُصَيب بن رباح مولى عبد العزيز بن مروان، شاعر من فحول الشعراء الإسلاميين، انظر ترجمته في "الشعر والشعراء" ص٢٦٠، "معجم الأدباء" ١٩/ ٢٢٨.

(٨) أنظر: تهذيب اللغة" (بحر) ١/ ٢٨٢، والصحاح" (بحر) ٢/ ٥٨٥، ومقاييس اللغة" (بحر) ١/ ٢١٥، "الغريبين" ١/ ١٣٤، "مفردات الراغب" ص ٣٧، "اللسان" (بحر) ١/ ٢١٥.

(٩) صفوة التفاسير: ٥٠/١.

(١٠) تفسير ابن كثير: ٢٥٩/١.

(١١) فتح القدير: ٨٣/١.

(١٢) صفوة التفاسير: ٥٠/١.

(١٣) تفسير الطبري: ٥٧/٢.

قال الشوكاني:" أي حال كونكم ناظرين إليهم بأبصاركم"[٢].
قال ابن كثير:" ليكون ذلك أشفى لصدوركم ، وأبلغ في إهانة عدوكم"[٣].
قال الثعلبي:يعني " إلى مصارعهم"[٤].
قال البغوي:" إلى مصارعهم، وقيل : إلى إهلاكهم"[٥].
قال الواحدي: "ولم يذكر [هنا]، غرق فرعون نفسه، لأنه قد ذكره في مواضع كقوله: {فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا} [الإسراء: ١٠٣]. ويجوز أن يريد بآل فرعون نفسه[٦] .

وقد ذكر أهل التفسير في قوله تعالى: {وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ}[البقرة:٥٠]، قولان [٧]:
أحدهما: أنه من نظر العين، معناه وأنتم ترونهم يغرقون.
وفي رؤيتهم هذا المشهد العظيم، وجهان[٨]:
الوجه الأول: أنه تعالى، أفرد لكل سبط طريق من الماء وجعل الحاجز الذي بينه وبين الآخذ مشفاً كالزجاج، ينظرون منها إلى الآخرين.
قال السمين الحلبي:" والنظر يحتمل أن يكون بالبصر، لأنهم كانوا يبصرون بعضهم بعضا لقربهم"[٩].
والوجه الثاني: وقيل: إن آل فرعون طفوا على الماء فنظروا إليهم، وعلى ذلك حمل قوله :{فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً} [يونس : ٩٢][١٠].
والثاني: أنه بمعنى العلم ،كقوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ} [الفرقان : ٤٥]. قاله الفراء[١١].وضعّفه الطبري[١٢].
والراجح من تفسير هو القول الأول، أي: وأنتم تنظرون إلى فَرْق البحر، حتى سلكوا فيه ، وانطباقه على آل فرعون ، حتى غرقوا فيه.
الفوائد:
١. من فوائد الآية: مناسبة قوله تعالى: { وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون } لما قبله ظاهرة جداً، وذلك أنه لما ذكر الله سبحانه وتعالى تسلُّطَ آل فرعون عليهم ذكر مآل هؤلاء المتسلطين؛ وأن الله أغرقهم، وأنجى هؤلاء، وأورثهم أرضهم، كما قال الله تعالى: {وأورثناها بني إسرائيل} [الشعراء: ٥٩].
٢. ومنها: تذكير الله سبحانه وتعالى بني إسرائيل بنعمه؛ وقد تضمن هذا التذكير حصول المطلوب، وزوال المكروه؛ حصول المطلوب: بنجاتهم؛ وزوال المكروه: بإهلاك عدوهم.
٣. ومنها: بيان قدرة الله تعالى على كل شيء؛ فهذا الماء السيال أمره الله . تبارك وتعالى . أن يتمايز، وينفصل بعضه عن بعض؛ فانفلق، فكان كل فرق كالطود العظيم . أي كالجبل العظيم؛ وثم وجه آخر من هذه القدرة: أن هذه الطرق صارت يبساً في الحال مع أنه قد مضى عليها سنون كثيرة لا يعلمها إلا الله عزّ وجلّ

(١) المحرر الوجيز: ١٤٢/١.
(٢) فتح القدير: ٨٣/١.
(٣) تفسير ابن كثير: ٢٥٩/١.
(٤) تفسير الثعلبي: ١٩٤/١.
(٥) تفسير البغوي: ٩٤/١.
(٦) التفسير البسيط: ٥١٠/٢. أي أنه يطلق (آل فرعون) ويراد به نفسه كما في (آل موسى).
(٧) انظر: زاد المسير: ٧٩/١، وتفسير الطبري: ٥٧/٢-٥٨، وتفسير القرطبي: ٣٩٢/١، والمحرر الوجيز: ١٤٢/١، وفتح القدير: ٨٣/١.
(٨) أنظر: الدر المصون: ٣٥١/١، وتفسير الراغب الأصفهاني: ١٨٨/١.
(٩) الدر المصون: ٣٥١/١.
(١٠) أنظر: الدر المصون: ٣٥١/١، وتفسير الراغب الأصفهاني: ١٨٨/١.
(١١) أنظر: معاني القرآن: ٣٦/١.
(١٢) أنظر: تفسيره: ٥٧/٢. إذ يقول:" وليس التأويل الذي تأوله تأويل الكلام ، إنما التأويل : وأنتم تنظرون إلى فرق الله البحر لكم - على ما قد وصفنا آنفا - والتطام أمواج البحر بآل فرعون ، في الموضع الذي صير لكم في البحر طريقا يبسا. وذلك كان ، لا شك نظر عيان لا نظر علم ، كما ظنه قائل القول الذي حكينا قوله".

والماء من فوقها، ولكنها صارت في لحظة واحدة يبساً، كما قال تعالى: {ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دركاً ولا تخشى} [طه: ٧٧] ؛ وقد ذكر بعض المفسرين أنه كانت في هذه الفرق فتحات ينظر بعضهم إلى بعض . حتى لا ينْزعجوا، ويقولوا: أين أصحابنا؟! وهذا ليس ببعيد على الله سبحانه وتعالى.

وقد وقع مثل ذلك لهذه الأمة؛ فقد ذكر ابن كثير . رحمه الله في "البداية والنهاية" أنه ما من آية سبقت لرسول إلا لرسولنا صلى الله عليه وسلم مثلها: إما له صلى الله عليه وسلم هو بنفسه، أو لأمته؛ ومعلوم أن الكرامات التي تقع لمتبع الرسول هي في الحقيقة آيات له؛ لأنها تصديق لطريق هذا الولي المتبع للرسول؛ فتكون آية على صدق الرسول، وصحة الشريعة؛ ولهذا من القواعد المعروفة أن كل كرامة لولي فهي آية لذلك النبي المتبع؛ وذكر ابن كثير رحمه الله في "البداية والنهاية" على ذلك أمثلة؛ ومنها أن من الصحابة من مشَوا على الماء؛ وهو أبلغ من فلق البحر لبني إسرائيل، ومشيهم على الأرض اليابسة.

٤.من فوائد الآية: أن الآل يدخل فيهم من ينتسبون إليهم؛ فقد قال تعالى: { وأغرقنا آل فرعون }؛ وفرعون قد غرق بلا شك، كما قال تعالى: {حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين} [يونس: ٩٠] الآيتين.

٥. ومنها: أن إغراق عدو الإنسان وهو ينظر من نعمة الله عليه؛ فإغراقه، أو إهلاكه نعمة؛ وكون عدوه ينظر إليه نعمة أخرى؛ لأنه يشفي صدره؛ وإهلاك العدو بيد عدوه أشفى، كما قال تعالى: {قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين * ويذهب غيظ قلوبهم} [التوبة: ١٤، ١٥] ؛ نعم، عند عجز الناس لا يبقى إلا فعل الله عزّ وجلّ؛ ولهذا في غزوة الأحزاب نُصروا بالريح التي أرسلها الله عزّ وجلّ، كما قال تعالى: {فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها} [الأحزاب: ٩] .

٦. ومن فوائد الآية: عتوّ بني إسرائيل؛ فإن بني إسرائيل مع هذه النعم العظيمة كانوا من أشد الناس طغياناً، وتكذيباً للرسل، واستكباراً عن عبادة الله عزّ وجلّ.

٧. ومنها: أن الله تعالى سخِر من فرعون، حيث أهلكه بجنس ما كان يفتخر به، وأورث أرضه موسى . عليه الصلاة والسلام؛ وقد كان فرعون يقول: {يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون * أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين} [الزخرف: ٥١ . ٥٢] ؛ فأغرقه الله تعالى بالماء الذي كان يفتخر بجنسه، وأورث موسى أرضه الذي وصفه بأنه مهين، ولا يكاد يبين.

القرآن

{وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٥١)} [البقرة : ٥١]

التفسير:

واذكروا نعمتنا عليكم: حين واعدنا موسى أربعين ليلة لإنزال التوراة هداية ونورًا لكم، فإذا بكم تنتهزون فرصة غيابه هذه المدة القليلة، وتجعلون العجل الذي صنعتموه بأيديكم معبودًا لكم من دون الله - وهذا أشنع الكفر بالله- وأنتم ظالمون باتخاذكم العجل إلهًا.

قوله تعالى: {وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً}[البقرة:٥١]، "أي واذكروا إذ واعدنا موسى أربعين ليلة"[(١)].

قال الصابوني:" أي وعدنا موسى أن نعطيه التوراة بعد أربعين ليلة، وكان ذلك بعد نجاتكم وإهلاك فرعون"[(٢)].

قال ابن عثيمين:" وعده الله تعالى لميقاته ثلاثين ليلة، ثم أتمها بعشر، فصارت أربعين ليلة"[(٣)].

و{مُوسى}، اسم أعجمي لا ينصرف للعجمة والتعريف، والقبط على ما يروى يقولون للماء (مو)، وللشجر (سا)، فلما وجد موسى في التابوت عند ماء وشجر، فسمّي (موسى)[(٤)]. قاله السدي[(٥)].

---

(١) تفسير ابن عثيمين:١٨١/١.

(٢) صفوة التفاسير: ٥٠/١.

(٣) تفسير ابن عثيمين:١٨٠/١-١٨١.

(٤) أنظر: تفسير الطبري: ٦٠/٢-٦١، والمحرر الوجيز: ١٥٢/١.

(٥) أنظر: تفسير الطبري(٩١٢):ص٦١/٢.

قال ابن إسحاق: "وهو موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله"(١).

واختلفت القراءة في قوله تعالى: {وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى}[البقرة:٥١]، على وجهين(٢):

أحدهما: {وَاعَدْنَا}: بالألف، وهي قراءة ابن مسعود.

واستندوا بأنه، قد يجيء المفاعلة من واحد كقولهم: عاقبت اللص، وعافاك الله، وطارقت النعل.

والثاني: {وَعَدْنَا}: بغير ألف في جميع القرآن، قرأ بها أبو جعفر وأبو عمرو ويعقوب.

وقالوا: لأنّ الله عزّ وجلّ هو المتفرد بالوعد، يعني: المواعدة إنما تكون لغير الآدميين، واستدلوا في ذلك بقوله تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ}[النساء:٩٥]، وقوله: {إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ}[إبراهيم: ٢٢].

قال ابن عطية:" وليس هذا بصحيح، لأن قبول موسى لوعد الله والتزامه وارتقابه يشبه المواعدة"(٣).

قال الزجاج: وكلاهما جائز..وواعدنا هنا جيد بالغ، لأن الطاعة في القبول بمنزلة المواعدة، فهو من اللَّه عزَّ وجلَّ وعدٌ ومن موسى قبول واتّبَاعٌ، فجرى مجرى المواعدة"(٤).

قال أبو حيان: "يحتمل {واعدنا}، أن يكون بمعنى {وعدنا}، ويكون صادرا من واحد، ويحتمل أن يكون من اثنين على أصل المفاعلة، فيكون الله قد وعد موسى الوحي، ويكون موسى وعد الله المجيء للميقات، أو يكون الوعد من الله، وقبوله كان من موسى، وقبول الوعد يشبه الوعد، قال القفال " : ولا يبعد أن يكون الآدمي يعد الله، بمعنى يعاهده، وقيل : وعد إذا كان من غير طلب وواعد إذا كان من طلب .. ثم يقول : "وقد رجح أبو عبيد قراءة من قرأ {وعدنا} بغير ألف، وأنكر قراءة من قرأ {واعدنا} بالألف، ووافقه على معنى ما قال أبو حاتم ومكي . وقال أبو عبيد : المواعدة لا تكون إلا من البشر، وقال أبو حاتم : أكثر ما تكون المواعدة من المخلوقين المتكافئين، كل منهما يعد صاحبه . . ولا وجه لترجيح إحدى القراءتين على الأخرى ؛ لأن كلا منهما متواترة، فهما في الصحة على حد سواء"(٥).

وقرأ زيد بن علي: {أَرْبِعِينَ}، بكسر الباء وهي لغة(٦).

والأربعون: ذو القعدة وعشرة من ذي الحجة، قاله أبو العالية(٧)، وهو قول أكثر المفسرين.

وقال ابن إسحاق قال : وعد الله موسى - حين أهلك فرعون وقومه، ونجاه وقومه ثلاثين ليلة، ثم أتمها بعشر، فتم ميقات ربه أربعين ليلة، يلقاه ربه فيها ما شاء، واستخلف موسى هارون على بني إسرائيل، وقال : إني متعجل إلى ربي فاخلفني في قومي ولا تتبع سبيل المفسدين. فخرج موسى إلى ربه متعجلا للُقِيِّه شوقا إليه، وأقام هارون في بني إسرائيل ومعه السامري يسير بهم على أثر موسى ليلحقهم به"(٨). وروي عن السدي(٩) نحو ذلك.

وكان ذلك بعد أن جاوز موسى البحر وسأل قومه أن يأتيهم بكتاب من عند الله فخرج إلى الطور في سبعين من خيار بني إسرائيل وصعدوا الجبل وواعدهم إلى تمام أربعين ليلة فعدوا - فيما ذكر المفسرون - عشرين يوما وعشرين ليلة وقالوا قد أخلفنا موعده، فاتخذوا العجل وقال لهم السامري : هذا إلهكم وإله موسى فاطمأنوا إلى قوله(١٠).

واختلفوا في قوله تعالى{أَرْبَعِينَ لَيْلَةً}[البقرة:٥١]، على قولين (١١):

أحدهما: أن المراد: أربعين ليلة بتمامها، فالأربعون ليلة كلها داخلة في الميعاد. وهذا قول الجمهور.

---

(١) أخرجه الطبري(٩١٣):ص٦١/٢.
(٢) أنظر الحجة للقراء السبعة: ٦٦/٢-٦٧، ومعاني القرآم للزجاج: ١٣٣/١، وتفسير الثعلبي: ١٩٤/١.
(٣) المحرر الوجيز: ١٤٢/١.
(٤) معاني القرآن: ١٣٣/١.
(٥) البحر الميط: ١٩٥/١.
(٦) أنظر: تفسير الثعلبي: ١٩٥/١.
(٧) أنظر: تفسير الطبري(٩١٤):ص٦٢/٢.
(٨) أخرجه الطبري(٩١٦):ص٦٢/٢.
(٩) أنظر: تفسير الطبري(٩١٧):ص٦٢/٢-٦٣.
(١٠) انظر: تفسير القرطبي: ٣٩٦/١.
(١١) انظر: تفسير الطبري: ٦١/٢.

والثاني: وقد زعم بعض نحويي البصرة أن معناه : وإذ واعدنا موسى انقضاء أربعين ليلة، أي رأس الأربعين، ومثل ذلك بقوله :{وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ} [يوسف : ٨٢] وبقولهم : اليوم أربعون منذ خرج فلان، واليوم يومان، أي اليوم تمام يومين، وتمام أربعين.

والقول الثاني خلاف ما جاءت به الرواية عن أهل التأويل، وخلاف ظاهر التلاوة، فأما ظاهر التلاوة، فإن الله جل ثناؤه قد أخبر أنه واعد موسى أربعين ليلة، فليس لأحد إحالة ظاهر خبره إلى باطن، بغير برهان دال على صحته(١).

قوله تعالى:{ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ}[البقرة:٥١]، أي: "ثم اتخذتم في أيام مواعدة موسى العجل إلها"(٢).

قال ابن عثيمين: أي "صيرتم العجل إلها"(٣).

قال الصابوني:" أي عبدتم العجل"(٤).

قوله تعالى:{مِنْ بَعْدِهِ}[البقرة:٥١]، أي: "من بعد أن فارقكم موسى متوجها إلى الموعد"(٥).

قال الثعلبي:أي: "من بعد انطلاق موسى إلى الجبل للميعاد"(٦).

قال ابن عثيمين: "من بعد موسى، حين ذهب لميقات الله"(٧).

قال الصابوني: أي: بعد غيبته عنكم، حين ذهب لميقات ربه"(٨).

وأصل (اتخذتم) (ائتخذتم) من (الأخذ) ووزنه أفتعلتم سهلت الهمزة الثانية لامتناع همزتين فجاء إيتخذتم فاضطربت الياء في التصريف جاءت ألفا في ياتخذ وواوا في (موتخذ) فبدلت بحرف جلد ثابت من جنس ما بعدها وهي التاء وأدغمت ثم اجتلبت ألف الوصل للنطق وقد يستغنى عنها إذا كان معنى الكلام التقرير كقوله تعالى {قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً} [البقرة : ٨٠] فاستغنى عن ألف الوصل بألف التقرير قال الشاعر (٩):

أَسْتَحْدَثَ الرَّكْبُ عَنْ أَشْيَاعِهِمْ ... خَبَراً، أَمْ رَاجَعَ القلبَ مِنْ أَطْرَابِهِ طَرَبُ

ونحوه في القرآن {أَطَّلَعَ الْغَيْبَ} [مريم : ٧٨] {أَصْطَفَى الْبَنَاتِ} [الصافات : ١٥٣] {أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ} [ص : ٧٥] ومذهب أبي علي الفارسي أن (اتخذتم) من (تخذ) لا من (أخذ)(١٠).

و{العجل}، "تمثال من ذهب صنعه السامري، وقال لبني إسرائيل:{هذا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسى فَنَسِيَ}[طه:٨٨]"(١١)، "أي: تركه هاهنا وخرج بطلبه"(١٢).

روي ذلك عن ابن عباس(١٣)، والسدي(١٤)، وابن إسحاق(١٥)، وابن زيد(١٦)، ومجاهد(١٧)، وأبي العالية(١٨)، نحو ذلك.

قال أبو العالية: "وإنما سمي العجل، لأنهم عجلوا فاتخذوه قبل أن يأتيهم موسى"(١).

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٦١/٢.
(٢) تفسير الطبري: ٦٣/٢.
(٣) تفسير ابن عثيمين:١٨١/١.
(٤) صفوة التفاسير: ٥٠/١.
(٥) تفسير الطبري: ٦٣/٢.
(٦) تفسير الثعلبي: ١٩٥/١.
(٧) تفسير ابن عثيمين:١٨١/١.
(٨) صفوة التفاسير: ٥٠/١.
(٩) البيت للشاعر الأموي ذو الرمة، انظر: ديوانه: ٤. الركب " : أصحاب الإبل، جمع راكب كصحب جمع صاحب. و " الأشياع " : الأصحاب. و " أستحدث " بفتح الهمزة: استفهام. يقول: بكاؤك وحزنك ألخبر حدث، أم راجع قلبك طرب؟ و " الطرب " : استخفاف القلب في فرح كان أو حزن.
(١٠) انظر: تفسير القرطبي: ٣٩٧/١.
(١١) تفسير ابن عثيمين:١٨١/١.
(١٢) تفسير الثعلبي:١٩٤/١.
(١٣) أنظر: تفسير الطبري(٩١٨):ص٦٣/٢.
(١٤) أنظر: تفسير الطبري(٩١٩):ص٦٤/٢-٦٥.
(١٥) أنظر: تفسير الطبري(٩٢٠):ص٦٥/٢-٦٦.
(١٦) أنظر: تفسير الطبري(٩٢٢):٦٧/٢-٦٨.
(١٧) أنظر: تفسير الطبري(٩٢٣):ص٦٨/٢.
(١٨)أنظر: تفسير الطبري(٩٢٤):ص٦٨/٢.

وقال مجاهد: قوله: {العجل}، حسيل البقرة، ولد البقرة"[٢].

قال الثعلبي:" وكان بنو إسرائيل قد أخلفوا الوعد فعدّوا اليوم والليلة يومين، فلما مضت عشرون يوما ولم يرجع موسى عليه السّلام ورأوا العجل وسمعوا قول السامري، أفتتن بالعجل ثمانية ألف رجل منهم، وعكفوا عليه يعبدونه من دون الله عزّ وجلّ"[٣].

واختلف في الذين عبدوا العجل على أقوال[٤]:

أحدها: أنهم كلهم عبدوا العجل، إلا هارون. وها يدل عليه ظاهر قوله تعالى:{ثم اتخذتم}[البقرة:٥١].

والثاني: وقيل: الذين عكفوا على عبادته من قوم موسى، ثمانية آلاف رجل.

والثالث: وقيل : كلهم عبدوه إلا هارون مع اثني عشر ألفاً.

والرابع: وقيل: إلا هارون والسبعين رجلاً الذين كانوا مع موسى.

قال أبو حيان: "وهذا هو الصحيح"[٥]، أي القول الأخير.

والجمهور على إدغام الذال في التاء في قوله تعلى:{اتَّخَذْتُمُ}[البقرة:٥١]،،وقرأ ابن كثير وحفص من السبعة : بالإظهار[٦].

قوله تعالى:{وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ}[البقرة:٥١]،"أي معتدون في تلك العبادة ظالمون لأنفسكم"[٧].

أخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد: "قوله: {ظالمون}، قال: أصحاب العجل"[٨].

قال الزمخشري: "بإشراككم"[٩].

قال الثعلبي: أي:وأنتم: "مشّاؤون لأنفسكم بالمعصية، وواضعون العبادة في غير موضعها"[١٠].

قال البغوي: أي وأنتم" ضارون لأنفسكم بالمعصية، واضعون العبادة في غير موضعها"[١١].

قال الواحدي:" أي: ضارون لأنفسكم، وواضعون العبادة في غير موضعها"[١٢].

قال النسفي: " أي عبدتم العجل وأنتم واضعون العبادة غير موضعها، أو اعتراض أي وأنتم قوم عادتكم الظلم"[١٣].

قال المراغي:"أي: بإشراكهم ووضعهم للشيء في غير موضعه بعبادة العجل بدل عبادة خالقهم وخالقه"[١٤].

قال السعدي:وأنتم" عالمون بظلمكم، قد قامت عليكم الحجة، فهو أعظم جرما وأكبر إثما"[١٥].

قال الراغب:" عنى به الظلم المطلق وهو الكفر، وفي الآية حث على معرفة ما وعدنا الله تعالى به ومراعاته والمنع من الاشتغال عنه تعالى بشيء بغيره، وعلى هذا الوجه قال بعض الناس : كل ما شغلك عن الله فهو عجل متخذ وطاغوت متع وشيطان مطاع ومبدأ كل ذلك اتباع الهوى، ولذلك قال : {وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} وقال وهذا وإن لم يكن كفراً فهو شرك وبهذا الوجع قال تعالى: {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ}"[١٦].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم(٥١٢):ص١٠٨/١.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(١٣):ص١٠٨/١.

(٣) تفسير الثعلبي: ١٩٤/١.

(٤) أنظر: البحر المحيط: ١/!٦٩.

(٥) البحر المحيط: ١٦٩/١.

(٦) أنظر: البحر المحيط: ١٦٨/١.

(٧) صفوة التفاسير: ٥٠/١.

(٨) تفسير ابن أبي حاتم(٥١٤):ص١٠٨/١.

(٩) تفسير الكشاف: ١٣٩/١.

(١٠) تفسير الثعلبي: ١٩٥/١.

(١١) تفسير البغوي: ٩٥/١.

(١٢) التفسير البسيط: ٥٢٢/٢.

(١٣) تفسير النسفي: ٧٦/١.

(١٤) تفسير المراغي: ١١٣/١.

(١٥) تفسير السعدي: ٥٢.

(١٦) تفسير الراغب الأصفهاني: ١٨٩/١.

واختلف في تفسير قوله تعالى{وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ} [البقرة:٥١]، على قولين[١]:
القول الأول: أنه جملة حالية، ومتعلق الظلم، وفيه وجوه:
أحدها: ظالمون بوضع العبادة في غير موضعها.
والثاني: وأنتم ظالمون، بتعاطي أسباب هلاكها.
والثالث: وأنتم ظالمون، برضاكم فعل السامري في اتخاذه العجل، ولم تنكروا عليه.
والقول الثاني: أنه إخبار من الله، وفيه وجهان:
أحدهما: إنهم ظالمون : "أي سجيتهم الظلم، وهو وضع الأشياء في غير محلها، والمعنى: ثم اتخذتم العجل من بعده وكنتم ظالمين، كقوله تعالى: {اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ}"[٢].
والثاني: وقيل: "وأنتم ظالمون اليوم بمخالفة محمد صلى الله عليه وسلم"[٣].
وقد نقل السادة المفسرون قصصاً كثيراً مختلفاً في سبب اتخاذ العجل، وكيفية اتخاذه، وانجر مع ذلك أخبار كثيرة، الله أعلم بصحتها، إذ لم يشهد بصحتها كتاب ولا حديث صحيح، فتركنا نقل ذلك على عادتنا في هذا الكتاب.
الفوائد:
١. من فوائد الآيتين: حكمة الله . تبارك وتعالى . في تقديره، حيث واعد موسى أربعين ليلة لينَزِّل عليه فيها التوراة . مع أنه سبحانه وتعالى قادر على أن يَنزِّلها في ليلة مرة واحدة؛ ولكن لحكمة . لا نعلم ما هي . وعده الله تعالى ثلاثين ليلة أولاً، ثم أتمها بعشر؛ فتم ميقات ربه أربعين ليلة.
٢. ومنها: بيان جهل بني إسرائيل الجهل التام؛ وجه ذلك أن هذا الحلي الذي جعلوه إلهاً هم الذين صنعوه بأنفسهم؛ فقد استعاروا حلياً من آل فرعون، وصنعوه على صورة الثور عجلاً جسداً . لا روح فيه؛ ثم قال السامري: {هذا إلهكم وإله موسى فنسي} [طه: ٨٨] ؛ وزعموا أن موسى ضلّ، ولم يهتد إلى ربه، وهذا ربه! والعياذ بالله؛ فكيف يكون المصنوع رباً لكم، ولموسى وأنتم الذين صنعتموه! وهذا دليل على جهلهم، وغباوتهم إلى أبعد الحدود؛ وقد قالوا لموسى . عليه الصلاة والسلام . حينما أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم: {اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة} [الأعراف: ١٣٨] قال لهم نبيهم موسى: {إنكم قوم تجهلون} [الأعراف: ١٣٨]، وصدق عليه الصلاة والسلام.
٣. ومن فوائد الآيتين: أن اتخاذهم العجل كان عن ظلم؛ لقوله تعالى: {وأنتم ظالمون}، وهذا أبلغ، وأشنع في توبيخهم، والإنكار عليهم.

القرآن

{ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٢)} [البقرة : ٥٢]

التفسير:
ثمَّ تجاوزنا عن هذه الفعلة المنكرة، وقبِلْنَا توبتكم بعد عودة موسى؛ رجاءَ أن تشكروا الله على نعمه وأفضاله، ولا تتمادوا في الكفر والطغيان.
قوله تعالى: {ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ}[البقرة:٥٢]، أي: " محونا ذنوبكم"[٤].
قوله تعالى:{مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ}[البقرة:٥٢]، أي:" بعد عبادتكم العجل"[٥].
قال أبو العالية:" يعني من بعد ما اتخذوا العجل"[٦]. وروي عن الربيع بن أنس مثل ذلك[٧].
قوله تعالى: {لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[البقرة:٥٢]، أي:"لكي تشكروا عفوي عنكم وصنيعي إليكم"[١].

---

(١) أنظر: البحر المحيط: ١٦٩/١.
(٢) البحر المحيط: ١٦٩/١.
(٣) التفسير البسيط: ٥٢٢/٢.
(٤) تفسير البغوي: ٩٥/١.
(٥) تفسير البغوي: ٩٥/١.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(٥١٥):ص١٠٨/١.
(٧) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم:١٠٨/١.
: تفسير ابن أبي حاتم:١٠٨/١.

قال عون بن عبدالله:"إن {لعل}، من الله واجب"[٢].
و{لعل} هنا للتعليل، بمعنى (كي). قاله أبو مالك[٣].
وقال سفيان بن عيينة: "على كل مسلم أن يشكر ربه عز وجل، لأن الله قال: {لعلكم تشكرون}"[٤].
و"الشكر يكون بالقلب: وهو إيمان القلب بأن النعمة من الله عزّ وجلّ، وأن له المنة في ذلك؛ ويكون باللسان: وهو التحدث بنعمة الله اعترافاً، لا افتخاراً؛ ويكون بالجوارح: وهو القيام بطاعة المنعِم"[٥].
وقال ابن منظور: "والحمد والشكر متقاربان والحمد أعمهما لأنك تحمد الإنسان على صفاته الذاتية وعلى عطائه ولا تشكره على صفاته ومنه الحديث الحمد رأس الشكر ما شكر الله عبد لا يحمده كما أن كلمة الإخلاص رأس الإيمان وإنما كان رأس الشكر لأن فيه إظهار النعمة والإشادة بها ولأنه أعم منه فهو شكر وزيادة" [٦].
وقال الراغب: "الشكر: تصور النعمة وإظهارها، قيل وهو مقلوب عن الكشر أي الكشف، ويضاده الكفر وهو نسيان النعمة وسترها، ودابة شكور مظهرة بسمنها إسداء صاحبها إليها، وقيل أصله من عين شكري أي ممتلئة، فالشكر على هذا هو الامتلاء من ذكر المنعم عليه، والشكر ثلاثة أضرب:
الأول: شكر القلب، وهو تصور النعمة.
والثاني: شكر اللسان، وهو الثناء على المنعم.
والثالث: شكر سائر الجوارح، وهو مكافأة النعمة بقدر استحقاقه"[٧].
وقد اختلف أهل العلم في الحمد والشكر هل بينهما فرق ؟ على قولين:
القول الأول : أن الحمد والشكر بمعنى واحد، وأنه ليس بينهما فرق، واختار هذا ابن جرير الطبري وغيره
قال الطبري: " ومعنى(الحَمْدُ لِلَّهِ) : الشكر خالصًا لله جل ثناؤه، دون سائر ما يُعبد من دونه .. "، ثم قال رحمه الله بعد ذلك : " ولا تَمانُع [أي : اختلاف] بين أهل المعرفة بلغات العرب من الحُكْم لقول القائل : "الحمد لله شكرًا " بالصحة، فقد تبيّن - إذْ كان ذلك عند جميعهم صحيحًا - أنّ الحمد لله قد يُنطق به في موضع الشكر، وأن الشكر قد يوضع موضعَ الحمد ؛ لأن ذلك لو لم يكن كذلك، لما جاز أن يُقال : " الحمد لله شكرًا "[٨].
القول الثاني : أن الحمد والشكر ليسا بمعنى واحد، بل بينهما فروق، ومن تلك الفروق:
أولا: أن الحمد يختص باللسان، بخلاف الشكر، فهو باللسان والقلب والجوارح.
والثاني: أن الحمد يكون في مقابل نعمة، ويكون بدونها، بخلاف الشكر لا يكون، إلا في مقابل نعمة.
قال ابن كثير رحمه الله – في معرض رده على كلام ابن جرير السابق :"وهذا الذي ادعاه ابن جرير فيه نظر ؛ لأنه اشتهر عند كثير من العلماء من المتأخرين : أن الحمد هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية، والشكر لا يكون إلا على المتعدية، ويكون بالجنان واللسان والأركان، كما قال الشاعر[٩]:

---

(١) تفسير البغوي: ٩٥/١.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٥١٦):ص١٠٨/١.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٥١٧):ص١٠٨/١.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(٥١٨):ص١٠٨/١.
(٥) تفسير ابن عثيمين: ١٠٧/١.
(٦) لسان العرب:٣/ ١٥٥.
(٧) المفردات للراغب: ٢٦٥.
(٨) تفسير الطبري: ١٣٥/١.
(٩) البيت للامام الشيباني الشافعي المولود (٧٠٣هـ) المتوفى (٧٧٧هـ)، والبيت ضمن القصيدة الكبيرة الالفية المطبوعة للامام ابي عبدالله محمد الشيباني الشافعي ذكرها له صاحب كشف الظنون:١٣٤٠/٢، وشرحها جمع من اعلام الشافعية، منهم: نجم الدين محمد بن عبدالله الاذرعي العجلوني الشافعي : المتوفى (٨٧٦)، و الشيخ علوان علي بن عطية الحموي الشافعي: المتوفى(٩٣٦) ، سماه ببديع المعاني في شرح قصيدةالشيباني، ابوالبقاء الاحمدي الشافعي سماه المعتقد الايماني على عقيدة الشيباني، و الشيخ محمد بن علي بن محمد علان: المتوفى (١٠٥٧) سماه: بديع المعاني ايضا.
هو محمد بن احمد بن ابيبكر بن عرام بن ابراهيم بن ياسين بن ابيالقاسم بن محمد الربعي الشيباني الاسوانيالاسكندراني الشافعي تقي الدين ابو عبدالله الامام المحدث الفقيه المفتي، ولد في ثامن عشر شوال سنة(٧٠٣) وسمع كما في الدرر الكامنة (٣٧٣/٣) من العلا مة رشيد الدين اسماعيل بن عثمان المعروف بابن المعلمالحنفي المتوفى(٧٢٤)، والحسن بن عمر الكردي

أفادتكم النعماءُ مني ثلاثةً ... يدي ولساني والضميرَ المُحَجَّبا

ولكنهم اختلفوا أيهما أعمّ الحمد، أو الشكر على قولين، والتحقيق أن بينهما عموماً وخصوصاً، فالحمد أعم من الشكر من حيث ما يقعان عليه ؛ لأنه يكون على الصفات اللازمة والمتعدية، تقول حمدته لفروسيته، وحمدته لكرمه . وهو أخص لأنه لا يكون إلا بالقول، والشكر أعم من حيث ما يقعان عليه ؛ لأنه يكون بالقول والفعل والنية، كما تقدم . وهو أخص ؛ لأنه لا يكون إلا على الصفات المتعدية : لا يقال شكرته لفروسيته، وتقول شكرته على كرمه وإحسانه إليّ، هذا حاصل ما حرره بعض المتأخرين والله أعلم "[١].

وعلى ذلك بنى أبو هلال العسكري تفريقه بين الأمرين، قال رحمه الله: "الفرق بين الحمد والشكر: الحمد هو الثناء باللسان على الجميل، سواء تعلق بالفضائل كالعلم، أم بالفواضل كالبر، والشكر: فعل ينبئ عن تعظيم المنعم لأجل النعمة، سواء أكان نعتا باللسان، أو اعتقادا، أو محبة بالجنان، أو عملا وخدمة بالأركان،وقد جمعها الشاعر في قوله .(فذكر البيت السابق)، فالحمد أعم مطلقا، لانه يعم النعمة وغيرها، وأخص موردا إذ هو باللسان فقط، والشكر بالعكس، إذ متعلقه النعمة فقط، ومورده اللسان وغيره،فبينهما عموم وخصوص من وجه، فهما يتصادقان في الثناء باللسان على الإحسان، ويتفارقان في صدق الحمد فقط على النعت بالعلم مثلا، وصدق الشكر فقط على المحبة بالجنان لأجل الإحسان " [٢].

وقال ابن القيم رحمه الله : " والفرق بينهما : أن الشكر أعم من جهة أنواعه وأسبابه، وأخص من جهة متعلقاته، والحمد أعم من جهة المتعلقات، وأخص من جهة الأسباب،ومعنى هذا : أن الشكر يكون : بالقلب خضوعا واستكانة، وباللسان ثناء واعترافاً، وبالجوارح طاعة وانقيادا،ومتعلقه : النعم دون الأوصاف الذاتية، فلا يقال : شكرنا الله على حياته وسمعه وبصره وعلمه، وهو المحمود عليها كما هو محمود على إحسانه وعدله، والشكر يكون على الإحسان والنعم، فكل ما يتعلق به الشكر يتعلق به الحمد من غير عكس، وكل ما يقع به الحمد يقع به الشكر من غير عكس، فإن الشكر يقع بالجوارح والحمد يقع بالقلب واللسان" [٣].

ويقارب كلام ابن القيم ما ذكره القرطبي في تفسيره بعد أن ذكر كلام أهل العلم في الفرق بين الحمد والشكر قال : "قلت : الصحيح أن الحمد ثناء على الممدوح بصفاته من غير سبق إحسان، والشكر ثناء على المشكور بما أولى من الإحسان، وعلى هذا الحد قال علماؤنا: الحمد أعم من الشكر، لان الحمد يقع على الثناء وعلى التحميد وعلى الشكر، والجزاء مخصوص إنما يكون مكافأة لمن أولاك معروفا، فصار الحمد أعم في الآية لأنه يزيد على الشكر"[٤] .

وللعلامة أبي السعادات ابن الأثير كلاما نفيسا في الموضوع قال : "والحمد والشكر مُتَقاربان، والحمد أعَمُّها لأنَّك تحمَد الإنسان على صِفاته الذَّاتيَّة وعلى عطائه ولا تَشْكُره على صِفاته، ومنه الحديث "الحمدُ

ابي علي نزيل الجيزة بمصر والمتوفىبها سنة(٧٢٠) ،والحجار شهاب الدين ابي العباس احمد بن ابي طالب المتوفى (٧٣٠)، والشريف موسى بن ابي طالبعزالدين ابي القاسم الموسوي المتوف ى بمصر سنة(٧١٥)، والعلم بن درادة، وتاج الدين بن دقيق العيداحمد بن علي المتوفى بالقاهرة وقيل بقوص سنة (٧٢٣)، واحمد بن محمد بن كمال الدين المتوفى (٧١٨)،والشريف علي الزينبي، وعمر العتبي ركن الدين بن محمد القرشي المتوفى (٧٢٤)، وزينب بنت احمد بن عمربن ابي بكر بن شكر المقدسي المتوفاة سنة(٧٢٢) ، وغيرهم . واجاز له المطعم، وابن عبد الدائم، وابن النحاس، ويحيى بن سعد، ومن مكة رضي الدين ابو اسحاقابراهيم الطبري المكي الشافعي المتوفى سنة (٧٢٢) وغيرهم . قال ابن حجر في (الدرر الكامنة: ٣٧٣/٣ رقم٩٨٦): وحدث وافتى ودرس وصنف وخرج، وتفرد باءشياء من مسموعاته، وكانتوفاته في سنة(٧٧٧)، وتوجد ترجمته في شذرات الذهب، (٦/٢٥٢) وعد ممن سمع من ابن مخلوف علي بن ناهض النويريالمالكي القاضي المتوفى (٧١٨). والمترجم له وان لم يوصف بالشعر فيما وقفنا عليه من ترجمته، غير ان الامام ابا عبدالله محمد الشيبانيالشافعي الذي نسبت اليه القصيدة بهذه الاوصاف في المعاجم لم ينطبق الا عليه، والله العالم.

(١) تفسير ابن كثير: ٣٢/١.

(٢)الفروق اللغوية: ٢٠١-٢٠٢.

(٣)مدارج السالكين: ٢٤٦/٢.

(٣)الجامع لأحكام القرآن ١٣٤/١ .

رأس الشُّكر ما شَكَر اللَّهَ عبْدٌ لا يَحْمَده "[1]، كما أنّ كلمة الإخْلاص رأسُ الإيمان، وإنما كان رأسَ الشُّكر لأنّ فيه إظهار النِّعْمة والإشادة بها ولأنه أعم منه فهو شُكْر وزيادة"[2].

الفوائد:

١. من فوائد الآية: سعة حلم الله عزّ وجلّ، وأنه مهما بارز الإنسان ربه بالذنوب فإن حلم الله تعالى قد يشمله، فيوفق للتوبة؛ وهؤلاء وفّقوا لها.

٢. ومنها: أن العفو موجب للشكر؛ لقوله تعالى: {لعلكم تشكرون}؛ وإذا كان العفو . وهو زوال النقم . موجباً للشكر فحدوث النعم أيضاً موجب للشكر من باب أولى.

القرآن

{وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (٥٣)} [البقرة : ٥٣]

التفسير:

واذكروا نعمتنا عليكم حين أعطينا موسى الكتاب الفارق بين الحق والباطل -وهو التوراة-؛ لكي تهتدوا من الضلالة.

قوله تعالى: {وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ}[البقرة:٥٣]، "أي واذكروا نعمتي أيضاً حين أعطيت موسى التوراة الفارقة بين الحق والباطل"[3].

قال ابن عثيمين: " أي واذكروا إذ أعطينا موسى التوراة الفارق بين الحق والباطل"[4].

روي " عن قتادة في قوله: {الكتاب}، قال التوراة"[5]. وهو قول جمهور المفسرين[6].

وقال مجاهد: " {الكتاب}: هو الفرقان، فرقان بين الحق والباطل"[7]. وروي عن أبي العالية[8]، والربيع بن أنس[9]، نحو ذلك.

واختلف في(الواو) في قوله تعالى: {الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ}[البقرة:٥٣]،على وجهين[10]:

أحدهما: أن(الواو) فيه زائدة. وهذا مذهب الكسائي[11]، إذ يرى: أن الفرقان نعت للكتاب، والمعنى: وإذا آتينا موسى الكتاب الفرقان، أي: الفارق بين الحلال والحرام، ثم زيدت (الواو)، كما تزاد في النعوت فيقال: فلان حسن وطويل وسخي، وأنشد[12]:

إِلَى المَلِكِ القَرْمِ وَابْنِ الهُمَامِ   وَلَيْثِ الكَتِيبَةِ في المُزْدَحَم

وضعّف هذا القول أبو حيان[13] وابن كثير [14].

والثاني: أن(الواو) حرف عطف، فعطف عليه وإن كان المعنى واحدًا، كما في قول عدي العبادي[1] :

---

(١)رواه البغوي في "شرح السنة" ١٤٤/ ٢، والديلمي:٢/ ١٠٣، عن عبدالرزاق : أخبرنا معمر ، عن قتادة : أن عبدالله بن عمرو قال : ... فذكره مرفوعا. قال الألباني : وهذا سند ضعيف ، رجاله ثقات ؛ لكن قتادة لم يسمع من ابن عمرو ؛ كما يقتضيه قول الحاكم فيه: "لم يسمع من صحابي غير أنس. "[السلسلة الضعيفة والموضوعة: ٨ / ٢٣].

(١)النهاية في غريب الحديث والأثر:٤٣٧/١.

(٣) صفوة التفاسير: ٥٠/١.

(٤) تفسير ابن عثيمين:٨٣/١.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(٥٢٠):ص١٠٩/١.

(٦) أنظر: روح المعاني: ٢٦٠/١.

(٧) أنظر: تفسير الطبري(٩٢٩)، و(٩٣٠)، و(٩٣١):ص٧٠/٢، وتفسير ابن أبي حاتم:١٠٩/١.

(٨) أنظر: تفسير الطبر(٩٢٨):ص٧٠/٢، وتفسير ابن أبي حاتم(٥٢١):ص١٠٩/١.

(٩) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم:١٠٩/١.

(١٠) انظر: تفسير ابن كثير: ٢٦١/١.

(١١)ذكره الثعلبي في تفسيره: ١/ ١٩٦، وانظر:تفسير البغوي: ١/ ٧٣، والكشاف: ١/ ٢٨١، وذكر الفراء نحوه ولم يعزه للكسائي، "معاني القرآن:١/ ٣٧.

(١٢)البيت بلا نسبة في"معاني القرآن للفراء: ١/ ١٠٥، والإنصاف: ٣٧٦، والخزانة:١/ ٢١٦. والقَرْم: السيد المعظم.

(١٣) انظر: البحر المحيط: ٢٠٢/١.

(١٤) تفسير ابن كثير: ٢٦١/١.

وقدمت الأديم لراقشيه ... فألفى قولها كذبًا ومينا
وقال الحطيئة[٢] :
ألا حبذا هند وأرض بها هند ... وهند أتى من دونها النأي والبعد
فالكذب هو المين، والنأي: هو البعد، وقال عنترة[٣] :
حييت من طلل تقادم عهده ... أقوى وأقفر بعد أم الهيثم

قال الزجاج: " والقول الأول هو القول، لأن الفرقان قد ذكر لموسى في غير هذا الموضع - قال الله عزَّ وجلَّ: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ} [الأنبياء: ٤٨]"[٤].

وَ{الْفُرْقَانَ}: الفصل بين الحق والباطل، والهدى والضلال، وكان ذلك - أيضا - بعد خروجهم من البحر، كما دل عليه سياق الكلام في سورة الأعراف، ولقوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} [القصص : ٤٣][٥].

و(الفرقان) لغة: مصدر فرَقت بين الشيئين: أفرُق فَرْقًا وفُرْقانًا، كالرجحان والنقصان، هذا هو الأصل، ثم يسمى كل فارق: فرقانًا، كتسميتهم الفاعل بالمصدر، كما سمى كتاب الله الفرقان لفصله بحججه وأدلته بين المحقّ والمبطل، وسمى الله تعالى يوم بدر: يوم الفرقان في قوله {يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ} [الأنفال: ٤١]، لأنه فرق في ذلك اليوم بين الحق والباطل، فكان ذلك اليوم يوم الفرقان، وقوله تعالى: {إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا} [الأنفال: ٢٩]، أي: يفرق بينكم وبين ذنوبكم، أو بينكم وبين ما تخافون"[٦].

واختلف في تفسير {الْفُرْقَانَ}[البقرة:٥٣]، هنا، على أربعة أوجه:

أحدها:أن {الْفُرْقَانَ}: ما في التوراة من فَرْقٍ بني الحقِّ والباطِلِ ، فيكون ذلك نعتاً للتوراة. قاله أبو العالية[٧]، ومجاهد[٨]، والربيع بن أنس[٩]، واختاره الفراء[١٠]، وارتضاه الزجاج[١١]، وهو قول جمهور أهل التفسير[١٢].

واحتجوا من وجهين:

---

(١)ديوان عدي بن زيد العبادي، تحقيق: محمد جبار المعيبد، دار الجمهورية للنشر والطبع، بغداد، ١٩٦٥م، ص ١٨٣، ويروى (وقدّمت الأديم)، والبيت ذكر في اللسان: (مين)، وقدت أي قطعت، والضمير فيه يعود على الزباء، وهي امرأة ورثت الملك عن أبيها - والأديم الجلد، ولراهشيه، أي: إلى أن وصل القطع للراهشين، وهما عرقان في باطن الذراع يتدفق الدم منهما عند القطع - والضمير في ألفى يعود على المقطوع راهشاه، وهو جذيمة الابرش، والمراد الاخبار بأن جذيمة غدرت به الزباء، وقطعت راهشيه، وسأل منه الدم حتى مات، وأنه وجد ما وعدته من تزوجه بها كذبا ومينا - وهما بمعنى واحد، واحدى الكلمتين زائدة فلا يتغير المعنى باسقاط أيهما شئت وكقول الشاعر:
ألا حبذا هند وأرض بها هند وهند أتى من دونها التأى والبعد
فالنأي والبعد بمعنى واحد، ولا يتعين أحدهما للزيادة.

(٢) ديوانه، طبعة بيروت: ٣٩. وفي اللسان والصحاح والتهذيب والمقاييس ٥ / ٣٧٨ والأساس، بدون نسبة. و(هند): هي المخصوص بالمديح، فاعل. ولم ير الشاعر في نفسه حاجة إلى تمييز، فاطّرحه، ولو ذكره لقال مثلاً: حبذا هندٌ امرأةً. وتأنيث الفاعل لم يغيّر من [حبذا] شيئاً، لأنه يلزم صيغة الإفراد والتذكير أبداً في كل حال.

(٣)شرح المعلقات السبع، الزوزني:١٣٠. والإقواء والإقفار: الخلاء، جمع بينهما لضرب من التأكيد، وأم الهيثم: كنية عبلة. يقول: حييت من جملة الأطلال. أن خصصت بالتحية من بينها ثم أخبر أنه قدم عهده بأهله وقد خلا عن السكان بعد ارتحال حبيبته عنه .

(٤) معاني القرآن: ١٣٤/١.

(٥) انظر: الطبري: ٧٠/٢، وتفسير ابن كثير: ٢٦١/١.

(٦) التفسير البسيط: ٥٢٥/٢، وانظر: معاني القرآن للزجاج: ٢/ ٤٦١، تهذيب اللغة" (فرق):٣/ ٢٧٧٩، والصحاح: (فرق) ٤/ ١٥٤٠، واللسان:(فرق) ٦/ ٣٣٩٩.

(٧) أنظر: تفسير الطبر(٩٢٨):ص٧٠/٢، وتفسير ابن أبي حاتم(٥٢١):ص١٠٩/١.

(٨) أنظر: تفسير الطبري(٩٢٩)، و(٩٣٠)، و(٩٣١):ص٧٠/٢، وتفسير ابن أبي حاتم:١٠٩/١.

(٩) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم:١٠٩/١.

(١٠)ذكره الثعلبي في "تفسيره" ١/ ٧٣ أ، وذكر الفراء في المراد بالفرقان عدة أقوال، والقول المذكور هنا أحد الأقوال. انظر "معاني القرآن" ١/ ٣٧.

(١١) انظر: معاني القرآن للزجاج: ١٠٥/١.

(١٢)رجحه الطبري: ٢/ ٧٠، ٧١، والنحاس في "إعراب القرآن" ١/ ٢٢٥، "تفسير الثعلبي" ١/ ٧٣ أ، وتفسير ابن عطية" ١/ ٢١٦، والبغوي في "تفسيره" ١/ ٧٣، وابن الجوزي في "زاد المسير" ١/ ٨١، وتفسير ابن كثير" ١/ ٩٧، و معاني القرآن للفراء: ٣٧/١، ومعاني القرآن للزجاج: ١٠٥/١.

الأول: أن العرب تكرر الشيء إذا اختلفت ألفاظه، ومنه قول عدي بن زيد[١]:

وَقَدَّدَت الأَدِيَم لِرَاهِشَيْه وأَلْفَى قَوْلَهَا كَذِبًا وَمَيْنَا

فقوله (كذبًا وميْنًا)، عطف (المين) على (الكذب)، وهو بمعناه.

وقال عنترة[٢]:

حُيِّيتَ مِنْ طَلَلٍ تَقَادَمَ عَهْدُهُ ... أَقْوَى وَأَقْفَرَ بَعْدَ أُمِّ الهَيْثَمِ

والثاني: أن الله تعالى ذكر لموسى الفرقان في غير هذا الموضع، وهو قوله: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ} [الأنبياء: ٤٨]. فعلى هذا الفرقان هو الكتاب، والكتاب هو الفرقان، ولكن ذكر بلفظين مختلفين[٣]، والعطف هنا من باب عطف الصفة على الموصوف؛ والعطف يقتضي المغايرة؛ والمغايرة يكتفى فيها بأدنى شيء؛ قد تكون المغايرة بين ذاتين؛ وقد تكون المغايرة بين صفتين؛ وقد تكون بين ذات وصفة؛ فمثلاً: قوله تعالى: {خلق السماوات والأرض} [الأنعام: ١] : المغايرة بين ذاتين؛ وقوله تعالى: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤)} [الأعلى : ١ - ٤]: المغايرة بين صفتين؛ وقوله تعالى هنا: {الكتاب والفرقان}: المغايرة بين ذات وصفة؛ فـ{الكتاب} نفس التوراة؛ و{الفرقان} صفته؛ فالعطف هنا من باب عطف الصفة على الموصوف[٤].

القول الثاني: أن {الفرقان}: النصر، الذي فرَّق الله به بين موسى وفرعون ، حتى أنجى موسى وقومَهُ ، وأغرق فرعون وقومهُ. قاله ابن زيد[٥]، وروي عن ابن عباس[٦] نحو ذلك.

ومما يعضد هذا الوجه، قول عبدالله بن رواحة، وهو يخاطب النبي -صلى الله عليه وسلم-[٧]:

فَثَبَّتَ اللهُ مَا آتاكَ مِنْ حَسَنٍ ... تَثْبِيتَ مُوسَى وَنَصْرًا كَالَّذِي نُصِرُوا

فعلى هذا، سمى نصره على فرعون وقومه فرقانًا[٨].

وعن يمان بن رباب: "{الفرقان}: انفراق البحر وهو من عظيم الآيات، يدلّ عليه قوله تعالى:{وَإِذْ فَرَقْنا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْناكُمْ}"[٩]. وهذا الوجه أيضا يدخل ضمن القول الثاني.

القول الثالث: أن {الفرقان}: هو "علم الكتاب وتبيانه وحكمته". قاله سعيد بن جبير[١٠].

القول الرابع:أن{الفرقان}، هو القرآن، وهذا قول قطرب، حكاه الزجاج عنه[١]، وعللوا قولهم ذلك، من وجهين:

---

(١)في "معاني القرآن" للفراء ١/ ٣٧، "الشعر والشعراء" ص ١٣٢، "إعراب القرآن" للنحاس ١/ ١٧٥، "تفسير الثعلبي" ١/ ١٩ أ، ٧٣ أ، "أمالي المرتضى" ٢/ ٢٥٨، "المستقصى" ١/ ٢٤٣، "مغني اللبيب" ٢/ ٣٥٧، "الهمع" ٥/ ٢٢٦، "معاهد التنصيص" ١/ ٣١٠، "اللسان" (مين) ٧/ ٤٣١١، والقرطبي في "تفسيره" ١/ ٣٩٩، "الدر المصون" ١/ ٣٥٨.
والبيت ضمن قصيدة قالها عدي بن زيد، في قصة طويلة مشهورة بين الزَّبّاء وجذيمة وردت في كتب التاريخ والأدب.
ويروي (قدمت) و (الراهش) عرق في باطن الذراع و (المين) بمعنى: الكذب، ورد البيت.

(٢)ورد البيت في "تهذيب اللغة" (شرع) ٢/ ١٨٥٧، "اللسان" (شرع) ٤/ ٢٢٣٨، "تفسير الثعلبي" ١/ ٧٣ أ، "تفسير القرطبي" ١/ ٣٤١، "الدر المصون" ١/ ٣٥٨، "فتح القدير" ١/ ١٣٥، و"ديوان عنترة" ص ١٨٩.
و(الطلل): ما شخص من الدار من وتد وغيره، (تقادم): طال عهده بأهله فتغير، (أقوى): خلا من أهله.

(٣) أنظر: معاني القرآن للزجاج: ١٠٥/١، والتفسير البسيط: ٥٢٦/٢.

(٤) أنظر: تفسير ابن عثيمين:١٨٣/١.

(٥) انظر: تفسير الطبري (٩٣٢):ص ٧١/٢.

(٦)ذكره الثعلبي في "تفسيره" ١/ ٧٣ أ، وابن الجوزي في "زاد المسير" عن عباس وابن زيد ١/ ٨١، وذكر الطبري نحوه عن ابن زيد ١/ ٢٨٥، وذكره أبو الليث في "تفسيره" ولم يعزه ١/ ٣٥٤، وكذا ابن عطية في "تفسيره" ١/ ٢٩٥.

(٧) ديوانه: ١٥٩. وانظر: طبقات ابن سعد" ٣/ ٥٢٨، "سيرة ابن هشام" ٣/ ٤٢٨، "سير أعلام النبلاء" ١/ ٢٣٤، و"الاستيعاب" ٣/ ٣٥، "الدر المصون" ١/ ٥٩١، "البحر المحيط" ٢/ ٣١١، ٢٢٧، ٦/ ٨٤.

(٨) أنظر: التفسير البسيط: ٥٢٧/٢.

(٩) ذكره الثعلبي في تفسير: ١٩٧/١، والبغوي: في تفسيره: ٧٣/١، وحكاه الواحدي عن الزجاج عن يمان بن رباب، ولم أجد هذا القول في "معاني القرآن" للزجاج، وممن نسبه للزجاج ابن الجوزي في "زاد المسير" ١/ ٨١، وهذا القول ذكره الفراء في "المعاني" ١/ ٣٧، وأبو الليث في "تفسيره" ١/ ٣٥٤، انظر: "تفسير ابن عطية" ونسبه لابن زيد ١/ ٢٩٥, "تفسير القرطبي" ١/ ٣٤١.

(١٠) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٢٢):ص١٠٩/١.

أحدهما: أن الفرقان القرآن وأن معنى إتيانه لموسى عليه السلام، نزول ذكره له حتى آمن به، حكاه ابن الأنباري(٢). وضعّفه الآلوسي وقال: "وهو بعيد"(٣).
والثاني: حكي "عن الفراء وقطرب، أن الفرقان هو القرآن، والكلام على حذف مفعول، أي: ومحمدا الفرقان، لعلكم تهتدون بهذين الكتابين، فترك أحد الاسمين كقول الشاعر(٤):
تَرَاهُ كَأَنَّ اللهَ يَجْدَعُ أَنْفَهُ ... وَعَيْنَيْهِ إِنْ مَوْلاَهُ ثَابَ لَهُ وَفْرُ
أراد ويفقأ عينيه، فاكتفى بـ (يجدع) من يفقأ(٥).
وضعّفه الأنباري قائلا: هذا البيت لا يشاكل ما احتج به؛ لأن الشاعر اكتفى بفعل من فعل، وعلى ما ذكر في الآية اكتفى من اسم باسم، ولكنه يصح قول قطرب عندي من وجه آخر، وهو أنه لما ذكر الفرقان وهو اسم للقرآن، دل على محمد - صلى الله عليه وسلم - فحذف اتكالًا على علم المخاطبين(٦).
وكذا اعترض عليه الآلوسي وبعّده(٧).
والصحيح هو قول جمهور أهل التفسير، بأن {الفرقان} هو الكتاب الذي فرق به بين الحق والباطل، وهو نعت للتوراة وصفة لها. والله أعلم.
قوله تعالى:{لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}، "أي لكي تهتدوا بالتدبر فيها والعمل بما فيها من أحكام"(٨).
قال الطبري:" لتهتدوا بها، وتتبعوا الحق الذي فيها"(٩).
روي "عن سعيد بن جبير في قول الله عز وجل :{لعلكم}، يعني (لكي)"(١٠).
قال ابن عثيمين:" أي لعلكم تهتدون بهذا الكتاب الذي هو الفرقان؛ لأن الفرقان هدى يهتدي به المرء من الضلالة، و{تهتدون} أي هداية العلم، والتوفيق؛ فهو نازل للهداية؛ ولكن من الناس من يهتدي، ومنهم من لا يهتدي "(١١).
قال الثعلبي: أي: "لهذين الكتابين، فترك أحد الاسمين، كقول الشاعر(١٢):
تراه كأن الله يجدع أنفه ... وعينيه إن مولاه بات له وفر"(١٣)
ويطلق لفظ "التوراة"(١٤): على الشريعة المكتوبة،كما يطلق لفظ التلمود: على الشريعة الشفهية.وأما لفظ العهد القديم: فيطلق على مجموعة الأسفار التي كتبت قبل عهد المسيح عليه السلام والتي تضم الأسفار التي

---

(١) أنظر: معاني القرآن للزجاج: ١٩٧/١، وهو قول للفراء كما في المعاني ١/ ٣٧، وانظر: "أمالي المرتضى" ٢/ ٢٥٩، "تفسير ابن عطية" ١/ ٢٩٦، "زاد المسير" ١/ ٨١، "البحر المحيط" ١/ ٢٠٢.
(٢)قول ابن الأنباري ذكره المرتضى في "أماليه" ٢/ ٢٦٠.
(٣) روح المعاني: ٢٦٠/١.
(٤)البيت ينسب إلى خالد بن الطيفان، ونسبه بعضهم إلى الزبرقان بن بدر، ورد البيت في "الزاهر" ١/ ١١٩، و"أمالي المرتضى" ٢/ ٢٥٩، ٣٧٥، "تفسير الثعلبي" ١/ ٧٣ أ، "الخصائص" ٢/ ٤٣١، "الإنصاف" ١/ ٤٠٦، "اللسان" (جدع) ١/ ٥٦٧. والوفر: المال الكثير الوافر.
(٥) أنظر: تفسير الثعلبي: ٧٣/١، ووذكره الزجاج في "المعاني" ١/ ١٠٤، ١٠٥، وهو قول للفراء كما في المعاني ١/ ٣٧، وانظر: "أمالي المرتضى" ٢/ ٢٥٩، "تفسير ابن عطية" ١/ ٢٩٦، "زاد المسير" ١/ ٨١، "البحر المحيط" ١/ ٢٠٢، والتفسير البسيط: ٥٢٨/٢، وروح المعاني: ٢٦٠/١.
(٦)ذكره المرتضى في "أماليه" ٢/ ٢٦٠.
(٧) روح المعاني: ٢٦٠/١.
(٨) صفوة التفاسير: ٥٠/١.
(٩) تفسير الطبري: ٧٢/٢.
(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم(٥٢٣):ص١٠٩/١.
(١١) تفسير ابن عثيمين:١٨٣/١.
(١٢) لم أتعرف على قائله، والبيت في لسان العرب: ٤١/٨، وتفسير الثعلبي: ١٩٧/١.
(١٣) تفسير الثعلبي: ١٩٧/١.
(١٤)التوراة التاء فيه مقلوب، وأصله من الورى، بناؤها عند الكوفيين: ووراة تفعلة (قال في اللسان: التوراة عند أبي العباس تفعلة، وعند الفارسي فوعلة، قال: لقلة تفعلة في الأسماء وكثرة فوعلة)، وقال بعضهم: هي تفعلة نحو تنفلة (انظر: معاني القرآن للزجاج ٣٧٤/١. والتنفلة: أنثى الثعلب)، وليس في كلامهم تفعلة اسما. وعند البصريين وورية، هي فوعلة نحو حوصلة. قال تعالى: {إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور} [المائدة/٤٤]، {ذلك مثلهم في التوراة، ومثلهم في الإنجيل} [الفتح/٢٩](انظر: مفردات ألفاظ القران، الراغب: ١٢١).

جاء بها موسى وأنبياء بني إسرائيل وسميت كذلك -العهد القديم- للتميز بينها وبين العهد الجديد،الذي يزعمون أن الرب قطعه مع بني إسرائيل على يد المسيح عيسى عليه السلام(١).

وإن من المعلوم أن التوراة الموجودة الآن بين يدي اليهود والنصارى محرفة(٢)، ومن خلال دراسة تاريخ التوراة يتبين لنا أن هذه الأسفار من صنع أجيال متعددة،وأن فترة التدوين بدأت من عهد عزرا

---

(١) المدخل لدراسة التوراة والعهد القديم لمحمد البار ص (١١١).

(٢)وأما تحريف التوراة، فإليك الأدلة على ذلك:

١- أدلة من القرآن الكريم:

لقد ذكر الله تعالى في كتابه العزيز وعلى لسان رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم، ما يدل على تحريف اليهود لكتابه الذي أنزله إليهم،وأنهم أضافوا وبدلوا منه الشيء الكثير،حتى لم يبقى في كتابهم المزعوم شيء مما أنزل الله على موسى عليه السلام ومن الآيات التي تخبرنا بذلك:

خاطب الله رسوله والصحابة رضوان الله عليهم بقوله تعالى: {أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [البقرة : ٧٥] .

وقال تعالى مخبراً عن تحريفهم للكتاب ومتوعداً لهم بالعقاب {فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ} [البقرة : ٧٩] .

وقال تعالى: {وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [آل عمران : ٧٨] .

وفي هذه الآيات دلالة على أنهم أدخلوا في كلام الله ما ليس منه، وافتروا على الله الكذب بأن نسبوا إليه سبحانه مالم يقله وهم يعلمون ذلك فجورا منهم وجراءة على الله تعالى.

كما أخبرنا تعالى بأنهم قد أخفوا وكتموا ما عندهم من الحق يقول تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [آل عمران : ٧١]، وقال تعالى {مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا} [النساء : ٤٦]، وغيرها من الآيات التي يخبرنا بها القرآن الكريم عن كتابهم وأنه لم يسلم من أيدي المحرفين.

٢-أدلة من التوراة نفسها

والأمثلة على وقوع التحريف في التوراة كثيرة نذكر بعضاً منها:

أولاً- الاختلاف في عدد الأسفار:

مما هو معلوم أن بين يدي اليهود والنصارى ثلاث نسخ مشهورة من التوراة والعهد القديم،ومن هذه النسخ تتفرع سائر الترجمات تقريباً وهي:

النسخة العبرية: وهي المقبولة والمعتبرة لدى اليهود وجمهور علماء البروستانت وهي مأخوذة من الماسورية.

النسخة اليونانية: وهي المعتبرة لدى النصارى الكاثوليك،والأرثوذكس وهي التي تسمى السبعينية.

النسخة السامرية: وهي المعتبرة والمقبولة لدى اليهود السامريين.

وإذا عقدنا مقارنة بين هذه النسخ الثلاثه من ناحية عدد الأسفار نجد أن النسخة العبرية تسعة وثلاثون سفراً فقط.

أما النسخة اليونانية فهي ستة وأربعون سفراً حيث تزيد سبعة أسفار عن النسخة العبرية ويعتبرها النصارى الكاثوليك والأرذثوكس مقدسة.

أما النسخة السامرية فلا تضم إلا أسفار موسى الخمسة فقط وقد يضمون إليها سفر يوشع فقط وما عداه فلا يعترفون به ولا يعدونه مقدساً.

فهذا الاختلاف الهائل بين النسخ لكتاب واحد والكل يزعم أنه موحى به من الله، ويدعي أن كتابه هو الحق وما عداه هو الباطل!!

ثانيا- الاختلاف والتباين بين معلومات النسخ المدونة:

فإذا عقدنا مقارنة بين النسخ الثلاثة فيما اتفقت في ذكره من أخبار وقصص نجد بينهما تبايناً شديداً واختلافاً كبيراً ومن ذلك:

١-أن اليهود ذكروا تاريخ مواليد بني آدم إلى نوح عليه السلام، ونصوا على عمر كل واحد منهم، وكذلك عمره حين ولد له أول مولود ، وبعقد مقارنة بين أعمار من ذكروا حين ولد لهم أول مولود تتبين اختلافات واضحة بين النسخ الثلاثة:

فعمر آدم في نسخةِ العبرانية والسامرية١٣٠بينما عند النسخة اليونانية ٢٣٠ .

وعمر شيث في نسخةِ العبرانية والسامرية١٠٥بينما اليونانية٢٠٥ .

وعمر آنوش في نسخةِ العبرانية والسامرية ٩٠ بينما اليونانية ١٩٠ .

فهذا دليل على تحريفهم لكلام الله إن ثبت أن ما سبق هو كلام الله المنزل حيث لا يمكن الجمع بين الروايات المتناقضة

٢- ورد في سفر التكوين والتثنية والعدد ما يقرر أن الأبناء يؤخذون بذنب الآباء، بينما في سفر حزقيال ما يعارض هذا من أن الأبناء لا يحملون ذنب الآباء.

٣- في نسخة العبرانية من الزبور وردت عبارة(لم يعصوا كلامه) بينما في النسخة اليونانية(وقد عصوا كلامه).

وعن تباين النسخ واختلافها يقول ابن القيم الجوزية رحمه الله:"وقولهم ان نسخ التوراة متفقة في شرق الأرض وغربها كذب ظاهر فهذه التوراة التي بأيدى النصارى تخالف التوراة التي بأيدي اليهود والتي بأيدي السامرة تخالف هذه وهذه وهذه نسخ الإنجيل يخالف بعضها بعضا ويناقضه فدعواهم أن نسخ التوراة والإنجيل متفقة شرقا وغربا من البهت والكذب الذي يرجونه على أشباه الأنعام حتى أن هذه التوراة التي بأيدي اليهود فيها من الزيادة والتحريف والنقصان ما لا يخفى على الراسخين في العلم وهم يعلمون قطعا ان ذلك ليس في التوراة التي أنزلها الله على موسى".[هداية الحيارى لابن القيم الجوزية (٤٨)].

ثالثا- الاختلاف بالمقارنة مع ما ذكروه في مواضع أخرى من نفس السفر:

١- فنجد أنهم في سفر التكوين يذكرون أن سفينة نوح استقرت بعد الطوفان على جبال أراراط بعد سبعة أشهر وسبعة عشر يوما، ثم ذكروا أن رؤوس الجبال بعد الطوفان لم تظهر إلا في أول الشهر العاشر: "واستقر الفلك في الشهر السابع في اليوم ا السابع عشر من الشهر على جبال أراراط وكانت المياه تنقص نقصاً مواليا إلى الشهر العاشر وفي الشهر العاشر في أول الشهر ظهرت رؤس الجبال".[الإصحاح ٨من سفر التكوين ص(٦)].

ففي هذا تناقض ظاهر فكيف رست السفينة على الجبال بعد سبعة أشهر مع أن رؤوس الجبال لم تظهر ألا في أول الشهر العاشر!!

٢- ذكروا في سفر الخروج أن موسى عليه السلام رأى الله "ويكلم الرب موسى وجها لوجه كما يكلم الرجل صاحبه".[الإصحاح ٣٣من سفر الخروج ص(٧٢)].

فهم هنا يزعمون أن الكلام يتم مقابلة مما يوحي بأن موسى عليه السلام يرى وجه الله تعالى حين يكلمه، وفي نص آخر من نفس السفر بعد هذا يقولون إن الله قال لموسى لما طلب أن يراه (لا تقدر أن ترى وجهي لأن الإنسان لا يراني ويعيش".[الإصحاح ٣٣من سفر الخروج ص(٧٢)]. وفي هذا تناقض واضح.

والحق كما جاء في القرآن الكريم أن موسى عليه السلام لم ير الله عز وجل قال تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ} [الأعراف : ١٤٣].

٣- ذكروا في سفر التكوين أن الله تعالى قال لإبراهيم عليه السلام" خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحاق واذهب إلى أرض المريا وأصعده هناك محرقة على أح الجبال"[الإصحاح٢٢من سفر التكوين ص(١٦).]، فلاشك أن هذا خطأ،لأن إسحاق عليه السلام لم يكن وحيد إبراهيم عليه السلام بل الذي كان وحيده هو بكره إسماعيل عليه السلام،حيث نص اليهود في كتابهم على أن إسماعيل عليه السلام ولد قبل إسحاق عليه السلام حيث ختن وعمره ثلاث عشرة سنة ولم يكن إسحاق ولد بعد وفي هذا قالوا(وكان إسماعيل ابن ثلاث عشرة سنة حين ختن في لحم غرلته، في ذلك اليوم عينه ختن إبراهيم وإسماعيل ابنه".[الإصحاح١٧من سفر التكوين ص(١١).وأنظر: اليهودية ص(٢٦٩-٢٧٠),ودراسات في الأديان اليهودية والنصرانية للخلف ص(٩٦- ٩٨- ٩٩-١٠٠-١٠١)].

رابعاً- ذكر وفاة موسى عليه السلام:

فنجد أن سفر التثنية يخبرنا بوفاة موسى عليه السلام وعمره(فمات هنا موسى عبد الرب في أرض موآب حسب قول الرب ودفنه في الجواء في أرض موآب مقابل بيت فخور، ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم..وكان موسى ابن مائة وعشرين سنة حين مات ولم تكل عينه ولا ذهبت نضارته..".[الإصحاح ٣٤من سفر التثنية ص(١٧٠)].

ويقول الإمام ابن حزم رحمه الله معلقاً على هذا النص :هذه آخر توراتهم وتمامها،وهذا الفصل شاهد عدل،وبرهان تام،ودليل قاطع،وحجة صادقة في أن توراتهم مبدلة،وأنها تاريخ مؤلف كتبه لهم من تخرص بجهله، أو تعمد بفكره، وأنها غير منزلة من عند الله تعالى،إذ لا يمكن أن يكون هذا الفصل منزلاً على موسى في حياته..وبيان أنه تاريخ ألف بعد دهر طويل ولابد".[الفصل في الملل والأهواء لابن حزم(١٨٦/١) ,وأنظر:دراسات في اليهودية والمسيحية لمحمد الأعظمي ص(١٣٢).].

وغيرها من التحريفات التي امتلئ بها كتابهم المقدس ذكرنا بعضاً منها هنا على سبيل الذكر لا الحصر .

وقد تعددت أنواع التحريف في التوراة، إذ يفصل بعض العلماء في أنواع التحريف الذي قام به أحبار اليهود في التوراة، ويستدلون على ذلك بما ورد في القرآن الكريم من آيات تخبر بذلك، وهذه الأنواع هي :

أولا: تحريف بالتبديل.

ثانيا: تحريف بالزيادة

ثالثا: تحريف بالنقصان

رابعا: تحريف بتغيير المعنى دون اللفظ

وهذه الأنواع تكون بعدة أمور منها:

أ- إلباس الحق بالباطل والباطل بالحق: وفي هذا قال تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [آل عمران : ٧١].

يقول ابن عباس رضي الله عنه:(لا تخلطوا الحق بالباطل والصدق بالكذب)، ومن ذلك أنهم كانوا يكتبون في التوراة ما ليس فيها ومثاله اتهام هارون عليه السلام بأنه الذي صنع العجل وأمرهم بعبادتهم.

واستمرت بعده،وأن الكهنة كانوا يعتمدون على ما سمعوه وما تلقاه الخلف عن السلف من أخبار وأساطير وأقوال،وكثيراً ما كان الكهنة يكتبون ما يجيش بصدورهم أو مايأملونه على أنه حقيقة واقعة،أو تاريخ سابق.

الفوائد:

١. من فوائد الآية: أن إنزال الله تعالى الكتب للناس من نعمه، وآلائه؛ بل هو من أكبر النعم؛ لأن الناس لا يمكن أن يستقلوا بمعرفة حق الخالق؛ بل ولا حق المخلوق؛ ولذلك نزلت الكتب تبياناً للناس.

٢. ومنها: أن موسى صلى الله عليه وسلم نبي رسول، لأن الله تعالى آتاه الكتاب.

٣. ومنها: فضيلة التوراة؛ لأنه أُطلق عليها اسم {الكتاب}؛ و "أل" هذه للعهد الذهني؛ فدل هذا على أنها معروفة لدى بني إسرائيل، وأنه إذا أُطلق الكتاب عندهم فهو التوراة؛ أيضاً سماها الله تعالى الفرقان، كما سمى القرآن الفرقان؛ لأن كلا الكتابين أعظم الكتب، وأهداهما؛ لقوله تعالى: {قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما} [القصص: ٤٩] . يعني التوراة، والإنجيل . {أتبعه إن كنتم صادقين} [القصص: ٤٩] ؛ ودل هذا على أن التوراة مشاركة للقرآن في كونها فرقاناً؛ ولهذا كانت عمدة الأنبياء من بني إسرائيل، كما قال تعالى: {إنا أنزلنا التوراة فيها هدًى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء} [المائدة: ٤٤] .

٤. ومن فوائد الآية: بيان عتوّ بني إسرائيل، وطغيانهم؛ لأنه إذا كانت التوراة التي نزلت عليهم فرقاناً، ثم هم يكفرون هذا الكفر دلّ على زيادة عتوهم، وطغيانهم؛ إذ من نُزِّل عليه كتاب يكون فرقاناً كان يجب عليه بمقتضى ذلك أن يكون مؤمناً مذعناً.

٥. ومنها: أن الله . تبارك وتعالى . يُنزل الكتب، ويجعلها فرقاناً لغاية حميدة حقاً . وهي الهداية؛ لقوله تعالى: (لعلكم تهتدون)

٦. ومنها: أن من أراد الهداية فليطلبها من الكتب المنزلة من السماء . لا يطلبها من الأساطير، وقصص الرهبان، وقصص الزهاد، والعباد، وجعجعة المتكلمين، والفلاسفة، وما أشبه ذلك؛ بل من الكتب المنَزلة من السماء.

فعلى هذا ما يوجد في كتب الوعظ من القصص عن بعض الزهاد، والعباد، ونحوهم نقول لكاتبيها، وقارئيها: خير لكم أن تبدو للناس كتاب الله عزّ وجلّ، وما صح عن رسوله صلى الله عليه وسلم وتبسطوا ذلك، وتشرحوه، وتفسروه بما ينبغي أن يفهم حتى يكون ذلك نافعاً للخلق؛ لأنه لا طريق للهداية إلى الله إلا ما جاء من عند الله عزّ وجلّ.

٧. ومن فوائد الآية: إثبات الأسباب، وتأثيرها في مسبَّباتها؛ وبسط ذلك مذكور في كتب العقائد.

ب- كتمان الحق وإخفاءه: يقول تعالى: {وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [البقرة : ٤٢]، ومن كتمانهم للحق إنكارهم لصفة الرسول صلى الله عليه وسلم في التوراة، وهم يعرفونه كما يعرفون أبنائهم {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [البقرة : ١٤٦]

وقد كتموا حكم رجم الزاني والزانية ولكن الله فضحهم على يد حبرهم حين أسلم الصحابي الجليل عبد الله بن سلام رضي الله عنه وأظهر حكم التوراة وهو الرجم.

ج- تحريف الكلام عن مواضعه: بوضع كلمة مكان كلمة وهذا هو تحريف التبديل،وقد يكون بإسقاط كلمة وهو تحريف النقص،أو بزيادة كلمه وهو تحريف الزيادة، ومن قرأ كتابه وجده ملئ بذلك وفي هذا قال تعالى: {مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا} [النساء : ٤٦].

د- ليّ اللسان: وهو أن يقولوا كلمة ظاهرها حسن وباطنها سيئ، ومثاله قولهم للنبي صلى الله عليه وسلم(واسمع غير مسمع) وقولهم(راعنا) وظاهر الكلام حسن وباطنه سيئ حيث يتهمونه صلى الله عليه وسلم بالرعونة وإنك تُسمع قوماً لا يسمعونك لتفاهة كلامك، ومن ذلك أيضاً أنهم إذا سلموا على الرسول لى الله عليه وسلم قالوا: "السام عليكم"[انظر: المدخل لدراسة التوراة والعهدالقديم ص(١٢٠-١٢١-١٢٢)]، قال تعالى: {وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [آل عمران : ٧٨].

ومن ليهم باللسان أن الله أمرهم إذا دخلوا القرية أن يقولوا حطة، لكي يغفر الله لهم خطاياهم فقالوا حنطة،قال تعالى: {فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} [البقرة : ٥٩].[انظر: العهد القديم عند اليهود، أ.د. سليمان بن قاسم العيد و رفعة العنزي، جامعة الملك سعود كلية التربية، قسم الثقافة الأسلامية، مسار العقيدة:(بحث منشور في الشبكة الألكترونية)].

٨. ومنها: أن الإيتاء المضاف إلى الله سبحانه وتعالى يكون كونياً، ويكون شرعياً؛ مثال الكوني قوله تعالى: {وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة} [القصص: ٧٦] ؛ ومثال الشرعي قوله تعالى: {وآتينا موسى الكتاب} [الإسراء: ٢].

القرآن

{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤)} [البقرة : ٥٤]

التفسير:

واذكروا نعمتنا عليكم حين قال موسى لقومه: إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل إلهًا، فإنه أعظم الظلم، فتوبوا إلى الله الذي خلقكم وأبدعكم: وهذه التوبة بأن يَقْتل بعضكم بعضًا، فمن قتل فحي يرزق ومن بقي قبلت توبته وطهرهم الله بذلك، وهذا خير لكم عند خالقكم من الخلود الأبدي في النار، فامتثلتم ذلك، فمنَّ الله عليكم بقَبول توبتكم، إنه تعالى هو التواب لمن تاب مِن عباده، الرحيم بهم.

قال الآلوسي: وهذه " نعمة أخروية في حق المقتولين من بني إسرائيل، حيث نالوا درجة الشهداء، كما أن العفو نعمة دنيوية في حق الباقين، وإنما فصل بينهما بقوله: {وَإِذْ آتَيْنا} إلخ، لأن المقصود تعداد النعم- فلو اتصلا لصارا نعمة واحدة- وقيل: هذه الآية وما بعدها منقطعة عما تقدم من التذكير بالنعم- وليس بشيء- "(١).

قوله تعالى:{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ}[البقرة:٥٤]، " أي واذكروا إذ قال موسى لقومه(٢).

قال الثعلبي: أي: " الذين اتخذوا العجل"(٣) وكذا قاله البغوي(٤)، و الواحدي"(٥).

قال الآلوسي:" و(اللام) في {لِقَوْمِهِ}، للتبليغ، وفائدة ذكره التنبيه على أن خطاب مُوسى لِقَوْمِهِ كان مشافهة لا بتوسط من يتلقى منه- كالخطابات المذكورة سابقا لبني إسرائيل"(٦).

قوله تعالى: {يَا قَوْمِ}[البقرة:٥٤]، "أي يا أصحابي"(٧).

قال ابن عثيمين:"وناداهم بوصف القومية تحبباً، وتودداً، وإظهاراً بأنه ناصح لهم؛ لأن الإنسان ينصح لقومه بمقتضى العادة"(٨).

وسمي الرجال قوما، "لأنهم يقومون بما لا يقوم به النساء"(٩).

واختلف في اختصاص (القوم) بالرجال دون النساء، على قولين:

أحدهما: المشهور اختصاص(القوم) بالرجال: فالقوم: "اسم جمع لا واحد له من لفظه وإنما واحده أمريء وقياسه أن لا يجمع وشذ جمعه على أقاويم والمشهور إختصاصه بالرجال"(١٠) أي الجماعة من الرجال دون النساء، قال الله تعالى: {لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ} [الحجرات : ١١]، ولما كان لفظ قوم مختصا بالرجال لأنهم القوم على النساء، أفرد النساء بالذكر فقال: {وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ} [الحجرات : ١١] ومنه قول زهير(١١) :

وما أدري وسوف إخال أدري   أقوم آل حصن أم نساء

---

(١) روح المعاني: ٢٦٠/١.
(٢) تفسير ابن عثيمين:١٨٦/١.
(٣) تفسير الثعلبي: ١٩٧/١,
(٤) تفسير البغوي: ٩٦/١.
(٥) التفسير البسيط: ٥٢٨/٢.
(٦) روح المعاني: ٢٦٠/١.
(٧) تفسير ابن عثيمين:١/!٨٦.
(٨) تفسير ابن عثيمين:١/!٨٦.
(٩) روح المعاني: ٢٦٠/١.
(١٠) تفسير الالوسي: ٢٥٩/١.
(١١) ديوان زهير شرح الأعلم: ٧٣، والبيت ورد في: اللسان والتهذيب والصحاح والمقاييس: ٥ / ٤٣، شرح المصنف: ٣٧٧/٢، مغني اللبيب: ٤١، ١٣٩، ٣٩٨، وهمع الهوامع:٥٤٥٤/١.

يعني: أرجال هم أم نساء؟ فعبر عن الرجال بالقوم، و(قوم) جمع (قائم) كصوم جمع صائم، والقائم بالأمور هم الرجال فعلى هذا الأقوام الرجال لا النساء، وسموا قوماً لأنهم هم الذين يقومون بالأمور :{الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ}[النساء:٣٤]، فهم يقومون بالأمور، ويتولون الحروب والقيادة . وغير ذلك[١]، وقال تعالى: {وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ} [الأعراف : ٨٠]، أراد الرجال دون النساء[٢].

والثاني: وقيل: لا إختصاص له بهم بل يطلق على النساء أيضا، قال الله تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ} [نوح : ١]، وكذا كل نبي مرسل إلى النساء والرجال جميعا[٣].

والقول الأول أصوب، وإنما إندراج النساء يكون على سبيل "الإستتباع والتغليب"[٤]، وإن الإناث قد يدخلن فيه بحكم التبع إذا اقترن بما يدل على ذلك.

وفي إقبال موسى على قومه بالنداء ونداؤه لهم بـ(ياقوم)، إيذان بالتحنن عليهم وأنه منهم وهم منه وهز لهم لقبولهم الأمر بالتوبة بعد تقريعهم بأنهم ظلموا أنفسهم بعبادة العجل[٥].

قوله تعالى: {يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ}[البقرة:٥٤]، أي: " ضررتم بأنفسكم"[٦].

قال ابن عثيمين: أي" نقصتم أنفسكم حقها؛ لأن "الظلم" في الأصل بمعنى النقص، كما قال الله تعالى: {كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً} [الكهف: ٣٣] أي لم تنقص"[٧].

قوله تعالى:{بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ}[البقرة:٥٤]، "أي بسبب اتخاذكم العجل إلها تعبدونه من دون الله"[٨].

وهذا العجل سبق أنه عجل من ذهب، وأن الذي فتن الناس به رجل يقال له: السامري[٩].

و (العجل)، لفظة عربية، اسم لولد البقرة[١٠].

وقال قوم: "سمي عجلا لأنه استعجل قبل مجيء موسى عليه السلام"[١١]. قال ابن عطية:" وليس هذا القول بشيء"[١٢].

واختلف في (العجل) هل بقي من ذهب؟، فقال الجمهور بأنه بقي من ذهب[١٣]، وقال الحسن بن أبي الحسن: "صار لحما ودما"[١٤].

قال ابن عطية: والأول أصح"[١٥].

قوله تعالى:{فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُم}[البقرة:٥٤]، "أي ارجعوا إليه من معصيته إلى طاعته"[١٦].

قال أبو العالية: "أي: إلى خالقكم"[١٧].

وكذلك فسره سعيد بن جبير والربيع بن أنس[١٨].

قال الطبري: أي:" ارجعوا إلى طاعة خالقكم، وإلى ما يرضيه عنكم"[١٩].

---

(١) انظر: تفسير السمعاني: ٢٢١/٥، وتفسير الرازي: ٢١٤/٢٨.
(٢) أنظر: روح المعاني: ٢٦٠/١.
(٣) انظر: تفسير القرطبي: ٤٠٠/١، وتفسير الشوكاني: ٨٦/١. وتفسير البيضاوي: ٢١٧/٥.
(٤) أنظر: روح المعاني: ٢٦٠/١.
(٥) انظر: روح المعاني: ٢٦٠/١.
(٦) تفسير الثعلبي: ١٩٧/١، وانظر: تفسير البغوي: ٩٦/١.

(٧) تفسير ابن عثيمين:١٨٦/١.
(٨) تفسير ابن عثيمين:١/!٨٦.
(٩) أنظر: تفسير ابن عثيمين:١/!٨٦.
(١٠) أنظر: اللسان (عجل):ص ٤٢٩/١١، و(حشب) :٣١٧/١.
(١١) المحرر الوجيز: ١/!٤٥.
(١٢) المحرر الوجيز: ١/!٤٥.
(١٣) أنظر: المحرر الوجيز: ١٤٥/١.
(١٤)المحرر الوجيز: ١٤٥/١.
(١٥) المحرر الوجيز: ١٤٥/١.
(١٦) تفسير ابن عثيمين:١٨٦/١.
(١٧) أخرجه الطبري(٩٤٦):ص٧٨/٢.
(١٨) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم:١١٠/١.
(١٩) تفسير الطبري: ٧٨/٢.

قال البيضاوي:"فاعزموا على التوبة والرجوع إلى من خلقكم براءٍ من التفاوت، ومميزاً بعضكم عن بعض بصور وهيئات مختلفة"[١].

قال المراغي: "أي فاعزموا على التوبة إلى من خلقكم وميّز بعضكم من بعض بصور وهيئات مختلفة، وفي قوله {إلى بارئكم}، إيماء إلى أنهم بلغوا غاية الجهل، إذ تركوا عبادة البارئ وعبدوا أغبى الحيوان وهو البقر"[٢].

قال أبو حيان: "{توبوا إلى بارئكم}، أي منشئكم وموجدكم من العدم، إذ موجد الأعيان هو الموجد حقيقة. وأما عمل العجل واتخاذه فليس فيه إبراز الذوات من العدم، إنما ذلك تأليف تركيبي لا خلق أعيان، فنبهوا بلفظ الباري على الصانع، أي الذي أوجدكم هو المستحق للعبادة، لا الذي صنعه، مصنوع مثله، فلذلك، والله أعلم، كان ذكر الباري هنا"[٣].

و(الفاء) في قوله تعالى:{فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ}[البقرة:٥٤]، "لأن الظلم سبب التوبة"[٤].

و(البارئ): الخالق المعتني بخلقه؛ وهو من :برأ الله الخلق يبروه فهو بارئ، و(البرية):الخلق، وهي (فعيلة) بمعنى (مفعولة)، غير أنها لا تهمز، كما لا يهمز (ملك) وهو من(لأك)، لكنه جرى بترك الهمزة كذلك قال نابغة بني ذبيان[٥] :

إلا سليمان إذ قال المليك له ... قم في البرية فاحدُدْها عن الفَنَد

وقد قيل:إن(البرية) إنما لم تهمز لأنها (فعيلة) من (البَرَى)، والبَرَى : التراب، فكأن تأويله على قول من تأوله كذلك أنه مخلوق من التراب، وقال بعضهم : إنما أخذت (البرية) من قولك: بريت العود، فلذلك لم يهمز[٦].

وقد قال الزمخشري كلاما نفيسا في اختصاص ذكر البارئ هنا، فقال: " فإن قلت : من أين اختص هذا الموضع بذكر البارئ؟ قلت : البارئ هو الذي خلق الخلق بريئا من التفاوت {مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ}[الملك:٣]، ومتميزا بعضه من بعض بالأشكال المختلفة والصور المتباينة، فكان فيه تقريع بما كان منهم من ترك عبادة العالم الحكيم الذي برأهم بلطف حكمته على الأشكال المختلفة أبرياء من التفاوت والتنافر، إلى عباد البقرة التي هي مثل في الغباوة والبلادة. - في أمثال العرب : أبلد من ثور - حتى عرضوا أنفسهم لسخط اللّه ونزول أمره بأن يفك ما ركبه من خلقهم، وينثر ما نظم من صورهم وأشكالهم، حين لم يشكروا النعمة في ذلك، وغمطوها بعبادة من لا يقدر على شيء منها"[٧].

واختلفت القراءة في {بارِئِكُمْ}[البقرة: ٥٤]، على ثلاثة وجوه[٨]:

أحدها: قرأ الجمهور: {بارئكم}، بإظهار الهمزة وكسرها.

والثاني: وقرأ أبو عمرو: «بارئْكم» بإسكان الهمزة، وروي عنه الاختلاس.

ومنع المبرد التسكين في حركة الإعراب، وزعم أن قراءة أبي عمرو لحن[٩].

قال أبو حيان: "وما ذهب إليه[١٠] ليس بشيء، لأن أبا عمرو لم يقرأ إلا بأثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم، ولغة العرب توافقه على ذلك، فإنكار المبرد لذلك منكر "[١]، ومن ذلك قول الشاعر[٢] :

---

(١) تفسير البيضاوي: ٨١/١.

(٢) تفسير المراغي: ١٢١/١.

(٣) البحر المحيط: ١٧٣/١.

(٤) الدر المصون: ٣٦٧/١، وانظر: روح المعاني: ٢٦٠/١.

(٥)ديوانه : ٢٩ ، من قصيدته التي قالها يذكر النعمان ويعتذر إليه ، وقبل البيت :

ولا أرى فاعلا في الناس يشبهه ولا أحاشي من الأقوام من أحد

حَدَدْتُ فلانا عن الشر : منعته وحبسته . والفند : الخطأ في الرأى وفي القول .

(٦) انظر: تفسير الطبري: ٧٨/٢-٧٩.

(٧) الكشاف: ١٤٠/١-١٤١.

(٨) أنظر: الحجة للقراء السبعة: ٧٦/٢-٧٧.

(٩) أنظر: البحر المحيط: ١٧٣/١، وكذا الأخفش، اعترض على جزم الهمزة، فقال: " وقد زعم قوم انها تجزم ولا أرى ذلك الا غلطا منهم، سمعوا التخفيف فظنوا انه مجزوم والتخفيف لا يفهم الا بمشافهة* ولا يعرف في الكتاب... والاسكان في {بارئْكم} على البدل لغة الذين قالوا: "أَخْطَيْت" وهذا لا يعرف".[معاني القرآن:٨٩/١].

(١٠) أي المبرد في منعه التسكين في حركة الإعراب، وزعمه أن قراءة أبي عمرو لحن.

فاليوم أشرب غير مستحقب   إثماً من الله ولا واغل
وقول جرير[٣] :
سيروا بني العمّ فالأهواز منزلكم ... ونهر تيرا ولا تعرفكم العرب
ومن ذلك قول وضاح اليمن[٤]:
إنما شعري شهد ... قد خلط بالجلجلان
والثالث: وقرأ الزهريّ : {باريكم}، بكسر الياء من غير همز، ورُوي ذلك عن نافع[٥].
قال أبو حيان: ولهذه القراءة تخريجان[٦]:
أحدهما : أن الأصل الهمزة، وأنه من برأ، فخففت الهمزة بالإبدال المحض على غير قياس، إذ قياس هذا التخفيف جعلها بين بين.
والثاني : أن يكون الأصل باريكم، بالياء من غير همز، ويكون مأخوذاً من قولهم : بريت القلم، إذا أصلحته، أو من البري : وهو التراب، ثم حرك حرف العلة، وإن كان قياسه تقديراً لحركة في مثل هذا رفعاً وجراً، وقال الشاعر [٧]:
ويوماً توافينا الهوى غير ماضي
وقال آخر[٨] :
ولم تختضب سمر العوالي بالدم
وقال آخر [٩]:
خبيث الثرى كأبي الأزيد
قال أبو حيان: "وهذا كله تعليل شذوذ"[١٠].
قوله تعالى: {فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ}[البقرة:٥٤]، أي: "ليقتل البريء المجرم"[١١].
قال ابن عباس ومجاهد: " قام بعضهم إلى بعض بالخناجر يقتل بعضهم بعضا لا يحن رجل على رجل قريب ولا بعيد"[١٢].
قال ابن عثيمين: أي: "ليقتل بعضكم بعضاً"[١٣].
واختلف في تفسير قوله تعالى:{فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ}[١] [البقرة:٥٤] على ثلاثة أوجه[٢]:

---

(١) البحر المحيط: ١/!٧٤.
(٢)رجز لأبي نخيلة وبعده: بالدوّ أمثال السفين العوّم
انظر سيبويه ٢/ ٢٩٧ والخصائص ١/ ٧٥ و ٣١٧ اللسان (عوم)، والحجة للقراء السبعة: ٨٠/٢.
(٣)ديوانه/ ٤٨ - وفيه: فلم تعرفكم العرب.
نهر تيرى: نهر قديم نواحي الأهواز حفره أردشير ملك الفرس.
(٤) البيت في الضرائر لابن عصفور: ص/ ٨٧ وعبث الوليد: ص/ ٣١٥ وفي اللسان (جلل) مع اختلاف في الرواية. وانظر شرح أبيات المغني: ٨/ ٣٧.
وهو وضاح بن إسماعيل بن عبد كلال أحد أبناء الفرس الذين قدموا مع وهرز الفارسي فقتلوا الحبشة وأقاموا بصنعاء، وكان شاعرا ظريفا غزلا جميلا، فعشقته أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان زوجة الوليد بن عبد الملك، فقتله الوليد (انظر نوادر المخطوطات: أسماء المغتالين ٢/ ٢٧٣).
(٥) نقلا عن: البحر المحيط: ٢٠٣/١.
(٦) أنظر: البحر المحيط: ٢٠٣/١.
(٧) البيت لجرير، أنظر: ديوانه: ١٤٠/٢، وصدره: ويوما ترى منهم غولا تغوّلُ. وانظر: الكتاب: ٣١٤/٣، ونوادر أبي زيد: ٢٠٣، والمقتضب: ٣٥٤/٣، والخصائص: ١٥٩/٣.
(٨) عزاه السمين في الدر المصون:٣٦٥/١، لأبي طالب، وصدره: كذبتم وبيت الله نبزي محمدا.
(٩) البيت لجرير، في ديوانه: ٨٣٤/٢، وصدره: وعرق الفرزدق شر العروق، وانظر: همع الهوامع: ٢١٠/١، والدر اللوامع: ١٦٧/١.
(١٠) البحر المحيط: ٢٠٣/١.
(١١) تفسير الثعلبي: ١٩٨/١.
(١٢) أنظر: تفسير الطبري(٩٣٥):ص٧٢/٢.
(١٣) تفسير ابن عثيمين:١٧٨/١.

أحدها: قيل معناه: أنهم قاموا صفين، يقتل بعضهم بعضا[٣]، قاله ابن عباس[٤]، وسعيد بن جبير[٥]، ومجاهد[٦]، وقتادة[٧]، والحسن[٨]، وأبو عبدالرحمن[٩].

وقالوا: إنما عبر بقتل النفس، لأن المؤمن أخو المؤمن فكأنه هو نفسه[١٠]، فقد روي عن أبي عبدالرحمن، أنهم " عمدوا إلى الخناجر، فجعل يطعن بعضهم بعضا"[١١]، "حتى قيل لهم كُفوا. قال قتادة : "كانت شهادة للمقتول وتوبة للحي"[١٢].

واعترض القاضي عبدالجبار أن يكون الله قد أمر بني اسرائي بقتل أنفسهم، وقد ردّ الآلوسي على اعتراضه[١٣].

والثاني: وقيل معناه البخع، فقوله{فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ}: أى فابخعوها واجعلوها مطية ذلولا للعقل والإرادة، واقطعوا شهواتها، والتعبير عن ذلك بقتل النفس، لأن النفس الفاجرة الضالة إذا فطمت عن الشهوات كأنها قتلت، وحلت محلها النفس الطاهرة اللوامة التى تقهر الشهوات قهرا، والشرور دائما من الأهواء والشهوات، واستعمال القتل والبخع بالنسبة للنفوس، وإرادة غير الظاهر كثير فى كلام العرب، وفى القرآن كقوله تعالى: {لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} [الشعراء : ٣]، وإن هذا النص الكريم يشير إلى أن التوبة النصوح التى يقبلها الله تعالى، ويغفر بها الذنوب توجب قهر الشهوات والأهواء وقتل منابعها فى النفس[١٤].

ومن ذلك قول حسان[١٥]:

---

(١) الفرق بين الفاءات الثلاثة في الآية: إن الفاء في قوله تعالى(فتوبوا) للسبب لأن الظلم سبب التوبة, في حين أن الفاء في قوله تعالى(فاقتلوا) للتعقيب، لأن القتل من تمام التوبة فمعنى قوله: [فتوبوا] أي فأتبعوا التوبة القتل تتمة لتوبتكم، والفاء في قوله تعالى(فتاب عليكم) فاء الفصيحة، أي: المفصحة عن محذوف تقديره: فامتثلتم فتاب عليكم.(انظر: تفسير النيسابوري: ٤١٢/١).

(٢) انظر: تفسير الكشاف: ١٤٠/١.

(٣) قاله أبو العالية، أنظر: تفسير الطبري(٩٤٠):ص٧٥/٢، وابن عباس، أنظر: تفسير الطبري(٩٤٣):ص٧٦/٢-٧٧، وورى عن قتادة نحوه، انظر: تفسير الطبري(٩٤٣):ص٧٦/٢.

(٤) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٢٧):ص١١٠/١.

(٥) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٢٨):ص١١٠/١.

(٦) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٢٩):ص١١٠/١.

(٧) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٢٩):ص١١٠/١، و الطبري(٩٤٢):ص٧٦/٢.

(٨) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٣٠):ص١١٠/١.

(٩) تفسير الطبري(٩٣٤): ٧٣/٢، وانظر: الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور: د. حكمت بن بشير بن ياسين: ١٦٢/١.

(١٠)فالأمة الواحدة المجتمعة على شيء ينزلون منزلة النفس الواحدة، ومن ذلك:
- قوله تعالى (فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ) أي : على من في البيت .
- وقوله تعالى (وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ) أي : لا يلمز بعضكم بعضاً .
- وقوله تعالى (لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً) أي : ظنوا بإخوانهم خيراً .
- وقوله تعالى (ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ) أي : إخوانكم .

(١١) تفسير الطبري(٩٣٤): ٧٣/٢، وانظر: الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور: د. حكمت بن بشير بن ياسين: ١٦٢/١.

(١٢) أخرجه الطبري(٩٤٢):ص٧٦/٢. وانظر: تفسير ابن كثير: ٢٦٢/١. وروى النسائي وابن جرير وابن أبي حاتم، من حديث يزيد بن هارون ، عن الأصبغ بن زيد الوراق عن القاسم بن أبي أيوب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : قال الله تعالى : إن توبتهم أن يقتل كل واحد منهم كل من لقي من ولد ووالد، فيقتله بالسيف ، ولا يبالي من قتل في ذلك الموطن. فتاب أولئك الذين كانوا خفي على موسى وهارون ما اطلع الله من ذنوبهم ، فاعترفوا بها ، وفعلوا ما أمروا به فغفر الله تعالى للقاتل والمقتول.(سنن النسائي الكبرى برقم:١١٣٢٦).

(١٣) أنظر: روح المعاني: ٢٦١/١، يقول الآلوسي: "وأنكر القاضي عبد الجبار أن يكون الله تعالى أمر بني إسرائيل- بقتل أنفسهم- وقال: لا يجوز ذلك عقلا- إذ الأمر لمصلحة المكلف- وليس بعد القتل حال تكليف ليكون فيه مصلحة، ولم يدر هذا القاضي بأن لنفوسنا خالقا- بأمره نستبقيها، وبأمره نفنيها- وأن لها بعد هذه الحياة التي هي لعب ولهو، حياة سرمدية وبهجة أبدية.
وإن الدار الآخرة لهي الحيوان، وأن قتلها بأمره يوصلها إلى حياة خير منها، ومن علم أن الإنسان في هذه الدنيا- كمجاهد أقيم في ثغر يحرسه، ووال في بلد يسوسه- وأنه مهما استرد فلا فرق بين أن يأمره الملك بخروجه بنفسه، أو يأمر غيره بإخراجه- وهذا واضح لمن تصور حالتي الدنيا والآخرة، وعرف قدر الحياتين والميتتين فيهما".

(١٤) انظر: زهرة التفاسير،الإمام محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، بيروت- لبنان، : ٢٤٣/١-٢٣٥.

(١٥)ديوانه: ص ٧٥،٧٦، وانظر: خزانة الأدب: ٣٨٥/٤.

إن التي ناولتني فرددتها ... قُتِلَتْ قُتِلْتَ فهاتها لم تقتل

ذكر الآلوسي هذا القول، وعقب عليه قائلا: "ولولا أن الروايات على خلاف ذلك لقلت به تفسيرا"[١].

والثالث: وقيل : أمر من لم يعبد العجل أن يقتلوا العبدة، أي يقتلُ البريءُ المجرمَ، "وكان السببُ في امتحانِهم بذلك: أنهُ كان فيهم من عَرَفَ بطلانَ عبادة العجلِ ؛ إلا أنَّهم لم يَنْهَوا الآخرين لخشيةِ وقوع القتلِ فيما بينهم، فابتلاهم اللهُ بما تركُوا النهيَ عن المنكر لأجلِهِ"[٢].

وجمهور المفسرين أخذوا بظاهر اللفظ وهو (القتل)، إذ هو الأقرب إلى الصواب، وذلك لوجود الروايات التي تؤكد ذلك[٣]. والله أعلم.

قد واختلفوا فيمن خوطب بقوله تعالى:{فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ}[البقرة:٥٤]، على ثلاثة أوجه[٤]:

أحدها: أنه خطاب للكل. قاله السدي عن أشياخه[٥].

والثاني: أنه خطاب لمن لم يعبد ليقتل من عبد. قاله مقاتل[٦].

والثالث: أنه خطاب للعابدين فحسب، أمروا أن يقتل بعضهم بعضا. قاله أبو سليمان الدمشقي[٧].

واختلف المفسرون: هل هذا القتل وقع في ظلمة، أم وقع جهاراً بدون ظلمة؟، فذكروا فيه وجهين[٨]:

الأول: أنهم لما أمروا بذلك قالوا: لا نستطيع أن يقتل بعضنا بعضاً وهو ينظر إليه: ينظر الإنسان إلى ابنه، فيقتله، وإلى أبيه، وإلى صديقه! هذا شيء لا يطاق؛ فألقى الله تعالى عليهم ظلمة، وصار يقتل بعضهم بعضاً، ولا يدري مَن قتل[٩].

والثاني: وقيل: بل إنهم قتلوا أنفسهم جهراً بدون ظلمة.

والقول الثاني أقرب إلى الصواب، لأن ظاهر القرآن أنه لم تكن هناك ظلمة، وأنهم أمروا أن يقتل بعضهم بعضاً عِياناً، وهذا أبلغ في الدلالة على صدق توبتهم، ورجوعهم إلى الله سبحانه وتعالى.

قال أبو حيان:" وفي ذلك من الاتعاظ والاعتبار ما يوجب مبادرة الازدجار عن مخالفة الملك القهار، وانظر إلى لطف الله بهذه الملة المحمدية، إذ جعل توبتها في الإقلاع عن الذنب، والندم عليه، والعزم على عدم المعاودة إليه"[١٠].

واختلف في نوع(الفاء) في قوله تعالى: {فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ}[البقرة:٥٤]، على وجهين[١١]:

---

(١) روح المعاني: ٢٦١/١.

(٢) تفسير الطبراني: ٣٩/١.

(٣) انظر: تفسير الطبري: ٧٤/٢ ومابعدها. ومن تلك الروايات، قال الطبري: " وحدثني موسى بن هارون قال ، حدثنا عمرو بن حماد قال ، حدثنا أسباط ، عن السدي قال : لما رجع موسى إلى قومه قال : (يَاقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا) إلى قوله : (فكذلك ألقى السامري) [طه : ٨٦ - ٨٧]. فألقى موسى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه(قَالَ يَاابْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي) [طه : ٩٤]. فترك هارون ومال إلى السامري ، فـ(قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ) إلى قوله : (ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا) [طه : ٩٥ - ٩٧] ثم أخذه فذبحه ، ثم حرقه بالمبرد، ثم ذراه في اليم ، فلم يبق بحر يجري يومئذ إلا وقع فيه شيء منه . ثم قال لهم موسى : اشربوا منه . فشربوا ، فمن كان يحبه خرج على شاربيه الذهب . فذلك حين يقول : (وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ) [البقرة : ٩٣] . فلما سقط في أيدي بني إسرائيل حين جاء موسى ، ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا : " لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين " . فأبى الله أن يقبل توبة بني إسرائيل ، إلا بالحال التي كرهوا أن يقاتلهم حين عبدوا العجل، فقال لهم موسى : (يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم). قال : فصفوا صفين ، ثم اجتلدوا بالسيوف . فاجتلد الذين عبدوه والذين لم يعبدوه بالسيوف ، فكان من قتل من الفريقين شهيدا ، حتى كثر القتل ، حتى كادوا أن يهلكوا حتى قتل بينهم سبعون ألفا ، وحتى دعا موسى وهارون: ربنا هلكت بنو إسرائيل! ربنا البقية البقية!! فأمرهم أن يضعوا السلاح ، وتاب عليهم . فكان من قتل شهيدا ، ومن بقي كان مكفرا عنه . فذلك قوله : (فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم).(انظر: تفسيره: ٧٤/٢-٧٥).

(٤) أنظر: زاد المسير: ٨٢/١.

(٥) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٣٣):ص١١١/١. ولفظه:" فاجتلد الذين عبدوه والذين لم يعبدوه بالسيوف..".

(٦) نقلا عن زاد المسير: ٨٢/١، وأخرج الطبري نحوه عن ابن عباس، انظر: تفسير الطبري(٩٣٦):ص٧٣/٢.

(٧) نقلا عن زاد المسير: ٨٢/١.

(٨) انظر: تفسير ابن عثيمين: ١٠٩/١.

(٩) انظر: تفسير الطبري: ٧٤/٢.

(١٠) البحر المحيط: ١٧٥/١.

(١١) أنظر: الدر المصون: ٣٦٧/١، والبحر المحيط: ١٧٥/١.

أحدهما: أنها سببية، وأن الله تعالى جعل توبتهم قتل أنفسهم.
والثاني: أنها للتعقيب، والمعنى فأتبعوا التوبة القتل، تتمة لتوبتكم.
قال أبو حيان:"وقد أنكر في المنتخب كون القتل يكون توبة وجعل القتل شرطاً في التوبة، فأطلق عليه مجازاً، كما يقال للغاصب إذا قصد التوبة : توبتك رد ما غصبت، يعني أنه لا تتم توبتك إلا به، فكذلك هنا"(١).
وقرأ قتادة: {فأقيلوا أنفسكم}، من الإقالة، أي استقيلوا العثرة بالتوبة(٢). قال الآلوسي: "والمعنى أن أَنْفُسَكُمْ قد تورطت في عذاب الله تعالى بهذا الفعل العظيم الذي تعاطيتموه، وقد هلكت- فأقيلوها- بالتوبة والتزام الطاعة، وأزيلوا آثار تلك المعاصي بإظهار الطاعات"(٣).
قوله تعالى:{ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُم}[البقرة:٥٤]، "أي ما ذكر من التوبة والقتل أنفع لكم عند اللّه من العصيان والإصرار على الذنوب لما فيه من العذاب"(٤).
قال سعيد بن جبير:{خَيْرٌ لَكُمْ}،" يعني: أفضل"(٥).
قال البيضاوي:" من حيث إنه طهرة من الشرك، ووصلة إلى الحياة الأبدية والبهجة السرمدية"(٦).
قوله تعالى: {فَتَابَ عَلَيْكُمْ}[البقرة:٥٤]، " أي قبل توبتكم"(٧).
قال الطبري: أي"رَجَعَ لكم ربكم إلى ما أحببتم : من العفو عن ذنوبكم وعظيم ما ركبتم، والصفح عن جرمكم"(٨).
قوله تعالى:{إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[البقرة:٥٤]، "أي عظيم المغفرة واسع التوبة"(٩).
قال الطبري: أي" الراجع لمن أناب إليه بطاعته إلى ما يحب من العفو عنه. ويعني ب " الرحيم "، العائد إليه برحمته المنجية من عقوبته"(١٠).
قال المراغي:" أي إنه هو الذي يكثر توفيق المذنبين للتوبة ويقبلها منهم، وهو الرّحيم بمن ينيب إليه ويرجع، ولو لا ذلك لعجل بإهلاككم على ما اجترحتم من عظيم الآثام"(١١).
وقال ابن عثيمين:" {التواب} أي كثير التوبة: لكثرة توبته على العبد الواحد، وكثرة توبته على التائبين الذين لا يحصيهم إلا الله، فهو يتوب في المرات المتعددة على عبده، ويتوب على الأشخاص الكثيرين الذين تكثر توبتهم؛ و {الرحيم} أي ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء"(١٢).
قال الآلوسي:قوله{إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}،" تذييل لقوله تعالى: {فَتُوبُوا}، فإن التوبة بالقتل- لما كانت شاقة على النفس هونها سبحانه بأنه هو الذي يوفق إليها ويسهلها ويبالغ في الإنعام على من أتى بها، أو تذييل لقوله تعالى: {فَتَابَ عَلَيْكُمْ}"(١٣).
الفوائد:
١.من فوائد الآية: أنه ينبغي للداعي إلى الله أن يستعمل الأسلوب الذي يجذب إليه الناس، ويعطفهم عليه؛ لقوله تعالى حكاية عن موسى: {يا قوم}؛ فإن هذا لا شك فيه من التودد، والتلطف، والتحبب ما هو ظاهر.
٢. ومنها: أن اتخاذ الأصنام مع الله ظلم؛ لقوله: {إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل}.

---

(١) البحر المحيط: ١٧٥/١، وقال ه١١ أيضا الرازي في تفسيره: ٨٠/٣.
(٢) تفسير الثعلبي: ١/!٩٨.
(٣) روح المعاني: ٢٦١/١.
(٤) تفسير المراغي: ١٢١/١.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(٥٣١):ص١١٠/١.
(٦) تفسير البيضاوي: ٨١/١.
(٧) صفوة التفاسير: ٥٠/١.
(٨) تفسير الطبري: ٧٩/٢.
(٩) صفوة التفاسير: ٥٠/١.
(١٠) تفسير الطبري: ٧٩/٢.
(١١) تفسير المراغي: ١٢١/١.
(١٢) تفسير ابن عثيمين:١٨٨/١.
(١٣) روح الماني: ٢٦٢/١.

٣.ومنها: أن المعاصي ظلم للنفوس؛ وجه ذلك: أن النفس أمانة عندك؛ فيجب عليك أن ترعاها بأحسن رعاية، وأن تجنبها سوء الرعاية؛ ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمرو بن العاص: "إن لنفسك عليك حقا(١) ".
٤. ومنها: أنه ينبغي التعبير بما يناسب المقام؛ لقوله: {فتوبوا إلى بارئكم}؛ لأن ذكر "البارئ" هنا كإقامة الحجة عليهم في أن العجل لا يكون إلهاً؛ فإن الذي يستحق أن يكون إلهاً هو البارئ . أي الخالق سبحانه وتعالى.
٥.ومنها: وجوب التوبة؛ لقوله:[فتوبوا إلى بارئكم].
٦. ومنها: أن التوبة على الفور؛ لقوله: {فتوبوا}؛ لأن الفاء للترتيب، والتعقيب.
٧. ومنها: إثبات الأسباب، وتأثيرها في مسبباتها؛ لقوله {باتخاذكم}: فإن الباء هنا للسببية.
٨. ومنها: أنه ينبغي للداعي إلى الله أن يبين الأسباب فيما يحكم به؛ لقوله: {إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل}.
٩. ومنها: سفاهة بني إسرائيل، حيث عبدوا ما صنعوا وهم يعلمون أنه لا يرجع إليهم قولاً، ولا يملك لهم ضراً، ولا نفعاً.
١٠. ومنها: ما وضع الله تعالى على بني إسرائيل من الأغلال، والآصار، حيث كانت توبتهم من عبادة العجل أن يقتل بعضهم بعضاً؛ لقوله: {فاقتلوا أنفسكم}.
١١. ومنها: أن الأمة كنفس واحدة؛ وذلك لقوله: {فاقتلوا أنفسكم}؛ لأنهم ما أمروا أن يقتل كل واحد منهم نفسه؛ بل يقتل بعضهم بعضاً؛ ونظير ذلك قوله تعالى: {ولا تلمزوا أنفسكم} [الحجرات: ١١] أي لا يلمز بعضكم بعضاً؛ وعبر عن ذلك بـ "النفس" ؛ لأن الأمة شيء واحد؛ فمن لمز أخاه فكمن لمز نفسه
١٢. ومنها: تفاضل الأعمال؛ لقوله:{ذلكم خير لكم عند بارئكم}.
١٣. ومنها: أن الله سبحانه وتعالى يتوب على التائبين مهما عظم ذنبهم؛ لقوله تعالى: {فتاب عليكم}.
١٤. ومنها: إثبات اسمين من أسماء الله . وهما {التواب}، و{الرحيم}؛ وإثبات ما تضمناه من صفة . وهي: التوبة، والرحمة؛ وإثبات ما تضمناه من صفة باقترانهما . لا تكون عند انفراد أحدهما؛ لأنه لما اقترنا حصل من اجتماعهما صفة ثالثة . وهي: الجمع بين التوبة التي بها زوال المكروه، والرحمة التي بها حصول المطلوب.
١٥. ومنها: أنه ينبغي للإنسان أن يتعرض لما يقتضيه هذان الاسمان من أسماء الله؛ فيتعرض لتوبة الله، ورحمته؛ فيتوب إلى ربه سبحانه وتعالى، ويرجو الرحمة؛ وهذا هو أحد المعاني التي قال عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من أحصاها" . أي أسماء الله التسعة والتسعين . "دخل الجنة"(١) ؛ فإن من إحصائها أن يتعبد الإنسان بمقتضاها.

القرآن
{وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٥)} [البقرة : ٥٥]
التفسير:
واذكروا إذ قلتم: يا موسى لن نصدقك في أن الكلام الذي نسمعه منك هو كلام الله، حتى نرى الله عِيَانًا، فنزلت نار من السماء رأيتموها بأعينكم، فقَتَلَتْكم بسبب ذنوبكم، وجُرْأتكم على الله تعالى.
قوله تعالى: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى}[البقرة:٥٥]، "أي: واذكروا أيضاً يا بني إسرائيل إذ قلتم يا موسى"(١).

---

(١) أخرجه البخاري ص١٥٤، كتاب الصوم، باب ٥١: من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع...، حديث رقم ١٩٦٨.
(١) اخرجه البخاري ص٢١٩، كتاب الشروط، باب ١٨: ما يجوز من الاشتراط والثنيا في الإقرار...، حديث رقم ٢٧٣٦؛ وأخرجه مسلم ص١١٤٤، كتاب الذكر والدعاء، باب ٢: في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها، حديث رقم ٦٨١٠ [٦] ٢٦٧٧.
(١) تفسير ابن عثيمين:١٩١/١.

قال ابن عثيمين:" والخطاب لمن كان في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، لكن إنعامه على أول الأمة إنعام على آخرها؛ فصح توجيه الخطاب إلى المتأخرين مع أن هذه النعمة على من سبقهم"(١).

قوله تعالى: {لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ} [البقرة : ٥٥]، "أي لن ننقاد، ولن نصدق، ولن نعترف لك بما جئت به"(٢).

قوله تعالى: {حَتَّى نَرَى اللَّهَ} [البقرة : ٥٥]" أي حتى نرى الله علانية"(٣).

و(جَهْرَةً): أي "معاينة بلا ساتر بيننا وبينه، وأصل الجهر من الكشف"(٤)، يقال "فلان يجاهر بالمعاصي أيْ لا يسْتَتِر من الناس منها بشيءٍ"(٥)، ويقال: قد جاهر فلان بهذا الأمر مجاهرة وجهارا، " إذا أظهره لرأي العين وأعلنه(٦)، كما قال الفرزدق بن غالب(٧):

من اللائي يظل الألف منهرر... منيخًا من مخافته جهارا

ومنه قول الشاعر(٨):

يجهر أجواف المياه السّدم ... وانتحابها على الحان

وقيل: المعنى (جهرة)، وأنه صفة لقولهم، أي : جهروا بذلك القول.

وفي القائلين لموسى ذلك قولان(٩) :

القول الأول : أنهم السبعون المختارون، فلما صار يكلم موسى ربه ويكلمه الله، قالوا {لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً}(١٠).

القول الثاني : أنه لما رجع موسى من ميقات الله، وأنزل عليه التوراة، وجاء بها قالوا : ليست من عند الله {لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً}.

وقوله {جَهْرَةً}[البقرة:٥٥]، فيه وجهان من القراءة(١١):

أحدهما: {جَهْرَةً}، بجزم الهاء. قرأ بها الجمهور.

---

(١) تفسير ابن عثيمين:١٩١/١.

(٢) تفسير ابن عثيمين:١٩١/١.

(٣) صفوة التفاسير: ٥٢/١.

(٤) تفسير الثعلبي: ١٩٩/١.

(٥) معاني القرآن للزجاج: ١٣٧/١.

(٦) انظر: تفسير الطبري: ٨٠/٢.

(٧)ديوانه : ٤٤٣ ، والنقائض : ٢٥٥ ، يهجو جريرا ، وقبل البيت :

عوى، فأثار أغلب ضيغميا   فويل ابن المراغة! ما استثارا

قوله " عوى " يعني جريرا. وقوله " من اللائي " ، أصله : من اللائين. و " اللاؤون " جمع " الذي " من غير لفظه ، بمعنى " الذين " . وفيه لغات : اللاؤون ، في الرفع ، واللائين ، في الخفض والنصب. واللاؤو ، بلانون ، واللائي ، بإثبات الياء في كل حال. يستوى فيه الرجال والنساء ، ومنه قول عباد بن طهفة ، وهو أبو الربيس ، شاعر أموي :

من النفر اللائي الذين إذا همو   يهاب اللئام حلقة الباب قعقعوا

وأجاز أبو الربيس أن يجمع بين " اللائي " و " الذين " ، لاختلاف اللفظين ، أو على إلغاء أحدهما. قول الفرزدق : " من اللائي " ، يعني : من الذين. ثم قطع القول وحذف ، لدلالة الكلام على ما أراد ، كأنه قال : هو من الذين عرفت يا جرير. ثم استأنف فقال : يظل الألف منه.. ، والضمير في " منه " عائد إلى قوله : " أغلب ضيغميا " ، هو الأسد ، ويعني نفسه. والألف : يعني ألف رجل. وقوله : " منيخا " : أي قد أناخ " الألف " ركابهم من مخافته ، وقد قطع عليهم الطريق. هذا ، ورواية النقائض والديوان : " نهارا " مكان " جهارا " جاء تفسيرها في النقائض : " قال : نهارا، ولم يقل : ليلا ، لأن الأسد أكثر شجاعته وقوته بالليل. فيقول : هذا الأسد يظل الألف منه منيخا بالنهار ، فكيف بالليل! " . رواية الطبري : " جهارا " قريبة المعنى من رواية من روى " نهارا " . وهم يقولون : لقيته جهارا نهارا. لأن النهار يكشف كل شيء ويعلنه ويجهره. أي أناخوا يرونه وهم يرونه رأى العين ، وذلك في النهار.

(٨)سيرة النبي صلّى الله عليه وسلّم- ابن هشام الحميري-: ٢/ ٣٧٧، والسدم: الندم، والبيت من شواهد الثعلبي في تفسيره: ١٩٩/١.

(٩) انظر: تفسير ابن كثير: ٢٦٤/١.

(١٠)وقد اختلف في وقت اختيارهم:

١- حكى أكثر المفسرين أن ذلك بعد عبادة العجل ، اختارهم ليستغفروا لبني إسرائيل.

٢-وحكى النقاش وغيره أنه اختارهم حين خرج من البحر وطلب بالميعاد.

والأول أصح .

(١١) أنظر: تفسير الثعلبي: ١٩٩/١، والمحرر الوجيز: ١٤٧/١.

والثاني:{جَهَرَةً}، بفتح الهاء، قرأ بها ابن عباس، قرأ سهل بن شعيب وحميد بن قيس، "وهي لغة مسموعة عند البصريين فيما فيه حرف الحلق ساكنا قد انفتح ما قبله، والكوفيون يجيزون فيه الفتح وإن لم يسمعوه"[١].
قال الثعلبي: :وهما لغتان، مثل زهره وزهره "[٢].
قوله تعالى: {فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ} [البقرة : ٥٥]، أي فأهلكهم الله بالصاعقة، عقاباً[٣].
قال الواحدي: " يعني ما تصعقون منه، أي: تموتون"[٤].
قال البغوي:" أي الموت"[٥].
قال الثعلبي:" وهي نار جاءت من السماء فأحرقتهم جميعا"[٦].
قال ابن عثيمين:" يعني الموت الذي صعقوا به"[٧].
قال الصابوني:"أي أرسل الله عليهم ناراً من السماء فأحرقهم"[٨].
قال الزجاج: " معنى الصاعقة ما يُصْعقون منه، أيْ يموتون، فأخذتهم الصاعقة فماتوا"[٩].
قال المراغي:" أي فأخذت الصاعقة من قال ذلك"[١٠].
واختلف في مُوسى هل أصابه ما أصابهم؟، وللعلماء فيه قولان:
الأول: أن الخطاب لم يتناول موسى-عليه السلام. قاله الجمهور، وهو الصحيح[١١]، وذللك لوجهين[١٢]:
أحدهما: أنه خطاب مشافهة فلا يحب أن يتناول موسى عليه السلام.
الثاني: أنه لو تناول موسى لوجب تخصيصه بقوله تعالى في حق موسى: فلما أفاق مع أن لفظة الإفاقة لا تستعمل في الموت.
والقول الثاني: إن موسى عليه السلام قد مات، قاله ابن قتيبة[١٣]. وهو خطأ لما بيّناه في القول الأول. والله أعلم.
وفي قوله تعالى:{الصَّاعِقَةُ}[البقرة:٥٥}، وجهان من القراءة[١٤]:
أحدهما: {الصعقة}، بغير ألف، قرأ بها عمر وعثمان وعلي (رضي الله عنهم).
والثاني: وقرأ الباقون {الصَّاعِقَةُ} بالألف.
قال الثعلبي: "وهما لغتان"[١٥].
قوله تعالى: {وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ}[البقرة:٥٥]، "أي ما حلّ بكم"[١٦].
قال عروة بن رويم:"فصعق بعضكم وبعض ينظرون"[١٧].
قال الطبري:" وأنتم تنظرون إلى الصاعقة التي أصابتكم"[١٨].
قال البغوي:" أي ينظر بعضكم إلى بعض حين أخذكم الموت"[١].

---

(١) المحرر الوجيز: ١/!٤٧.
(٢) تفسير الثعلبي: ١٩٩/١.
(٣) انظر: تفسير القرطبي: ٤٠٤/١.
(٤) التفسير البسيط: ٥٤٠/٢.
(٥) تفسير البغوي: ٩٧/١.
(٦) تفسير الثعلبي: ١٩٩/١.
(٧) تفقسير ابن عثيمين:١٩٢/١.
(٨) صفوة التفاسير: ٥٢/١.
(٩) معاني القرآن: ١٣٧/١.
(١٠) تفسير المراغي: ١٢٢/١.
(١١) أنظر: مفاتيح الغيب: ٥٢١/٣، وروح المعاني: ٢٦٣/١.
(١٢) أنظر: مفاتيح الغيب: ٥٢١/٣.
(١٣) نقلا عن: مفاتيح الغيب: ٥٢١/٣.
(١٤) أنظر: تفسير الثعلبي: ١/!٩٩.
(١٥) تفسير الثعلبي: ١٩٩/١.
(١٦) صفوة التفاسير: ٥٢/١.
(١٧) أخرجه ابن أبي حاتم(٥٤٢):ص١١٢/١.
(١٨) تفسير الطبري: ٨٤/٢.

قال ابن عطية: أي: "إلى حالكم.. حتى أحالهم العذاب وأزال نظرهم "[٢].
قال الماوردي: أي:"ما نزل بكم من الموت"[٣].
قال ابن عثيمين:" أي ينظر بعضكم إلى بعض حين تتساقطون"[٤].
وقال المراغي: " والباقون ينظرون بأعينهم"[٥] موت من طلب رؤية الله جهرة.
وللمفسرين في (الصاعقة) التي أخذتهم قولان[٦]:
أحدهما: أنها هي الموت. وهو قول الحسن[٧] وقتادة[٨]، والربيع[٩].
واحتجوا عليه بقوله تعالى: {فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ} [الزمر : ٦٨] [الزمر: ٦٨].
قال الرازي: "وهذا ضعيف لوجوه[١٠]:
أحدها: قوله تعالى: فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون ولو كانت الصاعقة هي الموت لامتنع كونهم ناظرين إلى الصاعقة.
وثانيها: أنه تعالى قال في حق موسى: وخر موسى صعقا [الأعراف: ١٤٣] أثبت الصاعقة في حقه مع أنه لم يكن ميتا لأنه قال: فلما أفاق والإفاقة لا تكون عن الموت بل عن الغشي.
وثالثها: أن الصاعقة وهي التي تصعق وذلك إشارة إلى سبب الموت.
ورابعها: أن ورودها وهم مشاهدون لها أعظم في باب العقوبة منها إذا وردت بغتة وهم لا يعلمون. ولذلك قال: {وأنتم تنظرون}، منبها على عظم العقوبة.
القول الثاني: أن الصاعقة هي سبب الموت، ولذلك قال تعالى في سورة الأعراف: {فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ} [الأعراف : ١٥٥].
ومن ثم اختلفوا هؤلاء في سبب الموت أي شيء كان، على أربعة أوجه[١١]:
أحدها: أن نارا وقعت من السماء، فأحرقتهم. قاله السدي[١٢].
وثانيها: صيحة جاءت من السماء. قاله مروان بن الحكم[١٣].
وثالثها: أرسل الله تعالى جنودا سمعوا بخسها فخروا صعقين ميتين يوما وليلة.
ورابعها: أخذتهم الرجفة، وهي الصاعقة، فماتوا جميعا. قاله ابن إسحاق[١٤].
و(الصاعقة) هي "الصوت الشديد من الجو، ثم يكون منها نار فقط، أو عذاب، أو موت، وهي في ذاتها شيء واحد، وهذه الأشياء تأثيرات منها"[١٥]، و"الصاعة والصاقعة يتقاربان، وهما الهدة الكبيرة، إلا أن الصقع يقال في الأجسام الأرضية، والصعق في الأجسام العلوية.
وقال بعض أهل اللغة: الصاعقة على ثلاثة أوجه[١٦]:

---

(١) تفسير البغوي: ٩٧/١.
(٢) المحرر الوجيز: ١٤٧/١.
(٣) النكت والعيون: ١٢٣/١.
(٤) تفسير ابن عثيمين:١٩٢/١.
(٥) تفسير المراغي: ١٢٢/١.
(٦) انظر: تفسير الطبري: ٨٢/٢-٨٣، ومفاتيح الغيب: ٥٢١/٣.
(٧) نقلا عن: مفاتيح الغيب: ٥٢١/٣.
(٨)أنظر: تفسير الطبري(٩٥١):ص٨٢/٢، وابن أبي حاتم(٥٣٨):ص١١٢/١.
(٩)أنظر: تفسير الطبري(٩٥٢):ص٨٢/٢، وتفسير ابن أبي حاتم(٥٣٩):ص١١٢/١.
(١٠) أنظر: مفاتيح الغيب: ٥٢١/٣.
(١١) أنظر: تفسير الطبري: ٨٢/٢-٨٣، ومفاتيح الغيب: ٥٢١/٣.
(١٢) أنظر:الطبري(٩٥٣):ص٨٢/٢-٨٣. تفسير ابن أبي حاتم(٥٤٠):ص١١٢/١.
(١٣) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٤١):ص١١٢/١.
(١٤) أنظر: تفسير الطبري(٩٥٤):ص٨٣/٢.
(١٥) مفردات غريب القرآن، الراغب: ٤٤٩.
(١٦) أنظر: مفردات غريب القرآن، الراغب: ٤٤٩.

أحدها: الموت، كقوله: {فصعق من في السموات ومن في الأرض} [الزمر /٦٨]، وقوله: {فأخذتهم الصاعقة} [النساء/١٥٣].
والثاني: العذاب، كقوله: {أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود} [فصلت /١٣].
والثالث: النار، كقوله: {أنذرتكم الصواعق فيصيب بها من يشاء} [الرعد/١٣].
وقال الإمام الطبري: "وأصل (الصاعقة) كل أمر هائل رآه (المرء) أو عاينه أو أصابه، حتى يصير من هوله وعظيم شأنه إلى هلاك وعطب، وإلى ذهاب عقل وغمور فهم، أو فقد بعض آلات الجسم صوتا كان ذلك أو نارا، أو زلزلة، أو رجفا، ومما يدل على أنه قد يكون مصعوقا وهو حي غير ميت، قول الله عز وجل : {وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا}[الأعراف : ١٤٣]، يعني مغشيا عليه، ومنه قول جرير بن عطية[١] :

وهل كان الفرزدق غير قرد أصابته الصواعق فاستدارا

فقد علم أن موسى لم يكن حين غشي عليه وصعق ميتا، لأن الله جل وعز أخبر عنه أنه لما أفاق قال : (تبت إليك) [الأعراف : ١٤٣] - ولا شبه جرير الفرزدق وهو حي بالقرد ميتا"[٢].
وقد ذكر الطبري مجموعة من الروايات عن سبب قيلهم لموسى ما أخبر الله جل وعز عنهم أنهم قالوا له، من قولهم : {لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة}، وهي روايات غير صحيحة الإسناد[٣]، والصواب من القول فيه أن يقال: "إن الله جل ثناؤه قد أخبر عن قوم موسى أنهم قالوا له : {يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة}، كما أخبر عنهم أنهم قالوه . وإنما أخبر الله عز وجل بذلك عنهم الذين خوطبوا بهذه الآيات، توبيخا لهم في كفرهم بمحمد صلى الله عليه و سلم، وقد قامت حجته على من احتج به عليه، ولا حاجة لمن انتهت إليه إلى معرفة السبب الداعي لهم إلى قيل ذلك . وقد قال الذين أخبرنا عنهم الأقوال التي ذكرناها، وجائز أن يكون بعضها حقا كما قال"[٤].

---

(١)ديوانه : ٢٨١ ، والنقائض : ٢٥١ وبعده في هجاء الفرزدق ، وهو من أشده :

وكنت إذا حللت بدار قوم رحلت بِخَزْيَةٍ وتركت عارا

وما أشد ما قال! وقال في النقائض في شرح البيت : " ولغته - يعني جريرا - الصواقع . فاستدار : أي استدار إنسانا بعد أن كان قردا " . وكأنه أخطأ المعنى ، فإنه أراد أنه مسخ قردا على هيئته التي كان عليها قبل أن يكون إنسانا . فقوله : " استدار " : عاد إلى الموضع الذي ابتدأ منه ، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع : " إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض " أي عاد كما بدأ . فهو يقول : كان الفرزدق في أصل نشأته قردا ، ثم تحول إنسانا ، فلما أصابته صواعق شعري عاد كما كان في أصل نشأته قردا صريحا .
(٢) انظر: تفسير الطبري: ٨٢/٢-٨٣.
(٣) منها: ما رواه عن محمد بن إسحاق قال :" لما رجع موسى إلى قومه ، ورأى ما هم فيه من عبادة العجل ، وقال لأخيه وللسامري ما قال ، وحرق العجل وذراه في اليم ، اختار موسى منهم سبعين رجلا الخيِّر فالخيِّر ، وقال : انطلقوا إلى الله عز وجل ، فتوبوا إليه مما صنعتم ، وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم ؛ صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم. فخرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقته له ربه ، وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم . فقال له السبعون - فيما ذكر لي - حين صنعوا ما أمرهم به ، وخرجوا للقاء ربه : يا موسى ، اطلب لنا إلى ربك نسمع كلام ربنا ، قال : أفعل . فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود غمام حتى تغشى الجبل كله ، ودنا موسى فدخل فيه ، وقال للقوم : ادنوا . وكان موسى إذا كلمه ربه وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه . فضرب دونه الحجاب . ودنا القوم ، حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجودا ، فسمعوه وهو يكلم موسى يأمره وينهاه : افعل ، ولا تفعل . فلما فرغ إليه من أمره ، انكشف عن موسى الغمام، فأقبل إليهم ، فقالوا لموسى : (لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) ، فأخذتهم الرجفة - وهي الصاعقة - [فافتلتت أرواحهم] فماتوا جميعا، وقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه ويقول : رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي! قد سفهوا ، أفتهلك من ورائي من بني إسرائيل بما تفعل السفهاء منا ؟ أي : إن هذا لهم هلاك ، اخترت منهم سبعين رجلا الخير فالخير ، أرجع إليهم وليس معي منهم رجل واحد! فما الذي يصدقوني به أو يأمنوني عليه بعد هذا ؟(إنا هدنا إليك) . فلم يزل موسى يناشد ربه عز وجل ويطلب إليه، حتى رد إليهم أرواحهم ، فطلب إليه التوبة لبني إسرائيل من عبادة العجل ، فقال : لا إلا أن يقتلوا أنفسهم.[انظر: تفسيره(٩٥٧):ص ٨٦/٢-٨٧].
قال الإمام الطبري بعد أن ذكر الروايات: " فهذا ما روي في السبب الذي من أجله قالوا لموسى : {لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة} ولا خبر عندنا بصحة شيء مما قاله من ذكرنا قوله في سبب قيلهم ذلك لموسى ، تقوم به حجة فيسلم له".[تفسيره: ٨٩/٢].
(٤) تفسير الطبري: ٨٩/٢-٩٠.

وتجدر الإشارة بأن أهل السنة والجماعة أجمعوا بأن رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة ممكنة وقد جاء الوعد بها صريحا في كتاب الله تعالى وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام ولذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في فتاويه ما نصه "نعم رؤية الله بالأبصار هي للمؤمنين في الجنة وهي أيضا للناس في عرصات القيامة كما تواترت بها الأحاديث عن النبي ﷺ حيث قال : "إنكم سترون ربكم كما ترون الشمس في الظهيرة ليس دونها سحاب"(١) إلى أن قال : "وهذه الأحاديث وغيرها في الصحاح وقد تلقاها السلف والأئمة بالقبول واتفق عليها أهل السنة والجماعة وإنما يكذبها أو يحرفها الجهمية ومن تبعهم من المعتزلة والرافضة ونحوهم الذين يكذبون بصفات الله تعالى وبرؤيته وغير ذلك وهم المعطلة شرار الخلق والخليقة"(٢).

وقد اختلف الناس فى مسألة رؤية الله تعالى عياناً فى الآخرة على ثلاثة مذاهب-:

أولاً : مذهب نفات الرؤية:

ذهب المعتزلة والجهمية ومن تبعهم من الخوارج والإمامية وبعض الزيدية وبعض المرجئة، إلى نفي رؤية الله تعالى عياناً في الدنيا والآخرة، وقالوا: باستحالة ذلك عقلا؛ لأنهم يقولون إن البصر لا يدرك إلا الألوان والأشكال، أي ما هو مادي والله تعالى ذات غير مادية، فمن المستحيل إذن أن يقع عليه البصر، فالقول برؤية الله تعالى هدم للتنزيه وتشويه لذات الله وتشبيه له حيث إن الرؤية لا تحصل إلا بانطباع صورة المرئي في الحدقة، ومن شرط ذلك انحصار المرئي في جهة معينة من المكان حتى يمكن اتجاه الحدقة إليه، ومن المعلوم علم اليقين أن الله تعالى ليس بجسم ولا تحده جهة من الجهات ولو جاز أن يرى في الآخرة لجازت رؤيته الآن، فشروط الرؤية لا تتغير في الدنيا والآخرة(٣)، واستدلوا على هذا بالسمع والعقل:

فمن جهة السمع:

الدليل الأول:

- قوله تعالى: {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [الأنعام : ١٠٣]، قالوا : أنه نفى أن يدرك بالأبصار، وقد علمنا أن الإدراك إذا قرن بالبصر أفاد ما تفيده رؤية البصر، لانه متى قرن به زال الاحتمال عنه، فاختص بفائدة واحدة وهي الرؤية بالبصر، وذلك بمنزلة قوله لو قال: لا تراه الأبصار، فثبت أنه نفى عن نفسه إدراك البصر فيتناول جميع الأبصار في جميع الأوقات(٤).

وأجيب عليهم : بأنَّ هذا غلط كبير؛ لأنَّ نَفْيَ الإدراك لا يستلزم انتفاء الرؤية، فإنَّه قد ترى الشيء ولا تدركه ؛ يعني لا تحيط به، فهذه السماء نراها ولا أحد يشك في أنه يرى السماء، ولو قلت لأي أحد يرى السماء: هل تدرك السماء رؤية وتحيط بها؟ فسيكون جواب كل أحد : لا، يعني لا يدركها رؤية، وإنما يرى منها ما يمكنه أن يرى وكما قال عز وجل: {فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِين (٦٢)} [الشعراء : ٦١ - ٦٢]، ووجه الدلالة أنَّهُ نفى الإدراك، ومع نَفْيِ الإدراك أثبت الله - عز وجل - التراائي وهو رؤية كل جمع لآخر فقال) فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَان (هذا الجمع رأى الجمع وذاك الجمع رأى الجمع ومع ذلك {قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ} فقال موسى {كَلَّا} يعني لن تُدْرَكْ يعني لن يُحاطَ بنا.

فنَفْيُ الإحاطة لا يستلزم أن تُنْفَى الرؤية؛ بل نَفْيُ الإحاطة يستلزم إثبات الرؤية نقيض ما قالوا، .. و..الوجه الثاني من الاستدلال عليهم بهذه الآية أنَّ نفي الإدراك ليس كمالاً، والقاعدة المعروفة أنَّ كل نفي في القرآن فكماله بإثبات ضده، فربنا - عز وجل - قال {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ}، وذلك لكمال سعته سبحانه وتعالى وكمال علوه وكمال استغناه عن خلقه، إلى غير ذلك من أفراد صفات الجلال للرب - عز وجل-.

فلا يقال إنه لا يُدْرَك ويكون المراد كمالاً إلا وأَصْلُ ذلك ثابتاً، وهو أنه في محل من يُرَى أو في محل الرؤية. .لأنك متى ما قلت في شيء إنك تراه أو لا تدركه رؤيةً فإنما يكون كمالاً إذا كان في محل ما يمكن أن يُرَى، أما الأشياء التي لا تُرَى أصلاً فإنه ليس من الكمال أن تَنْفِي الرؤية عنها.

---

(١) سنن الترمذي، صفة الجنة عن رسول الله، الحديث: (٢٤٧٧).

(٢) مجموع الفتاوى، شيخ الإسلام ابن تيمية: ٣ / ٣٩٠ – ٣٩١.

(٣)انظر : مقالات الإسلاميين ٢٦٥/١ ، وشرح الطحاوية ص١٥٣ ط الأوقاف ، وموسوعة الفرق المنتسبة إلى الإسلام ٤٤٣/٣ .

(٤)انظر : شرح الأصول الخمسة ص٢٣٢ ، والمغنى ١٤٤/٤ .

فكونك تنفي الرؤية عن الرحمة لا يعد هذا كمالا في الرحمة، وإنما هكذا وُجِدَتْ، كونك تنفي الرؤية عن الإبصار والإدراك لا يدل على كمال فيها.

فإذاً دَلَّ نَفْيُ الإدراك عن الرب - عز وجل - أنَّ نَفْيَ الإدراك لأجل أنه عظيم عز وجل فإنه يُرَى، ولكنه لا يُدْرَكْ.

والإدراك ينقسم إلى قسمين : إدراكٌ برُؤْيَةٍ، وإدراك بعلمه.

والإدراك بعلم : نَفَاهُ الله عز وجل في قوله سبحانه) وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا).

وإدراك الرؤية : نفاه الله عز وجل في هذه الآية.

وهذه الآية في إدراك الرؤية لا في إدراك العلم، دلَّ عليها قوله بعد النفي {وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}، فكونه سبحانه {يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ}يعني يراها، وخَصَّ الإدراك بإدراك الأبصار لأنَّ الأبصار هي محل نَفْي الإدراك السابق، فقال{لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ}، فلما قال {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ} دَلَّنَا على أنَّ المنفي هو إدراك الرؤية لا إدراك العلم (١).

الدليل الثاني:

- قوله تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ} [الأعراف : ١٤٣].

قالوا : ولن موضوعة للتأبيد وإذا لم يره موسى أبدا لم يره غيره إجماعاً(٢).

وقد أجابهم الإمام صدر الدين ابن أبى العز الحنفي فقال : وأما استدلال المعتزلة بقوله تعالى : {قَالَ لَن تَرَانِي}، وبقوله تعالى : {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ}فالآيتان دليل عليهم.

الآية الأولى : فالاستدلال منها على ثبوت رؤيته من وجوه :

١-أنه لا يظن بكليم الله ورسوله الكريم وأعلم الناس بربه في وقته - أن يسأل ما لا يجوز عليه، بل هو عندهم من أعظم المحال.

٢- أن الله لم ينكر عليه سؤاله، ولما سأل نوح ربه نجاة ابنه أنكر سؤاله، وقال: {قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ} [هود : ٤٦].

٣- أنه تعالى قال(لَن تَرَانِي)، ولم يقل: إني لا أرى، أو لا تجوز رؤيتي، أو لست بمرئي، والفرق بين الجوابين ظاهر. ألا ترى أن من كان في كمه حجر فظنه رجل طعاما فقال: أطعمنيه، فالجواب الصحيح: أنه لا يؤكل، أما إذا كان طعاما صح أن يقال: إنك لن تأكله. وهذا يدل على أنه سبحانه مرئي، ولكن موسى لا تحتمل قواه رؤيته في هذه الدار، لضعف قوى البشر فيها عن رؤيته تعالى.

٤- وهو قوله(وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي) فأعلمه أن الجبل مع قوته وصلابته لا يثبت للتجلي في هذه الدار، فكيف بالبشر الذي خلق من ضعف ؟

٥- أن الله سبحانه قادر على أن يجعل الجبل مستقرا، وذلك ممكن، وقد علق به الرؤية، ولو كانت محالا لكان نظير أن يقول: إن استقر الجبل فسوف آكل وأشرب وأنام، والكل عندهم سواء.

٦- قوله تعالى(فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا)، فإذا جاز أن يتجلى للجبل الذي هو جماد لا ثواب له ولا عقاب، فكيف يمتنع أن يتجلى لرسله وأوليائه في دار كرامته ؟ ولكن الله تعالى أعلم موسى عليه السلام أن الجبل إذا لم يثبت لرؤيته في هذه الدار، فالبشر أضعف.

٧- أن الله كلم موسى وناداه وناجاه، ومن جاز عليه التكلم والتكليم وأن يسمع مخاطبه كلامه بغير واسطة - فرؤيته أولى بالجواز. ولهذا لا يتم إنكار رؤيته إلا بإنكار كلامه، وقد جمعوا بينهما .

وأما دعواهم تأبيد النفي بـ (لن) وأن ذلك يدل على نفي الرؤية في الآخرة، ففاسد، فإنها لو قيدت بالتأبيد لا يدل على دوام النفي في الآخرة، فكيف إذا أطلقت ؟ قال تعالى: {وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ} [البقرة : ٩٥]، مع قوله {وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ} [الزخرف : ٧٧]،

---

(١)انظر : الشروح الوافية على العقيدة الطحاوية ٤٠٣/١ للسيد أبو سيف ، مكتبة الإيمان – المنصورة .

(٢)انظر : تفسير الزمخشرى المسمى (بالكشاف) ١٥٤/٢ ، الطبعة الثالثة، دار الكتاب العربي – بيروت .

ولأنها لو كانت للتأبيد المطلق لما جاز تحديد الفعل بعدها، وقد جاء ذلك، قال تعالى {فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ} [يوسف : ٨٠]، فثبت أن " لن " لا تقتضي النفي المؤبد.
قال الشيخ جمال الدين بن مالك رحمه الله تعالى:
ومن رأى النفي بلن مؤبدا فقوله اردد وسواه فاعضدا [١]
وقد استدل المعتزلة على نفى الرؤية فى الدنيا والآخرة مطلقاً بعدة أدلة أخرى من القرآن، وأضافوا إلى ذلك أدلةٍ عقلية منها الآتي:-
١-المقابلة : وتحريره كما قال عبد الجبار: إن الواحد منا راء بحاسة، والرائي بالحاسة لا يرى الشيء إلا إذا كان مقابلاً أو حالاً في المقابل أو في حكم المقابل. وقد ثبت أن الله تعالى لا يجوز أن يكون مقابلاً، ولا حالاً في المقابل، ولا في حكم المقابل [٢].
وقد أجاب الرازى عن هذه الشبهة فى كتابه الأربعين، بعدة أجوبه ومنها نفى الحيز والجهة[٣]، والحق أن الجواب عن دليل المعتزلة بتسليم نفي الجهة والمقابلة عن الله تعالى لا يستقيم حيث إن إثبات رؤية حقيقية بالعيان من غير مقابلة أو جهة مكابرة عقلية، لأن الجهة من لوازم الرؤية وإثبات الملزوم ونفي اللازم مغالطة ظاهرة. ثم إن الثابت بالنصوص الصحيحة إثبات الرؤية لله تعالى كرؤية الشمس والقمر .. ثم أن إثبات صفة العلو لله تبارك وتعالى ورد بالكتاب والسنة في مواضع كثيرة جدا فلا حرج في إثبات رؤية الله تعالى من هذا العلو الثابت له تبارك وتعالى ولا يقدح هذا في التنزيه، لأن من أثبت هذا أعلم البشر بما يستحق الله تعالى من صفات الكمال.
أما لفظ الجهة : فهو من الألفاظ المجملة التي لم يرد نفيها، ولا إثباتها بالنص، فتأخذ حكم مثل هذه الألفاظ[٤].
٢-من أدلة المعتزلة على نفي الرؤيا الانطباع : وتقريره كما ذكر الرازي : "أن كل ما يكون مرئيا فلا بد وأن تنطبع صورته ومثاله في العين، والله تعالى يتنزه عن الصورة والمثال، فوجب أن تمتنع رؤيته"[٥].
٣- وأيضاً قالوا : إن كل ما كان مرئياً فلا بد له من لون وشكل، ودليله الاستقراء والله تعالى منزه عن ذلك فوجب ألا يرى[٦].
والجواب عن الدليلين، هو: منع كون الرؤية بالانطباع، ومنع كون المرئي ذا لون وشكل، إما مطلقاً أو في الغائب لعدم تماثل الرؤيتين، فرؤية الخالق ليس كرؤية المخلوق، فلا يجب هذا في حق الله تعالى حيث إن ذات الله مخالفة بالحقيقة والماهية لهذه الحوادث والمختلفات في الماهية لا يجب استواؤهما في اللوازم[٧].
والحكم بأن المرئي لابد وأن تنطبع صورته ومثاله في العين، وأنه لا بد وأن يكون ذا لون وشكل مبني على أن هذه الأشياء المشاهدة المحسوسة لا ترى إلا كذلك، ثم قالوا لو صح أن يرى الله فلا يرى إلا كذلك وهو ممنوع في حقه تعالى، والحق أنه تحكم محض وقياس للخالق على المخلوق، وهو باطل قطعا لأنه قياس مع الفارق، فالله تعالى ليس كمثله شيء، ولا يشبهه شيء من خلقه، فلا يصح قياسه عليه [٨]، قال تعالى {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)} [الإخلاص : ١ - ٤]، وقال تعالى: {فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى : ١١][٩].
ثانياً : مذهب الأشاعرة ومن نحا نحوهم:-

---

(١)شرح الطحاوية ص١٥٦ وما بعدها ، ط الأوقاف السعودية .
(٢)انظر : رؤية الله تعالى وتحقيق الكلام فيها، أحمد بن ناصر آل حمد: ٥٥.
(٣)انظر : الأربعين في أصول الدين للرازي ص ١٩٠ – ٢١٣ ، ٢١٧ ، والمواقف للإيجى ١٣٩/٨.
(٤)رؤية الله تعالى وتحقيق الكلام فيها ص٦١.
(٥) الأربعين في أصول الدين: ٢١٣.
(٦) أنظر: المصدر نفسه: ٢١٥، والتمهيد للباقلاني: ٢٧٧.
(٧) شرح الجرجاني للمواقف:١٣٩/٨، واالأربعين في أصول الدين للرازي: ٢١٧.
(٨)المصدر نفسه: ٧١ – ٧٢.
(٩) انظر: رؤية الله تعالى، وتحقيق الكلام فيها لأحمد بن ناصر آل حمد: ٥٥.

وهؤلاء أثبتوا الرؤية ولكن قالوا : الرؤية ليست إلى جهة، وإنما تكون إدراكاً، فوافقوا السلف فى إثبات الرؤية، وردُّوا قول المعتزلة في أنَّ الرؤية ممتنعة، ووافقوا المعتزلة في أنَّ ليس على العرش رب وأنَّ الله سبحانه ليس في جهة - جهة العلو – خلافاً للسلف الصالح، فقالوا الرؤية لا إلى جهة.

واختلفت عبارات الأشاعرة فى هذه المسألة، فظاهر عبارات الأشعرى إثبات رؤية حقيقية بالأبصار، وذلك خلافاً لأكثر أصحابه.

قال رحمه الله : " لما قال تعالى: {إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} [القيامة : ٢٣]، علمنا أنه لم يرد الانتظار، وإنما أراد نظر الرؤية.، ولما قرن الله عز وجل النظر بذكر الوجه؛ أراد نظر العينين اللتين في الوجه"(١).

وقال أيضاً : "وأجمعوا على أن المؤمنين يرون الله عز وجل يوم القيامة بأعين وجوههم على ما أخبر به تعالى في قوله تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)} [القيامة : ٢٢ - ٢٣]"(٢).

وقال : مذهب أصحاب الحديث وأهل السنة .. أن الله سبحانه يرى بالأبصار يوم القيامة كما يرى القمر ليلة البدر .. (٣).

هذا هو قول إمام المذهب، أما أتباعه فاختلفوا، فذهب بعضهم إلى قول الأشعري، بينما ذهب كثير منهم إلى أن حقيقة الرؤية مرجعها إلى العلم لا إلى الرؤية البصرية، وبعضهم قال إنه شيء أعطاه الله لعباده المؤمنين في الآخرة يسمى الرؤيا، ورغم تصريح أغلب الأشاعرة بإثبات الرؤية لكنهم يفسرونها بما يدل على عدم الإثبات.

يقول الآمدى : "فالعقل يجوز أن يخلق الله تعالى في الحاسة المبصرة بل وفى غيرها زيادة كشف بذاته وبصفاته على ما حصل منه بالعلم القائم في النفس من غير أن يوجب حدوثا ولا نقصا ."(٤).

وقد نقل الشهرستانى عن الأستاذ أبى إسحاق أن الرؤية حكمها حكم العلم بخلاف سائر الحواس .. إلى أن قال : "وصار المعنى كالعلم أو هو من جنس العلم وقد تقرر الاتفاق على جواز تعلق العلم به .. "(٥).

فتفسير الرؤية بالعلم يعنى نفى الرؤية بالأبصار، وليس في إثباتها إلا إثبات لفظ لا حقيقة له، ولا ريب أن المعتزلة يثبتون العلم بالله يوم القيامة.

ولا شك أن كل من قال من الأشاعرة أن المراد بالرؤية هو العلم، لم يثبت إلا مجرد اللفظ ولا فرق بينه وبين من نفى الرؤية لأنه مراده الرؤية البصرية، فأي فرق بين القولين إذاً ؟

بينما ذهبت طائفة من الأشاعرة إلى أن الرؤية هي قوة يجعلها الله في خلقه، وليست هى الرؤية البصرية.

قال البيجورى : الرؤية قوة يجعلها فى خلقه لا يشترط فيها مقابلة المرئى ولا كونه فى جهة ولا حيز ولا غير ذلك .. إلى أن قال : "والحاصل أنه تعالى يرى من غير تكيف بكيفية من الكيفيات المعتبرة في رؤية الأجسام ومن غير إحاطة، بل يحار العبد فى العظمة والجلال فلا يعرف اسمه ولا يشعر بما حوله من الخلائق، فإن العقل يعجز هنالك عن الفهم ويتلاشى"(٦).

ومن المعاصرين الشيخ حسن أيوب يقول" : فإن الحق أن الرؤية قوة يجعلها الله تعالى في خلقه، لا يشترط فيها الأشعة، ولا مقابلة المرئي ولا غير ذلك"(٧).

والحق أن هذا نفى للرؤية لا إثبات لها كما يزعمون، وإن المعتزلة لا تمنع مثل هذه الرؤية التى هى بمعنى الكشف أو زيادة الانكشاف والمعرفة كما نقله بعضهم.

ولنتأمل ما قاله الآمدى : "وذلك أن ما يخلقه الله من زيادة الكشف إن كان من ذات الشئ ووجوده بالنسبة إلى ما يحصل من تعلق علم النفس به شرحا سمى ذلك نظرا ".. إلى أن قال : "فإن البصر هو ما يخلقه الله

---

(١)لإبانة عن أصول الديانة:٣٨.

(٢)رسالة إلى أهل الثغر ص١٣٤.

(٣)مقالات الإسلاميين ص٢٩٢ ط ريتر.

(٤)غاية المرام ص١٦٧.

(٥)انظر : نهاية الإقدام للشهرستانى ص٢٠١.

(٦)تحفى المريد شرح جوهرة التوحيد ص١٢٩.

(٧)تبسيط العقائد الإسلامية ص٢٣٦.

من زيادة الكشف من كونه ذاتاً ووجوداً وذلك مما لا يستحيل تعلق العلم به حتى لا يسمى ما حصل من مزيد الكشف عليه بصرا ".. (١).

قال التفتازانى" : ورؤية الله تعالى بمعني الانكشاف التام بالبصر، وهو معني إدراك الشيء كما هو بحاسة البصر" (٢).

فالمقصود والظاهر من كلامهم أنه ليس نظراً بالأبصار كما أثبته الأشعرى والسلف الصالح، وإنما هو زيادة الكشف،كما أن بعضهم يرى أن الرؤية إدراك يخلقه الله لهم.

قال السنوسى : "إذ كما صح تفضله سبحانه بخلق إدراك لهم فى قلوبهم يسمى العلم يتعلق به على ما هو من غير جهة ولا مقابلة، كذلك يصح تفضله تعالى بخلق إدراك لهم فى أعينهم أو غيرهما يسمى ذلك الإدراك البصر"(٣).

ويقول الدردير : "الرؤية عبارة عن نوع من الإدراك يخلقه الله تعالى متى شاء ولأى شيء شاء .. فكما أن العلم إدراك، وهم يعلمونه لا فى مكان ولا فى جهة .. فكذا الرؤية نوع من الإدراك فيدركونه كذلك، ومع ذلك هو انشكاف تام"(٤).

أما الرازي فمال إلى استحالة الرؤية يوم القيامة فقال : "إن رؤية الله تعالى بالتفسير المذكور بتقدير أن تحصل فمحلها هو العين والحادقة أم جوهر النفس ؟ والأول كالمستبعد جداً، وأما أن محل ذلك الإدراك الشريف هو جوهر النفس الناطقة، فهذا أقرب إلى العقل "(٥).

هكذا تنوعت عبارات الأشاعرة فى حقيقة وماهية الرؤية، والحقيقة أنهم رغم اختلاف عباراتهم إلا أنهم اتفقوا على أن الله لا يرى بالأبصار، أنه لا مقابلة فى هذه الرؤية، ولا جهة.

وعند التحقيق لم يعدُ الأشاعرة عن إثبات اسم بلا مسمى، وقد أكثر الأشاعرة من الطعن والتشنيع على المعتزلة فى نفيهم الرؤية، علماً بأنه لا فرق بين الأشاعرة الذين يكون بأن الرؤية هى العلم، وبين خصومهم من المعتزلة.

والأشعرية فى هذا الباب بين نارين:

أولاً : النصوص الشرعية التي تثبت الرؤيا، مع تصريح علماء المذهب الأولين بإثباتها، وأنها أحد أبرز الخلافات مع المعتزلة النافين للرؤية.

ثانياً : الإلزامات التي تلزم عن إثبات الرؤية من قبل خصومهم وخاصة المعتزلة.

فقالوا لهم : إذا كان الله يرى فلابد من المقابلة بين الرئى والمرئى، ولابد من مكان وجهة للرئى والمرئى، وبالتالي يوصف الله تعالى بأوصاف المحدثات.

وكقولهم : إذا كان يرى فهل يرى كله أم بعضه، ورؤيته كله أى الإحاطة به ممتنعة، ورؤية بعضه فيه تبعيض وتجزئة له، وهو من صفات المحدثات.

وكقولهم : هل إذا رأيناه وأدرنا وجوهنا فى الخلف هل نراه فيها ؟ وهذا ما حدا ببعض الأشاعرة إلى القول بأنه يرى فى كل جهة.

وكان ينجى الأشاعرة من هذه الإلزامات أن يقولوا لخصومهم كما قال السلف الصالح من هذه الأمة : إن الله يرى بكيفية لا نعلمها نحن، ومادام الله تعالى أخبر عن نفسه أنه يرى وأخبر عنه رسوله ﷺ أنه يرى بالأبصار يوم القيامة فنحن نثبت هذه الرؤية، أما كيفيتها وصفتها فلا يعلمها إلا الله .، وليس من حقنا الخوض فيها لأنها من العلم الذى حجبه الله عنا(٦).

مسألة نفى الجهة عند الأشاعرة :

إن الأشاعرة جعلوا يداً مع المعتزلة فأنكروا العلو، وجعلوا يداً مع أهل السنة فأثبتوا الرؤية، فقالوا: إن الله يرى لا في جهة، وهذا غير معقول وغير متصور، وقد لاحظت مما تقدم من كلامهم أن إثبات الأشاعرة

---

(١)غاية المرام ص١٦٩ – ١٧٠.
(٢)شرح العقائد النسفية ص٥١.
(٣)شرح الوسطى ص٣٧٢.
(٤)شرح الخريدة البهية ص٢٠٣.
(٥)المطالب العالية ٢/٥٥.
(٦)عقائد الأشاعرة ص٣٠١ – ٣٠٢ بتصرف يسير.

للرؤية ونفي لازمها – أي الجهة - إنما هو نفي للرؤية نفسها حيث أثبتوا ما لا يمكن رؤيته، لأن نفي اللازم نفي للملزوم ، لذلك كان المعتزلة أكثر منطقية مع أنفسهم حين ذهبوا إلى نفي الأمرين فراراً من الوقوع في التناقض الذي وقع فيه الأشاعرة.

هذا وإن كان قول الأشاعرة بنفي الجهة فاسداً وممتنعاً، إلا أن مقالة المعتزلة والشيعة بنفي الرؤية والجهة أشد فساداً وأعظم امتناعاً من جهة النقل والعقل.

والذي عليه السلف الصالح أن تلك اللوازم - كالجهة والمقابلة ونحوها - ليست ممتنعة، فإذا كانت المقابلة لازمة للرؤية فهي حق، فما كان حقاً وصواباً فلازمه كذلك، لذا يقول الإمام ابن تيمية : " من ادّعى ثبوت الشيء فقد ادّعى ثبوت لوازمه، ولوازم لوازمه، وهلم جرّاً ضرورة عدم الانفكاك عنه"[١].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : "تنازع الناس في الجهة والتحيز وغير ذلك. فلفظ " الجهة " قد يراد به شيء موجود غير الله فيكون مخلوقا، كما إذا أريد بالجهة نفس العرش أو نفس السموات. وقد يراد به ما ليس بموجود غير الله تعالى، كما إذا أريد بالجهة ما فوق العال.

ومعلوم أنه ليس في النص إثبات لفظ "الجهة" ولا نفيه، كما فيه إثبات "العلو" و "الاستواء" و "الفوقية" و "العروج إليه" ونحو ذلك.

وقد عُلم أن ما ثمّ موجود إلا الخالق والمخلوق، والخالق مباين للمخلوق سبحانه وتعالى، ليس في مخلوقاته شيء من ذاته، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته.

فيقال لمن نفى الجهة : أتريد بالجهة أنها شيء موجود مخلوق، فالله ليس داخلاً في المخلوقات ؛ أم تريد بالجهة ما وراء العالم، فلا ريب أن الله فوق العالم، بائن من المخلوقات.

وكذلك يقال لمن قال : إن الله في جهة : أتريد بذلك أن الله فوق العالم، أو تريد به أن الله داخل في شيء من المخلوقات. فإن أردت الأول فهو حق، وإن أردت الثاني فهو باطل.

وكذلك لفظ "المتحيز"، إن أراد به أن الله تحوزه المخلوقات فالله أعظم وأكبر، بل قد وسع كرسيه السموات والأرض. .وإن أراد به أنه منحاز عن المخلوقات، أي مباين لها، منفصل عنها ليس حالاً فيها. فهو سبحانه كما قال أئمة السنة: فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه"[٢].

فإن أراد الأشاعرة بنفي الجهة أنه ليس في السموات رب ولا فوق العرش إله، وأن محمداً ﷺ لم يعرج به إلى ربه، وما فوق العالم إلا العدم المحض : فهذا باطل، مخالف لإجماع سلف الأمة وأئمتها.

ثم إن الثابت بالنصوص الصحيحة إثبات الرؤية لله تعالى كرؤية الشمس والقمر، قال ﷺ : "إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته. ." الحديث. وهما في جهة، وقد شبه ﷺ الرؤية بالرؤية، ثم قوله ﷺ في الحديث الآخر: " إنكم سترون ربكم عيانا "[٣]، إثبات للرؤية البصرية التي لا تتم إلا على ما كان في جهة.

ثم أن إثبات صفة العلو لله تبارك وتعالى ورد بالكتاب والسنة في مواضع كثيرة جدا فلا حرج في إثبات رؤية الله تعالى من هذا العلو الثابت له تبارك وتعالى ولا يقدح هذا في التنزيه، لأن من أثبت هذا أعلم البشر بما يستحق الله تعالى من صفات الكمال.

أما لفظ الجهة : فهو من الألفاظ المجملة التي لم يرد نفيها، ولا إثباتها بالنص. هذا هو مذهب الأشاعرة في مسألة الرؤية، وما وقع لهم من تناقض واضطراب في هذا الباب ما هو إلا نتيجة حتمية لمن أقحم العقل في علم الغيب وحكمه فيما لا يصل إليه إدراكه.

وقد أغنى الله سلف هذه الأمة وأئمتها عن كل هذه الإشكالات والاعتراضات، فأثبتوا الرؤية لله تعالى بدلالة الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والإجماع اليقينى، ومنعوا العقل من الخوض في تفصيلاتها، فآمنوا بالنقل ووضعوا العقل مكانه الذي يجب أن يكون فيه.

---

(١)تنبيه الرجل العاقل ٦٣/١ ، نقلاً عن مناظرات ابن تيمية لأهل الملل والنحل ص٧٩ جمع د/عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف ، الطبعة الأولى – الناشر : مطابع أضواء المنتدى.

(٢)التدمرية تحقيق الإثبات ص ٦٦ وما بعدها لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق د/ محمد عودة – الطبعة السادسة الناشر: مكتبة العبيكان – الرياض.

(٣)صحيح : رواه البخاري برقم ٧٤٣٥ ، والدارمى في الرد على الجهمية برقم ١٧١ ، والسنة لابن أبى عاصم برقم ٤٦١ ، والتوحيد لابن خزيمة ٤١٣/٢ وغيرهم .

ثالثاً : مذهب السلف في إثبات الرؤية:

ذهب السلف الصالح وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان ومن تبعهم من الأئمة أن الله يُرى في الآخرة بالأبصار عيانًا مواجهة لهم، بغير إحاطة ولا كيفية.

وهذا مذهب الصحابة والتابعين والأئمة وتابعوهم وأئمة الدين كالأئمة الأربعة -أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد- وسفيان الثوري وأبي عمرو والأوزاعي والليث بن سعد وأبي يوسف وغيرهم من الأئمة والعلماء وكذلك أيضًا سائر الفقهاء وأهل الحديث كلهم على هذا الاعتقاد، يثبتون أن الله يرى في الآخرة بالأبصار عيانًا مواجهة، فهم يثبتون رؤية الله بالإبصار ويثبتون أيضًا الفوقية، وأنهم يرون ربهم من فوقهم فهم يثبتون الأمرين يثبتون الفوقية والعلو ويثبتون الرؤية.

وقد واستدلوا بالنصوص الكثيرة من كتاب الله وسنة رسولهﷺ ، واستدلوا أيضاً بالإجماع والعقل الصريح.

١- الأدلة من كتاب الله تعالى:

- قول الله تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)} [القيامة : ٢٢ - ٢٣]، ووجه الدلالة من الآية على أن الله يرى في الآخرة أنه سبحانه وتعالى قد أضاف النظر إلى الوجه الذي هو محله وعداه بأداة إلى الصريحة في نظر العين وأخلى الكلام من قرينة تدل على خلاف موضوعه وحقيقته، فدل على أن المراد النظر بالعين التي في الوجه إلى الرب -جل جلاله.

وليس يخلو النظر من وجوه نحن ذاكروها : إما أن يكون الله سبحانه عنى نظر الاعتبار، كقوله تعالى: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ} [الغاشية : ١٧]، أو يكون عنى نظر الانتظار، كقوله تعالى: {مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ} [يس : ٤٩]، أو يكون عنى نظر التعطف، كقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [آل عمران : ٧٧]، و يكون عنى نظر الرؤية.

فلا يجوز أن يكون الله عز وجل عنى نظر التفكير والاعتبار؛ لأن الآخرة ليست بدار اعتبار.

ولا يجوز أن يكون عنى نظر الانتظار؛ لأن النظر إذا ذكر مع ذكر الوجه فمعناه نظر العينين اللتين في الوجه، كما إذا ذكر أهل اللسان نظر القلب فقالوا: " انظر في هذا الأمر بقلبك "، لم يكن معناه نظر العينين، وكذلك إذا ذكر النظر مع الوجه لم يكن معناه نظر الانتظار؛ الذي يكون للقلب، وأيضا فإن نظر الانتظار لا يكون في الجنة؛ لأن الانتظار معه تنغيص وتكدير، وأهل الجنة في ما لا عين رأت ولا أذن سمعت من العيش السليم والنعيم المقيم.

وإذا كان هذا هكذا لم يجز أن يكونوا منتظرين؛ لأنهم كلما خطر ببالهم شيء أتوا به مع خطوره ببالهم، وإذا كان ذلك كذلك فلا يجوز أن يكون الله عز وجل أراد نظر التعطف؛ لأن الخلق لا يجوز أن يتعطفوا على خالقهم.

وإذا فسدت الأقسام الثلاثة صح القسم الرابع من أقسام النظر، وهو أن معنى قوله: {إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} [القيامة : ٢٣]، أنها رائية ترى ربها عز وجل(١).

- قول الله تعالى: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [يونس : ٢٦]، والحسنى المراد بها الجنة، والزيادة النظر وإلى وجه الله الكريم كما جاء تفسير ذلك في الحديث الصحيح عَنْ صُهَيْبٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ)، قَالَ:" إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، نَادَى مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَوْعِدًا يُرِيدُ أَنْ يُنْجِزَكُمُوهُ، فَيَقُولُونَ: وَمَا هُوَ؟ أَلَمْ يُثَقِّلْ مَوَازِينَنَا، وَيُبَيِّضْ وُجُوهَنَا، وَيُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَيُجِرْنَا مِنَ النَّارِ " قَالَ :فَيُكْشَفُ لَهُمُ الْحِجَابُ فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ" قَالَ :"فَوَاللَّهِ مَا أَعْطَاهُمْ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ، وَلَا أَقَرَّ لِأَعْيُنِهِمْ "(٢).

وقد أورد القرطبي في الزيادة أقوالا، فراجع التفسير، وتفقد أسانيدها(٣).

---

(١)الإبانة ٣٥/١ وما بعدها.

(٢)صحيح : رواه مسلم برقم ١٨١ ، والترمذي برقم ٢٥٥٢ ، وابن ماجه برقم ١٨٧ ، وأحمد برقم ١٨٩٤١ وغيرهم.

(٣) انظر: تفسير القرطبي ٨ / ٣٣١. من تلك الأقوال:

- أن الزيادة أن تضاعف الحسنات الحسنة بعشر أمثالها إلى أكثر من ذلك

- قول الله تعالى: {لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ} [ق : ٣٥]، المؤمنون لهم ما يشاءون فيها، أي: الجنة ولدينا مزيد هي رؤية الله في الآخرة، فسرها العلماء بأن المزيد هو رؤية الله في الآخرة.
فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ {وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ} قَالَ: "يَظْهَرُ لَهُمُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"(١).
قال العلامة الشنقيطى : قال بعض العلماء: المزيد النظر إلى وجه الله الكريم، ويستأنس لذلك بقوله تعالى: للذين أحسنوا الحسنى وزيادة، لأن الحسنى الجنة، والزيادة النظر(٢).
- قوله تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ} [الأعراف : ١٤٣].
وقد تقدم الكلام على وجه الدلالة فى هذه الآية فى الرد على المعتزلة من كلام الإمام ابن أبى العز الحنفى.
- قوله تعالى: {كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ (١٦)} [المطففين : ١٥ - ١٦]، فلو كان المؤمنون كلهم والكافرون كلهم لا يرونه، كانوا جميعاً عنه محجوبين.
قال الإمام أحمد رحمه الله : فإذا كان الكافر يحجب عن الله، والمؤمن يحجب عن الله، فما فضل المؤمن على الكافر؟(٣) وقيل لسفيان بن عيينة : إن بشرا يقول: إن الله لا يرى يوم القيمة، فقال: قاتله الله، دويبة، ألم يسمع الله يقول: {كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون}، فجعل احتجابه عنهم عقوبة لهم فإذا احتجب عن الأولياء والأعداء، فأي فضل للأولياء على الأعداء ؟(٤)
- قوله تعالى: {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [الأنعام : ١٠٣]، قال شيخ الإسلام : نفى الإدراك الذي هو الإحاطة وذلك يقتضي كمال عظمته وأنه بحيث لا تدركه الأبصار فهو يدل على أنه إذا رئي لا تدركه الأبصار وهو يقتضي إمكان رؤيته ونفى إدراك الأبصار إياه لا نفي رؤيته فهو دليل على إثبات الرؤية ونفي إحاطة الأبصار به وهذا يناقض قول النفاة وأما مجرد الرؤية فليست صفة مدح فإن المعدوم لا يرى ولهذا نظائر في القرآن(٥).
قال ابن القيم : والاستدلال بهذا أعجب فإنه من أدلة النفاة وقد قرر شيخنا وجه الاستدلال به أحسن تقرير وألطفه وقال لي أنا ألتزم أنه لا يحتج مبطل بآية أو حديث صحيح على باطله إلا وفي ذلك الدليل ما يدل على نقيض قوله فمنها هذه الآية .. إلى أن قال : فلو كان المراد بقوله لا تدركه الأبصار أنه لا يرى بحال لم يكن في ذلك مدح ولا كمال لمشاركة المعدوم له في ذلك فان العدم الصرف لا يرى ولا تدركه الأبصار والرب جل جلاله يتعالى إن يمدح بما يشاركه فيه العدم المحض فإذا المعنى أنه يرى ولا يدرك ولا يحاط به .. (٦).
- قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام في محاجة قومه في النجوم: {فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨)} [الأنعام : ٧٦ - ٧٨] .

روى ذلك عن ابن عباس .
- وعن علي رضي الله عنه: الزيادة غرفة من لؤلؤة واحدة لها أربعة آلاف باب .
- وقال مجاهد : الحسنى حسنة مثل حسنة والزيادة مغفرة من الله ورضوان.
- وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الحسنى الجنة والزيادة ما أعطاهم الله في الدنيا من فضله لايحاسبهم به يوم القيامة .
- قال يزيد بن شجرة . الزيادة أن تمر السحاب بأهل الجنة فتمطرهم من كل النوادر التي لم يروها وتقول يا أهل الجنة ما تريدون أن أمطركم فلا يريدون شيئا إلا مطرتهم.

(١)أخرجه اللالكائى فى شرح اعتقاد أهل السنة برقم ٨١٣ ، والبزار فى مسنده برقم ٧٥٢٨.
(٢)أضواء البيان ٤٣١/٧ ، طبعة دار الفكر – بيروت لبنان.
(٣)الرد على الجهمية والزنادقة ص١٣٣ ت/صبري بن سلامة شاهين.
(٤) نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد ٦٦/١.
(٥)الصدفية ٦٥/٢.
(٦)حادى الأرواح لابن القيم ص٢٩٤ ، الناشر: مطبعة المدني، القاهرة.

وجه الدلالة أن الخليل عليه السلام حاج قومه في النجوم وبين أنها تأفل وتغيب، في حين أن الرب لا يغيب ولا يأفل ثم قال في ذلك لا أحب الآفلين ولم يحاجهم بأنه لا يحب ربا يرى، ولكن حاجهم بأن لا يحب ربا يأفل وهذا هو دليل عدم الدوام وهو الذي يمتنع على الله تبارك وتعالى أما الرؤية فلا، حيث لم يجعلها الخليل من موانع الربوبية كالأفول والغيبة(١).

٢- الأدلة من السنة:-

عَنْ جَرِيرٍ، قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم-إِذْ نَظَرَ إِلَى القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ قَالَ " :إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا القَمَرَ، لاَ تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ .. "(٢).

وعنه رضى الله عنه قالَ: قَالَ النَّبِيُّ-صلى الله عليه وسلم- :"إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ عِيَانًا"(٣).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ النَّاسَ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ القِيَامَةِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : ﷺ "هَلْ تُضَارُّونَ فِي القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ؟"، قَالُوا: لاَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ :"فَهَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ، لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟"، قَالُوا: لاَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ :"فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ"، يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيَقُولُ: مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتْبَعْهُ، .. الحديث"(٤).

ليس تشبيه رؤية الله تعالى برؤية الشمس والقمر تشبيها لله بل هو تشبيه الرؤية بالرؤية لا تشبيه المرئي بالمرئي ولكن فيه دليل على علو الله على خلقه وإلا فهل تعقل رؤية بلا مقابلة؟ ومن قال : يرى لا في جهة. فليراجع عقله.

وإلا فإذا قال يرى لا أمام الرائي ولا خلفه ولا عن يمينه ولا عن يساره ولا فوقه ولا تحته، رد عليه كل من سمعه من أصحاب الفطرة السليمة.

وعَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ قَيْسٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ :"جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا، وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا، وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ القَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءُ الكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ"(٥).

وعَنْ صُهَيْبٍ عَنِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم-قَالَ " : إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعالى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ : أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا ؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ ؟ قَالَ : فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ"(٦).

وعَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : -صلى الله عليه وسلم- ":ثُمَّ لَيَقِفَنَّ أَحَدُكُمْ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ حِجَابٌ وَلاَ تَرْجُمَانٌ يُتَرْجِمُ لَهُ، ثُمَّ لَيَقُولَنَّ لَهُ: أَلَمْ أُوتِكَ مَالًا؟ فَلَيَقُولَنَّ: بَلَى، ثُمَّ لَيَقُولَنَّ أَلَمْ أُرْسِلْ إِلَيْكَ رَسُولًا؟ فَلَيَقُولَنَّ: بَلَى، .. الحديث"(٧).

والشاهد في الحديث قوله: (وليس بينه وبينه حجاب) هذا صريح في الرؤية.

هذه أمثلة من النصوص المتواترة، وهي كثيرة كما سبق رواها نحو ثلاثين صحابيًا في الصحاح والسنن والمسانيد، وهي صريحة في رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة.

٣- أما الإجماع:

قد نقل الإجماع غير واحد من أهل العلم يقول الإمام عبد الغنى المقدسى : وأجمع أهل الحق واتفق أهل التوحيد والصدق أن الله تعالى يرى في الآخرة كما جاء في كتابه وصح عن رسوله(٨).

وقال الإمام ابن أبى العز الحنفي :وقد قال بثبوت الرؤية الصحابة والتابعون، وأئمة الإسلام المعروفون بالإمامة في الدين، وأهل الحديث، وسائر طوائف أهل الكلام المنسوبون إلى السنة والجماعة (١).

---

(١)انظر : التوحيد للماتريدى ص٧٨ ، طبعة دار الجامعات المصرية – الإسكندرية .

(٢)صحيح : رواه البخاري برقم ٧٤٣٤ ، ومسلم برقم ٦٣٣ ، وأبو داود برقم ٤٧٢٩ ، والترمذي برقم ٢٥٥١ وغيرهم .

(٣)صحيح : رواه البخاري برقم ٧٤٣٥ ، والدارمى في الرد على الجهمية برقم ١٧١ ، والسنة لابن أبى عاصم برقم ٤٦١ ، والتوحيد لابن خزيمة ٤١٣/٢ وغيرهم .

(٤)صحيح : تقدم تخريجه .

(٥) صحيح : رواه البخاري برقم ٧٤٤٤ ، ومسلم برقم ١٨٠ ، والترمذي برقم ٢٥٢٨ ، وابن ماجه برقم ١٨٦وغيرهم .

(٦)صحيح : رواه مسلم برقم ١٨١ ، والترمذي برقم ٢٥٥٢ ، وابن ماجه برقم ١٨٧وأحمد برقم ١٨٩٣٦ وغيرهم .

(٧) .صحيح: رواه البخاري برقم ١٤١٣ وغيره .

(٨)عقيدة الحافظ عبد الغنى المقدسي ص٥٨

وقال الإمام النووي : قد تظاهرت أدلة الكتاب والسنة وإجماع الصحابة فمن بعدهم من سلف الأمة على إثبات رؤية الله تعالى في الآخرة للمؤمنين(٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : وأما الجهمية من المعتزلة وغيرهم فيمتنع على أصلهم لقاء الله ؛ لأنه يمتنع عندهم رؤية الله في الدنيا والآخرة وخالفوا بذلك ما تواترت به السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم وما اتفق عليه الصحابة وأئمة الإسلام من أن المؤمنين يرون ربهم في الآخرة(٣).

٤- أقوال الأئمة في إثبات الرؤية:

قال الإمام أبو حنيفة رحمه الله : والله تعالى يرى في الآخرة ويراه المؤمنون وهم في الجنة بأعين رؤوسهم بلا تشبيه ولا كيفية ولا يكون بينه وبين خلقه مسافة(٤).

وعن عبد الله بن وهب قال :قال مالك رحمه الله : "الناس ينظرون إلى الله تعالى يوم القيامة بأعينهم"(٥).

قال الإمام الحسن : ينظرون إلى الله عز وجل كما شاء بلا إحاطة(٦).

قال الإمام أبو بكر الخلال فى عقيدة الإمام أحمد رحمه الله : وكان يذهب إلى أن الله تعالى يرى في الآخرة بالأبصار وقرأ {وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة} ولو لم يرد النظر بالعين ما قرنه بالوجه وأنكر نظر التعطف والرحمة لأن الخلق لا يتعطفون على الله تعالى ولا يرحمونه وأنكر الانتظار من أجل ذكر الوجه ومن أجل أنه تبعيض وتكرير ولأنه أدخل فيه إلى وإذا دخلت إلى فسد الانتظار.. (٧).

وعن الوليد بن مسلم، يقول: سألت الأوزاعي وسفيان الثوري، ومالك بن أنس، والليث بن سعد عن هذه الأحاديث التي فيها الرؤية , فقالوا: "أمروها بلا كيف"(٨).

وقال الإمام الطحاوى رحمه الله : والرؤية حق لأهل الجنة بغير إحاطة ولا كيفية كما نطق به كتاب ربنا {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ(٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ(٢٣)} [القيامة : ٢٢-٢٣]، وتفسيره على ما أراده الله تعالى وعلمه وكل ما جاء في ذلك من الحديث الصحيح عن الرسول ﷺ فهو كما قال ومعناه على ما أراد لا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا ولا متوهمين بأهوائنا فإنه ما سلم في دينه إلا من سلم لله عز وجل ولرسوله ﷺ ورد علم ما اشتبه عليه إلى عالمه (٩).

وقال الإمام الأصبهانى الملقب "بقوام السنة" : مذهب أهل السنة أن الله عز وجل يكرم أولياءه بالرؤية، يرونه بأعينهم كما شاء فضلاً منه ومنة(١٠).

قال الإمام الأشعري :وأجمعوا على أن المؤمنين يرون الله عز وجل يوم القيامة بأعين وجوههم على ما أخبر به تعالى في قوله تعالى{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ}(١١).

قال الإمام أبو بكر الإسماعيلى : ويعتقدون جواز الرؤية من العباد المتقين لله عز وجل في القيامة، دون الدنيا . (١٢).

قال الإمام ابن القيم : وأما الأحاديث عن النبي ﷺ وأصحابه الدالة على الرؤية، فمتواترة رواها عنه أبو بكر الصدّيق، وأبو هريرة الدوسي، وأبو سعيدٍ الخدريُّ .. ثم ساق نحواً من ثلاثين اسماً للصحابة رضوان الله تعالى عليهم.

---

(١) شرح الطحاوى ص١٥٣ ط الأوقاف السعودية
(٢)شرح النووي على مسلم ١٥/٣ .
(٣)مجموع الفتاوى ٤٦٩/٦
(٤)الفقه الأكبر ص ٥٥
(٥) أخرجه الآجرى في الشريعة برقم ٥٧٤ ، واللالكائى فى شرح اعتقاد أهل السنة برقم ٨٧٠ ، وابن بطة في الإبانة ٥٢/٧ ، والبغوى في شرح السنة – باب رؤية الله ٢٢٩/١٥ .
(٦)الإبانة الكبرى لابن بطة ٥١/٧ .
(٧)العقيدة للإمام أحمد رواية أبى بكر الخلال ص١١١.
(٨)أخرجه اللالكائى فى شرح السنة برقم ٨٧٥.
(٩) متن الطحاوية بتعليق الألباني ص٤٣ .
(١٠)الحجة فى بيان المحجة ٥٢٤/٢ .
(١١)رسالة إلى أهل الثغر ص١٣٤.
(١٢)اعتقاد أئمة الحديث للجرجانى ص٦٣.

إلى أن قال رحمه الله : فصل : وأما التابعون، ونزل الإسلام، وعصابة الإيمان منهم أئمة الحديث والفقه والتفسير وأئمة التَّصوُّف، فأقوالهم أكثرُ من أن يُحيط بها إلاّ الله عزَّ وجلَّ. .ثم ساق الآثار والأقوال عن سعيد بن المسيب، والحسن البصرى، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، وعكرمة ومجاهد وقتادة والسدي والضحاك وطاووس، وعمر بن عبد العزيز، والأعمش وسعيد بن جبير، وكعب الأحبار، وأبي إسحاق السبيعي، وعلي بن المديني، وعبد الله بن المبارك،وشريك بن عبد الله، والأئمة الأربعة – أبى حنيفة ومالك والشافعى وأحمد -، والأوزاعي وسفيان الثوري والليث بن سعد وسفيان بن عيينة، ووكيع بن الجَّراح وقتيبة بن سعيدٍ، وأبي عبيدٍ القاسم بن سلام، وغيرهم، ثم ساق قول جميع أهل اللغة[١].

هذه كانت أهم الأقوال والمذاهب فى مسألة الرؤية إلا أن هناك مذهب رابع، وهو لبعض المتصوفة، يقولون بأن الله تعالى يرى في الدنيا عياناً كما يرى فى الآخرة عياناً.

ولايوجد أي دليل شرعي يستند عليه من زعم الرؤية لهم بالبصر، بل الأدلة على نقيضه تماماً، فهذا نبي الله موسى عليه السلام عندما سأل الله جل وعلا رؤيته{قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي}[الأعراف: ١٤٣]، أي: " وليس لبشر أن يطيق أن ينظر إلي في الدنيا"[٢]، أفهم خيرٌ من موسى عليه السلام، أم أشد من الجبل الذي قال تعالى فيه {فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا}[الأعراف:١٤٣]، أي: مستويا بالأرض"[٣]، {وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا}[الأعراف: ١٤٣]، أي: " مغشيا عليه"[٤]، كما يرد عليهم بحديث النبي " ﷺ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَنْ يَرَى أَحَدٌ مِنْكُمْ رَبَّهُ حَتَّى يَمُوتَ "[٥]، ففي هذا دلالة على أن الله جل وعلا لا يرى في الدنيا.

يقول القشيري: " فإن قيل: فهل تجوز رؤية الله في الأبصار في الدنيا على جهة الكرامة؟ فالجواب عنه: أن الأقوى فيه أنه لا يجوز، لحصول الإجماع عليه"[٦].

ويقول الكلاباذي:" ولا نعلم أحدا من مشايخ هذه العصبة المعروفين منهم والمتحققين به، ولم نر في كتبهم، ولا مصنفاتهم ولا رسائلهم، ولا في الحكايات الصحيحة عنهم، ولا سمعنا ممن أدركنا منهم زَعَمَ أن الله تعالى يرى في الدنيا.. وقد أطبق المشايخ كلهم على تضليل من قال ذلك، وتكذيب من ادعاه، وصنفوا في ذلك كتبا،منهم أبو سعيد الخراز، وللجنيد في تكذيب من ادعاه وتضليله رسائل وكلام كثير. وزعموا أن من ادعى ذلك لم يعرف الله عز وجل وهذه كتبهم تشهد على ذلك"[٧].

وقد اتفق أهل السنة والجماعة على أنه لا يرى أحد ربه فى الدنيا إلا ما كان من الخلاف فى رؤية النبي –صلى الله عليه وسلم-ربه فى المعراج، والله تعالى أعلم وبالله التوفيق.

الفوائد:

١. من فوائد الآية: تذكير الله تعالى بني إسرائيل بنعمته عليهم، حيث بعثهم من بعد موتهم.

٢ . ومنها: سفاهة بني إسرائيل؛ وما أكثر ما يدل على سفاهتهم؛ فهم يؤمنون بموسى، ومع ذلك قالوا: {لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة}.

٣ . ومنها: أن من سأل ما لا يمكن فهو حري بالعقوبة؛ لقوله تعالى: {فأخذتكم الصاعقة}؛ لأن الفاء تدل على السببية . ولا سيما في مثل حال هؤلاء الذين قالوا هذا عن تشكك؛ وفرْق بين قول موسى عليه السلام: {رب أرني أنظر إليك} [الأعراف: ١٤٣]، وبين قول هؤلاء: {لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة}؛ فموسى قال ذلك شوقاً إلى الله عزّ وجلّ، وليتلذذ بالرؤية إليه؛ أما هؤلاء فقالوه تشككاً . يعني: لسنا بمؤمنين إلا إذا رأيناه جهرة؛ ففرق بين الطلبين.

٤ . ومنها: أن ألم العقوبة، ووقعها إذا كان الإنسان ينظر إليها أشد؛ لقوله تعالى: {وأنتم تنظرون}؛ فإن الإنسان إذا رأى الناس يتساقطون في العقوبة يكون ذلك أشد وقعاً عليه.

---

(١)انظر : حادي الأرواح ٢٩٦ وما بعدها – ٣٣٣ وما بعدها .

(٢) أخرجه الطبري عن أبي بكر الهذلي: ٤١٩/١٠.

(٣) تفسير الطبري: ٤٢٧/١٠.

(٤)تفسير الطبري: ٤٢٧/١٠.

(٥)صحيح : أخرجه مسلم برقم ١٩٦ ، والترمذي برقم ٢٢٣٥ ، وأحمد برقم ٢٣٦٧٢ وغيرهم من حديث عمرو بن ثابت الأنصاري عن بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.

(٦) الرسالة القشيرية: ٣٦٠.

(٧) التعرف لمذهب أهل التصوف: ٢٦.

القرآن

{ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦)} [البقرة : ٥٦]

التفسير:

ثم أحييناكم مِن بعد موتكم بالصاعقة؛ لتشكروا نعمة الله عليكم، فهذا الموت عقوبة لهم، ثم بعثهم الله لاستيفاء آجالهم.

قوله تعالى: {ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ}[البقرة:٥٦]، أي " ثمّ أحييناكم"(١).

قال قتادة:" ثم بعثهم الله تعالى، ليكملوا بقية آجالهم"(٢).

وقال الربيع بن أنس:" فبعثوا من بعد موتهم، لأن موتهم ذاك كان عقوبة لهم، فبعثوا لبقية آجالهم "(٣).

واختلف أهل العلم في أصل (البعث) على أربعة أقوال(٤):

الأول: أن أصله: إثارة الشيء من محله(٥)، يقال : بعثت الناقة : أثرتها، أي حركتها، قال امرؤ القيس(٦):

وفتيان صدق قد بعثت بسحرة ... فقاموا جميعا بين ونشوان

وقال عنترة(٧) :

وصحابة شم الأنوف بعثتهم ... ليلا وقد مال الكرى بطلاها

ومنه قول الآخر(٨):

فأبعثها وهيَّ صنيعُ حول ... كركن الرَّعنِ، ذِعْلِبَةً وَقاحا

والثاني: أن البعث: الإرسال، ومنه قوله تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} [النحل : ٣٦]، وقوله : {ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى}[الأعراف: ١٠٣]، و[يونس:٧٥].

والثالث: وقيل: أن أصله: الإفاقة من الغشي أو النوم، قال تعالى: {وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا} [الكهف : ١٩] .

والرابع: وقد تأتي بمعنى: التعليم من بعد الجهل، قال تعالى: {ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ} [البقرة : ٥٦] أي: "علمناكم من بعد جهلكم"(٩).

والقدر المشترك بين هذه المعاني هو إزالة ما يمنع عن التصرف(١٠).

والقول الأول أصح، وهو اختيار الإمام القرطبي، لأن الأصل الحقيقة، وكان موت عقوبة، ومنه قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ} على ما يأتي [البقرة : ٢٤٣].

واختلف في قوله {ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ}[البقرة:٥٦]، على قولين(١١):

أحدهما: أن المراد: ثم أحييناكم. يعني: إحياؤهم بعد موتهم لاستكمال آجالهم، وهذا قول قتادة(١٢)، والربيع بن أنس(١٣).

---

(١) تفسير الطبري: ٨٥/٢.

(٢) أخرجه الطبري(٩٦٠):ص٨٩/٢.

(٣) أخرجه الطبري(٩٦١):ص٨٩/٢.

(٤)انظر: تفسير القرطبي: ٤٠٤/١-٤٠٥، وتفسير الثعلبي: ٥٤٢/٢-٥٤٣.

(٥) انظر: تفسير القرطبي: ٤٠٤/١-٤٠٥.

(٦) ديوان امرؤ القيس، حسن السندوبي و آخرون، دار إحياء العلوم، بيروت، ط١، ١٩٩٠: ٢٣٠.

(٧) ديوانه: ٧٥، وشم الأنوف: أعزاء لا يحتملون ضيماً. طلاها أعناقها.

(٨) لم أتعرف على قائله، والبيت من شواهد الطبري في تفسيره: ٨٤/٢.

(٩) تفسير القرطبي: ٤٠٥/١.

(١٠) انظر: البحر المحيط في التفسير: ٣٣١/١.

(١١) انظر: تفسير الطبري: ٨٥/٢، والنكت والعيون: ١٢٣/١.

(١٢) أنظر: تفسير الطبري(٩٦٠):ص٨٩/٢.

(١٣) أنظر: تفسير الطبري(٩٦١):ص٨٩/٢.

والثاني: أن المراد: ثم بعثناكم أنبياء. يعني: أنهم بعد الإحياء سألوا أن يبعثوا أنبياء فبعثهم الله أنبياء، وهذا قول السُّدِّيِّ[١] .

والصحيح هو الجمع بين القولين، فيكون تفسير الآية: {فأخذتكم الصاعقة}، ثم أحييناكم {من بعد موتكم}، {وأنتم تنظرون}، إلى إحيائنا إياكم من بعد موتكم، {ثم بعثناكم}، أنبياء {لعلكم تشكرون}"[٢].

قوله تعالى: {مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ} [البقرة : ٥٦]، أي: "من بعد موتكم بالصاعقة التي أهلكتكم"[٣].

قال الثعلبي:"أي: "لتستوفوا بقيّة آجالكم وأرزاقكم"[٤].

قوله تعالى: {لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [البقرة : ٥٦]، أي: "لتشكروا الله سبحانه وتعالى"[٥].

قال النسفي: " نعمة البعث بعد الموت"[٦].

قال الصابوني: " أي لتشكروا الله على إنعامه عليكم بالبعث بعد الموت"[٧].

قال النحاس : وهذا احتجاج على من لم يؤمن بالبعث من قريش، واحتجاج على أهل الكتاب إذ خبروا بهذا، والمعنى {لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} ما فعل بكم من البعث بعد الموت"[٨].

وذكر أهل التفسير في قوله تعالى: {لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [البقرة : ٥٦]، وجهين[٩]:

أحدهما: أن الشكر خاص، لنعمة البعث بعد الموت.

والثاني: أن الشكر عام، على هذه النعمة وسائر نعمه التي أسداها إليهم[١٠].

والثالث: أن المعنى: لعلكم تشكرون نعمة الله بعدما كفرتموها إذا رأيتم بأس الله في رميكم بالصاعقة وإذاقتكم الموت.

والرابع: وقيل: الشكر على إنزال التوراة التي فيها ذكر توبته عليهم، وتفصيل شرائعه، بعد أن لم يكن شرائع. ضعّفه أبو حيان وقال: "وهذا بعيد"[١١].

والصحيح أن لفظ الشكر عام، "يتناول جميع الطاعات لقوله تعالى: {اعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا}[سبأ:١٣]"[١٢].

قال ابن كثير: "وهذا السياق يدل على أنهم كلفوا بعد ما أحيوا"[١٣].

وقال الماوردي واختلف في بقاء تكليف من أعيد بعد موته ومعاينته الأحوال المضطرة إلى المعرفة، على قولين[١٤]:

أحدهما : أنه سقط التكليف عنهم لمعاينتهم الأمر جهرة حتى صاروا مضطرين إلى التصديق.

والثاني : أنهم مكلفون لئلا يخلو عاقل من تكليف.

قال القرطبي : "والأول أصح فإن بني إسرائيل قد رأوا الجبل في الهواء ساقطا عليهم والنار محيطة بهم وذلك مما اضطرهم إلى الإيمان وبقاء التكليف ثابت عليهم ومثلهم قوم يونس. ومحال أن يكونوا غير مكلفين. والله أعلم"[١٥].

---

(١) أنظر: تفسير الطبري(٩٥٥):٨٥/٢.
(٢) تفسير الطبري: ٨٥/٢.
(٣) تفسير الطبري: ٨٥/٢.
(٤) تفسير الثعلبي: ٢٠٠/١.
(٥) تفسير ابن عثيمين: ١٩٣/١. (بتصرف بسيط).
(٦) تفسير النسفي: ٦٥/١.
(٧) صفوة التفاسير: ٥٢/١.
(٨) تفسير القرطبي: ٤٠٥/١، وانظر: تفسير الطبري:٨٤/٢.
(٩) أنظر: الكشاف: ١٤٢/١، والبحر المحيط: ١٧٩/١.
(١٠) منها: إرسالهم أنبياء ، أو إثارتهم من الغشي ، أو تعليمهم بعد الجهل.
(١١) البحر المحيط: ١٧٩/١.
(١٢) مفاتيح الغيب: ٥٢١/٣، وقاله أبو الفضل السلمي صاحب المنتخب، نقلا عن البحر المحيط: ٢٠٣/١.
(١٣) تفسير ابن كثير: ٢٦٦/١.
(١٤) نقل عنه القرطبي في تفسيره: ٤٠٥/١. ط٢، دار الكتب المصرية، ونقله كذلك عنه أبو حيان في البحر المحيط: ٢٠٣/١. ولم أقف عليه في النمت والعيون.
(١٥) تفسير القرطبي: ٤٠٥/١.

قال الزجاج:" وفي هذه الآية ذكر البعث بعد موت وقع في الدنيا، مثل قوله تعالى: {فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ}[البقرة:٢٥٩]، ومثل قوله عزَّ وجلَّ: {فَقَالَ لَهُم اللَّهُ مُوتوا ثم أحْيَاهُمْ}[البقرة:٢٤٣]، وذلك احتجاج على مشركي العرب الذين لمْ يكُونوا مُوقنين بالبعث، فأتى النبي - صلى الله عليه وسلم - بالأخبار عمن بعث بعد الموت في الدنيَا مما توافقه عليه إليهود والنصارى، وأرباب الكتب فاحتج- صلى الله عليه وسلم - بحجة اللَّه التي يوافقه عليها جميع من خالفه من أهلِ الكتب"[١].

قال ابن عثيمين:" وهذه إحدى الآيات الخمس التي في سورة البقرة التي فيها إحياء الله تعالى الموتى؛ والثانية: في قصة صاحب البقرة؛ والثالثة: في الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، فقال الله لهم: {موتوا ثم أحياهم} [البقرة: ٢٤٣] ؛ والرابعة: في قصة الذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها، فقال: {أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه} [البقرة: ٢٥٩] ؛ والخامسة في قصة إبراهيم: {رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ..} [البقرة: ٢٦٠] الآية؛ والله تعالى على كل شيء قدير، ولا ينافي هذا ما ذكر الله في قوله تعالى: {ثم إنكم بعد ذلك لميتون * ثم إنكم يوم القيامة تبعثون} [المؤمنون: ١٥، ١٦] ؛ لأن هذه القصص الخمس، وغيرها. كإخراج عيسى الموتى من قبورهم. تعتبر أمراً عارضاً يؤتى به لآية من آيات الله سبحانه وتعالى؛ أما البعث العام فإنه لا يكون إلا يوم القيامة؛ ولهذا نقول في شبهة الذين أنكروا البعث من المشركين، ويقولون: {متى هذا الوعد إن كنتم صادقين} [الأنبياء: ٣٨]، ويقولون: {فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين} [الدخان: ٣٦] نقول: إن هؤلاء مموهون؛ فالرسل لم تقل لهم: إنكم تبعثون الآن؛ بل يوم القيامة؛ ولينتظروا، فسيكون هذا بلا ريب"[٢].

الفوائد:

١. من فوائد الآية: وجوب الشكر على من أنعم الله عليه بنعمة؛ لقوله تعالى: {لعلكم تشكرون}؛ والشكر هو القيام بطاعة المنعم إقراراً بالقلب، واعترافاً باللسان، وعملاً بالأركان؛ فيعترف بقلبه أنها من الله، ولا يقول: إنما أوتيته على علم عندي؛ كذلك أيضاً يتحدث بها بلسانه اعترافاً . لا افتخاراً؛ وكذلك أيضاً يقوم بطاعة الله سبحانه وتعالى بجوارحه؛ وبهذه الأركان الثلاثة يكون الشكر؛ وعليه قول الشاعر[٣]:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة   يدي ولساني والضمير المحجبا

٢- ومن فوائد الآية: إثبات الحكمة لله تعالى: لقوله: {لعلكم تشكرون}؛ فإن "لعل" هنا للتعليل المفيد للحكمة.

القرآن

{وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧)} [البقرة : ٥٧]

التفسير:

واذكروا نعمتنا عليكم حين كنتم تتيهون في الأرض؛ إذ جعلنا السحاب مظللا عليكم من حَرِّ الشمس، وأنزلنا عليكم المنَّ، وهو شيء يشبه الصَّمغ طعمه كالعسل، وأنزلنا عليكم السَّلوى وهو طير يشبه السُّمانَى، وقلنا لكم: كلوا من طيِّبات ما رزقناكم، ولا تخالفوا دينكم، فلم تمتثلوا. وما ظلمونا بكفران النعم، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون؛ لأن عاقبة الظلم عائدة عليهم.

قوله تعالى: {وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ}[البقرة:٥٧]، "أي ستَرناكم بالسحاب من حر الشمس وجعلناه عليكم كالظلَّة"[٤].

قال الثعلبي: "في التيه تقيكم حرّ الشمس"[٥].

---

(١) معاني القرآن: ١٣٨/١.

(٢) تفسير ابن عثيمين:١٩٣/١.

(٣) لم أتعرف على قائله، والبيت في الصحاح:١٧١/٥، والمستطرف: ٥٠٥/١، وشرح التسهيل: ٥٦/١، وتفسير الكشاف:(١٠٩/١)، وتفسير ابن كثير:(١٢٨/١)، وتفسير البيضاوي:(٧٧/١)، وتفسير أبي السعود:(١٨/١)، وتفسير النسفي:(٥/١)، ونواهد الأبكار وشوارد الأفكار: ١٥٧/١.

والمعنى: أفادتكم أنعاماتكم علي ثلاثة أشياء: المكافأة باليد ونشر المحامد باللسان، ووقف الفؤاد على المحبة والاعتقاد.

(٤) صفوة التفاسير: ٥٢/١.

(٥) تفسير الثعلبي: ٢٠٠/١.

قال ابن عثيمين:" أي جعلناه ظلاً عليكم؛ وكان ذلك في التيه حين تاهوا؛ وقد بقوا في التيه بين مصر والشام أربعين سنة يتيهون في الأرض؛ وما كان عندهم ماء، ولا مأوى؛ ولكن الله تعالى رحمهم، فظلل عليه الغمام"[١].

قال ابن عباس:"ثم ظلل عليهم في التيه بالغمام"[٢]. وروي عن ابن عمر والربيع أنس وأبي مجلز والضحاك والسدي نحو ذلك[٣].

و(الْغَمَامَ): جمع (غمامة)، كما السحاب جمع سحابة،(والغمام) هو ما غم السماء فألبسها من سحاب وقتام، وغير ذلك مما يسترها عن أعين الناظرين . وكل مغطى فالعرب تسميه مغموما[٤]، وأصل الغمام من (الغم): ستر الشيء، ومنه: الغمام لكونه ساترا لضوء الشمس. قال تعالى: {يأتيهم الله في ظلل من الغمام} [البقرة:٢١٠]. والغمى مثله، ومنه: غم الهلال، ويوم غم، وليلة غمة وغمى، قال الشاعر[٥]:

ليلة غمى طامس هلالها ... أو غلتها ومكره إيغالها

وغمة الأمر أي كربة، ومنه قوله تعالى: {ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً} [يونس : ٧١]، يقال: غم وغمة. أي: كرب وكربة، والغمامة: خرقة تشد على أنف الناقة وعينها، وناصية غماء: تستر الوجه[٦].

وفي {الْغَمَامَ}الذي ظلله الله عليهم أربعة أقوال[٧]:

أحدها:أنه السحابة، قاله ابن عباس[٨]، وري عن ابن عمر والربيع أنس وأبي مجلز والضحاك والسدي[٩]، وقتادة[١٠]، مثل ذلك، وهو قول جمهور أهل التفسير.

والثاني: أنه الغمام الذي يأتي الله فيه يوم القيامة، لم يكن إلا لهم، قال تعالى: {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ} [البقرة : ٢١٠]. قاله مجاهد[١١].

والثالث: أنه ما ابيض من السحاب، أي السحاب الرقيق الأبيض، " وفعل هذا بهم ليقيهم حر الشمس نهارا وينجلي في آخره ليستضيؤوا بالقمر ليلا وذكر المفسرون أن هذا جرى في التيه بين مصر والشام لما امتنعوا من دخول مدينة الجبارين وقتالهم وقالوا لموسى : {فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا} [المائدة : ٢٤] فعوقبوا في ذلك الفحص أربعين سنة يتيهون في خمسة فراسخ أو ستة روي أنهم كانوا يمشون النهار كله وينزلون للمبيت فيصبحون حيث كانوا بكرة أمس. وإذا كانوا بأجمعهم في التيه قالوا لموسى : من لنا بالطعام فأنزل الله عليهم المن والسلوى قالوا من لنا من حر الشمس فظلل عليهم الغمام"[١٢].

والرابع: أنه السحاب البارد الذي يكون به الجو بارداً، ويتولد منه رطوبة، فيبرد الجو[١٣]. قاله ابن عباس[١٤]، و ابن جريج[١٥].

والقول الأول أقرب الى الصواب، "إذ كان معنى الغمام ما وصفنا، مما غم السماء من شيء يغطى وجهها عن الناظر إليها، فليس الذي ظلله الله عز وجل على بني إسرائيل - فوصفه بأنه كان غماما - بأولى، بوصفه إياه بذلك أن يكون سحابا، منه بأن يكون غير ذلك مما ألبس وجه السماء من شيء"[١].

---

(١) تفسير ابن عثيمين:١٩٥/١.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٥٤٧):ص١١٣/١.
(٣) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١١٣/١.
(٤) انظر: تفسير الطبري: ٩٠/٢. وتفسير القرطبي: ٤٠٥/١-٤٠٦.
(٥)الرجز في اللسان (غم) ؛ والمجمل ٦٨٠/٣؛ والمشوف المعلم ٥٥٣/٢؛ وأساس البلاغة (غمم)، ولم ينسب. وإصلاح المنطق ص ٢٨٢.
(٦) انظر مرفردات ألفاظ القرآن، الراغب: ٥٧٩-٥٨٠.
(٧) انظر: تفسير الطبري: ٩٠/٢-٩١.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(٥٤٧):ص١١٣/١.
(٩) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١١٣/١.
(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم(٥٤٨):ص١١٣/١.
(١١) أنظر:تفسير الطبري(٩٦٢)، و(٩٦٣):ص٩٠/٢، وتفسير ابن أبي حاتم(٥٤٩):ص١١٣/١.
(١٢) تفسير القرطبي: ٤٠٦/١.
(١٣) وهو اختيار الشيخ ابن عثيمين-رحمه الله-، انظر تفسيره: ١١٤/١.
(١٤) أنظر: تفسير الطبري(٩٦٥):ص٩١/٢.
(١٥) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٥٠):ص١١٣/١.

قوله تعالى: {وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى}[البقرة:٥٧]، أي و"أنعمنا عليكم"[٢] بالمنّ والسلوى.
قال الصابوني: أي "بأنواعٍ من الطعام والشراب من غير كدٍّ ولا تعب"[٣].
قال المراغي:" ما منحه الله لعباده يسمى إيجاده إنزالا كما جاء في قوله : {وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ}[الحديد:٢٥]"[٤].
واختلف في «المن» ما هو وتعيينه على أقوال[٥]:
أحدها :أنه الترنجبين[٦] - بتشديد الراء وتسكين النون ذكره النحاس، ويقال : الطرنجبين بالطاء - قاله ابن عباس[٧]، وعامر[٨]، والضحاك[٩]، وعلى هذا أكثر المفسرين[١٠].
والثاني: أنه صمغة حلوة. قاله مجاهد[١١].
الثالث: أنه شراب. قاله الربيع بن انس[١٢].

قال الربيع:" **كان ينزل عليهم مثل العسل، فيمزجونه بالماء، ثم يشربونه**"[١٣].
الرابع : أنه العسل. قاله ابن زيد[١٤]، وعامر[١٥]، ومنه قول أمية بن الصلت في وصف تيه بني اسرائيل وما رزقوا فيه[١٦]:
فرأى الله أنهم بمَضِيعِ ... لا بذي مَزْرعٍ ولا معمورا
فَنَساها عليهم غاديات ... ومرى مزنهم خلايا وخورا
عسلا ناطِفا وماء فراتا ... وحليبا ذا بهجة مثمورا

---

(١) تفسير الطبري: ٩١/٢.
(٢) صفوة التفاسير: ٥٢/١.
(٣) صفوة التفاسير: ٥٢/١.
(٤) تفسير المراغي: ١٢٣/١.

(٥) انظر: تفسير الطبري: ٩١/٢-٩٥، وتفسير القرطبي: ٤٠٦/١-٤٠٧.
(٦)ويصح بالتاء (الترنجبين) راجع لسان العرب: ١٠/ ٩٦، وهو طل ينزل من الهواء ويجتمع على أطراف الشجر في بعض البلدان، وقيل: هو ندى شبيه العسل جامد متحبب ينزل من السماء، وقيل: يشبه الكمأة.
(٧) أنظر: تفسير الطبري(٩٧٦):ص:٩٣/٢.
(٨)أنظر: تفسير الطبري(٩٧٧):ص:٩٣/٢.
(٩) نقله الثعلبي عنه، انظر: تفسيره: ٢٠٠/١، ونسبه في زاد المسير (١/ ٧١) : الى ابن عباس ومقاتل، وذكر بقية الأقوال.
(١٠)وكونه المراد بالمن في الآية قول الأكثر كما أفاده البغوي في معالم التنزيل: ٩٧/١، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ٤٠٦/١، وأبو حيان في البحر المحيط: ٢١٤/١، والخازن في لباب التأويل: ٤٧١، والشوكاني في فتح القدير: ١٢٩/١. وقال به ابن عباس في رواية عنه ومقاتل كما في زاد المسير لابن الجوزي: ٨٤/١، وقال به أيضاً: ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن: ٤٩، والسمرقندي في بحر العلوم: ١٢١/١، والزمخشري في الكشاف: ٢٨٢/١، والواحدي في كتابيه الوسيط: ١٤٢/١، والوجيز: ١٤٢/١، والرازي في مفاتيح الغيب: ٩٣/١، والبيضاوي في أنوار التنزيل: ٥٧/١، وأبو السعود في إرشاد العقل السليم: ١٠٤/١.
(١١)أنظر: تفسير الطبري(٩٦٦):ص:٩٢/٢.

(١٢) أخرجه الطبري(٩٦٩):ص٩٢/٢.

(١٣) أخرجه الطبري(٩٦٩):ص٩٢/٢.

(١٤)أنظر: تفسير الطبري(٩٧٠):ص:٩٢/٢.
(١٥)أنظر: تفسير الطبري(٩٧١)،:ص:٩٢/٢.
(١٦)ديوانه : ٣٤ - ٣٥ . في الأصول والديوان . " ولا مثمورا " . مضيع : بموضع ضياع وهوان وهلاك . يقال : هو بدار مضيعة (بفتح الميم وكسر الضاد) ، كأنه فيها ضائع . وهو مفعلة ، وطرح التاء منها كما يقولون : المنزل والمنزلة . ومزرع : مصدر ميمي من " زرع " يعني ليس بذي زرع ، ومعمور : أي آهل ذهب خرابه . ونصب " ولا معمورا " ، عطفا على محل " بذي مزرع " ، وهو نصب . وآثرت هذه الكلمة ، لأنها هي التي تتفق مع سياقه الشعر ، ولأن التحريف في " معمور " و " مثمور " سهل ، ولما سترى في شرح البيت الثالث .

المثمور : الصافي من اللبن، فجعل المن الذي كان ينزل عليهم عسلا ناطفا، والناطف : هو القاطر(١).
الخامس: أنه الذي يسقط على الثمام والعُشَر، وهو حلو كالعسل، وإياه عنى الأعشى - ميمون بن قيس - بقوله(٢):
لو أُطعِموا المن والسلوى مكانَهمُ ... ما أبصر الناس طُعما فيهمُ نجعا
السادس : أنه خبز الرقاق. قاله وهب(٣).
السابع : أنه الزنجبيل. قاله السدي(٤).
الثامن : أنه الكمأة. ومنه حديث الرسول-صلى الله عليه وسلم-: " الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين "(٥).
قال ابن عطية:" فقيل: أراد عليه السلام أن الكمأة نفسها مما أنزل نوعها على بني إسرائيل"(٦).
الثامن: وقيل :أن {المن}، مصدر يعم جميع ما من الله به على عباده من غير تعب ولا زرع(٧)، ومنه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل : " الْكَمْأَةُ مِنَ الْمَنِّ الَّذِي أَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ"(٨) في رواية "الْكَمْأَةُ مِنَ الْمَنِّ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَى مُوسَى، وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ"(١).

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٩٤/٢-٩٥. وقوله: ناطف ، من نطف ينطف : قطر . وهو مشروح بعد - أي يقطر من السماء . والفرات : أشد الماء عذوبة . ووصف اللبن بأنه ذو بهجة . وهي الحسن والنضارة ، لأنه لم يؤخذ زبده ، فيرق ، وتذهب لمعة الزبد منه ، فاستعار البهجة لذلك . أما قوله : " مثمورا " ، فهي في المطبوعة " ممرورا " ، وفي المخطوطة في الصلب كانت تقرأ " مثمورا " ثم لعب فيها قلم الناسخ في الثاء والميم ، ثم كتب هو نفسه في الهامش : " مزمورا " ، ثم شرح في طرف الصفحة فقال : " المزمور : الصافي من اللبن " . وذلك شيء لا وجود له في كتب اللغة ، وقد رأيت أنه كتب في البيت الأول " مثمورا " ، ورجحت أن صوابها " معمورا " ، ورجحت في هذا البيت أن يكون اختلط عليه حين كتب " مثمورا " فعاد فجعلها " مزمورا " .
ولم أجد " مثمورا " في كتب اللغة ، ولكن يقال : الثمير والثميرة : اللبن الذي ظهر زبده وتحبب قال ابن شميل : إذا مخض رؤي عليه أمثال الحصف في الجلد ، ثم يجتمع فيصير زبدا ، وما دامت صغارا فهو ثمير . ويقولون : إن لبنك لحسن الثمر ، وقد أثمر مخاضك . فكأنه قال : " مثمورا " ويعني " ثميرا " ، لأن فعيلا بمعنى مفعول هنا .
(٢)ديوانه : ٨٧ من قصيدة طويلة ، يذكر فيها ذا التاج هوذة بن علي الحنفي صاحب اليمامة ، وكانت بنو تميم قد وثبت على مال وطرف كانت تساق إلى كسرى ، فأوقع بهم المكعبر الفارسي ، والي كسرى على البحرين ، وأدخلهم المشقر - وهو حصن بالبحرين - بخديعة خدعهم بها ، فقتل رجالهم واستبقى الغلمان. وكلم هوذة بن علي المكعبر يومئذ في مائة من أسرى بني تميم ، فوهبهم له يوم الفصح ، فأعتقهم ، فقال الأعشى ، يذكر ما كان من قبل هوذة في بني تميم :
سائل تميما به أيام صفقتهم ... لما أتوه أسارى كلهم ضرعا
وسط المشقر في عيطاء مظلمة ... لا يستطيعون فيها ثَمَّ ممتنعا
لو أُطعموا المن ... .
فوصف بني تميم بالكفر لنعمته (تاريخ الطبري ٢ : ١٣٢ - ١٣٤). والطعم : ما أكل من الطعام. ونجع الطعام في الإنسان : هنا أكله وتبينت تنميته ، واستمرأه وصلح عليه.
(٣) أنظر: تفسير الطبري(٩٧٢):ص٩٢/٢.
(٤) أنظر: تفسير الطبري(٩٧٣):ص٩٣/٢.
(٥)رواه أحمد والشيخان والترمذي ، من حديث سعيد بن زيد . ورواه أيضًا أحمد والشيخان وابن ماجه ، من حديث أبي سعيد وجابر . ورواه أبو نعيم في الطب ، من حديث ابن عباس وعائشة . انظر مثلا ، المسند : ١٦٢٥ ، ١٦٢٦ . والجامع الصغير : ٦٤٦٣ . وزاد المعاد لابن القيم ٣ : ٣٨٣ . وتفسير ابن كثير ١ : ١٧٤ - ١٧٦ ، وقد ساق كثيرا من طرقه .
(٦) المحرر الوجيز: ١٤٨/١.
(٧) أنظر: المحرر الوجيز: ١٤٨/١، ذهب إلى ذلك الزجاج في معاني القرآن: ١٣٨/١، وابن كثير في تفسير القرآن العظيم: ٢٢/١.
(٨) رواه مسلم (٢٠٤٩)، الكمأةُ :نبات ينمو في الصحارى بريًا تشبه البطاطا في شكلها ولونها بني بلون الأرض وتكون في الأرض من غير أن تُزرع.
(الكمأة) لغة: بفتح أوله وثالثه وسكون ثانيه مهموز(فتح الباري لابن حجر: ١/ ١٨٠)، والكَمْأَةُ واحدها كَمءٌ على غير قياس وهو من النوادِر فإنَّ القِياسَ العَكْسُ(لسان العرب ١/ ١٤٨)، وقيل: الكَمْأَةُ هي التي إلى الغُبرة والسَّواد، والجِبَأَةُ إلى الحُمْرةِ والفِقعةُ البيضُ، وأَكْمَأَتِ الأرضُ فهي مُكْمِئةٌ كَثُرت كَمْأَتُها وأرضٌ مَكْمُوءَةٌ كثيرة الكَمْأَة وكَمَأَ القومَ، وأَكْمَأَهم الأخيرةُ عن أبي حنيفة أَطْعَمَهُم الكَمْأَةَ(لسان العرب ١/ ١٤٨).
وخَرجَ الناسُ يَتَكَمَّؤُون أي يَجْتَنُون الكَمْأَةَ، ويقال: خرج المُتَكَمِّئُون وهم الذين يَطْلُبون الكَمْأَةَ، والكَمَّاءُ بَيّاعُ الكَمْأة وجانيها(لسان العرب ١/ ١٤٨)، وقيل: سميت بذلك لاستتارها، يقال: كمأ الشهادة إذا كتمها(فتح الباري لابن حجر:١٠/ ١٦٣)

وسُميّت كمأة لاستتارها فهي مخفية تحت الأرض ولا ورق لها ولا ساق. تكثر في السنين الممطرة وخاصة إذا كان المطر غزيرًا في أوائل فصل الشتاء فتنمو في باطن الأرض على عمق حوالي ١٠ سم أو أكثر وحجمها يختلف ما بين ما يشبه الحمصة وما يصل إلى حجم البرتقالة, وهي مما يوجد في فصل الربيع ويؤكل نيئًا ومطبوخًا وتُسميها العرب نبات الرعد لأنها تكثر بكثرته وتنفطر عنها الأرض وهي من أطعمة أهل البوادي.
ويسمونها في بلاد الخليج والجزيرة العربية الفقع وفي بلاد الشام الكمأة وهو الاسم القديم لها كما سمّاها الرسول صلى الله عليه وسلم وتسمى أيضًا نبات الرعد وفي بعض البلاد بشجرة الأرض أو بيضة الأرض أو بيضة البلد من فصيلة الفطريات ولها عدة أنواع: الزبيدي والخلاسي والهبر.
تحتوي الكمأة على البروتين بنسبة ٩بالمائة، والمواد النشوية والتربة بنسبة ١٣ بالمائة، أما الدهن فهي فقيرة به أو لا يكاد يصل إلى ١ بالمائة لهذا فهي ذات مردود حراري متواضع ، وأن ثلاثة أرباعها (٧٥ بالمائة) من الماء.
وتحتوي الكمأة على معادن مشابهة لتلك التي يحتويها جسم الإنسان مثل الفوسفور والصوديوم والكالسيوم والبوتاسيوم وتحتوي الكمأة على الفيتامين" ب ١ وب ٢" وهي غنية بهما، كما تحتوي الكمأة على كمية من النيتروجين إلى جانب الكربون والأوكسجين والهيدروجين وهي غنية بالفيتامين " أ " الذي يعالج هشاشة الأظافر وسرعة تقصّفها واضطراب الرؤية. (انظر: الكمأة من المن، الدكتور محمد نزار الدقر أخذا من موقع:http://www٥٥a.net. و يسير أمارة الدعبول وطافر العطار في مقالتهما (العسل والكمأة وأمراض العيون). مجلة طبيبك، إيلول ١٩٧٨. والمعتز بالله المرزوقي: في محاضرة له بعنوان (الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين). من مواد المؤتمر العالمي الأول عن الطب الإسلامي، الكويت - ١٩٨١).
أما معنى قوله صلى الله عليه وسلم :(شفاء للعين) فهذا من طبه صلى الله عليه وسلم ونحن نؤمن بذلك إيمان اليقين ولكن ينبغي الرجوع في ذلك إلى ذوي الاختصاص المؤمنين لأن وصفة الطبيب لا يجوز استعمال أي مريض لها بدون مانظرته، بل الذي يقرره الأطباء ضرورة رجوع المريض نفسه إلى الطبيب الذي أعطاه الوصفة ليقرر له هل يناسب استعمالها الآن مزاجه فيكررها أم لا(من تعليق صطفى ديب البغا على صحيح البخاري ٤/ ١٦٢٧).
وقوله صلى الله عليه وسلم: «من المن» قيل في المراد بالمن ثلاثة أقوال:
أحدها: أن المراد أنها من المن الذي أنزل على بني إسرائيل وهو الطل الذي يسقط على الشجر فيجمع ويؤكل حلواً ومنه الترنجبين فكأنه شبه به الكمأة بجامع ما بينهما من وجود كل منهما عفواً بغير علاج.
الثاني: أن المعنى أنها من المن الذي أمتن الله به على عباده عفواً بغير علاج قاله أبو عبيد وجماعة، وقال الخطابي ليس المراد أنها نوع من المن الذي أنزل على بني إسرائيل فإن الذي أنزل على بني إسرائيل كان الترنجبين الذي يسقط على الشجر وإنما المعنى أن الكمأة شيء ينبت من غير تكلف ببذر ولا سقي فهو من قبيل المن الذي كان ينزل على بني إسرائيل فيقع على الشجر فيتناولونه.
ثم أشار إلى أنه يحتمل أن يكون الذي أنزل على بني إسرائيل كان أنواعاً؛ منها ما يسقط على الشجر ومنها ما يخرج من الأرض فتكون الكمأة منه وهذا هو القول الثالث وبه جزم الموفق عبد اللطيف البغدادي ومن تبعه فقالوا أن المن الذي أنزل على بني إسرائيل ليس هو ما يسقط على الشجر فقط بل كان أنواعاً منّ الله عليهم بها من النبات الذي يوجد عفواً ومن الطير التي تسقط عليهم بغير اصطياد ومن الطل الذي يسقط على الشجر(فتح الباري ١/ ١٦٣).
والمن مصدر بمعنى المفعول؛ أي ممنون به فلما لم يكن للعبد فيه شائبة كسب كان منّاً محضاً وإن كانت جميع نعم الله تعالى على عبيده منّاً منه عليهم لكن خص هذا باسم المن لكونه لا صنع فيه لأحد فجعل سبحانه وتعالى قوتهم في التيه الكمأة، وهي تقوم مقام الخبز، وأدمهم السلوى وهي تقوم مقام اللحم، وحلواهم الطل الذي ينزل على الشجر، فكمل بذلك عيشهم، ويشير إلى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «من المن» فأشار إلى أنها فرد من أفراده، فالترنجبين كذلك فرد من أفراد المن وإن غلب استعمال المن عليه عرفاً، ولا يعكر على هذا قولهم لن نصبر على طعام واحد لأن المراد بالوحدة دوام الأشياء المذكورة من غير تبدل وذلك يصدق على ما إذا كان المطعوم أصنافاً لكنها لا تتبدل أعيانها(فتح الباري ١/ ١٦٣).
وحديث(الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين) قد رواه جمع من الصحابة رضي الله عنه منهم:
١- سعيد بن زيد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الكَمْأَةُ مِنَ المَنِّ، وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ». رواه البخاري في تفسير سورة الأعراف، باب: المن والسلوى حديث رقم: (٤٦٣٩)، فتح الباري (٨/ ٢٠٣)، ورواه أيضاً في كتاب التفسير، باب: {وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى ..}، فتح الباري (٨/ ١٦٣)، ورواه الإمام أحمد في مسنده (١/ ١٨٧)، ورواه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب الأشربة، وبوب له النووي: فضل الكمأة ومداواة العين بها، (١٤/ ٤٢٣) من شرح صحيح مسلم.
- وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الكَمْأَةُ مِنَ المَنِّ الَّذِي أَنْزَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ». مسلم (٢٠٤٩).
- وعنه رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «الكَمْأَةُ مِنَ المَنِّ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَى مُوسَى، وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ». السنن الكبرى للنسائي (٦٦٣٢).
- وعنه رضي الله عنه قال: خَرَجَ إِلَيْنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَفِي يَدِهِ كَمْأَةٌ، فَقَالَ: "تَدْرُونَ مَا هَذَا؟ هَذَا مِنَ المَنِّ، وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ" مسند أحمد ط الرسالة (٣/ ١٧٩) ١٦٣٤ مسند الإمام أحمد (١/ ١٨٨).

فقيل: "أراد أنه لا تعب في الكمأة ولا جذاذ ولا حصاد، فهي منة دون تكلف، من جنس مَنِّ بني إسرائيل في أنه كان دون تكلف"[٢].

والقول الأخير هو الأقرب إلى الصواب، أي: أن (المن) هو : "كل ما امتن الله به عليهم من طعام وشراب، وغير ذلك، مما ليس لهم فيه عمل ولا كد، فالمن المشهور إن أكل وحده كان طعاما وحلاوة، وإن مزج مع الماء صار شرابا طيبا، وإن ركب مع غيره صار نوعا آخر، ولكن ليس هو المراد من الآية وحده"[٣]؛ وهذا الرأي يعضده الحديث السابق[٤].

كما يمكن إرجاع المن بأنه مادة صمغية جوية تنزل على شجر البادية تشبه الدقيق المبلول فيه حلاوة إلى حموضة، فإن أُكِل وحده كان طعاماً وحلاوة، وإن مزج معه الماء صار شراباً طيباً، وإن ركب مع غيره صار نوعاً آخر[٥]، وعلى هذا القول يمكن حمل أكثر أقوال المفسرين أعلاه عليه، باعتبار كل قول منها ذكر وصفاً للمن سواء في كيفية النزول أم مكان وجوده أم طعمه أم طريقة تناوله. والله أعلم.

وكذا اختلف في المعني بقوله تعالى{السَّلْوَى}[البقرة:٥٧]، على أقوال[٦]:

الأول: أنه طائر ناعم يسمى (السُّمَانَى)، قاله ابن عباس[٧]، وعامر[٨]، والضحاك[٩].

والثاني: أنه طائر شبيه بالسّماني. قاله ابن عباس[١٠]، والسدي[١١]، والربيع[١٢].

٢- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه، وهم يتنازعون في هذه الشجرة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار، فقالوا: نحسبها الكمأة, فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين، والعجوة من الجنة، وهي شفاء من السم". مسند الإمام أحمد (٢/ ٤٢١، ٣٠٥).

(٣، ٤)- وعن جابر بن عبد الله وأبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنهما قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين, والعجوة من الجنة, وهي شفاء من الجنة". رواه ابن ماجه في كتاب الطب، باب: الكمأة والعجوة (٢/ ١١٤٢).

٥- عن عبد الله بن بريدة عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "الكَمْأَةُ دَوَاءُ لِلْعَيْنِ، وَإِنَّ الْعَجْوَةَ مِنْ فَاكِهَةِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ هَذِهِ الْحَبَّةَ السَّوْدَاءَ"، قَالَ ابْنُ بُرَيْدَةَ: يَعْنِي الشُّونِيزَ الَّذِي يَكُونُ فِي الْمِلْحِ، "دَوَاءٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ إِلَّا الْمَوْتَ". مسند أحمد ط الرسالة (٣٨/ ٢١، رقم ٢٢٩٣٨) وضعف محققاه إسناده، وصححاه لغيره لشواهده.

٦- عَنْ أَنَسٍ: أَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَدَارَؤُوا فِي الشَّجَرَةِ الَّتِي {اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ}، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: (نَحْسَبُهُ الْكَمْأَةَ). فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "الْكَمْأَةُ مِنَ الْمَنِّ وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ، وَالْعَجْوَةُ من الجنَّة، وفيها شفاءٌ من السُّمِّ" رواه ابن مردويه. انظر: تفسير ابن كثير ت سلامة (١/ ٢٧٠).

٧- وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين". رواه النسائي في سننه الكبرى في الأطعمة، باب: الكمأة (٤/ ١٥٦)، صحيح الجامع (٤٦١٣).

٨- عَنْ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "الْكَمْأَةُ مِنَ الْمَنِّ، وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ". أمالي ابن سمعون الواعظ (ص: ٢٣٤، ٢٣٥). صحيح الجامع (٤٦١٣).

٩- عَن عَبد الله بن بريدة، عَن أبيه، قال: قال رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم: "واعلموا أن الكمأة من المن". الطب النبوي لأبي نعيم الأصفهاني (٢/ ٦١٩، رقم ٦٦٤، ٦٦٥).

فهذا الحديث كما ترى لم يتفرد به أبو هريرة بل رواه ستة من الصحابة غيره رضي الله تعالى عنه.

(١) السنن الكبرى للنسائي: (٦٦٣٢).

(٢) المحرر الوجيز: ١٤٨/١.

(٣) تفسير ابن كثير: ٢٦٨/١.

(٤) وهو قوله صلى الله عليه وسلم: " الْكَمْأَةُ مِنَ الْمَنِّ الَّذِي أَنْزَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ"(رواه مسلم :٢٠٤٩)، وفي رواية أخرى: في رواية "الْكَمْأَةُ مِنَ الْمَنِّ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَى مُوسَى، وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ(السنن الكبرى للنسائي: ٦٦٣٢).

(٥)انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ١٢٢/١، ومحاسن التأويل للقاسمي: ١٣٢/٢، والتحرير والتنوير لابن عاشور: ٥٠٩/١.

(٦) انظر: تفسير القرطبي: ٤٠٧/١-٤٠٨. وتفسير الطبري: ٩٦/٢-٩٨.

(٧) انظر: تفسير الطبري(٩٨٨):ص٩٧/٢.

(٨) انظر: تفسير الطبري(٩٨٧)، و(٩٨٩):ص٩٦/٢.

(٩) انظر: تفسير الطبري(٩٩٠):ص٩٧/٢.

(١٠) انظر: تفسير الطبري(٩٧٩):ص٩٧/٢.

(١١)انظر: تفسير الطبري(٩٨٠):ص٩٦/٢.

(١٢)انظر: تفسير الطبري(٩٨٦):ص٩٧/٢.

قال ابن عثيمين:وهو "من أحسن ما يكون من الطيور، وألذه لحم"[١].
والثالث: أنه طائر سمين، يشبه الحمام. قاله وهب[٢].
والرابع: أنه العسل[٣]، بلغة كنانة، وسمي به لأنه يسلى به، ومنه عين السلوان. قاله المؤرج، أحد علماء اللغة والتفسير، وأنشد قول رؤبة[٤]:
لو أشرب السلوان ما سليت ... ما بي غنى عنك وإن غنيت
واختاره أبو عبيد[٥]، مستشهدا ببيت خالد بن زهير الهذلي[٦]:
وَقَاسَمَهَا بِاللهِ جَهْدًا لَأَنْتُمُ ... أَلَذُّ مِنَ السَّلْوَى إِذَا مَا نَشُورُهَا
قال أبو إسحاق: "السلوى: طائر، وغلط خالد بن زهير، وظن أنه العسل"[٧].
قال أبو علي: "والذي عندي في ذلك: أن السلوى كأنه ما يسلي عن غيره لفضيلة فيه، من فرط طيبه، أو قلة علاج ومعاناة، العسل لا يمتنع أن يسمى سلوى لجمعه الأمرين كما يسمى الطائر الذي كان يسقط مع المن به"[٨].
قال الواحدي: "والسلوى بمعنى العسل صحيح في اللغة، وإن أنكره أبو إسحاق، ولكن الذي في الآية المراد به الطائر، لإجماع أهل التفسير عليه"[٩].
وقال الجوهري : والسلوى العسل وذكر بيت رؤبة السابق[١٠]، وقال بعضهم السلوان دواء يسقاه الحزين فيسلو والأطباء يسمونه المفرح يقال : سليت وسلوت لغتان، وهو في سلوة من العيش أي في رغد[١١].
قال ابن عطية، "{وَالسَّلْوى}، طير بإجماع من المفسرين"[١٢]، فقاله ابن عباس[١٣]، وعامر[١٤]، والضحاك[١٥]، وقتادة[١٦]، ومجاهد[١٧]، والسدي[١٨]، والربيع[١٩]، ووهب[٢٠]، وابن زيد[٢١]، وعكرمة[٢٢]،

---

(١) انظر: تفسير ابن عثيمين: ١/١١٤.
(٢)انظر: تفسير الطبري(٩٨٤):ص٩٦/٢.
(٣)ذكره الثعلبي في "تفسيره" عن المؤرج السدوسي ١/ ٧٥ أ، وعن ابن الأعرابي: السلوى: طائر، وهو في غير القرآن: العسل، ونحوه عن ابن الأنباري "التهذيب" (سلا) ٢/ ١٧٢٦.
(٤) البيت لرؤبة: انظر ديوانه: ٢٥. وانظر: اللسان: مادة(سلا)، والعين: مادة(سلو).
(٥)أنظر: "تهذيب اللغة" (سلا) ٢/ ١٧٢٦، وانظر "اللسان" (سلا) ٤/ ٢٠٨٥.
(٦)ورد البيت في "شرح أشعار الهذليين" ١/ ٢١٥، "تهذيب اللغة" (سلا) ٢/ ١٧٢٦، "تفسير الطبري" ٨/ ١٤١، "الصحاح" (سلا) ٦/ ٢٣٨١، "تفسير الثعلبي" ١/ ٧٥ أ، "المخصص" ٥/ ١٥، ١٤/ ٢٤١، "اللسان" (سلا) ٤/ ٢٠٨٦، "تفسير القرطبي" ١/ ٣٤٧، "البحر المحيط" ١/ ٢٠٥، ٤/ ٢٧٩، "الدر المصون" ١/ ٣٧٠، "فتح القدير" ١/ ١٣٨، "الخزانة" ٥/ ٨٢، "زاد المسير" ١/ ٨٤.
والبيت من قصيدة لخالد بن زهير يخاطب أبا ذؤيب الهذلي، في قصة حصلت بينهما حول امرأة كانا يترددان عليها، ذكرها السكري في "شرح أشعار الهذليين". و (السلوى) هاهنا: العسل، و (الشور): أخذ العسل من مكانه.
(٧) التفسير البسيط: ٥٤٩/٢, وعلى هذا فقد غلط كذلك ابن عطية في "تفسيره" ١/ ٣٠٦، وانظر "تفسير القرطبي" ١/ ٣٤٨.
(٨) نقلا عن: التفسير البسيط:٥٤٩/٢.
(٩) التفسير البسيط: ٥٥٠/٢.
(١٠) وهو قوله[انظر ديوانه: ٢٥]:
لو أشرب السلوان ما سليت ما بي غنى عنك وإن غنيت
(١١) انظر: تفسير القرطبي: ٤٠٧/١-٤٠٨.
(١٢) المحرر الوجيز: ١٤٩/١.
(١٣) انظر: تفسير الطبري(٩٨٨):ص٩٧/٢.
(١٤) انظر: تفسير الطبري(٩٨٧)، و(٩٨٩):ص٩٦/٢.
(١٥) انظر: تفسير الطبري(٩٩٠):ص٩٧/٢.
(١٦)انظر: تفسير الطبري(٩٨١):ص٩٦/٢.
(١٧)انظر: تفسير الطبري(٩٨٣):ص٩٦/٢.
(١٨)انظر: تفسير الطبري(٩٨٠):ص٩٦/٢.
(١٩)انظر: تفسير الطبري(٩٨٦):ص٩٧/٢.
(٢٠)انظر: تفسير الطبري(٩٨٤):ص٩٦/٢.
(٢١)انظر: تفسير الطبري(٩٨٥):ص٩٧/٢.
(٢٢)انظر: تفسير ابن أبي حاتم:(٥٦٤):ص١١٦/١.

وهو طائر (السُّمَانَى) الذي فكان ينزل عليهم من المن والسلوى ما يكفيهم ويقيتهم، وبهذا قال أكثر أهل العلم(١).

وقد رد القرطبي على ابن عطية في تخطئته للهذلي، فقال: وما ادعاه من الإجماع لا يصح."(٢)، ثم استشهد بقول "المؤرج، والجوهري"(٣)، من أن (السلوى) يأتي بمعنى العسل في اللغة.

واختلف أهل اللغة في {السلوى}[البقرة:٥٧]، هل هو جمع أو مفرد:

القول الأول: أنه جمع لا واحد له من لفظه مثل الخير والشر، وهو يشبه أن يكون واحده سلوى مثل جماعته كما قالوا: دفلى للواحد والجماعة وسمانى وشكاعى في الواحد والجميع، وقال الخليل : واحده سلواة وأنشد :(٤).

وَإِنِّي لَتَعْرُونِي لِذِكْرَاكِ هِزَّةٌ ... كَمَا انْتَفَضَ السَّلْوَاةُ مِنْ بَلَلِ الْقَطْرِ

وهذا مذهب الأخفش(٥)، والفراء(٦).

القول الثاني: أن (السلوى) واحدة وجمعه سلاوى، وهذا مذهب الكسائي(٧).

وقد اختلف الروايات في سبب تظليل الله جل ثناؤه الغمام، وإنزاله المن والسلوى على هؤلاء القوم ؟

وأقرب الروايات أنه: "لما تاب الله على قوم موسى، وأحيا السبعين الذين اختارهم موسى بعد ما أماتهم، أمرهم الله بالسير إلى أريحا، وهي أرض بيت المقدس . فساروا حتى إذا كانوا قريبا منها بعث موسى اثني عشر نقيبا . فكان من أمرهم وأمر الجبارين وأمر قوم موسى، ما قد قص الله في كتابه، فقال قوم موسى لموسى : {قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ} [المائدة : ٢٤]، فغضب موسى فدعا عليهم فقال : {قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} [المائدة : ٢٥]، فكانت عَجْلَةً من موسى عجلها، فقال الله تعالى: {قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} [المائدة : ٢٦]، فلما ضرب عليهم التيه، ندم موسى، وأتاه قومه الذين كانوا معه يطيعونه فقالوا له : ما صنعت بنا يا موسى ؟ فلما ندم، أوحى الله إليه : أن لا تأس على القوم الفاسقين - أي لا تحزن على القوم الذين سميتهم فاسقين - فلم يحزن، فقالوا : يا موسى كيف لنا بماء ههنا ؟ أين الطعام ؟ فأنزل الله عليهم المن - فكان يسقط على شجر الترنجبين - والسلوى وهو طير يشبه السمانى فكان يأتي أحدهم فينظر إلى الطير، إن كان سمينا ذبحه وإلا أرسله، فإذا سمن أتاه . فقالوا : هذا الطعام، فأين الشراب ؟ فأمر موسى فضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا، فشرب كل سبط من عين . فقالوا : هذا الطعام والشراب ؟ فأين الظل ؟ فظلل عليهم الغمام. فقالوا : هذا الظل، فأين اللباس ؟ فكانت ثيابهم تطول معهم كما تطول الصبيان، ولا يتخرق لهم ثوب، فذلك قوله : {وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى} [البقرة : ٥٧]، وقوله :{وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ}[البقرة : ٦٠]"(٨).

قوله تعالى:{كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ}[البقرة:٥٧]، "أي: وقلنا لهم كلوا من لذائذ نعم الله"(٩).

قال الواحدي: " أي: وقلنا لهم: كلوا من طيبات، أي: حلالات، الطيب: الحلال، لأنه طاب، والحرام يكون خبيثًا، وأصل الطيب: الطاهر، فسمى الحلال طيبًا، لأنه طاهر لم يتدنس بكونه حرامًا"(١٠).

---

(١) انظر: تفسير السعدي: ٥٢/١.

(٢) تفسير القرطبي: ٤٠٧/١.

(٣)وقد مر قريبًا كلام المؤرج وأبي عبيد أنه بمعنى: العسل، انظر "الصحاح" (سلا) ٦/ ٢٣٨١.

(٤) البيت لأبي صخر الهذلي: انظر: الأمالي ١ / ١٤٨ ، وقد ورد البيت في "تهذيب اللغة" (سلا) ٢/ ١٧٢٦، "اللسان" (سلا) ٤/ ٢٠٨٥، والوسيط للمؤلف ١/ ١١٢، "تفسير القرطبي" ١/ ٤٠٨، "البحر المحيط" ١/ ٢٠٥، "الدر المصون" ١/ ٣٠٧، وهو غير منسوب في هذه المصادر.

(٥) أنظر: معاني القرآن: ١٠١/١.

(٦) أنظر: معاني القرآن للفراء: ٣٨/١.

(٧) انظر: تفسير القرطبي: ٤٠٧/١. وتفسير ابن كثير: ٢٧١/١-٢٧٢.

(٨) انظر الأخبار في: تفسير الطبري:٩٧/٢-٩٨.

(٩) صفوة التفاسير: ٥٢/١.

(١٠) التفسير البسيط: ٥٥٠/٢.

قال السعدي:" أي: رزقا لا يحصل نظيره لأهل المدن المترفهين، فلم يشكروا هذه النعمة، واستمروا على قساوة القلوب وكثرة الذنوب"[١].

وقد ذكروا في تفسير قوله تعالى: {كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ}[البقرة:٥٧]، ثلاثة وجوه من التفسير[٢]:

أحدها: يعني: كلوا من شهيات رزقنا الذي رزقناكموه .

والثاني: وكلوا من حلاله الذي أبحناه لكم فجعلناه لكم رزقا.

والثالث: أنها المباح[٣].

والقول الأول أولى بالتفسير، وهو اختيار الإمام الطبري، لأنه "وصف ما كان القوم فيه من هنيء العيش الذي أعطاهم، فوصف ذلك ب(الطيب)، الذي هو بمعنى اللذة، أحرى من وصفه بأنه حلال مباح، و(ما) التي مع(رزقناكم)، بمعنى (الذي)، كأنه قيل : كلوا من طيبات الرزق الذي رزقناكموه"[٤].

قوله تعالى: {وَمَا ظَلَمُونَا} [البقرة : ٥٧]، " أي ما نقصونا شيئاً"[٥].

قال الواحدي:" بإبائهم على موسى دخول هذه القرية،"[٦].

قال ابن عثيمين:لأن الله لا تضره معصية العاصين ولا تنفعه طاعة الطائعين"[٧].

قال السعدي:" يعني بتلك الأفعال المخالفة لأوامرنا لأن الله لا تضره معصية العاصين، كما لا تنفعه طاعات الطائعين"[٨].

وأخرج ابن أبي حاتم" عن ابن عباس في قوله: {وما ظلمونا}، قال: نحن أعز من أن نظلم"[٩].

قوله تعالى:{وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [البقرة : ٥٧]،" أي لا يظلمون بهذا إلا أنفسهم"[١٠].

أخرج ابن أبي حاتم "عن ابن عباس في قوله: {أنفسهم يظلمون}، قال: يضرون"[١١].

قال السعدي:" فيعود ضرره عليهم"[١٢].

قال القرطبي: " لمقابلتهم النعم بالمعاصي"[١٣].

قال الواحدي: ولكنهم ظلموا أنفسهم حين تركوا أمرنا فحبسناهم في التيه، فكانوا إذا أصبحوا وجدوا أنفسهم حيث ارتحلوا منذ أربعين سنة"[١٤].

وقد ذكروا في تفسير قوله تعالى: {وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [البقرة : ٥٧]، وجهين[١٥]:

أحدهما: أنه يعني: ما نقصونا بالمعصية، ولكن نقصوا حظ أنفسهم باستيجابهم عذابي.

قيل:"أنهم نهوا أن يدخروا لغد، لأن الله تعالى كان يجدد لهم كل يوم من المن والسلوى إلا يوم السبت، فكانوا يأخذون يوم الجمعة ما يكفيهم، فتعدّوا وادخروا وقدّدوا وملّحوا، فعصوا فقال الله تعالى: {وَمَا ظَلَمُونَا}"[١٦].

---

(١) تفسير السعدي: ٥٢.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ١٠١/٢، ومعاني القرآن للزجاج ١/ ١١٠، "تفسير أبي الليث" ١/ ٣٩٥، انظر "تفسير ابن عطية" ١/ ٣٠٦، والبغوي في "تفسيره" ١/ ٧٥.

(٣) أنظر: النكت والعيون: ١٢٥/١.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ١٠١/٢.

(٥) تفسير ابن عثيمين:١٩٦/١.

(٦) التفسير البسيط: ٥٥٠/٢.

(٧) تفسير ابن عثيمين:١٩٦/١.

(٨) تفسير السعدي: ٥٢.

(٩) تفسير ابن أبي حاتم(٥٦٦):ص١١٦/١.

(١٠) تفسير ابن عثيمين:١٩٦/١.

(١١) تفسير ابن أبي حاتم(٥٦٧):ص١١٦/١.

(١٢) تفسير السعدي: ٥٢.

(١٣) تفسير القرطبي: ٤٠٩/١.

(١٤) التفسير البسيط: ٥٥٠/٢.

(١٥) أنظر: التفسير البسيط: ٥٥٠/٢-551.

(١٦) التفسير البسيط: ٥٥٢/٢.

والثاني: أنه يعني: {وما ظلمونا}بإبائهم على موسى دخول هذه القرية، ولكنهم ظلموا أنفسهم حين تركوا أمرنا فحبسناهم في التيه، فكانوا إذا أصبحوا وجدوا أنفسهم حيث ارتحلوا منذ أربعين سنة.

وجمهور المفسرين على عموم المعنى، قالوا: وما ظلمونا بفعلهم المعصية وعدم شكرهم تلك النعم، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون(١).

الفوائد:

١. من فوائد الآية: نعمة الله تبارك وتعالى بما هيأه لعباده من الظلّ؛ فإن الظلّ عن الحرّ من نعم الله على العباد؛ ولهذا ذكره الله عزّ وجلّ هنا ممتناً به على بني إسرائيل؛ لقوله تعالى: {وظللنا عليكم الغمام}، وقوله تعالى: {والله جعل لكم مما خلق ظلالًا} [النحل: ٨١] .

٢. ومنها: أن الغمام يسير بأمر الله عزّ وجلّ، حيث جعل الغمام ظلاً على هؤلاء.

٣. . ومنها: بيان نعمة الله على بني إسرائيل بما إنزل عليهم من المن، والسلوى . يأتيهم بدون تعب، ولا مشقة؛ ولهذا وصف بـ "المن ".

٤. ومنها: أن لحم الطيور من أفضل اللحوم؛ لأن الله تعالى هيأ لهم لحوم الطير . وهو أيضاً لحوم أهل الجنة، كما قال تعالى: {ولحم طير مما يشتهون} (الواقعة: ٢١)

٥. ومنها: أن الإنسان إذا أنعم الله عليه بنعمة فينبغي أن يتبسط بها، ولا يحرم نفسه منها؛ لقوله تعالى: {كلوا من طيبات ما رزقناكم} [البقرة: ٥٧] ؛ فإن الإنسان لا ينبغي أن يتعفف عن الشيء المباح؛ ولهذا قال شيخ الإسلام . رحمه الله: "من امتنع من أكل الطيبات لغير سبب شرعي فهو مذموم"؛ وهذا صحيح؛ لأنه ترك ما أباح الله له وكأنه يقول: إنه لا يريد أن يكون لله عليه منة؛ فالإنسان لا ينبغي أن يمتنع عن الطيبات إلا لسبب شرعي؛ والسبب الشرعي قد يكون لسبب يتعلق ببدنه؛ وقد يكون لسبب يتعلق بدينه؛ وقد يكون لسبب يتعلق بغيره؛ فقد يمتنع الإنسان عن اللحم؛ لأن بدنه لا يقبله، فيكون تركه له من باب الحمية؛ وقد يترك الإنسان اللحم، لأنه يخشى أن تتسلى به نفسه حتى يكون همه أن يُذهب طيباته في حياته الدنيا؛ وقد يترك الإنسان الطيب من الرزق مراعاة لغيره، مثل ما يذكر عن عمر رضي الله عنه في عام الرمادة . عام الجدب المشهور . أنه كان لا يأكل إلا الخبز والزيت، حتى اسود جلده، ويقول: بئس الوالي أنا إن شبعت والناس جياع(١) ؛ فيكون تركه لذلك مراعاة لغيره؛ إذاً من امتنع من الطيبات لسبب شرعي فليس بمذموم.

٦. ومنها: أن المباح من الرزق هو الطيب؛ لقوله تعالى: {كلوا من طيبات}.

٧. ومنها: تحريم أكل الخبيث، والخبيث نوعان: خبيث لذاته؛ وخبيث لكسبه؛ فالخبيث لذاته كالميتة، والخنْزير، والخمر، وما أشبهها، كما قال الله تعالى: {قل لا أجد في ما أوحي إلي محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنْزير فإنه رجس} [الأنعام: ١٤٥] أي نجس خبيث؛ وهذا محرم لذاته؛ محرم على جميع الناس؛ وأما الخبيث لكسبه فمثل المأخوذ عن طريق الغش، أو عن طريق الربا، أو عن طريق الكذب، وما أشبه ذلك؛ وهذا محرم على مكتسبه، وليس محرماً على غيره إذا اكتسبه منه بطريق مباح؛ ويدل لذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعامل اليهود مع أنهم كانوا يأكلون السحت، ويأخذون الربا، فدلّ ذلك على أنه لا يحرم على غير الكاسب.

٨. ومن فوائد الآية: أن بني إسرائيل كفروا هذه النعمة؛ لقوله تعالى: (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون)

٩. ومنها: أن العاصي لا يضر الله شيئاً؛ وإنما يظلم نفسه.

القرآن

{وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨)} [البقرة : ٥٨]

التفسير:

---

(١)انظر: المحرر الوجيز: ١/ ٣٠٦، والكشاف: ١/ ٢٨٣، وزاد المسير: ١/ ٤٨، وتفسير القرطبي: ١/ ٤٠٩، والبيضاوي: ١/ ٢٦، والنسفي في "تفسيره" ١/ ١٢٩، "تفسير ابن كثير" ١/ ١٠٤.

(١) البداية والنهاية ١٨٥/١٠.

واذكروا نعمتنا عليكم حين قلنا: ادخلوا مدينة "بيت المقدس" فكلوا من طيباتها في أي مكان منها أكلا هنيئًا، وكونوا في دخولكم خاضعين لله، ذليلين له، وقولوا: ربَّنا ضَعْ عنَّا ذنوبنا، نستجب لكم ونعف ونسترها عليكم، وسنزيد المحسنين بأعمالهم خيرًا وثوابًا.

قوله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ}[البقرة:٥٨]، أي:" واذكروا يا بني إسرائيل إذ قلنا ادخلوا هذه القرية"[١].

قال الصابوني: أي: واذكروا أيضاً نعمتي عليكم حين قلنا لكم بعد خروجكم من التيه، ادخلوا بيت المقدس"[٢].

واختلف المفسرون في تعيين {القرية} على أقوال:

الأول:أنها بيت المقدس. قاله قتادة[٣]، والسدي[٤]، والربيع[٥]، وهو قول الجمهور[٦].

والثاني: أنها أريحا من بيت المقدس، إذ كانت قاعدة ومسكن ملوك. قاله ابن زيد[٧].

والثالث: أنها : الرملة والأردن وفلسطين وتدمر، قاله الضحاك[٨].

والراجح هو القول الأول، وهو قول الجمهور. والله أعلم.

قال القرطبي: "قوله تعالى{هَذِهِ الْقَرْيَةَ}[البقرة:٥٨]، أي: "المدينة، سميت بذلك لأنها تقرت أي اجتمعت ومنه قريت الماء في الحوض أي جمعته"[٩].

قال السمعاني:" سميت القرية قرية؛ لأنها تجمع أهلها. ومنه المقرآة للحوض؛ لأنه مجمع الماء. ومنه قرية النمل؛ لأنها تجمع النمل"[١٠].

قال أهل اللغة، أن "اشتقاق القرية من قريت، أي: جمعت، والمقراة: الحوض يجمع فيه الماء، والقَرِيّ: مسيل يجتمع الماء إليه[١١]، ويقال لبيت النمل: قرية، لأنه يجمع النمل [١٢]، قال الشاعر[١٣]:

كَأَنَّ قُرَى نَمْلٍ عَلَى سَرَوَاتِهَا ... يُلَبِّدُهَا فِي لَيْلِ سَارِيَةٍ قَطْرُ

فالقرية تجمع أهلها، ومنه يقال للظهر: القرى، لأنه مجتمع القوى"[١٤].

قوله تعالى: {فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا}[البقرة: ٥٨]، " أي كلوا منها أكلاً واسعاً هنيئاً"[١٥].

قال مجاهد:{رغدا}:" لا حساب عليهم"[١٦].

وقال السدي:"{رغدا}: الهنيء"[١٧].

قال الثعلبي:" موسعا عليكم"[١٨].

قال الطبري: أي"عيشا هنيا واسعا بغير حساب"[١].

---

(١) تفسير ابن عثيمين:١٩٩/١.
(٢) صفوة التفاسير: ٥٢/١.
(٣) أنظر: تفسير الطبري(٩٩٩):ص١٠٢/٢.
(٤) أنظر: تفسير الطبري(١٠٠٠):ص١٠٢/٢-١٠٣.
(٥) أنظر: تفسير الطبري(١٠٠١):ص١٠٣/٢.
(٦) انظر: تفسير القرطبي: ٤٠٩/١.
(٧) أنظر: تفسير الطبري(١٠٠٢):ص١٠٣/٢.
(٨) نقلا: عن تفسير الثعلبي: ٢٠١/١، وتفسير القرطبي: ٤٠٩/١.
(٩)تفسير القرطبي: ٤٠٩/١.
(١٠) تفسير السمعاني: ٨٣/١.
(١١)انظر "الزاهر" ٢/ ١٠٧، "جمهرة أمثال العرب" ٢/ ٤١١، "تهذيب اللغة" (قرأ) ٣/ ٣٩١١، "مقاييس اللغة" (قرى) ٥/ ٧٨، "المحكم" ٦/ ٣٠٧.
(١٢)قال ابن سيده: قرية النمل: ما تجمعه من التراب، "المحكم" ٦/ ٣٠٧، وانظر "اللسان" (قرأ) ٦/ ٣٦١٧. والبيت الذي ذكره يؤيد قول ابن سيده.
(١٣) البيت من شواهد الواحدي في التفسير البسيط: ٥٥٢/٢، ولم أتعرف على قائله.
(١٤) التفسير البسيط: ٥٥٢/٢
(١٥) صفوة التفاسير: ٥٢/١.
(١٦) أخرجه ابن أبي حاتم(٥٧٠):ص١١٧/١.
(١٧)أخرجه ابن أبي حاتم(٥٧١):ص١١٧/١.
(١٨) تفسير الثعلبي: ٢٠١/١.

قوله تعالى:{وَادْخُلُوا البابَ}[البقرة:٥٨]، " أي وادخلوا باب القرية"[٢].
قال الثعلبي:"يعني بابا من أبواب القرية وكان لها سبعة أبواب"[٣].
قوله تعالى:{سُجَّداً}[البقرة:٥٩]، أي:"منحنين متواضعين"[٤].
قال الصابوني:" أي ساجدين لله شكراً على خلاصكم من التيه"[٥].

عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "قيل لبني إسرائيل : {ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ} فدخلوا يزحفون على أستاههم، فبدّلوا وقالوا : حطة : حبة في شعرة""[٦].

وروي عن عبد الله بن مسعود قال: "قيل لهم: {ادخلوا الباب سجدا}، فدخلوا مقنعي رؤسهم"[٧].

واختلفوا في (الباب) في قوله{وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً}[البقرة:٥٨]، على ثلاثة أوجه[٨]:
أحدها: أنه باب في بيت المقدس يعرف اليوم بـ (باب حِطَّة)، وهذا قول ابن عباس[٩]، ومجاهد[١٠]، والسدي[١١]، والضحاك[١٢]، واختاره الطبري[١٣]، وهو المشهور.
والثاني: أنه باب القبة التي كان يصلي إليها موسى وبنو إسرائيل.
والثالث: أنه باب القرية، التي أمروا بدخولها[١٤].

واختلفوا في قوله {وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً}[البقرة:٥٨]، على وجهين [١٥]:
أحدهما: أن معناه: رُكَّعاً، منحنين ركوعا. وهذا قول ابن عباس[١٦].
والثاني: أن معناه: متواضعين خشوعا، لا على هيئة متعينة.

والقول الأول أشبه بالصواب: وأصل (السجود) الانحناء لمن سُجد له معظّما بذلك. فكل منحن لشيء تعظيما له فهو (ساجد) ومنه قول زيد الخيل بن مهلهل الطائي[١٧]:
بَجَمْعٍ تَضَلُّ الْبَلْقُ في حُجُرَاتِهِ   تَرَى الأَكْمَ فِيهِ سُجَّداً لِلْحَوافِرِ
فقوله(سجدا)، أي: خاشعة خاضعة، ومن ذلك قول أعشى بني قيس بن ثعلبة[١٨]:

---

(١) تفسير الطبري: ١٠٣/٢.
(٢) صفوة التفاسير: ٥٢/١.
(٣) تفسير الثعلبي: ٢٠١/١.
(٤) تفسير الثعلبي: ٢٠١/١.
(٥) صفوة التفاسير: ٥٢/١.
(٦)صحيح البخاري برقم (٤٤٧٩)، و سنن النسائي الكبرى برقم (١٠٩٩٠).
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(٥٧٩):ص١١٨/١.
(٨) انظر:تفسير الطبري: ١٠٣/٢، و تفسير القرطبي: ٤١٠/١.
(٩) أنظر: تفسير الطبري(١٠٠٦):ص١٠٤/٢.
(١٠) أنظر: تفسير الطبري(١٠٠٣):ص١٠٣/٢، وتفسير ابن أبي حاتم(٥٧٤):ص١١٧/١.
(١١) أنظر: تفسير الطبري(١٠٠٥):ص١٠٤/٢.
(١٢) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم:١١٧/١.
(١٣) أنظر: تفسير الطبري: ١٠٣/٢.
(١٤) أنظر: النكت والعيون: ١٢٥/١.
(١٥) انظر: تفسير الطبري: ١٠٤/٢، وتفسير القرطبي: ٤١٠/١.
(١٦) أنظر: تفسير الطبري(١٠٠٦)، و(١٠٠٧)، و(١٠٠٨):ص١٠٤/٢.
(١٧) الكامل ١ : ٢٥٨ ، والمعاني الكبير : ٨٩٠ ، والأضداد لابن الأنباري : ٢٥٦ ، وحماسة ابن الشجري : ١٩ ، ومجموعة المعاني : ١٩٢ ، وغيرها . والباء في قوله " بجمع " متعلقة ببيت سالف هو :
بَنِي عَامِرٍ ، هَلْ تَعْرِفُونَ إذَا غَدَا ... أَبُو مِكْنَفٍ قَدْ شَدَّ عَقْدَ الدَّوَابِرِ؟
والبلق جمع أبلق وبلقاء : الفرس يرتفع تحجيلها إلى الفخذين. والحجرات جمع حجرة (بفتح فسكون) : الناحية. والأكم (بضم فسكون ، وأصلها بضمتين) جمع إكام ، جمع أكمة : وهي تل يكون أشد ارتفاعا مما حوله ، دون الجبل ، غليظ فيه حجارة . قال ابن قتيبة في المعاني الكبير : " يقول : إذا ضلت البلق فيه مع شهرتها فلم تعرف ، فغيرها أحرى أن يضل. يصف كثرة الجيش ، ويريد أن الأكم قد خشعت من وقع الحوافر " . وفي المطبوعة هنا " فيه " والجيد ما أثبته ، والضمير في " منه " للجيش أو الجمع.
(١٨) ديوانه: ٤١. راوح يراوح مراوحة : عمل عملين في عمل ، يعمل ذامرة وذا مرة ، قال لبيد يصف فرسا :
وولّى عامدا لِطِيات فَلْج   يراوح بين صون وابتذال

يُرَاوِحُ مِنْ صَلَواتِ الْمِلِيـ ... كِ طَوْراً سُجُوداً وَطَوْراً جِوَاراً
فذلك تأويل ابن عباس قوله : (سجدا) ركعا، لأن الراكع منحن، وإن كان الساجد أشد انحناء منه[١].
قوله تعالى: {وَقُولُواْ حِطَّةٌ}[البقرة:٥٨]، "أي: قولوا يا ربنا حطَّ عنا ذنوبنا واغفر لنا خطايانا"[٢].
والـ{حِطَّةٌ}: من قول القائل : " حط الله عنك خطاياك فهو يحطها حطة "[٣]، واختلف أهل العلم في تفسيره على أقوال[٤]:
الأول: أن معناه:حُطَّ عنا خطايانا، وهو قول الحسن[٥]، وقتادة[٦]، وابن زيدٍ[٧]، وعطاء[٨]، ورواية ابن جريج عن ابن عباس[٩].
قال الماوردي :"وهو أشبهُ بظاهر اللفظ"[١٠]. وهذا تفسير حسن، قال به كثير من أهل العلم[١١].
والثاني:أن معناه: قولوا (لا إله إلا الله). روي ذلك عن عكرمة[١٢]، كأنهم وجهوا تأويله : قولوا الذي يحط عنكم خطاياكم، وهو قول لا إله إلا الله .
والثالث: أن {حِطَّةٌ} المغفرة، فكأنه أمر بالاستغفار، وهو رواية سعيد بن جبيرٍ، عن ابن عباسٍ[١٣]، وروي عن عطاء والحسن وقتادة والربيع بن أنس نحو ذلك[١٤].
والرابع: أنه قولهم : "هذا الأمر حق كما قيل لكم"[١٥]، وهو رواية الضحاك، عن ابن عباسٍ[١٦].
الخامس: معناه: " أن أقروا بالذنب". حكاه الأوزاعي عن ابن عباس[١٧].
السادس: أن معنى (حِطَّةٌ): بسم الله، ذكره السمرقندي[١٨] عن بعضهم، فكأن المعنى عليه: ادخلوا الباب خاضعين لله مستعينين به على عدوكم، فإن فعلتم ذلك غفرنا لكم خطاياكم نتيجة امتثالكم، وهو محتمل.
السابع: أن (حِطَّةٌ) من ألفاظ أهل الكتاب لا يعرف المراد منها، قاله الأصم[١٩].

وقوله : " من صلوات " " من " هنا لبيان الجنس ، مثل قوله تعالى : يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرا من سندس واستبرق " . وحذف " بين " التي تقتضيها " يراوح " ، لدلالة ما يأتي عليها ، وهو قوله : " طورا . . وطورا " . والجؤار : رفع الصوت بالدعاء مع تضرع واستغاثة وجزع . جأر إلى ربه يجأر جؤارا .
(١) انظر: تفسير الطبري: ١٠٥/٢.
(٢) صفوة التفاسير: ٥٢/١.
(٣) تفسير الطبري: ١٠٥/٢.
(٤) انظر: تفسير الطبري: ١٠٦/٢، والنكت والعيون: ١٢٦/١.
(٥) أنظر: تفسير الطبري(١٠٠٩):ص١٠٥/٢، وابن أبي حاتم(٥٨٤):ص١١٩/١.
(٦) أنظر: تفسير الطبري(١٠٠٩):ص١٠٥/٢، وابن أبي حاتم(٥٨٤):ص١١٩/١.
(٧) أنظر: تفسير الطبري(١٠١٠):ص١٠٥/٢-١٠٦.
(٨) أنظر: تفسير الطبري(١٠١٤):ص١٠٦/٢.
(٩) أنظر: تفسير الطبري(١٠١١):ص١٠٦/٢.
(١٠)النكت والعيون: ١٢٦/١.
(١١)انظر: غريب القرآن وتفسيره لليزيدي: ٧٠، معاني القرآن للأخفش: ٢٦٩/١، تفسير ابن أبي حاتم: ١٨٥/١، النكت والعيون للماوردي: ١٢٦/١، المفردات للراغب: ١٢٢، الكشاف للزمخشري: ٢٨٣/١، أنوار التنزيل للبيضاوي: ٥٨/١، إرشاد العقل السليم لأبي السعود: ١٠٤/١، محاسن التأويل للقاسمي: ١٣٤/٢، وغيرها.
(١٢) أنظر: تفسير الطبري(١٠١٥):ص١٠٧/٢، وابن أبي حاتم(٥٨٢):ص١١٨/١.
(١٣) أنظر: تفسير الطبري(١٠١٢):ص١٠٦/٢، وفيه:" : (حطة) ، مغفرة". وأنظر: الخبر(١٠١٦):ص٢ /١٠٦. وفيه": أمروا أن يستغفروا".
(١٤) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم:١١٨/١.
(١٥) انظر: تفسير الطبري: ١٠٦/١-١٠٧. ، ويقرب منه ما ذكره السيوطي في المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب: ٨٤ من أن المعنى صواباً، فكأن المطلوب منهم: الإقرار بصدق الرسول فيما جاء به، والتسليم وعدم التكذيب، وهو محتمل.
(١٦) أنظر: تفسير الطبري(١٠١٧):ص١٠٧/٢، وابن أبي حاتم(٥٨١):ص١١٨/١.
(١٧) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٨٣):ص١١٨/١.
(١٨) أنظر: بحر العلوم: ١٢١/١.
(١٩)أنظر: مفاتيح الغيب للرازي: ٩٥/٣، وذكر ذلك السيوطي في المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب: ٨٣-٨٤، وهو قول بعيد إذ اللفظة معلومة الاشتقاق في العربية.

الثامن: أن (حِطَّة): كانت تعني في ذلك المكان الدلالة على العجز، وهي من أقوال أصحاب المسألة والشحاذين، أمروا بها كيلا يحسب لهم أهل القرية حساباً، ولا يأخذوا منهم حذراً، فيكون القول الذي أمروا به على ذلك قولاً يخاطبون به أهل القرية(١).

التاسع: أن (حِطَّة) تعني إقامة من الحط بمعنى حط الرحال وإنزالها، أي: ادخلوا قائلين إنكم ناوون الإقامة والاستقرار بها، قاله أبو مسلم الأصفهاني(٢).

وهذان القولان الأخيران كما ذكر الألوسي بعيدان لعدم ظهور تعلق الغفران بهما(٣).

وأحسن هذه الوجوه وأقربها إلى التحقيق القول الأول، والله أعلم.

واختلف أهل العربية في المعنى الذي من أجله رفعت(الحطة)، على أقوال(٤):

الأول: فقال بعض نحويي البصرة : رفعت (الحطة) بمعنى (قولوا) ليكن منك حطة لذنوبنا، كما تقول للرجل : سَمْعُك.

والثاني: وقال آخرون منهم : هي كلمة أمرهم الله أن يقولوها مرفوعة، وفرض عليهم قيلها كذلك.

والثالث: وقال بعض نحويي الكوفيين : رفعت (الحطة) بضمير(هذه)، كأنه قال : وقولوا : (هذه) حطة.

والرابع: وقال آخرون منهم : هي مرفوعة بضمير معناه الخبر، كأنه قال : قولوا ما هو حطة، فتكون (حطة) حينئذ خبرا لـ(ما).

والأقرب إلى الصواب: "أن يكون رفع(حطة) بنية خبر محذوف قد دل عليه ظاهر التلاوة، وهو دخولنا الباب سجدا حطة، فكفى من تكريره بهذا اللفظ، ما دل عليه الظاهر من التنزيل، وهو قوله : (وادخلوا الباب سجدا)، كما قال جل ثناؤه :{وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ}[الأعراف : ١٦٤]، يعني : موعظتنا إياهم معذرة إلى ربكم . فكذلك عندي تأويل قوله : (وقولوا حطة)، يعني بذلك : وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية، وادخلوا الباب سجدا، وقولوا : دخولنا ذلك سجدا حطة لذنوبنا، وهذا القول على نحو تأويل الربيع بن أنس وابن جريج وابن زيد"(٥).

وأما على تأويل قول عكرمة، "فإن الواجب أن تكون القراءة بالنصب في (حطة)، لأن القوم إن كانوا أمروا أن يقولوا : (لا إله إلا الله)، أو أن يقولوا :(نستغفر الله)، فقد قيل لهم : قولوا هذا القول، ف (قولوا) واقع حينئذ على (الحطة)، لأن (الحطة) على قول عكرمة - هي قول (لا إله إلا الله)، وإذا كانت هي قول (لا إله إلا الله)، فالقول عليها واقع، كما لو أمر رجل رجلا بقول الخير فقال له : " قل خيرا " نصبا، ولم يكن صوابا أن يقول له : (قل خير)، إلا على استكراه شديد، وفي إجماع القَرَأَةِ على رفع(الحطة) بيان واضح على خلاف الذي قاله عكرمة من التأويل في قوله : (وقولوا حطة)، وكذلك الواجب على التأويل الذي رويناه عن الحسن وقتادة في قوله : (وقولوا حطة)، أن تكون القراءة في(حطة) نصبا، لأن من شأن العرب - إذا وضعوا المصادر مواضع الأفعال، وحذفوا الأفعال - أن ينصبوا المصادر. كما قال الشاعر(٦) :

أبيدوا بأيدي عصبة وسيوفهم ... على أمهات الهام ضربا شآميا

وكقول القائل للرجل :(سمعا وطاعة) بمعنى : أسمع سمعا وأطيع طاعة، وكما قال جل ثناؤه : (معاذ الله) [يوسف : ٢٣] بمعنى : نعوذ بالله"(٧).

واختلفت القراءة في قوله تعالى:{حِطَّةٌ}[البقرة:٥٩]، على وجهين(٨):

---

(١)انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور: ٥١٥/١.

(٢)انظر: مفاتيح الغيب للرازي: ٩٥/٣، التحرير والتنوير لابن عاشور: ٥١٥/١.

(٣) أنظر: روح المعاني: ٢٦٥/١.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ١٠٧/١=١٠٨.

(٥) تفسير الطبري: ١٠٧/٢-١٠٨.

(٦)ديوانه : ٨٩٠ في قصيدة يمدح فيها يزيد عبد الملك ، ويذكر إيقاعه بيزيد بن المهلب في سنة ١٠٢ (انظر خبره في تاريخ الطبري ٨ : ١٥١ - ١٦٠). ورواية ديوانه. " أناخوا بأيدى طاعة ، وسيوفهم " قوله : " أناخوا " ، أي ذلوا وخضعوا ، أو صرعوا فماتوا ، كأنهم إبل أناخت واستقرت. وقوله : " أيدي طاعة " ، أي أهل طاعة.

(٧) تفسير الطبري: ١٠٨/١-١٠٩.

(٨) أنظر: شواذ القرآن لابن خالويه: ١٣، الكشاف للزمخشري: ٢٨٣/١، المحرر الوجيز لابن عطية: ٢٣١/١، مفاتيح الغيب للرازي: ٩٥/٣، البحر المحيط لأبي حيان: أ/٢٢٢، روح المعاني للألوسي: ٢٦٦/١.

الأول: {حِطَّةً}، بالنصب[١]، وهي قراءة إبراهيم بن أبي عبلة[٢][٣].
والثاني: {حِطَّةٌ}، بالرفع، قرأ بها الجمهور[٤]، على أنه خبر لمبتدأ محذوف، أي: مسألتنا حطة[٥]
قوله تعالى: {نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ}[البقرة:٥٨]، "أي نمح ذنوبكم ونكفّر سيئاتكم"[٦].
قال قتادة:" من كان خاطئا غفرت له خطيئته"[٧].
قال الماوردي:" أي: نرحمْكم، ونسترها عليكم، فلا نفضحكم بالعقوبة عليها "[٨].
قال الطبري: أي: "نتغمد لكم بالرحمة خطاياكم، ونسترها عليكم، فلا نفضحكم بالعقوبة عليها"[٩].
وأصل (الغفر) التغطية والستر، فكل ساتر شيئا فهو غافره، ومن ذلك قيل للبيضة من الحديد التي تتخذ جُنة للرأس (مغفر)، لأنها تغطي الرأس وتجنه، ومنه (غمد السيف)، وهو ما تغمده فواراه ولذلك قيل لزئبر الثوب : (غفرة)، لتغطيته الثوب، وحوله بين الناظر والنظر إليه، ومنه قول أوس بن حجر[١٠] :

فلا أعتب ابن العم إن كان جاهلا   وأغفر عنه الجهل إن كان أجهلا

فقوله: (وأغفر عنه الجهل): أي: أستر عليه جهله بحلمي عنه[١١].
و(الخطايا)، جمع :خطية، بغير همز، كما(المطايا)، جمع: مطية، ولو كانت (الخطايا) مجموعة على(خطيئة)، بالهمز : لقيل خطائي على مثل قبيلة وقبائل، وقد تجمع " خطيئة " بالتاء، فيهمز فيقال " خطيئات " . و " الخطيئة " فعيلة، من " خَطِئَ الرجل يخطأ خِطْأً "، وذلك إذا عدل عن سبيل الحق. ومنه قول الشاعر [١٢]:

وإن مُهَاجِرَيْن تَكَنَّفاه ... لعمر الله قد خطئا وخابا

---

(١) ذكر الزمخشري في الكشاف: ٢٨٣/١ أن النصب هو الأصل، واستحسنه أبو حيان في البحر المحيط: ٢٢٢/١.
(٢) هو: إبراهيم بن أبي عبلة (شمر) بن يقظان الشامي المرتحل، ثقة فاضل له أدب ومعرفة، وكان يقول الشعر، توفي عام: ١٥٢هـ. انظر: الجرح والتعديل لابن أبي حاتم: ١٠٥/٢، تاريخ بغداد للخطيب: ١٣٣/٦، تهذيب التهذيب-المعرفة-لابن حجر: ١٥٤/١، تقريب التهذيب لابن حجر: ١١١.
(٣) انظر في نسبة قراءة النصب له: شواذ القرآن لابن خالويه: ١٣، الكشاف للزمخشري: ٢٨٣/١، المحرر الوجيز لابن عطية: ٢٣١/١، مفاتيح الغيب للرازي: ٩٥/٣، البحر المحيط لأبي حيان: أ/٢٢٢، روح المعاني للألوسي: ٢٦٦/١.،
(٤) هي قراءة العشرة المتواترة، إذ لم يذكر من صنف في قراءاتهم في الآية خلافاً، انظر: الغاية لابن مهران: ١١١، الإقناع لابن الباذش: ٥٩٨/٢، النشر لابن الجزري: ٢١٤/٢، المهذب د. محيسن: ٥٦/١. وقد نسبها للجمهور غير واحد، انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٤١٠/١، وفتح القدير للشوكاني: ١٣٢/١، وقد ذكر النحاس في إعراب القرآن: ٢٢٨/٢ بأن الرفع أولى في اللغة.
(٥) والمعنى: سؤالنا إياك أن تحط ذنوبنا، ويمكن أن يكون التقدير: أمرك حطة، أي: استسلمنا لأمرك فحط عنا ذنوبنا، أو: شأنك حطة، أي: شأنك أن تحط ذنوب التائبين فحط ذنوبنا، أو إرادتنا حطة، أي: إرادتنا أن تحط ذنوبنا. والحطة على هذا القول يراد بها مطلق المصدر كالحط، والحط: الإزالة، يقال: حططت عنه الخراج أي: أزلته عنه. وانظر هذا الوجه في: إعراب القرآن للنحاس: ٢٢٨/١، معاني القرآن للزجاج: ١١٠/١، البسيط للواحدي-تحقيق الفوزان-: ٩٣٢/٣، إملاء ما من به الرحمن للعكبري: ٣٨/١، البحر المحيط لأبي حيان: ٢٢٢/١، الدر المصون للسمين: ٢٣٢/١.
(٦) صفوة التفاسير: ٥٢/١.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(٥٨٥):ص١١٩/١.
(٨) النكت والعيون: ١٢٦/١.
(٩) تفسير الطبري: ١٠٩/٢.
(١٠)ديوانه ، قصيدة " ٣١. وهذه الرواية جاءت في شرح شواهد المغني : ١٣٧ ، وأما في سائر الكتب : " إن كان ظالما " ، وهي أجود. وقوله : " أجهل " بمعنى جاهل ، كما قالوا " أوجل " بمعنى وجل ، وأميل بمعنى مائل ، وأوحد بمعنى واحد ، وغيرها. ورواية صدر البيت على الصواب : " ألا أعتب " كما في المفضليات ٥٩٠ وغيره ، أو " وقد أعتب " كما في القرطين ٢ : ٦٩. ويروى " ولا أشتم ابن العم " . يقول : أبلغ رضاه إذا ظلم او جهل ، فأترك له ما لا يحب إلى ما يرضاه.
(١١) تفسير الطبري: ١٠٩/٢-١١٠.
(١٢)البيت لأمية بن الأسكر، أمالي القالي ٣ : ١٠٩ ، وكتاب المعمرين : ٦٨ والخزانة ٢ : ٤٠٥ ، ويروى صدره " أتاه مهاجران تكنفاه " . وأما عجزه فاختلفت رواياته : " بترك كبيرة خطئا . . " و " ليترك شيخه خطئا . . " ، " ففارق شيخه ، . . " وكان أمية قد أسن ، عمر في الجاهلية عمرا طويلا ، وألفاه الإسلام هرما . ثم جاء زمن عمر ، فخرج ابنه كلاب غازيا ، وتركه هامة اليوم أو غد . فقال أبياتا منها هذا للبيت ، فلما سمعها عمر ، كتب إلى سعد بن أبي وقاص : أن رحل كلاب بن أمية بن الأسكر ، فرحله . وله مع عمر في هذه الحادثة قصة جيدة (في القالي ١ : ١٠٩) .

يعني : أضلا الحق وأثما[١].
قال ابن عثيمين:" (المغفرة) هي ستر الذنب، والتجاوز عنه؛ ومعناه أن الله ستر ذنبك، ويتجاوز عنك، فلا يعاقبك؛ لأن "المغفرة" مأخوذة من المغفر ـ وهو ما يوقى به الرأس في الحرب؛ لأنه يستر، ويقي؛ ومن فسر "المغفرة" بمجرد الستر فقد قصَّر؛ لأن الله تعالى إذا خلا بعبده المؤمن يوم القيامة، وقرره بذنوبه قال: "قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم"[١] أي اليوم أسترها أيضاً، ثم أتجاوز عنها؛ و{خطاياكم} جمع خَطِيَّة، كـ"مطايا" جمع مطية؛ و "الخطية" ما يرتكبه الإنسان من المعاصي عن عمد؛ وأما ما يرتكبه عن غير عمد فيسمى "أخطاء"؛ ولهذا يفرق بين "مخطئ"، و"خاطئ"؛ الخاطئ ملوم؛ والمخطئ معذور، كما قال الله تعالى: {لنسفعاً بالناصية * ناصية كاذبة خاطئة} [العلق: ١٥، ١٦]، وقال تعالى: {ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا} [البقرة: ٢٨٦]"[٢].
قوله تعالى: {وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ}[البقرة:٥٨]، "أي نزيد من أحسن إحساناً، بالثواب العظيم، والأجر الجزيل"[٣].
قال الثعلبي: "إحسانا وثوابا"[٤].
قال النسفي:" أي من كان محسناً منكم، كانت تلك الكلمة سبباً في زيادة ثوابه ومن كان مسيئاً كانت له توبة ومغفرة"[٥].
قال ابن كثير:" أي : إذا فعلتم ما أمرناكم غفرنا لكم الخطيئات وضعفنا لكم الحسنات"[٦].
قال ابن عباس:"من كان منكم محسنا زيد في إحسانه، ومن كان مخطئا نغفر له خطيئته"[٧]. وروي عن قتادة[٨]، نحو ذلك.
قال ابن عطية:" المعنى: إذا غفرت الخطايا بدخولكم وقولكم زيد بعد ذلك لمن أحسن، وكان من بني إسرائيل من دخل كما أمر وقال لا إله إلا الله فقيل هم المراد بـ{الْمُحْسِنِينَ} هنا"[٩].
الفوائد:
١- من فوائد الآية: إثبات القول لله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: {وإذ قلنا ادخلوا}؛ وهو قول حقيقي بصوت، وبحرف؛ لكن صوته سبحانه وتعالى لا يشبهه صوت من أصوات المخلوقين؛ ولا يمكن للإنسان أن يدرك هذا الصوت؛ لقوله تعالى: {ولا يحيطون به علماً} [طه: ١١٠] ؛ وهكذا جميع صفات الله عزّ وجلّ لا يمكن إدراك حقائقها.
٢- ومنها: وعد الله لهم بدخولها؛ ويؤخذ هذا الوعد من الأمر بالدخول؛ فكأنه يقول: فتحنا لكم الأبواب فادخلوا.
٣- ومنها: جواز أكل بني إسرائيل من هذه القرية التي فتحوها؛ فإن قال قائل: أليس حِلّ الغنائم من خصائص هذه الأمة ـ أي أمة محمد صلى الله عليه وسلم؟ فالجواب: بلى، والإذن لبني إسرائيل أن يأكلوا من القرية التي دخلوها ليس على سبيل التمليك؛ بل هو على سبيل الإباحة؛ وأما حِلّ الغنائم لهذه الأمة فهو على سبيل التمليك.

---

(١) أنظر: تفسير الطبري: ١١٠/٢.
(١) أخرجه البخاري ص١٩٢، كتاب المظالم، باب٢: قول الله تعالى: (ألا لعنة الله على الظالمين)، حديث رقم ٢٤٤١؛ وأخرجه مسلم ص١١٥٨، كتاب التوبة، باب ٨: في سعة رحمة الله تعالى على المؤمنين وفداء كل مسلم بكافر من النار، حديث رقم ٧٠١٥ [٥٢] ٢٧٦٨.
(٢) تفسير ابن عثيمين:٢٠٠/١-٢٠١.
(٣) صفوة التفاسير: ٥٢/١.
(٤) تفسير الثعلبي: ٢٠٢/١.
(٥) تفسير النسفي: ٦٦/١.
(٦) تفسير ابن كثير: ٢٧٥/١.
(٧) أخرجه الطبري(١٠١٨):ص١١١/٢.
(٨) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٨٦):ص١١٩/١.
(٩) المحرر الوجي: ١٥١/١.

٤- ومنها: أنه يجب على من نصره الله، وفتح له البلاد أن يدخلها على وجه الخضوع، والشكر لله؛ لقوله تعالى: {وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة}؛ ولهذا لما فتح النبي صلى الله عليه وسلم مكة دخلها مطأطئاً رأسه(١) يقرأ قول الله تعالى: {إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً} [الفتح: ١].
٥- ومنها: أن الجهاد مع الخضوع لله عزّ وجلّ، والاستغفار سبب للمغفرة؛ لقوله تعالى: {نغفر لكم خطاياكم}، وسبب للاستزادة أيضاً من الفضل؛ لقوله تعالى: {وسنزيد المحسنين}.
٦- ومنها: أن الإحسان سبب للزيادة سواء كان إحساناً في عبادة الله، أو إحساناً إلى عباد الله؛ فإن الإحسان سبب للزيادة؛ وقد ثبت عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال: "الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه"(٢) ؛ وقال: "ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته(٣)".

القرآن

{فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩)} [البقرة : ٥٩]

التفسير:

فبدَّل الجائرون الضالون من بني إسرائيل قول الله، وحرَّفوا القول والفعل جميعًا، إذ دخلوا يزحفون على أستاههم وقالوا: حبة في شعرة، واستهزءوا بدين الله، فأنزل الله عليهم عذابًا من السماء؛ بسبب تمردهم وخروجهم عن طاعة الله.

قوله تعالى:{ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ}[البقرة:٥٩]، أي:" فاختار الذين ظلموا منهم على وجه التبديل والمخالفة قولا غير الذي أمروا أن يقولوه، فقالوا خلافه"(١).

قال الثعلبي: {ظلموا}" أنفسهم بالمعصية، وقيل كفروا"(٢).

قال النسفي: أي:" فخالفوه إلى قول، ليس معناه معنى ما أمروا به ولم يمتثلوا أمر الله"(٣).

واختلف في قوله تعالى:{فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ}[البقرة: ٥٩] على وجوه(٤):

أحدها: أنهم: "دخلوا الباب يزحفون على أستاهم، وقالوا : حبة في شعيرة". روي ذلك عن رسول الله-صلى الله عليه وسلم-(٥)، وعلى هذا القول عامة المفسرين، وقد روي عن ابن عباس(٦)، وعطاء ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك والحسن والربيع ويحيى بن رافع نحو ذلك(٧).

الثاني: أنهم قالوا: حنطة حمراء فيها شعيرة. قاله عكرمة(١)، وأبو الكنود(٢).

---

(١) راجع البخاري ص٣٥٠، كتاب المغازي، باب ٤٩: أين ركز النبي صلى الله عليه وسلم الراية يوم الفتح، حديث رقم ٤٢٨١؛ ومسلماً ص٨٠٣، كتاب صلاة المسافرين، كتاب فضائل القرآن وما يتعلق به، باب ٣٥: ذكر قراءة النبي صلى الله عليه وسلم سورة الفتح يوم فتح مكة، حديث رقم ١٨٥٤ [٢٣٨] ٧٩٤؛ ولم أقف على من أخرجه بلفظ "مطأطئاً رأسه".

(٢) أخرجه مسلم ص١١٤٧، كتاب الذكر والدعاء، باب ١١: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن، حديث رقم ٦٨٥٣ [٣٨] ٢٦٩٩.

(٣) أخرجه البخاري ص١٩٢، كتاب المظالم، باب ٣: لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه، حديث رقم ٢٤٤٢؛ وأخرجه مسلم ص١١٢٩، كتاب البر والصلة، باب ١٥: تحريم الظلم، حديث رقم ٦٥٧٨ [٥٨] ٢٥٨٠.

(١) انظر: تفسير الطبري: ١١٢/٢، وتفسير ابن عثيمين:٢٠١/١.

(٢) تفسير الثعلبي: ٢٠٢/١.

(٣) تفسير النسفي: ٦٦/١.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ١١٢/٢-١١٥، والبسيط للواحدي-تحقيق الفائز-: ٩٤٢/٣، الكشاف للزمخشري: ٢٨٣/١، المحرر الوجيز لابن عطية: ٢٣٣/١، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٣٠٤/٧، معالم التنزيل للبغوي: ٩٩/١، زاد المسير لابن الجوزي: ٨٥/١ وغيرها.

(٥) عن أبي هريرة، قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : قال الله لبني إسرائيل : " ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم " ، فبدلوا ودخلوا الباب يزحفون على أستاهم ، وقالوا : حبة في شعيرة .(رواه أحمد في المسند : ٨٢١٣ (ج ٢ ص ٣١٨ حلبي) ، عن عبد الرزاق ، بهذا الإسناد ، ولكن بلفظ " حبة في شعرة " . وكذلك رواه البخاري ٦ : ٣١٢ ، و٨ : ٢٢٨ - ٢٢٩ (فتح الباري) ، من طريق عبد الرازق. وذكر الحافظ (٨ : ٢٢٩) أن لفظ " شعرة " رواية أكثر رواة البخاري ، وأن رواية الكشميهني " شعيرة " . وذكره ابن كثير ١ : ١٨٠ ، ونسبه أيضًا لمسلم والترمذي ، من رواية عبد الرزاق).

(٦) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٩٠):ص١١٩/١-١٢٠، و تفسير الطبري(١٠٣٤):ص١١٥/٢.

(٧) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٢٠/١.

الثالث:أنهم: فجعلوا يدخلون من قبل أستاههم ويقولون : حنطة. قاله ابن عباس[٣].
الرابع: إنهم قالوا: " هطى سمقا يا ازبة هزبا "، وهو بالعربية : حبة حنطة حمراء مثقوبة فيها شعيرة سوداء. قاله ابن مسعود[٤].
الخامس: وقال أبو مسلم : إن المراد بقوله تعالى: {فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا} [البقرة:٥٩]: أنهم لم يفعلوا ما أمرهم الله به، ولم يلتفتوا إليه، لا على أنهم أتوا له ببدل، ودلل على قوله ذلك بقوله-عز وجل-: {سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ} [الفتح:١٥]، ولم يكن تبديلهم إلا الخلاف في الفعل لا في القول فكذلك هنا[٥].
وهذا قول بعيد؛ لأن ظاهر الآية والأحاديث الصحيحة تبطله، والله أعلم.
وحاصل ما ذكره المفسرون وما دل عليه السياق أنهم بدلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول والفعل، فأمروا أن يدخلوا سجدًا، فدخلوا يزحفون على أستاههم من قبل أستاههم رافعي رؤوسهم، وأمروا أن يقولوا : حطة، أي : احطط عنا ذنوبنا، فاستهزؤوا فقالوا : حنطة في شعرة، وهذا في غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة ؛ ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه بفسقهم، وهو خروجهم عن طاعته ؛ ولهذا قال : {فَأَنزلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ}"[٦]، ومعنى السجود في قوله تعالى عند الدخول، أي: "الانحناء شكراً لله تعالى لا لأن بابها قصير كما قيل، إذ لا جدوى له، والظاهر أن المقصود من السجود مطلق الانحناء لإظهار العجز والضعف كيلا يفطن لهم أهل القرية وهذا من أحوال الجوسسة، ولم تتعرض لها التوراة ويبعد أن يكون السجود المأمور به سجود الشكر لأنهم داخلون متجسسين لا فاتحين وقد جاء في الحديث الصحيح أنهم بدلوا وصية موسى فدخلوا يزحفون على استاهم كأنهم أرادوا إظهار الزمانة فأفرطوا في التصنع بحيث يكاد أن يفتضح أمرهم لأن بعض التصنع لا يستطاع استمراره"[٧].
وقوله تعالى: {رِجْزاً}[البقرة:٥٩]، فيه وجهان من القراءة[٨]:
الأول:{رِجْزاً}، بكسر الراء. وهي قراءة الجماعة.
والثاني: {رُجْزاً}، بضم الراء، قرأ بها ابن محيصن.
قال القرطبي: "والرجز : العذاب "بالزاي" و"بالسين": النتن والقذر، ومنه قوله تعالى {فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ} [التوبة : ١٢٥]، أي: نتنا إلى نتنهم قاله الكسائي وقال الفراء الرجز هو الرجس، قال أبو عبيد : كما يقال السدغ والزدغ وكذا رجس ورجز بمعنى، قال الفراء : وذكر بعضهم أن الرجز "بالضم" اسم صنم كانوا يعبدونه وقرئ بذلك في قوله تعالى: {وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ} والرجز "بفتح الراء والجيم" نوع من الشعر وأنكر الخليل أن يكون شعرا وهو مشتق من الرجز وهو داء يصيب الإبل في أعجازها فإذا ثارت ارتعشت أفخاذها"[٩].
وقال الراغب: "أصل الرجز: الاضطراب، ومنه قيل: رجز البعير رجزا، فهو أرجز، وناقة رجزاء: إذا تقارب خطوها واضطرب لضعف فيها، وشبه الرجز به لتقارب أجزائه وتصور رجز في اللسان عند إنشاده، ويقال لنحوه من الشعر أرجوزة وأراجيز، ورجز فلان وارتجز إذا عمل ذلك، أو أنشد، وهو راجز ورجاز ورجازة. وقوله: {عذاب من رجز أليم} [سبأ:٥]، فالرجز ههنا كالزلزلة، وقال تعالى: {إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء} [العنكبوت:٣٤]، وقوله: {الرجز فاهجر} [المدثر:٥]، قيل: هو صنم، وقيل: هو كناية عن الذنب، فسماه بالمآل كتسمية الندى شحما. وقوله: {وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان} [الأنفال: ١١]، والشيطان عبارة عن الشهوة على ما بين في بابه. وقيل: بل أراد برجز

---

(١) أنظر: تفسير الطبري(١٠٣١):ص:١١٥/٢.
(٢) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٨٨):ص١١٩/١.
(٣) أنظر: تفسير الطبري(١٠٢٤):ص١١٣/٢.
(٤) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٨٩):ص١١٩/١، والتفسير الطبري(١٠٢٩):ص١١٤/٢، والدر المنثور: ٧١/١.
(٥) أنظر: مفاتيح الغيب للرازي: ٩٧/٣، وروح المعاني للألوسي: ٢٦٦/١،
(٦) تفسير ابن كثير: ٢٧٧/١.
(٧) انظر: تفسير ابن عاشور: ٥١٥.
(٨) أنظر: المحرر الوجيز: ١٥١/١.
(٩) تفسير القرطبي: ٤١٧/١.

الشيطان: ما يدعو إليه من الكفر والبهتان والفساد. والرجازة: كساء يجعل فيه أحجار فيعلق على أحد جانبي الهودج إذا مال(١)، وذلك لما يتصور فيه من حركته، واضطرابه"(٢).

واختلف أهل التفسير في معنى (الرجز)، في قوله تعالى:{فَأَنزلنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ}[البقرة:٥٩]، على أقوال(٣):

أحدها : أنه الطاعون، قاله ابن زيد(٤)، وهو قول الجمهور(٥).

الثاني: أنه الغضب. وهو قول أبي العالية(٦).

الثالث: أنه العذاب. قاله ابن عباس(٧)، وقتادة(٨)، وابن زيد في أحد قوليه(٩).

الرابع:وقيل: إما الطاعون أو البرد. قاله الشعبي(١٠).

والقول الأول هو الأقرب إلى الصواب، وذلك لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: " الطَّاعُونُ رِجْزٌ أَوْ عَذَابٌ أُرْسِلَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَوْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَإِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ "(١١)، وقد روى أنه مات منهم في ساعة بالطاعون أربعة وعشرون ألفاً، وقيل : سبعون ألفاً(١٢).

قوله تعالى: {بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ}[البقرة:٥٩]، أي: بما كانوا "يعصون ويخرجون من أمر الله تعالى"(١٣).

قال قتادة: "بما كانوا يعصون"(١٤).

قال ابن إسحاق: "أي: بما تعدوا في أمري"(١٥).

قال الطبري: أي" بما كانوا يتركون طاعة الله عز وجل، فيخرجون عنها إلى معصيته وخلاف أمره"(١٦).

قال الثعلبي:" يعني: يلعبون ويخرجون من أمر الله عزّ وجلّ"(١٧).

وقرأ النخعي وابن وثاب: {يفسِقون}، بكسر السين، يقال فسق يفسق ويفسق بضم السين وكسرها(١٨).

الفوائد:

١- من فوائد الآية: لؤم بني إسرائيل، ومضادَّتُهم لله، ورسله؛ لأنهم لم يدخلوا الباب سجداً؛ بل دخلوا يزحفون على أستاههم على الوراء استكباراً واستهزاءً.

٢- ومنها: بيان قبح التحريف سواء كان لفظياً، أو معنوياً؛ لأنه يغير المعنى المراد بالنصوص.

٣- ومنها: تحريم التبديل لكلمات الله وهو تحريفها؛ وأنه من الظلم، لقوله تعالى:{فبدل الذين ظلموا قولاً}.

---

(١)انظر:المجمل ٤٢٠/٢

(٢) مفردات ألفاظ القرآن: ٣٠١

(٣) انظر: الطبري: ١١٥/٢-١١٨، و تفسير ابن كثير: ٢٧٧/١-٢٧٨.

(٤) أنظر: تفسير الطبري(١٠٤٠):ص١١٧/٢.

(٥)انظر: تفسير ابن كثير: ٢٧٧/١-٢٧٨. واختاره جماعة من أهل التفسير منهم ابن عاشور.(انظر: تفسيره: ٥١٦/١). والطاعون : قيل : هو مرض خاص معروف عن العلماء والأطباء ، وقيل : بل هو كل مرض عام (وباء) ، يؤدي إلى وفاة الكثيرين من الناس ، وبذلك فإن كل مرض يسمى طاعونا ويكون سببه معلوما حسب قواعد الطب الحسي فإنه ليس طاعونا على الحقيقة ،أي ليس بالطاعون الذي جاءت به الأحاديث، بل قد يكون وباء .

(٦) أنظر: تفسير الطبري(١٠٣٩):ص١١٧/٢.

(٧) أنظر: تفسير الطبري(١٠٤٢):ص١١٨/٢.

(٨) أنظر: تفسير الطبري(١٠٣٨):ص١١٧/٢.

(٩) أنظر: تفسير الطبري(١٠٤١):ص١١٧/٢.

(١٠) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٩٤):ص١٢٠/١، وانظر: تفسير ابن كثير: ٢٧٧/١-٢٧٨.

(١١) رواه البخاري (٣٤٧٣) ، ومسلم (٢٢١٨) عن أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ رضي الله عنهما .

(١٢) انظر: تفسير الكشاف: ١٤٣/١.

(١٣) تفسير البغوي: ٩٩/١.

(١٤) أخرجه ابن أبي حاتم(٥٩٥): ص١٢٠/١.

(١٥) أخرجه ابن أبي حاتم(٥٩٦):ص١٢٠/١.

(١٦) تفسير الطبري: ١١٩/٢.

(١٧) تفسير الثعلبي: ٢٠٢/١.

(١٨) المحرر الوجيز: ١٥١/١.

٤- ومنها: بيان عقوبة هؤلاء الظالمين، وأن الله أنزل عليهم الرجز من السماء.
٥- ومنها: الإشارة إلى عدل الله عزّ وجلّ، وأنه لا يظلم أحداً، وأن الإنسان هو الظالم لنفسه.
٦- ومنها: إثبات فسوق هؤلاء بخروجهم عن طاعة الله؛ والفسق نوعان: فسق أكبر مخرج عن الملة، وضده "الإيمان"، كما في قوله تعالى: {وأمَّا الذين فسقوا فمأواهم النار} [السجدة: ٢٠] ؛ و فسق أصغر لا يخرج عن الملة، وضده "العدالة"، كما في قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا} [الحجرات: ٦].
٧- ومنها: إثبات الأسباب، وتأثيرها في مسبَّباتها؛ لقوله تعالى: {بما كانوا يفسقون}.
٨- ومنها: الرد على الجبرية الذين يقولون: إن الله سبحانه وتعالى مجبر العبد على عمله؛ ووجه الرد أن الله سبحانه وتعالى أضاف الفسق إليهم؛ والفسق هو الخروج عن الطاعة؛ والوجه الثاني: أنهم لو كانوا مجبرين على أعمالهم لكان تعذيبهم ظلماً، والله . تبارك وتعالى . يقول: {ولا يظلم ربك أحداً} [الكهف: ٤٩].
٩- ومنها: أن الفسوق سبب لنُزول العذاب.

القرآن

{وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠)} [البقرة : ٦٠]

التفسير:

واذكروا نعمتنا عليكم -وأنتم عطاش في التِّيْه- حين دعانا موسى -بضراعة- أن نسقي قومه، فقلنا: اضرب بعصاك الحجر، فضرب، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا، بعدد القبائل، مع إعلام كل قبيلة بالعين الخاصة بها حتى لا يتنازعوا، وقلنا لهم: كلوا واشربوا من رزق الله، ولا تسعوا في الأرض مفسدين.

قوله تعالى: {وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ}[البقرة: ٦٠]، "أي اذكروا يا بني إسرائيل حين طلب موسى السقيا لقومه وقد عطشوا في التيه"(١).

قال الطبري:" أي: سألنا أن نسقي قومه ماء"(٢).

قال ابن كثير:" واذكروا نعمتي عليكم في إجابتي لنبيكم موسى، عليه السلام، حين استسقاني لكم"(٣).

قوله تعالى: {فَقُلْنَا اضرب بِّعَصَاكَ الحجر}[البقرة:٦٠]، "أي اضرب أيّ حجر كان تتفجر بقدرتنا العيون منه"(٤).

واختلف أهل التفسير في نوع (الألف واللام) في قوله {الْحَجَرَ}[البقرة:٦٠]، على وجهين(٥):

أحدهما:أن (الألف واللام) للجنس، "أى اضرب الشيء الذي يقال له الحجر"(٦)، وعلى هذا أنه لم يكن حجرا معينا، بل كان موسى يضرب أي حجر كان من عرض الحجارة فينفجر عيونا لكل سبط عين، وكانوا اثني عشر سبطا ثم تسيل كل عين في جدول إلى السبط الذي أمر أن يسقيهم.وهذا قول وهب بن منبّه(٧).

قال الزمخشري: "وعن الحسن : لم يأمره أن يضرب حجراً بعينه قال: وهذا أظهر في الحجة وأبين في القدرة"(٨).

الثاني: أن (الألف اللام) للعهد، وعليه أنه كان حجرا مخصوصا بعينه، وقد روي عن قتادة(٩)، بأنه كان حجرا من جبل الطور.واختار هذا القول البيضاوي(١).

---

(١) صفوة التفاسير: ٥٤/١.
(٢) تفسير الطبري: ١٩/٢.
(٣) تفسير ابن كثير:٢٧٨/١.
(٤) صفوة التفاسير: ٥٤/١.
(٥) انظر: تفسير الثعلبي: ٢٠٣/١، و تفسير البغوي: ١٠٠/١، والكشاف: ١٤٤/١.
(٦) الكشاف: ١٤٤/١.
(٧) نقله عنه الثعلبي في تفسيره: ٢٠٣/١، وانظر: تفسير البغوي: ١٠٠/١.
(٨) الكشاف: ١٤٤/١.
(٩) أنظر: تفسير الطبري(١٠٤٣):ص١٢٠/٢.

ثم اختلفوا في تحديده، على أقوال[٢]:
أحدها: كان حجرا خفيفا مربعا، قاله ابن عباس[٣].
الثاني: أنه كان مثل رأس الثور. قاله عطية العوفي[٤].
الثالث: أنها كانت رخاما. حكاه الثعلبي[٥].
الرابع: كان الحجر من الكدان، قاله أبو روق[٦].
الخامس: أنه الحجر الذي وضع موسى ثوبه عليه ليغتسل حين رموه بالأدرة[٧]. قاله سعيد بن جبير[٨].
السادس: وقيل أهبطه آدم من الجنة فتوارثوه، حتى وقع إلى شعيب، فدفعه إليه مع العصا[٩].

قال ابن عطية : "ولا خلاف أنه كان حجرا منفصلا مربعا تطرد من كل جهة ثلاث عيون إذا ضربه موسى، وإذا استغنوا عن الماء ورحلوا جفت العيون"[١٠].

روي عن قتادة في قوله: {وإذ استسقى موسى لقومه} الآية، قال: " كان هذا إذْ هم في البرية اشتكوا إلى نبيهم الظمأ، فأمروا بحجر طوري - أي من الطور - أن يضربه موسى بعصاه . فكانوا يحملونه معهم، فإذا نزلوا ضربه موسى بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا، لكل سبط عين معلومة مستفيض ماؤها لهم"[١١].

قوله تعالى: {فانفجرت مِنْهُ اثنتا عَشْرَةَ عَيْناً}[البقرة:٦٠]، "أي فضرب فتدفق الماء منه بقوة وخرجت منه اثنتا عشرة عيناً بقدر قبائلهم"[١٢].

قال مجاهد : "خافوا الظمأ في تيههم حين تاهوا، فانفجر لهم الحجر اثنتي عشرة عينا، ضربه موسى"[١٣].

واختلفت القراءة في قوله تعالى{اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْناً}[البقرة:٦٠]، على ثلاثة أوجه[١٤]:
الأول: قرأ العامة: بسكون (الشّين) على التخفيف.
والثاني: قرأ العباس بن الفضل الأنصاري: بفتح (الشين) على الأصل.
والثالث: وقرئ بكسر (الشين)[١٥].

قوله تعالى: {قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ}[البقرة:٦٠]، "أي علمت كل قبيلة مكان شربها لئلا يتنازعوا"[١٦].

قال الثعلبي: أي:" موضع شربهم"[١٧].
قال البيضاوي: أي:" عينهم التي يشربون منها"[١٨].
قال مجاهد:" لكل سبط منهم عين، كل ذلك كان في تيههم حين تاهوا"[١٩]

---

(١) تفسير البيضاوي: ٨٣/١.
(٢) أنظر: تفسير الثعلبي:٢٠٣/١، و تفسير البيضاوي: ٨٣/١.
(٣) أنظر: تفسير الطبري(١٠٤٤):ص١٢٠/٢.
(٤) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٩٩):ص١٢١/١.
(٥) أنظر: تفسير الثعلبي:٢٠٣/١.
(٦) أنظر: تفسير الثعلبي:٢٠٣/١.
(٧)الأدرة: نفخ في الخصيتين.
(٨) أنظر: تفسير الثعلبي:٢٠٣/١.
(٩) أنظر: الكشاف: ١٤٤/١.
(١٠) المحرر الوجيز: ١٥٢/١.
(١١) أخرجه الطبري(١٠٤٣):ص١٢٠/٢.
(١٢) صفوة التفاسير: ٥٤/١.
(١٣) أخرجه الطبري(١٠٤٧):ص١٢٠/٢.
(١٤) أنظر: تفسير الثعلبي: ٢٠٤/١.
(١٥) أنظر: تفسير الثعلبي: ٢٠٤/١.
(١٦) صفوة التفاسير: ٥٤/١.
(١٧) تفسير الثعلبي: ٢٠٤/١.
(١٨) تفسير البيضاوي: ٨٣/١.
(١٩) أخرجه الطبري(١٠٤٦):ص١٢٠/٢.

وقال سعيد بن جبير:" كان موسى يضع الحجر ويقوم من كل سبط رجل، ويضرب موسى الحجر فينفجر منه اثنتا عشرة عينا، فينتضح من كل عين على رجل فيدعو ذلك الرجل سبطه إلى تلك العين"(١).

قال الطبري:" إن الله كان جعل لكل سبط من الأسباط الاثني عشر، عينا من الحجر الذي وصف صفته في هذه الآية، يشرب منها دون سائر الأسباط غيره، لا يدخل سبط منهم في شرب سبط غيره. وكان مع ذلك لكل عين من تلك العيون الاثنتي عشرة، موضع من الحجر قد عرفه السبط الذي منه شربه. فلذلك خص جل ثناؤه هؤلاء بالخبر عنهم : أن كل أناس منهم كانوا عالمين بمشربهم دون غيرهم من الناس . إذ كان غيرهم - في الماء الذي لا يملكه أحد - شركاء في منابعه ومسايله. وكان كل سبط من هؤلاء مفردا بشرب منبع من منابع الحجر - دون سائر منابعه - خاص لهم دون سائر الأسباط غيرهم، فلذلك خصوا بالخبر عنهم : أن كل أناس منهم قد علموا مشربهم"(٢).

قوله تعالى: {كُلُواْ واشربوا مِن رِّزْقِ الله}[البقرة:٦٠]، "أي قلنا لهم: كلوا من المنّ والسلوى، واشربوا من هذا الماء، من غير كدّ منكم ولا تعب، بل هو من خالص إنعام الله"(٣).

قال الثعلبي:" أي قلنا لهم: كلوا من المنّ، واشربوا من الماء فهذا كلّه من رزق الله الذي بلا مشقة ولا مؤنة ولا تبعة"(٤).

قال المراغي:" أي وقلنا لهم كلوا مما رزقناكم من المنّ والسلوى واشربوا مما فجرنا لكم من الماء من الحجر الصّلد"(٥).

قال أبو حيان: ولما كان مطعومهم ومشروبهم لا كلفة عليهم ولا تعب في تحصيله حسنت إضافته إلى الله تعالى، وإن كانت جميع الأرزاق منسوبة إلى الله تعالى، سواء كانت مما تسبب العبد في كسبها أم لا، واختص بالإضافة للفظ الله، إذ هو الاسم العلم الذي لا يشركه فيه أحد، الجامع لسائر الأسماء {اللّهُ الّذِى خَلَقَكُمْ ثُمّ رَزَقَكُمْ}، {قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مّنَ السّمَاوَاتِ وَالارْضِا قُلِ اللّهُ}، {اللّهُ الخَلقَ ثُمّ يُعِيدُهُا}، و{مَن يَرْزُقُكُم مّنَ السّمَآءِ وَالارْض}، {مّعَ اللّهِ بَلْ} ؟"(٦).

وقوله تعالى: {مِن رِّزْقِ الله}[البقرة:٦٠]، يحتمل وجهين من التفسير(٧):

الأول: يريد به ما رزقهم الله من المن والسلوى وماء العيون، "فهذا كلّه من رزق الله الذي بلا مشقة ولا مؤنة ولا تبعة"(٨).

والثاني: قيل الماء وحده، لأنه يشرب ويؤكل مما ينبت به.

قال أبو حيان:" وهذا القول يكون فيه من رزق الله، يجمع فيه بين الحقيقة والمجاز، لأن الشرب من الماء حقيقة، والأكل لا يكون إلا مما نشأ من الماء، لا أن الأكل من الماء حقيقة"(٩).

قلت والوجه الأخير، وإن كان معناه صحيحاً، إلا أن فيه تكلف لسنا بحاجة إليه، والله أعلم.

قال أبو حيان:" و(الرزق) هنا هو المرزوق، وهو الطعام من المن والسلوى، والمشروب من ماء العيون..وحمل الرزق على القدر المشترك بين الطعام والماء أولى من هذا القول"(١٠).

قوله تعالى:{وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأرض مُفْسِدِينَ} [البقرة:٦٠]، "أي: ولا تطغوا في الأرض بأنواع البغي والفساد"(١١).

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم(٦٠٥):ص١٢٢/١.
(٢) تفسير الطبري: ٢/ ١٢٢.
(٣) صفوة التفاسير: ٥٤/١.
(٤) تفسير الثلبي: ٢٠٤/١.
(٥) تفسير المراغي: ١٣٠/١.
(٦) البحر الحيط: ١٩٥/١.
(٧) أنظر: البحر المحيط: ٩٤/١، وتفسير البيضاوي: ٨٣/١.
(٨) تفسير الثعلبي: ٢٠٤/١.
(٩) البحر المحيط: ١٩٤/١.
(١٠) البحر المحيط: ١٩٤/١.
(١١) صفوة التفاسير: ٥٤/١.

قال أبو العالية: " يقول:لا تسعوا في الأرض فسادا"[١]. وروي عن ابن عباس[٢]، وقتادة[٣]، وابن زيد[٤]، نحو ذلك.

وقال أبو مالك: " يعني: لا تمشوا بالمعاصي"[٥].

قال الطبري: أي" لا تطغوا، ولا تسعوا في الأرض مفسدين"[٦].

قال ابن كثير: أي" ولا تقابلوا النعم بالعصيان فتسلبوها"[٧].

قال البيضاوي: أي:" لا تعتدوا حال إفسادكم، وإنما قيده لأنه وإن غلب في الفساد قد يكون منه ما ليس بفساد، كمقابلة الظالم المعتدي بفعله، ومنه ما يتضمن صلاحاً راجحاً كقتل الخضر عليه السلام الغلام وخرقه السفينة، ويقرب منه العيث غير أنه يغلب فيما يدرك حساً، ومن أنكر أمثال هذه المعجزات فلغاية جهله بالله وقلة تدبره في عجائب صنعه، فإنه لما أمكن أن يكون من الأحجار ما يحلق الشعر وينفر عن الخل ويجذب الحديد، لم يمتنع أن يخلق الله حجراً يسخره لجذب الماء من تحت الأرض، أو لجذب الهواء من الجوانب ويصيره ماء بقوة التبريد ونحو ذلك"[٨].

و(العيث) : شدة الفساد، نهاهم عن ذلك، يقال : عث يعث عثيا وعثا يعثو عثوا، وعاث يعيث عيثا وعيوثا ومعاثا والأول لغة القرآن"[٩]، ومنه رؤبة بن العجاج[١٠]:

وعاث فينا مستحل عائث ... مُصَدِّق أو تاجر مقاعث

يعني بقوله : " عاث فينا "، أفسد فينا، ويقال : "عث يعث في المضاعف أفسد ومنه العثة، وهي السوسة التي تلحس الصوف"[١١].

ومنه قول ابن الرّقاع[١٢]:

لولا الحياء وأنّ رأسي قد عثا ... فيه المشيب لزرت أمّ القاسم

و"العِثي" معناه الإسراع في الإفساد؛ والإفساد في الأرض يكون بالمعاصي، كما قال الله تعالى: {ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون} [الروم: ٤١]"[١٣].

وقوله تعالى:{فِي الأرض مُفْسِدِينَ} [البقرة:٦٠]، " الجمهور على أنها أرض التيه، ويجوز أن يريدها وغيرها مما قدر أن يوصلوا إليها فينالها فسادهم، ويجوز أن يريد الأرضين كلها. وأل : لاستغراق الجنس. ويكون فسادهم فيها من جهة أن كثرة العصيان والإصرار على المخالفات والبطر يؤذن بانقطاع الغيث وقحط البلاد ونزع البركات، وذلك انتقام يعم الأرض بالفساد"[١٤].

---

(١) أخرجه الطبري(١٠٥٠):ص١٢٣/٢.

(٢) أنظر: تفسير الطبري(١٠٥٣):ص١٢٣/٢.

(٣) أخرجه الطبري(١٠٥٢):ص١٢٣/٢.

(٤)أخرجه الطبري(١٠٥١):ص١٢٣/٢.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(٦٠٨):ص١٢٢/١.

(٦) تفسير الطبري: ١٢٣/٢.

(٧) تفسير ابن كثير: ٢٧٨/١.

(٨) تفسير البيضاوي: ٨٣/١.

(٩) تفسير القرطبي: ٤٢١/١.

(١٠)ديوانه " ٣٠ . مستحل : قد استحل أموالهم واستباحها . والمصدق : هو العامل الذي يقبض زكاة أموال الناس ، وهو وكيل الفقراء في القبض ، وله أن يتصرف لهم بما يؤديه إليه اجتهاده ، فربما جار إذا لم يكن من أهل الورع . قعث الشيء يقعثه : استأصله واستوعبه . وقعثه فانقعث : إذا قلعه من أصله فانقلع . ولم تذكر معاجم اللغة : " قاعث فهو مقاعث " ، ولكنه لما أراد أن التاجر يأتي بظلمه وجوره وإغلائه السعر ، فيستأصل أموال الناس ويقتلعها ، والناس يدافعونه عن أموالهم - اشتق له من المفاعلة التي تكون بين اثنين : " قاعث فهو مقاعث " ، أي يحاول استئصال أموال الناس ، والناس يدافعونه عن أموالهم.

(١١) تفسير القرطبي: ٤٢١/١.

(١٢) البيت من شواهد الثعلبي: ٢٠٤/١، وزاد المسير: ٢/ ١٥٥.

(١٣) تفسير ابن عثيمين: ١١٨/١.

(١٤) البحر المحيط: ١٩٥/١.

وقد تعددت أقول أهل التفسير في معنى قوله تعالى: {وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ}[البقرة: ٦١]، على وجوه(١):
أحدها: ولا تسعوا في الأرض فسادا. قاله أبو العالية(٢)، وروي عن ابن عباس(٣)، نحو ذلك.
والثاني: لا تسيروا في الأرض مفسدين. قاله قتادة(٤).
والثالث: ولا تطغوا. قاله ابن زيد(٥).
والرابع: لا تتظالموا الشرب فيما بينكم، لأن كلّ سبط منكم قد جعل له شرب معلوم.
والخامس: لا تؤخروا الغذاء، فكانوا إذا أخروه فسد.
والسادس: وقيل : معناه لا تخالطوا المفسدين.
والسابع: وقيل : معناه لا تتمادوا في فسادكم.

وهذه الأقوال كلها قريب بعضها من بعض(٦)، ضمن المعنى الصحيح، ألا وهو عدم نشر الفساد في الأرض، يقال" عَثَا، إِذا نشر الشرّ وَالفَساد وَأَثار الخُبْث، فَهُو أَخَص مِنْ مُطْلَق الْإِفْسَاد وَذَلِك مَعَ كَوْن (مُفْسِدِينَ) حَالًا مِن ضمِير{تَعْثَوْا}"(٧).

قال أبو حيان:" واحتجت المعتزلة بهذه الآية على أن الرزق هو الحلال، لأن أقل درجات هذا الأمر أن يكون للإباحة، واقتضى أن يكون الرّزق مباحاً، فلو وجد رزق حرام لكان الرزق مباحاً وحراماً، وأنه غير جائز. والجواب : إن الرزق هنا ليس بعادم هذا أريد به المن والسلوى والماء المنفجر من الحجر، ولا يلزم من حلية معين مّا من أنواع الرّزق حلية جميع الرّزق، وفي هذه الآية دليل على جواز أكل الطيبات من الطعام، وشرب المستلذ من الشراب، والجمع بين اللونين والمطعومين، وكل ذلك بشرط الحل"(٨).

الفوائد:

١. من فوائد الآية: مشروعية الاستسقاء عند الحاجة إلى الماء؛ لأن موسى استسقى لقومه؛ وشرع من قبلنا شرع لنا إن لم يرد شرعنا بخلافه؛ فكيف وقد أتى بوفاقه؟! فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يستسقي في خطبة الجمعة(١)، ويستسقي في الصحراء على وجه معلوم(٢) .
٢. ومنها: أن السقيا كما تكون بالمطر النازل من السماء تكون في النابع من الأرض.
٣.ومنها: أن الله سبحانه وتعالى هو الملجأ للخلق؛ فهم إذا مسهم الضر يلجؤون إلى الله سبحانه وتعالى.
٤. ومنها: أن الرسل . عليهم الصلاة والسلام . كغيرهم في الافتقار إلى الله سبحانه وتعالى؛ فلا يقال: إن الرسل قادرون على كل شيء، وأنهم لا يصيبهم السوء.
٥.ومنها: رأفة موسى بقومه؛ لقوله تعالى: {وإذا استسقى موسى لقومه}.
٦. ومنها: أن الله سبحانه وتعالى قادر جواد؛ ولهذا أجاب الله تعالى دعاء موسى؛ لأن العاجز لا يسقي؛ والبخيل لا يعطي.
٧. ومنها: إثبات سمع الله سبحانه وتعالى، لقوله تعالى: {فقلنا}؛ لأن الفاء هنا للسببية؛ يعني: فلما استسقى موسى قلنا؛ فدل على أن الله سمع استسقاء موسى، فأجابه.

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٢/١٢٣-١٢٤.
(٢) أنظر: تفسير الطبري(١٠٥٠):ص٢/١٢٣.
(٣)أنظر: تفسير الطبري(١٠٥٣):ص٢/١٢٣.
(٤)أنظر: تفسير الطبري(١٠٥٢):ص٢/١٢٣.
(٥)أنظر: تفسير الطبري(١٠٥١):ص٢/١٢٣.
(٦) أنظر: البحر المحيط: ١/١٩٥.
(٧) تفسير المنار: ١/٢٧١.
(٨) البحر المحيط: ١/١٩٥.
(١) راجع البخاري ص٧٩، كتاب الاستسقاء، باب ٧: الاستسقاء في خطبة الجمعةن حديث رقم ١٠١٤؛ وصحيح مسلم ص٨١٧ – ٨١٨، كتاب صلاة الاستسقاء، باب ٢: الدعاء في الاستسقاء، حديث رقم ٢٠٧٨ [٨] ٨٩٧.
(٢) راجع البخاري ص٨٠، كتاب الاستسقاء، وراجع مسلماً ص٨١٧، كتاب صلاة الاستسقاء، باب ١: كتاب صلاة الاستسقاء حديث رقم ٢٠٧٢ [٣] ٨٩٤.

٨. . ومنها: كمال قدرة الله عزّ وجلّ، حيث إن موسى صلى الله عليه وسلم يضرب الحجر اليابس بالعصا، فيتفجر عيوناً؛ وهذا شيء لم تجر العادة بمثله؛ فهو دليل على قدرة الله عزّ وجلّ، وأنه ليس كما يزعم الطبائعيون بأنه طبيعة؛ إذ لو كانت الأمور بالطبيعة ما تغيرت، وبقيت على ما هي عليه.

٩. ومنها: الآية العظيمة في عصا موسى، حيث يضرب به الحجر، فيتفجر عيوناً مع أن الحجر صلب، ويابس؛ وقد وقع لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما هو أعظم، حيث أُتي إليه بإناء فيه ماء، فوضع يده فيه، فصار يفور من بين أصابعه كالعيون(٣) ؛ ووجه كونه أعظم: أنه ليس من عادة الإناء أن يتفجر عيوناً بخلاف الحجارة؛ فقد قال الله تعالى: {وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار} [البقرة: ٧٤] ؛ ووجه آخر: أن الإناء منفصل عن الأرض لا صلة له بها بخلاف الحجارة.

١٠. ومنها: حكمة الله سبحانه وتعالى بجعل هذا الماء المتفجر اثنتي عشرة عيناً؛ لفائدتين:

الفائدة الأولى: السعة على بني إسرائيل؛ لأنه لو كان عيناً واحدة لحصلت مشقة الزحام.

الفائدة الثانية: الابتعاد عن العداوة، والبغضاء بينهم؛ لأنهم كانوا اثنتي عشرة أسباطاً؛ فلو كانوا جُمعوا في مكان واحد مع الضيق، والحاجة إلى الماء لحصل بينهم نزاع شديد؛ وربما يؤدي إلى القتال؛ فهذا من رحمة الله . تبارك وتعالى . ببني إسرائيل، حيث فجره اثنتي عشرة عيناً، ولهذا أشار الله سبحانه وتعالى إلى هذه النعمة بقوله: {قد علم كل أناس مشربهم}: كل أناس من بني إسرائيل.

١١. من فوائد الآية: أن الله سبحانه وتعالى يذكّر بني إسرائيل بهذه النعم العظيمة لأجل أن يقوموا بالشكر؛ ولهذا قال تعالى: (كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين)

١٢. ومنها: أن ما خلق الله تعالى من المأكول، والمشروب للإنسان فالأصل فيه الإباحة، والحل؛ لأن الأمر للإباحة؛ فما أخرج الله تعالى لنا من الأرض، أو أنزل من السماء فالأصل فيه الحل؛ فمن نازع في حل شيء منه فعليه الدليل؛ فالعبادات الأصل فيها الحظر؛ وأما المعاملات، والانتفاعات بما خلق الله فالأصل فيها الحل، والإباحة.

١٣. ومنها: تحريم الإفساد في الأرض؛ لقوله تعالى: {ولا تعثوا في الأرض مفسدين}؛ والأصل في النهي التحريم.

نسأله سبحانه وتعالى أن يوفقنا لمرضاته ويجعلنا من الفائزين بجناته، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

انتهى الجزء الثاني من التفسير بفضل من الله وإحسان، ويليه الجزء الثالث بإذن الله تعالى وبدايته تفسير الآية (٦١) من سورة «البقرة».

(٣) راجع البخاري ص١٩، كتاب الطهارة، باب الوضوء في التور، حديث رقم ٢٠٠.